الدكتور سمير الطائي

العنف السياسي في بلاد الرافدين

دراسة في جذوره التاريخية



العنف السياسي في بلاد الرافدين

(الجزء الأول)

العنف السياسي في بلاد الرافدين

دراسة في جذوره التاريخية

د. سمير الطائي

٢٠٠٩

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2008/6/1851)

956.3

الطائي ، سمير .

العنف السياسي في بلاد الرافدين / سمير الحلو الطائي . عمان: دار دجلة 2008.

( ) ص

ر.أ: (2008/6/1851).

الواصفات:/ العنف السياسي // العراق // تاريخ العراق /

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

978-9957-71-033-0:ISPN



المملكة الأردنية الهاشمية

عمان- شارع الملك حسين- مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 0096264647550

خلوي: 00962795265767

ص. ب: 712773 عمان 11171- الأردن

جمهورية العراق

بغداد- شارع السعدون- عمارة فاطمة

تلفاكس: 0096418170792

خلوي: 009647702152755

خلوي: 009647705855603

خلوي: 009647902225549

E-mail: dardjlah@ yahoo.com

الجزء الأول

من العصور القديمة إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين

الإهداء

الى الشعب العراقي

الى الشعب العربي في كل مكان.

المحتويات

المقدمة

لاشك ان ماحدث في العراق من تغيير سياسي منذ نيسان 2003، افرز العديد من الحقائق والتساؤلات حول الاحداث والاوضاع التي اعقبت ذلك التغيير، والتي لم تكن في الحساب بتقدير المتفائلين على الاقل، ممن كانوا يعتقدون ولهم الحق في ذلك ان مجرد زوال النظام الدكتاتوري العدواني وبأي طريقة كانت، من شأنها ان تعيد البلاد الى وضعها الطبيعي اللائق بين دول العالم، لما تمتلكه من ثروات وامكانات وطاقات في جميع النواحي. خاصة وأن العراق كان موطن اول الحضارات في العالم حيث بدأ التاريخ من سومر من خلال اكتشاف الكتابة، وبعد كل ذلك الظلم والقهر الذي تكبده، وعانى منه الشعب العراقي بمختلف فئاته وطوائفه وقومياته.

لكن واقع الحال كان غير ذلك التوقع، وحصل مالم يخطر ببال الكثيرين، فأن اعمال السلب والنهب والحرائق وتحطيم البنى التحتية للبلاد، وماتلاها من مسلسل القتل والاغتيال والدمار والاساليب الوحشية المتبعة في تنفيذ تلك الاعمال، قد اصبح امراً يفوق التفسيرات البسيطة التي يطلقها البعض، والتي تصب في مجملها بأن هناك اخطاء مورست من قبل الأمريكان والحلفاء والقوى الوطنية العراقية التي تولت زمام الامور، او وجود تدخل خارجي لأفشال مشروع الاصلاح، او مايعتقد البعض بوجود مايسمى بنظرية المؤامرة وغير ذلك من التفسيرات التي قد يكون قسم منها صحيحاً لحد ما وفي جوانب معينة، ولكنها لاترتقي للوصول الى الاسباب الحقيقية بعمق وتفسير فلسفي يأخذ جميع جوانب المشكلة بنظر الاعتبار

لاشك في ان هناك امثلة عديدة حصلت في مناطق اخرى من العالم من خلال حصول تغيرات مماثلة، ولكن ليست بالحدة والحجم الذي حصل في العراق ولايزال يعيش معنا يومياً رغم الخطوات التي تقدمت بها العملية السياسية لحد الان.

لذلك فقد دعت الحاجة للمزيد من الدراسات والبحث والتقصي العلمي الدقيق من اجل زيادة المعرفة عن طبيعة المجتمع العراقي، ومحاولة الاقتراب من فهم مايدور ببال الفرد العراقي والعربي، هذا الفهم

الذي يقود بالنتيجة الى معرفة الاسباب المؤثرة في سلوك الانسان الرافديني خاصة والانسان العربي عموماً. وبأعتقادي ان اول ما يمكن البدء به هو العودة لتقليب صفحات الماضي ودراسة المواريث التاريخية المؤثرة، والتي تبعث موجاتها في عقل الانسان لتتحكم في سلوكه وتصرفاته وفهمه لما يدور حوله. ومن اجل ذلك لابد من العودة لألقاء ضوء بسيط على الظروف والاحداث المهمة والمؤثرة التي مرت على البلاد والتي القت بضلالها في رسم سلوك وعادات ومفاهيم وخلفت ورائها مجتمع أسير لماضيه، لما لتلك الاحداث من اهمية في توارثها داخل العقل الباطن، تبرز وتنشط في سلوكه ونمط حياته كلما سنحت الفرصه لها بالظهور

ان دراسة المواريث التاريخية يعتبر احد الجوانب الهامة في فهم الانسان العراقي من جميع الاتجاهات والتي تهدف بالنتيجة الى وضع الخطط الستراتيجية الناجحة من قبل المسئولين ومن اجل الوصول بالبلد الى بر الامان والازدهار، وتعويض ما فاتنا من فرص العيش الرغيد، من خلال السير في ركب الحضارة الحديثة اسوة ببقية دول العالم، والذي اصبح عبارة عن قرية صغيرة لا يمكن الانعزال عنها، او وضع حواجز من شأنها ان تبقينا نعيش في عصر متأخر غير العصر الذي نحن فيه الان. كما يحلم بعض المتشددين والمتعصبين في ذلك للأسف الشديد. وهنا تبرز اهمية العودة لتقليب الماضي من اجل فهم هؤلاء المتشددين ونظريتهم المقاومة للتغير، ويساعد في كيفية التعامل معهم بأقل خسارة.

لقد كان يظن الكثيرون ان ماحصل في العراق في الماضي القريب هو مجرد نتيجة عرضية لأخطاء حصلت في الفترة القريبة الماضية، فقد قدر البعض ان الانتكاسة كانت قد بدءت منذ تسلم البعث للسلطة، بينما يذهب اخرون الى انها بدءت بالانقلابات العسكريه منذ عام 1958 وذهب اخرون الى انها بدءت منذ نشوء الدولة العراقية الحديثة عام 1921 وقال اخرون انها بدءت بأول انقلاب عسكري لبكر صدقي عام 1936 في العهد الملكي، فيما ذهب اخرون الى ابعد من كل ذلك، أذ انهم قالوا ان السبب في ما نعاني منه يرجع الى بداية وضع الحجر الاساسي للدولة الاسلامية في القرن السابع الميلادي، وهكذا بدأنا نبتعد شيئا فشيئاً في التوغل في الماضي من اجل اكتشاف الاسس الخاطئة التي قادتنا الى مانحن عليه الان.

ومن اجل الاجابة على السؤال الكبير وهو لماذا سبقونا؟. ولم يسبقنا الغرب فحسب بل سبقنا الغرب والشرق والشمال والجنوب والدول المحيطة بنا.

إنه امر مؤسف ولكن لابد من فهم الاسباب الحقيقية اولاً، لكي يسهل وضع الحلول الناجحة والخروج من هذا الوضع المزري تماماً.

ومن اجل معرفة المؤثرات الحقيقية لابد لنا من مراجعة تاريخية منذ بدأ الانسان في العيش في هذه المنطقة ومنذ ان نشأت اول حضارة كانت الأساس في حضارات البشريه جمعاء.

ان كل حقبة تاريخية تقودنا لتقليب حقبة ابعد من خلال تسلسل المواريث المؤثرة في نتائج ماحصل في كل مرحلة. لذلك توجب علينا مراجعة تأريخنا بأكمله.

وعلى الرغم من ان مثل هذه الدراسة تحتاج الى جهود كبيرة من قبل معاهد متخصصة لهذا الغرض، الا ان ذلك لايمنع من محاولة الاقتراب من دراسة اولية للمواريث التاريخية ابتداءاً من الحضارات القديمة. لذلك فقد تناول هذا الجزء من الكتاب الذي يشمل اربعة فصول متواضعة ومختصرة، الاول يخص المواريث التاريخية لحضارة وادي الرافدين القديمة بينما يشمل الفصل الثاني دراسة تاريخية متصلة لمنطقة الجزيرة العربية برمتها في عصر ماقبل الاسلام او مايسمى بالعصر الجاهلي. كما يشمل الفصلان الثالث والرابع عصر فجر الاسلام، بدءاً بالدعوة النبوية الشريفة وعصر الخلفاء الراشدين، كجزء اول من كتاب سوف يحوي الاجزاء الاخرى منه على دراسة المواريث التاريخية للعصور التي تلت ذلك.

ولا يمكن اعتبار الكتاب من الكتب التاريخية الصرفة، رغم سردنا لبعض الاحداث التاريخية بشكل تفصيلي خاصة في الفصلين الثالث والرابع، لأنني ببساطة لست مؤرخاً، ولكن لابد من الاعتماد على مصادر تاريخية موثوقه من اجل استنباط حقائق معينة تصب في خدمة الوصول الى فهم المواريث التاريخية المؤثرة في حياتنا في الوقت الحاضر.

أن ماتم التطرق اليه من احداث تاريخية يمكن اعتبارها بمثابة مقتطفات لعناوين تاريخية واسعة لامجال لتفصيلها هنا. وقد ركزنا بشكل خاص عن موروث العنف السياسي وترسيخ اشكال نظم الحكومات الشمولية ومنع الحريات وتأثير المعتقدات الدينية، بجانب المواريث

الاخرى التي تخص السلوك والنشاط الاجتماعي والاقتصادي وغيره. ومن اجل الوصول الى الحقيقة توخينا في طرحنا لبعض المواضيع الحساسة الموضوعية والصراحة، وما على القاريء الا ان يعود الى المصادر والمراجع المؤشرة للتأكد والاستدلال وللتوسع في استيعاب بعض المواضيع التي لم تأخذ حقها في الشرح المفصل لخفايا الاحداث التاريخية، والتي حاول بعض المؤرخون اخفائها او عدم الولوج في تفاصيلها. لقد كلفت هذه الدراسة جهداً كبيراً من خلال البحث والتقصي في العديد من المصادر التاريخية، وحاولنا صياغة بعض النتائج التي نأمل ان تنال اهتمام المختصين، وتفتح الشهية لهم للبدء في اغناء هذا الموضوع في زيادة التأليف والبحث للوصول الى فهم اوسع للأنسان العراقي والعربي عموماً.

ولابأس في نقد جميع ماوصلنا اليه بأسلوب موضوعي يصب بالنتيجة في الوصول الى الحقيقة، وبناء قاعدة معلومات تعيد النظر في الاحداث التاريخية المؤثرة على حياتنا في الوقت الحاضر.

اننا لسنا وحدنا في العالم من يمر بأزمات ومحن عصيبة فقد حصلت تجارب عالمية عديدة، قد تكون اكثر مرارة عما يجري عندنا، وقد تم التغلب عليها وتجاوزها، وذلك من خلال زيادة فهم المجتمعات لمشكلاتها من جميع الجوانب. لذا علينا ان نأخذ بنظر الاعتبار كل تلك التجارب وان نفكر بعمق بعد قراءة كل المعطيات المتوفرة للوصول الى حلول بعد كل هذه المخاضة الصعبة التي يمر بها الشعب العراقي ولايزال يعاني منها الى هذا اليوم، ولابد لنا من البدأ في تعريف اهم المصطلحات التي نريد معالجتها في الدراسة لتحديد مانهدف اليه عند اطلاقنا لكل مصطلح يرد وكما يلي: -

الموروث التاريخي:

انه كل ماهو عالق في اذهان الناس من احداث مؤثرة بشكل ملحوظ وماتنتج عنها من افكار عبر فترات زمنية طويلة في تاريخ المجتمع الأنساني، والتي قد تمتد الى تاريخ قديم جداً. اذ ان سلوك وعادات الانسان لما قبل ظهور التاريخ (قبل الكتابة)، قد تكون مطبوعة في عقل الانسان والتي ترجع لممارسات كانت اعتيادية لديه، عندما كان يعيش في الكهوف والغابات. ولاتزال تمارس بشكل أو بأخر دون الانتباه الى جذورها

التاريخية ونشأتها الأولى بالتحديد. ان السلوك والعادات المطبوعة في عقل الأنسان منذ القدم تصبح جزءاً من كيانه الحالي، وتكون في الغالب محدده لسلوكه وطريقة تفكيره، وتعامله مع محيطه الحالي لحد كبير. ومن بين ذلك ماهو سلبي وأيجابي، ومايهمنا هنا هو الموروث السلبي لدينا من أجل الوصول الى معالجته، واهم موروث سلبي لدينا هو موروث العنف السياسي.

العنف السياسي: -

هو الوسيلة القسرية التي تفرض رأي او حل أو موقف موحد. وهو يجسد التطرف الفكري والمثالية العقائدية في منطق" الاعتقاد الجازم" لكل طرف بأنه هو صاحب" الحق المطلق" دون غيره من الناس. وهو بهذا المعنى يقوم بإلغاء حق الغير او الغاء وجوده كليا. ويتراوح في مداه مابين التعذيب النفسي بما في ذلك الوعيد والتهديد وأستخدام لغة الشتيمة وتحقير الغير. وبين التعذيب الجسدي بدءاً بالضرب ولغاية القتل بأشكالة المختلفة. وتعتمد درجة الميل نحو التنازع او التعاون في اطار المجتمع الواحد على مدى تطوره الحضاري او بعبارة اخرى درجة تطور عقله، فأن نمو وتطور العقل البشري عبر التاريخ يأتي بالدرجه الاساس في تحديد سلوك ذلك المجتمع في كل مرحلة من مراحل التاريخ المختلفة. ولايمكن تجاهل حجم هذا التطور الناجم عن سلسلة المعطيات والظروف المحيطة بذلك المجتمع. أن درجة تطور العقل البشري هذه تعتمد على عوامل عديدة لامجال لذكرها هنا، الا ان المهم هو ضرورة الأخذ بنظر الاعتبار درجة النضج الذي وصل اليها العقل البشري في كل حقبه تاريخية وفي كل مجتمع.

صفة التنازع البشري: تجد صفة التنازع بين البشر منطقها في ثلاثة امور...

اولا: الحاجات البشرية الانهائية.
ثانيا: الموراد البشرية المحدودة.
ثالثا: أختلاف العوامل الوراثية والبيئة المناخية المكونة لشخصية الفرد والمجتمع.

من هنا تأتي اهمية دراسة الموروث التاريخي للمجتمع وبالذات لأنسان بلاد وادي الرافدين في لعب دوره الاساسي في سلوكه المتسم بالعنف السياسي المتأصل. لقد أصبح العنف السياسي هوالسمة المتأصله لدينا ان رضينا أم ابينا. ولابد من زيادة الفهم لتاريخ وجذور تلك الصفة

من اجل الوصول الى معالجات ناجحة. لقد اصبحت حالة العنف السياسي متميزة تجسدت بأعلى درجاتها في العراق عبر فترات زمنية طويلة كانت ابرزها فترة حكم الحزب الواحد والفرد الواحد الماضية، حيث كانت أعنف فترة مرت بكل تاريخ العراق القديم والحديث ومن أجل معرفة ذلك لابد لنا من عمل زيارة سريعة للتاريخ القديم والحديث. بقدر يكفي لزيادة فهمنا لظاهرة العنف السياسي في العراق اولاً، وتوفير وألقاء الضوء على سلوك وعادات وتقاليد إنسان وادي الرافدين القديمة ثانياً.

الفصل الأول

تاريخ حضارة
وادي الرافدين القديمة

الفصل الأول

تاريخ حضارة وادي الرافدين القديمة

1- المعالم الفنية: -

يقصد بالحضارة القديمة لبلاد وادي الرافدين تلك الفترة الممتدة منذ عصر فجر السلالات الثلاثِ قبل ان تبدأ من 3000 سنه ق.م وبعد عصور ماقبل التاريخ (أي ماقبل الكتابة) ولغاية سقوط بابل عام 480 ق.م تقريباً.

نتناول بأختصار الجوانب الفنية المؤثرة وذات المعالم الواضحة في موضوع بحثنا عن المواريث التاريخية لسكان المنطقة. لقد تركت حضارة وادي الرافدين آثارها على الحضارات البشرية اللاحقة والمعاصرة، فكان سكان وادي الرافدين من الاوائل الذين اكتشفوا الزراعه[1]، والكتابة، ووضعوا اسس الرياضيات وعلم الفلك وتوصلوا الى نظرية فيثاغورس الاغريقي قبل توصله اليها بعدد من السنين. وصنعوا الفخار وأدوات البناء، وكانت لديهم صناعة البرنز والذي سمي العصر بأسمه" العصر البرونزي" لما قدمه هذا المعدن من أدوات ومميزات خاصة في حياة الانسان مكنته في تذليل العديد من المعوقات التي كانت تواجهه قبل ذلك الاكتشاف. كما كانوا السباقين في اكتشاف واستخدام الخيول ومارسوا الفروسية، وبنوا أول مجتمع سياسي منظم (المدن السومرية والسامية والاكدية) والتي كانت تعرف بالدويلات السامية والسومرية الصغيرة والمتصارعة فيما بينهما في فترات زمنية معينة[2]. لقد كشفت الاثار التاريخية في كهوف المنطقة الشمالية الجبلية عن وجود الانسان القديم منذ زمن لا يقل عن 120 الف سنة حيث كانت هناك كهوف في منطقة كردستان العراق تحوي أثارا للأنسان القديم المتجول وغير المستقر في ذلك الحين. ومنذ اكثر من عشرة الاف سنه وبعد ان أخذ الانسان فن العيش في مناطق مكشوفة بدلا من الكهوف الضيقة، وبعد ان استطاع ان ينقل البشرية من عصرجمع القوت الى عصر انتاج القوت، واصبحت

---

(1) طه باقر"" مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة"، بغداد، 1986، 32.

(2) طه باقر المصدر نفسه 195-197، 236-243.

كردستان العراق بؤرة الثورة الزراعية القديمة[1]، كما فعل ذلك قدماء السومريين في الجنوب، ومع انتشار القرى الزراعية في بلاد وادي الرافدين.

لقد بدأ الأستيطان في الجنوب بحدود5000 – 6000 سنة ق.م وبرزت جهود الاوائل ممن استوطنوا السهل الرسوبي بتحويل بيئة وحشية من الاهوار والمستنقعات والاحراش والبادية الجرداء الى بيئة زراعية مروية ومعطاء، بحيث ان هذه المنطقة شخصت في التوراة بجنة عدن، وذكر فيها النهرين التوأمين دجلة والفرات ضمن اربعة انهار تنبع في الجنة، وذلك من خلال ماكان يدور في ذهن الأنسان في ذلك العصر من مثالية العيش على ضفاف هذين النهرين[2] ولابد من الاشارة هنا الى ان اكتشاف حبة الشعير والقمح في بلاد وادي الرافدين كانت تعتبر طفرة كبيرة في حياة البشرية، لما لعبته من دور فعال في استقرار ذهن الانسان وتكوينه للمجتمعات المدنية الصغيرة التي تعرف بالمدن. ولما تشكله تلك الحبة من قابلية على الخزن لمدة طويلة من الزمن دون الحاجة الى التنقل وترك مكان العيش يومياً الى مكانات اخرى بحثاً عن لقمة العيش التي تحقق له البقاء والمحافظة على وجوده في هذه الدنيا، وبالتالي فقد استطاع الانسان من خلال ذلك الاكتشاف ان يستقر ويفكر بتنظيم حياته وحياة عائلته ومجتمعه البسيط ضمن الاسرة والعشيرة ثم تطورت بعدها الى القبيلة المكونة من عدد من العشائر وهكذا ليشمل المدينة. ان عملية التحضر والمدنية لم تأتي جزافاً بل كانت نتيجة لتأمين الحاجة الاساسية للأنسان وهي الغذاء، والذي يستطيع من خلالها التفرغ للتفكير بالأمور الحضارية الاخرى بعد استقراره وشعوره بالأمان من خلال خزنه لمؤونة الغد. ولابد من الأشارة هنا ايضاً الى حضارات أخرى نشأت في اجزاء اخرى من العالم فقد كان أكتشاف حبة القمح في مصر سبباً لنشوء حضارة وادي النيل، وحبة الرز في الصين والذرة في مكانات أخرى وهكذا. وقد انتقلت وتمازجت الحضارات الانسانية القديمة في كافة ارجاء المعمورة بعد حصول الانسان على الاستقرار والأطمئنان على موارده

---

(1) جورج رو" العراق القديم" ترجمة حسين علوان حسين دار الشؤون الثقافية العامة/ الطبعة الثانية بغداد، 1986، 29 تفي الدباغ حضارة العراق، ج1 30.

(2) وليم ويلكوكس" من جنة عدن الى عبور نهر الأردن" ترجمة محمد الهاشمي.

الغذائية اولاً. لقد برزت جهود الأوائل من السومريين في الزراعة والموارد الاساسية التي بنوا عليها حضارتهم في منطقة مابين النهرين (دجلة والفرات) من خلال توفير الماء والارض الخصبة والشمس وفي ظروف الأفتقار الى مواد الحضارة الأخرى من اخشاب واحجار ومعادن، والذي دعى الى الحاجة لنمو الأعمال التجارية التي استمرت اهميتها لتشكل مجالاً حيوياً مهماً لنمو الحضارة التي عرفت فيما بعد بحضارة وادي الرافدين القديمة.

لقد نشأت الحاجة الى الأخشاب وتطورت التجارة بين بلاد الرافدين ومنطقة شرق البحر الأبيض المتوسط (سوريا، ولبنان وفلسطين حالياً) لتوفر الأخشاب لديهم وكانوا يبتدعون طرقاً عديدة في توصيل تلك الأخشاب الثقيلة إليهم ومبادلتها بمواد متوفرة لديهم.

كما نشأت وتطورت الحرف والصناعات بحكم نمو وأستقرار الأنسان في المدن بدلاً من السير والتجوال والخوف من الغد وتوفير وتأمين حصوله على قوته اليومي، كما كان يفعل الأنسان القديم غير المتحضر قبل اكتشافه الزراعة، وبالأخص زراعة الحبوب القابلة للخزن وعدم تعرضها الى التعفن والتلف لفترة طويلة من الزمن أو لموسم كامل على الأقل.

وكما يقول الأثاريون أن المدينة لم تبدأ في التاريخ الا بعد مااكتشف الانسان الزراعة. فقد كان الانسان قبل ذلك يلتقط القوت من الشجر او يقتنصه من على الأرض، وكان متجولاً لا يعرف الاستقرار.

أن زراعة الحبوب تحتاج الى تدبير خطة وانتظار وأدخار. فالزارع يعمل في يومه ويأمل ان يحصد لغده. وهو مضطر أن يصلح الارض ويشق الترع ويحرث ويبذر ويروي ويحصد ويجمع ويخزن الحبوب في مكان آمن. وهو بالتالي يحتاج الى ان يفكر في الغد ويستعد لهذا الغد، وكذلك اصبح مضطراً لبناء المساكن ودراسة الفلك لكي يزرع بالمواسم الملائمة للزرع ويحصد في الوقت المناسب للحصاد وهكذا...

وقد بدأ في اختراع الكتابة فالزراعة تدعو الى الاستقرار في الارض والأستقرار يؤدي الى بناء بيت دائم، وهذا البيت يحتاج الى تسجيل حساباته المعقده لئلا ينساها، والى ضبط ديونه لئلا تنكر، وهي تدفع الى مراقبة النجوم والشمس والقمر لكي يضبط بها مواسم البذر

والحصاد وما الى ذلك[1]. وكل هذه الأمور تؤدي بالنتيجة الى دفع الانسان نحو أتقان العلوم والفنون بشتى انواعها وهكذا نجد ان السلسلة في بناء الحضارة في بلاد وادي الرافدين لم تكن بناءا على رغبة الجماعة او لكي يكونوا متميزين عن غيرهم في مناطق اخرى، ولكي نقول عنهم بعد الاف السنين كم كانوا عظماء؟ ان خطوات نشوء الحضارة التي بدءت بالزراعة وتبعتها الحاجة الى المعرفة بالهندسة والحساب والفلك والحاجه الى التدوين والمحافظة على ماهو مكتوب بالفخار والتزجيج قد ساق الانسان خطوة اخرى الى الأمام نحو الفلسفة والتي تؤدي بدورها الى الشك والتساؤل والقلق. لقد استقر السومريون قبل حوالي 3500 سنه ق.م في المنطقة الجنوبية من وادي الرافدين [2] وكونوا لهم حضارة عريقة تعرف بالحضارة السومرية وكان اشهر مافيها الكتابة المسمارية والفخار حيث كانت تكتب على صفائح من الأطيان الناعمة جداً، والتي كانت متوفرة في المنطقة الرسوبية الناجمة عن تراكم الأطيان بعد ترسبها ايام الفيضان لدجلة والفرات، وكانت تستخدم طريقة في الحفر بألة حادة مثلثة الشكل من الحجر الصلب عرفت الكتابة بأسمها وأطلق عليها اسم الكتابة المسمارية نسبة الى المثلث الحاد المستخدم في الأداء [3] ويفخر الطين بعد ذلك ليبقى الحفر عليه ثابتاً.

إن اكتشاف الكتابة لم تكن بين ليلة وضحاها بل مرت بأدوار عديدة وبمئات السنين فقد ظهرت في بادئ الأمر على هيئة صور رمزية ولا صوتية. ولقد سميت الحقبة التي شهدت ظهور الكتابة في مراحلها الأولى بـ "الدور الشبيه بالكتابي" وهو دور يتميز بكون الكتابة في أطوارها الأولى ومحدودية استعمالها وانتشارها، وقد أطلق المختصون بالمسماريات تعبير "النصوص البدائية" "**Prim Archaic**" على رقع الطين التي تعود إلى هذا الدور الممتد من 3000- 2600 ق. م[4].

لقد مرت الكتابة في هذا الدور (الشبيه بالكتابي) بثلاثة مراحل مهمة من التطور هي:

---

(1) عبد الوهاب حميد رشيد" حضارة وادي الرافدين" دار المدى للثقافة والنشر 2004 سوريا دشمق، ص 35.

(2) طه باقر" مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة" ص 236-241.

(3) عبد الوهاب حميد رشيد حضارة وادي الرافدين ص 112.

(4) فاضل عبد الواحد علي- العراق في التاريخ- الفصل التاسع ص 272

(1) الطور الصوري: أي التعبير عن الشيء برسم الصورة المصغرة له.
(2) الطور الرمزي: أي استنباط معاني جانبية من صورة الأصل كاستخدام العلامة الدالة على الشمس للتعبير عن معان ومشتقات كل ما هو مضيء منها مثلاً (لامع، ساطع، مشرق) وبالمثل التعبير عن كلمة يوم لأن شروق الشمس وغروبها يمثلان يوماً.
(3) الطور الصوتي: وفيه استخدمت العلامة ليس من أجل معناها الصوري أو الرمزيَ وإنما من أجل صوتها فقط. وبهذه الوسيلة أمكن كتابة أسماء الأعلام والأشياء على هيئة مقاطع صورته.

وقد صاحب هذه التغييرات في مدلول العلامات تغييرات في الشكل أيضاً. إذ أخذت العلامات تفقد شكلها الصوري بصورة تدريجية نتيجة عوامل عديدة لعل من أبرزها أن المادة المستعملة للكتابة، وهي الطين غير ملائمة لرسم صورة الأشياء، ولكنها ملائمة جداً لكتابة العلامات بشكل خطوط مستقيمة، وذلك بضغط رأس القلم قليلاً على وجه الرقيم. وبذلك صارت العلامات تتكون من خطوط مستقيمة أفقية وعمودية ومن زوايا مائلة. كما أن القلم المثلث أعطى هذه الخطوط رؤوساً تشبه المسامير، ثم أن عدم توصل سكان بلاد وادي الرافدين إلى الكتابة الهجائية كان عاملاً معوّقاً اضطرهم إلى استخدام أعداد كبيرة جداً من العلامات المسمارية. وقد بلغ عددها في العصور الأولى من تاريخ الكتابة ما يزيد على 3000علامة، ولكنها لم تلبث أن اختزلت بمرور الزمن حتى أصبحت في نهاية عصر فجر السلالات الثاني (2600ق. م) في حدود 800علامة فقط. وقد انتشر الخط المسماري وصار وسيلة للتدوين في منطقة سومر وأكد وحتى خارج حدود بلاد الرافدين، مما أوجد روابط وثيقة في نقل كثير من المفاهيم والمعتقدات الدينية والنتاجات الأدبية والثقافية، وكان أعظم إنجاز حضاري قدمته بلاد الرافدين في تاريخها القديم، أفادت منه شعوب الشرق الأدنى عموماً الذي كانت لديه أقدم وسائل

التدوين التي توصل إليها الإنسان للحفاظ على تاريخه وتراثه ومنجزاته.

ويجدر الإشارة هنا إلى أن الخط المسماري في بلاد الرافدين قد استعمل في تدوين لغتين أساسيتين هما : (1) اللغة السومرية: وهي لغة ظلت محكية في بلاد سومر وأكد ثم استبدلت بعد سنة 2006 ق. م إلى اللغة البابلية التي كانت لغة الآموريين حكام البلاد الجدد. وأخذت السومرية بالاضمحلال تدريجياً كلغة محكية في المجتمع بعد هذا التاريخ. (2) اللغة الأكدية وفروعها البابلية والآشورية: وتمثل الفرع الشرقي من لغات الجزيرة في حين كانت الكنعانية والعبرانية والفنيقية والآرامية تمثل الفرع الغربي منها.

ويمكن الرجوع إلى المصادر المختصة في مجال نشأة اللغات للمزيد من المعلومات عن كيفية انتقال اللغة إلى بقية البلدان ومنها الأوروبية من خلال الانتقال بمراحل اللغة اللاتينية وهناك العديد من المفردات لا زالت متشابهة ما بين تلك اللغات. (انظر طه باقر- من تراثنا اللغوي القديم- كذلك لمحات من تراث حضارة وادي الرافدين في الحضارة اليونانية (1980)).

وهكذا تم معرفة الكثير عن التاريخ القديم من خلال تلك اللوحات المفخورة والتي تم العثور عليها ضمن الاثار المكتشفة، ومكنت من ثروة كبيره في استعادة ومعرفة اصل الحضارة عبر القرون.

ان من بين تلك المعلومات كانت القوانين والمعارف السائدة في ذلك الحين ومن بين المعلومات ايضا كانت قائمة بأسماء أصباغ والوان ملابس كانت تستخدم للنساء مما يدل على انهم استخدموا تلك الألوان لصباغة ملابسهم، وهناك ادلة من خلال العثور على ملابس وأزياء كانت مدفونة من قبل الملوك الذين كانوا يدفنون مع حاجاتهم في تلك القبور، والتي بقي جزء يسير جداً منها (**والتي استخدمت بطريقة الصدفة من قبل ملوك الفرس والذين جاءوا للمنطقه بعد فترة طويلة من الزمن، كما ورد ذلك في اقوال هيرودتس*[*] احد اشهرالكتاب الرومان الذين دونوا الكثير عن ترحالهم القديم**). وهذا دليل واضح على انهم صنعوا الآلات الحياكة

---

[*] هيرودتس- هو من مواليد إحدى المدن الساحلية على بحر أيجه الجنوبية في آسيا الصغرى (تركيا حاليا) والتي كانت تابعة للبيزنطيين (الإغريق) وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد وهو من أشهر ما كتب عن التاريخ القديم ودوّن في رحلاته لمنطقة الشرق الأوسط تعتبر من أشهر وأهم المصادر التاريخية لدى المؤرخين.

والخياطة وأكتشفوا الاصباغ الثابتة من أصل نباتي وحيواني لملابسهم[1]. كما ان من بين تلك القبور التي عثر عليها والتي كانت تابعة للملكة شبعات (**ملكة تدمر**) في الجانب السوري حيث كانت تحوي على جميع الذهب والقلائد الحمراء البراقة والملابس الصوفية الملونة بألوان متعددة، مما يدل على انهم استخدموا الصوف والكتان للأغراض الملبسية قبل اكتشاف القطن. ومن الأمور التي تستحق الذكر هنا هو أستخدام السومريين للصابون، فقد وجد في العراق وبالقرب من مدينة صغيرة كانت تعرف بأسم تيلو والتي تطورت بعدها في العصر البرونزي الى" مدينة لكش" لوحه مسمارية مفخورة يعود تاريخها الى ثلاثة الاف سنه ق.م تدل على استخدام السومريين للصابون. وتوجد هذه اللوحة الأن في المتحف التركي في اسطنبول. ان هذه اللوحه تعتبر من أقدم الأدله على حقيقة استخدام مادة الصابون. ومما يدل على انهم استخدموا الزيوت النباتية وخاصة زيت الزيتون وعرفوا مادة الصودا الكاوية المستخدمة في هذه الزيوت لأغراض صناعة الصابون كما تدل ايضاً على أنهم استخدموا مادة الصابون لأغراض مختلفة منها تنظيف الملابس مما يدل على انهم اكتشفوا الوان ثابتة لملابسهم بحيث تمكنهم من غسلها دون ان تفقد من شكلها ورونقها بعد الغسل، وهذا يتطلب ايضا اكتشاف طرق في تثبيت تلك الألوان على الملابس وذلك بأستخدام مواد كيميائية مساعدة لهذا الغرض.

لقد عرفت صناعة الصابون في بلاد الرافدين في حين لم تكن هناك دلائل واضحة لوجود مثل هذا الأستخدام في مناطق معروفة من العالم كاليونان.

فلا يوجد دليل على مثل هذا الأستخدام في حضارة الأغريق والرومان في تلك الفتره ولابد لنا من ذكر اكتشافهم للألات الموسيقية كالقانون والقيثارة التي اشتهرت فيما بعد وتوجد لها اثار في العديد من المناطق العالمية مما يدل على عمق حضارة وادي الرافدين وقدمها في العديد من المجالات. وفي حوالي عام 2700 ق.م اصبحت القبائل العامورية هي السائدة في تلك المنطقة والتي جعلت بابل عاصمة لها وكانت بابل مدينة صغيرة مطلة على نهر الفرات، والتي عرفت مملكتهم

(1) Bayer Farben Revue"Notes on the history of dyeing"No.8 (1965)

بالمملكه البابلية الأولى. وقد اتسعت بعد ذلك لتكون امبراطورية بابلية مشهورة لتشمل ضفتي كلا النهرين على يد الملك الكبير والمشهور بأسم حمورابي الذي عاش في الأعوام 1792-1750 ق.م[1]، ذلك الملك المشهور بمسلته المعروفة بكونها اشهر لائحة قانونية تشرع في التاريخ والمعروفة بمسلة حمورابي والمحفوظة الأن في متحف اللوفر بباريس (النسخة الأصلية) ولابد من الأشارة هنا الى انها ليست أول لائحة في التاريخ كما هو شائع، بل هناك لوائح اخرى قبله كما سيأتي ذكرها لاحقاً وجاء بعد ذلك اقوام اخرى كالكلدانيين والاموريين والاشوريين، والذين جاءوا من الشمال حيث كان عهداً اخراً من عهود أقامة حضارة عريقة تلت الحضارة البابلية الأولى. بينما أقام الأشوريين امبراطوريتهم في شمال العراق وبسطوا سيطرتهم على منطقة الشرق الأدنى برمتها بما في ذلك الشام وفلسطين وجزءاً من مصر في بعض الأحيان وأقاموا حضارة عريقة[2]،

وكان أشهر ملوكهم هو آشور بانيبال والمعروف لدى الأغريق بأسم" ساردونابولس". ان أشهر ما قام به هذا الملك هو تأسيسه لأول مكتبة في العالم وفي التاريخ القديم، التي كانت منظمة على اسس رصينة. لقد احتوت هذه المكتبة على عدد من المنحوتات المسمارية المجمعة على رفوف منتظمة مع لائحة بالمحتويات وقائمة المراجع. ان هذه المجموعة من اللوائح الفخارية المكتوبة بالخط المسماري المتداولة في لغة بلاد الرافدين تعد من اعظم ماحفظه التاريخ لنا من مادة مفيدة للأنسانية في العالم أجمع. لقد اكتشفت اكثر من 100.000 مخطوطة بعضها كان يعود في القدم الى 2000 سنه ق.م[3] ولاتزال الترجمات مستمرة الى يومنا هذا، لمجموعة من المخطوطات. لقد اشتهر الاشوريين ايضا بالثور المجنح، حيث كانت قصور ملوكهم تزين بالعديد من الثيران المجنحة الضخمة المنحوتة من الحجر الذي كان متوفراً في المنطقة وبأحجام كبيرة ايضاً،

بينما كان الكلدانيون وهم من الأقوام السامية في جنوب شرق بلاد الرافدين متحدين مع سكان منطقة الوسط وكان الساسانيين في الشرق (بلاد فارس) في صراع مع الاشوريين في الشمال، وقد تمت السيطره

---

(1) طه باقر، مقدمة في التاريخ... 481-482.
(2) طه باقر، المصدر السابق.. 406-430.
(3) Bayer Farben Revue. المصدر السابق.

على نينوى (العاصمة) في عام 606 ق.م حيث احتوت مناطق اواسط الفرات والجنوب على أمبراطورية بابل الثالثة وعاد البابليون الى مجدهم في حين بقي الشمال تحت حكم الاشوريين وملكهم ساكوريس [1]. لقد اصبحت أمبراطورية بابل الثالثة ذات اهمية كبيرة جداً أيام حكم الملك المشهور" نبوخذ نصر الثاني" الذي اشتهر بالعنف للأعوام بين 605-562 ق.م وأشتهر في برج بابل وبقيامه في حملات مشهورة ضد اليهود في فلسطين والمعروفة بالسبي البابلي وأسر منهم العديد، وجاء بهم الى بابل، وأستقر عدد منهم منذ ذلك الحين الى يومنا هذا بينما أعاد قسم منهم الى فلسطين على يد كورش احد ملوك الفرس (الأخمينيين) الذين استطاعوا احتلال بابل واجتياح المنطقة برمتها والى مصر. ومن ابرز ملامح الحضارة البابلية الباقية الى يومنا هذا هو طريق المعبد المؤدي الى قصر الملك الموجود حالياً في منطقة بابل. وكذلك باب عشتار والتي نقلت الى برلين ولاتزال موجودة هناك، وتعتبر دليلاً قاطعاً على مدى أنتشار أستخدام التصاميم الملونة في ذلك العصر. ويتميز التصميم المعماري المستخدم لدى الأمبراطورية البابلية الجديدة من خلال الأستخدامات الواسعة لألوان السيراميك المتنوعة في تزيين واجهات الأبنية الخارجية دليلاً على ماتوصل اليه القوم من فن في مجال صناعة الزجاج والسيراميك الملون. لقد ترك البابليين ارثاً ثقافياً وحضارياً واسعاً نقل الى مناطق عديدة من العالم لتنشأ حضارات اكثر غزارةً وتطوراً عن سابقاتها وكان من بينها الحضارة الأغريقية والرومانية أن من يتطلع في الاثار التاريخية لتلك الحضارات وحسب التدرج الزمني كما هو معروض في متاحف اثينا باليونان ومتاحف روما وغيرها يجد بوضوح ان اسلوب النحت والأدوات المستخدمه كانت في البداية مشابهة تماماً لما هو عليه الحال في بلاد الرافدين وحصل ان تطورت الى منحوتات أكثر تعقيداً ودقة بمرور الزمن وكأنها سلسلة واحده من عمل الجنس البشري الواحد. أن عمل الجنس البشري الموحد هذا لايمكن أن يتكامل ويبنى بناءاً فوقياً دون ان يتدرج في هيكل بناء فوقي موحد ومستند واحداً على الأخر.

وهكذا سقطت بابل على يد كورش كما ذكرنا وهو قائد الأمبراطورية الفارسية في الشرق وكان ذلك بحدود عام 480 ق.م[2] والذي استولى على كافة ارجاء منطقة الشرق الأدنى، وكانت سيطرة هذه

---

(1) عبد الوهاب حميد رشيد" حضارة وادي الرافدين" دار المدى، 2004، ص 79.

(2) فاضل عبد الواحد علي" من ألواح سومر الى الثوارة" دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية (2000)، ص 25.

الأمبراطورية قد استمرت الى القرن السابع الميلادي، اي إلى حد ظهور الأسلام وكان من بين اشهر ملوكهم سيروس وداريوس وكوركيوس وغيرهم. وكانت تلك الدوله في صراع دائم مع الأغريق، وقد جاء الأسكندر المقدوني الذي يعرف بالأسكندر الكبير ليسلك طريق الحرير نحو الشرق ليصل الى الهند، بعد أن أستكمل أحكامه على بلاد وادي النيل (مصر) وقد استطاع هذا القائد المشهور في التاريخ بقوته وجبروته ان يقهر الفرس وان يحتل المنطقة بأسرها في الفترة ما بين 356-323 ق.م. وقد اخذ الأغريق العديد من الغنائم من شتى انحاء الأمبراطورية الفارسية التي مروا بها وكان من بينها بابل التي لم تنجو من هذا الغزو ولكنهم استعادوا بعدها سيطرتهم عليها الا انها تقلصت هذه المرة لتشمل الجانب الشرقي من المنطقة فقط،

بينما بقي الجانب الغربي المطل على ساحل البحر الأبيض المتوسط تحت السيطرة البيزنطية (الإغريق)، وبقيت المعارك الدائرة بين الفرس والإغريق لفترات طويلة تارة يندحر فيها الفرس واخرى يندحر فيها الإغريق الى الخلف الى ان ضعفت الأمبراطوريتان في القرن السابع الميلادي بعد ظهور الأسلام على الساحة العالمية.

وأخيراً نقول ان المعالم الفنية لحضارة وادي الرافدين تزخر بها العديد من متاحف التاريخ القديم العالمية والعراقية، يمكن الرجوع اليها والى المراجع التفصيلية التي لامجال لنا هنا من الخوض في تفاصيلها ومعرفة مفرداتها بدقه.

2- الحياة الأجتماعية والقوانين والأفكار في بلاد وادي الرافدين: -

لقد أوجدت الزراعة متسعاً من الوقت للانسان لان يتأمل ويفكر وينظم حياته نحو الاحسن، وبالتالي فقد تطلب نمو المجتمع وتعقد الحياة الأجتماعية الى سن قوانين منظمة للعلاقات والتعاملات بين الناس، فشهدت الألفية الثانية قبل الميلاد صدور قوانين عدة سومرية وبابلية مثل قانون أور-نمو وقانون لبت-عشتار وقانون أشنونا وقبلها جميعاً اصلاحات أور-كاجينا والتي حرم فيها تعدد الزوجات وفرض عقوبة الرجم على المرأة المخالفة[1]... الخ وظلت هذه العقوبة سارية المفعول الى فترة زمنية ليست بالقصيرة، وأخيرا صدور شريعة حمورابي والتي سبقت قانون النبي موسى (عليه السلام) بعدة قرون ومنها الوصايا العشرة المعروفة عند المسيحيين ايضاً وكان بضمنها عقوبة الرد بالمثل (العين بالعين والسن بالسن... الخ) وقطع يد السارق وغيرها من العقوبات التي كشفت موادها انتحال القانون العبري (اليهودي) للكثير منها، ولتعطي دليلاً اضافياً بأن جزءاً من التوراة المدون حالياً والمتداول الى يومنا هذا... ماهو الا صياغة معدلة من" ملحمة الخليقة البابلية" مع القوانين السومرية والبابلية الأخرى ومنها قانون حمورابي الذي مر ذكره والتي كانت سائدة في ذلك الحين في تلك المنطقة [2].. وكما ورد في كتاب بوتيرو*.

لقد أوجد السومريين وطبقوا نظرية الحق الالهي المقدس للملك الحاكم قبل ان يوجدها توماس هوبز "The Divine Right Of King" (1679-1588) Thomas Hobbs وهذا النظام الالهي يشكل أصل نظام الحكم في حضارة وادي الرافدين القائمة على الملكية الوراثية والتفويض

(1) ساكز، هاري" الحياة اليومية في العراق القديم (بلاد بابل وأشور) ترجمة كاظم سعد الدين، دار الثقافة العاة، بغداد (2000) ص 167.

* جان بوتيرو" ولادة اله التوراة والمؤرخ" ترجمة جهاد حواشر، عبد الهادي عباس دار الحصاد للنشر والتوزيع سوريا دمشق 1999.

الالهي المقدس الذي نشره توماس هوبز[1]. ونظراً لأهمية الملك بأعتباره مصدر رفاه شعبه وأن أي شر يلحقه يضر بالبلد، وعليه تمت حمايته بمختلف الطقوس.

لقد كانت بلاد ما بين النهرين ومنذ أقدم العصور، ملتقى شعوب مختلفة. فما أن استقر بها السومريون وبدأوا فيها بناء حضارة زاهرة حتى اجتاحتهم جماعات الآموريين السامية الأصل. والتي خرجت من الجزيرة العربية واستقرت بعد تنقلات عديدة، في بلاد ما بين النهرين حيث سيطرت على سومر والبلدان المجاورة لها. وقد أصبحت بابل البودقة التي انصهرت وتمازجت فيها الحضارات السومرية والسامية. وكان للساميين الفضل في إحلال لغتهم محل اللغة السومرية وهي أكثر منها طوعية ومرونة، فمكنت الفكر من الانطلاق خطوة إلى الأمام[2].

لقد حدد ماسون أوسيل أثر بلاد الرافدين في الفكر العالمي وأرجعه إلى ما يلي:

1- نظرية الزمان المبنية على النظام الكوني وكثير من المعارف الناجمة عن رصد النجوم ومراقبة الأفلاك، وتقديس الشمس التي أصبحت أساساً للديانات الفلسفية الشمسية المنتشرة في سوريا ونجد والمتغلغلة في الفكر اليوناني القديم من جهة، ومن جهة أخرى في الفكر الهندي القديم عن طريق إيران المتصلة ببلاد الرافدين أيضاً.

2- الاعتقاد بالقضاء والقدر المسيطر على نظام الكون وعلى المصير الإنساني: وهذا القدر هو ناموس إلهي يسيّر كل كائن ويعين اتجاه تطوره، وقد أخذ اليونان هذه الفكرة

(1) عبد الوهاب حميد رشيد" الديمقراطية والتحول الديمقراطي" السويد (2000) ص: 31.

(2) حنا الفاخوري وخليل الجر "تاريخ الفلسفة العربية" ج1، دار الجيل بيروت (1993) ط3 ص21

وجعلوا منها "الكلمة المولدة"، كما أخذها الهنود فأصبحت عندهم "المرسوم الإلهي".

إن دراسة تطور الفكر الإنساني التي تعنى بالعلاقات الظاهرة والخفية التي تربط المظاهر المختلفة لهذا الفكر عند الشعوب تبدو لأول وهلة بعيدة كل البعد بعضها عن بعض، وما هي في الحقيقة، سوى اتجاهات مختلفة لمفاهيم أساسية تطورت في البيئات المختلفة، واتخذت أشكالاً خاصة وفقاً للظروف المعينة التي رافقت تطورها، والعناصر الجديدة التي دخلت عليها هنا وهناك. ولكن على الرغم من كل ذلك التطور والمساهمات الفكرية لبلاد ما بين النهرين لكن نمط التفكير الذي جاءت به حضارة وادي الرافدين لا مكان فيه متميزاً عن الدين.

ولذلك لم يتمكنوا من وضع نظرية عميقة في الكون، ولم تتكون الفلسفة عندهم نظاماً من التفكير مستقلاً قائماً بذاته يكون نتاج العقل الخالص. وعلى الرغم من وصول بعض فرقهم ومفكريهم إلى نظرية ما في المعرفة كما أسلفنا إلا أن تلك المعرفة كانت محدودة تقوم على أساس الذوق والكشف لتلبية احتياجاتهم الآنية في تلك الحقبة من الزمن، ولا تستند على أساس العقل والمنطق، كما فعل اليونانيون أيام أفلاطون وأرسطو والذين بنوا قاعدة راسخة تمكن الأجيال القادمة من التواصل في إعلائها وبنائها، والبناء الثابت والرصين عليها.[1]

لقد بنى السومريون والاكديون والبابليون (سرجون/حمورابي) الدولة الوطنية الموحدة بعد ان كانت مدن مبعثرة وأهدوا للبشرية القوانين المنظمة الأجتماعية (شريعة حمورابي) والذي شكل القانون العبري بعد ذلك وأمتدت آثاره للحضارة المعاصرة، هذا بعد أن ولدت هذه الأرض اول حاكم مصلح في تاريخ البشرية الا وهو الحاكم أور-كاجينا (2400 ق.م) كما أوردناه. وكتبوا اول الملاحم البطولية الحية وأعظمها وهي ملحمة كلكامش الشهيرة التي دونت بصيغتها البابلية قبل 2000 سنه

---

[1] محمد عبدالرحمن مرحب "من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية" عويدات للنشر والطباعة. بيروت (2000) ج1، ص62

ق.م[1]. وأبتدعوا القصص على لسان الحيوانات قبل أيشوب الأغريقي بأكثر من الف عام وأسسوا نظاماً شاملاً للدين شكل أساس الديانات الرئيسية في العالم وعلموا البشرية العطلة الاسبوعيه (السبت البابلي)، الذي تمسك به اليهود لتصبح جزءاً من ديانتهم وطقوسهم يقدسونها الى يومنا هذا. وما كلمة السبات والثبات وغيرها من المفردات العربية ألا مشتقات من كلمة السبت البابلي الذي حرم فيه العمل من قبل البابليين اولاً وأعتبروه بمثابة الراحة التي يجب ان يتمتع بها الأنسان الذي يعمل طيلة أيام الأسبوع الأخرى، ومن الجدير بالذكر هنا إلى أن تقسيم الأيام إلى سبعة أيام في الإسبوع والاشهر الى ثلاثين يوماً في الشهر واثني عشر شهراً في السنة وحتى اليوم الى 24 ساعة ما هي إلا تقاسيم سومرية أو رافدينية في الأصل. وتركوا أول كتاب مقدس (ملحمة الخليقه البابلية) لديانة عالمية شكلت مصدراً رئيسياً للديانة اليهودية وديانات الشرق المختلفة. فهناك العديد من القصص والأساطير في هذه الملحمة مشابهة لما جاء في التوراة القديم وبالذات مع قصص اسفار التكوين والطوفان وايوب وغيرها كما أن هناك تشابة كبير في الطقوس والمراسيم الدينية مع العديد من ديانات الشرق عموماً كالبوذية والهندوسية والكمفوشية والزرادشتية والمانوية والتي جاءت بعدها أو أن تكون متمازجة فيما بينها وأخذت بعضها من بعض من خلال اختلاط الحضارات القديمة.

لقد قام مجتمع بلاد الرافدين اساساً على طبقتين رأيسيتين لامجال للمقارنة بينهما هما الأحرار والعبيد، ضمت الأحرار فئات وشرائح عديدة منها الطبقة الحاكمة والمتنفذة، ومنها الطبقة المحكومة (عامة الناس) وكان هذا هو التقسيم الاجتماعي الذي ينظم علاقات المجتمع الأقتصادية والأجتماعية منذ بداية تكوين التجمعات السكانية المدنية المتحضرة والتي جاءت كمرحلة متقدمة عن مرحلة شيوعية الأنسان البدائي الذي كان يعيش منفرداً في الكهوف. وقد جسد كلاً من القصر والمعبد، مركز الثقل السياسي والأقتصادي والأجتماعي والديني لمجتمع وادي الرافدين، فالملك نائب (ممثل) الآله في حكم ارضه ومخلوقاته، والكاهن والعالم والمفسر لأرادة الآله والوسيط بينه وبين الناس شكلا معاً مصدر السلطة والأمتيازات (الحقوق).

---

(1) عبد الوهاب حميد رشيد"(المصدر السابق): ص: 167.

لقد كانت تلك السلطة اكثر تسلطاً مما هو معهود لها في عصرنا ضمن مفهوم الدكتاتورية المتداول. وكلما اقتربت العلاقة من القصر و المعبد، كلما زاد الأقتراب من الحاكم وازدادت السلطة والأمتيازات وكلما ابتعدت بأتجاه عامة الناس زادت التبعات الى حدود السخرة والعبودية. (من هنا لابد لنا ان نتذكر نظام صدام حسين المقبور ذو الطابع العشائري والذي كان قائماً على اساس السلطة والنفوذ وبالتدرج حسب نسبة القرابة من القصر والمتمثل بعشيرته وأقاربه والحلقات المحيطة به بالتدرج حسب مدى القرابه منه، ومايعتقده من درجة الأخلاص له، وكما كان سائداً منذ اقدم العصور).

أن النظام الأجتماعي السائد في بلاد الرافدين كان نظام الأسرة الأبويه، فالأب هو رأس الأسرة وشأنه في ذلك شأن الملك في مملكته[1]. وهو مسؤول عن اعالة اسرته وله الحق في بيع او رهن أحد أو كل افراد اسرته. وتصل العقوبة بالأبن العاق الى العبودية.

وكان ضرب الزوجة عادة بابلية تقرها القوانيين البابلية والأشورية ايضاً، واولوية التفضيل في الأنجاب للذكور والرغبة عند الأب جامحة ان يكون الطفل الأول ذكرا - والأبن البكر- الوريث الشرعي وحامل اسم الأب وشجرة العائلة وكان يرنو الى هذا الأمل العظيم الأب الملك والأب الفلاح على حد سواء.

كما تماثلت نسبياً عادات الزواج والطلاق والتبني والأرث والوصايا والعلاقات الجنسية مع الكثير من القيم السائدة في المجتمع الشرق أوسطي لحد الأن.

فمثلاً ان تقليد التحجب بالنسبة للمرأة قد مورس من قبل الأشوريين للتمييز بين النساء السيدات والنساء العبيد. وكذلك شاع الزواج الأحادي مع امكانية اتخاذ زوجة شرعية ثانية، علاوة على الخطبة اذا ماتمكن له ذلك من خلال قدرته المالية ونفوذه في المجتمع[2]. ان جوانب عديدة من حياة المواطن العادي الأجتماعية في ربوع بلاد الرافدين، قد بقيت كما هي تقريباً منذ اربعة الأف سنة ولحد الأن دون ان يطرأ عليها تغيير جذري اما البيت البابلي والذي كان قلعة وأستقرار الرجل، فقد كان يماثل

(1) عبد الوهاب حميد رشيد (المصدر السابق): ص 135.
(2) ساكز، هاري المصدر السابق ص: 13.

البيوت الشرقية الموجودة في يومنا هذا (القديمة والمنقرضة في بعض محلات بغداد القديمة)، والمكونة من: الحوش والتنور وصفوف الغرف لتحقيق مطلبين هما الأستقلال (العزلة عن الخارج) لاسيما فيما يخص عدم انكشاف نسائه على الخارج اولاً والوقاية من حرارة الشمس المحرقة في الصيف ثانيا[1].

3- صعوبات الحياة في بلاد وادي الرافدين:-

عُرفت منطقة وادي الرافدين ومنطقة الأهوار جنوب العراق والتي كان يقطنها السومريون الأوائل في قديم الزمان بصعوبة الحياة بسبب حرارة الجو الخانقة وشدة تطرف نهري دجلة والفرات من حيث وقت فيضانهما في مواسم غير مناسبة للزراعة، وقوتهما المدمرة، علاوة على الجهود الضخمة التي تطلبتها أعمال تجفيف الأراضي، وكذلك نسبة الملوحة الناجمة عن تجفيف تلك الأراضي، حيث ان التبخر السريع للمياه بعد الفيضان او حتى بعد هطول أمطار غزيرة في بعض السنين، فأن ارتفاع المياه الجوفية والمحتوية على نسبة عالية من الأملاح تصعد الى السطح لتغطي كافة الأراضي بالأملاح البلورية البيضاء التي تمنع الزراعة في العديد من المناطق وعلى وجه الخصوص في الجنوب من العراق[2]. وهذا يقلل من كفاءة الأراضي المحيطة بالأنهار من حيث الناتج الزراعي ويؤدي الى هجرة المزارعين الى أراضي اخرى أقل ملوحة. ومن هنا بذل سكان بلاد الرافدين جهوداً شاقه لترويض هذه البيئة القاسية وأنعكست أثار هذا الصراع البشري مع الطبيعة في ظهور اول المجتمعات السياسية من خلال بذل تلك الجهود في تحويل بيئة وحشية عنيفة من الأهوار والمستنقعات والأحراش الى بيئة معطاء. يقول طه باقر (استاذ تاريخ العراق القديم) بهذا الخصوص مايلي" لايسع المرء المتتبع لتاريخ هذه الحضارة الا ان يقدر مابذله سكان العراق القدماء من جهود جبارة للسيطرة على نهري دجلة والفرات وهي من اشد انهار العالم عنفاً". ويذكر جاكتنا هاوكس[3] في كتابه (الحضارة): (ان الزائر لمنطقة سومر، مهد الحضارة، في الصيف، حيث لم يتبدل المناخ منذ الألف الرابع ق.م قد يصاب بالدهشة والرعب بسبب صعوبة العمل في ظل الحرارة الخانقه)، كما قال كيفن يونغ في كتابه المشهور"

---

(1) ساكز، هاري المصدر السابق: 204-205.

(2) طه باقر" مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ص: 26.

First Great Civilization" Jacqnetta Hawkes London (1971) p-23 "(3)

عودة الى الأهوار"[1]: (تشكلت هذه الحضارة العظيمة في ظروف غير ملائمة على حافة الأهوار - وحتى في وسطها - حيث تصل درجة الحرارة في الصيف الى 120 درجة فهرنهايت (50 درجة مئوية) مصحوبة برطوبة كثيفة تجعل التنفس فضلاً عن العمل البدني، امراً صعباً بل وفي غاية الصعوبة). ان الأختلاف المتضاد لهذه البيئة الطبيعية بين الهدوء والأنتظام، وبين العنف والتدمير له انعكاساته على مواصفات ومقومات تلك الحضارة من الناحية الفنية والدينية والأدبية والسياسية والأجتماعية. ان الأفكار والمعتقدات تتأثر بالتاكيد من المحيط البيئي للأنسان بشكل كبير، وكما جاء في النظرية الماركسية وفي فلسفة العالم الألماني الشهير هيكل في القرن التاسع عشر الميلادي، بأن الأفكار والنظريات التي ينتجها الأنسان ماهي الا انعكاساً للظروف والعلاقات الأجتماعية والأقتصادية بين البشر في كافة المراحل التاريخية. وبالتالي فأن الأفكار والمعتقدات والتقاليد التي ندرسها حالياً ماهي الا بناءاً فوقياً ونتاجاً للظروف والأحوال المعيشية التي يعيشها ويعاني منها المجتمع خلال مراحل حياته التاريخية وهكذا نجد ان الأفكار والمعتقدات والتقاليد التي نشأت في بلاد وادي الرافدين ماهي الا انعكاساً لتلك البيئة القاسية الظالمة بما فيها من حرارة الشمس وخطورة فيضانات الأنهر.

4- تطور العقيدة الدينية في حضارة وادي الرافدين: -

أن الأختلاف المتضاد في البيئة الطبيعية بين العنف والتدمير الحاصل نتيجة الفيضانات المدمرة لدجلة والفرات وفروعهما الأخرى قديماً قد انعكست بنفس المواصفات تقريباً في المقومات الحضارية لبلاد وادي الرافدين حيث تحققت عملية خلق الكون (حسب عقيدتهم الدينية) من خلال صراع طويل وحرب رهيبة في السماء بين عدد كبير من الآلهة التي كانت تعمل في الظلام وقبل خلق الأنسان والشمس والأرض وغيرها [2]. ان البيئة القاسية وآثارها المدمرة في الفيضانات كانت عاملاً مهماً في تدمير تلك الحضارة التي نشأت فيها اولاً. لقد ساهمت تلك الظروف في زوال وتحجيم تلك الحضارة للحد الذي عجزت عن تقدمها وأزدهارها ونموها بشكل تسلسل تدريجي منسجم مع تطور الحضارات العالمية

---

(1) كيفن يونغ"العودة الى الأهوار" ترجمة حسن الجنابي دار المدى للثقافة والنشر الطبعة الأولى دمشق 1998، عن طه باقر (المصدر السابق) ص: 35.

(2) عبد الوهاب حميد رشيد" حضارة وادي الرافدين" 88.

الأخرى وبالذات حضارة الغرب المتميزة والتي نعيش في كنفها الأن، رغم قدم حضارة وادي الرافدين. لقد تجسدت حصيلة الفيضانات المدمرة والملوحة القاتلة للزرع وتحول مجرى النهرين في واحدة من نتائجها الخطيرة في ظاهرة متكررة، في ترك مناطق الأستيطان القديمة والأنتقال الى أرض جديدة لشق وبناء مشاريع ري جديدة، وبما رتبتها هذه الظاهره من التأثير بأتجاه عدم الأستقرار السكاني والسياسي كما شكلت عوامل كمنت فيها جذور الحرب الأهلية والوحدة السياسية على حد سواء. ويعتقد ان هذين الخطرين (الملوحة والفيضانات) هما سر ذلك التشاؤم المتواصل الذي يميز فلسفة سكان بلاد الرافدين القدماء. وبالعلاقة مع الواقع يعد وادي الرافدين أرضاً مفتوحة على الخارج، مما يؤدي الى تعرضها الى هجمات الأقوام الكثيرة من مناطق وأرجاء متعددة حولها والى غزوات عنيفة وأختلاط السكان مع أناس يختلفون في الطباع والعادات ومايتبع ذلك من عنف وتدمير وتطور وتبدل في التكوين الأجتماعي - السياسي، وبروز ذلك في أختلاف سير تلك الحضارة، وعدم تمكنها من الخروج الى أطار أوسع في التطور، كما هو عليه الحال في حضارات لمناطق أخرى من العالم. ونستشهد بذلك مايقولة لي أوينهايم في كتابه الشهير عن" بلاد مابين النهرين" بما يلي: -" أننا نعرف بأن جميع مدن ما بين النهرين الكبيرة والصغيرة قد دمرت لمرات عديدة بواسطة الحروب"[1] ويذكر التاريخ تفصيلاً عن تلك الحوادث والحروب المدمرة التي أدت الى أنقراض مدن بأكملها وحضارات لم يبقى منها سوى الأثار المكتشفة حديثاً، ولولا المعاويل والقزمات والتي بدءت في القرن التاسع عشر الميلادي للتنقيب عن آثارنا ماكان لنا لنعرف شيء عن تلك الأقوام وعن أصولنا وماضينا الا النزر اليسير. ومن الأمور التي لايمكن تجاوزها بهدف فهم جذور العنف السياسي في العراق هي دراسة العقيدة الدينية

---

(1) لي اوينهايم"بلاد ما بين النهرين" ترجمة سعدي فيض عبد الرزاق، وزارة الثقافة والاعلام بغداد، (1981) .272

لبلاد وادي الرافدين، هذه الدراسة التي تعتبر جزءاً من دراسة حضارة وادي الرافدين القديمة، والتي لاتزال تعيش معنا بهذا القدر أو ذاك ضمن معتقداتنا الدينية وسلوكنا وقيمنا الأجتماعية على الرغم من مرور أكثر من خمسة الأف عام على نشوء تلك الحضارة، والتي كانت من أنضج الحضارات في ذلك الحين أي قبل ثلاث الاف سنة قبل الميلاد، لقد نشأت تلك الحضارة وماتت في أحضان الدين، ذلك ان القوم عاشوا في الدين كما يعيش السمك في الماء يزودهم بالأوكسجين الروحي والفكري، وهكذا شكل الدين وعاء الحضارة لبلاد وادي الرافدين وروح المجتمع. وفي هذا المجال نستشهد بقول جورج روو الذي قال[1]" لم يلعب الدين دوراً كبيراً بمثل ما لعبه في أي مجتمع قديم بالمقارنة مع بلاد وادي الرافدين لأن الأنسان في هذه البلاد كان يشعر على الدوام بأنه يعتمد كلياً في استمراره بالوجود على أرادةالآلهة". وهذه الآلهة التي تجسدت في العوامل الطبيعية ذاتها (حسب عقيدتهم) بكل مواصفاتها، من خير وشر كان يواجهها الأنسان يومياً في حقله وعمله وحياته الأجتماعية. وأرتباطاً بكثرة الظواهر الطبيعية - الكونية، كثرت آلهة سكان بلاد الرافدين، فحسب العلاقة مع عقيدتهم بوجود قوى خفية في مختلف الظواهر الطبيعية، الكونية - فمثلاً أن ظهور الشمس كل صباح وأختفاءها في المساء وظهور القمر في ليالي بشكل متكامل والكواكب والنجوم والسماء والأرض والهواء والأمطار والأنهار والمياه والنباتات بل حتى الخمر والشعير قد جسدت لكل هذه الأمور آلهة معينه.

وشبه القوم تلك الآلهة بالبشر فخلعوا عليها جميع الصفات البشرية، فهي حسب معتقداتهم تأكل وتشرب وتتزوج وتفرح وتحزن وتمرض وتحب وتكره وتغضب وتحقد وتنمو وتنتقم وتتخاصم وتتحارب وتجرح وحتى تموت احياناً، وتذهب الى العالم الأسفل اي تتشبه الآلهة بالبشر في هيئتها العامة وحواسها وعلاقاتها الأجتماعية وسلوكها وكافة تصرفاتها، عدا أنفرادها عن البشر بالخلود والقدرة الخارقة.

---

(1) جورج روو المصدر السابق 128.

وبأختصار كانت الآلهة تمثل افضل الجوانب البشرية وأسوئها موضوعة في ميزان ما فوق بشري (خارق). وتبعاً لذلك، صورت الآلهة بأنها تعيش كما يعيش البشر في مجتمع تحكمه قوانين وضوابط محددة، وعلى رأس هذا المجتمع رئيس الآلهة (الملك - او الأب) يساعده في ادارة شؤون مجمع الآلهة وهو عدد من الآلهة الكبار. وان المجتمع البشري عبارة عن نسخة مطابقة للمجتمع الألهي السماوي، وان مايقع من احداث في السماء كانت في اعتقادهم تقابلها أحداث مماثلة في الأرض. فقد كان الأعتقاد السائد في ذلك الحين بالنسبة لتفسيرهم للكوارث الطبيعية على سبيل المثال، بأن هناك معركة كبيرة قد حصلت في السماء بين مجموعة من الآلهة المتخاصمة ادت بالنتيجة الى غضب بعضها على الأخر وانعكست في الأرض بهيئة كوارث طبيعية كالفيضان أو الحريق أو الجراد أو الأمراض السارية أو الزلازل... الخ. والاكثر من كل هذا هو الموت الذي كان يدعو الإنسان في كل مناطق العالم بالتمسك بالمعتقدات الدينية.

وهناك تفاصيل دقيقة عن تطور وتبلور تلك المعتقدات في ذلك الزمان من خلال ترجمات العديد من المخطوطات القديمة باللغة السومرية أو البابلية الى لغاتنا نجدها في كتب التاريخ القديم لامجال في الولوج بها هنا[1]. والمهم أن الأنسان في مجتمع تلك الحضارة كان معتمداً على الآلهة اعتماداً كلياً في عقله وعمله وحياته وزراعته، فعند حصول القحط مثلاً كان الملك الأشوري يكتب بنفسه الى نوابه من الحكام، ليقيموا مع الكهنة والناس الصلاة للآلهة من أجل انزال المطر. وهذا يذكرنا بما هو معمول الأن بصلاة الأستسقاء عند الأسلام[2].

لقد كان القوم في بلاد الرافدين يعتقدون أن رضى الآلهة عنهم يجلب لهم المطر وكل مايبتغون، وكانوا بذلك يؤدون الصلاة بأمانة وصدق لأنها تشكل حلقة الصلة بينهم وبين الآلهة لكي تستجيب لهم مايطلبونه في الأرض. والألهة حسب معتقدهم عبارة عن قوة خارقة خالدة وهي بالتالي مصدراً لكل شي ومحرك لكل الأحداث التي يعيشونها وتدور حولهم. وهكذا تبلورت لديهم فكرة ان تلك القوى الخارقة تتجسد في القدرة على الخلق، وتقوم على النطق بالكلمة، فعندما يقول الأله لشي ما "كن"

(1) خزعل الماجدي" الدين السومري" دار الشرق للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، عمان (1998).
(2) عبد الوهاب حميد رشيد (المصدر السابق) 93.

فيكون. وهنا يذكر كريمر في كتاب" عالم السومريات"[1]. ان فلاسفتنا السومريون طوروا مبدءاً صار فيما بعد عقيدة في كافة انحاء الشرق الأدنى، وهذه العقيدة قائمة على مبدأ القوة الخارقة والمسئولة عن الخلق والكامنة في الكلمة الألهية. فكل ماعلى الالة الخالق ان يفعلة وفقاً لهذا المبدأ هو أن يضع خططه، وينطق بالكلمة" كن" ويعلن الأسم الذي يريده في خلق جميع ماحولنا وفي خلق الأنسان نفسه بكلمة واحدة. كما تتجسد القوة الألهية في القدرة على تحديد هيئة المخلوق وصفاته الجسدية والروحية، اي تعيين جوهره وقواه البدنية والعقلية وسلوكه من خير وشر وفي القدرة على رسم مصير المخلوق مسبقاً (النصيب والقضاء والقدر)، أي يوم ولادة المولود، فترة حياته، طبيعة الأحداث اليومية التي ستواجهه مكانته الأجتماعية والوظيفية والمالية والصحية وفي القدرة على منح المخلوق وسائل يستطيع من خلالها تنظيم مجتمعه وبناء حضارته (النواميس الألهية)، والتي قيل انها بحدود مائة ناموس، تتقدمها الملوكية والتاج والصولجان، بالأضافة الى عدد من المهن والقيم الأخلاقية الطيبة والسيئة وتمكينه من معرفة ارادةالآلهة وفق علامات كونية طبيعية وبشرية وحيوانية تتطلب الفحص والتفسير وبقراءة الطالع والتنبؤ (الفال) والسحر. ويمكن استخلاص الكثير من الطوالع من ولادة الكائنات الحية وغيرها من الظواهر الطبيعية والبشرية - الحيوانية - فالتشوه الخلقي عند الأنسان المولود أو الحيوان (حيث لم يكن وارداً في عقيدة بلاد الرافدين ان تمنع الآلهة ولادة اطفال معوقين أو مشوهين). والتصدع في بيت وهو في طور البناء كل ذلك وغيرة عبارة عن طوالع سيئة لاعلاقة لها بالألهة. وهناك ما لا يحصى من الظواهر والحركات الغريزية وحتى الصرخات وحركات المجئ والرواح للحيوانات والطيور الداجنة والبرية فضلاً عن حركات النجوم والكواكب ومظاهر الكون الأخرى، والتي كانت محل دراسة الكهنة الذين كانوا مختصين ويسكنون المعابد التي شيدت من أجلهم. في ذلك الزمان، وما تزال اثارها باقية دون غيرها من الأبنية الأخرى، وهذا يدل على درجة تمسك القوم بأمور الكهنة ومنزلتهم الرفيعة لديهم. أن من يقرأ" ملحمة الخليفة البابلية" والتي جاءت من أصول سومرية قبلهم يعرف جيداً حكاية الخليقة وسر التكوين لدى البابليين، حيث

---

(1) خزعل الماجدي"متون سومر"، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان (1998) ص 257.

تحكي قصة وقوع حرب رهيبة طويلة جداً وقعت بين جيل الآلهة الحديثة (الأبناء) من القوى الخيرة وبين قوى الشر من جيل الآلهة القديمة (الأباء) وبعد انتصار القوى الخيرة على قوى الشر خلقت الآلهة الحديثة الأرض والسماء والشمس والقمر والكواكب والهواء والعواصف والأمطار والمياه والموارد، ثم قررت ان تخلق الأنسان من التراب ودم اله شرير (او من التراب والماء في بعض الأساطير القديمة الأخرى) ليكون هذا الأنسان عبداً للألهة، يقوم على طاعتها ويعمل في أراضيها ويزودها بمتطلباتها من النذور والقرابين ليكسب رضاء آلهته ويحقق الصحة والنجاح والمركز الأجتماعي وطول العمر ويحتفظ بأستمرار بالألهه و بالأله الحامي (الملاك الحامي الرمز) معه، والمسئول عن حمايته ضد الأخطار المحدقة به طيلة فترة حياته، والأ فأنه سيثور ويغضب وينتقم اذا عصاه وبالتالي قد يتخلى عنه الهه الحامي ويكون عرضة لهجوم الشياطين والعفاريت المنتشرة حوله في كل مكان وتسبب له الكوارث والأمراض والقحط وقصر العمر... الخ. من هنا ورثنا اصل القرابين ونحر الذبائح في العديد من المناسبات الى يومنا هذا استمراراً للتقليد المتبع لدى أقوام بلاد الرافدين القدماء (السومريين والبابلين والأشوريين وغيرهم) لقد كان البابليين يبالغون كثيراً في نحر الذبائح يومياً ويقدمونها الى رموزالآلهة المنحوتة لديهم لتعود فتأكلها الكهنة في الليل دون علم الرعية من العامة بذلك الأمر. لقد آمن سكان بلاد الرافدين القدماء بوجود الأرواح الشريرة والأرواح الخيرة فعلى سبيل المثال هناك اسطورة جاءت في النص السومري" أن سبعة ألهه شريرة {مجموعة من العفاريت} شقت طريقها نحو قبة السماء وتجمعت غاضبة حول هلال أله القمر" وفي هذا النص كانت الآلهة تتعامل مع المعضلة ولكن للناس دورهم حين يحدث الخسوف وذلك بالمساعدة على طرد تلك العفاريت التي سببت الخسوف اذ يتم نصب نوع من الطبلة (النقارة) في ساحة المعبد ويتم قرعها والنداء بصوت عال لفك القمر من محنته وهذه العادات ظلت تمارس لدى الناس حتى بعد أن أكتشف البابليون سبب الخسوف من خلال تقدمهم في علم الفلك وأستطاعوا حساب الكسوف والخسوف بدقة الا ان ممارسة سلوك ديني معين لفترة طويلة من الزمن يصبح من الصعب جداً تغييره حتى وأن أنتفت الحاجة اليه وهكذا أستمرت ممارسة دق الطبول في ليالي خسوف القمر مطبقة الى حد أوائل القرن العشرين في العديد من المدن

والقصبات والأحياء الشعبية العراقية، عندما كان النساء والأطفال يهرعون الى السطوح عند خسوف القمر ومعهم ما كان متاحاً من ادوات المطبخ النحاسية وغيرها يضربون بعضها ببعض ليحدثوا أصواتاً عالية من أجل تخويف العفاريت وطردها وتحرير القمر منها[1]* ومن الحقائق التي أدركها القوم في ذلك الحين هي حتمية الموت على الأنسان وأستحالة نيله الخلود، وأن التفتيش عن الخلود لابد ان يأتي من خلال العمل كما جاء في ملحمة كلكامش الشهيرة، والتي تتركز بالدرجة الأساس على أن سر الوجود للأنسان يكمن في عمله بعرق جبينه. وكان في ذلك حكمة عالية للقوم اذا ماأدركوها فعلاً. وقد اختلفت في ذلك المفهوم عن حضارة وادي النيل العظيمة، والتي انشغل أهلها وفلاسفتها كثيراً في تفسير الموت، وكان أعتقادهم السائد بالنسبة للملوك على الأقل بأن الموت للأنسان قد ينقله الى العالم الأخر ليعود بعدها بنفس الهيئة، وبالتالي عليه ان يهيأ كافة مستلزمات العودة مما يحتاجه في الحياة الثانية من أكل وشرب وأدوات مطبخ وخدم وغير ذلك، وقد أنشغلوا كثيراً بالتحنيط وفن تحنيط الجثث بعد موتها مباشرة، وكان بناء الأهرام هدفاً لأبقاء تلك الجثث بكامل حيويتها، من خلال مرور تيار قوي يحدثه البناء العالي والفتحات الهوائية الجانبية التي تحدث تياراً هوائياً قوياً، ومن خلال مرور ذلك التيار على حوض من الزيت والمواد الكيميائية الخاصة بالمحافظة على البروتين المكون لجسم الأنسان لأكبر فترة زمنية ممكنة، وقد نجحوا في ذلك بشكل مذهل جداً ولاتزال الأهرام محط أعجاب الأمم والأجيال العديدة. أن عملية بناء الأهرام من قبل المصريين القدماء لم يكن امراً اعتباطياً أو انهم بنوا ذلك لكي نقول عنهم بعد الأف السنين بأنهم كانوا عظماء بما فيه الكفاية بل أنهم كانوا منشغلين جداً في التفكير بالموت ومبدأ العودة الى الحياة ثانياً، وكيفية المحافظة على الأجسام بعد موتها لكي تبقى الى ان تعود ثانياً حسب أعتقادهم. بينما أدرك ملوك بلاد الرافدين القدماء حتمية الموت على الأنسان وأستحالة نيله الخلود. فالألهة

---

* ونذكر البسته البغدادية المعروفة الى عهد قريب لدينا ومحتواها ياحوتة يا لمحتوتة هدي كمرنا العالي وأنكان ما تهدينا أضربك بالسكينة الخ لقد عاصرنا تلك الطقوس أيام الصغر.

ونعود هنا لنذكر بأن هناك العديد من التقاليد والعادات الموروثة تمارس الى يومنا هذا كانت قد جاءت الينا من أصل تاريخي قديم يعود الى عصر السومريين والبابليين والأشوريين الذين عاشوا في بلاد ما بين النهرين منذ آلاف السنين.

جعلت الموت من نصيب الأنسان منذ بدأ الخليقة بينما أستأثرت لنفسها هي بالحياة الأزلية الخالدة. وعند الموت (انقطاع أخر نفس للأنسان) تخرج روحه لتذهب الى العالم الأسفل - عالم الأموات وعالم اللارجعة - بينما يعود جسمه الى التراب، وفي هذا العالم المظلم الذي يلفه الغبار والتراب، ويعدم فية الهواء والضوء لاتجد أرواح الموتى ما تعيش عليه سوى مايقدم لها من نذور وقرابين. وأذا لم يتذكرهم أحد من أهلهم وأقاربهم فسوف يردون الى الأرض على هيئة أشباح مؤذية للأنسان العايش والذي لايزال محيطاً حول الأموات. وهكذا يحدث الشئ نفسه عند عدم دفن الميت أو عدم أداء الطقوس الدينية اثناء الدفن وبعدة من صلوات وذبح قرابين. ووفق هذه العقيدة يصبح الأنسان بعد الموت في عقلية بلاد الرافدين القديمة أقل شأناً مما كان علية رغم ضألته وتفاهته في الحياة الدنيا. وعليه لا وجود لمفهوم الثواب والعقاب في الآخرة حسب عقيدتهم لحد تلك الفترة الزمنية من تاريخهم القديم (وسوف نأتي الى كيفية تطور العقلية الدينية في مكان أخر من الكتاب على كيفية نشوء فكرة الثواب والعقاب لما يقوم به الانسان من أعمال في دنياه ويتلقى القرار بالثواب أو العقاب في الحياة الثانية في فصل آخر من هذا البحث). لقد كانت الآلهة في بلاد الرافدين القدماء (السومريين والبابليين على وجة الخصوص) آلهة حسودة وطاغية لأبعد الحدود، حيث انها خلقت الأنسان لخدمتها فقط، وليس هناك مايسمى ثواباً للأنسان لما يفعله من خير وعطاء لأجل خدمة تلك الآلهة. ولكن بالمقابل يوجد هناك عقاب فقط اذا لم يقم بواجباتة كاملة أتجاهها.

ومن خلال هذا الأعتقاد نستنتج أن القوم أعتقدوا بأن الأنسان مركب من عنصرين أولهما حسي مادي منظور وهو الجسد، وثانيهما غير منظور وهو الروح والتي أطلق عليها السومريون كلمة ""كَدم"" (GIDM)[1] كما صور القوم روح الميت على هيأة مخلوق بجناحين من الريش. وقد تصور السومريين ايضاً بأن الروح تتجسد في دم الأنسان فقط وتسري في جميع انحاء جسده، وعندما يتوقف الدم عن الجريان، هذا يعني أن الروح قد انفصلت عن جسده وبالتالي برد جسمه ولم يعد له أي حركة. وهكذا حرموا منذ ذلك الوقت تناول شرب الدم لما تتجسد فيه من روح قد تكون شريرة، وتنتقل لشاربه ليتمثل فيه كل الشر أو يساق الى

---

(1) طه باقر" مقدمة في أدب العراق القديم، جامعة بغداد، كلية الآداب، دار الحرية للطباعة بغداد (1976).

الهاوية، بينما لم يكن ذلك مطبقاً لدى اقوام أخرى في افريقيا مثلاً، وربما يفسر هذا أعتقادهم في قدرة هذه الأرواح على التنقل السريع، فقد أخذ العرب في عصر الجاهلية هذا المفهوم وصوروا روح الميت على هيئة طائر أطلقوا عليه اسم (الهامة). وحين تعود هذه الروح لشخص مقتول مثلاً يهيم الطائر (روح المقتول)، في حالة عدم أخذ ثأره من قاتله، وهو ينعق (أسقوني، أسقوني) [1] وهنا يكمن اصل الثأر القبلي عند عرب الجاهلية أنطلاقاً من هذا المعتقد كأحد العوامل المؤثرة والفعالة في عملية أخذ الثأر للمقتول. ولاتزال أثار هذا الأعتقاد تشكل أحد العوامل المؤثرة في التمسك بأخذ الثأر لدى العشائر العربية الى يومنا هذا مما يعطي دليلاً أخر على تأثير المواريث التاريخية في سلوكنا وعاداتنا الحاضرة، والتي لابد من زيادة الفهم والمعرفة عن جذورها لكي نستطيع بالتالي من أيجاد السبل والوسائل الكفيلة بمعالجتها بالطرق الناجحة.

لقد تميزت الحضارة السومرية منذ نشأتها في عصر فجر السلالات القديمة بالعلاقة مع خصائصها السياسية بالظهور على أساس عدة دول ومدن حضارية مستقلة عن بعضها البعض ولكل منها حدودها وأسوارها وأسرتها الحاكمة والاهها الحامي (الوطني) ونظمها وقوانينها. وقد شكلت دول المدن السومرية هذه أولى الأنظمه السياسية المعروفة كما ذكرنا سابقاً، وكان ذلك مايصطلح عليه بـ (دولة المدينة). وكان ذلك العصر يدعى بعصر القضاة حيث كان الأمر والنهي في النزاعات التي تحصل داخل تلك الوحدة المحددة من التجمع السكاني البسيط يحل من قبل شخص واحد مختار من هو أقوى وأكفأ وأكبر سناً من بقية الناس في المدينة. وبالعلاقة مع عقيدتهم الدينية في ذلك الحين، فأن مايحدث في السماء يقع في الأرض بمقدار مناسب ومشابة كما ذكرنا سابقاً. لذلك فأن الآلهة خلقت البشر لخدمتها وطاعتها وأن المدينة بما فيها من أرض وموارد ومحاصيل زراعية هي (مُلك) الالة الحامي، وأنه أختار من بينهم حاكماً لتمثيله في الأرض وتنفيذ أوامره وتعظيمه، وبعد أن أزداد التجمع السكاني في المدن وأزداد الأقتراب بين المدن بعضها لبعض أزدادت الحاجة لأختيار ملك على عدد من تلك المدن، لكي تستطيع من الدفاع عن المنطقة برمتها

---

(1) نائل حنون عقائد مابعد الموت في حضارة وادي الرافدين (1986) 110-111 بشأن مفهوم الثأر لدى عرب الجزيرة هامش 18، عبد الوهاب حميد رشيد المصدر نفسه 92.

وبالتالي لأرضاءالآلهة في أدائها الجماعي. وهكذا برز عصر الملوك المتمثل بنفوذ الملك وسطوته على مدن ومساحات أوسع من القضاة. وقد كانت من أولويات واجبات الملك قيادة شعبه لرفع شأنه ومنزلته أمام الأله الحامي (الوطني) ذلك لأن هذا الأله الحامي سيرتفع شأنه أمام مجمع الآلهة السماوية وسيعم الخير على الجميع من خلال هذا التقرب والنصر الذي يحرزه القوم على أعدائهم. وهذا يجسد بالتالي رفع شأن مدينته أو مدنه ورفع منزلتهم بين الملوك. كما أن نظام الملوكية في بلاد الرافدين قام أصلاً على أساس ديني وأن العلاقة بين الملك والألة الحامي تتمثل في أن انتصار الحاكم في الحرب يعزز دورالآلهة ومنزلتهم ورضائهم عن مدينته، ومن هنا يلاحظ مثلاً أن الملوك الآشوريين الأقوياء الذين بسطوا سيطرتهم على أمبراطورية شاسعة من نهر النيل الى بحر قزوين في الشرق من امثال أشوربانيبال لايعتبرون أنفسهم أكثر من عبيد متواضعين يسعون لأرضاء آلهتهم" آشور" وهنا ربما كان أحد المبررات الرئيسية ذات الجذور الدينية العميقة لظهور نزاعات وصرعات (عنف) بين دول المدن المختلفة، والتي استمرت بصورة متصاعدة في مراحل لاحقة من حضارة بلاد الرافدين سواء أكان هذا الصراع ناجماً عن الدفاع عن أرض الأله من الهجمات المعادية أم بهدف توسيع أرض الأله الحامي من خلال الفتوحات العسكرية. وعامل التبرير للحملات العسكرية الدامية هذا لاينفي بطبيعة الحال الدوافع الأقتصادية ورائها بقدر مايمنحها زخماً اضافياً أكبر كترجمة عملية لهذا الصراع. ولاشك أن كل عمل عسكري يحتاج الى فكر ومعتقد قوي يستطيع أن يعطي للمقاتل معنوية وزخم قتالي عالي، وهكذا نجد أن فكرة الأله الحامي أنما استغلت لصالح الملوك كمحصلة نهائيه. من هنا ايضاً تبدء المنافسة والتناحر بين المدن وأنظمتها السياسية القائمة التي نشأت على العقيدة الدينية بهدف الأستحواذ على الأراضي الزراعية ومصادر المياه وطرق التجارة الموصلة الى المواد الأولية وبقية الموارد، ولاسيما أن أبتلاع مدينة لأخرى كان يعكس حسب عقيدة القوم، احداثاً مرادفة في السماء، ومن هنا ايضاً صار النظام الألهي المقدس (النظام الملكي) الأقل استقراراً في بلاد الرافدين بسبب كثرة الحروب والنزاعات على الموارد المحدودة، خاصة وأن تزايد السكان السريع يجعل من عملية توزيع الموارد المحدودة تلك، ليس بالأمر الهين مما ينشأ عنها نزاعات وحروب، الى درجة كان يطلق عليها بعض المؤرخين بأن

ماكان يحدث في بلاد الرافدين عبارة عن حرب اهلية مستديمة بين المدن الصغيرة تلك. كما أن العقيدة الدينية لأنسان بلاد الرافدين في ذلك الحين قد رسمت اشكالاً معينة من التصرفات والممارسات من أجل ارضاءالآلهة وأخرى لاترضي الآلهة وتكون عرضة لجلب غضب وأنتقام الآلهة على القوم بأكملة، وبالتالي فقد حرص القوم على ارضائها لتحاشي غضبها المؤدي بالنتيجة الى انزال الشرور والأمراض بهم أن لم يفعلوا ذلك. وهكذا أصبح المعتقد الديني وبالاً على القوم وجلب لهم المآسي دون أن يشعروا بذلك. وكما أنهم حرصوا على تقديم القرابين لأرواح موتاهم لأعتقادهم بأنها تحقق الراحة والأستقرار لروح الميت في العالم الأسفل، وأهتموا كذلك بالمراسيم والطقوس الدينية الخاصة بدفن موتاهم لكي يمنعوا خروج روح الميت عليهم بهيئة شبح مخيف يلحق الأذى بالناس جميعاً، وهكذا بقي الأنسان في ذلك العصر يعيش في خوف دائم من الهاجس الألهي الجائر وآلهة غير مبالية بهم، وبملاحظة أنتصار الشر على الخير دوماً، وبالتالي أستمرت حياة التشاؤم وأصبحت تلك النظرة سائدة من خلال الأعتقاد بأن حياة الأنسان ليست ذات جدوى أن لم تكن تافهة نظراً للصعوبات التي كان يعاني منها الأنسان من حر شديد وكوارث طبيعية لم يكن ليهتدي بعد إلى حلها أو فهم أسبابها الحقيقية. أن الأعتقاد السائد في ذلك الحين بأن أرتكاب ذنب معين أو خطيئه تنجم عنها أضرار جسيمة سواء على المدينة التي يقترف اهلها الذنوب أم على الشخص المذنب، فالأله الشخصي قد يتخلى عنه ولايدافع عنه فيما بعد ولايحميه من المخاطر المحيطة به، وبالتالي يصبح عرضة لهجمات الشياطين والعفاريت، وكذلك حال المدينة المذنبة أذا تخلى آلهتها الحامية لها عنها، فأنها تصبح مفتوحة أمام الأعداء وعرضة لأشكال المصائب والويلات والخراب بمعنى ان زوال المدينة (الدولة) والتي تساوي القرية في عصرنا الحاضر يقع على عاتق أهلها ممن تخلوا عن واجباتهم تجاه أله المدينة فهجروهم آلاهتهم وتركوها أمام الأعداء لتدميرها. وهكذا كان ألأعتقاد السائد بأن مدناً بأكملها قد دمرت بسبب عدم رضاءالآلهة عن اهلها، وهناك العديد من القصص المذكورة في كتبهم المقدسة تعطي مثلاً على ذلك وهناك قصص مشابهة في التوراة و العهد القديم في سفر النبي لوط مثلاً. لقد ولدت تلك المعتقدات وما أرتبط بها من هاجس الموت والبؤس والحرمان والمرض والحزن وهموم الحياة العامة، عناصر الكآبة

والقلق والخوف والتشاؤم وعدم الأطمئنان وغياب الأستقرار النفسي والمعيشي. هذه الظروف أحاطت بأنسان بلاد الرافدين خاصة عندما كان يشعر بضعف ادائه لواجباته والتزاماته أتجاه الآلهة. وكان يتلقى بنفس الوقت الضربات والمصائب التي لايستحقها أصلاً وبدون أن يعي أسبابها بدقة. ولم يكن التشاؤم لدى أنسان وادي الرافدين حالة عرضية لليأس بل كان ميتافيزيقي الأصل في تفكيره غيبياً بشكل مطلق كمنت جذورة في الآلهة ذاتها التي تجسدت في عناصر الطبيعة والكون وحملت ذاتها عناصر الخير والشر وأصبحت مصدراً للحياة والكوارث معاً فالأنهار والرياح والأمطار مثلاً، وهي الجالبة للخير والحياة يمكن ان تتحول مرة واحدة الى قوى شر مدمرة تهلك الزرع والأنسان والحيوان، وبمواجهة هذه الظواهر الطبيعية (الالهية) القاسية، وجد القوم انفسهم بلا حول ولا قوة، ولفهم القلق الشديد أزاء ترقبهم لغد غير مضمون تجاة حصيلة جهودهم وحياتهم الغير مستقرة، فكانت حياة الأنسان وعائلته ونتاج حقله وماشيته ومستويات الأنهار والفيضانات وتوالي الفصول المختلفة وحتى الكون ذاتة تحت رحمة القضاء والقدر على الدوام وكان لاحول ولاقوة للأنسان، الا أن يطلب المغفرة من الآلهة على ذنوب لم يرتكبها اصلاً. فأذا بقي البشر أحياء، واذا عادت الحياة الى الحقول بعد لهيب الصيف وأذا استمر القمر والشمس والنجوم والكواكب في حركتها، فأن كل هذا يتحقق بأرادةالآلهة التي تقرر مصائرهم ومصائر الكون المحيط بهم سنوياً. ولهذا السبب كانت تجري عندهم احتفالات هائلة سنوياً وفي العديد من المدن، ففي بابل بالذات كان يجري في مطلع كل ربيع احتفالات تشمل تلاوة ملحمة الخليقة، وأعادة تثبيت الملوك، وتتوج أخيراً بأجتماع الآلهة الذين يقضون في المصائر (للسنة الثانية) وعندئذ فقط يصبح بوسع الملك العودة الى مقره والفلاح الى حقله والحرفي الى ورشته وهكذا[1]

(1) ساكز ماري المصدر نفسه 227-228.
لقد استمرت الاحتفالات السنوية في مطلع كل ربيع وامتدت في أرجاء واسعة ولا ندري من أخذ من الآخر هذا التقليد الذي اصبح ما يعرف بعيد نوروز عيد الربيع في الحادي والعشرين من آذار في كل عام وتمسك الإيرانيون و الأكراد والعرب في جنوب العراق بهذه الأعياد الى يومنا هذا، ولحد فترة قريبة كانت الاحتفالات الربيعية بالعيد الذي يعرف أحياناً بدورة السنة وقد يطلق عليه العامة بنفس الكلمة باللغة الفارسية (سن زة بدر) حيث يخرج الناس الى البساتين والأرياف ويعملون الأكلات الخاصة ويشعلون الشموع احتفالا بذلك العيد الذي كان أصلاً في بابل لتجديد العهد بين الناس والآلهة باعادة الحياة والخير للجميع في السنة المقبلة وأنه حقا تقليد تاريخي ينبغي الاحتفاظ به كذكرى تاريخية مهمة.

كذلك يستعيد سكان بلاد الرافدين ثقتهم بما حولهم وبأمكان العالم كله ان يستمر بالوجود بأرادةالآلهة المسترضاة لعام أخر أيضاً. وكانت تلك المراسيم السنوية تجري بمثابة الحجيج عندهم. اذ كانت فكرة الحج المطبقة في العديد من الأديان في الشرق تنطلق اساساً من فكرة تأسيس عقد ولاء وتراضي بين الأنسان والأله الحامي والمسؤول عن رعاية مايدور حوله من ظواهر طبيعية وكونية (ولاتزال أحدى الطوائف العراقية العريقة في القدم وهم الصائبة يحتفلون الى يومنا هذا بعيد الخليقة في شهر أذار من كل عام احياءاً لتلك الذكرى) ولكن هناك أختلافات من حيث درجة التشاؤم والفرح التي يتصف بها كل دين وحسب طبيعة المنطقة ودرجة عطاءها وظروفها، ففي المقارنة بين أنسان وادي الرافدين وأنسان وادي النيل المصري هناك فرق ملحوظ على نحو مايقول جورج روو وكذلك جورج كونتينو والذي ورد ذكره سابقاً حيث قال "اذا كانت حياة البابلي شاقة مثل حياة المصري فأنها لم تستطع أن تحطم بشاشته الطبيعية ومرحه اثناء عمله اليومي، غير أن انسان بلاد الرافدين كان غريباً عن الضحك، ويبدو أنه لم يتعلم كيف يلهو"[1] [2]وفي مثل هذه العقيدة التي جعلت الأنسان في مرتبة العبد على أفضل افتراض، خضع أنسان بلاد الرافدين في عقله وجسده وحياته الى ثلاثة أشكال من القوى المسيطرة عليه سيطرة لامجال للتخلص منها: - الأولى: هي خضوعه لقرارات القدر التي لا تُرد ماتقررها الآلهة وهي التي تحدد الخطوط العريضة والتفصيلية لحياته، والثانية: هي الخضوع لسلطة مطلقة يمارسها الملك بأعتباره نائباً للألهة في أرضه وأن طاعته وتلبية أحتياجاته امراً محتوماً لامجال من الأفلات منها. والثالثة: وهي خضوعه لوهم هجوم القوى الشريرة والمتوحشة غير المنظورة من الشياطين والعفاريت المحيطة به من كل جانب، والتي تترقب الفرصة لمهاجمته في كل لحظة، ولامجال لأنكار الأخيرة لأنها ملموسة وحاصلة فعلاً في الظروف القاسية التي كان يعيشها أنسان بلاد الرافدين في ذلك العصر. وهكذا قادت هذه العوامل الثلاثة المسيطرة على عقل أنسان بلاد الرافدين (الآلهة، الملك، الشياطين) الى خضوعه، وبالتالي خضوع عقلية القوم للغيبيات، متضمنة

---

(1) جورج روو" العراق القديم" الطبعة الثانية (مترجم) بغداد (1977) 27.

(2) طه باقر" مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة" بغداد (1989) 36.

مسلمات دينية وطقوس سحرية متداخلة معها. ولابد لنا أن نستشهد هنا بما جاء به جورج كونتينو في هذا الصدد" لقد كانت الآلهة العنيفون المسارعون للغضب لايكفون عن المطالب التي يبتزونها من البشرية والتي كانت تخص كل عمل من أعمال الحياة الدنيوية في شبكة من ألتزامات خالية من الرحمة. من أمثال تصوير العالم وهو مأهول بالعفاريت والأتنه (جمع تنين وهو الحيوان الخرافي الذي تصوره البابليين كرمز لقوة الشر) التي تطارد فرائسها الطبيعية المعادية لها. وحياة في الأخرة أكثر شقاءاً من الحياة الأرضية [1]ذلك الفزع هو الأنطباع عن الشقاء المستور الذي كان يخلفه الدين في ذلك العصر والذي كان لايرحم، والذي كان بالنسبة لسكان بابل لايدينون به فحسب بل أصبحوا أسرى له وأصبحت تلك المعتقدات مصدر شقائهم وتعاستهم. وهكذا كان على أنسان بلاد الرافدين دوماً سواء أرتكب خطيئة بقصد أو دون قصد أو حتى لم يرتكب أي خطيئة أصلاً عليه أن يتوجه أثناء ألتزاماته الدينية اليومية (الصلاة مثلاً) نحوالآلهة طالباً المغفرة من ذنوب ربما لم يرتكبها أصلاً، وكان يتلو الصلاة والتعاويذ للعديد من المرات يومياً بل تتعدى ذلك الى طوال وقته أحياناً سواء كانت في الليل أو النهار حسب طبيعة الأنسان ودرجة مخاوفه وشدة أعتقاده بالألهة. وكان التكرار في العبادات التي يتلوها يومياً تزيد من درجة أطمئنانه بالنجاة من المصائب المحيطة به. ولابد لنا أن نذكر هنا أحدى التعاويذ السومرية المعروفة والتي كان يتلوها السومري التائب وحسب ماجاءت في المصدر السابق وكما يلي" أيهاالآلهة أن أخطائي وأساءتي كثيرة جداً وأن البشر خرس لايعرفون شيئاً وأن الأنسان مهما بلغ مركزه فهو لايعرف شيئاً؟ سواء آتي اثماً أم خيراً فأنه لايعرف شيء". ومن مفارقات الأمور أن مثل هذه التلاوة الموجودة في كتابهم المقدس مثل" ملحمة الخليقة البابلية" وغيرها مكررة في عدد من الكتب المقدسة التي كانت منتشرة في الشرق، وفي ذلك الحين وما بعده مثل كتاب الزرادشت لدى الأكراد والفرس في ذلك الوقت، وما بعده في كتب دينية معروفة.

مما يدل على أن تلك المفاهيم والقيم هي الأكثر ملائمة وتقبلاً لعقول الناس ضمن معطيات المرحلة وطبيعة ماتقدمه الأرض من خيرات

(1) جورج كونتينو" الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور 500.

وكوارث طبيعية في آنٍ واحد في منطقة الشرق الأدنى برمته. لقد تضمنت ملحمة الخليقة البابلية مضامين فلسفية واسعة، أذ وضعت الخلق، ليس بأعتباره بداية التكوين بل نهايته، وليس عملاً غير مبرر حيث قررت الآلهة ولم يكن من قرار اله واحد، بل كانت نتيجة معركة كونية هائلة بين وجهي الطبيعة" الخير والشر" "النظام والفوضى" وكشفت بين امور أخرى وجوب خدمة البشر للالهة، وشرحت سبب تواجد عنصر الشر لدى البشر المخلوقين من دم اله شرير كما اسلفنا. يقول جورج روو بهذا الصدد مايلي" اذا كانت قصيدة (حينما في العلى... الخ) قد بقيت تتلى من قبل الكهنة في بابل كل عام، ففي اليوم الرابع من الأحتفالات للسنة الجديدة طوال الفي سنة تقريباً، كان يشعر البابليين فيه بأن القتال الكوني لم ينتهِ تماماً والى الأبد وأن قوى الشر والفوضى لاتزال مستعدة على الدوام لتهديد ومنازلة النظام الكائن المستديم للألهة الخيرة. وكان أعتقاد نهاية العالم يشكل أحد المخاوف الكبيرة التي جعلت أنسان بلاد الرافدين يعيش في قلق مستمر من توقعات حصول الكارثة الكبرى أكثر من غيرة من الناس في مناطق بعيدة أخرى، وبينما كان أنسان بلاد الرافدين هدفاً مستمراً لهجمات الشياطين والعفاريت (الجن) في كل لحظة متوقعة كان عليه اتباع ماتكشفه طوالعه والعمل على تحريك تلك السيئة منها، وهذا قد يتطلب منه تعديل حياته سواء بالعلاقة مع عمله ورزقه أو عائلته وعلاقاته الأجتماعية وغيرها[1]. من هنا أصبح أنسان بلاد الرافدين ضحية أوهام وخرافات، تائهاً منقاداً لتصورات الأخطار (الخرافات) الشديدة التي يتخبط فيها، وكان عليه دوماً أن يكشف طالعه ويميز بين الخير والشر تجنباً للمصير المؤلم الذي ينتظره كل يوم وكل لحظة ولكن في مقابل ذلك كان المجتمع السومري أبعد مايكون عن البدائية، بل كانت حياته الأجتماعية في المدن السومرية راقية بالمقارنة مع المناطق الأخرى في ذلك الحين. وقد سادت حياته التنظيم المتكامل وعرف الشعب السومري بأنه كان صارماً في عملة وجهدة وذا عقلية (بيروقراطية) ترك الألاف من السجلات والقسائم والعقود وخلف حضارة معطاء مفتوحة. ويقول جورج كريمر في كتابه" التاريخ يبدء من سومر" {كان السومريون يتمسكون بالطيبة والصدق، وبالقانون والنظام، وبالعدل والحرية،

(1) لي أوبنهايم "بلاد ما بين النهرين" (المصدر السابق نفسه) 339.

وبالأستقامة والصراحة، وبالرحمة والشفقة، وكانوا يمقتون الشر والكذب والفوضى والأضطراب، والظلم والقهر والآفعال الآثمة والأيذاء والقسوة وعدم الشعور}[1]. وهكذا بقيت مشكلة العنف في العراق ممتدة خلال الحقب التاريخية التي تلت ذلك في أطار بيئة اجتماعية تقوم على الوحدانية والغيبية، السرية المطلقة والعنف، هذه البيئة التي ولدت في أحضان الحضارة السومرية في بادئ الأمر، تلتها حضارة البابليين والآشوريين وغيرهم من الأقوام الذين أستوطنوا في تلك المنطقة أو بالقرب منها، وأستمرت المراحل التالية بما تخللتها من غزوات. ولابد لنا قبل التطرق الى تلك المراحل بأختصار أن نناقش ماورد من أفكار ومفاهيم موروثة تاريخياً في عقول الناس في بلاد الرافدين، لم نكن نعرف عنها شيئاً الا بعد أن تمكن المستشرقين الأجانب (الأوربيين على وجه الخصوص) من التنقيب والحفر بين الأتربة والصخور للتفتيش عن ماكان يدور في ذهن الأقدمين من أفكار كانت في عقلنا الباطن ولم نكن نعرف منشأها وأصلها دون الرجوع اليها. أن التصفح في طيات التاريخ يمهد لنا السبيل لزيادة الفهم عن أمور عديدة، وسلوك وعادات نجهل التعامل معها وفهم جذورها. أن ماورد من أفكار ومعتقدات كانت سائدة في الماضي في بلاد الرافدين قد شكلت أساساً لكل الأفكار والمعتقدات التي تلتها. وبالتالي لابد لنا من مناقشة أنعكاس تلك المعتقدات والأصول الدينية على الواقع الحالي لأنسان بلاد الرافدين قبل الأنتقال الى مرحلة اخرى لأغناء مايستحقه الموضوع من مناقشة ولكن قبل ذلك لابد لنا من نقل بعض الأساطير والقصص والملاحم التي خلفتها حضارة وادي الرافدين لكي تكتمل الصورة عن أصول الفكر الديني في الحضارات القديمة.

5- أساطير خلق الكون – الانسان لحضارة وادي الرافدين:

علنا نقترب أكثر لفهم الانسان الرافديني القديم من خلال قراءة الاساطير والملاحم المدونة منذ الآف السنين والمترجمة الى لغتنا الحاضرة عن طريق المصادر المتخصصة.

والأسطورة هي القصة الخيالية التي تعبر عن تصورات الاقوام في البيئة البدائية وتدون من قبل الكهنة لتسود في الاعتقاد لأغلبية السكان ولفترة زمنية طويلة. إن الاساطير تعبر عن المرحلة الزمنية من تطور العقل البشري وعن الادوات والالات المستخدمة والعلاقات الاجتماعية

---

(1) عبد الوهاب حميد رشيد (المصدر نفسه) 107.

السائدة والنظم السياسية وعلاقة تلك النظم مع بعضها البعض في المناطق المجاورة، وبالذات في المجتمعات الزراعية البدائية.

إن أقدم ملحمة مكتشفة للخليقة هي" إسطورة المعول" سادت في الالف الرابع ق.م، وظهرت بدايتها الاولى في الاقسام الشمالية المعتمدة على الزراعة الديمية (المطرية) خاصة المناطق المتذبذبة الامطار. فما دام الهواء هو العنصر الفعال في حركة الامطار لذلك صار لـ (أنليل) - إله الجو- دور كبير في حياة القوم وأصبح في نظرهم هو خالق الكون والبشر. والمعول هذا هو أول إكتشاف آلي للإنسان إستطاع من خلاله ان يعتمد على الزراعة في حياته وإستقراره وبناء مدنه وحضارته. وقد كان سلم الحضارة الاول الذي شكل حاضنة لحضارة وادي الرافدين القديمة تَمَ بناء مجتمع متكامل ولفترة زمنية طويلة طبقاً لفلسفة القوم المنسجمة مع ظروفهم في ذلك الوقت.

تذكر القصيدة قيام أنليل بفصل السماء عن الارض، ثم خلق الانسان ووضع في يده المعول للعمل وخدمةالآلهة وتنص الاسطورة كما يظهر في هذا المقطع:-

فحفر شقاً في الارض...
وخلق المعول...
ووضع بدايات البشر في الشق...
وعندما بدأ البشر يظهر كالحشيش في الارض...
كان اله أنليل ينظر مرتاحاً الى شعبه السومري.
..... الخ.

تشير هذه الملحمة بوضوح لبداية إنتشار الزراعة. وهي الملحمة الوحيدة التي تقول بظهور الانسان مثل الحشيش من باطن الارض وتعكس مفهوماً زراعياً صِرفاً لحضارة وادي الرافدين التي قامت في مراحلها على الزراعة المطرية خلال الفترة 8000 – 5000 ق.م[1].

وكذلك تشير الاسطورة ان السومريين هم ابناء أولئك الرواد الذين خرجوا من كهوف الشمال (كردستان) ونقلوا البشرية من عصر جمع القوت الى عصر إنتاج القوت (الزراعة المطرية). ثم إنتشروا لغاية الجنوب (زراعة الري)، ونقلوا البشرية من عصر ما قبل التاريخ الى عصر التاريخ (إختراع الكتابة) وتجسد إسطورة" إله الشعير (أشنان)

(1) خزعل الماجدي، "متون سومر" (المصدر السابق نفسه) ص 168.

و(النعجة)" - التي يعتقد بظهورها قبل الانتقال الى القسم الجنوبي من البلاد – بدايات الحياة الزراعية الصرفة بما في ذلك تدجين الحيوانات.

والطريف فيها أنها لا تخلو من أفكار عصرية عن طبيعة البشر الاوائل وأصل الانسان (القرد). فبعد ولادة آلهة الأنوناكي العظام، حيث لم تُخلق النعجة بعد ولم يُخلق أشنان إله الشعير، كيف كان حال البشر الاوائل؟ تقول الاسطورة كما يظهر في المقطع:-

البشر الاوائل لم يعرفوا أكل الخبز...

ولم يعرفوا إرتداء الملابس بعد...

وكانوا يسيرون على أيديهم وأرجلهم...

ومن القنوات يشربون الماء[1]... الخ.

أخذت أهمية عناصر البيئة الطبيعية موقعها في حضارة وادي الرافدين بالتغيير مع الأنتقال من الزراعة المطرية (الشمال) الى الزراعة المروية (الجنوب)، وبدأت قدسية (انليل) - اله الجو - بالتراجع لصالح (انكي) - اله المياه السطحية والجوفية - وذلك لأن الأمطار لم تعد نافعة في الجنوب لأتمام ري الشعير الى نهاية الموسم.

ومن هنا ظهرت" أسطورة اله (أنكي) أوالآلهة (تنماخ)" وهي تنسب خلق الأنسان لـ (أنكي) وتعبر عن مجتمع زراعي يقوم على الري الصناعي وأعتمدت المقومات المتاحة في بلاد سومر، وتكشف عن غضب صغارالآلهة لتحميلهم مشاق العمل تحت سياطالآلهة الكبار، فجاء خلق الأنسان حلاً لهذه المعضلة: -" أن يكون مصيره العمل" وكان الخالق أو الآمر بالخلق هو (أنكي)[2]..

بدأت مكانة (انكي) بالتراجع أيضاً بعد منتصف الألف الثالث ق.م وذلك حين ظهور آفة الملوحة والتصحر وهجرة الأرض والمدينة في بلاد سومر، حيث لوحظ كيف أن هذا العامل شكل أحد العوامل الرئيسية في فقدان بلاد سومر لسلطتها السياسية لصالح سلطة بابل التي بدأت أهميتها بالتعاظم منذ عام 2000 ق.م. وأصبحت في حدود 1800 ق.م مركز السلطة السياسية في بلاد الرافدين. هذه التطورات السياسية دفعت كهنة بابل لأحداث تطوير في قصة الخلق تتناسب ومكانة حضارتهم

---

(1) فوزي رشيد" حضارة العراق" ج1 ص 167-168.

(2) فوزي رشيد (المصدر السابق نفسه) ص 172-173.

ومكانة كبيرالآلهة لديهم والمدعو (مردوخ) -اله بابل- فظهرت" ملحمة الخليقة البابلية[1].

تعتبر هذه الملحمة من أبرز القصائد الشعرية في الأدب الديني وواحدة من أكثر الروائع الأدبية في محتواها وقدمها وشهرتها. تُعرف أيضاً بقصيدة (أنيوما أيلش) - حينما في العلى – نسبة الى فاتحتها. وهي تظم أكثر من الف بيت شعر، وأسبغت عليها صفة القدسية مثل (الكتاب الديني)، أذ كانت تتلى أثناء احتفالات رأس السنة في مدينة بابل وعلى مدى حوالي الف عام.

تذكر الأسطورة انه في البداية لم يكن هناك سوى العماء - المياه الأزلية: (أبسو) - المياه العذبة - مذكر.. و(تيامات) - المياه المالحة - مؤنث.. وبعد أمتزاجهما تولد جيل من الآلهة. وعن طريق الزواج ولدت أجيال جديدة من الآلهة أشتهر منهم الثلاثة الذكور الكبار (آنوا، أنليل، أنكي) وبعد أن تكاثر عددالآلهة وأخذ ضجيجهم يقض مضجع أبيهم الكبير (أبسو)، قرر الأخير تصفيتهم لينعم بالراحة.

يذهب أبسو يصحبه وزيره" حمو" الى تيامة شاكياً همه ويخبرها بقراره، لكنه يجد معارضة من تيامة[2]: -

ولما سمعت (تيامة) ذلك غضبت وصرخت بزوجها...
أدركت في قلبها مايبيت (أبسو) من شر وخاطبته:
"علام ندمر ما أوجدناه بأنفسنا
حقاً أن صنيعهم يسبب الألم
ولكن لنصبر على ذلك ونتحمله عن طيب خاطر".

أستمر (أبسو) في خطته بمعاونة وزيره بتصفية جيلالآلهة الحديثة بعد أستبعاد (تيامة) من الخطة. ولكن جيلالآلهة الحديثة أدركوا نواياه قبل تنفيذ خطته، فأصابهم الرعب والهلع ولاذوا بـ (أنكي) المتبحر بالمعرفة والحكمة لحمايتهم.

عمد (أنكي) الى قوته السحرية فعمل تعويذة سحرية شلت حركة (أبسو) ثم قتله وأنتزع منه تاج الألوهية وسجن وزيره(حمو). وهنا أشتد حمق (تيامة)، وأنتفضت لأخذ ثأر زوجها. فولدت جيشاً من العفاريت

---

(1) فوزي رشيد (المصدر السابق نفسه) ص 174.
(2) طه باقر،" مقدمة في أدب العراق القديم" ص 71-75.

على رأسهم (كنكو) الذي أصبح قائد جيشها وزوجها. وأثناء هذه الفترة الطويلة ولد لـ (أنكي) أبنه (مردوخ) الذي سيلعب دوراً حامياً في الأساطير البابلية.

أتصف (مردوخ) بالحكمة والثقافة" وكان أعجوبة منذ ولادته... وكان هيكله هائلاً..." .

وبعد أن أدركت الآلهة الخطر المحدق بهم وجبن كبارهم مثل (آنو، أنليل، أنكي) عن مواجهة (تيامات) وجيشها المرعب، علاوة على فشل محاولتهم الصلح معها، وافق (مردوخ) على أقتراح الآلهة أضطلاعه بهذه المهمة الخطيرة ومنازلة (تيامات)، ولكنه طلب مقابل ذلك أن يتبوأ السلطة العليا المطلقة على جميع الآلهة. وهذا الأمر أقتضى أجتماع الآلهة وعقد مجلس الشورى (مجلس الأنوناكي) لمنحه الصلاحيات المطلوبة.

ولما أنتظم عقدهم في وليمة عامرة بالطعام والشراب وذهب عنهم الخوف بتأثير ماأحتسوة من خمر جيد، أقاموا منصة لـ (مردوخ) وأتفقوا بالأجماع على نقل سلطاتهم وزعاماتهم اليه، وفوضوه تقرير المصائر والأقدار وصارت" أرادته لاترد ولاتبدل" وتوجوه ملكاً عليهم وعلى جميع الكون، وهتفوا قائلين" حقاً مردوخ ملك" وقدموا له الخضوع والولاء والطاعة بصفته ملكهم، وقلدوه شارات الملوكية والسلاح الذي لايقهر وحرضوه على قتال (تيامة)

هيأ مردوخ أسلحته للنزال الرهيب، تتقدمها أسلحته السحرية: العاصفة والبرق والنور الوهاج ومجموعة مخلوقات مخيفة، علاوة على أسلحته التقليدية الضخمة: الشبكة والقوس والسهم. أقترب (مردوخ) من جموع (تيامات) بقيادة (كنكو) فصعقت من جلال الوهيته المرعبة وأسلحته الفتاكة وهربت تلك الجموع، عدا (تيامات) التي ثبتت أمامه، وقبل النزال بودلت الشتائم بينهما. وعندما تقدمت تيامات لمنازلته، نشر مردوخ شبكته فأصطادها، ولما فتحت فاهها لأبتلاعه ساق في فمها الرياح الشريرة، فمنعها من أطباق شفتيها من شدة الرياح التي ساقها ولم تستطيع أطباق شفتيها عليه. وسلط عليها الرياح فأنتفخ جسمها وعندئذ رشقها بسهم في فمها الفارغ فأصاب قلبها وقضى عليها، ووقف على جثتها منتصراً. قبض على أتباعها وسجنهم وأنتزع من قائد جموعهم (كنكو)، لوح الأقدار وختمه بختمه وعلقه على صدره. ثم عاد الى جثة (تيامات) فشق جسمها نصفين متطابقين، صنع السماء من أحدهما والأرض من النصف الآخر. وبعد أن عين للألهة الكبار (آنوا، أنليل، أنكي) الأجزاء التي يحكمونها

من الكون وحدد أماكنهم في السماء قرر تقسيم الآلهة الى مجموعتين: الأولى والأكبر في السماء والأخرى في الأرض.

وأما الأنسان فأن (مردوخ) يأمر بخلقه، ولكن الخالق الحقيقي وحسب الأختصاص بقي لـ(انكي) ومادة الخلق هنا هي الطين: التراب ودم آخذمن الاله (كنكو- الشرير) بعد ذبحه. كما بقي هدف ودوافع خلق الأنسان نفسه نتيجة شكوى صغارالآلهة من عناء العمل المضني تحت ضربات سياط الآلهة الكبار، وإيجاد بديل (الانسان) للعمل وخدمةالآلهة[1].

وعرفاناً بفضل مردوخ وبطولة عمل آلهة الأنوناكي (مجمع الشورى للآلهة) طوال عام واحد في تشييد بيت يليق بمقامه، فأقاموا معبده العظيم (أي - ساقلا) في بابل. وبعد أن تم تشييد ذلك أجتمع الآلهة في حمل وليمة عزفت فيها الموسيقى وقدمت الجعة ورتلاالآلهة بمديح مردوخ وتمجيده وتنازلوا له عن أسمائهم وصفاتهم، فصار لـ (مردوخ) خمسون أسماً من الأسماء الحسنى، وتنتهي القصيدة بترتيل يرتل تمجيداً لآلهة بابل في عيد رأس السنة من كل عام.

بموجب هذه الاسطورة البابلية تكون المادة الاولى ذات طبيعة ثنائية، إذ كانت مادةً وإلاهاً في نفس الوقت، أي أن المادة أزلية منذ البدء... هذا على خلاف الاديان الرئيسة حيث أن وجود الخالق الازلي سبق وجود المادة التي أوجدوها[2]لكن معرفتهم الثنائية لطبيعة المادة، رغم أنها تشكل فكراً معاصراً قامت على فلسفة ميتافيزيقية لم يكتب لها التحرك والتطور في غياب منهج التفكير العلمي.

لقد وردت أساطير خلق أخرى كثيرة تستحق الذكر منها: -" أسطورة أصلاالآلهة". وقد تم ترتيب الآلهة في شكلها البابلي على هيئة زوجين ذكر وأنثى والاتصال الجنسي بينهما يتم بزواج الولد من أمه وقتل أبيهِ، وزواج الاخت من اخيها وقتلها لأمها[3]. في" أسطورة الهبوط" التي تنتمي الى مجموعة أساطير أنليل (اله الجو) وترد في صيغ عديدة تتضمن معاشرته لـ (ننليل) -قبل أن تصبح زوجته- فجاءت نتائج هذه المعاشرة ولادة المطر والفيضان وخصوبة الأرض وأخصاب العائلات البشرية. وفي صيغة أخرى يقوم أنليل بأغتصاب ننليل ويحكم من قبل مجلس الآلهة بالنفي الى العالم الأسفل (الأرض).

---

(1) فوزي رشيد (المصدر السابق نفسه) ص 175

(2) جورج بوييه شمار ص 381-398.

(3) المصدر السابق نفسه ص 92-94.

وتشير الى أنحدار مركز (أنليل) من مرحلة الأنتقال من الزراعة المطرية في الشمال الى الزراعة المروية في الجنوب. وفي صيغة ثالثة تتم الخطبة والزواج ويطلق أنليل عليها لقب سيدة الهواء. من الملاحظ هنا ان عملية الأنتقال من الزراعة المطرية الى الزراعة المروية تعتبر بالنسبة لهم عقوبة لما يعاني المزارع من مشقة في الأرواء وهكذا ذهب خيالهم الى الصراع الألوهي الحاصل في السماء مصدر الأمطار (حسب عقيدتهم)، وهكذا أستمرت المفاهيم حول السعادة والراحة الناجمة عن هطول الأمطار من السماء وبالتالي ترفع الأيادي للدعاء دائماً بأتجاه السماء بأعتباره مصدر الخير ومقرالآلهة في مجتمعهم الزراعي...

وفي أسطورة" أنكي و ننخرساك": فيها وصف لأرض دلمون – (البحرين حالياً): غزيرة المياه عالية الخصوبة، كثيرة الخيرات، ذات زرع وحقول وبساتين، والتي جعلها أنكي أرضاً طاهرة.. وتتحدث الأسطورة عن حصول جماع بين أنكي والألهة ننخرساك ثم مجامعته لأبنته، ثم حفيدته... وهكذا في ظل ولادات سريعة. وفي آخر جماعه بأبنة لحفيدته تلد ثمانية أنواع من النباتات والأشجار. وعندما شاهدها (أنكي) أراد معرفة ماهيتها فأمر رسوله (أسيمود) - ذات الوجهين - أن يقطعها ويأكلها، وعندئذ غضبت (ننخرساك) ولعنت (أنكي) وأحلت به الأمراض. ومن خلال وساطة ناجحة للثعلب تحضر (ننخرساك) لمجمع الآلهة في دلمون وتشفي (أنكي) من علله بعد أن غفرت له أساءته" وأخذته وأجلسته على فرجها" فعاد أنكي وتبوأ مركزه السامي بين الآلهة[1].

وتتحدث" أسطورة أنكي وتنظيم الكون" عن قيام (أنكي) - اله المياه والمعرفة والحكمة - بجولة في أقاليم الأرض المعروفة لديهم آنذاك والتي تبدأ من بلاد سومر وتنتهي في البحر وأخذ بتنظيم أحوال الارض وأنهارها وبحارها، فملأ نهري دجلة والفرات بالمياه العذبة والاسماك، وأوجد احراش القصب والآجر والحيوانات، ومن أجل تنظيم المجتمع البشري نصب الهاً لكل ناحية من نواحي النشاط الحضاري فمثلاً خصص للأشراف على الفلاحة والزراعةالآلهة (إينمكدو) والخضار والغلالالآلهة (أشنان) والماشية والرعي الآلهة (دموزي) - تموز.. وهكذا.

---

(1) طه باقر (المصدر السابق) ص 89-90.

وتتطابق" أسطورة تمجيد عشتار" مع عصر ما قبل التاريخ والعصور التاريخية المبكرة، وتتضمن محاولة أعادة هيبة (آنو) - اله السماء - من قبل كهنة (الوركاء) - وهي أقدم مدينة سومرية في جنوب العراق وكانت مركز عبادة (آنو):-.

تتناول الأسطورة كيف أن (آنو) أشرك أبنتها الآلهة (عشتار) في تاجه بعد فترة حب طويلة لها. وأعترافاً بجميلها رغب أن يرفعها الى درجة المساواة معه بناءاً علىٰ نصيحة مجمع الآلهة، وأمر أن يكون أسمها بعد الزواج منها (أنتو) - صيغة المؤنث لـ (آنو). وبعد أن مُجّدت (عشتار) وبُجّلت أحتلت مكاناً مهماً في السماء حيث مقر (آنو)، ثم شخصت بالكوكب السيار (الزهرة)[1] وأصبحت رمزاً للجمال والحب لدى البابليين. وفي" أسطورة نقل النواميس الألهية الى الوركاء" قصة تحايل عشتار - أنانا لحيازة (النواميس الألهية) من أنكي - أيا المختص بحيازتها، ونقلها لمدينتها الوركاء - أوروك، والتي تشكل العناصر الأساسية للحضارة والمدنية من بينها: السيادة والألوهية ونظام الحكم والتاج والصولجان ووظيفة الكهانة والصدق والخداع والتزوير والفن والموسيقى والعداوة والبغضاء والصلاح والعدل والطوفان والجماع والبغاء وطائفة من الحرف والصناعات التي كانت متداولة لديهم كالنجارة والحدادة والبناء والحياكة... ونجاحها في مهمتها بعد أن أكثرت له في الشراب[2].

وتحدثت" أسطورة ننورتا" عن الكفاح الذي خاضه الأله ننورتا أبن أنليل ضد قوى الشر وأنتصاره عليها. وقد منح الصخور التي حاربت معه أحسن الأسماء (الرخام والآزود والمرمر... الخ) وظلت تلك الأنواع من الصخور تستخدم في الأبنية ذات القدسية لدى الأنسان لفترة طويلة، وكذلك تستخدم في زخرفة القصور والمعابد ومواد التماثيل والهياكل الخاصة بالآلهة، بينما أعطى الصخور التي حاربت ضده أردء الأسماء فصارت تستعمل في بناء عتبات الأبواب وتدوسها الأقدام.

وتعود أسطورة" تعويذة الولادة - خلق الأنسان" السومرية الأصل الى عصر أنكي وتتضمن جوانب من آراء القوم في خلق الأنسان من قبل

(1) جورج كونتينو- المصدر السابق- ص 333.
(2) طه باقر المصدر السابق ص 91-92.

(مامي) - اله الخلق. وبطلب من أنكي والآلهة الأخرى تم خلق الأنسان من الطين (التراب) بعد خلطه بدم أحدالآلهة المضحى به لهذا الغرض. وهي تشبه في هذه الناحية" ملحمة الخليقة البابلية" والتي أصبحت مصدراً للعديد من القصص والروايات الدينية في الشرق وتُعبر أسطورة" تعويذة وجع الأسنان" عن عصرالآلهة الكبار" والتي تنص على أن الخلق جرى على النحو الأتي: بعد أن خلق الآله آنو السماء، خلقت السماء الأرض وخلقت الأرض الأنهار والجداول والقنوات وخلقت الجداول الأهوار وخلقت الأهوار الدودة"... وبعد ذلك ذهبت الدودة للآلهة شمش وأنكي تشكو لهم وتقول" ماذا تعطيني لطعامي؟ وماتعطيني لأمتصه؟"" أجابها أنكي سأعطيك التين والزيتون والمشمش" ولكنها لم تقتنع وقالت" وماجدوى التين الناضج أو المشمش بالنسبة لي؟ أنا أريد أن تضعني في الأسنان وتجعل مسكني اللثة لكي أمتص دم الأنسان وأقرض اللثة وآكل جذورها" ووافق أنكي على أقتراحها هذا. وعلى ضوء هذا المعتقد أخذ الكهنة يعمل تعويذته للمريض الشاكي الماً في أسنانه أو لثته والتي تتضمن" لأنك قلت هكذا للأله يادودة فليحطمك الأله أيا... الخ".

وهناك العديد من الملاحم الأخرى كان أشهرها على الأطلاق ملحمة" كلكامش" وهي تبحث عن حقيقة الموت المطلقة وعن معرفة سر الخلود من رجل الطوفان. وتجمع هذه الملحمة عدة أساطير منها: ملوكية كلكامش وصداقته لغريمه أنكيدو ومغامرتهما، ثم موت أنكيدو ورحلة كلكامش بحثاً عن الخلود وقصة الطوفان وأخيراً موت كلكامش.

أن قصة الطوفان هي قصة حية تتكامل مع ملحمة كلكامش. وقد ورد خبرها في قائمة الملوك السومرية، حيث تضمنت أن الطوفان جرف البلاد بعد حكم مدينة (شروباك)- تل فارة الواقعة على بعد 40 ميل جنوب شرق مدينة الديوانية جنوب العراق وأعتبر هذا الحدث حداً فاصلاً بين عهدين متميزين في تاريخ وادي الرافدين: أي ما قبل وما بعد الطوفان. كما أن مايذهل القارئ الصورة الحية لشخصيات الآلهة التي تضفي عليها صفات الأنسان البدائي والصراحة في وصف هيجانها وغضبها[1].

ومن الناحية التاريخية تشكل القصة الأكثر قِدماً، إذ إستقرت فكرة الطوفان في وجدان العالم القديم. والمعتقد أنها ترجع في أصولها الى

---

(1) جورج كونتينو المصدر السابق ص 329.

الفيضانات العارمة للنهرين (دجلة والفرات). وذهب الباحث الأثري المعروف "وولي" الذي نقب في أور الى أحتمال وقوع هذا الطوفان في حدود 4000 ق.م كما أستنتج العالم الفرنسي "مورغان" الذي ترأس بعثة التنقيب في سوس (الشوش حالياً) في بلاد عيلام (أيران). أن قصص الطوفان تُخلد ذكرى فيضان حدث بدرجة من الجسامة لايمكن نسيانها وذلك في آخر عصر جليدي يرجع تاريخه الى 8000 سنه من الآن[1].

وجدت قصة الطوفان في ثلاث روايات رئيسية تتشابه في خطوطها العامة والعديد من تفاصيلها. وقد بدأت في أصلها كمأثرة أدبية سومرية، ثم ضمنت اليها أو عدلت وطورت وأخرجت بصيغة بابلية، كما هو عليه الحال في العديد من آداب الحضارة في بلاد وادي الرافدين.

وأولى تلك الروايات وبطلها (زيوسيدرا) الذي أنقذ البشرية من طوفان شمل الأرض كلها (حسب عقيدة القوم) والثانية وبطلها (أوتو-نبشتم)، والثالثة وأكثرها تفصيلاً وبطلها (أتراحاسيس) الذي يقوم بدور مشابه في أنقاذ البشرية.

كانت عقوبة الطوفان في رواية أتراحاسيس آخر سلاح تلجأ اليها الآلهة للحد من تكاثر البشرية التي أخذت ضوضائهم وضجتهم تقض مضجعالآلهة وتحرمها من الراحة والهدوء، ويظهر أنليل - اله الجو / الرياح، كان المحرض على قيام الآلهة بمجموعة خطوات متلاحقة كان الغرض منها فتك البشرية وأهلاكهم. ففي المرة الأولى أقنع أنليل الآلهة بأنزال الأمراض والأوبئة وفوضت -(نمتار)" الأله المسئول عن الأمراض والأوبئة" - بتنفيذ تلك المهمة، فأنتشرت الأمراض في البلاد وأخذ يلتهم الناس ألتهاماً. وعندئذ أستنجد أتراحاسيس بـ أنكي/أيا لتخليص الناس من هذا الهم. وقد جاءت توصية أنكي اليه ببناء معبد للأله نمتار وتقديم الهدايا والنذور له ليرفع نمتار يده عنهم. وبمرور فترة زمنية أخرى وتكاثر أعداد الناس من جديد وأزدياد صخبهم وضجيجهم، قرر أنليل أن يعاقبهم بالجفاف والقحط والمجاعة. وهكذا أصدر أوامره للآلهة: أدد لحبس المطر، أنكي لمنع المياه الجارية، نيسابا -الهة الحنطة لمنع محصول الحنطة من النضج. وهكذا حلت المجاعة بين الناس لمدة ستة

(1) جورج كونتينو المصدر السابق ص 330.

سنوات متوالية (وهذه فكرة مشابهه للحلم الذي راه النبي يوسف (ع) في مصر في قصة يوسف).

فلم ينبت الزرع، وسادت المجاعة وفتكت الأمراض بالناس، وأصبحت الأجسام ضامرة، وتوقفت الولادات وأصاب الناس الجرب وتشوهت ملامحهم" أتخذوا من البنت عشاء لهم وأتخذوا من الولد غداء لهم لكنهم لم يشبعوا حتى ألتهم كل جار جاره. وكان الناس أحياء لكن على حافة الموت"[1] ولكن هنا يبادر أنكي مرة أخرى الى الأشفاق على الناس وأنهاء مصيبتهم فيسمح بتدفق المياه من العمق، وبهذا التصرف عرض نفسه لغضب أنليل الذي صمم هذه المرة أن تؤدي جميع الآلهة القسَم لأرسال الطوفان وتدمير الأرض ومن عليها.

وبتحريض من أنليل صدر قرارهم لأفناء البشر بتسليط الطوفان عليهم بعد أن أجتمعوا الثلاثة الكبار (أنو- أنليل - أنكي)، ولكن أنكي بادر منذ البداية الى الوقوف الى جانب البشر، ونقل قرارالآلهة بشكل غير مباشر لـ أوتو - نبشتم أذ وجه ندائه كما يلي:

" " ياكوخ القصب! ياكوخ القصب! أسمع ياكوخ وأفهم ياحائط، يارجل مدينة تروباك يأبن أوبار _ توتو قوّض بيتك وأبني لك فلكاً. تخلَّ عن مالك وأطلب النجاة. أنبذ الملك وأنجُ بحياتك، وأحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة، والسفينة التي تبني أضبط قياسها ليكون عرضها مساوي لطولها، وأختمها جاعلاً إياها مثل مياه الـ آبسو"".

ولما سمع رجل شروباك (أوتو نبشتم) تصدع للأمر، وفهم قرب حدوث الفيضان وكيف يتصرف، وصنع السفينة بمساعدة أهل المدينة في سبعة أيام وجهزها بالمؤن والمتاع وأدخل من كل حي بذرة علاوة على أهل بيته وذوي قرباه.

كما عين الأله شمش له موعداً بقوله" حينما ينزل الموكل بالعواصف أمطار الموت والهلاك في المساء فأدخل السفينة وأغلق بابها". ولما حان الوقت المحدد سقط المطر المهلك" فولجت السفينة وأغلقت بابي..." وفي هذه الأثناء أخذ كل من أله السماء والأرض دوره في أطلاق الفيضان ليصل الى أقصى حالاته من رعود مزمجرة تصل عنان السماء وزوابع وأمطار غزيرة، علاوة على أطلاق مياه العمق، فدمرت

(1) طه باقر (المصدر السابق) 258.

المساكن والأبنية والسدود، وساد الظلام الداكن وصار الأخ لايبصر أخاه والناس لايميزون من السماء" حتى الآلهة أرتعدوا من شدة الهول فأخذوا يتراجعون الى الخلف حتى وصلوا سماء آنو. (السماء السابعة).

أستمر الطوفان ستة أيام وسبع ليال، وفي اليوم السابع هدأت الأوضاع، ونظر أوتونبشتم من فتحة صغيرة في سفينته الى الجو فرأى السكون المطبق وقال" رأيت البشر وقد أستحالوا جميعاً الى طين فسجدت وأنهمر الدمع على وجهي". أستقرت السفينة على جبل فمسكها الجبل ولم يدعها تجري. وباشر رجل الطوفان في معرفة مدى أمكانية الخروج من السفينة والعودة الى الأرض، فأخرج حمامة وأطلقها فما لبثت أن عادت لأنها لم تجد محطاً لها، وحصل للسنونو نفس الشئ في المحاولة الثانية، وفي المرة الثالثة أطلق الغراب فطار ولم يعد بعد أن وجد مكاناً يحط به. وحالما تأكد رجل السفينة من أمكان العودة الى الأرض، أخرج مافيها وقربت القرابين وسكبت الماء المقدس على قمة الجبل... وكدست أسفلها القصب والآس والأرز فشم الآله شذاها، وتجمعوا حولها كأنهم الذباب. ولما وصل أنليل قال غاضباً للألهة" عجباً كيف نجت نفساً واحدة وكان المقدر أن لاينجو بشر من الهلاك؟ أجابه (ننورتا) بقوله" من ذا الذي يستطيع أن يقوم بهذا الأمر غير أيا..." وهنا قال أيا مخاطباً" أيها البطل أنت أحكمالآلهة، فكيف لم تبصر فأحدثت طوفان! حمِّل صاحب الخطيئة وزر خطيئته والمعتدي إثم أعتدائه، ولكن في العقاب لئلا يمعن في الشر... أما أنا فلم أفش سرالآلهة ولكن جعلت أوتو_نبتشم يرى رؤيا فأدرك سرالآلهة، والآن تدبر أمره وقرر مصيره. هدأ أنليل ولان وخفت سورة غضبه ثم دخل السفينة وجعل رجل الطوفان وزوجته يسجدان أمامه ولمس ناحيتهما وباركهما قائلاً: " لم يكن أوتونبشتم قبل الآن سوى أحد البشر، ولكنه منذ الآن هو وزوجته مثلنا نحنالآلهة وسيعيش أوتونبتشم بعيداً عن فم الأنهار".

وهكذا أصبح رجل الطوفان واحد من الآلهة وعاش طويلاً. وهنا يوجه أوتونبشتم كلامه الى كلكامش حين قصده الأخير ليسدي له النصيحة في الحصول على الخلود الأزلي: من سيجمع الآلهة من أجلك لتنال الحياة الخالدة؟ تعال أمتحنك" لاتنام ستة أيام وسبع ليال" (وهي المدة التي مكثت فيها السفينة في البحار أثناء الطوفان). لكن كلكامش أخذته سنه النوم حال جلوسه، فألتفت بطل الطوفان لزوجته قائلاً" أنظري وتأملي هذا الأنسان القوي الذي ينشد الحياة قد غلبه النوم." فأقترحت عليه زوجته

أيقاظ كلكامش ليعود أدراجه من حيث أتى، لكن أوتونبشتم حذرها قائلاً" لما كان الخداع سمة البشرية فأنه سيخدعك. فأخبزي له أرغفة من الخبز وضعيها عند رأسه، بعدد الأيام التي ينام فيها وأنشريها على الجدار". ففعلت ماأمرها. ولما كان الرغيف السابع لايزال على الجمر لمس أوتونبشتم كلكامش فأستيقظ وقال له" لم تكد تأخذني سنه من النوم حتى لمستني فأيقظتني. أجابه أوتونبشتم" ياكلكامش عدّ أرغفتك ينبئك المؤشر على الحائط عدد الأيام التي نمتها. عندئذ يئس كلكامش... وأمر رجل الطوفان ملاحه أخذ كلكامش ليغتسل ويبدل ثيابه ويعود به الى مدينته أوروك. وقبل أن يهما بركوب سفينة العودة تشفعت له زوجة بطل الطوفان عند زوجها بأن لايدعه يعود خائباً لبلاده. فكشف له أوتونبشتم سر نبات شوكي عجيب ينبت في أعماق البحر له خاصية سحرية في تجديد الشباب وأطالة العمر. نجح كلكامش في العثور على ذلك النبات وفرح وقال لرفيقه الملاح أنه سيحمله معه الى أوروك ويشرك الناس معه ليأكلوه، وسيكون أسمه (يعود الشيخ الى صباه كالشباب). أما هو فسيأكل منه في أواخر أيامه حتى يعود الى شبابه. ولكن أثناء توقفهما في الطريق تسرق الحية منه هذا النبات وتأكله، فتنزع جلدها حالاً وأصبحت تجدد شبابها كل عام. وهكذا أتخذت صورة الحية رمزاً للتطبيب والشفاء والحياة. وفي الغرب تم أخذ الحية رمزاً عن اليونان من خلال الأسطورة اليونانية الشهيرة المشابهة لما جاء في ملحمة كلكامش من حيث الهدف. ويصبح ربط هذه الأسطورة بأسطورة العداء الذي أستحكم بين الحية وذرية حواء وأدم بعد حادثة أغواء حواء وطرد آدم وحواء من الجنة. أو الشيطان المتمثل بالحية وذلك من خلال أقناعهما أن يأكلا من الشجرة المحرمة[1].

حزن كلكامش بعد أن ضاعت عليه الفرصة الأخيرة لحصوله على الخلود. لكن الملاح يفتح عين كلكامش على طريق آخر لخلود الأنسان من خلال مايتركه خلفه من عمل طيب ينفع الناس. وفي ختام هذه الملحمة ترد قصة" موت كلكامش" وهي قصة سومرية الأصل يعود تدوينها للعصر البابلي القديم (الألف الثاني ق.م) ورغم قلة ماتبقى من النص الأصلي فهي تلقي ضوءاً ساطعاً على جانب مهم من معتقدات القوم

(1) طه باقر، مقدمة في أدب...ص 125.

عن عالم الأموات والتي تختلف تماماً عما كان عليه الحال في حضارة وادي النيل كما أوردنا سابقاً.
هكذا كانت الاساطير المدونة والتي تُعبّر عن تطور الافكار السائدة في حضارة وادي الرافدين القديمة وعن حياتهم وما يدور بينهم من علاقات اجتماعية وتقاليد. وقد يبدو لنا عند قراءتها في العصر الحديث مضحكة وساذجة الا أننا نقرأ تلك الحكايات بعد آلاف السنين توصل الانسان خلالها الى كم هائل من المعلومات العلمية وأصبح واسع الأفق الى درجة كبيرة. أما في العصر القديم (السومري والبابلي و الآشوري) فقد شكلت تلك الأساطير خطوة متقدمة جدا الى الأمام بالمقارنة مع عصور قديمة سابقة، ففي العصور الحجرية الاولى عندما كان الانسان يعيش متنقلا وينام في الكهوف كانت الرسومات الرمزية للحيوانات المفترسة وغيرها من الأدلة التي تعكس تصورات الانسان القديم أكثر تخلفا وتدل على ضعف أفقه ومداركه بالمقارنة مع القصص والأساطير السومرية مثلا، ويجدر الاشارة هنا الى أن ذلك العصر كان متميزا بالاساطير الخرافية وكان هناك تشابه كبير بين الأساطير التي كتبها الصينيون والهنود القدماء. كما أنها في تشابه كبير أيضا مع أساطير مصر واليونان والرومان التي اكتسبت شهرة كبيرة في عصرنا الحديث بعد أن دُرست واعطيت الكثير من الاهتمام، واستخلص من خلالها الكثير من الدروس والعبر، على العكس مما نحن عليه من ضعف في الاهتمام بذلك التراث من الاساطير. وباختصار كان وازع الخوف من المخاطر المحيطة بالانسان الرافديني هي الصفة المميزة والمحفزة لكل تلك الأساطير.

6- مناقشة ما ورد في تاريخ حضارة وادي الرافدين: -

أن التفاخر بأمجاد الماضي والأدعاء بقدم الحضارة وعراقتها يتطلب منا دراسة ومعرفة مدى تأثير تلك الحضارة على واقعنا الحالي، وتحديد نقاط قوة وضعف النشأة الأولى، وماتبقى من كل تلك الأحداث من موجات ترددية داخل عقولنا وتأثير تلك الموجات في حياتنا الأجتماعية والسياسية والنفسية، سواء أكان ذلك الموروث قد أثر تباعاً في السلسلة التاريخية اللاحقة وما آلت الية الأحداث التي أوصلتنا الى مانحن علية الأن، وماهو حاصل ولايزال يعيش فينا وفي عاداتنا وتقاليدنا دون أن ندرك ذلك بالتفصيل. وقد أوردنا العديد من المواريث التاريخية في

حضارة وادي الرافدين ولو بشكل سريع جداً وبلمحة خاطفة جداً لأن الغور في هذا المجال يحتاج الى مجلدات وكتب عديدة ومن يرغب في التفاصيل الدقيقة عليه أن يرجع الى المصادر المشار اليها في هذا الكتاب، وضمن النظرة السريعة هذه برزت ثلاثة نقاط رئيسية لابد من مناقشتها من أجل الوصول الى زيادة في فهم المجتمع العراقي وبقدر تعلق الأمر بموضوع بحثنا عن تأثير المواريث التاريخية في حضارة وادي الرافدين القديمة علينا وكما يلي: -

أ - تأثير نشأة المعتقدات الدينية في فلسفة الحياة: -

لقد نشأت الأفكار والمعتقدات الدينية في عقل الأنسان الذي كان يقطن بلاد الرافدين منذ الآف السنين وترسخت في كيانه وعقله وأصبحت ذات تاثير مباشر على حياته وسلوكه اليومي في كل المجالات، مثل حياته الأجتماعية والأقتصادية والسياسية ونظرته للأمور والظواهر الطبيعية المحيطة به. أن قيام حضارة وادي الرافدين على قاعدة دينية جعلت التركيز من قبل العلماء والكهنة في كافة مجالات المعرفة منصبة على كشف رغباتالآلهة وتنفيذ كل تلك الرغبات لأرضائهم ولحماية الناس وتأمين مستقبلهم. وهذا هو السبب الذي جعل التقسيم الحديث للفكر والمعرفة الى فنون وعلوم تطبيقية من جهة وأمور فلسفية من جهة أخرى، تبدو غريبة عن تصورهم، حيث أعتبروا كل العلوم ذات أهمية متساوية ولم يستطيعوا ملاحظة عملية نشوء وتطور المعرفة من خلال تراكم المعرفة والخبرة لدى العقل البشري عبر العصور، كما هو حاصل في عصرنا الحديث. ومع أنهم عالجوا قضايا لاتقل شأناً وخطورة عما كان يشغل الفلسفة اليونانية والفكر الحديث، الا أن تفكيرهم في معالجتها جاء خيالياً وشعرياً وأسطورياً. وغاب عنهم المنهج الموضوعي الذي تمسك به فلاسفة اليونان من أمثال أرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم والذي بني على أساس الأستقراء والأستنتاج. وقد تمت الأشارة الى سبب ذلك من خلال الظروف والمخاطر الطبيعية التي كانوا يعيشون فيها،

والمختلفة عما هو عليه الحال في بلاد الأغريق لقد أسس المفكرين في بلاد الرافدين القدماء علومهم وفنونهم على مبادئ تستند على الخيال وما يعرف بما وراء الطبيعة (الميتافيزيقية) وهي بعيدة عن القواعد الفيزيائية (الطبيعية) الملموسة فأوصدوا الباب أمام الجهد المثمر عن تفسيرات عقلانية لنشأة الظواهر الطبيعية المحيطة بهم. رغم أنهم كشفوا الكثير من الأجوبة عن الأسئلة التي تخص التساؤل في "متى" و "ماذا" يحدث هذا أو ذاك من تلك الظواهر الطبيعية، ألا أن النظرة الفوقية (الطوباوية) لتلك الأمور قد منعتهم من أن يتساءلوا عن" كيف" و" لماذا" حدث هذا أو ذاك من تلك الظواهر ولم يجربوا أبداً تاسيس نظرياتهم في هذا المجال، طالما أقترن أسلوبهم بالتفكير على التركيز في مبدأ التمثيل القياسي، أي تفسير وقوع الحدث بما كان يحدث سابقاً عليه، فعلى سبيل المثال كانوا دائماً يفسرون موت صاحب الدار بعد نعيق الغراب الذي نزل على سطح داره، أذ أن الغراب جاء منذراً بقرب ساعة موت صاحب الدار قبل حصول الوفاة [1] وهكذا حصرت هذه الحضارة العقل البشري وكافة فروع الحياة في مجالات فكرية محددة تحيطها أعداد ضخمة من القيود والمحرمات والممنوعات، لأن الدين هنا أصبح وعاء تلك الحضارة وحاضنتها دون منازع، وعاملاً مستقلاً محدداً ومقيداً لحركة وتطور عناصرها الدنيوية، والتي أصبحت تابعة للدين. وعلى خلاف ذلك تمسك الغرب بالفلسفة اليونانية المبنية على مبدأ "كيف" و "لماذا" حصل هذا وذاك من الظواهر بأسلوبها المعتمد على تفسير ماهو محيط بهم دون قيود، وهكذا بنيت حضارة الغرب بعد الآف السنين من بداية حضارة الشرق الأدنى، الا أنها شقت طريقها في تحريرها للعقل البشري من دون قيود وراحت تنطلق بلا حدود نحو أكتشاف المجهول ووفرت حرية النمو والتطور لعناصرها الأساسية، وأكثر من ذلك أصبح الدين نفسه كأحد عناصر تلك الحضارة ومتكيفاً معها وعيناً لها. لقد ارسى فلاسفة اليونان

(1) جورج كونتينو 365 (المصدر السابق). عبد الوهاب حميد رشيد 218 (المصدر السابق).

أسس وقواعد الحضارة الغربية الحديثة والتي أصبحت بعد ذلك سمة الحياة كافة وتغلبت على كافة الأفكار الخرافية في جميع أرجاء المعمورة لما أضافت الية تلك الحضارة من بناءٍ فوقي كانت أساساً لكل العلوم والتقنيات الحديثة، وبقي الشرق عموماً ومنطقتنا الشرق أوسطية خصوصاً مقيداً بمفاهيم وأغلال عاشتها في الماضي ولايزال يعاني من ثقلها وتأثيراتها حتى في أستيعابها وتقبلها في الوقت الحاضر. وهكذا اصبحت مساهمتنا في بناء الحضارة الحديثة في مجال علوم التكنولوجيا ضئيلة جداً وتكاد تكون مخزية حسب التقارير المرفوعة حديثاً من قبل هيئة الأمم المتحدة وخاصة التقرير السنوي الذي أثار ضجة كبيرة في 2002 والخاص بمنطقة الشرق الأوسط خاصة بالشأن الثقافي. ان هذا الأمر واضح وبدون الرجوع حتى الى تفاصيل تلك التقارير فأن الممارسات اليومية والواقع الذي يعيش فيه الشرق الأوسط يعتبر متخلفاً جداً عما هو علية الحال في الغرب المتطور، ولو أخذنا نسبة مساهمة علماءنا في الأكتشافات الأصيلة بالمقارنة مع مساهمة البلدان الغربية لوجدنا أنها لاتساوي شيئاً على الأطلاق. ومن هنا أيضاً جاءت الأزدواجية في شخصية وتفكير الفرد في الشرق الأدنى عموماً والعراقي خصوصاً في العصر الحديث، والتي كتب عنها علماء الأجتماع كثيراً وكان أولهم عالم الأجتماع المغربي" ابن خلدون" حينما ركز في مؤلفاته وبالذات" مقدمة أبن خلدون" على تفسير الموروث الثقافي القديم وتقبل الأفكار والمكتشفات الحديثة ذات الطابع الملموس والواضح على الأزدواجية في سلوك وطريقة تفكير الفرد في عصرنا الحديث[1].

كما ركز د.علي الوردي (عالم الأجتماع العراقي المعروف) على تلك الأزدواجية في العديد من مؤلفاته وبالذات في "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" والذي نشر عام 1965. أن تفكير الأنسان في مجتمع بلاد الرافدين القديم والمعتمد كلياً علىالآلهة كقوة خارقة وخالدة، وأن

(1) ابن خلدون" مقدمة ابن خلدون" دار القلم، الطبعة الأولى بيروت (1987) 90.

سير الأحداث وخلقها جاءت في كلمة (كن) فيكون حسب مأسلفنا في موضوع العقيدة الدينية لدى بلاد الرافدين، قد ظل مطبوعاً في فكر الأنسان الرافديني والتي منعته من التفكير في كيفية حصول الأشياء بمراحلها المختلفة وكيفية تطوير حياته وحل مشكلاته بنفسه بحرية. فكان لا يتورع من منع وباء أو درء خطر فيضان مثلاً، بقدر أو بآخر ضمناً منه في أن ذلك العمل من أختصاص الآلهة، وأن عمله هذا غير مقبول، بل وقد يؤدي الى غضب تلك الآلهة ولامجال من صد تلك الأخطار سوى الطاعة والقبول بالأمر الواقع وعدم الأعتراض على أرادتها، أما المجال الوحيد في درء تلك الأخطار (حسب أعتقادهم) هو تأدية الواجبات والألتزامات الدينية المناطة بهم حسب تعليمات الكهنة لأرضاء تلك الآلهة المسئولة عن حمايتهم من تلك الأخطار وهكذا بقيت المنطقة على حالها من دون إقامة سدود منيعة لمنع تلك الفيضانات أو أكتشاف سبل لمنع إنتشار الأوبئة. وهكذا لم تتسلم تلك الحضارة في الصعود بوتيرة واحدة نحو التطور والصمود بوجة كافة المخاطر التي واجهتها، ولم نجد منها نحن في عصرنا الحديث سوى الأحجار والمنحوتات وبعد عناء من الحفر والتنقيب للتعرف على كل معالمها وأبعادها. فبرغم عظمة تلك الحضارة وقدمها وعمقها، الا أنها للأسف الشديد بقيت داخل شرنقتها دون أن تستطيع من تحطيم تلك القيود وتحرير العقل.

أن الأعتقاد بالنصيب والقضاء والقدر منذ ولادة الفرد وطيلة فترة حياته والى مماته قد أوصدت بذلك كل طموح وآمال ذلك الفرد والمجتمع برمته في تحسين مستوى حياته وتطويرها نحو الأفضل والتمتع بما فيها من فرح وبهجة. ومن هذا المنطلق أيضا وجدنا أن الأنسان في منطقة بلاد الرافدين كان محافظاً على أسلوبه ونمط حياته وأدوات عمله وطريقة غذائه وملبسه وكل عاداته وتقاليده الأجتماعية منذ الآف السنين ولحد الآن دون حصول تغييرات جذرية ملموسة، وأذا ماحصل وتطور فأن ذلك يعود بالأصل الى الأقتباس والتقليد من الغرب الأكثر تقدماً من الناحية العلمية والتقنية على الأقل. وهكذا حصل الأصطدام الفكري عندما تواصلت الحضارات وأصبح الأختلاط بالعالم الأكثر تحضراً أمراً لابد منه ولايمكن تجاهله، وذلك من خلال تشابك المصالح وتطور وسائل النقل وبقية وسائل الأتصالات المختلفة، وقد أدى ذلك الى صراع فكري يعرف بصراع الحضارات مابيننا وبين حضارات قامت على أسس البحث

والتقصي والتفكير العلمي المتواصل المبني على السببية والأستنتاج الحر الخالي من القيود، كتلك الحضارات التي قامت في الغرب. وكان نموها متسلسلاً وعبر قرون من أنواع الصراعات والحروب، الا أنها على الرغم من كل تلك الصراعات والحروب، أستطاعت أن تبني صرحاً متيناً لايقبل الفناء والضمور نظراً لأن ذلك البناء كان مستنداً على اسس متينة وراسخة، بينما بالمقابل أعتمدت الحضارات الشرق أوسطية على أسس ميتافيزيقية بعيدة عن التساءل عن كيف ولماذا؟ وهكذا ضاعت تلك الجهود المضنية التي بذلها السومريون والبابليون القدماء ودفنت معهم تحت التراب بعد كل ماقدمته للبشرية من خدمة في معارف الأنسان البسيطة.
أننا أذ نثمن جهود وحضارت الأقدمين لدينا في توصلهم لتلك المعارف والمعالم الغنية المختلفة آنفة الذكر عبر الآف السنين التي مضت والتي كانت ضمن سلسلة تطور العقل البشري عموماً، لابد لنا من الأعتراف بأن ماوصلنا من علم ومعرفة وفلسفة من الغرب كانت الأساس في حصول القفزة الهائلة في نمط وأسلوب حياتنا في العصر الحديث، ولابد لنا من أعادة النظر في بعض مخلفاتنا الفكرية التي كانت قد أعاقت من الأستمرار في النمو والتطور بشكل يضاهي حضارة الغرب الحديثة ومحاولة استيعابها والتخلي عما هو سيء منها والبقاء على ماهو صالح.
ولايمكن أن يأتي ذلك الا بأتباع منهج البحث والتقصي العلمي بعيداً عن الغيبيات والميتافيزيقيا المقيدة للعقل بأغلال وسلاسل راسخة.

ب ـ موروث الفكر الشمولي في السلوك والحكم: ـ

أن أعطاء صفة السلطة الآلهية وتنفيذ أوامرها وتعظيمها، ذلك الأعتقاد الذي أختاره القوم منذ بداية نشأة السلالات السومرية القديمة، والذي كان أسلوبهم المفضل في أدارة وتسيير شؤونهم الحياتية في ذلك الوقت، قد جعل من نظام الحكم الدكتاتوري (الشمولي) المتسلط على رقاب الناس وتوارث ذلك الحكم من الأب الى الأبناء أمراً راسخاً في الأذهان يصعب أزالته أو أستبداله بنظام آخر، يستمد قوته وشرعيته من قوة الشعب، ويعتمد عليهم في تمشية أمور البلاد الحياتية. في حين جعل فلاسفة اليونان مسألة أرساء أسس الديمقراطية مفهوماً ثابتاً في كيفية

أختيارهم للحاكم قبل أكثر من الفي عام. أن نظام الحاكم الآلهي القديم في بلاد الرافدين كان منسجماً مع النظام الأجتماعي والأقتصادي القائم على أساس الأحرار والعبيد، وقد أستغل في تسخير العبيد لخدمة الطبقة الحاكمة وأزداد تظخيماً لتلك المفاهيم من أجل المزيد من سيطرة الحاكم الألهي في بابل، اذ كان يبطش في الناس بطشاً لايمكن وصفه، وكمثال على ذلك ماجاء في قصة النبي دانيال في التوراة وفي الكتاب المقدس (العهد القديم) في سفر النبي دانيال (عليه السلام) وملخص مادار هو: أن النبي دانيال كان مقرباً من الملك نبخذ نصر أحد أشهر ملوك بابل، وعندما أستطاع ثلاثة من مقربي النبي دانيال من أقناعه بأن يقدموا على الملك نبوخذ نصر ويقولوا لة بأن القرابين التي تقدم يومياً الى الآلهة أنما تذهب في حقيقة الأمر الى الكهنة، عندما يتفرغون لها في الليل ويأكلونها لوحدهم بعد أن يذهب الناس الى بيوتهم، فغضب عليهم ولم يتقبل ذلك الكلام وأمر بجمع الحطب من أجل حرقهم أمام أعين الناس جميعاً عقاباً على مانطقوا به عن الآلهة. ولكن صديق دانيال أستطاع من أنقاذهم من الحرق بطريقة بهلوانية فنية إنطلت عليهم ودون أن يكشفها أحد. وكان هذا الشخص المدعو حبقوق نبياً ايضاً ومن أحد أنبياء اليهود الذين جاءوا الى بابل كأسرى بعد السبي البابلي. وهكذا أستطاعت المجموعة أن تثبت للملك البابلي صحة قولهم من خلال المعجزة الخارقة التي قاموا بها... الخ [1]. وتدل القصة على مدى القسوة التي كانت تمارس من قبل الملوك على الناس، وبغض النظر عن مدى صحة القصة هذة وغيرها ، من حيث حصولها في أرض الواقع أو كونها قصة مختلقة، الا أنها تعطي دلالة واضحة على مدى ممارسة العنف والتسلط المطلق من الملوك على الناس في ذلك العصر. أن الخوف من الكوارث الطبيعية كالفيضانات والتهديدات بالقحط وأنتشار الأوبئة والتهديدات الخارجية من الأقوام والغرباء الذين كانوا يجتاحون تلك المناطق لأغراض السلب والنهب، قد جعلت أنسان

(1) الكتاب المقدس" العهد القديم والعهد الجديد" أصدار دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط (لبنان) 1995.

بلاد الرافدين يفتش عن وسيلة في حماية نفسه وعائلته وبالطريقةالمتاحة له في تفكيره وذلك باللجوء الى الألة الحامي. ومن يمثله في أرضه وهو الملك أو الحاكم في تلك المنطقة. وهكذا كانت الأفكار السائدة منسجمة لمصلحة الطرفين، العبيد من جهة والأحرار أو العائلة المالكة من الناحية الثانية، أذ أصبح ولاء الناس وطاعتهم للحاكم أو الملك جزءاً من واجب يؤدونه لغرض حماية أنفسهم من تلك المخاطر. كما ظل الملك يعد العدة ويقود الجيوش من أجل أبعاد الأعداء عن أمته وجلب المزيد من المكاسب والمؤن لعائلته في مقابل ذلك. وهذا الأنطباع ظل راسخاً فينا لأجيال وقرون. ونذكر هنا درجة التنافس التي كانت قائمة عبر التاريخ والى فترة قريبة بين العوائل المقربة من السلطة من أجل التنافس والفوز بمنصب الرئاسة، وهذا ماكان يدور في عقل أغلب الحكام المتسلطين. ولابد لنا أن نذكر هنا فترة حكم صدام حسين وزمرته، فكان يحكم بفكرة أن كل شيء يجب أن يسخر للحاكم، وأن مصير الأمة ووجودها يتوقف على وجود قائدها القوي الذي يحافظ عليها من الأعداء. وهكذا ظل الشعب العراقي يعيش فترة خمسة وثلاثون عاماً ضمن هذه الفلسفة كوسيلة لتبرير تسلطه وأشباعاً لرغباته. وظل كذلك يلقن الأطفال لجيل كامل بهذه العقلية أي أن الأمة بقائدها ولايهم أذا ذهبت كلها الى الفناء والدمار على أن يبقى هو (أي القائد الضرورة) حياً وسليماً ومايدمر أو يخرب يمكن أصلاحة وأعادتة الى ماكان علية وليقطع لسانه كل من خالفه الرأي أو قام بعمل منافي لما يعتقدة هو لأنه يمثل الأمة وكيانها وهيبتها (حسب نظريته العقيمة)، هكذا كانت قراءة البعث العربي في العراق للتاريخ. وهكذا استمد منها قائدهم تلك المفاهيم وكان يجاهر بها علنا فمثلا عندما رفع شعار" من نبخذنصر الى صدام حسين بابل تنهض من جديد" كان المقصود فعلاً ولو في عقلهم الباطن ان مجد الامة أنما ينبثق دائماً بفعل الحاكم المستبد الظالم والقوي المتسلط. وكان يشعر بالراحة والغبطة حينما يأتي الناس اليه ليؤدوا ولائهم له ويلقون بالأشعار والمديح والنفاق أمام

كامرات التلفزيون. كما كان يفعل البابليون عند تأديتهم مراسيم الصلاة ويقدمون القرابين وبما يتوفر لديهم من ماشية وغذاء على أساس تقديمه للآلهة عن طريق نائبه "الحاكم أو الملك"، والذي يقدمه بدوره الى رموزالآلهة من الكهنة والرهبان في المعابد بعد أن يأخذ حصته وعائلته كاملة وهكذا نجد أن حاكماً استحضر سلوكاً وتقاليد وعقلية كانت سائدة منذ الآف السنين في المنطقة لتطبيقها في العصر الحديث. أن اتخاذ الأصنام في ذلك العصر بمثابة رموزاً لكل اله كانت جزءاً من أساليب جلب الطمأنينة ومنع الخوف المتزايد من الناس حيث كانوا يؤدون الصلاة أمام تلك الرموز ويقبلونها ويتلمسونها ويلتمسون منها الرحمة والشفقة وحتى يبكون من شدة حاجتهم الى الرحمة والأطمئنان من المجهول، لشدة أعتقادهم بأنها تخبأ ورائها قوة مستمدة من قوةالآلهة، وبالتالي فأنها تعمل كالوسيط لنقل الرسالة والشفاعة الى الآلهة الحامية. ولتكون شاهداً عليهم بأنهم قد أدوا واجباتهم أتجاهها على أحسن مايرام. والدليل على ذلك أنهم كانوا يحتفظون برموز تكاد تكون صغيرة لاتتعدى الحصى أو الحجر البسيط في البيوت كرمز وشاهد بحسن وصدق نيتهم ووفائهم أتجاة الآلهة الحامية وتجاة من ينوب عنهم من الملك والكهنة وسكنة المعابد. وهكذا ايضاً قادت تلك المفاهيم البعض بأن كل المصائب التي لحقت بالأمة انما جاءت من ضعف الحاكم مثل سقوط بابل وسقوط بغداد في عصر المغول ولم يتورعوا في التفكير بنمط علمي وموضوعي عميق للأسباب الحقيقية وراء تلك الكوارث والحروب والنكبات.

ج - موروث فكرة المقدس والمدنس في بلاد وادي الرافدين:-

لقد كان الناس في منطقة بلاد الرافدين والجزيرة العربية برمتها تحترم الأحجار وتقدسها أعتقاداً منهم بأن تلك الأحجار تخبئ ورائها قوة خارقة ناجمة من قوة الشياطين والعفاريت. ومن أجل تجنب شرورها لابد من العناية بها وتقديسها، ويزداد التمسك بتلك الرموز كلما أزداد ضعفهم أتجاة مخاطر الطبيعة كالأمراض والفيضانات وحصول القحط وشحة

المياة في بعض السنين. من هنا نشأت فكرة المقدس الديني والمقدس الدنيوي في بلاد الرافدين، أذ تعبر فكرة أو جوهر المقدس بالطاقة والشحنة أو القوة المركزية المسئولة عن التحكم في المادة وجذبها نحوها وقد عبرت عن هذا الجوهر أديان العصور الحجرية بالقوة السارية غير المشخصة وغير المنظورة حسب فلسفتهم، وهي قوة المقدس الكوني" طاقة الكون" التي يشعر بها الأنسان ولايعرف معناها الا المقربين من تلك القوة، وممن يثبتون للعالم بمعجزة خاصة لا يستطيع فعلها أي أحد. أن قوة المقدس الكوني هذه تأخذ شكل القوة السارية لكنها تتجلى في بعض مظاهرها العظمى في توازن الكون وقوى الكواكب والنجوم وتناغمها، ولهذه القوى مظاهر مضطربة تعبر عن التحول من نظام معين الى نظام آخر وتنفض اعباء النظام القديم عنها. ولذلك كانوا يعتقدون بأن الأجرام السماوية كالنجوم والكواكب قابلة للتبديل والولادة وأنها عندما تستنفذ كل طاقاتها المتمثلة في الضوء القادم الى الأرض فأنها تسقط على الأرض على هيئة أحجار بأحجام مختلفة. وبالتالي لابد وأن تكون هذه الأحجار الناجمة عن سقوط النيازك بكثرة في ذلك الزمان بأنها ذات قيمة مقدسة حسب عقيدتهم. كما أن مظاهر القوى المضطربة هذه قد تظهر على الأرض على هيئة فيضانات وعواصف وزلازل وبراكين وغير ذلك من الكوارث الطبيعية. ولم يتمكنوا من تفسير هذه القوة السارية في تلك الفترة، وأزدادوا خوفاً منها ولم يكن بأيديهم مايفعلونه سوى عبادتها وأرضائها لكي لاتعود وتغضب عليهم كرة أخرى.

وفي مقابل العالم الديني المقدس الذي هو عند الأنسان القديم عبارة عن استشعار او حدس لطاقة الكون، كان هناك العالم الدنيوي أو المدنس الذي هو في تماس مع المادة. وهكذا وضع هذان العالمان المتميزان في تضاد شديد، الأول: هو العالم المقدس الذي يسعى الدين لكشفة والتمثل به قدر المستطاع، والثاني: هو العالم المدنس الذي تسعى الدنيا لكشفة والتمثل به، وكان هذا التعارض قديماً وحديثاً، مثار جدل ساخن وتصادم

شديد، فقد كان المقدس يعادل القوة والطاقة والمشبع للكيان والفعالية، بينما كان المدنس المتمثل بكل مادة ملموسة يعادل الخواء والمادة التافهة الزائلة والمزيفة. ورغم أننا لانميل لفصل الدين عن الدنيا فهما متداخلان شئنا أم ابينا، ولكننا من أجل الدراسة النظرية وألقاء الضوء على الأفكار الدينية والأفكار الدنيوية وهي تتلاحم وتنفصل ضمن محركاتها أحياناً وتنفصل أحياناً أخرى ضمن قواه الداخلية. فكما أن جوهر الدين يكمن في المقدس فأن جوهر الدنيا تكمن في المدنس وأن نواة وجوهر هذا المدنس تكمن في الجنس البشري. أما الطاقة السارية فهي جوهر المقدس. وقد تكون تلك الطاقة كامنة وغير ظاهرة للعيان، كالمكان المقدس والمعبد والكتاب المقدس في مقابل الأماكن الكونية التقليدية كالبيوت والشوارع والأراضي الزراعية وغيرها من الأماكن الدنيوية المحيطة بنا. وهكذا صار أهتمام الناس في منطقة بلاد الرافدين والجزيرة العربية برمتها يهتم أهتماماً شديداً بالأماكن المقدسة ولايبال بغيرها التي يعتبرها مدنسة. وجاءت تلك المفاهيم ضمن مواريث تاريخية قديمة جداً في عقول الكثيرين منا. وهناك العديد من الأمثلة عن أحداث دموية وكوارث حصلت في التاريخ، لأسباب قد تكون ظاهرياً تافهه من وجهة النظر الحديثة للقداسة ودرجة تأثيرها على حياة الأنسان وسعادتة. وهكذا أحتوت بلاد الرافدين أكثر من غيرها من البلدان في المنطقة على أماكن تعتبر مقدسة لايستطيع أحد المساس فيها كذلك أنقسم الزمان (حسب أعتقاد البابليين) الى زمان مقدس أسطوري حصل فيه حدث عظيم مثل بداية الخليقة أو الطوفان (قصة طوفان) كما في نزول الوحي أو الشهادة في القتال في سبيل الله عند المسلمين... الخ في مقابل زمن تاريخي تقليدي يضج بالأحداث الدنيوية العادية. وتتم أستعادة الزمن الأسطوري المقدس من خلال طقوس الأعياد الدورية التي هي بمثابة استذكار لذلك الزمن، وأعادة تكثيف له وسط تراتب الزمن التقليدي. ومن هذا المنطلق اصبح كل شئ مباح عند الزمن التقليدي المدنس، في حين يحرم عمل الكثير من الفعاليات الدنيوية في

أوقات معينة من السنة تعتبر مقدسة لديهم وهكذا تتناظر الرموز السماوية عن الرموز الأرضية، ويتناظر النص المقدس (الكتاب البابلي المقدس) عن بقية الكتب. وكذلك يحمل الملك كثافة مقدسة لديهم أكثر من غيرة من البشر وهكذا. ولقد كان المقدس منذ العصور الحجرية للأنسان القديم أمراً مدهشاً وغامضاً شُد فيه الأنسان الى عالمٍ آخر وجعله يشعر بأنه لايعيش وحيداً في هذا الكون بل أنه مرتبط بجوهر كوني سرعان مايعود اليه ويتحد معه بعد الموت بصور وأشكال مختلفة حسب مخيلة الأنسان القديم في كل منطْقة من مناطق العالم، وكانت تلك المعتقدات تتجسد في الرسومات والمنحوتات التي كان يصنعها ذلك الأنسان الحجري في الكهوف والبيوت القديمة جداً. ولم ينفرد بهذا المعتقد أهل الرافدين بل سرى على جميع أرجاء العالم تقريباً. وكان نموذجاً يمثل مرحلة من مراحل تطور العقل البشري ضمن البيئة التي يعيش فيها، وما وفرته تلك البيئة من معلومات وادوات متراكمة حوله، قادت الى الوصول لمثل هذه الأفكار والنظريات. الا أن الشيء المميز هنا هو رسوخ الأرث المقدس من حيث المكان والزمان في بلاد وادي الرافدين ليصبح جزءاً من حياتهم ومورد رزقاً لهم الى يومنا هذا. بالإضافة إلى المكان والزمان المقدس فقد أخذت حروب التوسع بالإمبراطوريات كالإمبراطورية الآشورية شكل القتال المقدس والذي عرف فيما بعد بالجهاد المقدس. أي أن الآلهة تأمر ممثلها على الأرض والمتمثل في الملك أو القائد، ان يخوض حرباً ضد الأعداء، وهي بالتالي حرب مقدسة من أجل إرضاء الآلهة. وهكذا استخدم الأشوريون شتى الوسائل القسرية في تجنيد الناس وإجبارهم على خوض معارك بحجة القداسة، بينما كانت تصب في صالح الملوك والأمراء. وكانوا يستخدمون البشر كجسور لعبور الآخرين أحياناً ولا يعبهون بالأرواح والخسائر البشرية التي تنجم عن تلك الأفعال، كما يستدل على ذلك من خلال الرسومات المنحوتة على بعض الجدران في مرور الجيوش على جسر من البشر تحتهم. ولم تكن للحياة الدنيا قيمة لديهم في

ذلك الوقت وكانت حياتهم مرهونة بأوامر وإرادة الآلهة ولا يمكن لأحد أن يحيد عنها أو يعصيها. وهكذا اتخذ القوم من الحروب المقدسة وسيلة لكسب الطاقة المعنوية المطلوبة للقتال، واستطاعوا من التوسع في إمبراطوريتهم شرقاً وغرباً لتشمل كل أرجاء الشرق الأدنى في غضون القرن السادس قبل الميلاد. ولا بد من الإشارة هنا على ان القائد المغولي "جنكيز خان"، وقد استخدم ذات الأسلوب حينما صعد فوق التل ليقول لقومه بأنه جاء له إيحاء من السماء بخوض الحرب وتوسيع مملكته، وقد استطاع أن يحشد جيوشه وأن يقيم أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ من خلال إدخال هذه الأسطورة في عقول قومه الرعاة المتوحشين كما سنأتي لتفصيل ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب. أن أول طرق التعامل الجدية مع هذا المقدس الديني كان السحر (الذي هو أول عتبات الدين) وقد كان السحر أما حقيقياً يتضمن وجود قوة براسايكولوجية (قوة الحدس والحواس المخفية في عقل الأنسان والتي تسمى بالحاسة السادسة) والخارقة عند المتعبد والتي تؤثر على بعض قوانين القوة السارية المعتادة لدى الأنسان. أو أن تكون قوة وهمية شكلية يحاول بها الساحر أن يؤثر بها من خلال منطلق نفسي معين على قوانين هذه القوة. ويستطيع من سلوك وتصرف معين أن يقنع الناس المحيطين به بوجود قوة غير أعتيادية يمتلكها هو دون غيرة، جعلت منه انساناً قادراً لصنع شئ ما لا يستطيع غيره أن يفعلة. وبالتالي أمتلك جزء من القداسة التي يدعي بها. وأن هذة القداسة لم تأتي أعتباطاً اليه بل أنها مُنزلة من المقدس الأعلى منه أو الطاقة المسيرة لكل الأمور في الكون. وهكذا كان السحر أول أشكال العلاقة بين الأنسان والمقدس، ولذلك فهو أول قناة للأتصال بين المقدس والأنسان[1]. وتتضمن هذة القناة شحنات أيجابية من الأنسان المقدس (وهو مانسميه بالسحر) وشحنات سلبية الى الأنسان (وهو مانسمية بالعرافة) وكلاهما كان من وجهة نظرنا العلمية أول شكل من

(1) هاري ساكز المصدر السابق 211. عبد الوهاب رشيد المصدر السابق 93.

أشكال الشعر، أذ أن الشعر بصورته العلمية أنما يعبر عن ممارسة من تركيب كلمات وجمل ذات وقع موسيقي مؤثر في أذن السامع. وجاءت في مرحلة أخرى متقدمة بعد السحر وهي مرحلة الأرواحية وظهورالآلهة فقد تجسدت مرحلة الأرواحية في تلاوة التعاويذ التي كانت وظيفتها طرد القوى الخفية، التي تأتي بالشر الى البشر والمتمثلة بالشياطين، وأحاطة الشخص المصاب بداء معين مثلاً بسورٍ من الحماية أو الحجاب عن ذلك الشر أو ذلك الشيطان[1].

أن ما يهمنا هنا في هذا المبحث ومن خلال تعرفنا للمقدس وعلاقته بالموروث الفكري لأنسان بلاد الرافدين، هومبدأ عدم التخلي عن الحاكم الظالم المتسلط على رقاب الناس من خلال مايمتلكه من قداسة وقوة سماوية خارقة (حسب أعتقادهم) وماتبقى من هذا الموروث الذي ظل معشعشاً في عقولنا لآلاف السنين مضت، من تاريخ هذه المنطقة وربما في مناطق الشرق برمته. فقد كان دائماً يعبر عن الشعب بالرعية وهم خدم مطيعين للحاكم (الملك). ومن الصعوبة بمكان أن يدركوا أن الحاكم ماهو الا بشر مثلهم ويجب أن يكون هو وحاشيته خدماً للشعب ويجب أن يتم أختياره منهم، ويجب أن يتبدل كل فترة زمنية محددة، وبعد أجراء أنتخاب من قبل الشعب. أن تلك المفاهيم الديمقراطية الغريبة عن المنطقة لم تكن من نسج الخيال في مناطق أخرى من العالم وحتى في التاريخ القديم. فلو عدنا الى حضارات في مناطق أخرى وتفحصنا ماكانوا يمارسونه من طرق أختيار لحكامهم، نجد أن اليونان مثلاً كانت تمارس قدر كبير من تلك الممارسات الديمقراطية في عصور قبل الميلاد، وهكذا الحال بالنسبة للرومان. ويبدو أن تلك البلدان كانت بعيدة عن المنطقة ولم يكن هناك أتصال حضاري يكفي لنقل تلك الأفكار الا في فترة متأخرة. أن ذلك لايعني أن الملوك والحكام في تلك المناطق كانوا أقل قسوة وظلماً من ملوك وحكام بلاد الرافدين في تلك الفترة، الا أن هناك أختلاف في الأساليب وطرق العقاب والثواب المطبقة في كل منطقة ضمن المراحل الزمنية المختلفة ويتباينون في طرق أختيارهم وتنصيبهم للحاكم. فقد كان الأغريق والرومان مثلاً يجرون سباقات رياضية عنيفة جداً ليظهروا من

(1) المصدر نفسه 213.

هو الأقوى من القوم ليتم أختياره ملكاً عليهم ومثال على ذلك كان الأمبراطور الأغريقي المشهور هرقل الذي كان حاكماً على الأمبراطورية البيزنطية برمتها في بداية القرن السابع الميلادي، والذي أشتهر في قوته الجسمانية الموصوفة بالخارقة كما يمكن أن نضرب مثلاً على كيفية أختيار الحاكم في اليونان عن طريق الأنتخاب وذلك بوضع أنواع من الحصى الصغيرة بألوان مختلفة في صناديق الأقتراع كلاً يمثل واحداً من المرشحين الذين كانوا يعملون الدعاية لأنفسهم بين الناس قبل أجراء الأنتخاب وكانوا يلبسون البدلة البيضاء ويطوفون في المدينة ويّدعون بالكانديدات (أي المرشح). وهكذا بقيت التسمية الى يومنا هذا عن المرشح لكل شئ كالمرشح للشهادة الجامعية والمرشح لنيل الجائزة وغيرها. وهكذا فهناك أمثلة كثيرة في التاريخ يمكن للمتابع الوصول اليها لمعرفة مايدور من خيارات وأحداث أصبحت أرثاً لتلك الأمم لها تأثيراتها السلبية والأيجابية على سير الأحداث في التاريخ الحديث. أن الموروث الثقافي لسكان بلاد الرافدين منذ زمن السومريين والبابليين لايكمن في قداسة الحاكم المتسلط فحسب، بل يتعدى ذلك الى وراثة للأبناء والأحفاد. فكما كان الناس يترقبون ويبدون ولائهم للمقربين من الملك أو الحاكم ومن أولاده وحاشيته، كانوا يعتقدون بأن القداسة المتمثلة بالقوة الألهية، تنتقل هي الأخرى بالوراثة الى الأبناء، والى اجيالهم القادمة على مر الزمن، وبالتالي فأن الأحترام والتبرك والتقديس كان سارياً لتلك الأجيال من الملوك والحكام والكهنة وبشكل خاص أذا كان ذلك الحاكم مؤثراً بقوةٍ من خلال فعله المتميز. لقد بقي الناس في بلاد الرافدين يفتشون عبر السنين عن حاكم أو ملك يتسلط عليهم ويقودهم حتى وأن كان بالنار والحديد، ومن هنا جاءت تسمية الراعي والرعية تشبيهاً للحاكم والشعب والتي ترجع في الأصل الى راعي الماشية ورعيته من الأغنام والماعز يتحكم بهم كما يشاء ويبيع ويشتري بهم متى ما شاء. أن الأفكار والمعتقدات السائدة لديهم قد أبعدتهم كل البعد عن تصور أن الحاكم يجب أن يكون خادماً للشعب، وأن الشعب هو مصدر السلطات وما الى ذلك من مفاهيم ديمقراطية كانت قد أخذ بها فلاسفة اليونان القدماء وأستمد منها الغرب وعملوا بها منذ فترة طويلة. وتكرست لديهم تلك المفاهيم بحيث أصبح الفرد الأوربي في العصر الحديث يؤمن بأنه هو السيد في بلاده وأن كل مايدور حوله هو مسخر لخدمته، لا لأذلاله وتحطيم معنوياته. أنه يشعر

بأن جميع السلطات الحكومية قد وجدت من أجله ولخدمته وتلبية حاجاته وأنه هو وحده الأهم والأحق في بلده وأن الحكومة وجدت لخدمته. من هذا المفهوم ينطلق الفرد في العالم الغربي ليتفهم أن عليه حقوق وواجبات مثلما منحته تلك السلطات من حقوق وأمتيازات وأستحقاق. وهكذا أصبح الأنسان لديهم حراً في تفكيره وتطلعاته الى المستقبل وأحترامه للقانون ودفاعه عن كيانه ودولته وأمته التي منحته كل تلك الأمتيازات والحرية. وبالتالي أستطاع أن يبدع ويغور في البحار والمحيطات ويغزو الفضاء وكل تلك الحضارة الحديثة التي نعيش في كنفها بما فيها من علوم وتكنولوجيا مذهلة في كافة المجالات

لقد سخر الحكام المستبدون كل المعتقدات والمفاهيم والنظريات من أجل بقائهم وبقاء سلطتهم بأسماء وعناوين مختلفة عبر التاريخ. أن القيود وذلك التسلط من قبل الحكام كانت واحداً من أهم أسباب بقاء الأنسان في بلاد الرافدين يعيش بنفس الأسلوب والأدوات والمعدات التي كان يعيشها أجداده منذ الآف السنين دون حصول تغيرات جذرية، ودون أسهام فعال في رفد العلوم الحديثة كجزء من نشاط العقل البشري الشامل على هذا الكوكب، الا النذر اليسير، وابسط مثال على ذلك ماكان علية الحال في أهوار العراق الجنوبية وغيرها من المناطق. لقد كانت تلك المناطق ذات الحضارة السومرية العريقة عرضة للغزوات تلو الغزوات والحروب المدمرة من مناطق وأطراف بعيدة عنها عبر فترات زمنية متعاقبة، مما زادت في قهره ومعاناته. فكيف له أن يحارب ويُقتل و في قرارة نفسه أنه يحارب من أجل الحاكم ومن أجل زيادة ثروتة ومزيدا من القيود على رقابه وهو مضافاً لما تفرضه البيئة من صعوبات ومصائب عليه بالأضافة الى طبيعة الأرض التي يعيش فيها والمتصفة بالأنفتاح وعدم وجود حواجز طبيعية لمنع الأعداء من الوصول اليها وغزوها. وأخيراً نقول لقد أصبح مفهوم الحاكم المستبد والظالم أمراً مقبولاً ومسلّماً به في بلاد الرافدين عبر التاريخ وماعلى القوم الا الدعاء بأن يجلب الله لهم حاكماً رؤوفاً وأقل قسوة من سابقه وماعليهم الا أن يصبروا الى أن ينتهي الحاكم الأكثر ظلماً بطريقة ما عسى أن يأتي بعده حاكماً أقل منه قسوة وتسلطاً.

د-موروث حالة الخوف والتشاؤم في بلاد الرافدين:-

الأمر الأخطر من كل ماورد هو حالة الخوف والتشاؤم التي يتصف بها الأنسان في بلاد وادي الرافدين والناجمة من العوامل الرئيسية الثلاثة المسلطة على رقابه وهي خضوعه لقرارات القدر التي تقررهاالآلهة، وخضوعة الى السلطة المطلقة التي يمارسها الملك نائبالآلهة في أرضه، وخضوعه لوهم هجمات القوى الشريرة والمتوحشة غير المنظورة من الشياطين والعفاريت المحيطة به، وبالأضافة الى مايعانيه من كوارث طبيعية حقيقية كالفيضانات والأوبئة وحرارة الجو المحرقة في الصيف، كل تلك العوامل جعلت من حالة التشاؤم والحزن أمراً ملازماً لشخصية الأنسان في بلاد الرافدين الى يومنا هذا. وبالمقارنة بالأنسان المصري الذي هو قريب اليه من حيث طبيعة الأرض والمناخ، نجد أن هناك فروقاً واضحة وملموسة(1)، لعدم حصول الفلاح المصري على نفس الكوارث الطبيعية التي كان يتعرض لها أنسان بلاد الرافدين، حيث أن فيضان نهر النيل كان يحصل في أوقات محددة ومعروفة لديه. وكان يستعد لها ويهيء لزراعته في مواعيد منسجمة مع فيضانها، بالأضافة الى أن الجفاف وحرارة الشمس أخف في مصر عما هو عليه الحال في منطقة وادي الرافدين. ولذلك تمكن الأنسان المصري أن يخلق حالة من الفرح والفن المقترن بالأرث الفولكلوري الغنائي والرقص والموسيقى والتمثيل والأستئناس بالفكاهة والضحك لدرجة مميزة، ونجد الفرق واضحاً الى الأن في هذا المجال بالذات. أن ملازمة الحزن والبكاء في حياتنا في العراق قد أصبح أرثاً واضحاً لدينا حتى في مناسبات الأفراح، ففي حفلات الزواج والأعراس والمواليد نجد أن العائلة العراقية تحاول أن تستذكر أحزانها القديمة وأحياناً تقيم مراسيم العزاء للأئمة والرموز المقدسة في تلك المناسبات بدلاً من الفرح والضحك في بعض مناطق

---

(1) 1 جورج كونتينو" الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور" ترجمة سليم طه التكريتي، وزارة الثقافة والأعلام بغداد (1979) 501 وكذلك Hawkes Jacquetta p. 186

العراق. ومن الجدير بالذكر أن مواكب العزاء والمراسيم التي تقام بمناسبة عاشوراء أحياءاً لذكرى مقتل الأمام الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في المناطق الجنوبية والوسطى من العراق ماهي الا تعبيراً صادقاً عن حالة الحزن والتشاؤم التي يعاني منها العراقي والموروثة من أيام السومريين والبابليين. وقد يكون أسلوباً مشابهاً قد مورس بشكل أو بآخر وبمناسبات تأريخية وقصص مختلفة عبر الأجيال المتعاقبة الا أنها تحمل نفس الطابع الحزين والمتشائم. أن رسوخ هذا الطابع المتشائم في عقول الناس قد جعل من الصعب جداً القضاء أو أزالة تلك المراسيم مهما عملت الدولة من منع أقامتها في فترات زمنية مختلفة من تاريخ العراق الحديث وذلك بأستخدام القوة العسكرية، أذ تختفي لفترة محددة وتعود بعدها كلما سنحت الظروف لذلك بزخم وعنف أقوى وأكثر أتساعاً من السابق. لقد أصبحت تلك الممارسات الوسيلة الوحيدة التي يريّح الأنسان فيها عن نفسه ويزيل بها جزءاً من همومه وأحزانه حتى أنهم يتهيئون لها منذ مدة ويبتدعون القصص والأضافات لأجل أطالتها والتوغل في تفاصيل وحوادث محزنة تسهل على السامع من ذرف الدموع بغزارة. وقد أصبحت كذلك مورداً أقتصادياً مهماً من خلال توسيع السياحة وقدوم الناس من أطراف بعيدة الى مناطق أقامة تلك المراسيم.
أننا لسنا في مجال الأعتراض على تلك المراسيم والطقوس الدينية التي تقام حتى في الوقت الحاضر، أذ أن هناك مراسيم وطقوس دينية لاتزال تمارس في دول ومناطق مختلفة من العالم بأشكال مختلفة تنبع من تراثهم الفكري القديم، وعلى سبيل المثال لاتزال تمارس والى وقت قريب في بعض القرى في أيطاليا وهي بلد متقدم من الطراز الأول، أذ يأتون بشخص شبيه بالسيد المسيح ويعملون به عملاً مشابهاً لما تم فعله في أيام الرومان بالسير الى الصليب ويجولون به في أنحاء القرية للتشبيه بالعذاب الذي كان يعاني منه السيد المسيح (عليه السلام) أثناء تلك المسيرة وتمارس هذه الطقوس كل عام ضمن الواجبات الدينية لديهم وكذلك

تمارس الطقوس والتقاليد الدينية في الهند والصين والعديد من دول العالم بأشكال مختلفة الا أن المبالغة في حالة الحزن والتشاؤم الموروثة من قديم الزمان والتي تمارس طقوسها الى حد الآن في بلادنا، قد حددت من طموح الأنسان ورغبته في التفكير بتحسين حاله وممارسة عمله وطموحه في التطلع الى مستقبلٍ أفضل. أن حالة الحزن والتشاؤم التي تتسم بها شخصية الفرد العراقي بالذات، كانت ولازالت أحدى العوامل المؤثرة جداً في قدراته لتخطي كافة العقبات التي تواجهه في حل مشاكله اليومية وتحديد طموحه نحو المستقبل، وبالتالي أعتماده الرئيسي على الغير في تغيير نمط حياته. ولذلك نجد الكثير منا ينتظر من يأتي اليه من الخارج لينصحه بعمل ما يكون من شأنه تطوير البلد وتحسينه دون أن يساهم هو في ذلك، أو أن تكون مساهمته مقصورة على جهد عضلي محدد. أن إنتزاع الحزن والتشاؤم وأحلال الفرح والتفاؤل منذ الطفولة مروراً بفترة الحداثة والشباب تسهم في زرع الأمل والتطلع لحياة أفضل ومستقبل مفرح وزاهر. أن نشأة الأنسان ومنذ طفولته وحداثته على الحزن والتشاؤم تخلق محيطاً خصباً لكسب الشباب نحو أعمال العنف التي نشهدها حالياً، وذلك في سهولة أقناعهم من قبل الكبار في تفجير أنفسهم من خلال عمليات غسل الدماغ بأفكار تؤول الى ان هذه الحياة التي يعيشونها لاجدوى منها ولايوجد فيها مايبهج النفس ويمتعها. ولذلك نجدهم يذهبون بسهولة نحو الهاوية والهلاك معرضين أرواحهم وأرواح غيرهم الى الفناء. أن حالة الحزن والتشاؤم والتي أصبحت جزءاً من مكونات شخصية الفرد العراقي والموروثة منذ عصور قديمة أنما تقلل من قيمة الحياة الدنيا والتمسك بها والأستمتاع بملذاتها كما يفعل الأوربي مثلا، وماينتج عن ذلك من سهولة في تضييعها وهدرها بأي شكل من الأشكال، وعدم الأكتراث في تضييع الوقت والفرص السانحة في التقدم والتطور نحو الأفضل. وقد يؤثر ذلك سلبياً في بناء المجتمع على أسس صحيحة وقوية ومحترمة من قبل العالم كله. ولو أننا عدنا الى علم النفس وتحليل

الشخصية، لوجدنا أن حجم الحزن والتشاؤم هذة تؤثر تأثيراً خطيراً على سلب أرادة الفرد ومنعه من القدرة على أتخاذ القرار الصائب، وبالتالي نجد الأنسان غير قادر على أتخاذ قرارات تخص حياته الشخصية ومستقبله ويكون معتمداً على الغير في توجيهه وتسيير أموره. أن حالة الخوف التي ذكرناها سابقاً بالأضافة الىالحزن والتشاؤم التي أصبحت سمة من سمات شخصية الفرد في بلاد وادي الرافدين، قد أثرت على قدراته العقلية وأتخاذه القرارات الصائبة التي يحتاجها ضمن حياته ومعيشته. ولما كان المجتمع عبارة عن مجموعة أفراد فأنه بالتالي يتصف عموماً بصفات تلك المكونات وتكون درجة تطور وتقدم ذلك المجتمع نحو الرقي والأزدهار مرهونة بصفات شخصيات أفراده. لذلك فقد أتسمت حالة الضعف والتدهور على المجتمع ككل بما في ذلك كافة مؤسساته وأحزابه وفئاته، وبالتالي فقد أدت به لأن يكون عرضة للغزوات من جهات عديدة في التاريخ القديم والحديث. كما أن تلك الصفات والسمات كانت أحدى الأسباب الرئيسية في تدهور الوضع السياسي المعاصر وفي مسيرة العراق الحديثة وفي المطبات والمهالك التي لانزال نعاني منها الى يومنا هذا.

ومن هنا نوصي المسئولين في العراق أن يضعوا نصب أعينهم وضمن برنامجهم السياسي بعيد الأمد، كيفية بناء وأعادة بناء شخصية الأنسان العراقي، وذلك بأستعادةثقته بنفسه من خلال برنامج تربوي مكثف أبتداءاً من طفولته مروراً بمرحلة الشباب، وبكل الوسائل المتاحة. وضمان حياة مستقرة آمنة بعيدة عن الخوف والمخاطر، لكي يستطيع بناء شخصيته القادرة على أتخاذ القرارات الصائبة في حياتة الخاصة والعامة. وبالتالي ستكون النتيجة الأبداع والمساهمة في ركب الحضارة العالمية الحديثة عموما، وأستعادة بناء وطنه المخرب، والسير قدماً الى الأمام اسوة" ببقية بلدان العالم المتمدن. لقد كانت الخطوة الأولى الهامة والمبشرة بالخير في هذا الأتجاة هو السير في بناء الديمقراطية والتي يجب التمسك وعدم التفريط بها مطلقاً، حيث أن هذه السكة ستقود بالنتيجة الى زرع الثقة بالنفس، والبدء بأستعادة الشخصية القوية الواثقة وطرد المخاوف

والتشاؤم والحزن الموروث منذ الآف السنين. لقد آن الآوان للمسئولين في السلطة أن يكثفوا من برامج الفرح والبهجة ونبذ برامج الحزن والتشاؤم، وتقليص التحضير والأعداد للأحزان والبكاء في مناسبات تاريخية ذهبت مع الماضي بكل مافيها من مفاهيم وقيم، ولم يبقى لها من مقومات الأستمرار والصعود. لقد آن الآوان بأن نعيد حساباتنا في مواريثنا التاريخية، ونمسح ماهو ضار ومؤذي ومعرقل لمسيرة التقدم والبناء الصحي، ونبقي علىماهو نافع يدعوا الى الأعتزاز والفخر، ويزيد الثقة بالنفس ويبعد الخوف والتشاؤم ويزرع الأمل في المستقبل. وبالتالي أن يتعلم الأنسان الحب وكيف يحب الحياة ويحب الناس ووطنه ولايفرط بهذه الحياة ألتي وهبها الله له مطلقاً. وقد تؤدي حالة الخوف والأحباط لدى الأنسان بالشعور بالأنكسار والهزيمة النفسية والتي تقوده بسهولة لأن يجنح لأرتكاب الجرائم الكبرى. وقد يكون لقمة سائغة وسهلة للأنخراط في صفوف المتطرفين والأرهابيين من خلال حالة الهروب من الواقع المنهزم الذي يعيش فيه أو يتهيأ لة بأنه يعيش فيه.

7-خلاصة الفصل الأول:

يمكن أن نستخلص من مواريث الحضارة القديمة لبلاد وادي الرافدين والتي كانت من أقدم الحضارات في العالم النقاط الرئيسية التالية:

1- لقد نشأت حضارة وادي الرافدين القديمة من خلال أكتشاف الأنسان للزراعة وكان من بين معالمها الرئيسية الكتابة، والفخار، وسن القوانين الخاصة بتنظيم الحياة، والمدن، وقد تطورت العقيدة الدينية إبتداءاً من شكلها البسيط من خلال معاناة الأنسان من الكوارث الطبيعية والفيضانات للأنهار والهجمات الخارجية، الى أن وصلت الى مرحلة تدوين ملاحم وأسفار كانت أساساً للعديد من الديانات التوحيدية اللاحقة، الا أنها أصبحت تشكل قيوداً وأسباباً في تحجيم وعرقلة تقدم وأزدهار تلك الحضارة عن طريق أعتمادها على السحر والميتافيزيقية في التفكير ومعالجة المشاكل المحيطة بها، وأبتعادها عن المنهج العلمي السليم المعتمد بالتفتيش عن السببية.

2- أن الأرث الثقافي الخاص بمفهوم السيطرة والتسلط السلطوي (الدكتاتوري _ أو الشمولي) الراسخ في عقلية الفرد الشرق أوسطي والعراقي بالذات تمتد جذوره من الموروث الثقافي منذ عصور الحضارة الرافدينية القديمة، والنابعة من فكرة أن الحاكم أو الملك يستمد سلطته من الأله الحامي، والذي كان يمثل الأله في الأرض في ذلك العصر. وظلت فكرة الحاكم المستبد يُخدم من جميع الناس وفق مفهوم أن حياة الناس ووجودهم مستمدة من وجوده هو ورضاءه عنهم. وتوارث تلك السلطة الى الأبناء والأحفاد قد أصبحت أرثاً متتأصلاً الى فترة طويلة من الزمن ليصعب التخلص منها وكانت سبباً للعديد من المعاناة والكوارث والقصور السياسي في المنطقة.

3- أن حالة الخوف والتشاؤم الموروثة في عقول الناس في بلاد الرافدين والناجمة عن معاناة الأنسان من الكوارث الطبيعية والظروف المناخية الحارة والتسلط الدكتاتوري السلطوي ومفاهيم القضاء والقدر ضمن العقيدة الدينية للقوم في ذلك الحين، قد

أصبحت سمة مميزة من سمات شخصية الفرد العراقي التي تعايشت معه عبر الآف السنين. وقد أستطاعت من النيل بطموحاته وتطلعاته في التقدم والأستمرار في بناء حضارته المتميزة. ومنعت من وصوله نحو الخطوط الأمامية بين الشعوب الأخرى والحضارات البشرية الأخرى التي أصبحت متميزة عن حضارته بكثير علماً بأن حضارة وادي الرافدين كانت الأقدم. أن سمة الخوف والتشاؤم في شخصية الفرد العراقي أصبحت مرابطة له عبر التاريخ وحددت من تقدم وأزدهار الحضارات التي تلت الحضارة الرافدينية القديمة من خلال تحجيم القدرة على أتخاذ القرارات الصائبة وتأطير الطموح في التقدم والأزدهار في البلاد.

الفصل الثاني

تاريخ الجزيرة العربية
قبل الإسلام

الفصل الثاني

تاريخ الجزيرة العربية قبل الأسلام

لما كانت بلاد الرافدين جزء من الجزيرة العربية، ومن أجل اكتمال الصورة عن مواريثنا التاريخية لابد لنا من ألقاء ضوء بسيط عن تاريخ الجزيرة العربية قبل الأسلام على أعتبار أن ماكان يجري في المنطقة ككل، كان ينعكس مباشرة على جميع انحاء المنطقة ومنها بلاد الرافدين بالأضافة لذلك فأن وفرة المصادر التاريخية للمنطقة تتيح فرصة أسهل للدراسة والبحث الشامل والمترابط. أن موجات الهجرة من الأقوام السامية والتي كانت قادمة من الجزيرة العربية[1] واليمن ومناطق محيطة بهما الى بلاد الرافدين ضمن موجات كانت في غالبها ناجمة عن حروب بين القبائل المتصارعة في الصحراء الشحيحة من الموارد الطبيعية وبالتالي فأن نزوح تلك القبائل الى ضفاف نهر الفرات أولاً، عبوراً الى ضفاف دجلة ثانياً تجعلها تجد ماتحتاج اليه من ماء ومايتيسر لها من عشب يكفي ويشجع في بقاءها دون ألأكتراث بالعودة الى مناطقها الأصلية التي نزحت منها أي من عمق الصحراء داخل الجزيرة العربية ولايعود الا القليل من القبائل المهاجمة والأكثر توحشاً[2]. وهكذا أصبح العراق ومنذ زمن بعيد قبل دخوله في الأسلام في غالبيته من العرب، بينما بقيت الأقوام الأخرى القادمة من المناطق الشمالية والشرقية محصورة في مناطق محددة في الجانب الشرقي من دجلة، وفي الشمال حيث المرتفعات والجبال التي لا تتلائم وطبيعة البدو القادمين من الصحراء في الجزيرة العربية. لذلك ولكي تكتمل الصورة عن مواريثنا التاريخية، لابد لنا من مناقشة طبيعة الحياة الأجتماعية وتطور المعتقدات الدينية والجوانب الأقتصادية خلال الفترة التي تلت سقوط بابل ولغاية ظهور الأسلام في الجزيرة العربية، والتي تقرب من عشرة قرون، أذ أن المنطقة بحد ذاتها مترابطة جغرافياً ولايفصلها حاجز طبيعي أو سياسي يمنع من الأتصال بين الأسر والقبائل التي كانت تعيش فيها ولم تكن هناك حدود سياسية واضحة كما هي علية الآن في منطقة الشرق الأدنى فقد كانت القبائل الصحراوية تنتقل أينما تجد هناك عشب وماء يكفي لبقاءها وتتجول في جميع أرجاء الجزيرة العربية مروراً بالعراق ثم تمتد أحياناً لتصل الى أواسط أسيا من دون أن تحتاج لموافقة سلطة مركزية بالتنقل.

---

(1) احمد سوسة" حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين سلسلة دراسات 214، دار الرشيد للنشر 1980.

(2) ستيفن هيمسلي لونكرينك "تاريخ العراق بين عام 1900-1950" ترجمة جعفر الخياط.

أن المعتقدات والعادات الأجتماعية في الجزيرة العربية قد تأثرت بشكل كبير في حضارة وادي الرافدين بحيث يمكن أعتبارها جزءاً مكملاً لتلك الحضارة. أن تاريخ العرب قبل الأسلام موضوع شائك وطويل ويحتاج للعديد من المؤلفات. وأن ما كتب بأعتقادنا من المراجع الهامة نخص بالذكر منها "المفصل في تاريخ العرب قبل الأسلام" للدكتور جواد علي[1] والذي أحتوى على 12 جزء بالأضافة للأخرين أمثال د.محمد عابد الجابري في دراسته عن" العقل السياسي العربي" [2] وكتاب" تاريخ العرب" لفليب حتي وغيرهم.

وكل مانحتاج اليه هو الجانب الأقتصادي والعلاقات الطبقية التي كانت سائدة لغرض فهم طبيعة التطور الفكري والديني للمجتمع والمنسجمة مع طبيعة تلك العلاقات وظروفها المناخية والجغرافية، وبالتالي زيادة الفهم عن مواريثنا التاريخية وسلوكنا المتأثر بتلك المواريث في عصرنا الحاضر.

ولذلك سوف نقتصر بالأشارة لأهم النقاط التي تهم موضوعنا: -

1 - الزراعة والرعي يشكلان نمط الحياة الاقتصادية في الجزيرة: -

مما لاشك فيه أن الزراعة تعتمد بالدرجة الأساس وعلى الأقل في العصور القديمة التي نحن بصددها على وفرة المياة والأمطار وخصوبة الأرض، ولما كانت الجزيرة العربية متميزة في نقص الأمطار، فقد أصبحت الزراعة فيها محدودة جداً، ومقتصرة على مناطق محددة في الجنوب (اليمن) وبعض الواحات في الوسط، ولكنها قد تكون مزدهرة نسبياً في شمال الجزيرة (والمقصود هنا بلاد الشام وأرض الرافدين).

لكن الرعي الذي يعتمد على عناصر مختلفة عن الزراعة كأستئناس الحيوان وتطور الأدوات المعدنية بالأضافة للزراعة كجزء مطلوب في تغذية الأنسان والحيوان معاً، أن هذه العوامل كبيرة الأهمية لكون أن عالم الزراعة سيبقى بلا تطورات جذرية في حين أن أستئناس ألأبل والخيول وجلب المواد الحديدية التي كانت من أسهام الأقوام الأكثر بربرية في المنطقة مثل أقوام الهكسوس الذين عاشوا في الجانب الغربي من الجزيرة وكانوا ملوك الرعاة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد وأحدثوا الكثير من الخراب، مما أدى بالفعل لتحول التأثير الأكبر في التاريخ الى الرعاة على حساب المزارعين. أن أنتشار الحديد والخيل وتغلغل الأبل في

---

(1) جواد علي" المفصل تاريخ العرب قبل الإسلام" مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد (1965).

(2) محمد عابد الجابري" العقل السياسي العربي" مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت شباط (1990)

الجزيرة العربية، قد أهّل المناطق الأكثر أتساعاً وصحراوية فيها بأن تتمتع بأستقلالها شبه المطلق في مناطقها الصعبة والوعرة.

وقد حاول الرومان مرة واحدة من غزوها في حملة عسكرية عندما عرفوا أن بلاد اليمن تدفع ضريبة إلى السلطة الفارسية في إيران، فأصيبوا بكارثة كبيرة في تلك الحقبة التاريخية وعادوا بخسارة كبيرة ولكن البيزنطيين والإغريق، هم الذين استطاعوا من التقدم لاحتلال المناطق الساحلية الغربية، وظلوا مسيطرين على الجانب الغربي الشمالي أي بلاد الشام وفلسطين، بينما كان الجانب الشرقي من نصيب الأمبراطورية الفارسية (الأيرانية) لفترة طويلة من الزمن. وخلاصة القول فأن أقتصاد المنطقة كان مبنياً على القليل من الزراعة بينما سادت بعض الصناعات الحرفية البسيطة والتجارة فيما قبل غزو الهكسوس في الجانب الغربي من الجزيرة العربية، والتي تلت ذلك الغزو بقرون عديدة، فقد ظهر فيها أقوام الرعاة الآخرين وأشهر تلك الأقوام هم الآراميين والكنعانيين والعبرانيين والذين كانوا ممهدين لظهور العرب جنساً ولغة في تلك المنطقة.

وأذ كانت الزراعة لاتنفصل كلياً عن الرعي في حقبتها الأولى، الا انها أحدثت أنفصالاً واضحاً حين تمكن الرعاة من الأستئناس بالحيوانات ذات الأهمية القصوى في تطورهم، وبالذات رعاة الخيول والأبل، تلك الحيوانات المتكيفة تماماً مع الطبيعة الجغرافية للمنطقة، والتي تستطيع الصمود أمام قطع المسافات الشاسعة من الأراضي القاحلة، وقد فتح لها أفاق أخرى في ممارسة التجارة ونقل البضائع بين الجنوب والشمال وبالعكس، وبالتالي وفر المزيد من الثروة التي ساعدت على النمو والبقاء والسيادة لتلك الأقوام. لم ينفصل الرعي عن الزراعة، فحين تتواجد الظروف المائية الكافية كان يمكن الجمع بين الأقتصادين، الا أن الأنفصال الكبير قد حدث ووجدت المساحة الأكبر لتطور الرعاة وهي الجزيرة العربية المتميزة بنقص مواردها المائية خاصة في المناطق الوسطى التي تعتبر مركز المنطقة كلها. ومن الملاحظ أن الممالك العربية التي كانت تقطن في الجزيرة العربية كانت ذات طبيعة أمومية[1] وليست

(1) أمومية: والمقصود بالأمومية هي أن تكون الأم مسؤولة عن نشأة الأطفال ويرجعون بالتسمية اليها نظراً لكثرة تنقل الأب وعدم مكوثه كثيراً مع بقية أفراد عائلته وتلك احدى سمات الحياة الرعوية الأولى في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

أبوية كما ذكرنا في الفصل الأول بالنسبة لسكان بلاد الرافدين أيام السومريين والبابليين. الا أن صفة الأمومية لاتنطبق على المناطق الساحلية في اليمن والحجاز والبحرين وعمان تلك المناطق التي كانت أقل رعوية من الداخل (داخل الجزيرة العربية). وذلك بسبب نشوء المدن الزراعية فيها. الا أن العمق الرعوي هو الذي كان يتحكم في الحركة التاريخية للعرب حيث لم تستطيع أية مدينة أن تفرض نفسها على الرعاة الأشداء عبر منطقة هائلة الأتساع.

ويمكن ملاحظة بدايات التطور الحضاري لدى العرب الشماليين القيسيين في مدائن صالح[1] ولدى المناذرة والغساسنة في العراق والأنباط في الأردن وفي الشريط الساحلي الغربي الحضاري للحجاز، والذي تناثرت فيه المدن التعدينية حيث كانوا يصنعون السيوف والرماح وبعض الأدوات الزراعية البسيطة، الى أن جاءت سيطرة مكة (مركز الجزيرة) تتويجاً سياسي وأقتصادي طويل الأمد. ومن خلال أنتعاش التجارة بين شمال وجنوب الجزيرة كما سنأتي عليه لاحقاً

2- الفروع الأخرى من الأقتصاد (التجارة والحرف البسيطة):-

لما كانت المدن في مشرق الجزيرة العربية وبلاد الرافدين قد تشكلت من القرية الزراعية التي كان المعبد ثم القصر هما شكلا التطور السياسي الديني المهيمن فيهما كما ورد في الفصل الأول، فأن الزراعة في المشرق الخصب قد ساعدت في تشكيل السلطة السياسية التي سيطرت على خريطة المدن والمجتمع أقتصادياً أيضاً، وذلك من خلال فائض الزراعة، ومن ثم الحرف والتجارة التي شكلت الحياة الأجتماعية والثقافية المختلفة فيهما.

ولكن الزراعة لاتمثل تشكيلة أقتصادية، أجتماعية متكاملة مثلها مثل الرعي والحرف، فهي مهن وعمليات أنتاجية وتوزيعية متعددة، على الرغم من أن الزراعة حرفة واسعة وتشكل المصدر الأساسي للأنتاج خاصة عند تواجد الأنهار الكبرى (مثل دجلة والفرات) والتي أنتجت

---

(1) تقع مدائن صالح في محافظة العلا في المملكة العربية السعودية حالياً وهي شمال المدينة المنورة فيها أثار هائلة لمدينة متروكة، ويعتقد أنها كانت مزدهرة لغاية القرن الثاني قبل الميلاد ومنذ ذلك الحين أصبحت مهجورة ولايسكنها أحد.

أوسع الحقول الزراعية ودعت الدولة للهيمنة المطلقة عليها، بسبب الصعود السريع للأجهزة الأقتصادية والسياسية فخضعت الحرف والتجارة للتطورات الحاصلة في الزراعة، مستفيدة من فيضها بل ومؤثرة عليها، الا انهما خضعتا للتطور في النتيجة النهائية فعلى طريقة توزيع الفائض الزراعي يتحدد التطور الحرفي والتجاري. فقد كانت الطبقة المسيطرة تتسلم الفائض الزراعي بصورة عينية نقدية، ثم تركزت الفوائض بشكل نقدي شبه كلي في تطور التاريخ، حيث أصبح بالأمكان تحويل النقد الى أي بضاعة أخرى.

أن التبادل السلعي بالنقد قد أحدث تطوراً تاريخياً مهماً، أذ تركزت الفوائض بشكل نقدي، وعبر تسليمه تكونت مؤسسات الدولة، والتي لاتعتبر بمثابة خزانة لتراكم أنتاج الفلاحين من الموارد الزراعية فحسب، بل لأستغلالها لأغراضها الخاصة وبحجة الدفاع العسكري عنها سواء أكانوا حقيقين أم ضمن الأوهام الدينية التي كانت سائدة من طرد للشياطين والعفاريت كما أسلفنا (أنظر الفصل الأول).

وبالتالي نجد أن التجارة والحرف البسيطة السائدة كانت تلعب دوراً مستقلاً في تطور الأقتصاد، فهما مترابطان بفائض الزراعة التي تتحكم بها الخزينة الملكية، والتي تغدو مشروعاتها الأقتصادية والأجتماعية رهناً ذاتياً للحكم المطلق، ويتم التحكم بها وفقاً لرغباتها وأفكارها وقوانينها... الخ. وهكذا تصبح الزراعة التابعة للطبيعة بالدرجة الأساس ذات طبيعة شبه مطلقة تهيمن على الحرف والتجارة من خلال تحكم الأسرة الحاكمة أو القصر مما يلحق هاتان المهنتان الى التبعية للطبيعة وأقدارها أيضاً وبالتالي وكأن كل شئ يتعلق بالحاكم المطلق، الذي هو نائب الأله الحامي.

أن شكل الأدارة للمجتمع الزراعي البدائي في ذلك العصر كانت تتركز على ذاتية الحكم ولاتنفصل مطلقاً عن طبقته، وهي أيضاً مرتبطة في مراحل تطور تلك الذاتية وصراعاتها، كما أنها تلعب دوراً حاسماً في تطور تلك المملكة أو الأمبراطورية، فمثلاً أذا كان الحاكم قد توحد بالأله وغدا جزءاً منه أو أمتداداً اسرياً أو تجسيداً نورانياً له، فأن ذلك سوف ينتج عنه سيطرة شاملة للحاكم على المدينة والرعية، وبالتالي المملكة والأمبراطورية وهكذا كانت أدارة الحياة الأقتصادية متماشية مع نمط وأسلوب التطور في تلك المرحلة التاريخية. أن الحاق التجارة بالقصر كانت قد فقدت قدرتها على تفكيك الملكية الزراعية العامة الشاملة، فرأس

المال الكبير لاينمو الا عبر الأرباح المتراكمة والناجمة عن التجارة بالمواد المهمة والثمينة التي يستخدمها القصر، ومن ثم القصور الملكية المتعددة والبذخ للطبقة الحاكمة كلها من الحاشية المحيطة بالملك والكهنة (رجال الدين في ذلك الوقت) وكبار التجار... الخ.

ولهذا فأن رأس المال لايتعامل علمياً بالحرف وأدواتها وآلاتها، الا أذا كانت مؤثرة في أنشاء قصر أو عمل مركز رصد للحاكم أو قبر يخلد فيه أسمه، كما حصل في بناء الأهرام في مصر وبناء الزقورات و المعابد في بلاد الرافدين... الخ. ومن هنا فقد أصبحت العلوم والمعارف الأنسانية عبارة عن مجموعة متضائلة من المعارف المفككة غير المترابطة بعضها ببعض، وتفتقر الى المنهجية العلمية التي تساعد على غربلة المعلومات وتنميتها للوصول الى مراحل متقدمة من شأنها أن تحدث طفرة في حياة ذلك المجتمع.

وهكذا ظلت الحياة مقصورة على النحو المذكور ثم ضعفت وأضمحلت شيئً فشيئ وأندثرت تحت التراب والأنقاض ونشأت فوقها اجيال أخرى الى أن وصلت اليها بعثات الأستكشاف الحديثة لتنقب عنها وتعرف عنها الجزء اليسر الذي نحن بصدده.

3 ـ نمو الرعي في الجزيرة العربية وأثره في الحالة الأجتماعية والأقتصادية:

لقد كان الرعي أساس تشكيل الفائض الأقتصادي في المناطق الصحراوية من الجزيرة العربية كما كانت الزراعة تشكل فائض أقتصادي أساسي في المناطق الحضرية منها وعلى حافات الأنهار والواحات البسيطة في شمال الجزيرة كما أسلفنا.

وعلى الرغم من أن الفوائض بالنسبة للرعي قليلة ومحدودة، ألا أنها تظهر وتتدفق على المدن والأسواق. فالرعي لن يكون سوى ملحق أخير بأقتصاد المدينة حيث يسيطر الحاكم المطلق، ويقوم بتبادل السلع التي ينتجها من قطعانه مستبدلاً بها سلع ضرورية كالمواد الغذائية والملبوسات والأسلحة. ولم تكن لتلعب دوراً الا في المدن الصحراوية والقرى التي تمد الرعاة بالوسائل التي تجعلها تستطيع التغلغل أكثر فأكثر داخل الصحراء بدون عناء أو كلل، وخاصة رعاة الأبل الذين يتم تعيين طرقهم بواسطة

الأنتشار الواسع في الصحراء وتنمو القبائل الأشد فقراً وتوحشاً كنتيجة لذلك الأنتشار.

أن هؤلاء الرعاة ذوي التجمعات الأكثر تضاداً مع بذخ المدينة ومراكزها الكبيرة خاصة قد أزدادت أحتياجاتهم للأبناء من الرجال خاصة من بعد أتساع قبائلهم وانتشارها في مساحات شاسعة، الا أن ذلك أدى بالنتيجة الى أشتداد الفقر والحاجة في مستوياتهم التحتية، في حين انفصل رؤساء القبائل والعشائر عن البقية الباقية من الأبناء الجدد بعد حين من الزمن ليكونوا طبقة ارستوقراطية خاصة تشكل مصدراً آخر لأستغلال الرعاة. ولكي يستطيع هؤلاء الزعماء أن يحولوا القبائل الى شرطة سياسية وعسكرية للدويلات الصغيرة المتآلفة على هيئة عدد محدد من القبائل أو حتى من جزء من قبيلة أنفصلت عن القبيلة الأم لظروف ما.

وقد تم بذلك تشكيل خفر لقوافل التجارة كحراسة القوافل التجارية عبر الصحراء وقد يتحولون هؤلاء الحراس أنفسهم الى لصوص وقطاع طرق، فيشنون الغارات على القبائل الأخرى أو المدن العامرة في الثراء. وهكذا نشأت على مر السنين عادة السلب والنهب عند العرب القدماء خاصة منهم الرعاة في الصحراء، وأصبحت جزءاً من كيانهم الأقتصادي والأجتماعي وتوارثته الأجيال وترسخت في العقول، وأصبح جزءاً من البطولة والفروسية التي يفتخر بها بعض افراد تلك القبائل، وكان واضحاً في أقوالهم وأشعارهم في عصر الجاهلية حتى أنها أصبحت تأخذ أسماء أخرى مقبولة بعض الشيء كالحصول على الغنائم في الحرب أو الغزو، وأصبحت مهنة لبعض القبائل التي لاتجيد أي مهنة أخرى سوى السلب والنهب وأصبح بذلك معروفاً عن تلك القبائل بأن كيانها ووجودها وتخصصها معروفاً ومقروناً بتلك المهنة.

ولاينفرد في ذلك بعض العرب في الجزيرة لوحدهم في مثل هذا السلوك فأن جميع سكان الصحاري في العالم يمتهنون تلك المهن ويتصفون بنفس الصفات تشتد وتخف حسب شحة الموارد الطبيعية وقساوة المحيط، ففي الصحراء المنغولية مثلاً تكون الظروف المناخية أكثر شدة من حيث البرد مما تنعكس على سلوك القاطنين هناك بنفس

القدر من القسوة والقهر ويكونون أكثر شدةً في القتال وأكثر تحمساً للسلب والنهب[1].

أن الطبيعة الصحراوية في كل بقاع العالم سواء أكانت في الصحراء العربية أو في أواسط آسيا أو في أمريكا الشمالية أو أستراليا وفي شتى أنحاء العالم، تفرض عليهم نفس الطبيعة البدوية نظراً لشحة الموارد الطبيعية. ولابد من الأشارة هنا الى الأختلاف في طبيعة المناخ غير الصحراوي في المناطق الأوربية حيث أن كثرة هطول الأمطار وتوزيع الثروة على أساس توزيع الأمطار بالتساوي قد نشأ عنها تطوراً تاريخياً مختلفاً تماماً عن المناطق الصحراوية. ومن الأنصاف الأشارة هنا أيضاً الى أن السلب والنهب الذي أصبح جزءاً من سلوك أجتماعي للعربي أتصف في الوقت نفسه بالكرم والجود لما يبذله من سخاء وكرم عندما يأتي اليه الضيف المحتاج. وأصبح هناك هدف آخر للسلب والنهب لدى القوم وهو توزيع الغنائم على بقية أفراد القوم، وبالتالي يعود اليه بالفخر والأعتزاز لهذا العطاء السخي.

أن سهولة الحصول على الثروة تؤدي بالنتيجة الى سهولة أعطاءها وصرفها في آن واحد. كما أن العربي أصبح يقدر أن مثل تلك المواقف قد تكون ديناً أو رصيداً لجهد بذله في يوم ما قد يحتاجه في أيام أخرى تضمن له عطاءاً ومالاً أكبر، مهما كانت عمليات التخلخل الأجتماعي داخلها، ومهما ظهر بها من صعاليك ومتمردين وقتلة ومهما أستغلهم رؤسائهم. فالوحدة القبلية أقرب للتكوين البيولوجي منها للتكوين الأجتماعي، فأن القبيلة التي تكونت وتحجمت في الصحراء وقاست وصمدت لقسوة تلك الصحراء المضنية، قد غدت بمثابة الرحم الطبيعي للفرد في الجزيرة العربية. أن الحياة الأجتماعية في جميع أطوارها وأشكالها لابد أن يتوازن فيها جانب التعاون وجانب التنازع فألى جانب السلب والنهب هناك عطاء وكرم من أجل استمرار الحياة في الصحراء القاسية. أن القبائل العربية من خلال هذه الوحدة الصخرية أصبحت قوة أجتماعية منظمة في مواجهة مدن مستغلة ومفككة أكثر مما هو عليه الحال بالنسبة للقبائل في الصحراء.

---

(1) د.علي الوردي" دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" بغداد 1965 مطبعة العاني83

أن القبيلة تعتبر أشبه بوحدة عسكرية متنقلة قادرة على الترحال والصمود في أقسى الظروف المناخية والأقتصادية، وهي قوة موحدة قتالياً وجاهزة وتمتلك مواردها وأستقلالها الروحي والمادي. وهي لهذا السبب أصبحت مؤثرة في مواجهة المدينة بما فيها من مصالح متباينة خاصة عندما تبدأ مؤسسات المدينة بالتفكك والضعف، وتصبح الأمور أكثر خطورة عندما تتآلف القبائل وتتحد لتكون قبيلة كبرى. لذا أصبحت القبيلة الكبرى هذه هي الوحدة الأجتماعية الكبرى للعديد من القبائل المتحالفة مع بعضها البعض.

وهذه القبائل تضم في تكوينها الداخلي العشائر المتحالفة ايضاً، وتكون تلك العشائر في كثير من الأحيان متحالفة ومتقاربة في الأسر، من حيث الحسب والنسب والمصالح الأقتصادية التي تربطها بعضها ببعض. وهكذا هو التنظيم الأجتماعي والأقتصادي الذي أستدام فترة طويله من الزمن في شبه الجزيرة العربية والى يومنا هذا، دون أن يمسه خلل أو تغيير جذري يمسح منه الطابع المتميز بل وأكثر من ذلك فقد ترك لنا مواريث في العقول أثرت كثيراً في سلوك، وعادات وطرق تفكير غير منسجمة مع تطور العصر، بعد أن تغير كل شيء وأصبحت الحياة الصناعية الحضارية مزدهرة في العالم الآخر (العالم الغربي على وجه الخصوص).

ولابد لنا هنا أن نذكر ماقاله المؤرخ فليب حتى[1]: "أن الغزو ينفع البدو في حياتهم الصحراوية اذ أن القتال الذي يجري يقلل من عدد الأفواة الآكلة. وأن سكان البادية هم في حياتهم الأعتيادية على حافة مجاعة دائمة لمحدودية المياه والموارد الأخرى ولهذا صارت نزعة القتال عندهم كأنها حالة ذهنية مزمنة. أن القتال في البادية هو بمثابة صمام الأمان يمنع سكانها من التكاثر فوق الحد المكافيء لمواردهم الشحيحة. فما دام سكان البادية بوجه عام لايستطيعون تكثير تلك الموارد فيها بطرق الأستصلاح وأستخدام الطرق الحديثة في زيادة الثروة كما هو معمول في عصرنا الحديث فالطريق المفتوح أمامهم أذن هو أن يقللوا من العائشين عليها".

وهذا يحدث عادة في معارك الغزو حيث يسقط القتلى فيها بين حين وآخر. لذا فأن هذه الظاهرة تدخل ضمن أطار التوزيع الطبيعي للكائنات،

Philiph Hitti (History Of The Arabs) (P-280-281) (1)

وهي تنطبق أيضاً على جميع الكائنات الحية فمثلاً أن البُرك المائية التي تكثر فيها التماسيح عندما يزداد عدد تلك التماسيح بالتكاثر غريزياً وأن عدد الأسماك التي تتغذى عليها تبدء بالتناقص، تجد أن كبار التماسيح الأقوياء تخرج الى اليابسة وتتقاتل مع بعضها البعض لكي يقل العدد ويستمر الجنس (التماسيح) بالبقاء على قيد الحياة ضمن تلك الظروف الصعبة، لأن التزايد المفرط وغير المتوازن مع كمية الغذاء اللازم للبقاء يصبح مشكلة تهدد بأندثار تلك الكائنات، فبدلاً من حصول الهلاك المحتم لكل المجموعة بسبب نقص الغذاء يصبح القتال أداة للأنتقاء والبقاء[1]

وفي الجانب الآخر فأن البدو الرحل يحتقرون المهن وكل من يكسب رزقه بعرق جبينه فهم يحتقرون الحائك والحداد والصانع والصقال والدباغ والحلاق وغير ذلك[2]. يقول الأستاذ حافظ وهبه بهذا الخصوص مايلي" أن البدو أذا أرادوا تحقير أنسان وسَبهُ بكلمة تكون مجمع السباب أن قالوا له ياأبن الصانع"[3] بينما يقول السيد عبد الجبار الراوي" أن الغزو محمدةُ عند البدو وتمجيد ولاذم فيه ولانقيصة، وهو يختلف أذن عن الخطف والأبتزاز والسرقة. وكثيراً مايتطوع الرجل القوي للغزو، ويلقي بنفسه في المهالك، ويبذل من ماله وشباب قومه أضعاف مايربح من الغزو. وذلك لكي يفوز بالسمعة الحسنة في أندية القوم حيث سيتغنى بمديحه الشعراء ويلهج بذكره الناس"[4].

وهكذا نجد أن البدو الرحل الذين يعتمدون على الرعي والقتال من أجل السلب والنهب بعضهم لبعض من القبائل والمدن المنتشرة في مسافات متباعدة في المناطق الصحراوية من الجزيرة، هي السائدة على الزراعة والحرف الصناعية البسيطة جداً بالأضافة الى التجارة في الآونة الأخيرة بين تلك المناطق المتباعدة، والحاكمة في شكل وهيكل التنظيم الأداري والسياسي وعلى نمط الحياة الأجتماعية والعلاقات بين القبائل خلال تلك الفترة من الزمن. بالأضافة الى بروز التجارة مع العالم الخارجي، فقد أمتدت التجارة التي كان مركزها مدينة مكة من الدولة الرومانية والبيزنطية شمالاً الى الهند شرقاً. وكانت واحدة من أهم أسباب بروز دور مكة، ومن فيها من قبائل أشهرها قبيلة قريش تأخذ مركزاً

---

(1) برنامج تلفزيوني في محطة (*BBc*) بعنوان" الصراع من أجل البقاء" 2004.

(2) علي الوردي (المصدر السابق) 158.

(3) حافظ وهبه (جزيرة العرب في القرن العشرين) 132م/ القاهرة (1964) علي الوردي المصدر السابق 62.

(4) عبد الجبار الراوي (البادية) 242 علي الوردي" دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" 63.

ومكانة قيادية مرموقة بين أطراف الجزيرة المترامية كافة من خلال ممارستها مهنة التجارة.

4- تطور الوعي الديني عند ظهور الرعاة على مسرح التاريخ العربي:-

لعل واحدة من أهم المواضيع التي نتناولها بشأن المواريث التاريخية المؤثرة على حياتنا في الوقت الحاضر هو تطور الوعي الديني في المنطقة، لما لهذا التطور من أهمية بالغة في رسم معالم الحياة والحضارة وسير الأحداث التاريخية منذ أقدم العصور ولحد الأن.

لقد تباينت التطورات الدينية بين القسمين الحضاريين في الجزيرة العربية الأول: القسم الزراعي المتمثل في شمال الجزيرة العربية (بلاد النهرين /دجلة والفرات وبلاد الشام وفلسطين) والقسم الثاني الرعوي المتمثل في وسط وجنوب الجزيرة العربية (عدا اليمن). وكما أنقسمت الجزيرة الى قسمين أقتصاديين في كلا الجانبين، ألا أنهما لم يكونا متضادين بشكل مطلق، فالجانب الرعوي والذي تمكن من التحول الى قرى ومدن صغيرة، وبالتالي يتمدن ويتحضر ويتأثر بما تنتجه المدن المستقرة من معطيات مادية وروحية، ولكن تبقى هناك تباينات واسعة قائمة مع كل ذلك التحضر والتمدن.

فعلى سبيل المثال نجد أن أقوام الهكسوس في أحتلالهم لمصر قديماً كانوا من بين ما يعبدون الإله الشيطاني فيها (اله الواحد المدعو ست ولعلها مشتقة من سيت (شيت) اله الشر المصري والتي اشتقت منها كلمة شيطان) متوجهين الى مايشبه التوحيد الديني الخاص بهم (إله الخير). ورافضين شبكةالآلهة المصرية المعّبرة عن حشود العالم الزراعي المسالم. وهكذا تميز ملوك الرعاة في ذلك الزمان عن غيرهم من المزارعين في المعتقد الديني، وبدءت بوادر التوحيد تتبلور وتأخذ حيزاً ضمن المعتقدات الدينية السائدة في ذلك الحين، والتي كانت معتمدة على تعددالآلهة. فقد كانت هناك العديد من الأقوام المتمسكة في عبادتها للأوثان، بأعتبارها واسطة للوصول الى الخالق الأعلى، وكان قسم منهم يعبدون الشمس والقمر والكواكب والنجوم أو أن يجعلون منها رموزاً مرئية يتشبثون في التمسك بها من أجل حمايتهم من الأخطار المحيطة بهم، ومن الشياطين غير المنظورة. ومنذ ذلك الحين بدء الأنسان بالتفكير

بالفلسفة لتفسير ما يدور حوله من ظروف وأحداث كونية وطبيعية بدلاً من الأعتماد على السحر والأساطير التي ترسمها له الكهنة.

وقد تطور العقل البشري لمرحلة متميزة بحيث أصبح هناك مساحة في الدماغ قادرة لتفسير مايدور حوله بتعمق وبأفق أوسع بمرور الزمن ومن خلال الأحتكاك بالأقوام الأخرى المحيطة بهم. يقول الكاتب المصري المشهور سلامة موسى في كتابه عن" نظرية التطور وأصل الأنسان" بهذا الخصوص مايلي ("أن خروج الأنسان من الوثنية الى التوحيد نشأ عند الأمم التي لاتحسن صناعة البناء والتماثيل والأصنام، ولذلك ظهر بين الأمم البدوية التي تعيش في الخيام مثل الهكسوس والأسرائيليين والعرب. والأغلب أن الهكسوس هم أول من آمن بأله واحد يجدونه في كل مكان يدخلون اليه ولايحتاجون الى تمثيله في صنم يرهقهم حمله ونقله. أما الأمم المتحضرة فكانت تجيد صناعة الأصنام، وتنحتها من المرمر فتخلب أفئدة المتعبدين وكانت لها هياكل ثابتة عليها كهنة ولها أوقاف. فكان من الصعب جداً أن تروج بينها فكرة التوحيد")[1] وفي الحقيقة فأن أول ظهور للتوحيد في المنطقة هو التوحيد الأخناتوني ذلك الفرعون والفيلسوف المصري" أخناتون" الذي يعتبر من أوائل الموحدين في التاريخ، وكان ذلك تعبيراً صادقاً عن حلم هؤلاء الرعاة المشردين، ولكي يمكنهم من تأسيس دولة خاصة بهم ترعى شؤونهم السياسية وتحميهم من المخاطر، وقد ظهر بعدها توحيد العبريين في منطقة فلسطين الكبرى، لدى بني أسرائيل الذين كانوا يمتهنون الرعي في بادئ الأمر، وقد انتشروا داخل الجزيرة العربية برمتها.

ولكن كل تلك الأفكار التوحيدية لم تكن بدرجة النضج التي نعرفها الآن من أن الله واحد أحد خالق كل شيئ، بل كان التوحيد مقتصراً على أن الآله الواحد خالق ذلك القوم لوحدهم دون غيرهم، وهو المسئول عن حمايتهم دون غيره من الآلهة. وقد جرى التوحيد المطلق المعروف لدى الأديان السماوية عبر فترة زمنية طويلة أتخذ خلالها جملة من مراحل التطور في الفرضيات والأستنتاج. وقد كانت الأفكار التوحيدية في بادئ الأمر تهدف من ورائها غايات سياسية معينة. فالقبائل اليهودية (العبرية) كانت تعتبر من الأمم الرعوية لادخل لها بالزراعة، ومن هنا نجد الأمثلة

---

(1) سلامة موسى" نظرية التطور وأصل الإنسان" نشر الياس انطون الياس المطبعة العصرية- مصر 228.

الملموسة في تضاد الأمم الرعوية مع الأمم الزراعية. فالقبائل اليهودية عبر توحيدها كانت تحاول أولاً: أن تشكل سلطة سياسية وفكرية داخلها، وعبر التفافها حول اله واحد والذي كان يدعى بالألة يهوة[1]. وثانياً: تريد أن تستقل لوحدها في كيان خاص لايخضع لسيطرة الدول المجاورة الذين كانوا في خصام دائم معها كالكنعانيين الذين كانوا يقطنون بلاد الشام والآشوريين والبابليين الذين أسسوا أمبراطوريات ضخمة في بلاد الرافدين من جهة الشرق، بينما المصريين أيام الأمبراطوريات الفرعونية كانوا يحدونهم من الجنوب الغربي، وكانت منطقة فلسطين تعتبر منطقة صراع دائم بين كلتا الأمبراطوريتين المذكورتين وموضعاً مستهدفاً لهما. وعلى الرغم من أنهم لم يستطيعوا بعد من التخلص من عبادتهم للآلهة أيل (اله الكنعانيين) وبعل (اله الفينيقين) خاصة وأن الفينيقيين الذين كانوا يعيشون على أمتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط كانوا يتفننون ويجيدون نحت الآلهة على الصخور والمرمر بدقة متناهية، تُبهر العقول لازال قسم منها في المتاحف الأوربية الشهيرة. بينما كانت آلهة بلاد الرافدين المتعالية والتي كانت مسئولة عن الخصب والمهيمنة على الموارد الزراعية والتحكم في توزيع مواردها (كما أسلفنا في الفصل الأول) لاتتعدى أحجاراً بسيطة منحوتة بأشكال غير دقيقة.

أن اله اليهود الجديد "يهوة" كان اله المدينة التي لم تتشكل بعد، أي الة الرعاة الحالمين بتشكيل دولة من نوع مثالي يصعب تحقيقة في ذلك العصر. وحين قام الأله بذلك عبر تشكيل الدولة ومؤسساتها، نجد أن التوراة (أو التلمود آنذاك) كان يشكوا دائماً في بداية الأمر من ملوك أسرائيل الذين لم ينفصلوا كلياً عن أيل، وتقاليد الشرق الأدنى ذات الطابع التعددي في الآلهة، وبالتالي نستطيع القول بأن الأله الرعوي قد عاد الى منطقة أيل أيضاً[2].وذلك يعود الى منطقة فلسطين التي كانت تتصف بالخصب الزراعي بعد أن كانت معتمدة على الرعي. لقد ظهر التناقض في المعتقد عندما أزدادت ممارسة الزراعة لدى العبريين (اليهود) وأبتعدوا نسبياً عن الرعي. أن ظهور اليهود من جهة الشمال والعرب من الجنوب على مسرح التاريخ في منطقة الجزيرة العربية كان أحد

(1) عبد الله خليفة" الاتجاهات المثالية في الفلسفة" دار المدى للثقافة والنشر، دمشق (2004).
(2) العهد القديم" الكتاب المقدس" المصدر السابق 333.

المؤشرات على صعود وسيطرة الرعوية القبلية. وقد سيطرت الحياة الرعوية في الشمال والجنوب على كل المناطق الزراعية والصحراوية على حد سواء. صحيح أن الرعاة كانوا في البداية يظهرون قوتهم عند حصول هجمات كاسحة ضمن مناطق مختلفة من الجزيرة، كما حصل من قبل الهكسوس والقيسيين العرب على المناطق الزراعية، وذلك لحاجة الرعاة الى تلك المناطق لأستغلالها للرعي.

فقد أورد العديد من المؤرخين والباحثين في مؤلفاتهم عن العرب واليهود، أن هؤلاء كانوا من أوائل الرعاة، ونجد أنهم لأول مرة أستطاعوا أن يشكلوا جسم أجتماعي وسياسي مستقل أنبثق داخل هذا التكوين في جميع مفرداتة الثقافية عبر فترة زمنية طويلة، ولابد من ألأشارة هنا الى أن القبائل اليهودية قد تمكنت من تكوين دولتين مستقلتين بعد ذلك بعدة قرون. الا أن تلك الدولتين (المقصود: دولة الشمال والجنوب اليهوديتين المعروفتين في منطقة فلسطين الكبرى في التاريخ القديم)، كانتا لا تفلحان في الصمود على مسرح الصراع في المنطقة، بسبب وقوعهما بين دولتين كبيرتين وقويتين أيضاً كما أسلفنا. (دولة بلاد الرافدين شمالاً ودولة الفراعنة المصريين جنوباً) ونعود هنا لنجد أن الأله الرعوي الذي يتحول الى الة بيد الدولة من دون أن يستطيع الأفلات من التقاليد السائدة في المنطقة ككل أنذاك. وأنطلاقاً من مبدأ ينص على أن كل كيان سياسي لدولة، لابد لها من فكر ومعتقد وفلسفة ثابتة تستطيع من خلالهما فرض وتسير أمورها وتثبيت وجودها في عقول الناس وعقول الأقوام المجاورة وتستطيع أن تدوم لفترة تتناسب وصحة تلك الأفكار مع الظروف المحيطة بها، وضمن المرحلة التاريخية من تطور العقل البشري، من خلال مامتوفر من معطيات علمية تم التوصل اليها في ذلك الحين. وكما أوضحنا أيضاً في الفصل الأول، كيف أنبثقت الدولة بمؤسساتها وكيف تم بناء المدينة في المنطقة الزراعية عبر نماذج مدن بلاد الرافدين أيام السومريين والكلدانيين وغيرهم، وفي منطقة بلاد الشام ايضاً حيث كانت تلك المدن متمثلة في وحدة صراع مستمرة بين الأله المتعالي الذكوري المسيطر، وبين بقيةالآلهة الذكورية والأنوثية الأقل تعالياً وسيطرة لدى الكنعانيين (حسب أعتقاد القوم في ذلك الزمان). فأن هذه الوحدة كان يشدها قطبا الدولة المسيطرة المتعالية، وأقتصاد زراعي بتقاليده الأسطورية التي تمنع الأنفكاك بين القطبين المتنازعين. ولذلك فأن اله"

أشور" وهو رمز لآله الشمس لدى الآشوريين في الشمال، كان لاينفصل عن الأله تموز في الجنوب لدى البابليين.

وهكذا بالنسبة لبلاد الشام فأن الاله "آيل" (الكنعانيين) لايلغي الاله "بعل" (الفينيقيين) كما أن الأله رع لايلغي الاله أوزوريس (لدى المصريين).

بينما كان الاله "يهوة" (اليهود القدماء) يحاول أن يلغي وجود آيل وبعل على أعتبار أن الأله يهوة ينتمي للرعاة، بينما تنتمي بقيةالآلهة الى الخصب والزراعة. وهكذا كان هناك صراع وتصادم بتواجد تلك الآلهة مع بعضها، وبشكل خاص فأن كراهية الألة بعل (الفينيقيون) كانت أشد لكونها تتجسد في التقاليد والطقوس الفلاحية الصرفة، حيث أن الأله (بعل) يتصف بسعيه من خلال ذيله الطويل أن يعوض عن الأستعباد والدونية من دون أن يمتلك القدرات البشرية والمادية الكافية في تلك المرحلة التاريخية، بالمقارنة مع ماكان عليه الحال لدى الأقوام الرعوية. لذلك تميزت تلك الفترة من تاريخ الديانة اليهودية بظهور سلسلة من الأنبياء والذين جاءوا بعدد من المعجزات التي ساهمت بدحر تعددالآلهة ودعم أفكار الأله يهوة. ألا أن ذلك كان محصوراً في منطقة محددة بينما كانت الأفكار الوثنية الأخرى السائدة في منطقة بلاد الرافدين أكثر قوة من الناحية الفنية، ولذلك فقد تم أعتبار الأسر البابلي (السبي البابلي الأول) لليهود أن المعتقدات الدينية (والتي تعتبر بعيدة عن التوحيد) كانت سبباً للكوارث والنكبات التي حلت عليهم بسبب عدم تمسكهم بخدمة آلهتهم بالشكل المطلوب، دون أن يخطر ببالهم أن وقوعهم على طريق مرور الأمبراطوريات العملاقة في ذلك الحين (البابلية والمصرية)، ومحاولتهم التمييز والتفرد الألهي ضمن قدراتهم البشرية القليلة والمحدودة، (كان عدد اليهود من نبي أسرائيل قليلاً في ذلك الوقت مقارنة مع بقية الأقوام في المنطقة) كان السبب وراء كل تلك الكوارث المتلاحقة عليهم. لقد كانوا دائماً عرضة للعديد من الهجمات المتلاحقة من قبل الأمبراطوريتين البابلية والآشورية والتي كانت تتكرر لفترات زمنية متتالية بدون أنقطاع.

وهكذا نجد أن فكرة التوحيد التي نشأت بادئ الأمر لدى الأقوام الرعوية والتي لاقت مقاومة شديدة من قبل الأقوام الزراعية المستقرة في المدن والثابتة قد أخذت فترة طويلة من الزمن في بلورة وترسيخ الأفكار الأكثر تطوراً وملائمة للعصر ليس فقط في منطقة الشرق الأدنى بل في

مناطق مختلفة من العالم ضمن فترات تاريخية متقاربة مما يدل على أن نمو العقل البشري كان يسير بوتيرة واحدة في كل أرجاء العالم.

ففي الوقت الذي كانت تنمو وتتبلور الأفكار التجريدية عن الأله الواحد في الجزيرة العربية عن طريق الرعاة، الذين يتجولون في الصحراء ويعيشون في الخيام ولايوجد لديهم طموح في الأستقرار في مكان واحد، وتطوير ذلك المكان وبناءه والوصول بالحضارة الى الأزدهار والتقدم بشكل منسجم مع العصر. كانت هناك شعوب وأقوام مجاورة في الشرق قد توصلت الى وضع يتسم بالأستقرار ويشجع على نمو الأفكار الفلسفية المتطورة في أمور المعتقدات الدينية والجوانب التشريعية المهمة في حياتهم الأجتماعية والأقتصادية والسياسية. ومن بين تلك المعتقدات كانت هناك الزرادشتية التي ظهرت في المناطق الشمالية من بلاد النهرين (الرافدين) وكذلك في منطقة أيران الشرقية منها والشمالية الى الهند والصين، بينما ظهرت البوذية والكمفوشثية في المناطق الأبعد منها. وكل تلك الأفكار كانت توحيدية بشكل أو بآخر وقبل ميلاد المسيح بمئات السنين رغم أنهم كانوا يقدسون النار ويقدسون أمور أخرى لكنهم في النهاية يعبدون الله رغم أعترافهم بأن التعاليم التي جاءت بها تلك الديانات ليست سماوية (أي لم تكن منزلة بوحي من السماء حسب ادعائهم).

ولامجال للتطويل في شرح كل تفاصيل تلك الديانات، الا أننا سنأخذ الديانة اليهودية منها على سبيل المثال نظراً لكون تلك الديانة كانت واحدة من بين ثلاثة ديانات سماوية تعتبر من أشهر الديانات التي ظهرت في الشرق الأدنى، ولكي تكون الصورة واضحة عن كيفية تطور الديانات وعلاقتها بتطور المجتمع من الناحية الأقتصادية والسياسية والاجتماعية وعلاقتها بطبيعة الأرض والظروف المناخية للمنطقة. وماورثناه من طقوس وتعاليم وتشريعات متشابهه الى يومنا هذا.

5 ـ نشأة الديانة اليهودية القديمة في الجزيرة العربية:-

كما أسلفنا فأن الأله الرعوي المحمل بعناصر القوة الرمزية من بني أسرائيل وهو يخرج من مصر على (يد النبي موسى عليه السلام)،

وبتقاليد الزراعة المصرية داخل منطقة زراعية أخرى أكثر خصوبة من الأولى (فلسطين).

لايستطيع الأنفكاك من شريط العالم الأخضر بتقاليده الطقوسية الأكثر تعبيراً عن نفسها في العزلة والعيش في الصحراء وأستثارة التقاليد الحربية حتى يقتحم الأرض (الموعودة). أن هذا المحرك الرعوي قد أنتج الآلهة شبه المجردة، (التفكير التجريدي _ البعيد عن التفكير المادي الملموس) على الرغم من أن المرحلة الفكرية في ذلك العصر لم تكن قادرة على تجسيد الأله الا بشكل حسي[1] مما اضطرهم إلى إعطاء صفات للإله الواحد الأحد تشبه صفات البشر كي يتقبلها عامة الناس[2].

فالرعاة مثلهم مثل الفلاحين لا يستطيعون الوصول الى التجريدمرة واحدة وفي فترة زمنية قصيرة، خاصة وأن الأله المجرد غير ممكن تشكيله في المرحلة الدينية الأولى في المشرق لأن العلاقة بين القائد السياسي (النبي أو الملك) والجمهور الأمي تتطلب ترابطاً وثيقاً يتيح للقائد من تحريك الجسم الرعوي الذي يتم تدريبه وتوجيهه داخل المنطقة الزراعية لغرض احتلالها والتسلط عليها، ولهذا السبب فأن تشكيل ورسم الآلهة المجردة أمر غير ممكن وغير مفيد في بادئ الأمر. الا أنه لابد من وجود أختلاف عن آلهة الأمم المجاورة المعادية لهم، وبالتالي لابد ان يكون هناك وجود لهذه الآلهة ضمن أملاء الفضاء الفكري المتاح لكي يختلف عن كل الآلهة المجسدة والمنظورة. وفي هذا الصدد يقول جان بوتيرو في كتابه عن ولادة آله التوراة[3] "ليس الآله "يهوة" هو الأله الوحيد الحق في المطلق ولكنه الوحيد بالنسبة لبني أسرائيل كما كانوا يعتقدون. فهو الوحيد الذي يهتم به بني اسرائيل من دون بقيةالآلهة الموجودة، فهم يعتبرون أن الأله "يهوة" هو الخالق الوحيد. وأن هذا الأله خلافاً لكل ماكان متعارف عليه يجب أن لايتصورة أحد وأن لايحاول أحد من أعطاءة شكلاً معيناً أو صفة معينة حتى في مخيلته. وكان ممنوعاً لديهم أن يُعطى شكل العجل الذي كان معمولاً به قبل ذلك للأله بعل.

---

(1) عبد الله خليفة – المصدر السابق نفسه.

(2) ول ديورانت "قصة الحضارة" ترجمة محمد بدران الجزء (14) جامعة الدول العربية، القاهرة (1964).

(3) جان بوتيرو-" ولادة اله التوراة والمؤرخ" 119 ترجمة جهاد الهواش، عبد الهادي عباس- دار الحصاد- سوريا دمشق (1999).

ويكفي فقط أن نقول أنه موجود وأنه أله ويتوجب أجلاله ليس فقط بتكريس أوقات معينة حصراً لذكرة بل لخدمته أيضاً".

وخدمته قبل كل شيء تتطلب أحترام الأخرين من ناحية حياتهم وأموالهم وذلك يتطلب أيضاً أقامة العدل والأخوة مع الآخرين - ولو أن الآخرين ليسوا سوى بقية من أسرائيل، فأن ذلك يرضيه (أي يرضي اله يهوة).

وبذلك أرتبطت بني أسرائيل بيهوة وفق المفهوم العميق والعالي الذي شكل الأنبياء عن هذا الأله وعن العهد.

وكما يعتقد المؤرخون أن النبي موسى قد ظهر بحدود عام 1250 ق.م أيام الفرعون رمسيس الثاني فرعون مصر. وهكذا ظهر التجريد في المعتقد الديني في الجزيرة العربية، والتي كانت في بادئ الأمر تتأرجح بين التجريد (غير الملموس) والملموسية وذلك من خلال المهمات السياسية المطلوبة لنمط الأله المطلوب لدعم تلك المهمات والمستوى الفكري (تطور العقل البشري) لحَمَلة تلك الأفكار والمدعوين لتنفيذ تلك المهمات.

أن هذه الأنفصالية غير ممكنة للشعب العادي، واذ تحدث العملية شبه التجريدية للآلهة فهي لا تدوم طويلاً، سواء غاب النبي لفترة وجيزة أو أسس خلفاؤه مملكته عند غيابه[1]

أن الرعاة أنفسهم مرتبطين بالتقاليد الزراعية الأقوى حضوراً، فمتى ماأتجهوا نحو الأرض لزراعتها، يجدون أنفسهم أنهم بحاجة الى المحصول الوفير الذي كان مرتبطاً حسب معتقداتهم القديمة بالألهة الملموسة، ومدى خدمتهم وأدائهم لواجباتهم أتجاها، وفي آن واحد فأن الرعاة مرتبطين أيضاً بالفضاء الفكري للمنطقة، والمتسم بالتجسيم المادي للآلهة والتجسيم ليس سوى تعدديةالآلهة التي تعكس تعدد مستويات السلطات في العالم القديم المفكك أقتصادياً، سواء على مستوى المدن أم على مستوى القبائل والعشائر والأسر المنتشرة في المنطقة العربية في ذلك الحين.

وكانت معتقداتهم أن كل هذه الآلهة تخلق آلهة مضادة وهي الشياطين والعفاريت، فأن وجود الأبيض لابد من أن يقابله وجود أسود

(1) جان بوتيرو (المصدر السابق) 75.

شرير، وقد نشأت الدولة المستبدة في هذه المنطقة عبر تجاوز هذه التقسيمات وعبر السيطرة عليها. فأذا كان الأله يهيمن بشكل علوي ويترك شبكةالآلهة الأقل أو السلطات المحلية المختلفة تعمل وتستقل ذاتياً، فأن ذلك يمهد ويتيح للوحدة والتعددية والأختلافات والصراعات بين الآلهة، وهذا يشكل أمكانية تبرير الصدامات والتباينات في العالم الأرضي الذي هو حسب الوعي السائد في ذلك الوقت لايمتلك أمكانية تشكيل مصائره بنفسه، وأنما يعتمد على القدر الألهي وعلى خرق هذا القدر عبر مساعدة آلهة أخرى. فيمكن رد مختلف تباينات الوضع الأنساني الى وجود أختلافات علوية مابين الآلهة نفسها[1]. وهكذا كانت تدور الأفكار التجريدية في المجتمع الرعوي، وكما ذكرنا في الفصل الأول عن الواح القدر التي كانت تكتب وتقدم في بدء موسم أحتفالات الربيع (إحتفالات الخصب) في بابل كل عام معبرةً عن مقادير الأنتاج الزراعي الذي يقدمه الناس (الفلاحين) والذي يحدد مصائر الناس لسنة كاملة غير قابلة للنقص، وقد يتخلل في هذا اللوح طوفان أو هجوم أجنبي أو خير عميم.

وفي الواقع فأن الأقدار لاتُعرف الا بعد حصولها لتُكتب لاحقاً، ولكن هذه الطريقة توضح الحالات التجسيمية التعددية للوعي الديني. ومع صعود الأله الواحد المسيطر بشكل مطلق على الوجود تدريجياً أم دفعة واحدة، فأن هذه الأمكانية للصراع والتباين الآلهي البشري تزول أيضاً، حيث يصبح الوجود من صنع اله واحد، وبالتالي فلا يوجد تباين بين البشر من حيث نسبة المحصول الزراعي، الا أن ذلك التفكير قد واجه آنذاك خللاً كبيراً في تفسير كيف أن الأله الواحد يمكن أن يخلق الخير والشر في آن واحد. ولكن الإيمان بالقضاء والقدر ظل راسخاً لديهم وكان سبباً في تأطير أفكارهم وعدم قدرتهم على تطوير حياتهم المستقبلية[2].

وهكذا تولدت فرق وعدد من الفلسفات التي كان قسماً منها يفصل اله الخير عن اله الشر أو أعداء اله الخير من الشياطين والعفاريت. لقد شجعت الضرورات السياسية فرض تلك الفلسفات، ففي مصر في عهد أخناتون حيث أراد أن يُجهز على سلطة الكهنوت ويمركز السلطة في يديه، مما دعته الى تعميم عبادة الأله آمون، مثلما قادت الضرورة القبائل

---

(1) عبد الله خليفة. المصدر السابق.

(2) ول ديورانت "قصة الحضارة" (المصدر السابق) جزء (13).

اليهودية الى عبادة اله واحد مخصص لها. لم يكن ليصبح الأله الكوني الوحيد في بادئ الأمر بل كان اله بني أسرائيل.

ولكن تفاقم الهزائم والكوارث الطبيعية التي حصلت عبر مئات السنين والتي هزمت مشروعهم السياسي، فوّجه اليها خامات الشعب اليهودي نحو الأله الواحد خالق ومسئول عن جميع مايحيط بهم وجسدوا هذا الأله الواحد تجسيداً مطلقاً لحلمٍ زال. وهكذا فأن توجيه الأمور نحو وجود اله واحد لابد من أن يعيد النظر في الأرث الديني التعددي والتجسيمي السابق، ويزيل كل عوامل الصراع الألهي السياسي ويمركز السلطة في ذات واحدة وسلطة واحدة مطلقة، وهكذا ومنذ ذلك الحين بدأت تتبلور فكرة الأله الواحد، وتتجه نحو التجريد أكثر فأكثر نظراً لحاجات الشعوب للتمركز السياسي وتكوين دولة واحدة.

أن الحاجة تدفع لبروز وعي بالأله الواحد المجرد لتذويب الوحدات السياسية والأقتصادية المتباينة في بودقة واحدة ولتشكيل دولة موحدة قوية وتجميع السلطات في يدها. ولكن تجميع السلطات في لحظة تاريخية ما، لابد أن تقود في لحظة أخرى الى تفكيك هذه السلطة المركزية. فتتراوح صورة الأله بين لحظتين متضادتين: التجريد الأقصى والوحدانية وبين التعددية والملموسية المباشرة. وقد عانى الفلاسفة الأقدمون الكثير في التوفيق بين هذين المتناقضين منذ أن بدأ الأنسان التمسك بالتفكير الفلسفي وترك السحر والشعوذة. ففي التجريد الأقصى تقع صورة الأله في العزلة عن الوجود المادي وأستحالة معرفة كيف تتم العلاقة بين المجرد الكلي والأشياء الملموسة، وفي التعددية والملموسية تقع صورة الأله في دائرة الأمتداد والحركة والتجسيم وبأختصار كيفية الربط بين الأشياء الملموسة وخلقها من قبل قوة خلقية غير ملموسة.

أن الرعاة وهم يريدون تشكيل دولتهم لحاجتهم الأقتصادية بذلك من خلال الحاجه للتوسع في الرقع الجغرافية للأستفادة من ذلك في الرعي في مساحة أوسع، قد أخذوا يستعينون بفكرة الأله الواحد تعبيراً عن الرغبة في الدولة الواحدة، وحيث يقتحمون البلاد الزراعية يريدون الأحتفاظ بهذه الوحدانية التي يرفضها سكان تلك المناطق.

أن صورة الأله المطلق تظهر أذن ولاتزال في طور التجسيم ولم تتبلور بشكل مجرد بالكامل لكونها تمثل تطوراً في نمو الأساطير السائدة لحد تلك الفترة الزمنية، والتي لايمكن أن تكون من نتاج الفكر المجرد مرة

واحدة، أن الأسطورة العبرية والتي تشكلت بناءاً على رغبة في تشكيل دولة واحدة، واله خاص بها انما تحتك وتتصارع مع أساطير الأمم المجاورة (السومرية والبابلية) من جهة والمصرية من الجهة الأخرى. ثم يقوم مثقفوها بالأستفادة من الأرث الرافديني ووادي النيل ليغنوا بها صورة آلهتهم الفقيرة روحياً، فمثلاً يأخذون من هذا الأرث الرافديني مسألة الخلق الأول لأبي البشر وقصة الطوفان لنوح وأيوب وغيرها من القصص الموجودة في كتاب ملحمة الخليقة البابلية وملحمة كلكاش وغيرها من الكتب المدونة والعناصر وهكذا، وتلغى تعددية الآلهة بما يتفق مع مركزية السلطة ووحدانية الآله ثم يعودوا بهذا الأرث الى فلسطين ليبدءوا بشكل جديد ضمن أسفارهم[1] * المذكورة في التوراة القديم الأول (التلمود).

لقد كان اليهود من بني إسرائيل ساميين من جهة مما سهل لهم الأمتزاج بالكنعانيين، الذين كانوا يقطنون منطقة الشام قبلهم، والذين وجدوا أن لديهم العناصر المرغوبة لهم وهي بحالة الكمال نوعما، بينما كانت بذورها وبداياتها على حالتها البدائية لديهم فقد أوجدوا كنزاً كبيراً من الطقوس والواجبات والأساليب المتبعة في العبادة والتحريم جاهزة ليكملوا عليها.

انهم أخذوا كل شئ من الكنعانيين والبابليين ماعدا تمسكهم الشديد بالأله يهوة وأيمانهم به وما تبع ذلك وبخاصة التحالف الذي قطعوه على أنفسهم كأساس لعلاقتهم مع الجيران. وهكذا تفاعل العنصران الروحي والوراثي من جهة والثقافي المكتسب حديثاً من جهة أخرى واللذان تفاعلا وأديا الى تقدم بني إسرائيل في حياتهم الجديدة في فلسطين نوعما بالمقارنة مع حالتهم أيام كانوا في مصر الفراعنة. ومثال على ذلك فأن حلم التوحيد في منطقة المشرق العربي ونبذ الماضي المتشرذم والهيمنة الأجنبية التي كانوا عليها أيام كانوا في مصر وكذلك أستعادة آن وأيل ورع وغيرها من الآلهة المعروفة قد قدمت لهم شئ مشجع للبحث والتنقيب في أيجاد سبل ومعتقدات أخرى أكثر تطوراً، ويمكن أن يُثبت كيانهم أكثر. ففي بعض الحالات كان العاملان متجانسان وتوافقا بالواقع

(1) * الأسفار المتكاملة بما فيها من تسلسل وأحكام وتفاصيل كما جاءت في الكتب المقدسة القديمة كذلك انظر طه باقر "ملحمة كلكاش وقصص أخرى" دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد (2002) يقارن فيها خبر الطوفان في التوراة مع الملحمة، الملحق السادس (ص246).

وبدون أشكال فأغنى كل منهم الاخر، فمثلاً في مجال قواعد التصرف الجماعي والتشريع كانت الالتزامات الاجتماعية التي يعترف بها بني أسرائيل بوصفهم حلفاء يهوة تتلخص بشروط العهد أي بعض القواعد الواردة في الوصايا العشر (الذي جاء بها النبي موسى عليه السلام) وهي في الواقع عبارة عن مواقف تجاه الاشياء أكثر مما هي قواعد سلوكية، ولكنهم عندما تبنوا حياة أجتماعية أكثر تعقيداً ومختلفة الاتجاه توجب عليهم أن يتعلموا توفيق مبادئهم القديمة مع طريقة حياتهم الجديدة والحالات الطارئة التي تفرضها الظروف، بالاضافة الى ما تفرضه كل حضارة تعرف الكتابة في ذلك الحين.

وقد تحتم على كل من ينتمي إلى بني إسرائيل أن يخضع نفسه وسلوكه ورغباته وغرائزه إلى الشريعة المشتركة. إن أساس الشريعة الراسخة هو وجود الله فوق الناس أجمعين (أنه الله الواحد الأحد والكلي الوجود، والقديس المقتدر، وأصل كل حياة والذي لا شريك له). إن كل من يدنس اسمه مآله الموت، فعلى بني إسرائيل ألا ينطقوا باسمه باطلاً، وأن يلتزموا بكتمانه، وعليهم حتى في صلواتهم وتقوسهم الدينية التي كانوا يؤدونها يومياً بجانب حائط المبكى أن يبدلوا اسمه "يهوة" باسمه ليحل محله "أدوناي" وتعني (الرب) باللغة العبرية.

ومن المبادئ البديهية الواردة في التلمود البابلي والكتاب المقدس (العهد القديم) وجود إله عاقل قادر على كل شيء. والله كما يصفه التلمود إله متصف صراحة بصفات البشر فهو يحب ويبغض ويغضب ويضحك ويبكي ويحس بوخز الضمير ويلبس العمائم، ويجلس على عرش يحيط به طائفة من الملائكة المختلفي الدرجات يقومون على خدمته، ويدرس التوراة ثلاث مرات في كل يوم. وهناك بعض الصفات المتناقضة فمثلاً كان غضوباً ووديعاً، دموياً ومسالماً، معانداً وذا نزوات ورحيماً ولكن الويل لمن لا يمتثل لصوته، لأنه رازحاً تحت لعناته... وهكذا فقد بقي التوصيف يأخذ إلى حد ما طابع البشر مثلما كان السومريين والبابليين يصفون بها آلهتهم. ويعود السبب في ذلك هو أن العامة من البشر لا يمكن أن يتقبلوا إلهاً بغير تلك الصفات في ذلك العصر. ويعترف رجال الدين (الحاخامات) بأن هذه الصفات البشرية قائمة على الافتراض إلى حد ما، ويقولون "إننا نستعير له صفات من خلقه نصفه بها لنيسر بذلك فهمه، وكما جاء في التلمود " وإذا لم يكن في مقدور العامة أن يفكروا إلا على

أساس الصفة المادية فليس الذنب واقعاً عليهم". وهم يصورون الله أيضاً بأنه روح الكون غير المنظورة، السارية فيه كله، تمده بالحياة، تسمو عليه وتلازمه في وقت واحد، تعلو على العالم، ولكنها مع ذلك حالة في كل ركن وفي كل جزء من أجزائه. والحضرة الإلهية الكونية المسماة بالسكينة (السكن) تكون حقيقة بنوع خاص في الأشخاص المقدسين وفي الأماكن والأشياء المقدسة، وفي ساعات الصلاة والدرس، لكن هذا الإله القادر على كل شيء رغم هذا إله واحد كما يردد اليهود "شمع يسرائيل أدوناي الوهينا أدوناي واحد" أي "اسمعي يا إسرائيل، الله إلهنا، الله واحد". ويقول التلمود "الناس كلهم أبناء آدم ولكن الإنسان قد خلق أولاً وله ذنب كذنب الحيوان وكانت وجوه الناس إلى عهد أخنوخ شبيهة بوجوه القردة"*.

ويتكون الإنسان من جسم وروح، فروحه من عند الله وجسمه من الأرض، والروح تدفعه إلى الفضيلة والجسم يدفعه إلى الخطيئة أو لعل دوافعه الشريرة قد أتت إليه من الشيطان، ومن هذا العدد الهائل من الأرواح الخبيثة التي تكمن حوله في كل مكان. بيد أن كل شر قد يكون في نهاية الأمر خيراً.

ولولا شهوات الإنسان الأرضية لما كاد الإنسان أن يتناسل، وفي إحدى الفقرات من التلمود: "تعال نعز الخير لآبائنا، فإنهم لو لم يأثموا لما جئنا نحن إلى هذه الدنيا". والخطيئة من فطرة الإنسان ولكن ارتكابها ليس موروثاً، وقد قبل اليهود عقيدة سقوط الإنسان ولكنهم لم يقبلوا عقيدة الخطيئة الأولى ولا الكفارة الإلهية. فالإنسان في رأيهم لا يعاقب إلا على ما ارتكبه هو من ذنوب، وإذا ما لقى من العقاب في الحياة الدنيا أكثر مما يبدو أنه يستحقه على ذنوبه، فقد يكون ذلك لأننا لا نعرف مقدار هذا الذنب أو قد يكون هذا الإفراط في العقاب نعمة كبرى تؤهله للخير العميم في الدار الآخرة (سفر أيوب).

ولهذا يجب على الإنسان أن يبتهج لكثرة ما يصيبه من سوء. أما الموت فقد جاء إلى الدنيا بسبب آثام الإنسان، وغير الآثم بحق لا يموت الإنسان أبداً فالموت دين على البشرية الآثمة لباعث الحياة جميعها[1].

---

* انظر عزيزي القارئ أوجه التشابه بما جاء في التلمود البابلي والأساطير السومرية والبابلية القديمة التي أشرنا إليها في الفصل الأول (ص47). مما يدل على أن نظرية تطور الإنسان لم تكن بعيدة عنهم.

(1) ول ديورانت "قصة الحضارة" الجزء الثالث من المجلد الرابع (14) ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، القاهرة، ط2، (1964) (ص18).

ولم يقل كتاب العبرانيين المقدس إلا الشيء القليل عن خلود الثواب والعقاب. فقد صوروا النار على أنها جهنم "Ge Hinnom" أوشاول (كان وادي هنم كومة من الأقذار في خارج مدينة أورشليم تظل النار متقدة فيه لمنع الأوبئة، أما شاؤل فقد كانت مكاناً مظلماً تحت الأرض يذهب إليه جميع الأموات). وقسموها كما قسموا السماوات إلى سبع طبقات تتدرج في درجات العذاب، أما الجنة فهي في السماء السابعة وكانوا يسمونها جنة عدن "Gen Eden" وكانوا يصورونها في صورة حديقة تحوي جميع المسرات الجسمية والروحية، فخمرها من كروم احتفظ بها منذ الأيام الستة التي خلق فيها العالم، والهواء فيها معطر بالروائح الزكية والله نفسه سيجتمع بالناجين من العذاب في وليمة أعظم ما يسر أصحابها أن يروا وجهه، بيد أن بعض أحبار اليهود يعترفون بأن أحداً لا يعرف قط ما وراء القبر، لكنهم كانوا يلبسون العمائم كي تكسبهم القدسية وتطرد عنهم الجن والشياطين وما يأتي منهم من شرور.

ومن الجدير بالذكر هنا أن التلمود قد أجاز تعدد الزوجات: "يستطيع الرجل أن يتزوج أي عدد من النساء يشاء، ولكن يوجد فقرة ثانية تحدد عدد الزوجات بأربع وتطلب فقرة ثالثة إلى من يريد أن يتخذ زوجة ثانية أن يطلق زوجته الأولى، إذا أرادت هي الطلاق، فنظام تعدد الأزواج هذا عادة يهودية قديمة وكذلك يطالب اليهودي أن يتزوج من أرملة أخيه.

وجملة القول فإن قوانين التلمود الاجتماعية بوجه عام من وضع الرجال وأنها تحابي الذكور محاباة بلغ من قوتها أن بعثت في النفوس إجبار اليهود الفزع من قوة المرأة وهم يلومونها، كما يلومها الآباء المسيحيون لأنها أطفأت "روح العالم" بسبب تشوف "حواء" المنبعث عن ذكائها. وكانوا يروون أن المرأة "حفيفة العقل"[1].

لقد كان عليهم كتابة هذا الاثراء في واجباتهم الذي يرافقه شئ من التخفيف. أما بالنسبة للشرق الادنى القديم (بلاد الرافدين) فكان تدوين اصول السلوك أمراً مألوفاً منذ نهايات الالف الثالث قبل الميلاد.

وهناك دلائل عديدة عما أقتبس اليهود من الكنعانيين من حضارة، أضافت اليهم قوة ومتعة في ذلك العصر وهكذا دوّن اليهود منذ ذلك الحين

---

[1] ول ديورانت، المصدر السابق، نفسه ص38.

كل تراثهم القديم في "التلمود"[2] ذلك الكتاب الضخم الذي جُمعت فيه أحاديث اليهود القدماء وأحكامهم. وقد ظهرت أبان السبي البابلي جماعة أطلق عليها سوفريم (وتعني الكتاب بالعربية) وهم الذين أولوا أهتماماً بكتابة التوراة والاحكام الدينية الاخرى، ومهما قيل ويقال عنه فأنه جزء من تراث أنساني أستطاع أن يحافظ على نتاج فكر وثقافة لاتقتصر على جماعة معينة بل هي ملك للبشرية جمعاء. بالاضافة لأنه ولدت من رحمة العديد من الديانات والتشريعات التوحيدية في المنطقة كالمسيحية، وكذلك كانت تنهل منه العديد من المؤلفات الادبية خارج نطاق الكتب الدينية، (القصصية ذات الطابع الكلاسيكي المشهور) والمتعاقبة عبر التاريخ، والتي كانت جزءاً من أسباب تمكين البشرية من الوصول الى ما وصلت اليه من تقدم وقهر للطبيعة. أن من أبرز كتب التلمود كان للكاتب النبي" عزير" الذي عاش في القرن الخامس ق.م. ولعله كان من أبرز الشخصيات التي ظهرت في أوساط اليهود في ذلك العصر بعد النبي موسى" ع" حيث عقد العزم على أثراء شريعة موسى من خلال أستخراج نصوص من كتاب العهد القديم والتي تعني بمتطلبات المجتمع اليهودي في عصره. وكانت خطواته تلك البداية للسُنة الشفوية، ثم أصبح بعد عزير أسلوب جديد في تفسير وتأويل النصوص الدينية تسمى" مدراش" ومعناه البحث والتتبع، لأن العلماء تتبعوا على ضوئه المعاني الكاملة في التوراة بغية وضع حلول في جميع المشاكل والمستجدات. بدأ منذ ذلك الحين علم التأويل والتفسير بما يتلاءم مع متطلبات العصر، خاصة بعد الاطلاع على الفلسفة اليونانية ومحاولة التوائم بينهما.

وينقسم التلموذ الى ستة أقسام تتضمن" 63" رسالة في" 523" فصلاً وهذه الأقسام هي كالتالي:

1- كتاب زراعيم، أي البذور: ويتضمن القوانين الخاصة بالأرض والزراعة.

2- كتاب موعد، أي العيد أو الموسم: ويتضمن الأحكام الدينية والفرائض الخاصة بالسبت والاعياد والايام المقدسة.

---

[2] التلمود: أشتقت كلمة تلمود التي تعني" التعليم" من الفعل الثلاثي العبري" لمد" ويعني" علم" وهي ذات علاقة بلفظ" تلميذ" بالعربية ومشتقاته الذي هو رباعي في اللغة العربية وثلاثي في العبرية.

3- كتاب نزيقين، أي الأبرار: ويتضمن جزءاً كبيراً من الشرائع المدنية والجنائية.
4- كتاب ناشيم، أي النساء: ويتضمن الأحكام والنظم الخاصة في الزواج والطلاق.
5- كتاب قداشيم، أي المقدسات: ويحتوي على الشرائع الخاصة بالقرابين وخدمة الهيكل.
6- كتاب طهاروت، أي الطهارة: ويتضمن الأحكام الخاصة بما هو طاهر ونجس وما هو حلال وحرام من المأكولات والمشروبات وغيرها.

ومن الجدير بالذكر هنا ان كل المحرمات التي ذكرت عند اليهود تتشابه مع ما موجود في الأسلام. مثل تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك[1].

علماً بأن كل كتاب من هذه الكتب يتألف من عدة رسائل. وكل تلك الرسائل قد أنقسمت الى قسمين الأول دُوّن من قبل علماء اليهود في فلسطين، والثاني من علمائهم في بابل من الذين أستقروا بعد السبي البابلي ولم يغادروا بلاد النهرين حتى بعد مجئ الفرس وبعد أن أعطاهم قائدهم كورش الأذن بالعودة الى فلسطين. علماً بأن أول طبعة للتلمود ظهرت بالنص العبري والتي جاءت على يد شخص يدعى" دانيال يومبرغ" في مدينة البندقية في ايطاليا، وتم طبع التلمود البابلي في الأعوام 1520 – 1523 م بينما طبع التلمود الفلسطيني في الأعوام 1523-1524 م ويقع التلمود البابلي وفقاً لتلك الطبعة في" 5894" صفحة وترجم الى العديد من اللغات كان أحد تلك الترجمات باللغة الأنكليزية وتقع في" 18" مجلداً – طبعة لندن- وهي محفوظة في المكتبة البريطانية في لندن.
ويتألف التلموذ من عنصرين أساسيين: أحدهما" هالاخاة" وتعني الطريق والأسلوب وهي عبارة عن تعاليم دينية للحياة الصالحة والأخرى" الهغادا" أي الحديث وهي عبارة عن أحاديث الربابنة التاريخية والخلقية والدينية التي تهدف الى بناء شخصية المؤمن بالعقيدة اليهودية عبر الأمثال والعبر والقصص المشتقات من تاريخ وسير حكمائهم وعظمائهم ومن خلال وصف أنواع الثواب والعقاب في هذا العالم والعالم الأخر.

---

[1] ول ديورانت قصة الحضارة المصدر السابق "عقائد اليهود الجزء 14 (ص23)

ويذكرأن الكثير من تلك الأحكام أقتبست من كتاب الخليقة البابلية وكتب الاديان الاخرى المتعايشة معهم في المنطقة كالافستا (زرادشت) وغيرها. كما ان التلمود أعتبر وثيقة تاريخية مهمة أسندت اليها أديان أخرى جاءت الى الجزيرة العربية فيما بعد كالمسيحية والأسلام وأبسط دليل على ذلك هو أوجه التشابه في أحكام وتعاليم وقصص الانبياء[1]وأشعارهم في كل تلك الديانات. وقد تكلف التلمود بأعتباره دائرة معارف غزيرة المحتوى بالحفاظ على الديانة اليهودية، وأضحى مصدراً مهماً من مصادر التشريع اليهودي، ولكونه يتضمن الطعن بالنبي عيسى (ع)، فقد رفضه المسيحيون وأعلن زعماء الكنائس في القرن السادس الميلادي عن مخالفتهم له، مما أثار حفيظة المسيحين جميعاً الى أن قام أحد اليهود الذي أعتنق المسيحية وبتحريض من البابا عام 1239 م بحرق كتاب التلمود، ومنذ ذلك الوقت أصبح حرقه أمراً رائجاً الى ماقبل صدور أول طبعة له[2]*.

لقد مرت الديانة اليهودية بمراحل عديدة من التطور، إذ انها دامت طويلاً وعانت الكثير من الاضطراب في زمن الشباب الاول، ولكنها بعد سقوط بابل بدأت تأخذ بالانتشار بأرجاء واسعة في منطقة الشرق الادنى خاصةً وأن اليهود أصبحوا أقل عرضةً للأضطهاد والتنكيل.

ففي زمن السبي كانوا يأملون فقط في العودة الى وطنهم والاستقلال، وعندما تحرروا وعادوا الى موطنهم أو عاد القسم الاكبر منهم كان عليهم أن يعترفوا بأن الاله قد أوفى بوعده بعد أن تأثروا كثيراً بفترة الالام والشقاء الطويلة. وكانوا قد أصطدموا بالامبراطوريات الكبرى، فتحطموا وعرفوا حجم شعبهم الصغير، شعب لايستطيع القيام بنفسه بأي دور في عالم أخذت أفاقه تتوسع يوماً بعد يوم. ومنذ أن ظهر لهم النبي أشعيا الثاني ذلك المفكر الديني المبدع والذي أعاد التراث وتمسك بفكرة التوحيد. بأفتراض الاله السمو الكامل المنفصل عن كل ماهو مخلوق، وان الوجود في العالم الفوق روحاني التي قادت الى معرفة

---

(1) صباح زنكنة" قصة كتاب ظهور التلمود وأسباب حرقه" مقالة في جريدة الصباح العراقية عدد 488 في 2005/3/1 الثلاثاء

* أن كتب قصص الانبياء المؤلفة من قبل اعلام الاسلام المشهورين كالبخاري وغيره تستند في تفاصيلها على القصص الواردة في التوراة دون الاشارة الى المصدر، وخاصة تلك القصص التي لاتتوفر تفاصيلها في القرآن الكريم.

حقيقة ووحدانية الله، وان الله خالق كل شعوب الارض من اشوريين وبابليين ومصريين وميديين وفرس وعبريين. بعد أن أنتفت الحاجة للعلاقة الوثيقة مع يهوة والعهود والمواثيق المبرمة معه من أجل اليهود فقط وأصبحوا موحدين وإلههم أدوناي كما ذكرنا. كما ظهر أرميا الذي عانى الكثير من الآلام والتي أعتبروها تكفيراً لخطاياه وخطايا الاخرين، وكان ذلك قبل ظهور السيد المسيح (ع) بفترة قصيرة نسبياً. وقد تميزت فترة أنتهاء السبي بالاهتمام بالتشريعات الدينية، والتطبيق الدقيق للنص المكتوب والذي يفترض أنه يعبر عن أرادة الرب بالذات. وهكذا تبلورت المعتقدات الدينية لدى اليهود وبشكل خاص بعد أن عادوا من السبي وقاوموا غزو الاسكندر المقدوني عام 336 ق.م والمد الهليني* أكثر من أي مجموعة أخرى في الشرق الادنى ومن الجدير بالذكر هنا الى أن الاسكندر الكبير (المقدوني) هذا كان تلميذا للفيلسوف اليوناني" أرسطو". لقد جاء الاغريق بمفاهيم أخرى غير متوافقة مع الفكر التوراتي، تلك الافكار التي كانت تسمى بالانسيه (humanism) التي جاءت بها الفلسفات الاغريقية المعروفة، الا انها توافقت مع المسيحية التي انبثقت من رحم اليهودية، والتي تمسك بها الرومان بعد فترة طويلة من الزمن وساعدوا في ابقائها ونشرها الى مناطق بعيدة عن الجزيرة العربية.

لقد تميزت الفترة التي تلت غزو الأسكندر المقدوني بعد عام 336 ق.م بالأستقرار والتطور الفكري بالنسبة للدولة العبرية، وظهور عدد من المفكرين والأنبياء أمثال أشعيا الثاني وأرميا وكذلك فلاسفة اليهود في الاسكندرية بمصر أمثال فيلون وأفلوطين وغيرهم. وبدءوا بوضع الأجوبة على العديد من التساؤلات، التي كانت تتبادر لأذهان الناس عن الفرق بين من يتبع التعاليم الدينية ويسير بالأتجاه الصحيح في الحياة حسب ماتطلبه تعاليم الديانة اليهودية، وبين من يسير بأتجاه الشر ويؤذي الأخرين، ووضعوا تفسيرات لكل ما جاء في التلمود بالشكل الذي ينسجم مع المنطقة ولا يختلف عن المفاهيم الفلسفية التي دخلت المنطقة من اليونان بعد غزو الاسكندر لها.

* المد الهليني- أو العصر الهليني الذي يمتد من فتح الاسكندر للشرق عام 336 ق.م. وحتى الفتح الإسلامي والهلينية "Hellenisme" من هيلين Helene أي يوناني، وتعبر عن طابع الفكر والحضارة على أثر فتوح الاسكندر للشرق وامتزاج الفكر اليوناني بالروح الشرقية.

وحيث أن الحياة الأقتصادية والأجتماعية لم تتغير كثيراً في المنطقة وذلك في طبيعتها الزراعية والرعوية، لذلك بقيت الأفكار الدينية متأثرة ومتشابهه مع الكثير من طقوس العبادة والتراتيل والمراسيم والأعياد الدينية مع المعتقدات الدينية الوثنية التي كانت سائدة لفترة طويلة رغم كل التطور الوارد ذكره في مجال التوحيد.

ولكن التطور الكبير الذي ظهر في الديانة اليهودية على يد الفيلسوف اليهودي فيلون (25 ق.م.-4 ب.م) المصري (من أسيوط) وعاش في الاسكندرية في القرن الأول الميلادي. وقد اتسمت فلسفته بالدرجة الرئيسية بما يعرف بالتأويل "**allegaries**" في تفسير بعض القصص الواردة في التوراة والتي تتعارض مع الحقائق المنطقية التي جاءت بها فلسفة اليونان بعد الغزو الذي قام به الاسكندر الكبير للشرق عام 336 ق. م.

وكان يعتقد أن الكتب السماوية التي جاء بها الرسل والأنبياء إنما تخاطب الناس جميعاً بلا استثناء، وليس لنخبة خاصة تستطيع أن تفهم حقائق الكون وتتقبلها في ذلك العصر الفقير بالمعرفة والنضج الفكري. ولهذا فهي تلجأ إلى الرموز واستعمال المجاز ضناً بالحقيقة على غير أهلها وشداً لها لغرض فهم الأمثلة والصور والرموز التي تقرب الحقائق إلى إفهام الناس جميعاً، فيأخذ العامة بظاهر النصوص، ويجدون فيها مقنعاً والكفاية. أما المتخصصين في العلوم فيتناولونها ويأخذون بجوهر معانيها وبذلك يستخرجون ما في التوراة من فلسفة كانت ستظهر عارية منها لو أخذت بنصوصها حرفياً.

إن التأويل في نظر "فيلون" ممكن على أن نعرف كيف نؤول نص التوراة في ضوء الفلسفة. فمن الضروري تأويل النصوص التي تثبت الله –إذا أخذنا حرفياً- ما لا يليق به من صفات وأحوال كالتجسيم والكون في مكان والكلام بصوت مع النبي موسى (ع) والغضب والندم...إلخ فالله كما يقول "فيلون" لا يستفزه الغضب ولا يندم ولا يتكلم بحروف وأصوات، وليس له من مكان يقر فيه. وعندما يعرض "فيلون" لقصة خلق الله للعالم في ستة أيام ينفي عن الله الحاجة إلى مدة زمنية يخلق فيها العالم، ولكن موسى (ع) لا يسعه إلا أن يستعمل الله التي نفهمها نحن البشر في عصره ليصف لنا العالم الذي خلقه وترتيبه ومنزلته بعضه من بعض. فمن

السذاجة الاعتقاد أن العالم خلق حقاً في ستة أيام أو في فترة من الزمن أقل أو أكثر من ذلك. وهذه القصص إنما يراد بها الوصول إلى فهم العامة بأن الله هو الواحد الذي خلق الكون بالشكل الذي نحن فيه. وفي تأويله لسفر التكوين (العهد القديم) يؤكد أن أول ما خلق الله العقل السماوي الذي يحيا بالعلم والفضيلة، ثم خلق الله على مثاله عقلاً أرضياً يرمز به لآدم. ثم تفضل عليه بنعمة الإحساس الذي يرمز لحواء، فانقاد العقل للحس واستسلم للشهوة التي يرمز لها بالحية. ثم تأس النفس على ما فرطت في جنبه الله وتندم، فيجيء نوح (ع) الذي يرمز للعدالة ويقع الطوفان رمز للتطهير التام. ثم يمضي فيلون فيقول "أن كل ما وصف الله به في التوراة أنه موجود بلا كيف ولا صفة، وكل ما جاء به التوراة من تشبيهه بالحوادث فيجب تأويله وحمله على غير ظاهره النصي".

والله لفرط علوه عن العالم ولعظم الهوة بينهما، فإنه لا يؤثر في العالم تأثيراً مباشراً وإنما هو يؤثر فيه بمجموعة من الوسطاء أو القوى الإلهية، وهم سفراء الله ورسله، كما أن النفس لا تبلغ إلى الله إلا بالوسطاء أيضاً، وهؤلاء الوسطاء يختلفون بعضهم عن بعض تبعاً للأعمال التي يقومون بها وهم: اللوغوس (أو الكلمه) وهو أشبه بمثل أفلاطون، إذ هو النموذج الذي يخلق الله العالم على صورته ومثاله. ويصفه فيلون بكل صفات الكمال من حق وخير وجمال ويُليه الحكمة الإلهية (أوسوفيا) التي يتحد بها الله لينتج عن اتحاده بها هذا العالم وكثيراً ما يطلق عليها فيلون اسم "أم العالم" وقد يصفها بأنها "روح الله". ومن الوسطاء أيضاً الملائكة والجن، وهم كائنات نارية أو هوائية لا يعصون الله ولا يخالفون عن أمره. وهؤلاء الوسطاء يتوسطون كذلك بين النفس الإنسانية والله. فتطهير النفس بالزهد والعبادة لا يزال يصعد بها من وسيط إلى وسيط حتى تبلغ الوسيط الأعلى اللوغوس أو الكلمه. ولا يتم التطهير أو الصعود والعودة إلى الله إلا بالمجاهدة والتصفية والعلم والنجاة بالنفس من هذا العالم المتناهي عالم الوهم والخيال، عالم المادة ومصدر الشر.

وغاية الإنسان إنما هي الوصول إلى الله والاتحادية والفناء فيه. وهذا الاتحاد في أعماق الروح الإنسانية بنوع من التجدد الداخلي والإشراق النفسي والطمأنينة المطلقة والسكينة العظمى، وهي الحالة التي لا يمكن تحديدها بالألفاظ، إذ يضيق عنها نطاق النطق، وإنما تعرف بالذوق، والكشف وفيها لا يبقى شاهد ولا مشهود ولا عارف ولا معروف.

هناك البهجة العظمى والسعادة القصوى[1]....هذا وقد ظهر عدد من فلاسفة اليونان عاشوا في الاسكندرية بمصر عدا فيلون منهم نومنيوس "Numenius" ويوسيبيوس "Eusebius" وأمونيوس "Ammonius" وأشهرهم على الإطلاق أفلوطين شيخ الاسكندرانيين الذي وصف بالشخصية التي تعبق بالروحانية وثني لكنه في الحقيقة مسلم بلا نبي الإسلام، ومسيحي بلا مسيح. وكلهم حاولوا التوفيق بين الفلسفة والدين فما في الدين لا يناوئ الفلسفة وما بين الفلسفة لا يناوئ الدين بعضه بعضاً، وقد شملت نزعة التوفيق هذه بين الأنبياء أنفسهم، فقد حاول أمونيوس التوفيق بين موسى وعيسى (عليهم السلام)[2]. وإذا جاء فيلسوف التأويل الأول فيلون في القرن الأول الميلادي فما بالك عزيزي القارئ بالحاجة للتأويل في عصرنا بعد كل ما حصل من تطور في علم الطبيعة والإنسان والفلسفة؟ وبعد كل ما يحصل حالياً من عنف وقتل بسبب الفهم الخاطئ للآيات القرآنية الشريفة؟

6- الأديان التوحيدية في الجزيرة العربية قبيل ظهور الأسلام[1]*: -

لم يكن الأسلام أول من أدخل التوحيد عند العرب كما يتوهم الكثيرون في ذلك. فقد كان مايعرف بعرب الجاهلية موحدين، وكانت هنالك خمسة أديان موحدة في الأقل منتشرة في الجزيرة العربية قبيل ظهور الأسلام وهي اليهودية والمسيحية والحنفية والدهرية والصائبة عدا اليزيدية والزرادشتية في شمال بلاد الرافدين. وربما تعود مهمة هذا التوحيد الى قوة الرعاة، الذين أتاحت ظروفهم في الجزيرة المحكمة الأغلاق أن يتكاثروا فيها ويتطوروا. ولاتوجد منطقة رعوية تمتلك مثل هذه الخصائص الفريدة، أن تقترب من المناطق الحضارية المركزية وتستوعب منجزات تلك الحضارات وتنأى عن سيطرتها.

---

(1) محمد عبدالرحمن مرحبا " من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية" عويدات للنشر والطباعة. بيروت (2000م) ص(225)

(2) أوليري "علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب" (الترجمة العربية) ص28 عويدات للنشر والطباعة.

* يقصد بالفترة قبيل ظهور الأسلام هي الفترة التي سبقت البدء بالدعوة الأسلامية وتتمثل في أواخر القرن السادس الميلادي.

أن عشرة قرون من الأحتلالات الأجنبية المتتابعة للمشرق العربي الذي أخذت تتشكل فيه جذور العروبة والتي أمتدت من عمق الجزيرة حتى بوادي الشام، لم تظهر فيه قوة محلية قادرة على طرد الغزاة. وقد أصبحت السيطرتان البيزنطية والفارسية عبئاً ثقيلاً على المنطقة، فمنذ سقوط بابل على يد كورش ملك الفرس وماتلاها من حروب بين الأمبراطوريتين الفارسية والإغريق (البيزنطيين) كانت ساحتها الرئيسية هي الجزيرة العربية وخاصة القسم الشمالي منها. وكانت الفوائض المالية والزراعية والرعوية تذهب الى العاصمتين الفارسية والرومانية لتهدرها في البذخ والحروب. ولهذا فأن المناطق الرعوية والريفية كانتا تعيشان في أزمة أقتصادية خانقة، فعلى سبيل المثال كانت عائلة هاشم بن عبد مناف القريشية تعيش حياة فقر ومتفاقمة الديون في مكة في بادئ الأمر[1]، في حين كانت مكة مركزاً أقتصادياً رئيسياً في الجزيرة.

لقد أخذت الجزيرة العربية ومنذ زمن بعيد أرثاً ثقافياً خاصاً للقبائل والشعوب السامية الشمالية والجنوبية وقد كان الأحتكاك بين الجانبين كبيراً وعميقاً على مر التاريخ. فعلى سبيل المثال ظل مفهوم كلمة آن وتعني السيد والذي ظهر في حوض بلاد الرافدين قبل القرن الرابع ق.م وظل وصفه للقوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء (الله بمفهومنا الحالي) مترسخاً في ذهنية تلك الحضارة لأكثر من الفي عام، وفي العصور المتأخرة ساد هذا المفهوم في المنطقة العربية عموماً. ويذكر المؤرخين أن مختلف أنحاء المشرق العربي قد التصقت فيها كلمة او مقطع من كلمة آن و آيل مثل ظهران وجيزان وغمران وكذلك سعد أيل وثيم آيل وغيرها، تجسدياً لمفهوم الأله المجرد الواحد. ونستطيع أن نلاحظ أن ثمة قوة مقاومة للأحتلال البيزنطي (الإغريق) والفارسي عبر الحركة الفكرية التي تشكلت من المخاض الأجتماعي السياسي الطويل في المنطقة على مدى عشر قرون، الا أن تلك الحركات الفكرية المتمثلة بالحركات الدينية المختلفة، لم تكن مؤهلة لخلق تلك الوحدة. وهكذا بدأت تتناءى وتتبلور الحاجة لظهور حركة دينية موحدة تستطيع القيام بدور توحيد كل أنحاء الجزيرة العربية، وأقامة كيان سياسي مستقل بعد أن بدأت علائم أضمحلال وضعف كلتا الأمبراطوريتين، من خلال أنتهاء

---

(1) شاكر النابلسي" المال والهلال" الطبعة الأولى، دار الساقي بيروت- لبنان (2002)، 48.

دورهما في السيطرة تاريخياً. ولابد لنا هنا من أستعراض لبعض الحركات الدينية الرئيسية التي كانت منتشرة في الجزيرة في تلك الفترة القريبة من عصر فجر الأسلام أي في القرن السادس الميلادي تحديداً، وبأختصار [1] فيما عدا اليهودية التي تطرقنا اليها كانت هناك ديانات توحيدية متفرقة وكما يلي:

6-1- الحنيفية*:-

وقد عرفت منذ زمن طويل في الجزيرة العربية ويقول بعض المؤرخين أنها لم تظهر قبيل ظهور الأسلام بل كانت راسخة قبل ذلك بكثير والدليل أن كعب بن لؤي بن غالب (أحد أجداد الرسول الأولين) كان من الأحناف[2]. وكان الحنفيون على ملة أبراهيم موحدين يعبدون الله وحده ولا يشركون.

ولم تكن الحنيفية فرقة واحدة أو عقيدة واحدة ولكنها كانت مجموعة من التيارات أختلفت في ما بينها. وهناك قواسم مشتركة عقائدية كثيرة بين الحنفية والمسيحية واليهودية. ويقول بعض المستشرقين أنها كانت مذهباً نصرانياً، بينما أجزم آخرون بأنها تأثرت بطقوس يهودية رغم عدم أيمانها بجوهر الديانة اليهودية. وبالتالي نفهم أن الحنفية عبارة عن نزعة عرفت بها طائفة ولم تكن بعيدة عن التأثر بالمسيحية واليهودية على السواء. وأن هذه الطائفة كانت في شك وحيرة[3].

أن أول مايلفت النظر في النشأة الحنيفية التوحيدية في الجزيرة العربية أنها نشأت في مجتمع زراعي - رعوي (يمامة نجد). وليس في مجتمع تجاري كالمجتمع المكي الذي أصبح غارقاً في تلك الفترة بالأوراق التجارية والملذات ومتع الحياة، والذي يتعارض كلياً مع الحنفية على الرغم من أن معظم أفراد الحنيفية كانوا من الأسر الغنية المثقفة والتي كان بأمكانها شراء الكتب السريانية والعبرية والطواف والسفر خارج الجزيرة العربية بحثاً عن المعرفة والحكمة المكتسبة من البلاد المتقدمة نسبياً مثل العراق والشام. ولايشير المؤرخون الى وجود صحف أو كتاب يتخصص بالحنفية الا ان أهم القواسم المشتركة بينهم وبين الأسلام مثلاً،

---

(1) شاكر النابلسي المصدر السابق 108.
(2) عبد الله العلايلي المصدر السابق 44، 45.
(3) عبد العزيز سالم "دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام" 438

هو الدعوة الى التوحيد، والأقرار بالربوبية والأذعان للعبودية، وعبادة خالق واحد وحج البيت وأتباع الحق والمناداة بالأصلاح الأجتماعي والخلقي، وعدم القيام بالأعمال المنكرة والنهي عن وأد البنات، وعدم أكل لحوم قرابين الأصنام وتحريم أكل الميتة ولحم الخنزير والأختتان وقطع يد السارق وتحريم الزنا وتحريم الربا... الخ.

ولكن رغم كل ذلك فقد كانت الحنيفية تفتقر الى قيادة شجاعة وحصيفة وخبيرة بشؤون قريش ومكة والجزيرة العربية عموماً.

2-6- الصابئة[1]* المندائية: -

كانت الصابئة في أصلها فرقة دينية بابلية قديمة بارزة عبدت الأجرام السماوية وما تحوي السماء من نجوم وكواكب، وقد ظهرت كذلك في اليمن منذ أيام بلقيس حيث كان الدين الرسمي في تلك الفترة من تاريخ اليمن. وأن أسم الصابئة يعود الى صابئ بن لامك شقيق نوح. وبذا كانت الصابئة من الموحدين بالله الواحد أيضاً.

أن الصابئة كانت جماعة من بين سكان مكة من الذين جاءوا اليها عن طريق التجارة مع بلاد الرافدين أي أنهم كانوا أصلاً في بلاد الرافدين قبل ذلك بكثير. ومن القواسم المشتركة مع الأسلام هو الصوم شهر في السنة بالأمتناع عن المأكل والمشرب أثناء النهار والصلاة خمس مرات كل يوم[2] والوضوء قبل الصلاة وأداء الحج وتقديم الأضاحي وأداء الزكاة وتحريم أكل لحم الخنزير وجواز الطلاق. ولاتزال الطائفة (الصابئة المندئيين) تعيش في جنوب العراق وبغداد محافظين على طقوسهم الدينية الموروثة منذ أيام البابليين. أما المندائية فقد جاءت من درجة تمسكهم بالاغتسال بالماء خاصة أثناء أداء طقوسهم الدينية حيث لا يزالون يذهبون الى ضفاف الانهار ومجاري المياه الأخرى بثياب بيضاء ويغمرون أنفسهم في المياه كجزء من طقوسهم الدينية.

---

(1)* أسم الصابئة يعود الى صابئ بن لامك شقيق النبي نوح وبذا كانت الصابئة من الموحدين بالله أيضاً - شاكر النابلسي" المال والهلال" 121. سوف نأتي بتفصيل أكثر حول كيفية إطلاق التسمية على هذه الفئة في الجزء الثاني من الكتاب.

(2) كانوا يعبدون الكواكب السيارة الخمسة: المشتري والزهرة وزحل وعطارد والمريخ. كان الصابئة يتوجهون لكل كوكب بصلاة في كل يوم، فيصبح المجموع خمس صلوات كل يوم. أنظر" قريش من القبيلة الى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم 240.

6-3- الدهرية: -

وكان يطلق عليها أسم الزنادقة. والزنديق هو القائل ببقاء الدهر (الزمن) وهم من أتباع ماني وكان من بينهم من قريش كبار الأغنياء كأبي سفيان وعقبة ابن معيط والنظر بن الحارث والعاصي بن وائل والوليد بن المغيرة وغيرهم[1]. وهي فرقة أشبه ماتكون اليوم بالعلمانية، وكما يقول محمد الشهرستاني في كتابه" الملل والنحل" بأنهم كانوا ينقسمون الى ثلاث فرق وهي:

1- مجموعة أقرت بالخالق والخلق الأول ولكنها أنكرت البعث.
2- مجموعة أقرت بالخالق والخلق ولكنها أنكرت الرسل.
3- مجموعة أنكرت الخالق والبعث وقالت بالطبع المحيي والدهر المنفي[2].

وعلى الرغم من أختلاف هذه المجموعات الثلاث وتباينها بوجود الخالق وبنكران البعث والرسل الا أنها كما يبدو أنتمت الى تيار فكري عقلاني علمي، وكان أشهر قادتهم في الجزيرة العربية الحارث بن قيس. وكانت تنفي الغيب أيضاً وتعتبر أن الزمان هو السبب الأول للوجود، وهذا الزمان غير مخلوق وغير نهائي، وأن المادة لاتفنى، وأن الدهر قديم، وبذا وقفت الدهرية ضد الديانات السماوية وضد الوثنية في آن واحد. ولايوجد من المصادر الا النزر اليسير عن عقائد تلك الفلسفة العربية، وفي الأغلب أن جذور هذا التيار الفكري قد استمدت من الفلسفة اليونانية التي تمثلت بفلسفة أرسطو بشكل خاص وقولة ""بقدم العالم" وأستبعاده لفكرة الخلق وأن العالم لايحتاج الى خالق، وكل شئ فيه أزلي أبدي، لايفتقر الى خالق يخرجه الى حيز الوجود. وأن العالم موجود منذ الأبد وسيظل موجوداً الى الأبد. وأن الزمان لابداية له ولانهاية، وذلك لأن كل آن منه له قبل وبعد فلا آن أحق بالزمانية من آن"". ولابد من الأشارة هنا الى أن أرسطو كان يعتقد أيضاً:" أنه لابد من التوقف عند محرك أول تكون عليه جميع الحركة ولاعلة له، وهذا هو المحرك الأول أو علة العلل وهو الله". وبالتالي فهذا الرأي مطابقاً مع أقوال الدهريين العرب وفلسفتهم. وهذا دليل واضح على أتصال العرب بالفلسفة اليونانية والثقافة

---

(1) شاكر النابلسي" المال والهلال" 104.
(2) محمد الشهر ستاني" الملل والنحل" 360 جزء 3.

الفارسية والكردية وأطلاعهم عليها بفضل التجارة المكية والتي أسهمت في تكوين عوامل أقتصادية وفكرية وأجتماعية منها:

1- وجود العنصر الطبيعي المتعارض مع العنصر الغيبي.
2- تأثير الثقافة الفارسية على الثقافة العربية
3- تطور الأوضاع الأقتصادية في مكة والمدينة وفي الحجاز بصفة عامة في القرن السادس الميلادي وتحولة من مجتمع زراعي _ رعوي ، الى مجتمع تجاري مدني.

الا أنهم لم يكونوا منتشرين بكثرة في الحياة العربية ولم يكن لهم أهتمام في سلطة أو تنظيم سياسي، وبالتالي يمكن القول أن مثل تلك الأفكار لم تكن بمقدورها أن تنبت وتستمر بالبقاء طويلاً في بيئة الجزيرة العربية في ذلك الزمان. ومما يجدر الأشارة اليه هنا أن الزنادقة ظهروا في العهد العباسي الأول من بين المسلمين الذين لم يدخل الأسلام الى قلوبهم وتم الساسانيين. وكان يسمى أحياناً" زند" وتطلق الكلمة على أتباع ماني ومزدك خاصة[1]. ويقال أيضاً أن المانوية المشتقة من الزرادشتية كانت هي الأخرى متأثرة بالفلسفة اليونانية. وهكذا يمكن القول أن الزنادقة هم أتباع كتاب الزند والمتأثرين بالزرادشتية، بينما كانت الكلمة تطلق في العصر الأسلامي لكل من يلجأ في تفسير بعض أحكام الأسلام الى كتاب الأبتساق (الزندبستا) وهو كتاب زاردشت.

4-6- المسيحية:-

أما المسيحية فقد كانت إبنة التطور الفكري والسياسي للمنطقة الشرق أوسطية والتي هي الجزء الشمالي للجزيرة العربية (فلسطين) ولكنها لم تستطيع أن تنمو وتترعرع في أجوانها. بينما أستطاع مثقفون ينتمون للحضارة الأغريقية والرومانية أن يحولوها الى أستجابة فكرية لحاجات الأمبراطورية الرومانية في التوحيد والتجميع. ومن هنا تغلغلت المسيحية في العالم المسيطر والبلد المهيمن والبلدان المُهَيمَن عليها والمنهوبة من قبلهم، ولم يعد ثمة فرق بين من يستغل ويتلقى العذاب، ومن يقوم بالأستغلال والتعذيب، عبر مجموعة من الأفكار التي راحت تنمو وتتجدد لصالح توليفة من الأنسجام، والتوفيق بين الأطراف المتصارعة

---

(1) كارل بروكلمان " تاريخ الشعوب الإسلامية" ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي الطبعة السابعة، دار العلم للملايين بيروت (1977) 184.

المختلفة، سواء عبر أفكار تتجاوز اليهودية المحصورة، أي عبر الغاء (الخطيئة) الأصلية الذي يعني تجاوز اليهودية وأستيعابها، ومن خلال نشر ثقافة اللاعنف والتسامح، بحيث يشكل مخرج تاريخي لنظام العبودية المتعدد الألوان بين الغرب والشرق، وتستعيد الزراعة دورها التاريخي ويتم تخفيف العبودية... الخ.

وهكذا فأن المسيحية عبر تطورها الخاضع لهيمنة الثقافة الأغريقية والرومانية، أنفصمت حينذاك عن الحاجات السياسية والأجتماعية الملحة للجزيرة العربية، وغدت وعياً سياسياً يتجه لتغيير بؤرة السلطة في العاصمة السياسية للأمبراطورية (روما). وغدت تخفيفاً من الهدر الألهي التعددي الوثني وتركيزاً له وإختزالاً لبذخه، فصار إنتصار التثليث موظفاً للحاجات السياسية للأمبراطورية أكثر منه للشعوب خاصة المشرقية ولشعوب شمال أفريقيا المستغلة كذلك. وكان تغلغل المسيحية في عالم الغرب الزراعي أكثر منه في عالم المشرق الرعوي. من هنا تظهر مرة أخرى أهمية طبيعة الأرض الزراعية والمناخ في أن تلعب دوراً في أنتشار الأفكار التي تدعو الى اللاعنف، وتحول دون أنتشارها في مناطق نشأت فيها أصلاً. وذلك بسبب الأختلاف في البيئة والمناخ في المنطقة الأوربية (إيطاليا) مثلاً بالمقارنة مع الجزيرة العربية، والمتمثلة في نقص مياه الأمطار وأنتشار التصحر والرعي، بالأضافة الى الأقتتال والسلب والنهب بين القبائل، والذي أصبح جزء من مهنة وسلوك يصعب التخلي عنها، وعلى الرغم من حصول الأنشقاقات الفكرية حول كينونة السيد المسيح (ع) والسيدة مريم العذراء وكجزء من حالة المطالبة بالأنفصال عن الأمبراطورية الرومانية، الا أن المسيحيون العرب وغيرهم من الأجزاء التي كانت خاضعة للأمبراطورية الرومانية، لم يكونوا قادرين على مواجهة القوة العسكرية القوية لدى الرومان الذين إتخذوا المسيحية كمنهج فلسفي لتسيير دولتهم وسيطرتم على مناطق واسعة من العالم. وعلى الرغم من إنتماء عدد من القبائل العربية الى الديانة المسيحية في أجزاء عديدة من الجزيرة العربية، الا أن الديانة المسيحية لم تنتشر وتلقى الرواج الواسع بشكل يؤهلها أن تلعب دوراً هاماً في توحيدها فكرياً وسياسياً واقتصادياً لأسباب أهمها كونها كانت تشكل منهجاً فلسفياً للدولة المهيمنة الرومانية في ذلك العصر، بالأضافة لأيغالها بمنهج التسامح غير المنسجم والطبيعة الصحراوية في الجزيرة العربية في ذلك الوقت.

5-6- الأيزيديه[1]* وغيرها من الديانات الأخرى المتفرقة:-

لابد من الأشارة الى وجود ديانات توحيدية أخرى كانت منتشرة في المنطقة الشمالية من بلاد الرافدين ومنها اليزيدية. أما الأيزيدية فأنها ديانة توحيدية للأكراد في لغتهم وكان الوصف الشائع لهم بوجه عام أنهم من عبدة الشيطان الذين يسمونه" ملك طاووس" لكن الأصح هو أنهم موحدون، تلك العقيدة القائلة بوجود اله واحد في الكون. وهم يستعطفون في عبادتهم الروح الخبيثة معتقدين أن تلك الروح هي مَلَكَ هبط من السماء وسيعود في المستقبل الى حالته السابقة، ويمارسون بالأضافة الى ذلك طقوساً دينية يمكن تتبعها وأرجاعها في الأصل الى عبادات الأشوريين في نينوى[2].

بالأضافة الى كل تلك الديانات فكانت هناك ديانات توحيدية أكثر أنتشاراً في شمال العراق وهي الزرادشتية التي كانوا يعتبرونها من الديانات المقرونة بعبدة النار والحقيقة أن الزرادشتية التي كانت منتشرة في بلاد فارس وشمال العراق هي ديانة توحيدية وأنما يقدسون النار ويوقدونها في كل مناسباتهم وطقوسهم الدينية. كما يفعل الكثير من الديانات التوحيدية الأخرى في الشرق، وخاصة المنتشرة منها في الهند، ويجدر الأشارة هنا الى أنه لايزال يتدين قسم ضئيل من الأكراد بالديانات الزرادشتية الى يومنا هذا. ولهم كتابهم المقدس والذي يعرف بالآفستا يدعوا الأنسان الى عمل الخير وتجنب الشر والتوحيد وفيه العديد من قصص الأنبياء وأسفار التكوين المشابهة لما جاء بالكتب السماوية المعروفة الأخرى.ولابد لنا قبل الأنتقال الى مواضيع أخرى الى ذكر فئة دينية أخرى لدى الأكراد والمعروفة بالكاكائية وترجمة هذه الفئة باللغة العربية تعني" الأخوان". ويعيش الكاكائيين في منطقة بالقرب من خانقين في شمال شرق العراق كما أن هناك عدد منهم في سوريا ولبنان وأيران، وتتميز هذه الفئة بالغموض وعدم وجود مصادر وبحوث عنهم، ألا أنني ومن خلال محادثاتي" شخصية" مع أناس يتصفون بالكاكائية في تلك المنطقة، تمكنت من معرفة أن هذه الفئة حديثة العهد وتعود بدايتها الى عصر خلافة الأمام علي أبن أبي طالب (ع) الأسلامية في الكوفة، وذلك عندما أقنع بعض الناس من أداء الزكاة والجزية الى بيت مال المسلمين

---

(1) الأيزيدية: الكلمة مشتقة من كلمة يزيد وتعني اله الخير لدى الأشوريين.

* مس بيل" فصول من تاريخ العراق الحديث" ترجمة جعفر الخياط الطبعة الثانية - وزارة التربية والتعليم (1971) 157.

تبرع قسم من الفتوة (الشقاواة بالمصطلح العراقي العامّي) لأن يساعد الدولة بجمع المال للمسلمين بالقوة وأستخدام الهراواة الغليظة وكان هؤلاء الناس يتصفون في مظهرهم بطول الشوارب تعبيراً عن القوة وتخويف الناس. ولكنهم مقابل ذلك إستطاعوا أن يحتفظوا بالكثير من العادات والطقوس الدينية القديمة المتأصلة لديهم منذ الآف السنين كذبح الديك في مناسبات محددة وغير ذلك. ونتيجة لعزلتهم عن المدينة والعالم الخارجي، فقد أستمرت طقوسهم ومعتقداتهم الغامضة تمارس الي يومنا هذا ولكن على نطاق ضيق، وتعتبر ديانتهم من الديانة التوحيدية أسوة ببقية الديانات الأخرى. لقد قاموا بجمع الضرائب من الناس من أجل أن يغض النظر عنهم في أداء طقوسهم الدينية القديمة دون أحراج.

7- الظروف المساعدة على ظهور ديانة جديدة في الجزيرة العربية:-

لقد أخذت الأتجاهات التوحيدية تنمو في الجزيرة العربية قبيل ظهور الأسلام وذلك بسبب تعاظم المصالح المشتركة للقبائل وتنامي العلاقات الأقتصادية والفكرية بينهما. وكانت العبادات الوثنية التي سبقتها في القدم قد عبرت عن مصالح مستقلة للقبائل المتباعدة عن بعضها البعض وكانت غير قادرة أن تستجيب لعلاقات التوحيد الأجتماعي والسياسي المتصاعد في عصر قريب للقرن السادس الميلادي. أن شبكةالآلهة الوثنية في مكة عبّرت عن مكانة مركزية منهارة للمرأة فقد سيطرت الآلهات الأنثى: اللآت والعزى ومناة على القبيلة الألهية، ولكن الآلهة الذكورية (هبل) كان يتمتع بمكانة خاصة، غير أن سيطرة الآلهات الأنثوية كان يمثل تناقضاً كبيراً مع تنامي العلاقات الأبوية الذكورية القوية في المنطقة العربية، ولم يكن ثمة شيء من المرحلة الأمومية سوى بقايا أسماء، وكانت جميع أسس الحضارة قد تشكلت بين القبائل المسماة بالعدنانية، وهي التي كانت ضاربة* في البداوة بخلاف القبائل القحطانية التي أستقرت في اليمن وكونت دولاً. غير أنها لم تستطع القيام بالتوحيد السياسي للمنطقة لأسباب تتعلق بالبنية الزراعية المفككة، وقد ضعفت الزراعة مع أنهيار سد مأرب وأنتشار الكثير من القبائل اليمنية (القحطانية) للأرتحال والبداوة من جديد. لقد لعب أنهيار سد مأرب دوراً كبيراً في تاريخ العرب القديم وكان نقطة تحول مهمة في أنتشار العرب في الجزيرة برمتها. وهذا قد وضع أساساً للتقارب بين التجمّعين العربيين الكبيرين (عدنان وقحطان)، الا أن التمايز القبلي ظل لفترة طويلة يلعب دوراً مهماً في المزيد من التدهور لغالبية سكان المنطقة، وزاد في أستمرار الحروب الأهلية العربية، بالأضافة لما سببته حروب الأمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية فيما بينهما، والتي أنعكست على زيادة تدهور الحالة المعيشية للسكان، خاصة في المناطق الشمالية من الجزيرة العربية (العراق والشام).

لقد تضخم عدد القبائل الرعوية في الجزيرة، وأصبح العدنانيون (القيسيين) القوة الكبرى فيها وتشكلت لهم مدن هامة، خاصة مكة التي لعبت دوراً توحيدياً تجميعياً، وكان موقعها المميز قادراً على توحيد الجزيرة وقبائلها. لقد كان العرب في وضع أستقبال طويل للمؤثرات العربية الشمالية منها خاصة، حيث التفاعل الطويل بين الشمال والجنوب

* ضاربة:يرمز بهذه الكلمة لأنتشار القبائل في منطقة الجزيرة العربية وتعني المنطقة أو الحيز الذي تشغله القبيلة.

مروراً بالمركز المعروف (مكة). أن تصاعد الأفكار التوحيدية السياسية في المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية قد بدأ يتدفق بسبب تدفق الرعاة المستمر الذين أخذوا يجعلون المنطقة بدوية أكثر فأكثر، بالأضافة لمهمة طرد الغزاة، والتي كانت تنمو عبر القرون. لكن هذا الصراع ظل مستمراً من دون حسم، بسبب التداخل بين البنيتين الرعوية والزراعية، وعدم قدرة المؤسسات السياسية على الأنفصال الكلي عن الجمهور. لقد رأينا كيف توغلت الآلهة الشمالية في الجزيرة العربية وكان أندماج أسمي أيل وآن بمناطقهما ومدنهما وأسماء البشر والآلهة فيها مؤشراً على الترابط والتلاحم بين الجزءين العربين، ولكن تطور مكانة الإله أيل (الكنعانيين) خاصة، قد عبر عن النفوذ الفكري المتزايد للشمال السوري مثلما أخذت البادية السورية إمتداداً لتدفق الرعاة من الجنوب.

لقد حدثت عملية التجريد الثالثة في التاريخ العربي من دون صعوبات هائلة. كما كانت عليه الحال في عمليتي التجريد الأولى والثانية في آمون لدى المصريين ويهوة لدى اليهود في مناطق فلسطين وذلك بسبب محدودية الأرث الزراعي وطقوسة والدور الكبير الذي لعبته القبائل الرعوية فغدت عملية التوحيد الدينية والسياسية بمثابة عسكرة لهذه القبائل وتوجيهها نحو التوسع وتغيير طابع المنطقة، وطرد القوى الأجنبية منها وأحدثت عملية تقدم حضاري كبيرة وهكذا ظلت الجزيرة العربية وكأنها في حالة ترقب لظهور دين جديد يملي عليها احتياجها للتوحيد المتكامل، ولمّ الشمل وأيجاد نظم سياسية قادرة على حل مشاكلهم الداخلية، والقضاء على النزاعات والحروب القبلية، وطرد الغزاة من الفرس في الجانب الشرقي والبيزنطيين في الجانب الغربي من الجزيرة. كما أن ظهور مكة كمركز تجاري مهم في قلب الجزيرة وبروز طبقة التجار المؤهلة لوضع أسس الأدارة السياسية قد ساعدت كثيراً في ظهور كيان سياسي عربي موحد وكان ذلك بظهور الإسلام.

8- الأحوال الأجتماعية في الجزيرة العربية:-

أذا أنتقلنا الى أحوال بلاد العرب الشمالية وجدنا الصحراء التي تؤلف الجزء الأكبر في المنطقة، وهي التي تقرر الأحوال الأجتماعية للسكان، ذلك أن مراعيها الشتيتة لاتكفي الا لأقاتة المواشي الصغيرة والجمل الذي تشبع حاجاته ورغباته في سهولة فائقة والذي يجد فيه العربي قوام طعامه ولباسه، وأذ كانت العناية بهذا الحيوان لاتمكن الا بالرحلة والضرب في المناطق النائية في الصحراء، فقد صار كل تنظيم سياسي قائم على الأستقرار في السكنى هو أمراً متعذراً على البدوي

والصلة الدموية هي وحدها التي تعين الفلك الذي تضرب به حياة البدو. فهي تربط الأسر بالعشائر والعشائر بالقبائل والقبائل بالشعوب التي لاتزال تعين أنسابها بواسطة قرابة دموية قد تكون مزعومة تجمع الشعب كله في نظام نسبي يشبه نظام الأنساب عند اليهود القدماء (كبني أسرائيل مثلاً) بينما عند العرب تنسب الى عدنان وقحطان[1] لكن هذا الشعور الأجتماعي لاينتظم الشعب كله، أنه يمتد من العشيرة التي تشمل الأسرة القريبة الضاربة في خيامها جنباً الى جنب، الى القبيلة التي تعد بضعة الآلف نفس وتجوب البراري معاً في طلب المرعى، وكل من يتجرئ على التقدم الى منطقة قبلية غريبة أنما يعرّض نفسه للقتل أو السلب على يد إولئك الأغراب الذين لايعدون أن يكونوا أعداءة. وهو لن ينجو من مثل هذاالمصير الا أذا وُفق الى أن يلمس ثياب عدوه أو خيمته، أو أن يدخل عليه منزلة كما جرت العادة لديهم.

وقد تمنح هذه الحماية للمسافر الغريب طوعاً وعن طيب خاطر. وقد يُضمّ أحد أفراد القبيلة رجلاً غريباً الى عشيرته ضماً لاأنفصام له وبذلك يكون في مقدور القبيلة أن تتمثل في جماعات كبيرة، وتعتبر في أول الأمر دخيلة حتى أذا أنفصمت بضعة أجيال مُنحت جميع الحقوق في الصلة الدموية كسائر أفراد القبيلة. والبدوي كائن فردي النزعة، مفرط في الأنانية قبل كل شئ[2]، وهذا ناجم عن ظروفه الصحراوية الصعبة. أن الأنانية المفرطة لدى البدوي لاينفرد بها العربي في الجزيرة العربية بل تشمل كافة أنحاء المناطق الصحراوية بالعالم على حد سواء، وهذه الصفة ترتبط بالتنازع على البقاء ويتصف بها كل من يقطن الصحراء من الكائنات الحية بما في ذلك الحيوانات والنباتات على حد سواء فتحاول تخزين الماء والغذاء الكافي للأستدامة لفترة أطول دون التفريط بتلك الموارد. ولاتزال والى وقت قريب تتردد بعض الأحاديث التي تسمح للعربي الداخل في الأسلام في الجزيرة العربية أن يقول في دعائه أثناء الصلاة" اللهم أرحمني ومحمداً ولاترحم معنا أحداً"[3].

---

(1) كارل بروكلمان" تاريخ الشعوب الإسلامية" 17 عن ولهاوزن (1900) ***JWelhausen***
(2) بروكلمان" المصدر السابق" 18.
(3) كارل بروكلمان" المصدر السابق" 18.

أن حالة التقشف التي يعيشها البدوي في الصحراء تفرض عليه أن يكون مفرطاً بالأنانية لظرورة بقائه وأستدامة حياته من خلال الأبقاء على الأجزاء الضرورية اللازمة والمتوفرة بشكل شحيح في الصحراء. ومع ذلك فالجميع متساوون ضمن القبيلة في الحقوق والواجبات التي تنبثق عن العصبية القبلية، فالبدوي ملزم بأن ينصر أخاه في المهمات، وليس له أن يتساءل أن كان أخوه ظالماً أو مظلوماً. وليس من شك في أن هذا الواجب يقع على عاتق العشيرة التي يعنيها الأمر، فلا تنبري القبيلة كلها لمناصرتها الا أذا كانت العشيرة التي يعنيها الأمر ضعيفة وقليلة الحوّل. ولكن هذا المجتمع القائم على أساس المساواة والحرية العامة يتكشف مع ذلك عن نزاعات متعددة نحو تركز السلطة، وكان ذلك واضحاً في سلوكهم حتى بعد ظهور الأسلام، حيث أخذت النزاعات الدموية تلعب دورها الفاعل في تركز السلطة على الأمة بأسرها، ولاتقتصر على القبيلة الواحدة أو القبيلة الكبرى. كما سنأتي علية في الفصل الثالث. لقد وجد الباحثون في المجتمع البدوي أن كل قبيلة فيه عبارة عن تفاعل بين عامل التجاذب والتنافر. فالبدوي شديد التعلق بقبيلته حين تصطدم بغيرها من القبائل، وتراه أنذاك محباً لأبناء قبيلته يناصرهم في الحق والباطل وقد يضحي بنفسه أحياناً في سبيلهم، ولكن مع ذلك يشعر أحياناً بشئ من الحسد والحقد والبغضاء لأقاربه، لاسيما أذا لاحظ فيهم تفوقاً عليه أو أمتيازاً، أو شدة في المنافسة، لايستطيع من هظمها وإستيعابها والتعايش معها كحالة طبيعية ناجمة أصلاً من الأختلاف في الخلق بين الناس بعضهم بعضاً من حيث درجة الذكاء والقابلية في أغتنام الفرص التي يطلق عليها تسمية الحظ.

ولهذا نجد أن القبيلة البدوية لاتكاد تكبر حتى تنقسم إلى أفخاذ، وكثيراً ماتقوم الحروب الشعواء بين أفخاذ القبيلة الواحدة، ويصبح كل فخذ منها كتلة معادية لبقية الأفخاذ، ولعلنا لانغالي أذا قلنا أن من أعداء الفرد القبلي أخوة وأبن عمة أحياناً وتنشأ عداوة بينهم وتؤدي الى القتل لكي يحظى بالرئاسة، وتاريخ العرب ملئ بالأحداث التي تعزز هذه المقولة، وحيث أن العشائر والقبائل ترتضي لزعمائها رجالاً أستطاعوا بسجاياهم وكفائتهم أن ينتزعوا أعتراف الناس بتقدمهم عن غيرهم برضى وطيب نفس، وعلى الرغم من أن هذه المرتبة كثيراً ماتنتقل من الأب الى الأبن فيتعين على هذا الأخير أن يحققها لنفسه بأن يقيم الدليل، مستقلاً على شدة

بأسه وقوة مراسه، ولم يكن لهؤلاء الزعماء (السادة) حقوق فعليه على الأطلاق، ولم تكون نزعة الناس الى الأستماع لهم في المجالس العامة أقوى من نزعتهم الى الأستماع لغيرهم. أما واجباتهم فهي على العكس كبيرة ومتعددة. أنهم في حالة الحرب خليقون بأن يكونوا أبداً على أستعداد للتضحية بأرواحهم، وهم في حالة السلم خليقون بأن يضحوا بما تملكه أيديهم في خدمة القبيلة وأبتغاء إغاثة المعوزين من أفرادها.

ولكن مهمتهم تتركز في المحافظة على وحدة القبيلة أولاً، والتي كثيراً ماتتهددها المصالح الشخصية بأعظم المخاطر. فالخلافات التي قد تنشب بين أعضاء القبيلة الواحدة على ملكية لشئ ما تسوّى في المجالس اليومية، أما حين ينشب الخلاف بين أفراد ينتسبون الى قبائل مختلفة فيلجأ المختصمون الى رجل مشهود له بالتعقل والحكمة أو الى أمرأة تمت لها هاتان الميزتان، وكثيراً مايكون الحكم في هذه الحالة الى كاهن أو عراف، ولكن حُكم الحَكَم لا يكون ملزماً للمختصمين الا أذا أرتضاه الفريقان أو حتمه تفوق أحدهما على الآخر في قوته وبأسه (لايزال المثل الشائع لدينا بحكم القوي على الضعيف الى يومنا هذا).

ولما كان زعماء القبيلة أنفسهم لايملكون القوة التنفيذية أيضاً، فقد إنعدم عند عرب البدو وجود القانون الجنائي، وأمسى من الضروري أن ينزع كل فرد الى أستخلاص العدالة من قاتل نسيبه أو سالبه بالطرق الشخصية. أما أذا عثر على أحد الأفراد مقتولاً بيد مجهول في منطقة أحدى العشائر، ووقعت الشبهه على أحد أفرادها تقسم العشيرة الأيمان على براءته، وقد يجرح صدق هذا القسم ويبطل فعله بقسَم آخر تقسمه عشيرة القتيل، وأنما يقع الثأر للقتيل على عاتق أقرب الناس اليه. وأذا كانت عشيرة الجاني تنزع في الأعم الأغلب الى أن تنصره فقد يتولد عن الأنتقام للدم ثأر جديد لايلبث أن يتطاول في الكثير من الأحيان فسيستغرق أجيالاً تتجددفيها النزاعات وتسفك الدماء.

صحيح أن جريمة الدم (القتل) قد يكفر عنها بالديات يقدمها أهل القاتل جمالاً ونياقاً الى أهل القتيل، وصحيح أن من واجب الزعماء في القبيلة أن يعملوا على أيجاد تسوية بين المتخاصمين من غير أن يملكوا حق فرضها عليهم، ولكن العشائر كثيراً ما لاتنتهي قراراتهم الى الأخذ بهذه التسويات الا بعد أن تكون قد تفانت ودقت بينها فترة طويلة يستطيعوا نسيان ماحصل لهم من مأساة. أما أذا سلم القاتل طوعاً لاكرهاً

الى الطرف الآخر لينزل فيه إنتقامه فعندئذ لايبقى مجال للثأر، ولكن مثل هذا الصنيع يعتبر وصمة للعشيرة فهي تفضل أن تقتل الجاني على أن تسلمه طوعاً ويلحق بها العار. أن حاسة الشرف السامية هذه التي إتسم بها جميع أعمال البدوي هي الأساس الذي ينهض عليها صرح الأخلاق عندة، ولابد لنا أن نذكر واقعة حصلت في تاريخ العرب قبل الأسلام وهي حرب البسوس التي دامت قرابة ثلاثين عاماً لم تكن لتسجل الأسباب والمبررات الحقيقية ورائها بدقة والتي كانت حرباً أهلية بين القبائل الضاربة في عمق الصحراء وكانت تعكس نموذجاً حياً لنمط الحياة والعلاقات الأجتماعية السائدة في الجزيرة العربية قبل الأسلام، ويقال أنها نشأت من أجل ناقة أصابها شيخ من بني تغلب بسهم فأدماها، فغضب لها رجل من بني بكر، وأسرع الى الشيخ فقتله، فثارت تلك الفتنة العمياء والتي سقط فيها الألوف من القتلى والجرحى. ومثل هذا القول عن حرب تدعى" داحس والغبراء" وهي لاتقل شهرة عن حرب البسوس. كان سببها المباشر والمعلن أن سباق قد جرى بين حصان عبسي وفرس ذبيانية. فحدث جدال بين صاحبيها مما أدى الى أن تشترك قبيلتهما وأحلافهما في قتال مرير لايقل شأناً عن قتال البسوس.

يمكن القول أن الأهانة البسيطة التي تؤدي الى مثل هذه المعارك الطاحنة هي بمثابة شرارة تقع على برميل مشحون بالبارود [1].

أن الحرب والقتال مركب أساسي من الثقافة البدوية في الصحراء، ولهذا كانت الحرب في البداوة دائمة ومتصلة ولاتخمد لها أوار. فهي لاتتوقف فترة الا لتثور بعدئذ. أن القيم البدوية بشتى مركباتها وخصالها تدور حول تمجيد الغزو والغلبة والفروسية والحمية المفرطة التي لاحدود لها. أما البداوة فأنها جوع مزمن ولابد أن يكون فيها تنازع البقاء شديداً، حيث يفنى فيها الضعيف ويبقى القوي الصامد. ويمكن القول أن الحرب هي الأصل في البداوة ومالسلم فيها الا حالة طارئة، وهذا هو سر بقاء المنطقة محدودة التطور والأزدهار عبر التاريخ لأن حالة الحرب لاتنتج سوى الخراب والدمار ولاتتم الحضارة الا في ظروف السلم.

(1) محمود شكري الألوسي (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) الجزء الأول / علي الوردي (المصدر السابق) 68.

ولابد لنا أن نذكر هنا عن عادة أجتماعية لبعض القبائل العربية قبل الأسلام الا وهي وَد المولود أذا كان الطفل بنت من أول أيام ولادتها. ويعود السبب الحقيقي وراء ذلك السلوك الى حالة الفقر والعوز الذي كانت تعاني منه المنطقة الصحراوية القاحلة ذات الموارد المحدودة. أن معرفتهم بأن تلك المولودة ستكبر وتلد وبالتالي تزيد من عدد السكان الذين لايستطيعون من إنتاج قوت يكفي لبقائهم على قيد الحياة والأستمرار بالبقاء لذا تجدهم يُقبلون على فعل هذه الجريمة التي حرمها الدين الأسلامي. وقد فعل المصريون في عصر الفراعنة عملاً مشابهاً وذلك من خلال رميهم للأطفال حديثي الولادة في نهر النيل عند حصول القحط ونقص المحصول الزراعي في عدد من السنين التي مرت وحصلت فيها فيضانات مدمرة [1]. وتعطي عادة وَد البنات في الجزيرة العربية قبل الأسلام دلالة أخرى في مدى إعتزاز العرب بالمحافظة على عفة المرأة وشرفها ومنعها من الظهور بين الناس، من أجل أحكام السيطرة على الأنجاب وذلك بتقليص أو السيطرة على الأنجاب بشكل لايؤثر على حجم السكان لأن المرأة هي بمثابة المنجم الوحيد لتكاثر السكان، وأن العناية والسيطرة على هذا المنجم يعني بالنتيجة العناية والمحافظة على إبقاء المجتمع بشكله المعتاد دون أن يتضخم لدرجة تصبح فيه الحروب أمراً لامفر منها، وهنا أيضاً يبرز دليل واضح أن سلوك وعادات أي مجتمع يصبح مرهوناً بظروفه الأقتصادية ومقدار ماتنتجه الأرض من موارد طبيعية تتحكم في بقاءه.

ويمكن القول أن الغزو هو حاصل ظروف طبيعية واقتصادية واجتماعية ألمت بالاعراب وأجبرتهم على ركوب هذا المركب الخشن، كارهين أو مختارين، فليس للاعرابي للمحافظة على حياته ولتأمين رزقه غير هذا الغزو. وقد بقي يغزو حتى في الإسلام مع منع الإسلام له، ولا يجد فيه مع ذلك غضاضة ولا بأساً.

---

(1) موسوعة الكتاب المقدس" دار منهل الحياة / منصورية المتنى _ لبنان (1993) صفحة 68" سفر الخروج وولادة موسى" { أمر فرعون كل شعبه وقال لهم أطرحوا في النهر كل ذكر يولد من بني أسرائيل وأبقوا كل أنثى }. بالإضافة لذلك كان المصريون يرمون الأطفال في النيل كقرابين للآلهة ويعتبر ذلك أحد الواجبات الدينية المقدسة، ويرمون البنات الجميلات بعد تزينهم ولبسهم ملابس العرائس إلى النيل كي يعرس عليها آلهة المياه الغاضبة، ويتخلصوا من غضب إله النيل.

لقد فرضت الطبيعة على الأعرابي أن يكون محارباً غازياً، فقد حرمته من خيرات هذه الدنيا ومن طيبات ما تنبت الأرض، حرمته من وجود حكومة تحميه وتدافع عنه وحرمته حتى من وسائل الدفاع عن النفس، فجعلته لا يمتلك شيئاً يكنّ إليه في البوادي ليحمي نفسه من الرياح والسموم ومن أشعة الشمس القاسية ومن الحيوانات الوحشية، وجعلته يقابل المرض بمفرده، ولم يكن أمامه والحالة هذه، إلا أن يتعلم الصبر وأن يصير محارباً غازياً لا يبالي بالنصر أو الخسارة، بالحياة أو الموت. فهو إن خسر هذه المرة حاول تعويض الخسارة بجولة جديدة. وهكذا لأنه إن يئس وجلس واستسلم للزمان أكله جار له يطمع في ماله مهما كان، فهو لابد له من استعداد لغزو جديد. وفي الغالب يكسب النصر من له عدد وافر وكثير من الخيل وفرسان شجعان يأخذون الخصم بمباغتة ومفاجأة.

وللخيل نصيب كبير للغزو لما يتمتع به من سرعة في الحركة بالمقارنة مع الجمل أو الرجال الراجلة. إلا أن للإبل فضل في تحمل الجوع والعطش ولصلاحيتها على المشي في البوادي، فقد صارت خير أليف للعرب، واشتركت في الغزو والحروب أيضاً. والجمل من الحيوانات القانعة الصابرة، ولولا الجمل لما كان في استطاعة العرب اختراق جزيرتهم والتنقل فيها من مكان إلى مكان. وبفضله اتصل العرب بعضهم ببعض، وقامت المستوطنات في مواضع نائية منعزلة في بلاد العرب وقهر العربي ظهر باديته، وتكونت فيها تجارة برية وطرق برية طويلة يخترقها الجمل بغير كلل ولا ملل، صابر على العطش حتى يصل إلى مرحلة بعيدة فيها ماء، ويتحمل الجمل العطش مدة أربعة أو خمسة أيام في الصيف و25 يوماً في الشتاء. وقد وردت قصص عديدة في حروب الغزو لدى العرب قبل الإسلام يمكن الرجوع إليها في المصادر المتخصصة[1]، أما فيما يخص القوانين والشرائع فقد كان هناك فقه في أهل مكة أكثر تطوراً من أهل المدينة مثلاً. ومهما يكن من أمر فإن القوانين والشرائع هي من بنات المحيط، ومحيط الجزيرة العربية محيط قبلي مجتمعاته صغيرة متباعدة ومشكلاته محصورة في ضمن إطار حياتهم فإن المعضلات القانونية عندهم تكاد تكون محدودة نابعة من

[1] جواد علي "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" ج5 دار العلم للملايين-بيروت- ط2 (1978) ص 333-468

ظروف جزيرة العرب في الغالب، ومعالجتها وأحكامها نابعة من هذه الظروف أيضاً فهي وفق معيشة الجاهليين وأحوالهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والزراعية لا يمكن أن تجد فيها ما نراه في قوانين اليونان والرومان في ذلك العصر من تبويب وتعقيد لاختلاف الحياة وتباين المحيط ونوع الحكم الذي كانوا عليه[1].

يتضح مما تقدم أن المجتمع في الجزيرة العربية قد أصبح في حالة ترقب لظهور منقذ من هذا الوضع والحاجة الى وضع تشريعات ونظم لأنقاذهم من واقعهم المؤلم والى تكوين كيان سياسي جديد قادر على جمع شملهم وتوحيدهم وتنظيمهم ضمن هذا الكيان وتخليصهم من الهيمنة الاجنبية التي كانت قائمة في شرق البلاد من الفرس وفي غربها الشمالي من الرومان، وبالتالي سيكونوا قد وفروا بأقل تقدير مقداراً من الثروة، التي كانت تذهب الى ذلك المهيمن لأجل تحسين أحوالهم الاقتصادية المتدهورة. وعلى العموم فقد كانت قوانين الصحراء تطبق في مدن الجزيرة كافة. مثل الطائف ومكة والمدينة (يثرب)، إذ كانت تلك المدن مكونة من عشائر مختلفة كما كان يعيش البدو في خيامهم في عمق الصحراء، ولذلك كانوا يعيشون عيش الحرية والاستقلال فلا يطيعون أحدا، وليس من شك في أن شعور الشرف الذي كان بالغ الحساسية في الصحراء قد وجد مايخفف عنه بعض الشئ في مكة بسبب من المصلحة العامة التي كانت للمكيين في الكعبة المقدسة، والتي كان يؤومها الجميع من كافة الأديان والأرجاء. ومن التجارة التي كانت تعتمد على أزدهارها. وإذ كان كل فرد من أبناء مكة معنياً بهذه الشؤون فقد كانت العلاقات الاقتصادية فيها أكثر تعقيداً. وتفوق العشائر الغنية على العشائر الفقيرة أكثر مما كان عليه الحال في بقية أنحاء الجزيرة. أما في المدينة (يثرب) فقد كانت فيها بعض موارد العيش الرئيسية المعتمدة على الزراعة والعناية بالنخيل، وكانت الحياة الاجتماعية أكثر سذاجة عما هو عليه الحال في مكة، حتى أذا جاء الاسلام فقد وصلت الثارات الدموية الى درجة عالية بحيث صار الفرد لايكاد يجرأ على مغادرة منطقته المحصنة من غير أن يعرض نفسه لأشد الاخطار. وهكذا أصبحت مكة مركزاً قيادياً مهماً في كافة أرجاء الجزيرة العربية كما أسلفنا، وبدأ قادة ورؤساء

---

[1] جواد علي "المصدر السابق نفسه" ص 484

القبائل يفكرون جدياً في أيجاد كيان سياسي يتمكن من توحيد كافة القبائل والمناطق المحيطة وأدارة شؤونها. ومن هنا جاء الاسلام ليلبي كل تلك المتطلبات المذكورة سلفاً.

وأن من الانصاف أن نشير هنا الى وجود صفات وعادات أجتماعية رائعة في الصحراء العربية تم التعرض اليها في كتاب الدكتور علي الوردي عن دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. الا أننا نركز هنا في المواريث التاريخية للعنف السياسي السلبية ونفتش عن أسباب ودواعي السلوك السئ الموروث في عقولنا من أجل الوصول الى نتائج تقودنا الى فهم أفضل لمجتمعنا في الوقت الحاضر.

9- الشعر عند العرب قبل الاسلام:-

العرب كما أشرنا سابقاً مدينون بأحساسهم أنهم يؤلفون أمة واحدة على الرغم من أختلافاتهم القبلية وحروبهم فيما بينهم، وذلك لمواهبهم الروحية العامة في الدرجة الاولى. فقد ترعرع الشعر عندهم وأزدهر في رعاية الدين الى حد كبير، فأغلب الظن أن الشعر عند العرب قد أرتبط ومنذ نشأته الاولى بالدين (قبل ظهور الاسلام)، وليس من شك في انه وجد حافزه الاول في غريزة اللهو والمتعة التي كان يجدها الانسان البدائي في الصوت والايقاع، فتساعده على أحتمال أعباء ومتاعب الحياة. أن الكلمة الملفوظة لفظاً مهيباً (الشعر) أستطاعت في الوقت نفسه أن تضمن للأنسان البدائي الحصول على التأثير المقصود بواسطة قواه الخاصة ليس الا.

وبهذه الطريقة ساعد فن البلاغة القديم على خدمة السحر، الذي لم يكن يتعارض في هذا الطور من أطوار الحياة الفكرية مع الدين في المرحلة التي كان الدين معتمد على السحر والكهنة.

لقد أصبح الشعر فنا من الفنون المتميزة في الجزيرة العربية الى درجة انها ربما كانت المجال الوحيد في المباراة واظهار القابليات المتميزة لبعضهم دون الاخر. وفي أوقات الحرب، كانت مهمة لعن العدو تقع على عاتق الرجل القادر على أن يقول الكلمة المناسبة، حتى أذا ضعف الايمان بالقوة تطورت الى قصيدة هجائية، وأنتقلت من دائرة التناحر بين القبائل الى دائرة التشاحن بين الاشخاص لتنتهي الى أخر المطاف، بوضعها سلاحاً مخوفاً الى أن تبتذل فتصبح مورد رزق لشاعر لايخشى الفضيحة والتهديد. ولم يمثل الحب الجنسي في الشعر العربي كما هو عليه الحال لدى الشعوب البدائية الا دوراً ثانوياً. ذلك ان الشاعر الجاهلي كان يصطنعه، في الشعر الفني الذي لم يحفظ لنا غيره، كمقدمة للغرض الذي يقصد اليه، وهو التمدح بنفسه أو الاشادة بمحامد قبيلته أو مدح سيدة أو أميرة، أذا كان شاعراً محترفاً. وأنما كانت هذه القصائد تجري على سنن تقليدية مرسومة. فكان الشاعر يستهل قصيدته بالحنين الى أيامه الصالحة التي سعد فيها بالحب، وقبل أن يبلغ غرضه الحقيقي كان يعمد الى امتاع سامعيه بأبيات في وصف الطبيعة.

وربما كان النقص في التغني في الحب وتكرسه لدى العرب واحداً من العوامل المؤثرة على أستمرار أحداث التطاحن والحروب، والحق أن العرب قد وفقوا في الابداع بوصف الصحراء وحيواناتها النموذجية كالجمل الذي أتصلت حياتهم به اتصالاً وثيقاً. ولكن هذه اللوحات التصويرية المبدعة نفسها لم تعتمد على الملاحظة الشخصية أيضاً بل أفرغت في قوالب تحدرت الى الشعراء من الاجيال القديمة.

ومن هنا لم يفسح هذا الفن مجالاً واسعاً أمام الشعراء لأظهار شخصياتهم الا في القليل النادر حيث تكون المفارقة صريحة جداً. ومن أفضل الامثلة على ذلك الشاعر أمرؤ القيس ذلك الملك الضلل الذي سبق لأبائه من كندة (العشيرة العربية اليمانية) أن وحدوا القبائل البدوية الشديدة الشكيمة في الشمال عند بداية القرن السادس الميلادي ووجّهوها في غزوات مخربة على الامبراطوريتين الرومانية* والفارسية، والذي أنفق عمره في السعي لأسترداد مجد أسرته هذه الى أن مات أخر الامر مسموماً كضيف للأمبراطور البيزنطي في أنقرة بأسيا الصغرى (تركيا اليوم).

وكذلك الشاعر زهير أبن أبي سلمى شاعر الحكمة العملية الجامعة، والاعشى المنشد المحترف الذي قاد تطوافه في سبيل التكسب الى جنوبي غرب بلاد العرب.

ولم يكن أصطناع اللغة العامة للتعبير الشعري وقفاً على الشعراء الفنيين وحدهم، فقد شاركهم في ذلك رعاة هذيل الذين كانوا يضربون خيامهم قرب مكة، فأصطنعوا في أشعارهم لغة تختلف أختلافاً بيناً عن لغة التخاطب اليومي على الرغم من أستمدادها من جميع اللهجات العربية السائدة في ذلك الحين، وفهم العرب لها في كل مكان.

ويبدو أن هذه اللغة الغنائية أو الشعرية التي نجد مثيلها عند كثير من الشعوب البدائية لم تسود في نجد والحجاز فقط، بل أمتدت سيادتها الى قلب بلاد الرافدين أيضاً.

ثم أنها صارت أم العربية الفصحى التي جعلها الاسلام من خلال أنتشاره لغة عالمية في الشرق الادنى وشمال أفريقيا وتحديداً على طول

---

* لقد كان العرب يطلقون على البيزنطيين اسم الرومان خطأ وقد أبقينا على هذا الخطأ نفسه في بعض فقرات هذا الكتاب تماشياً معهم.

الساحل الجنوبي من البحر الابيض المتوسط بكامله. بعد أن كانت لهجات مشتقة من لغات متفرقة في المنطقة كالعبرية والكلدانية والكنعانية والفينيقية والفارسية... الخ لقد أصبحت البلاغة اللغوية هي السمة الغالبة في تراث المنطقة العربية منذ ذلك الحين، ولايفتنا أن نذكر هنا القصائد المعروفة بالمعلقات السبعة وهي أشهر ما قالته عرب الجاهلية من شعر في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام وفي مكة.

والذي يهمنا في هذا البحث هو الارث الثقافي القديم وما تركه من أثار على سلوكنا الاجتماعي (في العراق وبقية البلاد العربية) لحد الان.

لقد أصبح البيت الشعري أو القصيدة التي تلهب مشاعر الناس أو المثل وحتى العبارة الواحدة ذات الدلالة المؤثرة أصبحت قانوناً ملزماً للناس دون منازع في الالتزام بمعناها وتطبيقها حرفياً، وكأنها دستور منزل من السماء لايمكن مناقشته أو الطعن بصحته (مهما أختلفت الظروف). ومن هنا يمكن أن تكون الكلمة سيفاً ذو حدين فقد تقود الناس في أكتساب قيم أخلاقية لصالحهم في فترة زمنية معينة، الا انها لايمكن أن تبقى كذلك لكل الازمنة والظروف. ومن هذا المنطق فقد أصبحت البلاد العربية كلها أسيرة بأغلال وقيود صنعتها بنفسها، ولعبت دوراً لايستهان به في تقيد العقول وربما منعها من الانطلاق لغد أفضل. أن الالتزام بالنص في الظرف الذي قيل فيه هذا النص والهدف الاساسي منه، قاد الكثير نحو السير بالاتجاه الخاطئ وقد أساؤا لانفسهم دون غيرهم، من خلال ذلك ألتزمت والألتزام المفرط بالنصوص، مهما كانت من قوة في البلاغة والصياغة اللغوية. ولو امعنا النظر في قوة الصياغات اللغوية لوجدنا أنها لاتعدو مجرد لحن موسيقي مستساغ من قبل السامع وكثيراً ما يكون خالي من العمق الفلسفي الواقعي الذي يصب في صالح الارشاد نحو المثل الاخلاقية العالية، فقد يكون فعلاً لصالح ظرف تاريخي معين ومنسجماً مع شكل وطبيعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ومستوى تطور العقل البشري ضمن المرحلة التاريخية التي جاء فيها ولهذا السبب أيضاً بذل العديد من الفقهاء والمصلحين الدينيين في عصرنا مجهوداً كبيراً في أخراج فتوى أن زوال الحكم بزوال أسباب النزول بالنسبة لما جاء في القرآن والسنة النبوية[1]. ومن وجهة النظر المتعلقة

(1) أحمد أمين "زعماء الاصلاح في العصر الحديث" دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان.

بعلم النفس فأن الامم والشعوب تحتاج الى نوع معين من الفنون في كل مراحل حياتها كحاجتها الى الماء والهواء، ولابد أن تكون القوة البلاغية اللغوية (الشعرية والنثرية) هي الفن الوحيد المتميز في الجزيرة العربية في ذلك الحين. وبذلك يصبح التمسك به أمراً ضرورياً من أجل أدامة الحياة والاستمتاع بها بقدر أكبر، ومن هذا المنطلق نجد أن الشعوب العربية كلها متمسكة بحفظ النصوص والاشعار العربية القديمة وتتغنى بها، وتعتبر الصفة الفنية المتقدمة عن غيرها من الشعوب دون سواها من أنواع الفنون الاخرى المعروفة كالموسيقى والتمثيل المسرحي وحتى الرسم والنحت وفنون العمارة وغيرها من الفنون التي أزدهرت في مناطق أخرى من العالم حتى في تلك الفترة التي نتحدث عنها. ويعود ذلك بالدرجة الاساس الى نمط النظم الاستبدادية التسلطية من قبل رؤساء القبائل في المنطقة. ويجدر الاشارة هنا الى أن عصر فجر الاسلام قد تميز بأضمحلال الشعر أي بمعنى المديح للحاكم، فقد أنتهى دور الشعراء العرب وأعتبره الناس من السلوك والعادات الجاهلية[1]، والتي تخدم السحرة والمشعوذين ولكن بَدَء دور الخطابة وذلك لتحول المجتمع من نظامه القبلي القديم الى نظامه الديني الجديد فقد غاب عن الساحة العربية في عصر فجر الاسلام الشعراء المشاهير الذين عرفناهم من أيام المعلقات السبعة قبل الاسلام. الا ان معاوية أبن أبي سفيان كان من محبي الشعر وبَدَء يقرب الشعراء ويكرمهم بالمال فعاد من جديد عصر الشعراء العرب في بداية تكوين الدولة الاموية، كما أن يزيد بن معاوية كان هو الاخر مولعاً بالشعر. وقد قال هو في الشعر الكثير ويعتبر واحداً من شعراء عصره كما أنه أغرى الاخطل وأكرمه وقربه منه كثيراً، وكان مسيحياً وهو أحد مشاهير عصره في الشعر وهكذا نجد أن الشعر كان أحد ألوان الفنون التي تنمو وتزدهر عندما يكون هناك حكماً أرستقراطياً مستبداً يحتاج للمدح والدعاية وأكتساب رضى الناس من خلال أسماعهم بالاشعار المنمقة والمستساغة لأسماعهم.

لقد عاد العرب في عهد بني أمية الى الشعر كما كانوا فيه في جاهليتهم من التنافس والتناحر القبلي، وأصبح الناس أنذاك يقضون معظم أوقاتهم في الجدل حول الشعر والشعراء وفي المفاضلة بينهم وكثيراً

---

(1) *Nicholson" A Literary History of the Arabs "*

ماكانوا يتخاصمون وترتفع أصواتهم وربما أهتم الخليفة أو الامير بذلك الخصام فبعث الى بعض الاخصائيين في الشعر يسأله عن رأيه.

وهكذا أستمر هذا الموروث الثقافي الى وقت قريب، يستفيد منه الحكام والولاة في أشغال الناس في الجدل حول الشعر تاركين في الوقت نفسه أهم الامور المتعلقة بمصيرهم وتحسين أمورهم الاجتماعية والسياسية.. وفي هذا المجال نذكر قول علي الوردي في كتابه وعاظ السلاطين،" لقد عمل الامويين على إثارة قلوب العرب ضد غيرهم من الاقوام، فصارت دولة عربية شعرية لا تفهم الاسلام إلا على أساس قومي بدوي. وأخذ العرب في تلك الايام يعتبرون ان الاسلام قد جاء للعرب لكي يرفع من مكانتهم بين أمم الارض، وأصبح محمد (ص) في نظرهم بطلاً قومياً من طراز جنكيز خان أو تيمورلنك"[1].

وصار الاعاجم الذين دخلوا الاسلام مؤخراً محتقرين في نظر العرب على عهد الامويين وأخذوا يطلقون عليهم أسماء مستهجنة كأن يسمونهم (النبيط) أو (الحمراء) أو (الموالي). وأنتشر بينهم المثل القائل (ولايقطع الصلاة الا ثلاثة: حمار وكلب ومولى). ولابد أن نذكر هنا الى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (الخليفة الزاهد) في العصر الاموي قد حاول أولاً منع الشعراء من الوقوف في بابه وأعلن أنه لايقبل الشعر ولايقابل الشعراء وأعتبر جوائز الشعراء سرقات من بيت مال المسلمين[2].

وهكذا نجد هنا أرثاً كبيراً قد بقى مخزوناً في ذاكرتنا نحن العرب من أحتقار للأجنبي في أعتباره (موالي) وندعوه بالعجمي حسب اللهجة العراقية السائدة الى يومنا هذا.

كما لا يزال الكثير منا لايستسيغ من الشعر سوى المقفى والموزون على طريقة عرب الجاهلية ويعتبرون الشعر الحديث ليس بالشعر الصحيح حسب مذاقهم.

وأخيراً يمكن القول بأن الشعراء في أيام الجاهلية، كانوا ديوان العرب ووسيلتهم الكبرى في الافتخار القبلي. ولم تهتم امة من الامم بشيء

---

(1) علي الوردي (وعاظ السلاطين) ص 268.

(2) علي الوردي "المصدر السابق نفسه" ص 162.

كما أهتمت أمة العرب بالشعر. فكان الشعرسلاحاً ثانياً يساعد السيف في التنازع على البقاء، الذي كان شديداً في حياة الصحراء كما أسلفنا سابقاً.

وربما فضل العرب الشاعر على الفارس، حيث كان الشعر أقوى عون للقبيلة البدوية من الفارس القوي أحياناً، وكان واحداً من أهم أهتمامات قبيلة قريش لمنحها الجوائز للشعراء، وبهذا صار الاعراب ينظرون الى قريش نظرة أحترام وتقدير.

10- خلاصة الفصل الثاني:-

يمكن أن نوجز ما جاء بهذا الفصل بالنقاط الهامة التالية والتي تتعلق بموضوع بحثنا عن المواريث التاريخية: -

1- أن شحة الموارد الطبيعية في المناطق الصحراوية من الجزيرة العربية المتمثلة بقلة الامطار وحرارة الجو العالية، قد ساعد في إنتشار القبائل الرحل والرعاة في مناطق متباعدة بعضها عن بعض، وكان عاملاً رئيسياً في أكتساب حالة الاقتتال والتنافس بين القبائل، والذي أصبح سمة مميزة للحياة في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام. بينما أتخذت القبيلة شكل التنظيم الاداري والاقتصادي والسياسي للناس في ذلك الحين، وهيمنت أدارة الزراعة والحرف والصناعة من خلال القوة القتالية التي تتمتع بها، بالاضافة لأعمال الغزو والسلب والنهب التي أصبحت مهنة تقليدية لدى بعض القبائل المنتشرة في الصحراء وأنطبعت في أذهانهم لتصبح أرثاً تاريخياً ثقيلاً يصعب أزالته والى يومنا هذا.

2- أن الديانات التوحيدية التي ظهرت في الجزيرة العربية، بدءت تنمو وتتبلور تدريجياً عن طريق الرعاة، وقد أتخذت أشكال متعددة من التجريد، الى أن وصلت الى مرحلة متقدمة ملائمة لتكوين كيان سياسي متقدم قادر على الصمود والسيطرة وتنظيم حياة الناس، الا انها لم تستطع ازالة المعتقدات الدينية من حيث الطقوس والواجبات وبعض القوانين التي سبقت مرحلة التوحيد من الديانات الوثنية التي كانت منتشرة في بلاد الرافدين ومصر وغيرها، وأنتقلت لتشمل كل أرجاء الجزيرة العربية وغيرها من المناطق المجاورة، وقد أستمدت العديد من الطقوس والممارسات الدينية من ديانات بلاد الرافدين القديمة وأخذت منها الكثير من التشريعات التي كانت تمارس منذ الاف السنين، أن ذلك أدى الى المزيد من القيود والتسلط من قبل الحاكم أو رئيس القبيلة، بأعتبار أن سلطته مستمدة من الاله الحامي، وان خدمته لأستدامة الحياة وصيرورتها، وبالتالي زيادة الاستبداد والتسلط وتحجيم حضارتهم، وقد ساعد ذلك في أستمرار ظاهرة الاستبداد كموروث ثقافي قديم في المنطقة.

3- لقد كان الشعر والسجع أحد أهم مظاهر الحضارة العربية في العصر الجاهلي وساهم في تطوير وتوسيع المفردات اللغوية وتوحيد اللهجات السائدة الى أبعد رقعة في المنطقة، بالاضافة الى المساهمة في ترسيخ القيم والمبادئ الاخلاقية السامية، الا انه ساهم في الجانب الاخر في مدح وأدامة الحكم الاستبدادي المبني على أساس أن الحاكم ممثل الاله في الارض، بالاضافة لذلك فأن التمسك بالنص أدى بالنتيجة الى الابتعاد عن المنهج العلمي في التفكير، وبالتالي ساهم في تقيد المجتمع وتحجيم حضارتهم، والتي لاتزال مطبوعة في الاذهان في عدم التخلي عن النص رغم تغير الظروف والاحوال التي قيل بها هذا الشعر أو ذاك النثر.

الفصل الثالث

عصر فجر الإسلام

الفصل الثالث

عصر فجر الاسلام

لا توجد فترة في تاريخ الجزيرة العربية أخذت من البحث والتقصي والتدوين الدقيق لأحداث أكثر مما أخذته فترة ظهور الاسلام او ما يسمى بعصر فجر الاسلام، فقد إمتلأت المكتبات بالعديد من المصادر والكتب المتخصصة بتفاصيل الاحداث حتى البسيطة منها. وغطت تلك المصادر الكثير من الاحداث اليومية التفصيلية البسيطة منها والمهمة على حدٍ سواء. منها ما هو موضوعي وعلمي يهدف الى الوصول للحقيقة، ومنها ما هو متحيز لطائفة دون أخرى حسب تفكير وعقلية الباحث أو كاتب الحدث ومنها ما هو من نسج وتلفيق الرواة الذين لا هَمّ لهم ولا علاقة لهم بالحقيقة والموضوعية، بل الهدف هو الإثارة والإمعان بالأفكار الغيبية وتكريس الأفكار الميتافيزيقيا البعيدة عن الواقع، وكثيراً ما يقع هؤلاء في مطبات وتناقضات تكشف كذب وتلفيق أقوالهم ومصادرهم من خلال عدم تطابق تلك الاحداث مع بعضها البعض من حيث التواريخ وتعارضها مع المنطق العقلاني المقبول وبشكل ساذج. لقد كتب الشاعر العراقي المشهور معروف الرصافي كتابا بعنوان" الشخصية المحمدية[1] يكشف فيها الكثير من زيف وألاعيب الرواة وتناقضات تلك الروايات التي تسببت في العديد من المشاكل والحروب والى عهدٍ قريب وننقل ما كتبه في آخر كتابه بهذا الخصوص في عبارة مؤثرة تدل عن إنطباعه عما قرأه وسمعه من روايات متناقضة عن تلك الفترة وكما يلي: " أصبحت لا أقيم للتاريخ وزناً ولا أحسب لهُ حساباً لأني رأيته بيت الكذب، ومناخ الضلال وتنسجم أهواء الناس، إذا نظرت فيه كنت كأني منه في كثبان من رمال الأباطيل قد تغلغلت في ذرات ضئيلة من شذور الحقيقة". والمقصود بالتاريخ هنا هو ما مدون من احداث في عصر فجر الاسلام. ويستند الرصافي في كتابه هذا الى السيّر والسنن النبوية المشهورة بدقة وحذر شديد من أي تلاعب او تناقص والتي كتبت بأعداد كبيرة ومعترف بها من قبل الجميع كان اشهرها السيرة الحلبية وسيرة إبن هشام ودحلان والزمخشري وإبن كثير والبخاري والترمذي ومسلم وإبن قيم الجوزي وغيرهما. ولذلك ومن أجل عدم حصول التكرار والخوض بتفاصيل أخذت حقها في الكتابة ننتقي بعض من هذه الاحداث المؤثرة والتي لازالت آثارها باقية لدينا ونذكر كل ما يتعلق بموضوع البحث من مواريث تاريخية تأصلت ولعبت دوراً أساسيا في حياتنا وفي سلوكنا وعاداتنا الاجتماعية ووضعنا السياسي والاقتصادي العام

---

(1) معروف الرصافي-" كتاب الشخصية المحمدية" أو حل اللغز المقدس" منشورات الجمل/ المانيا (2002).

سواء أكان في العراق أو على نطاق المنطقة الأقليمية برمتها. وسوف نكرس جزءاً بسيطاً منها والمتعلق بالموروث التاريخي للعنف السائد في المنطقة دون غيرها من مناطق العالم في الوقت الحاضر على الأقل، نظراً لأهمية الموضوع، آمل أن تتاح لي الفرصة في البحث عن الموضوعات الاخرى الموروثة والمؤثرة في حياتنا الحاضرة وفي المستقبل، بالاضافة لذلك فأن هذه الفترة المتعلقة بشكل مباشر في الدين، لاتزال حساسة جداً ولا يتقبل العديد منّا مناقشتها والولوج في تفاصيلها نظراً لشدة موروثنا التاريخي الثقافي المطبوع في الأذهان من عدم تقبل الرأي والرأي الآخر بالمقارنة مع المواضيع الأخرى. لقد أصبح تاريخ فجر الاسلام والسيّر النبوية أحد أهم الدروس في كافة المدارس الدينية وأقتصرت دراسة التاريخ لدينا في دراسة تاريخ فجر الاسلام بالدرجة الاساس وكل ما كان قبل ذلك عبارة عن عبث وجاهلية ولا داعي للخوض والتحدث به خاصة في المناهج المدرسية، كما يعتقد بعض المغالين والمتعصبين دينياً وقومياً. وهذا خطأ فادح بحق جيلنا والاجيال القادمة، فلا يمكن فهم أي موضوع مهما بلغت أهميته ما لم يتم دراسة الاصل. وطالما كان الهدف هو الوصول الى الحقيقة، ومحاولة زيادة الفهم عن المواريث التاريخية الثقافية والسلوك الاجتماعي وما آلت اليه الامور لتصل بنا الى ما نحن عليه، فلابد من البحث والتقصي خلال كل الفترات التاريخية دون إستثناء. هذا من جانب ومن جانب آخر فأن هناك تفاصيل صغيرة لا أهمية لها، وأن أمر البحث بها وتكرارها قد تضر ولاتنفع لأنها قد تعطي دلالات معاكسة للهدف المطلوب في إظهار القيم والمبادئ السامية المراد ترسيخها، والاقتداء بها في الوقت الحاضر، وكذلك فأن الخوض في التفاصيل الدقيقة للأحداث اليومية في عصر فجر الاسلام وما بعده، إنما تعطي فرصة واسعة للرواة والمشعوذين في إبتداع أنواع القصص والبدع العارية عن الصحة والتي تقود أحياناً الى المزيد من الاختلاف في المذاهب والطوائف، وبالتالي تزيد الفُرقة بين الناس. وكثيرا ما شهد التاريخ معارك وعداوات كان أساسها الروايات التفصيلية لسلوك وتصرفات عدد من الصحابة في عصر فجر الاسلام، والمقصود هنا بعصر فجر الاسلام تلك الفترة الممتدة من بداية الدعوة النبوية الشريفة وطيلة فترة حياة الرسول محمد (ص)، في حين تمتد هذه الفترة لدى بعض الباحثين لتشمل عصر الخُلفاء الراشدين وما بعدها أيضاً لتصل الى فترة أفول الدولة العباسية.

1- عصر تكوين الدولة الإسلامية أو فترة الدعوة المحمدية:-

كما أسلفنا في الفصل الثاني، فأن منطقة الجزيرة العربية كانت مهيئة لإستقبال أو ظهور دين موحِد جديد ينقذ البلاد من التشتت والفرقة والحروب الأهلية الدائرة بينهم بشكل مستمر ودائم، خاصة في فترة القرن السادس الميلادي حيث بدأت الإمبراطوريتين العظيمتين الفارسية والرومانية تؤول الى الإفول، نظراً للتطورات الكبيرة التي حصلت في العالم ودرجة التطور الذي وصل إليه العقل البشري والذي لم يعد يتقبل مثل تلك الأنظمة ودرجة تسلطها وسيطرتها على رقاب المنطقة برمتها. إن حالة الترقب هذه في البلاد العربية قد نشأت أيضاً من خلال ظهور مركز تجاري مهم في قطب الجزيرة العربية وهي مكة بقيادة قبيلة قريش* المتمرسة في التجارة. ولما كانت التجارة بطبيعتها تدعو الى السفر والإختلاط بالعديد من البلدان والتي توجب على ضوء ذلك الاطلاع على المزيد من الثقافات وإكتساب المعارف الجديدة وتطوير معتقداتهم بما يتناسب وطبيعة المعتقدات السائدة في مناطق مختلفة من العالم. بالاضافة الى زيادة الثروة التي تمكنهم من التفرغ والتفكير بجميع نواحي الحياة وتطوير واقعهم السياسي. وقد برز العديد من المفكرين في الجزيرة العربية قبيل ظهور الاسلام على يد محمد بن عبدالله (ص) هذا النبي العظيم الذي غير وجه المنطقة برمتها في فترة قصيرة ونشر الاسلام في سرعة فائقة لم يسبق لها مثيل. وليس محمد (ص) هو أول من أنكر عبادة الأصنام وأبغضها في بلاد العرب بل أنكرها وخرج عليها رجال كثيرون من عرب الجاهلية قبله[1]. وفي زمانه، وهم الذين يُسمّون في كتب السيرة النبوية الشريفة بالمتألهّين أو المتحنفين وهؤلاء أناس لم يحالفهم الحظ ولم يكونوا بالمقدرة القيادية لعمل شيء يَذكر لهم التاريخ، كما فعل النبي محمد (ص). ومن بين هؤلاء نخص بالذكر منهم ورقة بن نوفل وعبدالله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل، ولهؤلاء قصص ذكرها صاحب السيرة الهشامية[2] عن إبن إسحق قال:"[إجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، وكانوا يعظمون وينحرون له، ويعكفون عنده، ويدبرون به، وكان عيداً لهم في كل سنة يوماً. فقال: فخلص منهم أربعة نفر نجياً، وذكر هؤلاء الأربعة ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا أجل فقال بعضهم

---

* قريش كان يطلق قبل الدعوة المحمدية وأثناءها وبعدها على مجموعة من القبائل تنتسب الى فهر وكان هذا يلقب بقريش وهو جدّ قصي بن كلاب بن لؤي بن غالب بن فهر ويقال أنه من العدنانيون جد العرب في الشمال. وعندما سكنت قبائل قريش هذا في مكة وأصبحت لها سلطة عليها صار هذا اللقب يميزها عن القبائل العربية الاخرى، حيث كانت مجموعة القبائل العربية تعيش في مكة بدون سلطة مركزية، وكانت السلطة معنوية نافذة وغير قسرية لشيوخ مجموعة القبائل المشتركة في النسب الى جد واحد والمتجاورة في السكن. وتشمل مجموع تلك القبائل في عصر النبي محمد اثني عشر قبيلة ترجع في نسبها الى قريش يمكن الرجوع في تفاصيلها الى المصدر المشار إليه. (محمد عابد الجابري- المصدر المسابق).

(1) محمد عابد الجابري" العقل السياسي العربي" مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت (1990) ص 201.

(2) سيرة ابن هشام" أبو محمد عبد الملك: السيرة النبوية تحقيق مصطفى السقا وآخرون. دار الكتب العلمية- بيروت/ الجزء الأول/ ص 222-223.

لبعض تعالوا والله ما قولكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم إلتمسوا لأنفسكم، فأنكم والله ما أنتم على شيء، قال: فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنفية دين إبراهيم]" وزاد إبن الجوزي عن هؤلاء الأربعة جماعة آخرين منهم أبوبكر الصديق ورباب بن البراء وأسعد بن كريب الحميري وقيس بن ساعدة الأيادي وأبا قيس بن حرمة، فأما ورقة بن نوفل فدخل اليهودية ثم تركها، فدخل في المسيحية وأستحكم فيها واتبع الكتب من أهلها حتى علماً من أهل الكتاب، وقد قالوا عنه أنه لم يدرك البعثة، وأنه آخر من مات في تلك الفترة، وأنه لم يمت مسلماً[1]. وهذا غير صحيح لأنهم ذكروا أيضاً في قصة الوحي أن خديجة أخذت محمد عندما نزل الوحي عليه وأنطلقت به الى ورقة بن نوفل تسأله حيث قال لها: هذا هو الناموس الذي نزل على موسى، وقال أيضاً: إن هذا لبدء النبوة وأن محمد نبي هذه الأمة. وقال البعض أنه أدرك الدعوة الى الله ومات مسلماً. وأما عبيدالله بن جحش، وهو إبن عمة النبي محمد(ص) أميمة بنت عبدالمطلب، فقد أدرك البعثة وأسلم وهاجر الى الحبشة مع من هاجر من المسلمين وهاجرت معه إمرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة، فلما قدِمَها تنصّر (أي صار مسيحياً)، وفارق الإسلام حتى مات هناك نصرانياً. أما عثمان بن الحويرث فلم يدرك البعثة وقدِم على قيصرملك الروم وتنصّر وحسنت منزلته عنده. وأما زيد بن عمرو بن نفيل فقد ذكروا أنه كان قبل النبوة زمن الفترة على دين إبراهيم، فأنه لم يدخل في يهودية ولا في مسيحية وأنه إعتزل الأوثان والذبائح التي تذبح للأوثان، ونهى عن وأد البنات وذكروا أنه كان يحي الموؤدة فإذا أراد احدهم وأد إبنته أخذها من أبيها وكفلها. وذُكِرَ أنه بادي قومه بعيب ماهم عليه وإن كان إذا دخل الكعبة يقول لبيك حقاً تعبداً ورقاً، عذت بما عاذ به إبراهيم. وفي سيرة إبن هشام أيضاً عن إبن أسحق: " وحدثني هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت:" رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره الى الكعبة، وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري"، ثم يقول:" اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته[2]. وفي السيرة الحلبية أن زيد بن عمرو بن نفيل هذا كان يوبخ قريشاً ويقول لهم: والذي زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين إبراهيم غيري. حتى أن عمه الخطاب (والد الخليفة عمر) أخرجه من مكة وأسكنه بحراء، ووكل به من يمنعه من دخول مكة كراهة أن يفسد عليهم دينهم، وفي سيرة إبن هشام:" كان زيد بن عمرو قد أجمع الخروج من مكة ليضرب في الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم، فكانت صفيه بنت الحضرمي (وهي زوجته) كلما رأته قد تهيأ للخروج وأراده أذنت به الخطاب بن نفيل عمه وأخاه لأمه، وكان يعاتبه على فراق دينه وكان الخطاب قد وكل صفية به وقال: إذا رأيته قد هَم بأمر فأذنيني به. قال: وكان الخطاب قد آذى زيداً حتى أخرجه الى أعلى مكة، فنزل حراء مقابل

(1) معروف الرصافي" الشخصية المحمدية/ 129 عن السيرة الحلبية الجزء الأول/250.

(2) سيرة إبن هشام 2251/1.

مكة ووكل به الخطاب شباباً من قريش وسفهاء من سفهائهم فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة، فكان لا يدخلها إلا سراً منهم فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب، فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم[1]. فهؤلاء كلهم سبقوا محمد في الخروج على التقاليد الموروثة لا سيما زيد بن عمرو بن نفيل. ولابد من الاشارة الى أن أباذر الغفاري كان هو الآخر خارجاً على التقاليد الموروثة قبل لقاءه بمحمد، وكان قد جاء من قلب الصحراء يحمل كل تقاليد العربي البدوية ولم يكن له صلة بأهل مكة، ولكن كل هؤلاء لم يكن لهم ما كان لمحمد من عزم وحزم ودهاء وذكاء ومن فصاحة وبلاغة ومن أعوان وعشيرة قوية ومؤثرة، ولم يكن لهم أيضاً ما كان لمحمد من طموح الى غاية عظمى وأحداث نهضة كبرى. بديهي أن كل تحول تاريخي مهم لا يمكن أن يحدثه فرد من أفراد المجتمع مهما بلغت إمكاناته وقدراته الذاتية ولابد من تهيأة ظروف وعوامل عديدة، بالإضافة لتلك الامكانات والقدرات الذاتية لكي تكون مجتمعاً، لإنجاح ذلك التغير الحتمي والذي لابد له من الحصول عاجلاً أو متأخراً بعض الشيء. وعودة الى زيد فقد جاء في كتاب الشخصية المحمدية لمعروف الرصافي ما يلي: لا شك أن محمد قد تأثر بزيد بن عمرو بن نفيل وأخذ منه فقد جاء عن عائشة قالت: سمعت رسول الله (ص) يقول: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما ذبح لغير الله، فكان يقول لقريش الشاة خلقها الله عز وجل، وأنزل لها من السماء ماءاً، وانبت لها من الارض الكلأ ثم تذبحونها على غير أسم الله؟ فما ذقت شيئاً ذبح على الغصب حتى أكرمني الله برسالته[2] وفي البخاري عن عبدالله بن عمر أن النبي لقي زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن ينزل على النبي الوحي، وقد قدمت الى النبي سُفرة فيها شاة ذبحت لغير الله، أو قد قدمها النبي إليه، فأبى أن يأكل منها وقال: أني لست آكل ما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر أسم الله عليه[3]. فهذان الحديثان يؤيدان أن محمد(ص) تأثر بزيد واخذ منه،ولكن الفرق أن زيد وقف عند الخروج على التقاليد القومية، وأن محمد(ص) لم يقف عند ذلك بل جاوز الى إيجاد تقاليد دينية جديدة أخرى، والى إحداث نهضة عربية عالمية كبرى بواسطة تلك التقاليد الجديدة. لقد كان محمد على علم بامر هؤلاء المصلحين وبخروجهم عن التقاليد الموروثة، كما كان على علم بأنبياء الاولين من بني إسرائيل وغيرهم. وقد حدّث اصحابه عن خالد بن سنان العبسي وقال عنه: أنه نبي ضيّعه قومه[4]. وخالد بن سنان هذا لم يدركه محمد، وقد ذكروا أن ناراً خرجت من الارض بين مكة ويثرب كادت العرب أن تعبدها، وأن خالد بن سنان نهاهم عن عبادتها، ولعل هذه النار هي بركان هائج في أرض الحجاز البركانية المليئة بالثروات النفطية، ولم يذكروا عن خالد بن سنان أنه تعرض لعبادة الاصنام

(1) سيرة ابن هشام 299/1-231.
(2) معروف الرصافي" الشخصية المحمدية" 131 عن السيرة الحلبية 123/1.
(3) صحيح البخاري، كتاب المناقب، الحديث رقم: 3540 مسند احمد رقم 5836 عن السيرة الحلبية 123/1 عن معروف الرصافي الشخصية.
(4) السيرة الحلبية 239/3، السيرة النبوية والآثار المحمدية لأحمد زين دحلان بهامش السيرة الحلبية 45/3.

وأنكرها ونهى قومه عن عبادتها، كما نهاهم عن عبادة النار آنفة الذكر، مع أن الاصنام كانت آنذاك موجودة في بلاد العرب. أن قول النبي محمد عن خالد بن سنان بأنه كان نبي أضاعه قومه يدل على أن النبي محمد(ص) يقر بتعريف النبي بأنه" هو كل مصلح الذي ينكر التقاليد الموروثة ويقوم بإصلاحها مهما كلف الأمر". وإنطلاقاً من هذا التعريف فإن خروج محمد (ص) قبل النبوة على التقاليد الموروثة، وطموحه الى معالي الامور والغاية التي يرمي اليها في طموحه، وما كان له من قوة وعزم وتقوب فكر وسعه علمّ بأخبار الماضيين، إضافة الى رؤيته وسماعه لجبرائيل الذي هو السفير بين الله وأنبيائه، فقد حصلت فكرة النبوة لمحمد(ص) وجاهر بها وهو في الاربعين بعد تزوجه من خديجة بنت خويلد بخمسة عشر عاماً، فقد تزوج وهو في الخامسة والعشرين من عمره وكانت له خير معين. وأنما جاءت الرسالة المحمدية في بدايتها لأصلاح قومه ولكنها أصبحت بعد ذلك لعموم الناس وذلك بعد الهجرة النبوية الشريفة الى المدينة. ولا ريب في أن محمد(ص) بعد تصميمه على القيام بهذه الدعوة ما كان يفكر به هو وضع الاساس (أو ما يسمى في عصرنا بالدستورأو القانون الاساسي) الذي تقوم عليه الدعوة، وهذا الاساس هو القرآن، والقرآن في اللغة يعني القراءة، أي أن الدعوة تقوم بكتاب يقرأ ويحفظ لا بشعر يروى وينشد[1]. وإذا صرفنا النظر عما في القرآن من قصص الانبياء وأخبار الاولين والشرائع، وجدناه يتكلم عن أمرين عليهما مدار الكلام دائماً وأبداً، أحدهما وحدة الآله وترك الشرك ونفي الأنداد، والثاني الحياة الاخرى وما يتعلق بها من البعث بعد الموت والجزاء والجنة وجهنم. فأن محمداً(ص) جعل هذين الامرين اساساً للدعوة، إذ كان يقول للناس آمنوا بالله وحده لا شريك له، فأن آمنتم فأنتم في الجنة، وإن لم تؤمنوا فأنتم في جهنم فإنكم مبعوثون بعد الموت لا محالة. ولم يفتكر فيما عدا ذلك في أول الامر بل تركه لما تجيء به الحادثات من البواعث والدواعي وذلك ما يسمونه بالمصطلح الديني بأسباب النزول. لقد كتب الشاعر المعروف معروف الرصافي بهذا الخصوص في كتابه عن الشخصية المحمدية ما يلي:" بعد وضع محمد الاساس في الصورة التي تقوم بها الدعوة، وبعبارة أخرى في الواسطة التي يؤدي بها الدعوة،ومعلوم أن الدعوة إنما تؤدي بالكلام ولكن بأي صورة من الصور الكلامية يصاغ ويسبك كلام الدعوة، أيجعل شعراً منظوماً أم نثراً مسجوعاً، أم ماذا؟ أن هذا هو أهم ما كان يفتكر فيه محمد في غار حراء. وهنا يتجلى لك دهاء محمد(ص) وما له من فطنة وذكاء. حيث لم يجعله شعراً يروى وينشد بل جعله قرآناً يقرأ ويحفظ. وسواء كان محمد يحسن قرض الشعر أم لا يحسنه، يبعد كل البعد عن دهائه وذكائه أن يجعل الكلام في الدعوة شعراً منظوماً، لأنه يعلم أن لو جعله شعراً منظوماً لما كان فيه إلا كأحد الشعراء الذين هم في زمانه أكثر من أن يُحصوا، ولما كان له من التأثير في نفوس القوم أكثر من أشعار المتألهين الذين رآهم وسمع شعرهم كزيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبي الصلت، وغيرهما. وكيف يجعله شعراً منظوماً وقد سمع كثيراً من شعر أمية بن أبي الصلت وفهم ما

---

(1) طه حسين" الفتنة الكبرى" ص 32 ج1، دار المعارف بمصر 1964.

فيه من العظات الدينية والصفات الآلهية، وما أنطوى عليه من قصص الأنبياء وأخبارهم حتى قال عنه لما سمع بعض شعره بعد النبوة أنه آمن شعره وكفر قبره. وهو مع ذلك قد علم أن شعر أمية هذا لم يقم له قائمة في نفوس العرب أكثر من شعر غيره من سائر الشعراء فلذلك قد فرّ فرارة أن تقوم الدعوة بالقرآن (والكلام هنا للشاعر الرصافي) وقد نجح كل النجاح إذ جاء بقرآن لا هو من الشعر المنظوم كشعر المتألهين ولا هو من الكلام المسجوع ككلام الكهان[1].

ومهما يكن من أمر فأن النتيجة أن أصبح هذا الكتاب مقدساً ولا يجوز المساس به أو مناقشة أو حتى قراءة غيره من الكتب. ومن هنا جاء الموروث التاريخي لهذه الامة والذي نحن بصدد دراسته والوقوف على كافة الاسباب التي أدت بنا الى ما نحن عليه من تخلف عن ركب الحضارة الحديثة. وسوف نجد في هذا البحث أصل تلك القاعدة التي بدأت منذ عصر فجر الاسلام ولحد الان والتي تنص بأنه من غير المحبذ قراءة أي كتاب دون القرآن، وقد ذهب البعض لأكثر من ذلك في إدعاء أن كل ما يحتاجه الانسان من علوم ومعارف حديثة إنما جاءت من القرآن أو أنها موجودة في القرآن ضمن تفاسير مختلفة وما على القارئ إلا أن يكون بارعاً في النحو ويفسر ما في الآيات من معاني خفية ومتعددة الوجوه تنسجم مع كل ما يحتاجه الانسان من معارف وعلوم سواء أكانت في الفقه أو في الامورالحياتية المختلفة وفي كل زمان. أن هذا المعتقد كان أحد الاسباب في ترسيخ الابتعاد عن التفكير والاكتشاف العلمي وعن تطوير حياتهم في إستخدام إسلوب البحث والتقصي للوصول الى نتائج تؤدي الى تطويرالمجتمع الى الأمام. وهكذا بدأت الهوة بين شعوب الغرب الذين إعتمدوا في حياتهم على فلسفات وأسس واقعية رصينة وبين العالم الاسلامي الذي لا يزال بحاجة الى التطوير والتقدم في المعارف الحديثة[2]. لقد كان وقع القرآن الكريم في قلوب الناس سواء أكان من العرب أو الاجانب امراً لا يوصف. وصحيح أنه أدى دوره المطلوب في إنتشار القيم والمبادئ الاسلامية الراسخة في كافة أرجاء العالم وكان سبباً في إزدهار الامبراطورية الاسلامية لعدة قرون، وكان هذا الابتعاد عن كل قراءة أخرى لكي لا يبتعد الناس عن تلك القيم والمبادئ. وفي الجانب الآخر حصلت إنتكاسة في المقدرة على الابداع الفكري والتقني من خلال ضعف القراءة والاطلاع على نتاجات فكرية أخرى ضمن نتاج الفكر البشري في بقية أرجاء المعمورة. وظهرت مدارس وعلماء متخصصون في تفسير القرآن أدت الى بروز مذاهب مختلفة وإجتهادات متنوعة محصورة فقط بما جاء في القرآن والسنة النبوية الشريفة. كما ظهرت فئة الباطنية التي تقول بأن الآيات القرآنية لها معنى ظاهر ومعنى باطن لا يفهمها إلا الأئمة (الإسماعيلية).

---

(1) معروف الرصافي/ الشخصية المحمدية/ ص 140، ج1.

(2) طه حسين في الأدب الجاهلي" ص 135.

2- تطور المعتقدات الدينية لدى العرب بعد الاسلام:-

لقد تطرقنا الى المعتقدات الدينية لدى بلاد الرافدين في الفصل الاول ثم بدأنا في الفصل الثاني نستعرض كيفية تبلور المعتقدات التوحيدية في الجزيرة العربية. ولا بد لنا هنا أن نذكر بعض التطورات التي جاء بها الاسلام في العقيدة الدينية السائدة لدى القوم في ذلك الحين. إذ كان الناس في عصر الجاهلية يعتقدون بوجود أرواح غير مرئية، منها طيبة ويستنجدونها ويرجون خيرها، ومنها خبيثة يخافونها ويتقون شرها، وهذه كانت قد إنتقلت إليهم من بلاد الرافدين والبلدان المجاورة لها والتي كانوا يعتقدون كما أسلفنا في الفصل الاول بوجود آلة خير وآلة شر وكانوا يشبهون لها رموزاً وأحجار ومنحوتات ليتبركوا بها ويلتمسوا منها الرحمة والشفقة كما كان يعرف بالاديان الوثنية. وكان العرب في الجاهلية يعتقدون بوجود الارواح غير المرئية ويسمون الطيبة منها بالملائكة ويسمون الخبيثة منها بالجن والشياطين. وهناك إشارة في القرآن الكريم تدل على ذلك. وقد تفرع من إعتقادهم بالكهانة، فكان لهم كهّان، وكان الكاهن يخبرهم بالمغيبات[1]، وكانوا يعتقدون أن لكل كاهن تابع من الجن يأتيه بالخبر من السماء. وكان إعتمادهم في كل أعمالهم وتصرفاتهم على ما يصدر من الكاهن من أفكار عن المستقبل في مسائل الزراعة والترحال ونزول المطر والزواج والطلاق... الخ. وربما ظلت آثار تلك الافكار الى يومنا هذا ولكن بنسبة ضئيلة جداً مقتصرة على الارياف والمناطق المتخلفة تعليمياً والتي تعرف بأخذ الخيرة. فلما قام محمد(ص) بدعوتهم الى الاسلام، رأى من الضروري لنجاح الدعوة أن يبطل الكهان ويجعل خبر السماء مقصوراً على الوحي الذي يأتيه به جبرائيل كيلا تتقبل العرب شيء إلا منه ولا تسمع إلا له. وإلا فمن الصعب أن يجتمع العرب كلهم على الوحي ما داموا يعتقدون بنظيره من الكهان. فمن الطرق المؤدية الى نجاح الدعوة أن تضمحل الكهانة ويضمحل الكاهن. ولذا أبطل الاسلام الكهانة ومن أقوال الرسول محمد(ص)" أن الكاهن والكهانة والمتكهن في النار[2]. ولأجل إبطال الكهانة أغلق الاسلام أبواب السماء في وجوه الشياطين، وملأها حرساً شديداً من الملائكة، وجعل الشهب المتساقطة في الجو رجوماً للشياطين ترُدهم عن إستراق السمع، وأخذ الاخبار السماوية كما هو مذكور في القرآن. ويعود السبب في إبطال الكهانة بهذا الوجه الذي لا ينطبق على الحقيقة فأن العرب كانوا يعتقدون بأن الجن التابعين للكهان كانوا يصعدون الى السماء ويسترقون الاخبار ويأتون بها للكهان، وكانوا يعتقدون أيضاً أن مجرد سماع الجن بكلمة واحدة فقط مما يقال في السماء

---

(1) محمد عابد الجابري" العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته" المركز الثقافي العربي ص 211 الدار البيضاء (1990).

(2) صحيح مسلم،" كتاب السلام"، باب تحريم الكهانة. جزء من السنة النبوية الشريفة.

وفي الاجتماعات الدائرة بين الملائكة الصالحين إنما تكفي لعمل الكثير من الاعمال التي يعجز البشر العادي من إنجازها مهما بلغت قدراته الذاتية. لقد تماشى معهم محمد(ص) في عقيدتهم وجاراهم في عقليتهم ولم يكذبهم وإن كان يعلم أنها خرافة، ولكن إبطالها بخرافة مثلها، ليكونوا الى القبول والتصديق أقرب. فأن العقلية التي تقبل تلك، لا تمتنع من قبول هذه أيضاً، بخلاف ما إذا سلك في إبطالها مسلك الحقيقة، كأن يقول لهم: أن عقيدتكم هذه باطلة لا ثبوت لها، وأنها كذب لا أصل له، فإنهم عندئذ ربما عاندوا وأصروا على العناد، وإذ يصعب عليهم لأن يتركوا عقيدتهم هذه لعقيدة من جنسها وإن كانت ضدها. ويدل على ذلك أنهم بعد إسلامهم صاروا كلهم يعتقدون أن الشهب (النيازك) أصبحت بعدما بُعث محمد، رجماً للشياطين يمنعهم من إستراق السمع، وبأن ذلك من دلائل نبوته ومن علائم صدق رسالته. ومما يجدر الاشارة اليه هو ان سقوط النيازك والشهب وكان كثير الحصول في الليل في ذلك العصر، وهذه حقيقة علمية أكدها العلماء في هذا العصر، حيث أثبتوا أن الفضاء كان ممتلئ بقطع وأحجار صغيرة منذ الانفجار الكوني الكبير، وأستمرت في السقوط على الارض بأعداد هائلة وهي مستمرة الى يومنا هذا ولكن بأعداد أقل[1]. وكشف العلماء في عصرنا أن النيازك عبارة عن كتل معدنية مختلفة الاحجام تلتهب نتيجة سرعتها لدى إقترابها من القشرة الارضية وتتأكسد لوجود الاوكسجين في الهواء لتسقط على الارض بعد إتمام التفاعل كحجر أسود من أكاسيد معدنية مختلفة. وقد جعل الأسلام من بعض الجن مؤمنين ومعتقدين بالدعوة الاسلامية. فلما رأى محمد(ص) العرب يعتقدون بالجن إعتقاداً شائعاً بينهم، وأراد أن يستغل إعتقادهم هذا للتفنن في أساليب الدعوة، فقص عليهم قصة إستماع الجن للقرآن وإيمانهم به. وهو لم يقصد بذلك إلا دعوة قومه الى الايمان بما آمن به الجن، فكأنه يقول لهم: هؤلاء الجن الذين يأتون كهانهم بخبر السماء، والذين تعوذون بهم في أسفاركم، قد أستمعوا القرآن وآمنوا به، وبأنه كتاب أنزل من بعد موسى، يهدي الى الرشد، فما بالكم لا تؤمنون به ولا تنقادون إليه. وهذا إسلوب ناجح من الأساليب التي سلكها الاسلام لنشر الدعوة. وقد جعل قصة إستماع الجن للقرآن مؤيدة لما جاء في الآيات النازلة في إبطال الكهانة حيث ذكر فيها ما قاله الجن لقومهم حين رجعوا إليهم بعد إستماع القرآن، وذلك بقولهم في سورة الجن: (وأنّا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حرساً شديداً وشُهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقعد للسمع فمن يستمع الأن يجد لهُ شهاباً رَصَداً)[2].

إن تطور العقيدة الدينية في كل مجتمع، لابد وان تأتي بطريقة تدريجية وسهلة ولا توجد قوة أو أديان مهما بلغت من قدرات، أن تمسح كل ما موجود من إرث قديم

---

(1) برنامج تلفزيوني علمي في قناة *BBC* عام 2004.

(2) سورة الجن الآيتان: 8-9.

مطبوع في عقول البشر وراسخ منذ الآف السنين، لتبني عليه معتقدات وأفكار جديدة مخالفة كلياً لما كانوا عليه في السابق. إن عقل الانسان ليس مثل أقراص (كاست) الحاسب الالكتروني القابل للمسح والاملاء في أي وقت نشاء كما يحصل في يومنا هذا. إن ما يملئ من افكار في العقل البشري قد يحتاج لأجيال و عقود وأحياناً قرون عديدة لكي يستطيع أن يجد المبرر والظروف الملائمة لتبديلها، خاصة عندما تكون تلك الافكار ذات تماس بمصالح إقتصادية تمسه في معيشته بالصميم وترتبط بطبيعة البيئة التي يعيشها. وهكذا نجد أن الاسلام قد جاء بأفكار جديدة في التوحيد المطلق وفي البعث باليوم الآخر وفي الجنة والنار... الخ، إلا أنه أبقى على العديد من المعتقدات الاخرى التي كانت سائدة قبل ظهور الاسلام، كما تمسك بالعديد من الطقوس الدينية التي كانت تمارس قديماً من قبل السومريين و البابليين في بلاد الرافدين[1]، مع إدخال بعض التعديلات في الاداء ومواقيت الصلاة والصوم والزكاة والحج، بالاضافة الى مراسيم الاعياد ودفن الموتى والقبور وغيرها. أما بالنسبة لنحر الذبائح فقد تحولت من نحرها لصالح الآلهة الى الذبح لوجه الله في المناسبات والاعياد، وعن تعدد الزوجات فقد كانت العادة أن يتزوج العرب العديد من النساء دون تحديد[2]، إلا أنها حُددت باربع أو ما ملكت أيمانهم. وهذا التطور كبير بالنسبة لذلك العصر التي كانت المرأة تعتبر فيه متعة للرجال فقط. وأهم من كل هذا أنه حَرَّمَ عادة وأد البنات التي كانت سائدة في الجزيرة العربية في الجاهلية وهناك العديد من القيم الاخلاقية الرائعة والاحكام والشرائع في كافة نواحي الحياة والمعمول بها الى يومنا هذا، وقسم منها متشابه مع ما جاء به الانبياء الأولين من بني إسرائيل وكانت تمارس تعاليمهم من قبل اليهود في الجزيرة كالختان وتحريم أكل الخنزير والميتة والدم والخمر وغيرها. أما عن قطع يد السارق ورجم الزانية والزاني والقصاص بالقصاص أي العين بالعين والسن بالسن فقد سنت منذ أيام حمورابي لدى البابليين أي قبل أكثر من الفي عام من ظهور الاسلام. وأتبعها اليهود الاوائل، وتم تغييرها في زمن متقدم من قبل اليهود ثم المسيحيين، إلا أن الاسلام أعاد العمل بها من جديد في عصر حياة النبي محمد(ص)، بينما أبطلت في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (كقطع يد السارق) لزوال أسباب النزول. أما بالنسبة للحجاب المستخدم للنساء فكانت عادة آشورية كما أسلفنا في الفصل الاول من أجل التمييز بين نساء الاحرار ونساء العبيد، وأستمر العرب في ممارستها حتى بعد الاسلام ولا تزال عادة مميزة لدى المسلمين في أرجاء العالم كافة، وقد بالغ المسلمون المتزمتون في تطبيقها للنساء

(1) عبد الوهاب حميد رشيد" حضارة وادي الرافدين" ص 93.
(2) جواد علي، "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام "ج 5 ص 548.

المسلمات وأصبحت الصفة المميزة للمرأة المسلمة عن غيرها من النساء في عصرنا الحاضر.

3-إقتران الدعوة الاسلامية بالسيف:-

لعل من أهم المواضيع الحساسة التي لابد من مناقشتها في هذا الفصل هو إقتران الدعوة الاسلامية بالسيف والتي تميزت بها أكثر من غيرها من الاديان السماوية المعروفة، وذلك نظراً لأن الدعوة الاسلامية لم تقتصر على إتباع دين سماوي فحسب بل كانت من اجل تأسيس دولة او إمبراطورية عظمى تحكم العالم[1]. لقد كان محمد في مكة هو وأصحابه لا قوة لهم على خصومهم من قريش، ولذا كان يدعو الناس الى الاسلام بالوعظ والانذار عن طريق المسالمة كما جاء في القرآن الكريم: (أدعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن...)[2] فهذه الآية كانت شعاراً للدعوة في مكة، ولكنه لما هاجر الى المدينة بعد بيعة العقبة الكبرى قويت شوكته، وإشتدّ جناحهُ، بالانصار الذين بايعوه والمهاجرين الذين تبعوه، وعندئذٍ قرن دعوته بالسيف، ليقاتل خصوم دعوته من الكافرين، وتدرج قرار القتال تدرجاً منطبقاً على مقدار ما عنده من قوة حربية، فأول آية نزلت في القتال بالمدينة هي (أذن للذين يُقتَلونَ بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير،، الذين أخرجوا من ديٰرهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله...)[3]. فهذه الآية تضمنت أمرين: أحدهما الاذن بالقتال أي جعله مباحاً لهم من غير أن يفرض عليهم فرضاً، والثاني أن إذن القتال إنما هو بسبب أنهم ظُلِموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق. فسياق الآية يدل على أن المأذون لهم بالقتال هم المهاجرين لا الأنصار لأنهم لم يُظلموا ولم يُخرَجوا من ديارهم، على أنهم لا حاجة للإذن بالقتال للأنصار، لأنهم يقاتلون بحكم البيعة التي بايعوا بها محمداً على ان يحموه وينصروه. ويجوز أن يكون الاذن عاماً للمهاجرين والانصار وإن كان سببه خاصاً بالمهاجرين. كانت هذه خطوة أولى في أمر القتال. ثم تقدم فيه خطوة أخرى فأصبح فرضاً على المسلمين، ولكن لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم إذ قال: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم...)[4] وهذه هي الحرب الدفاعية. وأستمر الحال على ذلك الى السنة الثامنة للهجرة. حتى حصل الرسول من القوة والشوكة ما أستطاع به أن يعلن الحرب الهجومية العامة، بأن فرض على المسلمين قتال المشركين كافة، من قاتلهم ومن لم يقاتلهم، وبذلك نزلت سورة براءة التي نبذ فيها الى المشركين عهودهم وبرئَ منهم وأمهلهم أربعة أشهر، وهي الاشهر الحرم،

---

(1) معروف الرصافي" الشخصية المحمدية"، 305.
(2) سورة النحل الآية: 125.
(3) سورة الحج الآية: 39-40.
(4) سورة البقرة الآية: 190.

وأعلمهم أنه وإياهم في حالة حرب مستمرة فيما عدا هذه الاشهر الاربعة ويجدر التذكير هنا الى أن تلك الاشهر الحرم كان معمولٌ بها لدى العرب قبل الاسلام بقرون. وهكذا تم التدرج للقتال بأربعة أحكام: (**الاول** أنه محرم وذلك في أول الأمر حين كان محمد بمكة، و**الثاني** أنه مأذون به أي مباح وذلك في أول الهجرة في المدينة و**الثالث** أنه مأمور به أي فرض على المسلمين لمن بدأهم بالقتال، و**الرابع** أنه مأمور به أي فرض على المسلمين لجميع المشركين وإن لم يبدأوهم بالقتال في غير الاشهر الحرم) [1] وذلك في السنة الثامنة أو التاسعة للهجرة، وقد زاد بعضهم حكماً خامساً وهو: أنه مأمور به أي فرض على المسلمين لجميع المشركين مطلقاً، أي حتى في الاشهر الحرم كما ذكره الحلبي في سيرته نقلاً عن الامام الاسنوي [2]. وهناك في الحديث النبوي الشريف عن صحيح البخاري:(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، وفي لفظ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله، فإذا قالوا عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقهم وحسابهم على الله) [3]. هنا لابد لنا من تعليق حول مدى إتخاذ تلك الآيات والاحاديث النبوية من قبل أشخاص متعصبين جداً أمثال أسامة بن لادن وأيمن الضواهري من الذين يسمون أنفسهم بالقاعدة من حجج وذرائع في غسل عقول البسطاء من الناس وجرهم الى الاعمال الشيطانية التي يقوموا بها من قتل وتدمير للأبرياء، متناسين أولاً وقبل كل شيء الاختلاف في العصر، فكل ما كان في زمان النبي محمد (ص) في القرن السابع الميلادي قد تغير كلياً في عصرنا هذا، بما في ذلك القيم والمفاهيم والاعراف والتقاليد والبيئة التي نعيش فيها. فقد كان القتال في ذلك العصر يشكل جزءاً من كيان الفرد، وكما أسلفنا في فصول سابقة فإن الحروب التي كانت تبدأ من أسباب تافهة وتستمر لتحصد العديد من البشر، إنما كانت جزءاً من صراع البقاء للاقوى في تلك البيئة الصحراوية القليلة الموارد والسبل. لقد تناسوا طريقة الدعوة المحمدية في بدايتها، أيام كان في مكة والى أن تعاضمت وأصبحت بمقدورها تحقيق الانتشار والنصر المؤكد بإستخدام السيف، إذ أن المقابل كان يشكل قوة ضعيفة يمكن إختراقها بسهولة، بينما أصبح أصحاب منظمة القاعدة وكأنهم يصارعون الجبال بقوة هزيلة آيلة للسقوط والخذلان حتماً بسبب بطلانها أصلاً. ومهما كانت أسباب القتال ومبرراته فأن على المرء أن يقدر قوة المقابل ليتصرف بحكمة قبل أن يقدم على أي عمل. فلا يمكن لجماعة ضئيلة أن تحارب العالم بأسره وتحقق النصر كما حقق محمد نصراً

(1) ابن القيم الجوزي" زاد المعاد- الفصل الثاني، غزوات الرسول/ تحقيق شعيب وعبد القادر الارناووط مؤسسة الرسالة- بيروت.
(2) السيرة الحلبية، 2 مغازيه ص 124.
(3) صحيح البخاري،" كتاب الايمان/ رقم 20/ الجهاد والسير رقم 2727، صحيح مسلم، كتاب الايمان رقم 3103، عن معروف الرصافي/ الشخصية المحمدية/ 285.

على المشركين قبل ألف وأربعمائة عام. نعود لمناقشة مقاومة محمد لكفار قريش لكي يتضح لنا مقدار الاحمال الثقيلة التي ورثناها من الاسلاف:

إن محمد (ص) لما قدم المدينة لم يكن له من العرب أعداء يقاومونه غير كفار قريش ولما كانت قريش أهل تجارة، وكانت قوافلهم متتابعة بين مكة والشام ذهاباً وإياباً، وكانت المدينة (يثرب) على طريقهم، لذا كان اول شيء ينبغي فعله للعدو هو أن يقطع عليهم طرق المواصلات، فقد أخذ محمد(ص) يترصد قوافل قريش، فكلما سمع بعير لهم قادمة من مكة أو راجعة من الشام خرج إليها غازياً بنفسه أو أرسل إليها سرية من جيشه. ولم يمر عليه بعد مقدمه المدينة سبعة أشهر إلا وأرسل سرية بقيادة عمه" حمزة" ليعترض قافلة قريش جاءت من الشام تريد مكة[1]، وفي الشهر الثامن للهجرة أرسل سريته بقيادة عبيدة بن الحارث ليعترض قافلة لقريش أيضاً[2] وبعضهم يُقدم سرية عبيدة على سرية حمزة، وهكذا أخذت السرايا تتوالى، إلا أن محمداً لم يخرج بنفسه إلا في أوائل السنة الثانية للهجرة وأول غزوة غزاها كانت غزوة ودان[3] (قرية بين مكة والمدينة) وقد بلغت غزواته التي خرج فيها بنفسه سبعاً وعشرين غزوة[4]*، كما بلغت سراياه سبعاً وأربعين سرية. اما جيشه فقد كان مؤلف من سبعون رجلاً في غزوة ودان بينما إزداد تدريجياً الى أن وصل الى إثنا عشر ألف فارس في السنة التاسعة للهجرة في غزوة تبوك التي كان يريد بها الروم[5]. إن الدعوة عندما إقترنت بالسيف، أخذ عدد الداخلين في الاسلام يزداد مطرداً بإزدياد سيوف الدعوة، فكان كلما قويت شوكته زاد المسلمون زيادة مناسبة لها وكثُرَ المقاتلون في جيش الدعوة كثرة تتناسب وقوتها. ومن هنا نستطيع الاستنتاج من أن الذين دخلوا الاسلام في المدينة في فترة حياة محمد (ص) كان أكثرهم يدخلون فيه خوفاً من السيف، وإن الذين إعتنقوه كمبدأ ذي غاية شريفة قليلون. وهذا ما يؤيده حصول حروب الردة بعد وفاة الرسول، كما سيأتي الحديث عنه لاحقاً. بالاضافة لذلك فكان العرب يهابون القوة ويعتبرون ان الحق مع القوي والعدل مع القوي[6] مهما كانت دعوته، لذلك فقد أنتشر الاسلام بسرعة من خلال إستخدام تلك القوة. أما عن طبيعة الحروب التي خاضها المسلمون في عصر النبي بعد الهجرة الى المدينة فأن الحرب الدفاعية لم تقع إلا مرتين، الاولى في واقعة أحد، والثانية في حرب الخندق، وفي ما عدا ذلك كانت الحروب كلها هجومية، أو شبه هجومية. وتكون شبه الهجومية منها عندما يأتي خبر أن جمعاً قد تجمعوا لحرب المسلمين، فيذهب الجيش ولم يجد لهم جمعاً

---

(1) سيرة ابن هشام 595/2، السيرة الحلبية 152/3.
(2) سيرة ابن هشام 591/2، السيرة الحلبية 152/3.
(3) السيرة الحلبية 135/2 سيرة ابن هشام 591/2.
* هناك العديد من المصادر والكتب المخصصة بعنوان غزوات الرسول يمكن الرجوع إليها لمزيد من التفصيل. هذا وكان مجموع الغزوات في عصر الرسول محمد (ص) خمساً وستون غزوة. (ول ديورانت-قصة الحضارة).
(5) السيرة الحلبية 71/3، 129/3-151 (غزوة تبوك).
(6) جواد علي (المصدر السابق) ج5 ص 485.

فيضربهم ويرجع بالغنيمة، كما وقع ذلك في حرب بني أسد[1] أي أنهم لم يبدأو القتال فعلاً، وإنما بلغهم أنهم يريدون قتاله. ويمكن تقسيم هذه الحروب الى قسمين. فالقسم الاول هي حروب إستئصالية كالحروب التي وقعت مع يهود المدينة والتي كانت نتيجتها إستئصال اليهود بالمدينة كحرب بني قريظة، وأما أن تكون بالجلاء كحرب بني النضير وبني قينقاع* وهم من اليهود أيضاً. والقسم الثاني حروب إغتنامية أي لم يكن لها نتيجة سوى الغنيمة[2]، وأكثر الحروب التي وقعت في عهد الرسول كانت من هذا القبيل. فأن السرايا التي كان يرسلها لتعترض قوافل قريش لم تكن إلا للاغتنام. وكذلك حرب بني المصطلق، حتى أن إحدى السرايا إغتنمت مرة أموال مسلمين، وهي سرية زيد بن حارثة الى جذام[3]. وعلينا أن نذكر أن طبيعة الحروب في ذلك الزمان تختلف عن طبيعتها في زماننا هذا. فقد كان الاجهاز على الجريح، وقتل الاسير، وتثبيت القوم وهم نيام في منازلهم مع نسائهم وزراديهم من الامور المتعارف عليها، والتي لا يستنكرها المحاربون. وعلى الرغم من أن الحروب في زماننا لا تخلو من وقائع وفجائع مستنكرة، إلا أننا لسنا مع الحق عندما نطلب من الحروب في العصور السالفة أن يكون المتحاربين كما هم في عصرنا هذا. لقد كان محمد(ص) إذا أرسل جيشاً الى قوم أمرهم أولاً: أن يدعوهم الى الاسلام، فإن أجابوا فبها، وإلا قاتلوهم. وكان يقول لهم المقولة المشهورة:("أصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً"). وكذلك يقول:(" إغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم ولا تقتلوا إمرأة ولا صغير ولا شيخاً فانياً ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناءاً")[4]. وعلى الرغم من ذلك فقد تمت مخالفة ذلك أحياناً، فلما حاصر بني النضير أمر بقطع نخيلهم وتحريقها، وقام ابا ليلى المازني وعبدالله بن سلام بذلك. فكان أبو ليلى يقطع العجوة وعبدالله يقطع اللبن. وكانت العجوة خير أموال بني النضير وهي أجود أنواع التمور على الاطلاق[5]. وفي الكشاف[6] أن رسول الله سأل من كان يقطع العجوة عن قطعها فقال: قطعتها غيظاً للكفار، وسأل الآخر عن تركها فقال: تركتها لرسول الله. وقد حرق بعض نخيلها أيضاً. وقد نزلت من السماء آية قرآنية:(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على إصولها فبإذن الله)[7]. والخطاب في الآية للمسلمين أي أن الله هو الذي أذن لكم بقطعها. وكذلك فعل في غزوة خيبر لما حاصر فيها حصون النطاة، فأنه أمر بقطع النخيل التي هي لأهل حصون النطاة، فوقع المسلمون في قطعها حتى

(1) السيرة الحلبية 164/3.

* بني نضير وبني قينقاع وبني المصطلق هم من أشهر القبائل العربية اليهودية التي كانت تقطن في المدينة المنورة (يثرب).

(2) محمد عابد الجابري- المصدر السابق نفسه ص 116.

(3) السيرة الحلبية 179/3.

(4) حديث نبوي متواتر/ عن صحيح البخاري،" كتاب المغازي".

(5) السيرة الحلبية، 265/2.

(6) الكشاف، تفسير الآية الخامسة من سورة الحشر/ الزمخشري جار الله/ الكشاف عن خصائص التنزيل.

(7) سورة الحشر، الآية 5.

قطعوا أربعمائة نخلة، ثم نهاهم عن القطع فما قطع من نخيل خيبر غيرها[1]. ولا شك ان نهيه عن قتل النساء والصبيان إنما كان نهياً عن تعمد قتلهم، وإلا فأنه لم يؤاخذ أصحابه على ما كانوا يصيبون من النساء والذراري في البيات. لأن إجتناب ذلك في البيات غير ممكن. فأن جيوشه كانت في أكثر حملاتها تغير على العدو ليلاً وتأتيه بياتاً. ومعلوم أن البيات إسلوب من أساليب الحرب المعمول به قديماً وحديثاً، ولكن لا يجوز أن يبيت إلا جيشاً مثله، فأما بيات قوم نيام في منازلهم مع نسائهم وأطفالهم فغير مقبول في العصر الحاضر، إلا أن ذلك كان مألوفاً عند القبائل البدوية، فكان المسلمون في حروبهم الدينية على عهد محمد (ص) يفعلون بعدوهم كما يفعل عدوهم بهم أيضاً. وهناك نماذج من الاعمال ذات الطابع القاسي وغير المقبول في عرفنا الحاضر. نورد هنا نماذج منها لكي نلقي الضوء على طبيعة الحياة والتقاليد والعادات السائدة في ذلك العصر، بهدف تبلور فكرة عن الأرث التاريخي المخزون في عقولنا من الماضي وكما جاءت في السيرة الحلبية وسيرة ابن هشام عن عمليات إغتيال زعماء اليهود في يثرب وخيبر وغيرهم وكما يلي:

الاولى: عن قصة أم قرفة وهي إمرأة إسمها فاطمة بنت ربيعة بن بدر الغزاوي، وقرفة اسم أحد أولادها. وخلاصة قصتها أن رسول الله ارسل زيد بن حارثة في جيش الى بني فزارة فخرجوا إليهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى أحاطوا بهم فقتلوهم. وأسرت أم قرفة هي وإبنة لها ذات حسن وجمال. فأمر زيد أن تقتل أم قرفة لأنها كانت تسب النبي. وكان المأمور بقتلها قيس بن المحسر، فربط برجلها حبلين ثم ربطها الى بعيرين بإتجاهين مختلفين وزجرهما، وقيل فرسين فركضا فشقاها نصفين. قال الحلبي في سيرته وأم قرفة هذه كانت في شرف من قومها، وكان يعلق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجلاً كلهم لها محرم. وكان لها إثنا عشر ولداً، ومن ثم كانت العرب تضرب بها المثل في العزة والمنعة فتقول: لو كانت أعز من أم قرفة، وتقول أمنع من أم قرفة، قال: وقد قتل أحد أولادها في إحدى غزوات الرسول. وبقية أولادها قتلوا في خلافة أبو بكر الصديق مع أهل الردة[2].

الثانية: قصة مقتل عصماء بنت مروان اليهودية. فإنها كانت تسب الاسلام وتؤذي النبي في شعر لها وتحرض عليه. فبعث رسول الله عمير بن عدي الخطمي ليقتلها. فجاءها عمير في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام وعلى صدرها صبي ترضعه، فمسكها بيده ونحى الصبي عن صدرها ووضع السيف على صدرها وتحامل عليه حتى نفذه من ظهرها. ثم صلى الصبح مع النبي في المدينة. فقال له رسول الله أقتلت إبنة مروان؟، قال نعم فهل على ذلك من شيء، قال لا ينطح فيها عنزان[3] أي الامر في قتلها هين ولا يعارض فيه معارض.

(1) السيرة الحلبية: 34/3.
(2) السيرة الحلبية: 180/3. (المصدر نفسه).
(3) سيرة ابن هشام، 637/4، السيرة الحلبية، 157/3.

إن محمد كان يريد أن يكون مقدساً مطاعاً عند أتباعه المسلمين لأن الغاية التي ينزع إليها لا تنال إلا بأن يقدسه أتباعه ويطيعوه طاعة عمياء. وكان يتحمل كل الاذى في سبيل دعوته إلا المسبه بما يخرج به عن القداسة ويجعله كآحاد الناس. فأن ذلك كان يشق عليه مشقة عظيمة، فلم يكن جزاء من سبه إلا القتل[1]. وأعتقد أن ذلك التشريع معمول به لحد الآن لدى العديد من المناطق المتعصبة دينياً. والمسبه في واقع الامر ليست من الجنايات التي تستوجب القتل في كافة الشرائع لأنها لا تتضمن سوى هتك حرمة المسبوب وهناك نص قرآني يقول (**...والحرمات قصاص...**)[2]. فهتك الحرمة لا يكون جزاؤه سوى هتك الحرمة أيضاً لا القتل.

ثالثاً: قتل أبي عفك اليهودي، وقتل كعب بن الأشرف اليهودي أيضاً. أما كعب فكان عدواً لمحمد وكان شاعراً يهجو محمداً ويحرض عليه، فقال محمد من لنا بأبن الأشرف فقد أستعلن بعداوتنا وهجائنا، فقال له محمد بن مسلمة الاوسي أنا لك به يا رسول الله هو خالي وأنا أقتله، ثم جمع على قتله هو وأربعة من الاوس هم عباد بن بشر والحرث بن عيسى والحرث بن أوس وأبو نائلة، وكان أبو نائلة هذا أخاً لكعب بن الاشرف بالرضاعة. وكان محمد بن مسلمة قد مكثَ ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، ألا تقوم به نفسه خوفاً من عدم وفائه بما قال، والظاهر انه بقي هذه المدة يفكر في مكيدة يتوصل بها الى قتل كعب فلم يجد إلا المخادعة ثم قرر أن يذكر الامر لرسول الله فقال: يارسول الله لابد لنا أن نقول أي نذكر ما نتوصل به من الحيلة، فقال له رسول الله قولوا ما بدا لكم فأنتم في حلٍ من ذل، فأباح لهم الكذب لأنه من خُدع الحرب. فتقدموا الى كعب وكان يقول الشعر فتحدثَ معه ساعة وتناشدا الشعر وقال له: أني قد جئتك بحاجة أريد أن أنكرها لك فأكتم عني فقال له إفعل قال كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء في بلاء(والمقصود هنا رسول الله) عادتنا به العرب، ورمتنا بقوس واحدة، فقطعت عنّا السبل حتى جاع العيال وجهدت الأنفس، وسألنا الصدقة ونحن لا نجد ما نأكل وأني أريد أن تبيعني وأصحابي طعاماً ونرهنك ونوثق لك، فقال لهم وماذا ترهنوني؟ قالوا نرهنك السلاح، وأرادوا بذلك أن لا ينكر كعب السلاح إذا جاءوا به لقتله، وجاءوا الى رسول الله وخرجوا من عنده متجهين الى كعب، فخرج معهم مشياً الى بقيع الفرقد، ثم وجههم. وقال إنطلقوا على اسم الله، والله معكم، ورجع رسول الله الى بيته، وأمر عليهم محمد بن مسلمة، وكانت تلك الليلة مقمرة فأقبلوا الى حصن كعب، فهتف به أبو نائلة، وكان كعب قريب عهدٍ بعرس، فوثب في ملحفته، فأخذت

(1) معروف الرصافي/ الشخصية المحمدية/ 314.
(2) سورة البقرة، الآية 194.

إمرأته بناحيتها، وقالت إنك إمرؤ محارب، وأن أصحاب الحرب لا ينزلون في مثل هذه الساعة، فقال لها، أنه أبو نائلة لو وجدني نائماً لا يوقظني، فقالت والله أني أعرف في صوته الشر، وروي البخاري قالت له إمرأته أين تخرج هذه الساعة، فإني أسمع صوتاً يقطر منه الدم[1]. قال هو إبن أختي محمد بن مسلمة وأبو نائلة، ان الكريم لو دُعي الى طعنه بليلٍ لأجاب. فنزل عليهم وبدأوا يتماشوا، ثم أن أبانائلة وضع يده على رأس كعب ثم شم يده وقال: ما رأيت طيباً أعطر من هذا الطيب، فقال كعب وكيف وعندي أعطر نساء العرب، وأجمل نساءِ العرب، ثم مشوا ساعة ثم عاد أبو نائلة لوضع يده على رأس كعب وأستمسك به، وقال لأصحابه إضربوا عدوالله، فضربوه فأختلفت عليهم أسيافهم فلم تغن شيئاً، إذ وقع بعض سيوفهم على بعضٍ ولصق كعب بأبي نائلة وصاح صيحة لم يبق حصن إلا وعليه نار، قال محمد بن مسلمة فوضعت سيفي في ثنيته ثم تحاملت عليه حتى بلغ عانته فوقع، ولما صاح كعب تلك الصيحة صاحت إمرأته ياآل قريضة والنضير مرتين فخرجت اليهود فأخذوا على غير طريق الصحابة فقاتلوهم، قال محمد بن مسلمة وأصيب الحرث بن أوس من بعض أسيافنا في رجله ورأسه ونزف الدم. فتخلف عنا وجاءوا رسول الله آخر الليل وهو قائم يصلي، فسلما عليه وخرج إليهم وأخبروه بقتل عدوهم، وفي رواية أنهم حزوا رأس كعب، وحملوا ذلك الرأس وخرجوا يشتدون، فلما بلغوا بقيع الفرقد كبروا، وقد قام رسول الله يصلي تلك الليلة، فلما سمع تكبيرهم بالبقيع كبّر، وعرف أنهم قتلوا عدوالله وخرج الى باب المسجد فجاؤا ووجدوا رسول الله واقفاً على باب المسجد. فقال لهم أفلحت الوجوه، قالوا أفلح وجهك يا رسول الله، ورموا برأسه بين يديه، فحمد الله على قتله[2]. والذي جرى في قتل كعب بن الاشرف جرى مثله أيضاً في قتل أبي رافع بن سلام بن أبي الحقيق كبار يهود خيبر، وأسير بن رزام اليهودي في خيبر، وقد بعث رسول الله عبدالله بن أنس لقتل سفيان بن خالد الهذلي ثم الليحاني. أما عن قتل أبي رافع سلم بن أبي الحقيق، فقصته هذه غريبة في وجهتين:

الوجه الاول: أن الذين قتلوا أبا رافع، وهم نفر من الخزرج لم ينتدبهم النبي لقتله كما إنتدب رجالاً من الاوس لقتل كعب بن الاشرف، وإنما هم تبرعوا بقتله لينافسوا الاوس الذين قتلوا كعب ويتقربوا الى رسول الله زلفى، لأن الاوس والخزرج كانا يتنافسان فيما يقرب الى الله

(1) صحيح البخاري، "كتاب المغازي"، الحديث رقم: 373.
(2) سيرة ابن هشام، 55/3-57، السيرة الحلبية 160/3-161، تاريخ الطبري 561/2-265.

ورسوله فلا تفعل الاوس شيئاً من ذلك إلا وفعلت الخزرج نظيره، وبالعكس، فلما رأت الخزرج أن الاوس قتلوا كعب وتقربوا بقتله الى الرسول قالوا والله لا يذهبون بهذا فضلاً علينا في الاسلام، وأخذوا يتذمرون من شابه كعب بن الاشرف في العداوة لرسول الله ليقتلوه، فذكروا أبا رافع، وأنتدب لقتله خمسة من الخزرج هو عبدالله بن عتيك و عبدالله بن أنس وأبو قتادة والاسود بن خزاعي ومسعود بن سنان الاسلمي، فجاءوا الى رسول الله واستأذنوه في ذلك، فأذن لهم وأمرهم أن لا يقتلوا وليداً ولا إمرأة[1].

والوجه الثاني: هو أن ما فعله هؤلاء الذين تبرعوا بقتل أبي رافع لمجرد منافسة الاوس كان أشبه شيء بفعل اللصوص، ونورده هنا لكي نلقي الضوء على ما كان يجري من سلوك وعادات في تلك الفترة الحساسة من تاريخنا الاسلامي عموماً. ويا لها من غرابة تدعوا الى الاستغراب والدهشة بالنسبة لسامع في هذا العصر ولكنها على ما يبدو كانت من الامور المعتادة بلا إستغراب وكما يلي:" خرجوا الى خيبر فلما أتوا تسوروا دار أبي رافع ليلاً فلم يدعوا بيتاً في الدار إلا وأغلقوه على أهله، وكان أبو رافع في علّية لها درجة، أي سلّم من الخشب يُصعد عليه الى تلك العلية، فطلعوا في تلك الدرجة حتى قاموا على باب ذلك المرتفع، فتقدم عبدالله بن عتيك لأنه كان يتكلم بلسان اليهود، فأستفتح أي طلب فتح الباب وقال: جئت أبارافع بهدية، ففتحت له إمرأته وقالت: ذاكم صاحبكم فأدخلوا عليه، فلما دخلوا أغلقوا عليهم وعليه باب الحجرة، ووجدوه وهو على فراشه وما دلهم عليه في الظلمة إلا بياضه، فأبتدروه بأسيافهم، ووضع عبدالله بن أنس سيفه في بطنه وتحامل عليه حتى أنفذه وهو يقول: قطني قطني، ويعني يكفيني يكفيني، وعند ذلك صاحت المرأة مما جعلت الرجل يرفع عليها سيفه إلا أنة تذكر نهي رسول الله في قتل المرأة فكف يده عنها، وخرجوا من عنده وكان عبدالله بن عتيك سيء البصر، فوقع من السلّم فوثبت رجله وجرحت، وقال بعضهم لبعض كيف نعلم أن عدو الله مات؟ فقال أحدهم أنا أذهب فأنظر لكم، فأنطلق حتى دخل في الناس، وقال وجدت إمرأته تنظر في وجهه وفي يدها مصباح ورجال يهود حوله وهي تحدثهم تقول أما والله لقد سمعت صوت إبن عتيك ثم أكذبت نفسي ثم أقبلت تنظر في

---

(1) السيرة الحلبية: 3/161-163، سيرة أحمد دحلان، 2/153-156.

وجهي، ثم قالت فاضت وآله يهود أي خرجت روحه وقال فما سمعت من كلمة كانت ألذُ الى نفسي منها. ثم جئت وأخبرت أصحابي وقدمنا الى رسول الله، أن قتل أبو رافع في بيته وعلى فراشه ومع إمرأته وتسور الدار عليه ليلاً وهو غافل لا يعلم بوجود عدو يريد قتله، فهذا شيء لا فرق بينه وبين ما تفعله اللصوص، سوى أن هؤلاء فعلوا ما فعلوا للمصلحة العامة بينما اللصوص لمصلحتهم الخاصة، والمصلحة العامة هذه تصب في نصرة الاسلام وإعلاء كلمته والمتمثلة بإعلاء الحق والتوحيد.
إن هؤلاء النفر الذين قتلوا أبو رافع كانوا في منافسة مع الاوس والتزلف لمحمد، إلا أن محمد كان يريد في ذلك المصلحة العامة، وبالتالي يكون التزلف إليه بهذه الطريقة يصب في مصلحة المسلمين العامة ونشر الدعوة الاسلامية، فإن شعار الغاية تبرر الوسيلة تنطبق على ذلك تماماً ويبرر فقهاء الدين في وصف الاغتيالات في العهد النبوي بأنها عبارة عن أمر شرعي بتنفيذ عملية إعدام صدرت بحقهم[1]. أما إذا أردنا أن نرى ما فعله خالد بن الوليد لمّا أرسله رسول الله الى بني جذيمة بعد فتح مكة مباشر فانه لم يأمره بقتالهم، وكانوا قد أسلموا، إلا أن النبي لم يعلم بإسلامهم فأرسله إليهم مع ثلثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والانصار ومن بني سليم. وكان بين بني جذيمة وبين بني سليم ذحول، لأن بني جذيمة كانوا قد قتلوا منهم مالك بن الشريد وأخويه في موطن واحد. وقد فعل الكثير من المجازر التي لا مجال لوصفها هنا كانت بحجة أن الامر الصادر أو البلاغ القادم إليه من أحد الأفراد القادمين من الرسول محمد(ص) قد نقل إليه هذا الخبر خطأ حيث كان القصد بأن لا يُقتل فرد من قريش بينما وصله الخبر بقتل كل من تلاقيه. أن الاعمال التي قام بها خالد بن الوليد لا يمكن وصفها هنا ولكن القولَ بأن خالد قد قال به رسول الله بأنه سيف الله المسلول.
ولنترك كل هذه التفاصيل ونأتي بقصة مقتل أبي جهل يوم بدر لِما لها من دلالات فلسفية مفيدة في سياق بحثنا هذا. ففي السيرة الحلبية: عن معاذ بن عمرو بن الجموح قال: رأيت أبا جهل وقد أحاطوا به وهم يقولون: أبو الحكم (أي أبو جهل) لا يخلص إليه. قال: فلما سمعها عمدت نحوه وحملت عليه، فضربته ضربة

---

(1) هادي العلوي" الاغتيال السياسي في الإسلام دار المدى للثقافة والنشر الطبعة الرابعة (2004) ص 27.

أطنت قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حتى طاحت كما بالنواة تطيح من تحت مرضخه النوى، فضربني إبنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جسمي، وأجهضني القتال عنه (أي شغلني وأبعدني) فلقد قاتلت عامه يومي لأستحسها. فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت عليها حتى طرحتها. وبعدما وقع أبو جهل هكذا عقيراً مر به معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق من الحياة. ثم جاء عبدالله بن مسعود[1]. فصار ضبعاً لأبي جهل، لأن أبا جهل كان على حافة الموت بعدما أثخنه معوذ، ولكن إبن مسعود لم يأنف من التشفي بقتل الميت. فعن إبن مسعود قال: رأيت أبا جهل بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه، ثم قلت له هل خزاك الله يا عدو الله، ففتح عينيه وقال: وبم أخزاني أعار على رجل قتلتموه، أي لا عار عليّ في قتلكم إياي، وفي رواية أخرى أنه قال: لو غير أكار قتلني، والاكار الزراع يعني الانصار لأنهم كانوا أصحاب زرع، ثم قال يخاطب إبن مسعود: لقد أرتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً، أخبرني لمن الدبرة، لنا أم علينا، فقلت: لله ولرسوله قال إبن مسعود: ثم أني إحتززت رأسه، ولما ضربته بسيفي لم يغن شيئاً، فبصق في وجهي وقال: خذ سيفي فأحتز به رأسي من عرشي يكون أنهى للرقبة، (والعرش هو عرق في أصل الرقبة) ففعلت ذلك ثم جئت به الى رسول الله فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبو جهل، فقال رسول الله: والله الذي لا إله غيره، ورددها ثلاثاً ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله فحمد الله ويقال أنه سجد خمس سجدات شكراً. أن أبا جهل هو من بني مخزوم، وإسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، وكان يكنى بأبي الحكم، فغير النبي كنيته بأبي جهل، وكان أبو جهل من كبار سادات قريش وأشرافهم حتى أن دار الندوة[2]* كانت لا يدخلها عند المشورة من غير ولد قصي إلا إبن الاربعين سنة، إلا أبا جهل فإنه كان يدخلها عند المشورة وهو شاب دون العشرين،

---

(1) السيرة الحلبية، 172/2.

* دار الندوة: هي أول دار بنيت بمكة، وكانت منزل قصي بن كلاب (جد قبيلة قريش) ثم اتخذتها قريش للشورى، فكانت محل مشورتهم لا يقطعون أمرا إلا فيها (السيرة الحلبية 125/2) والندوة معناها الجماعة، وهي تقع جهة الحجر عند المقام الحنفي الآن وكان بها باب الى المسجد وهي اليوم غير موجودة لأنها ادخلت في المسجد/ انظر محمد عابد الجابري-المصدر السابق.

ومن ثم قيل فيه: ساد أباجهل وما طر شاربه ودخل الندوة وما استدارت لحيته. وكان أشد قريش عداوة للنبي بعد أبو لهب(عمّ النبي). ولا ريب أن أثر الانتقام ظاهر في قتل أبو جهل بالنسبة لقاتله الاخير إبن مسعود، وأما بالنسبة للمقتول فأن أثر الإباء والشيم والبطولة كانت ظاهرة في تلك القتلة حين قال أبو جهل لإبن مسعود حين وضع قدمه على عنقه وأراد أن يحتزّ رأسه فأن كلامه ذلك كان يدلّ على أنه يفضل الموت بالعز على الحياة الذليلة، وعلى الرغم من كون أبو جهل سيداً في قومه شريفاً في نسبه، إلا أنه كان منحطاً في عقليته، وجامداً على التقاليد البالية السخيفة، ولم يكن يوم بدر إلا قتيل جموده على تلك التقاليد الواهية، وكذلك الامر بالنسبة لغيره ممن إشتهروا بعداوة محمد من كفار قريش، وإلا فإن محمداً لم يكن يريد لهم إلا العز والرفعة، وإن يكونوا ملوك العرب والعجم، حيث قال لهم فيما إجتمع بهم عند وفاة عمه أبو طالب وكان من بينهم أبو جهل فقال لهم محمد: (أرضيتكم أن أعطيتكم ما سألتم هل تعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم). فقال أبو جهل نعم لنعطينها لك وعشراً معها فما هي؟ قال (لا إله إلا الله) وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم دلالة عدم الرضى وقالوا:" يامحمد أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجيب"، لقد منعت التقاليد الموروثة لديهم الكثير منهم من الدخول في الاسلام، بينما أدركها البعض في الآونة الاخيرة، وأستطاع أن يركب الموجة العارمة في التغيير أمثال أبو سفيان بن حرب حيث أعلن إسلامه بعد فتح مكة مباشرة وصار من الاسياد وحافظ على كيانه ونفسه من القتل، من خلال إدراكه بالنتيجة الحتمية لمصيره إذا لم يفعل ذلك. وإستطاع أيضاً أن يحفظ لذريته من الاحفاد أن يؤسسوا للدولة الاسلامية والتي أسست على يد إبنه معاوية حيث تشكلت من خلاله أعظم إمبراطورية في ذلك العصر. أما أبو جهل فذهب فعلاً ضحية جهله وعناده غير المبرر وقتل نفسه بسيفه الذي كان يعتز به. أن العبرة والدرس في هذه الحادثة هو أن كل من لم يستوعب التطور التاريخي للمجتمع، ويتزمت في تقاليده وعاداته إنما يكون مصيره كمصير أبو جهل. ولدينا في هذا العصر مثال واضح عن صدام حسين الذي أصبح في عزلة تامة عن العالم ولم يفهم ماذا يجري من تطورات فيه. ونذكر هنا الرسالة التي

وجهها له الرئيس الامريكي" جورج بوش الاب" حينما أراد منه أن ينسحب من الكويت بعد إجتياحه إياها عام 1990. حيث كان يدعو لإتخاذ موقف من الحكمة وتحكم الضمير بالانسحاب وتجنب ويلات الحرب والخسارة الحتمية المحسومة مسبقاً. إلا أنه أي جورج بوش لم يكن على بيّنة بما في رأس صدام حسين من إرثٍ قديمٍ متراكم منذ الآف السنين يدعوه للتعنت بحجة الكرامة الزائفة، وعدم الاكتراث بأرواح الناس والخسارة التي يمكن أن تلحق بالبلد إذا ما إتخذ قرار عدم الانسحاب والحرب، والذي كان في مقابل كل العالم المتمدن بلا إستثناء تقريباً. فكما ذهب أبا جهل ضحية تعصبه بالتمسك بالتقاليد وقطع رأسه بسيفه المهيأ مسبقاً بالقطع السريع والحاد، ذهب صدام ونظامه بذات الطريقة، كما ذهب العديد من المتزمتين والمتعصبين عبر التاريخ، ممن لم يتقبلوا النصح والرأي الأخر. أما أبا جهل فقتل بسيفه وبأمر منه، ربما أدرك مقدار الخطأ الذي إرتكبه في آخر رمقه، إلا أن صدام حسين لم يدرك ما ارتكبه من أخطاء لآخر لحظة من حياته وذلك بسبب الموروث التاريخي الثقيل الذي يحمله في رأسه. وقد تصرف كذلك نتيجة لما يحمله في رأسه من مفاهيم في الكرامة الزائفة تفوق ما لديه من حكمة وعقل منطقي بضمير.

وعودة الى إستخدام السيف في الاسلام. فقد جاء في كتاب معروف الرصافي عن مسألة الانتقام في الاسلام ما يلي[1]: " أن محمداً نفسه لم يخلُ من حسّ الانتقام في حرب بدر، فأنه لما بلغ دار بني الصفراء مرجعا من غزوة بدر، أمر بقتل النضر بن الحارث، وفي السيرة الحلبية نقلا عن الامتاع: أن النبي نظر الى النضر بن الحارث وهو أسير أثناء تفقده لجميع الاسرى بعد إنتهاء معركة بدر فقال النضر للأسير الذي بجانبه: ان محمداً والله قاتلي، فأنه نظر إلي بعينين فيهما الموت فقال له الاسير: والله ما هذا منك إلا رعب، وقال النضر لمصعب بن عمير يا مصعب أنت أقرب من هذا إلي رحماً، فكلِم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه هو والله قاتلي، فقال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا. وكان المقداد هو الذي أمرَ بقتل النضر. فلما أمر النبي بقتله قال المقداد: يا رسول الله هذا أسيري، فتولى

(1) معروف الرصافي" الشخصية المحمدية 323/2".

المقداد قتله فقتله، ويقال أن النضر هذا كان يشكك في أحاديث محمد وأنه ذهب الى الحيرة وإشترى منها أحاديث الاعاجم ثم قدم بها الى مكة، وكان يشبه تلك الاحاديث والحكايات عن نبأ الاولين بالآيات القرآنية، وكان دائماً يجمع الناس في مكة ليوضح لهم درجة تشابه الاحاديث والحكايات الموجودة بالآيات القرآنية مع الاحاديث الموجودة لدى الزرادشتية أو المانوية وغيرها من الكتب المتداولة في بلاد الرافدين في ذلك الوقت. ثم أن محمداً لما إرتحل من الصفراء فبلغ عرق الطبية (موقع) أمر بقتل عقبة بن أبي معيط وكما قتل صاحب أبي خلف على يد محمد يوم أحد، وقيل أن محمد لم يقتل بيده أحداً غيره. ولا يشك أن النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط لم يقتلا لكفرهما فحسب. وإلا لزم قتل جميع الاسرى من كفار قريش الذين أسروا يوم بدر، وإنما قُتلا إنتقاماً وتشفياً بقتلهما مما كانا يفعلان بمكة قبل الهجرة، وقد نزلت الآية الكريمة بخصوص الانتقام في تفسير قوله تعالى (يوم نبطش البطشة الكبرىٰ إنّا منتقمون)[1]. ان البطشة الكبرى هي حرب بدر، وأن صح ما نقول أن حرب بدر كانت حرباً إنتقامية لِما فعلته قريش بالمسلمين في مكة[2].

ولا بد من الاشارة هنا الى أن كفار مكة لم يكونوا أقل قسوة من ذلك فتشير المصادر العديدة الى مقدار ما قاسته الامة المسلمة في مكة والطائف من قسوة على المسلمين، وقد أسهب الكتاب في وصف ذلك في العديد من الكتب لا داعي لتكرارها ونذكر فقط كيف قُتل ياسر (والد عمار بن ياسر) وزوجته سمية في التعذيب على يد قريش. أن نمط الحياة في الجزيرة العربية كانت متميزة بإستخدام السيف بالشكل الذي يتلائم وهدف التنازع من أجل البقاء في تلك البيئة الصحراوية وفي تلك المرحلة من تطور العقل البشري. ومن المفيد أن نذكر هنا أيضاً كيف أن المهاتما غاندي (زعيم الهند الراحل) ذكر في مذكراته[3] المشهورة أنه قرأ الاديان السماوية كافة ومنها المسيحية واليهودية والاسلام بتفاصيلها وقد أعجب كثيراً في القيم الاخلاقية التي جاء بها الاسلام، خاصة وأن صديقه الحميم محمد علي جناح ذلك المفكر الاسلامي الكبير الذي تأسست دولة باكستان على يده كان دائماً يحثه بأن يصبح مسلماً، إلا أن إعتراضه على الاسلام كان منصباً في إستخدامه السيف في عصر فجر الاسلام دون أن يدرس طبيعة البيئة التي نشأ

---

(1) سورة الدخان الآية 16.
(2) السيرة الحلبية، 179/2.
(3) مذكرات غاندي.

بها الاسلام وظروف الجزيرة العربية ومواريثنا التاريخية لكي يعرف السبب وراء استخدام السيف، وبالتالي لم يكن هناك بديل في نشر الدعوة ونجاحها وتحقيقها لكل ما كانت تصبوا إليه، لولا استخدام السيف بالطريقة التي وصفناها. وكم ظهرت دعوات ورجالاً عظام لم يذكرهم التاريخ وذهبت دعواتهم أدراج الرياح لعدم استخدام السيف. ويمكن الرجوع الى السيرة النبوية وغيرها من المصادر من أجل زيادة المعرفة والاطلاع على الحقيقة بتفاصيلها. لم يكن متوقعاً أن يصبح المهاتما غاندي مسلماً، نظراً لنشأته في بيئة مختلفة تماماً عن بيئتنا بالاضافة الى كونه متدين بالهندوسية، والتي تمنع حتى قتل الحيوان وحتى استخدام المنتجات الحيوانية لخدمة الانسان كالحليب والبيض. ولابد من الاشارة هنا الى مفاهيم خاطئة كانت سائدة لدينا، من أن الهنود يعبدون البقرة، وفي الحقيقة هذا إفتراء كبير عليهم. وكل ما في الامر أن هناك مصلحين ظهروا في القارة الهندية أوصوا بالعناية بالحيوانات ومنها البقر لأنهم أدركوا أهمية تلك الحيوانات في مستقبل تلك الامة وأن القتل العشوائي قد يتسبب في كارثة كما ظهر لديهم واحداً من المصلحين الكبار واسمه ساندرام[1] كان يوصيهم بعدم قطع أي شجرة. وكان هذا المصلح الكبير في السن قد عاصر مآسي التصحر والموت الجماعي لقومه أيام طفولته وشبابه وفطن بأن السبب وراء كل تلك المآسي كان القطع العشوائي للأشجار وهكذا طرأت لديه تلك الفكرة. فحبذا لو ظهر لدينا مصلح من هذا النمط يوصينا بالعناية بالاشجار والنفط والغاز الطبيعي الذي أصبح جزءاً من كياننا ووجودنا لإنقاذنا من مأساة محتملة بعد تناقص تلك الثروة المعدنية الهامة، فيما إذا لم تستغل بالطريقة الامثل لصالح المجتمع وللاجيال القادمة خاصة بعد كل ذلك الاستنزاف والهدر في الموارد التي كانت تذهب للأغراض الحربية وغيرها أيام حكم البعث في العراق.

أما عن الموروث التاريخي في ممارسة الاغتيال السياسي فقد استخدم هذا الاسلوب في التخلص من الخصم البارز منذ أقدم العصور. ومُورسَ الاغتيال السياسي قبل الاسلام بشكل مفرط. وجرت محاولات عديدة في إغتيال الرسول محمد نفسه طيلة فترة حياته، ولم يتمكنوا منه. وأستمرت هذه الممارسة بعد ظهور الاسلام ظناً منهم أنها أسهل طريقة للتخلص من الاعداء بطريقة تجنبهم عناءاً أكبر في حالة عدم قتل المنافس خلسة. وهكذا نجد أن حركات سياسية مهمة تدّعي بدوافعها الاصلاحية وقيمها السامية، وأقتبست هذا الاسلوب في عصرنا الحاضر كمنهج في ممارسة العمل السياسي، وكما فعل ذلك البعث في العراق منذ ظهوره على الساحة السياسية، وكانت الاغتيالات السياسية تمارس بغزارة أيام بداية التغييرات التي حصلت عام 1958م، عندما قامت الجمهورية في العراق والتي أطاحت بالملكية على يد عبد الكريم قاسم، وأستطاعوا أن يُصفّوا

---

(1) برنامج تلفزيوني في محطة (*BBC*) عام 2002.

الاعداء والمنافسين لهم عن طريق الاغتيال والغدر المبرر من قبلهم بعقليتهم الانتقامية الموروثة تاريخياً، ومن منطلق" الغاية تبرر الوسيلة" على إعتبار أن غايتهم هي في قمة السمو(حسب عقيدتهم) وذلك في تحقيق مجتمع عربي إشتراكي جديد. ولكن كانت المحصلة النهائية هو الفشل الذريع،وها نحن نحصد نتائجه. لقد مورس الاغتيال السياسي بشكل مفرط في خلال فترة الحكم الاسلامي أيام الدولة الاموية والعباسية وما تلاها وهناك العديد من الامثال في الاغتيال تمت ممارستها في القيادات العليا بين الاخوة أو الابآء والاخوة جنباً لجنب مع ممارستها للخصوم. ولا تزال عقلية الاغتيال السياسي متغلبه للأسف الشديد، ولا بد من وضع حد لهذا الموروث في عقولنا. وحتى الانقلابات العسكرية التي تروم تغيير أنظمة الحكم، لم تكن سوى وسيلة غدر وخيانة، مورست في منطقتنا العربية والاسلامية بدرجة واسعة تفوق أي منطقة أخرى من مناطق العالم. وأبسط مثل على ذلك أن الهند والباكستان كانت دولة واحدة وعندما إنفصلت وأصبحت دولتان، بدأت الانقلابات العسكرية في باكستان تتوالى تباعاً بينما لم يحصل أي إنقلاب عسكري لحد الآن في الدولة الهندية غير المسلمة. وهذا دليل واضح وملموس في تأثير الموروث التاريخي في إسلوب التخلص من الخصم لدى الدول الاسلامية، بينما نجد في الدولة التوأم وهي الهند ترسيخ مبادئ الديمقراطية الحديثة دون حصول إنقلاب عسكري منذ تأسيسها عام 1947. ومن هنا يمكن القول أن التوسع في المؤسسة العسكرية والتي تصبح مؤثرة في القرار السياسي أمر خطير في البلدان النامية ويجعل أمر الاستقرار في كف عفريت مهما أتخذت من إجراءات وتحذيرات لمنع حصول الانقلابات العسكرية. وكل ذلك يرجع للموروث الثقافي في هيمنة الاقوى والاكثر إقتداراً في السيطرة على زمام الامور. لا شك أن هناك عوامل وأدوات اخرى تحرك في حصول الانقلابات العسكرية إلا أن الحاضنة الرئيسية كأسلوب غدر وخيانة كان في المواريث الثقافية التاريخية لبلدان العالم الثالث، ومنها بلادنا التي عانت الامرين من الانقلابات العسكرية في السابق. وفي إعتقادنا أن خطر الانقلابات العسكرية لا تزال قائمة طالما بقيت عقيدتنا وفلسفتنا في الحياة كما هي قائمة على أساس الغلبة للأكثر شراسة وقسوة. وينبغي اتخاذ كل الوسائل والسبل الكفيلة بطي صفحة الانقلابات العسكرية من حياتنا السياسية ليس فقط بالوسائل الإجرائية بل تربوياً وثقافياً وعلى كافة الأصعدة كي نبني مستقبلاً زاهراً لأجيالنا القادمة ونلحق بركب الحضارة الحديثة.

4- المرغبات في الجهاد في الاسلام:-

لعل واحداً من أهم الموضوعات التي نعهدها في الوقت الحاضر هي ما جاء في عصر فجر الاسلام من الأسباب التي تجعل الانسان يضحي بحياته ويدفع بنفسه الى التهلكة من اجل قضية يؤمن بها. ولا بد لنا قبل الخوض بالموضوع أن نعّرف معنى كلمة الجهاد، فالجهاد في اللغة العربية معناه بذل ما بالوسع، وهو من الجهد بمعنى الطاقة، ثم أستعمل من القتال لإعلاء كلمة الله، ويقال: جاهدوا العدو. وهذا مصطلح قرآني يعني قاتلوا العدو. ولما جاءت الدعوة الاسلامية الى الجزيرة العربية وكما أسلفنا في الفصل الثاني كيف كان القتال يشكل جزءاً من كيانهم وحياتهم البدائية التي تغلب فيها الشجاعة والنجدة، وأن يكونوا ذوي جلادة وصبر على الشدائد وإحتمال المشاق. ولا تكون عندهم للحياة قيمة، كقيمتها عند أهل الحضارة والمدينة، وبالتالي يكثر منهم الاقدام على المعارك. وإذا ما إنضم الى هذه الصفات ما كان يرغبهم في الاسلام فيه ما يحلل عليهم ويدعوهم للقتال ويحرضهم عليه فأنها تؤدي الى مضاعفة القدرة والاندفاع في القتال، وكانت تصب في أمرين: الاول معنوي والآخر مادي.

أما **المعنوي** فهو الذهاب الى الجنة ونعيمها الخالد المقيم، والمفهوم من الاحاديث النبوية أنه ليس هناك طريق يؤدي الى الجنة تأديه مضمونه بكل سلامة وإطمئنان سوى الشهادة، وهي أن يموت المرء قتيلاً في سبيل الله، فلذا كانت الشهادة أكبر مرغب في القتال. ومن الاحاديث المروية في هذا الباب، قال النبي محمد (ص): (أن الشهيد عند الله خِصالاً: أن يغفر له من أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلي حلية الايمان، ويزوج من الحور العين ويجار من وثاب الفر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوهاج من الياقوته ومنهُ خيرٌ من الدنيا وما فيها، يزوج اثنين وسبعين من حور العين، ويشفع في سبعين انساناً من أقاربه) [1] وجاء مثل هذا في رواية أخرى أنه قال يخاطب أصحابه بعد غزوة أحد:(لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم من اجواف طير خضر ترد انهار الجنة، وتاكل من ثمارها، وتأوي الى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن منقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يتكلموا عن الحرب فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله على رسوله: (ولا تحسبنّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أموتا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون)[2] وجاء في حديث آخر:(لا تجف الارض من دم الشهيد حتى يبتدره زوجتاه كأنهما طائرتان أظلتا فصيليهما ببراح

---

(1) سنن الترمذي، فضائل الجهاد، الحديث رقم 1586، سنن إبن ماجه، كتاب الجهاد رقم 2789.
(2) سورة آل عمران، الآية 169.

الارض، بيد كل واحدة منهما حلة خير من الدنيا وما فيها)[1]، والاحاديث في هذا الموضوع كثيرة فمن أرادها فليرجع الى كتب الحديث التي تخص الجهاد في سبيل الله، ويجدر الاشارة هنا الى أن للجنة تأثير عظيم في نفوس المسلمين الاوائل نورد المثال على ذلك أن أم حارثة بن قيس الانصاري جاءت النبي بعدما قتل إبنها يوم بدر وهو غلام، فقالت: يا رسول الله، حدثني عن حارثة، فإن يكن في الجنة لم أبكي عليه ولكن أأحزن ؟، وإن يكن في النار بكيت ما عشت في دار الدنيا، فقال لها: (ياأم حارثة، أنها ليست بجنة ولكنها جنات، وحارثة في الفردوس الاعلى)، فرجعت وهي تضحك وتقول بخ بخ لك يا حارثة[2]. والاخبار في خطب الرسول محمد قبل غزوات بدر وأحد وحكايات الترغيب في الجنة كثيرة لا حصر لها، ويمكن الرجوع إليها في السنة النبوية المعروفة كما أسلفنا. أما **الترغيب المادي:** فهو الغنائم والسبايا، ومن المعلوم أن العرب في العصر الجاهلي كانوا يغتنمون الاموال ويسبون النساء والرجال في حروبهم. فقد استمر الاسلام على هذه العادة الموروثة وأحل لجيوشهم الغنائم، وقد جعل محمد ذلك من خصائصه التي أختص بها وأنفرد دون غيره من قبله من الانبياء والرسل، لأنه عرف طبيعة المجتمع وما كان له أن ينجح لو لم يعمل بذلك كما جاء في هذه النصوص أنه قال:(أعطيت خمساً لم يعطيهن أحد قبلي: أرسلت للناس كلهم عامة، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الارض مسجداً، والتراب طهوراً) [3]

فكان يرّغب أصحابه في الغزو بالغنيمة كما قال لعمرو بن العاص لما أرسله في غزوة ذات السلاسل، فعن عمرو بن العاص قال: بعثَ إلي رسول الله فأمرني أن آخذ ثيابي وسلاحي، وقال:(ياعمرو، إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك)، فقلت: أني لم أسلم رغبة في المال، قال:(نعم المال الصالح للرجل الصالح)[4].

ولما خرج الى تبوك وتجهز الناس قال للجدّ بن قيس: يا جدّ هل لك في جلاد بني الاصفر. فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجلٍ أشد عجباً بالنساء مني لأني أخشى أن رأيت نساء بني الاصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله وقال له: أذنت لك، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة: (ومنهم من يقول أئذن لي ولا تفتني...)[5] الآية[6] فكانت غنائمهم من حوافزهم على الغزو، ومن مرغباتهم في الخروج للقتال. أما السبايا من

---

(1) سنن ابن ماجه، كتاب الجهاد، الحديث 2392.
(2) السيرة الحلبية، 162/2.
(3) صحيح البخاري، 419، 323، صحيح مسلم 810، سنن النسائي 429، سند أحمد 2144.
(4) السيرة الحلبية، 192/2.
(5) السيرة الحلبية، 191/2.
(6) سورة التوبة، الآية 49.

الرجال والنساء فكانت كأموال الغنائم تقسم على الجيش أيضاً من ضمن تقسيم الاموال. فتكون السبايا ملكاً لهم أن شاءوا إسترقوهم، وإن شاءوا باعوهم، وأن شاءوا كاتبوهم، وأن شاءوا أخذوا فدائهم إذا إفتداهم أهلهم. ولم تكن إذ ذاك قاعدة متبعة في تقسيم الغنائم، وبعد أن حصلت مشاكل عديدة بين الجنود في تقسيم الغنائم، رأى محمد أنه أمام مشكلة يجب حلها عاجلاً لئلا يتسع الخلاف ويتمادى النزاع، فلم يجد لتلك المشكلة حلاً سوى أن ينزع الغنائم من أيديهم ويجعلها لله ورسوله. وحينئذ يكون الحكم فيها له وحده، وإذا كان الحكم له هان الأمر فأنزل الله من السماء الآية الكريمة: (يسئلونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فأتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله أن كنتم مؤمنين)[1]. فبهذه الآية نزعها الله من أيديهم وجعلها لمحمد يضعها حيث يشاء. وقال الحلبي في سيرته: فدّلت الآية على أن الغنيمة لرسول الله خاصة ليس لأحد من المقاتلين شيء فيها. أما محمد فأنه لم يخرج عن الشرط الذي شرطه لمن كان له بلاء في ذلك اليوم. فجعل الاسرى لمن أسروهم، وأسلاب القتلى لمن قتلوهم وقسّم الباقي على المسلمين بالسوية[2]. وكان سهمه كسهم واحد منهم، إلا أن لمحمد الصفى، وهو يصطفي ويختار لنفسه من الغنيمة قبل القسمة. ولا ريب لأن آية الانفال لم تكن إلا تدبيراً مؤقتاً لحسم النزاع، لأن جعل الغنائم لرسول الله يعطيها من يشاء، وكيفما يشاء، ربما يؤدي ذلك الى التقول من بعض ضعاف الايمان، فالأحوط هو أن يوضع لتقسيم الغنائم حكماً عاماً يكون معمولاً به في كل وقت حتى يرضى كل واحد بنصيبه ولا يتكرر الخلاف والنزاع، فلا بد إذن من آية أن تنسخ آية الانفال. فنزلت الآية الكريمة في تقسيم الغنائم، وهي: (وأعلموا انّما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتمىٰ والمسكين وابن السبيل...)[3] فكان الحكم في تقسيمها هكذا: بعد الصفى الذي يختاره رسول الله لنفسه الى خمسة أقسام: فالقسم الاول وهو خمس الخمس لرسول الله يفعل به ما أحب، والثاني لذوي القربى وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب والثالث لليتامى والرابع للمساكين والخامس لإبن السبيل.

يفهم مما تقدم ان الجنة من المرغبات العامة، لأنها تصلح للترغيب في الاسلام وفي القتال، بخلاف الغنيمة فأنها لا تصلح إلا للترغيب في القتال، ولما كان محمد بمكة قبل أن تكن الحرب ولم تكن الغنيمة، ولكن كان يرّغب في الاسلام بالماديات أيضاً من خلال قوله في بيت عمه أبي طالب:(أعطوني كلمة

---

(1) سورة الأنفال، الآية 1.
(2) السيرة الحلبية: 184/2.
(3) سورة الانفال، الاية 41.

تملكون بها العرب وتدين لكم العجم) [1] لعلمه بإنتصار قضيته وإمتداد دولته لتشمل البلاد العربية وبلاد فارس والروم في ذلك العصر...

وهناك أمر آخر لا بد من ذكره هنا: كان محمد يتخذه واسطة للترغيب على القتال لتشجيعهم وتقوية قلوبهم وتثبيت أقدامهم، وذلك عند إشتداد الحرب وحمي وطيسها أو عندما يتراءى له خطر الحالة فيها، وذلك بإمداد الملائكة، وهو يريد بذلك ان يطرد الفزع والخوف منهم كما وقع ذلك يوم بدر حيث خطبهم خطبة حثهم فيها على الجهاد وعلى المصابرة فيه[2] وبشرهم أن الله ممدّهم بالملائكة يقاتلون معهم ونزلت الآية الكريمة (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فأتقوا الله لعلكم تشكرون، ، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلثة الف من الملئكة منزلين، ، بلىٰ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة الف من الملئكة مسوّمين، ، وما جعله الله إلا بشرىٰ لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله...)[3]. على أن علماء المسلمين أختلفوا في تفسير هذه الآية فكما ذكر الزمخشري في تفسيره: أن الملائكة قاتلت يوم بدر وأن جبريل نزل في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وأن ميكائيل نزل في خمسمائة ملك على الميسرة وفيها علي بن أبي طالب، وكانوا في صور رجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم. بينما قال البعض أنهم لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين، وإلا فملكٌ واحد كافٍ لإهلاك أهل الدنيا كلهم، فأن جبرائيل أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط وأهلك بلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة[4]. ومما يؤيد هذا الرأي أن إمداد الملائكة لم يكن حقيقة يوم بدر مما ذكروه من عدم الامداد بالملائكة يوم أحد، فقال الحلبي في سيرته "وقد نزل قبل أن يخرج النبي الى أحد قوله تعالى: (...ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلثة الف من الملئكة منزلين، ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة الف من الملئكة مسومين)[5]. وقال فلم يصبروا وإنكشفوا فلم يمد رسول الله بملكٍ واحد يوم أحد"[6]. وهكذا الحال بالنسبة ليوم حنين فلم تشترك الملائكة في القتال كما هو واضح في تفاصيل تلك المعركة.

وأخيراً ونحن نعيش في القرن الحادي والعشرين وبعد الإندماج بالثقافة الغربية وحصول ذلك التطور العلمي الهائل دون أن تكون لنا مساهمة فاعلة في تطوير بلداننا وأنفسنا، وبالاضافة الى الكمّ الهائل من العلوم في شتى ميادين الحياة، انما

---

(1) السيرة الحلبية، 1/304-305.
(2) السيرة الحلبية، 2/162.
(3) سورة آل – عمران الأيات 123-126.
(4) تفسير الكشاف للزمخشري، تفسير الآية 123 من سورة آل- عمران.
(5) سورة آل عمران الآيتان 124-125.
(6) السيرة الحلبية، 2/163.

لتُحدِث صدمة كبيرة في عقول بعض المتزمتين الذين يريدون بنا العودة الى الماضي ومعايشة ظروف القرن السابع الميلادي رغم كل التغييرات، ويجدون من هذا الارث التاريخي مادة غنّية لتغذية الشباب من الاعمار الحساسة بين سن 14-20 سنة ليجعلوا منهم مادة سهلة لتنفيذ أغراضهم الارهابية من خلال غسل عقولهم بالاحاديث والآيات التي يفسرونها كما يشاءون. وبالتالي يكون المجتمع بأسره أسيراً لتلك الاعمال الاجرامية البشعة.

أن على المربين وعلماء الدين أن يبذلوا مجهوداً كبيراً من أجل إنقاذ الدين. وذلك في تكريس الجانب المشرق فيه وتوضيح الظروف والمسببات والبيئة التي كان يعيش فيها الاولين. لكي لا ندع المتعصبين يستغلون النصوص ويكرسونها لتهيئة أذهان الشباب نحو العنف. أن عمليات ترغيب الشباب الذين لم تبلغ أعمارهم العشرون عاماً في العمليات الانتحارية التي تقوم بها جماعة القاعدة هذه الايام بما يغسلون به أفكارهم من أنهم سيذهبون مباشرة الى جنة الفردوس ويكون عشائهم مع الرسول الأعظم، وما الى ذلك لم تأتي من فراغ، وإنما تستند الى نصوص ومعتقدات كانت سائدة في عصر فجر الاسلام، وبالتحديد بعد الهجرة إلى المدينة. الفرق هنا هو أن الهدف من كل تلك المرغبات في القتال في عصر فجر الاسلام كان سامياً من أجل إقامة دولة وكيان ونشر دين سماوي رائع، ويرقى الى قمة المبادئ والقيم الاخلاقية الرفيعة. بينما لا وجود لهدف في القتال والدمار الذي يفعله الارهابيون في عصرنا الحاضر. سوى زيادة في حجم الدمار والخسارة والتخلف والاساءة الى سمعة الدين الاسلامي الحنيف، وعلى الرغم من أن عدد المرات التي ورد فيها ذكر القتال بمشتقاته في القرآن الكريم حوالي (174) مرة[1] وأن لغة الصراع في الاسلام تحريضية شديدة النبرة تذكر القارئ بلغة البلاغات الحربية، إلا أن مؤسس الاسلام كان يستجيب في ذلك لمستلزمات وضعه في مهمته التاريخي. فقد كان المجتمع الجاهلي الذي سبقه مجتمع تناحري لم يعرف السلم إلا كهامش إستغرقته الاشهر الحرم الاربعة في أضيق نطاق. ولم تستطع المسيحية الشرقية التي إعتنقتها بعض القبائل مثل تغلب أن تخلق من البدوي في الجزيرة العربية انساناً مسالماً كما نعهده في عصرنا الحاضر. ولم تستطع كل الأديان التوحيدية الأخرى من توحيد بلاد العرب كما فعل الإسلام.

يقول توينبي في التعصب الديني ما يلي:

" إن من سخريات التاريخ البشري أن ينبعث التعصب والاضطهاد عن الاستنارة التي تبث في الدين إدراكاً حسياً بوجود الله وأخوّة الجنس البشري. ومناط التفكير ما تبعثه فكرة التوحيد –إذ تطبق على الدين- في معتنقيها من الرواد

---

(1) هادي العلوي" الاغتيال السياسي في الاسلام" ص 55، المصدر السابق.

الروحيين من روح بلغت درجة رفيعة من السمو تستأهل المجازفة في سبيل سلوك طريق قصير يكفل سرعة نقل فكرتهم إلى عالم الحقيقة.

ومهما يكن من أمر فحينما بُشّر بأي دين ذي سمو روحاني (دين سماوي) تبدت حتماً رذيلة التعصب والاضطهاد وهذه خلقتها البغيضة مثلاً.

إن قيام دين يقال فيه أنه دين حق باضطهاد دين آخر يدعى بأنه باطل، يناقض طبيعة العقيدة الدينية نفسها، لأن الدين "الحق" إذ يلجأ إلى سلاح الاضطهاد، يضع نفسه في المكان الباطل ويتخلى عن مقوماته الأساسية في التوحيد. وثمة على الأقل حالة ناجحة الذكر لهذا التسامح المنشود يفرضها النبي محمد (ص) على أتباعه وهو في موضعه الجليل، فإنه قد أمر أتباعه بالتسامح الديني اتجاه اليهود والمسيحيين الذين خضعوا سياسياً للحكم الإسلامي. وقدم محمد (ص) لقاعدة التسامح تفسيراً قوامه أن الأفراد لهاتين الجماعتين الدينيتين غير المسلمين هم أهل كتاب كالمسلمين أنفسهم. وليس أدل على روح التسامح التي بعثت الحياة في الإسلام منذ البداية، من تطبيق المسلمين مبدأ التسامح الديني على اتباع زاردشت الذين خضعوا للحكم الإسلامي، وإن لم يقل بذلك الرسول الكريم نفسه، لورود نص في القرآن الكريم أن بعض الأنبياء لم تذكر أسمائهم جميعاً: "(ورسلاً قد قصصتهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك...)"[1]

وهكذا أيضاً نبذ المسيحيون منازعاتهم فجاءة (بين الكاثوليك والبروتستانت) أبان النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي لا بسبب اقتناعهما بخطيئة التعصب فحسب، بل لإيمانهم بعجز أحدهما عن الإيقاع بالآخر. ولعلهما لم يعودا يهتمان الاهتمام الكافي بالنزاع على الموضوعات اللاهوتية الناشبة بينهما ولا يستمرئان بذل مزيد من التضحيات في سبيلها. وبالأحرى جحد أتباع الكاثوليك والبروتستانت فضيلة الحمية الدينية واعتبروها في ذلك الحين رذيلة. (نأمل أن يأتي اليوم الذي يدرك فيه جميع أبناء الطوائف الإسلامية هذه الحقيقة أيضاً).

ومهما يكن من أمر باعث على التسامح فإنه ترياق فعال ضد التعصب: ذلك التعصب الذي ينزع الإيمان بالتوحيد إلى استيلاده. وانبنى على الإغراق في التعصب، انتعاش الكراهية ضد الدين ذاته. ويتبلور الشعور ضد التعصب في عبارة مشهورة للوكريتيوس "**Lucretius**" هي: " فظاعة الشر هذه هل الدين يحرض على إتيانها؟؟" كما نجدها عن عبارة فولتير الشهيرة "حطموا المرذول" وفي عبارة جامبتا "نفوذ الكهنة ذلك هو العدو"[2]. نأمل من علماء الدين المسلمين

---

[1] سورة النساء الآية (164)

[2] أرنولد توينبي- ج2 "مختصر دراسة التاريخ" ترجمة فؤاد محمد شبل مراجعة محمد شفيق غربال، لجنة الترجمة والنشر والتأليف- جامعة الدول العربية (1966) ص 43.

في عصرنا بذل المزيد من الجهد في تكريس الجوانب التي تدعو إلى التسامح ونبذ الرذيلة المتمثلة في التعصب وإلغاء الآخر.

5- شكل نظام الحكم في الصدر الاول للاسلام:-

كتب العديد من الكتاب والمؤرخين وعلماء الدين في شكل نظام الحكم الاسلامي في عصر فجر الاسلام ووصفوه بالمثالية من حيث تطبيق العدالة والديمقراطية والحرية وغيرها من الاوصاف التي تنطبق وتطلعات الانسان في العصر الحديث. وظهرت مؤلفات عديدة تصب في نفس الهدف وبعناوين" الاسلام والديمقراطية" والحداثة في الاسلام...الخ. ورغم سمو الهدف من تلك الدراسات في تكريس الجانب المشرق للاسلام وفي إرشاد الناس الى طريق الصواب، إلا أننا هنا نبحث في المواريث التاريخية للعنف والاستبداد ونظم الحكم الشمولية (الدكتاتورية) التي إستشرت وتأصلت في منطقة الشرق الادنى عموماً، وعانينا منها الامرين، وما آلت إليه الظروف والاحوال في المنطقة من تخلف عن ركب الحضارة الحديثة، ونبحث عن الاسباب الرئيسية لكل تلك المشاكل والحروب والمآسي التي مرت في المنطقة عموماً وفي العراق خصوصاً. وأننا إذ نفتش في التاريخ صفحة صفحة من أجل زيادة الفهم في تلك الاسباب وأصل تلك المواريث لا يسعنا إلا أن نسعى الى الحقيقة كما هي لكي نفهم مشاكلنا بشكل أدق. وربما يعود السبب في إختلاف وجهات النظر حول شكل نظم الحكم في عصر فجر الاسلام الى إختلاف الفهم للمصطلحات المستخدمة كالحرية والديمقراطية والعدالة. فهناك من يعتقد بأن الديمقراطية هي مجرد التشاور بين الاصحاب المهمّين والنفر المحيطين بالحاكم، لذا فقد سعينا وقبل البدء بمناقشة أي موضوع في وضع تعريف لكل كلمة ومصطلح والذي على ضوءه تبنى الدراسة ومناقشتها. لقد سأمنا من التستر وراء الرموز والاوصاف الكبيرة والتي لم توصلنا الى فهم حقيقي لتاريخنا والى حاضرنا وما علينا إلا كشف الامور ومعرفة الاسباب الحقيقة ورائها لكي نستطيع بالتالي معالجتها بطريقة أسهل وأدق. وعودة الى تحديد نظام الحكم في عصر فجر الاسلام نقول أن الهدف الاساسي في بناء دولة الاسلام ووضع الاسس والقواعد الضرورية لتسيرها كانت في توحيد الامة من خلال التوحيد الآلهي اولاً وكانت الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وهي رمز وحدة الامة وأساس بناء الدولة الاسلامية في ذلك العصر. وقد كتب طه حسين في تحديد شكل نظام الحكم في الصدر الاول للاسلام في كتابه الفتنة الكبرى[1] ما يلي:" يظن آخرون أن نظام الحكم ايام النبي وصاحبيه قد كان نظاماً ديمقراطياً، وهذا تجوز في الالفاظ وخروج عن الدقائق من معانيها، وقد ينبغي أن

(1) طه حسين" الفتنة الكبرى" الجزء الأول 28/3، الطبعة السادسة دار المعارف بمصر 1966.

نتبين معنى الديمقراطية بالدقة قبل ان نقول أن نظام الحكم هذا كان أم لم يكن ديمقراطياً.

تعريف الديمقراطية:-

الديمقراطية لفظ يدل به على حكم الشعب بالشعب وللشعب، أي على ان يختار الشعب حكامه إختياراً حراً، ويراقبهم مراقبة حرة، وليتبين أنهم يحكمونه لمصلحته هو لا لمصلحتهم هم، ويعزلهم أن لم يرضى عن حكمهم ولم يطمئن الى الثقة بهم. كذلك فُهمت الديمقراطية في العصور القديمة عند اليونان، وكذلك تفهم الديمقراطية في العصور الحديثة عند الامم التي تصطنع هذا النظام، على إختلاف فهم كلمة الشعب. فهذه الكلمة كانت تضيق في أيام اليونان مثلاً حتى لا تدل إلا على جماعة ضئيلة من المواطنين لهم وحدهم جميع الحقوق يستوون فيها امام القانون، على حين لا تستمع الكثرة الكثيرة من هذه الحقوق بشيء ولا تساهم من أمور الحكم بنصيب، وكان هذا اللفظ يتسع بعد الثورة الفرنسية الى حيث يشمل عدداً ضخماً من المواطنين يكون لهم الاستمتاع بالحقوق السياسية، لكنه لا يشملهم جميعاً، فهو محدد بملك مقدار المال، أو أداء مقدار معين من الضرائب، أو تحصيل قدر معين من الثقافة، ثم إتسع في آخر القرن الماضي (أي القرن التاسع عشر) حتى شمل المواطنين من الرجال فقط منذ يبلغون الرشد، ثم إتسع في هذا القرن (القرن العشرين) حتى شمل المواطنين من الرجال والنساء حتى يبلغون الرشد. وللديمقراطية بَعد ذلك، سواء أكانت ضيقة أم واسعة، نظم مقررة تكفل استمتاع الشعب بحقوقه واختياره لحكامه ومراقبته هؤلاء الحكام". هكذا فهم طه حسين الديمقرطية الحديثة ونضيف الى ذلك أن اليونان قد طبقت نظام الانتخابات للحاكم على مدينة أثينا قبل ميلاد المسيح. وعلى الرغم من عدم مشاركة جميع أفراد الشعب في تلك الانتخابات ولا حتى في أي انتخابات كانت تجري في أوربا وحتى بريطانيا التي مارست الديمقراطية والانتخابات الحرة منذ فترة طويلة من الزمن، إلا أن جماعة محددة (طبقة النبلاء) من المجتمع هي التي تنتخب وتشارك بشكل فعال في صنع القرار السياسي لتلك البلدان[1]. ان انتشار مفاهيم الديمقراطية في الغرب والنابعة من استيعابهم لفلاسفة اليونان القدماء كانت سبباً أساسياً في دفع عجلة التقدم، وتطوير شكل الادارة ودفعها الى التقدم الديمقراطي. ويستطرد طه حسين في وصف نظام الحكم في عصر فجر الاسلام ويقول:" فإذا فُهِمَتْ الديمقراطية على هذا المعنى الدقيق، فليس من شك في أن نظام الحكم في الصدر الاول من حياة المسلمين لم يكن ديمقراطياً، فالشعب لم يختار حكامه بهذا المعنى الدقيق، وليس الشعب هو الذي اختار النبي ليبلغه رسالات ربه، وليقيم الامر فيه

---

(1) اوستن وني (سياسة الحكم) ترجمة حسن علي الدنون – بغداد (1964) عن رأي ادموند برك سنة (1792).

بالقسط والعدل، ولكن الله أرسل رسوله فأتبعه من اتبعه وخالف عنه من خالف عنه، وإذا قلنا أن الذين إتبعوا النبي من أصحابه قد أختاروه ليكون لهم حاكماً، فهم لم يختاروه على النحو الذي يُختار عليه الحكام في النظام الديمقراطي، وهم لم يكونوا يراقبونه ولا يحاسبونه، وإنما كان النبي يستشيرهم فيشيرون عليه، وليس من الدقة في شيء أن يقال ان حكم أبوبكر وعمر قد كان حكماً ديمقراطياً بالمعنى الدقيق، فليس كل المسلمين قد أختاروا أبابكر وعمر لأمر الخلافة،، وانما أختارهما فريق بعينه من المسلمين، وهم أولوا الحل والعقد من المهاجرين والانصار، على ما كان بينهم في ذلك من اختلاف أول الامر. ثم لم يكن للشعب، بل لم يكن لهذا الفريق من المهاجرين والانصار، نظام معين مقرر محدد يراقبون به سيرة الخلفاء ويحاسبونهم على ما يأتون وما يدعون وإنما كان الخلفاء يستشيرونهم فيشيرون عليهم، يستشيرونهم مجتمعين حيناً ومتفرقين حيناً آخر، وكأن لمن شاء من المهاجرين والانصار أن يشير على الخليفة حسب فيقبل الخليفة منه أو لا يقبل، إذن فلم يكن نظام الحكم في ذلك الصدر من حياة المسلمين نظاماً ديمقراطياً بمعناه الدقيق في الفقه الدستوري عند القدماء أو المحدثين. فإذا أطلق لفظ الديمقراطية على هذا المعنى العام الذي يفهم منه حاجة الحكام الى رضا الشعب عنهم وثقة الشعب بهم، وأخذ الحكام أنفسهم بأن يسيروا في الشعب سيرة تقوم على العدل والمساواة، وتبرأ من التسلط والاستعلاء فأنت تستطيع أن تقول أن نظام الحكم في الصدر الاول للاسلام قد كان نظام ديمقراطي بهذا المعنى العام الذي ليس له مقاييس ولا معايير ولا حدود"[1]. لقد أصبح تاريخ صدر الاسلام من الازمنة المقدسة لدى المسلمين وأحبوها وظلوا يستسيغون سماع أخبارها المتواترة بدقة الى درجة أن البعض اعتبرها جزءاً من الطقوس الدينية الواجبة. ومن هذا المنطلق فلا يحبذون أن توصف تلك الفترة المقدسة بصفات غير مستساغة لديهم، لذلك يتشبث الباحثون الاسلاميون في جلب الادلة والبراهين التي تثبت بأن الديمقراطية كانت الاساس في ممارسة السلطة في عصر صدر الاسلام. وعلى الرغم من إن ذلك يصب في صالح المجتمع من خلال تكريس مفاهيم الحرية والديمقراطية لدى الفئات التي تريد أن تتقبل المفاهيم الحديثة في هذا العصر دون الاسلاف. وقد ذهب البعض من هؤلاء في التفكير في بعث مجد الماضي من خلال التكيف والتوفيق بين مفاهيم الماضي (والمقصود هنا عصر فجر الاسلام) وأحدث المفاهيم في العصر الحاضر. إلا أن ذلك لم ينجح من خلال التجارب التي مرت بها البلاد العربية في القرن الماضي وما ظهر من حركات قومية متنوعة آلت معظمها للفشل. ونحن هنا إذ نكرس في البحث عن المواريث التاريخية المستشرية في عقولنا من موروث العنف والاستبداد في الحكم وعدم تقبل الرأي

(1) طه حسين (المصدر السابق نفسه) ج1 ص 28.

الآخر إلا بصعوبة، فلا مجال لنا إلا من إلقاء الضوء بموضوعية من اجل الكشف عن مكامن الضعف وأسبابه ومسبباته لكي نستطيع التعامل معه بحكمة ونجاح.
ويذهب طه حسين في الاستنتاج عن شكل نظام الحكم الاسلامي بما يلي:" لم يكن نظام الحكم الاسلامي في ذلك العهد إذن نظام حكم مطلق ولا نظاماً ديمقراطياً على نحو ما عرف اليونان، ولا نظاماً ملكياً أو جمهورياً أو قيصرياً مقيداً على نحو ما عرف الرومان، وإنما كان نظاماً عربياً خالصاً بيّن الاسلام له حدوده العامة من جهه، وحاول المسلمون أن يملئوا ما بين هذه الحدود من جهه أخرى. ولم يؤذي النبي وصاحبيه شيء كما كان يؤذيهم أن يظن بهم الملك، وهو لم يكن جمهورياً، فلم نعرف في نظم الجمهورية نظاماً يتيح للرئيس المنتخب أن يرقى الى الحكم فلا ينزله عنه إلا الموت، ولم يكن قيصرياً بالمعنى الذي عرفه الرومان فلم يكن الجيش هو الذي يختار الخلفاء، فهو إذن نظام عربي اسلامي خالص لم يسبق العرب إليه، ثم لم يقلدوا بعد ذلك فيه، وهذا لا يعنينا مع ذلك من أن نحلله ونتبين دقائقه لنرى إن كان قادراً على البقاء أم كان خليقاً أن يتغيير متى تغيرت الظروف التي أحاطت بنشأتهم ثم بتطورهم"[(1)]. لقد كان النظام سماوياً متصلاً بالوحي الذي إستمر في الاتصال ثلاثة وعشرين عاماً يصابح المسلمين ويماسيهم، وينزل قرآناً مرة، وينطق به النبي حديثاً مرة اخرى، ويجريه النبي بسيرته العملية سُنّة متبعة مرة ثالثة. قد أيقظ في نفوس المسلمين من خاصة النبي ضميراً دينياً قوياً ودقيقاً وحياً الى أبعد غايات القوة والدقة والحياة، فلم يكن من الممكن أن يتخلص منه المسلم في قول أو عمل أو تفكير، بل لم يكن من الممكن أن يتخلص منه المسلم في يقظة او نوم، فصلته بالرعية إن كان حاكماً، وبالحاكم إن كان رعيه وبنظرائه في حياته اليومية، متأثرة دائماً بهذا الضمير، ويدور مع مقدار ما يكون لضمير الخليفة ورعيته من التأثر بالدين[(2)]. وبالتالي يمكن الاستنتاج بأن اللبنة الاولى التي وُضعت في بناء الدولة الاسلامية كانت معتمدة على خط الرعية من تولي هذا الحاكم أو ذاك ودرجة ذكائه، وصحوة ضميره ومدى فهمه في تطبيق قواعد واصول العدل والمساواة التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. فإذا جاء حاكماً ظالماً لا يراعي كل هذه القواعد فما عليهم إلا أن يدبّروا لقتله أو القبول بالامر الواقع لحين ما يأتي أجله ويحل محله حاكم آخر عسى ان يكون أفضل من سابقه الآخر. وقد إستمر هذا الموروث التاريخي الى يومنا هذا وإستمر الناس يقارنون بين الحكام أيهما كان أفضل من يقيّمون الاداء على ضوء ما يتأتى من الحاكم من إستبداد وتعسف ليبدوا بالترحم على ما فات، رغم كل السلبيات التي يمارسها ذلك الحاكم في أيامه، والامر الثاني والذي لا بد من

---

(1) طه حسين/ المصدر السابق ص 32ج1.
(2) طه حسين / المصدر السابق/ 33.

الاشارة اليه في مسألة وضع اللبنة الاولى في بناء الدولة الاسلامية في الصدر الاول للاسلام هو أن هناك مجموعة من الناس كانت متصلة بالنبي محمد(ص) إتصالاً وثيقاً ومنذ اللحظة الاولى من الدعوة، وهؤلاء كانوا قد عُذبوا في سبيل الله في مكة، وهاجروا بدينهم الى الحبشة ثم الى المدينة، والذين آووا ونصروا والذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين لازموا النبي يسمعون له بآذانهم ويكتبون عنه – كل أولئك كونوا طبقة متميزة لم تكن ترى نفسها أحق بالامتياز، ولا أجدر بالاستعلاء وإنما كانوا في تواضع تام يُعلي مكانتهم في نفوس عامة الناس. وكان منهم العبد الذي فُتن في دينه حتى صادف من المسلمين من إشتراه وأعتقه، وكان منهم الضعيف الذي أقبل مستجيراً بمكة يعيش في حمى حلفٍ عقدها مع هذا الحي أو ذاك من أحياء قريش، وكان منهم من صرح نسبه وحسن مولده، ولكنه كان قصير اليد قليل المال، فهو في عزة من قومه، ولكنه في ضيق من عيشه يكسب حياته كما يستطيع، وكل هؤلاء سوّى بينهم الاسلام في الحقوق والواجبات، ولم يكن الاسلام ينتشر حتى إمتازت هذه الطبقة في نفوس المسلمين إمتيازاً طبيعياً، منذ ذلك الوقت نشأت في الاسلام إرستقراطية قوامها القرب من رسول الله، فأصبح الحكم الى قريش وحدها، وأصبحت المشورة الى الانصار، وإذا كان الضمير والمبادئ السامية التي يأمن بها هؤلاء هي الحكم الفصل في سلوكهم فإنها لم تدم طويلا بعد إنقراض هؤلاء المسلمين الاوائل المقربين الى النبي بعد أجيال متواترة من الزمن. فإذا لم تكن هناك أسس وقوانين ثابتة تحدد مسار الدولة وشكل الادارة كالنظام الديمقراطي كما أسلفنا، فأننا سنلاحظ الفرق الكبير في سلوك وتصرفات الخلفاء المسلمين بين عصر الصدر الاول للاسلام وعصور الدولة الاموية والعباسية وما تلى ذلك. وإذا كان الكيان الاول صحيحاً وصادقاً إلا أنه قائماً على أفراد فمن يضمن بقاء هؤلاء الافراد الذين يمسكون زمام الامور من الخلفاء، سيسيرون على نفس المبادئ والمثل في الاجيال اللاحقة، وسيبقى سلوكهم وتصرفاتهم الفعلية مطابقة للمبادئ والقيم الاخلاقية المنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية. لذا نجد أن بعض الخلفاء في الدولة العباسية مثلاً كانوا يسعون لإشباع رغباتهم الذاتية أكثر من سعيهم لخدمة الرعّية من الامة المسلمة. ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر، فقد إمتلك الخليفة المتوكل إبن المعتصم في العصر العباسي عدداً من الجواري يزيد على ثلاثة الآف ومنهم من يقول ستة الآف[1]، عدا حياة الترف في المجالات الاخرى، بينما لم يخطر ببال الخلفاء الاوائل أن يتصرفوا مثل هذا التصرف في حياتهم الزاهدة وهناك مثال أقرب من ذلك، ففي خلافة "عثمان إبن عفان" ظهر إنحراف واضح في السلوك الإداري العام أدى الى حصول ثورة عارمة وكما سيأتي

---

(1) كارول بروكلمان" تاريخ الشعوب الإسلامية" المصدر نفسه ص 210.

شرحها. أن هذا المبدأ ينطبق على كل مجموعة جاهدت من أجل تطبيق مبادئ سامية تخدم المجتمع، وتطمح الى حصول تحول في حياة المجتمع، ولكن الذي يحصل هو أنه سرعان ما تؤدي تلك المجموعة دورها سواء أكانت قد أنجزت المهمة أم لم تكملها، ليأتي بعدها جيل أو جيلين من القادة تتغير فيه الاوضاع، وقد تعود الى الوراء بسبب عدم معرفة أو تحسس تلك الاجيال من الاحفاد بالمبادئ الاساسية بضمير حي يكون حداً فاصلاً بين السلوك والتصرف الفعلي وبين المبادئ الموضوعة لهم مسبقاً. وتكون النتيجة إضمحلال تلك القضية السامية وفشلها أحياناً. ونذكر هنا ما حصل في مسألة بناء الاشتراكية في روسيا وبقية البلدان المجاورة في عصرنا الحالي، وكيف تتابعت الادارات وتغير سلوكهم وحماسهم لقضيتهم الى أن آلت ما آلت إليه الاشتراكية من تدهور على يد غورباتشوف ويلسن رغم وجود أسباب جذريه أخرى لا يسعنا التطرق إليها هنا. ومن هنا نجد أن تتابع الادارات وتعاقبها مع الزمن تؤدي في كثير من الاحيان الى الابتعاد عن المبادئ والاسس التي قامت وتأسست بموجبها تلك الادارة أو ذلك النظام، وذلك لسببين رئيسيين: **الاول:-** عدم ممارسة الاجيال اللاحقة لتحكيم الضمير والتقيد بالمبادئ بسبب عدم ممارستهم للنضال الصعب وعدم معايشتهم لصعوباته، و**الثاني:-** هو حصول تطورات وتغييرات جذرية في ظروف المجتمع الاجتماعية والاقتصادية والفكرية خلال تقادم الزمن وحصول تطور في العقل البشري وتطور حضاري مختلف عن الظروف الاولى التي نشأت فيها تلك المبادئ، ذلك التطور الذي يدعو الى تغيير في بعض التشريعات الفرعية بحيث لا يتقاطع مع الظروف المستجدة او يصطدم معها او يجعل امر تطبيقها مستحيلاً، لذا نشأت الحاجة في وضع آلية ثابتة لا تعتمد على الخليفة أو الحاكم، ومن هنا جاءت النظم الديمقراطية في إعتمادها على أسس ودساتير ثابتة لا تفسح المجال أمام الحاكم بالاجتهاد والتصرف كيفما شاء وتفرض عليه رقابة صارمة. ولذلك نجد ان البلدان التي طبقت النظم الديمقراطية منذ مدة طويلة قد تميزت بإزدياد قوة ومتانة نظامها بمرور الزمن وعبر الاجيال، وذلك من خلال العناء المتراكم للضوابط والاسس الموضوعة غير المعتمدة على أهواء وأمزجة الحكام عبر الاجيال والتي تسمى بالدساتير أو القانون الاساس للدولة. وهكذا بدأت الفوارق واضحة في التطور الحضاري الحاصل لدى الغرب، بالمقارنة مع ما نحن عليه في الشرق وفي العالم الاسلامي عموماً، والبلاد العربية خصوصاً. إذ أصبح الفرق الحضاري واسعاً بحيث ادى الى ما يعرف بصراع الحضارات، وأصبحنا نعاني منه الامرين في كيفية مواجهة ذلك التطور ومواكبته والتعايش معه، خاصة بعد أن زالت الفواصل بين الامم وأصبح العالم كله يعرف بالقرية الصغيرة، نظراً لتطور وسائل الاتصال المختلفة، ولا بد من الاشارة هنا في أننا قد بدأنا والحمدلله في وضع الاسس والقواعد الصحيحة لنظام الحكم في العراق حالياً نأمل له النجاح

ونأمل أن يكون الدستور الدائم مانعاً لسلوك وتصرفات الحكام اللاحقين غير المنضبطة، كما كانت في السابق.

6- نشأة القدسية والغلو في عصر فجر الاسلام:-

لقد ذكرنا في الفصل الاول (أنظر موروث الفكر المقدس والمدنس في بلاد الرافدين) عن تعريف وأصل القداسة والقدسية للحاكم في حضارة وادي الرافدين، والآن نتابع كيفية استمرار تلك المفاهيم ولكن بشكل آخر واسلوب أكثر تطوراً من السابق في قلب الجزيرة العربية، والتي هي جزء من المنطقة الشرق أوسطية ذات الطابع المتشابه لحد كبير في البيئة والمجتمع.

لقد كتب الرصافي في مجال القدسية والغلو في عصر الصدر الاول للاسلام (عصر حياة الرسول محمد) ما يلي:" أن الغاية التي كان يرمي إليها الرسول محمد(ص) هي من الامور التي لا يسعها عمر الانسان (ويقصد هنا من حيث تطبيقها على الواقع بالكامل)، إذن فلأجل الوصول الى تلك الغاية يلزم <u>أولاً</u> إحداث نهضة عالمية كبرى، و<u>ثانياً</u> إستمرار تلك النهضة من بعدهِ، حتى تتم بها الغاية وكلا الامرين لا يمكن إلا أن يكون محمداً مقدساً ومطاعاً لتعذر حصول تلك النهضة، ولو حصلت لأستحال إستمرارها من بعده"[1].

لقد ظهر الاسلام في مرحلة العبودية، وكان المجتمع مقسم الى سادة وعبيد، وكان لا بد من التماشي مع طبيعة العقلية السائدة (العقلية الوثنية) في ذلك العصر مع إدخال بعض التطوير عليها. ولما كانت مسألة القداسة مسيطرة على عقول المجتمع ومتجذرة منذ الآف السنين، فكان لابد لأي مصلح أو حاكم يريد أن يوصل عقيدة وينجح في إيصالها أن يأتي بشيء من القدسية، إلا أن الاسلام جاء بأسلوب أكثر تطوراً من السابق (أي من عصر البابليين والسومرين وغيرهم)، فبدلاً من أن يكون الملك البابلي نائباً للآلهة الحاكمة، يعمل ما يشاء في رعيته وتعمل الرعية كلها لخدمته، أصبح الحكم في عصر الرسول محمد(ص) هو أنه فرد من عندهم حاملاً لرسالة سماوية تدعوهم للتوحيد وعمل الخير والطاعة". ولقد أراد محمداً أن يكون مطاعاً ومقدساً عند أتباعه المسلمين بهدف إيصال رسالته الى الناس بالشكل المقبول والمنسجم مع درجة تطور عقولهم، ومدى تأثير الموروث التاريخي للقداسة في تفكيرهم في ذلك الوقت، ومن أمثال القداسة التي كان يمارسها المسلمون إتجاه النبي محمد في حياته من دون أن يمانعهم من ممارستها هي:- التبرك بنعليه، أو التهافت على وضوءه أو تلقف بصاقه، ولا يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يتقاتلون على وضوءه، وإذا حلق شعره تقاسموا شعره،

---

(1) معروف الرصافي" الشخصية المحمدية أو سرّ اللغز المقدس" ص 428.

وكانوا يغسلون هذا الشعر ويعطوه للمريض فيبرأ[1]،[2] وغيرها من الامور الشائعة والمنسجمة مع عقلية ذلك الزمان. ولم يكتفي المسلمون في التبرك بكل ما يحيط بالنبي محمد، بل إنتقلت القدسية والتبرك في أتباعه وصحابته وآله من بعدهِ، فإذا كانت النهضة التي يريدها محمد للوصول الى غايته لا تتم ولا تستمر بعده إلا بذلك، فأنه كان يحرص كل الحرص على ان يتبعوه فيكون قدوتهم المقدسة ومرجعهم الوحيد في كل شيء، لذلك أحتاج الناس وبشدة الى وجود مرجعية مقدسة يلجئون إليها لكي تكون قدوتهم المقدسة في كل زمان حتى بعد وفاة النبي، وما كان عليهم إلا أن يلجؤا لأطهر الناس وأكثرهم قرباً الى القداسة وهم آل بيت محمد(ص). الذين يرجع نسبهم الى إبنته فاطمة والى أقرب الناس إليه وهو علي بن أبي طالب (ع). وهكذا أصبح الشيعة يتبعون آل البيت بعد وفاة الرسول، وأتخذ أهل السنة التمسك والاقتداء بالصحابة على الاغلب وبأقل درجة من التقديس والتبرك بهم. ومن المفيد هنا أن نستدل على ما أخرجه أحمد في مسنده عن عبدالله بن ثابت، قال: جاء عمر بن الخطاب الى رسول الله فقال له: يا رسول الله، أني مررت بأخ لي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ فتغير وجه رسول الله، فقال عمر: رضينا بالله رباً وبالرسول ديناً وبمحمد رسولاً، فسري عن رسول الله وقال: والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم إتبعتموه لضللتم، ثم أنكم حظي من الامم وأني حظكم من النبيين[3]. فأنظر كيف تغيير وجهه لمّا رأى عمر معجباً بالجوامع التي كتبت له من التوراة لأنه لا يريد أن يراه إلا بالقرآن وحده ولا متبعاً إلا إياه، ولا معتمداً إلا عليه، وكان من طبعه أن يتغير وجهه إذا سمع شيئاً يكرهه أو كلاماً يزعجه ويؤلمه، ولكن عمر عرف لماذا تغير وجهه، ولذا بادره بما ينافي أعجابه بالتوراة ويثبت انه لا يتبع إلا محمداً. إذ قال له" رضينا بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولاً" ثم انظر كيف سري عنه وإنكشف ما بوجهه من تغيير لما رأى عمر قد رجع عما قاله، وترك ما جاء به من جوامع التوراة، وكيف قال ما أنه لا نجاح ولا هداية لهم إلا بإتباعه، وأنهم لو كان موسى حاضراً وأتبعوه لضلوا، وأكد له ذلك بما مضمونه" أنتم لي وأنا لكم" ولهذا السبب، اي لكونه يريد أن يكون مرجعهم المقدس ومتبوعهم المطاع في الاموركلها، كان يتغاضى عما يفعلونه أحياناً من إبتدارهم وضوءه. وتبركهم ببصاقه، وأخذهم شعر رأسه، وشربهم دم حجامته، ونحو ذلك من الامور، غير أن غلوهم هذا كان والنبي حي بين أظهرهم، وقد توقف عند هذا الحد ولم يتجاوزه الى ما هو أعظم، ولكنه بعد وفاته أخذ يتعاظم ويتفاقم كلما مرّ

(1) زاد المعاد" إبن القيم الجوزي" مؤسسة الرسالة- بيروت ج110/1 فصل في غزوة الحديبية.
(2) السيرة الحلبية 325/3، 88/3، 23/3.
(3) مسند احمد، مسند المكيين، الحديث رقم 3، 153، مسند الكوفيين الحديث رقم: 17613.

عليه الزمن، حتى بلغ ما يناقض ما جاء به محمد من كتاب وسنة. ولو افترضنا جدلاً أن كل هذا التقديس والغلو غير صحيح وهو من إختلاق الرواة، فالسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف إذاً تضخم هذا التقديس والغلو الى يومنا هذا الى الدرجة التي أخذ بعض البسطاء من الناس يسعون لأخذ خيط او شريط من القماش يحتفظون به أو يشافون به مرضاهم من شخص قد تكون له صلة النسب مع رسول الله؟ فلا بد وأن يكون لكلِ سلوك في المجتمع وله جذوره التاريخية وأصله الذي نحن في صدد البحث عنه. فصحيح أن محمداً لم يرد لنفسه من كل ما جاء به إلا أمراً واحداً وهو الذكر الخالد مع التقديس، ولذا قرنَ إسمه في الشهادة بإسم الله، وجعل الدخول في الاسلام لا يتم إلا بشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمد رسول الله، مع أن الشهادة الاولى تتم بها الدعوة الى الله، فهي وحدها كافية لهدم الوثنية وإقامة دين التوحيد، ولكنه لم يكتف بها، بل جعل الاسلام لا يتم إلا بالشهادة الثانية معها.

وهنا نورد قصة دخول أبي سفيان للاسلام لما لها من اهمية في هذا الصدد ذلك أن محمداً خرج من المدينة في عشرة الآف يريد فتح مكة، فلما بلغ مُرّ الظهران (موضع قريب من مكة) نزل به فجاءه عمه العباس بأبي سفيان بن حرب حتى أدخله على رسول الله، فقال له رسول الله: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي ما احلمك وما أكرمك وأوصلك لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عني شيئاً بعد[1]. أن أبا سفيان في كلامه هذا قد إعترف بأنه لا إله إلا الله، ولكن محمداً لم يكتف منه بذلك بل قال له: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال بأبي أنت وأمي، أما والله هذه فأن في النفس حتى الآن منها شيئاً[2]. وفي الرواية أن بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام كانا مع أبا سفيان لما جاء به العباس. وأن العباس قال يا رسول الله، ابو سفيان وحكيم وبديل قد آجرتهم، وهم يدخلون عليكم فقال رسول الله: أدخِلهم، فدَخلوا، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم عن أهل مكة ودعاهم الى الاسلام فقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله، فقال رسول الله: أشهدوا أني رسول الله، فشهد بديل وحكيم بن حزام، وقال ابو سفيان ما أعلم ذلك والله، أن في النفس من هذا شيئاً فارجأها (أي أخرّها الى وقت آخر)، فقال العباس لأبي سفيان: ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. فشهد شهادة الحق وأسلم[3]. لاريب أن إقرار أبي سفيان بالشهادة الثانية لم تكن إلا من الخوف حيث هدّده العباس بضرب عنقه، علماً بان أبي سفيان كان

---

(1) السيرة الحلبية، 79/3.
(2) نفس المصدر السابق 79/3.
(3) السيرة الحلبية، 3/79-80.

من مجموعة الدهرية كما أسلفنا في الفصل الثاني (انظر الفصل الثاني الاديان التوحيدية في الجزيرة العربية قبيل الاسلام).

ومهما يكن من أمر فان هذه القصة تدل على أن الاسلام لا يتم بشهادة أن لا إله إلا الله بل لابد مع ذلك من ذكر شهادة ان محمداً رسول الله، وأن إقرار أبي سفيان بالشهادة الثانية لم تكن إلا من خوف حيث هدّده العباس بضرب عنقه، ومن يدري لعله تذكر كيف قُطع رأس أبي جهل بسيفه يوم بدر، وكان أكثر دهاءاً وحنكه من الاخير ففعل ذلك وركب الموجه وفاز بها بعد كل ما عمله من قيادة جيوش قريش في حملاتها ضد المسلمين بادئ الامر. وهكذا صار المسلمون يذكرون محمداً ويتعبدون بذكره في صلواتهم وعلى مآذنهم في كل يوم خمسة مرات ويقيمون الذكر لمحمد في كل مناسبة (كالمواليد والاعراس وغيرها) وبذلك أصبح محمداً مقدساً دائماً الى ما شاء الله[1].

وفي السيرة الحلبية أيضاً عن الزهري قال: نهى رسول الله عن أكل ما يذبح للجن وعلى إسمهم. وأما ما قيل عند ذبحه بسم الله وأسم محمد فحلال أكله، وأن كان القول المذكور حراماً لإيهامه التشريك، وهذا من جملة المحال المستثناة من قوله تعالى (لا أذكر إلا وتُذكر مَعي)، فقد جاء في الحديث الشريف: أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول لك: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت الله أعلم، قال لا أذكر إلا وتُذكَر معي". اقول أن كان ذكر اسم محمد عند الذبح حراماً لأنه يوهم التشريك، فإن ذكر محمد مع الله في قوله: (لا أذكر إلا وتُذكَر مَعي) يلزم أن يكون حراماً لأنه يوهم التشريك أيضاً، غاية ما هناك أنه في الاول تشريك في الذبح وفي الثاني تشريك في الذكر. ولا ريب أن الذكر الخالد مع التقديس الذي أراده محمد لنفسه، قد تم له على احسن ما يرام، إذ صار المسلمون من بعده يذكرونه كما قلنا في صلواتهم الخمس وفي الشهادتين وفي سائر أوقاتهم مقروناً بالصلاة والتسليم، إلا أن محمد شعر بأن المسلمين من بعده سيغالون فيه وسيخرجون به الى ما فوق البشرية وهو لا يريد ذلك، فقال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فأنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله[2]. وكما جاء في موقعين في القرآن، في سورة الكهف، وفي سورة السجدة (قلْ إنّما أنا بشرٌ مثلكم...)[3]. إلا أن المسلمين أبوا أن يخرجوا به عن ذلك. فقد جاء في القرآن في سورة الاسراء (ومن الّيل فتهجّد به نافلة لك عسىٰ أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)[4]، ومعلوم ان المقام المحمود الذي يُحَمّدُهُ القائم فيه ويُحَمّدُهُ كل من رآه

---

(1) معروف الرصافي/ الشخصية المحمدية ص 441.

(2) صحيح البخاري، أحاديث الانبياء رقم 3189، الحدود رقم 6328، سن أحمدن سند الشرة رقم 149، 159، 313، 368 رقم 328، سنن الدرامي، كتاب الرقاق رقم 2665.

(3) سورة الكهف الآية 110.

(4) سورة الإسراء: الآية 79.

وعرفه، وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات، ولكن المسلمين إختلفوا فيه حتى حدثت فتنة كبيرة في بغداد بسبب هذه الآية، فقد قال الحنابلة (جماعة أحمد بن حنبل) بمعنى هذه الآية أن يجلسه الله على عرشه، وقال غيرهم: بل المقام المحمود هو الشفاعة العظمى في فصل القضاء، فدام الخصام بين الفريقين الى أن إقتتلوا وقتل منهم خلق كثير كما جاء في السيرة الحلبية[1].

وهناك أمثلة عديدة في تضخيم وغلوا المسلمين بعد وفاة الرسول محمد وبحثهم دوماً لإيجاد صيغ ورموز ملموسة لأجل تقديسها والالتماس منها في حمايتهم وتلبية طلباتهم الحياتية المتنوعة. ولذلك لجأ قسم منهم في تقديس المنتمين في حسبهم الى الرسول، وبالذات الأئمة الأثني عشر من الامام علي بن أبي طالب وابناءه من بعده. واكثر من ذلك فقد اصبح لقبور الائمة قدسية خاصة سميت بالعتبات المقدسة، يقصد لزيارتها من شتى أنحاء العالم الاسلامي.

ان كل ذلك منسجم مع البيئة الزراعية والرعوية التي يعيشها المسلمون طيلة الفترة المنصرمة ومنذ عصر فجر الاسلام، وأن المفاهيم لا يمكن لها أن تتغير دون تغيير في ظروف المعيشة والبيئة. أن القداسة والمعتقدات الدينية المتميزة لدى البعض من الطائفة الشيعية المسلمة قد أستوطنت وتركزت في مناطق كان السومريين والبابليين والآشوريين يقطنونها وقد تركوا بصمات واضحة في طقوسهم ومعتقداتهم الدينية لدى البعض. لذا نجد أن دور الموروث التاريخي للمعتقدات الدينية في بلاد الرافدين مثلاً، قد حددّ شكل الطوائف المسلمة وأماكن تواجدها طبقاً لدرجة تأثير الموروث التاريخي الثقافي في تلك المنطقة دون غيرها من المناطق. بينما نجد الطائفة السنّية في تواجد أكثر عند المناطق الغربية والصحراوية المتاخمة للحدود مع البلاد العربية الاخرى وكانت دياناتهم اقرب الى اسلام الحجاز في التمسك بعمق في التوحيد التجريدي المطلق. ولتلك الاسباب بالذات لم تنفع كل المحاولات التي جرت عبر التاريخ سواء في الاقناع والحوار المتبادل بين الطرفين أو بأستخدام القوة والقمع. لقد حصلت عدة أحداث تاريخية في فترات زمنية متعاقبة إستخدم فيها هذا الطرف أو ذاك اساليب مختلفة في فرض سيطرتها على الآخر، وفرض معتقداتها إلا أنها باءت بالفشل، وزادت في الفرقة سوءاً. ولا مجال للتوغل هنا في تفاصيل تلك الاحداث التي دخلت فيها عوامل إقتصادية وإجتماعية عديدة بالاضافة للموروث التاريخي الذي يحملاه الطرفين بدرجات متفاوتة.

وخلاصة القول فأن إستخدام القداسة في نشر الدعوة كان فيه أمرين، **الاول** هو أن الهدف من وراء ذلك كان من أجل الحصول على الطاعة وتنفيذ برامج الدعوة الاسلامية من خلال ذلك إلا أن المسلمين ومن خلال موروثهم التاريخي

---

(1) السيرة الحلبية، 366/3.

الثقافي قد بالغوا فيها، وأصبح فيها تشابه لما كان يحصل في العصور الوثنية من إيجاد وسيلة ملموسة للتقرب الى الله، وأصبحت أيضاً أداة للفرقة من خلال الاختلاف الذي طرأ في وجهات النظر في تفسير الآيات والاحاديث النبوية والسنّة فيما بعد. و**الامر الثاني** هو أن منع قراءة أي كتاب ديني عدا القرآن، فكما لاحظنا الحديث الذي دار بين الرسول محمد(ص) والخليفة عمر بن الخطاب حول قراءة بعض فقرات من التوراة، فقد منع الرسول محمد(ص) المسلمين ومنذ ذلك الحين من قراءة كل ما يتعدى محيط ما جاء به الاسلام بهدف المحافظة على القيم الاسلامية ومنعهم من الانحراف الى أديان أخرى، إلا أن ذلك ادى الى تحجيم الفكر وتحديد افق الثقافة، وظل هذا الموروث مؤثراً الى يومنا هذا في تحديد أفق الثقافة والاطلاع على بقية القيم والمعتقدات الدينية وغيرها للشعوب الاخرى. وقد تميز الاسلام في ذلك دون غيره من الاديان، ففي المسيحية اصبح كتاب العهد القديم والذي يظم كل ما جاء به الاولين من الانبياء قبل ظهور السيد المسيح (ع) جزءاً من الكتاب المقدس" العهد القديم والعهد الجديد" يقتدون به عدا ما هو مخالف لما جاء في العهد الجديد أي في الانجيل من أقوال السيد المسيح(ع). ورغم أن التعاليم السماوية واحدة، ولكن تكرار كل ما جاء به الانبياء إنما يزيد من ترسيخ تلك القيم ويعمق من معانيها، وبالتالي ينعكس في سلوكهم وأخلاقهم وتمسكهم في تلك القيم السامية كنتيجة لذلك التكرار. إن مسألة دراسة ما جاء في الكتب السماوية الاخرى لدى المسلمين لا زالت تشكل عقبة كبيرة لإستكمال الفهم للأديان الاخرى، وكيفية التعايش معها في عصرنا الحاضر. ونود ان نشير هنا الى أن هناك جامعة واحدة فقط في كل البلاد الاسلامية في عصرنا الحاضر تهتم بدراسة كافة الاديان لطلبة دراسات العلوم الاسلامية، وهي جامعة الزيتونة في تونس. فقد أدخلت دروساً في الاديان السماوية كافة بالاضافة للبوذية والهندوسية والاديان الوثنية الاخرى[1]. نتمنى أن تعم هذه التجربة في بلدان إسلامية وعربية اخرى، ومن أجل إرساء دعائم الفكر المتنور الواسع عن الأديان الاخرى بالاضافة الى تعزيز مبدأ التعايش السلمي بين الاديان والطوائف المختلفة في العالم. أن مبدأ الحوار بين الاديان في العالم من شأنه ان يزيد من عمق القيم الانسانية السامية التي جاءت بها كل الأديان ويعمّق من فهمنا للآخر وتعاوننا مع الآخر ويؤدي الى زوال العداوات والكراهية بين بني البشر كافة. وأنني اتساءل ما الذي يمنع من إدخال مفاهيم الاديان الاخرى ضمن المناهج الدراسية طالما نحن نؤمن بعقيدتنا وصحتها، وقد ترسخت تلك العقيدة عبر ألف وأربعمائة عام بشكل ثابت ليس كما كان عليه الحال في عهد النبي محمد (ص)، وخاصة بعد تلاشي المسافات الثقافية بين الشعوب والامم.

---

(1) العنيف الأخضر" سلسلة مقالات حول الدراسات الدينية في الوطن العربي" جريدة المدى، بغداد 2004 (لا أذكر العدد واليوم).

7- الحالة الاقتصادية في عصر فجر الاسلام:-

مما لا شك فيه أن الحالة الاقتصادية تعتبر المحرك الاساسي للتغيرات السياسية. ونتيجة لذلك تتغير هي الاخرى، أي أن الحالة الاقتصادية في كل زمان ومكان تؤثر وتتأثر بشكل جذري بالتغييرات السياسية الحاصلة. وقد تم وصف الحالة الاقتصادية في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام في الفصل الثاني، والآن نكشف عما آلت إليه الامور بعد ظهور الاسلام، ولكن قبل ذلك لابد لنا من معرفة الموارد المالية التي تكونت منها خزينة الدولة أو ما يسمى" بيت مال المسلمين" والتي توزع منها الثروة على عامة المسلمين:-

تنقسم الموارد المالية للمسلمين الى أربعة أقسام هي:- الزكاة والغنائم الحربية، والجزية والفيء، والفرق بين الغنائم والفيء هو أن الغنيمة كل ما أخذ من العدو قهراً بعد حربٍ وقتال، والفيء هو ما لم يوجف المسلمون عليه خيلاً ولا ركاباً، أي ما أُخذ من العدو صلحاً بلا حرب ولا قتال. وقد يطلق الفيء أحياناً ويراد به الغنيمة[1]. أما الزكاة، وتسمى الصدقة أيضاً، فهي على اغنياء المسلمين، تؤخذ منهم في كل عام مرة وهي اربعة اصناف من المال، **الاول:** الزروع والثمار،و **الثاني:** بهيمة الانعام من الابل والبقر والغنم، و**الثالث:** الذهب والفضة، و**الرابع:** أموال التجارة على إختلاف انواعها.

ولكل واحد من هذه الاصناف نصاب إذا هو لم يبلغه فلا زكاة عليه. فنصاب الفضة مائتا درهم. ونصاب الذهب عشرون مثقالاً، ونصاب الحبوب والثمار خمسة أوسق وهو خمسة أحمال من احمال إبل العرب، ونصاب الغنم أربعون شاة، ونصاب البقر ثلاثون، ونصاب الابل خمسة وهكذا، وتفصيل ذلك موجود في كتب الفقه الاسلامي قد يختلف بعض الشيء في التفسير بين مذهب وآخر. وتسمى الاموال الحاصلة من الزكاة بالصدقات أيضاً، تصرف على ثمانية أصناف من المسلمين حسب ما مذكور في القرآن االكريم في قوله تعالى (**إنّما الصدقت للفقراء والمسكين والعملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغرمين وفي سبيل الله وابن السبيل...**)[2]. أما الاختلاف في تفسير الآية الكريمة، فقد جاء في الفرق بين الفقير والمسكين، فقيل أن الفقير من يجد القوت، والمسكين من لا شيء له، وقيل الفقير هو المحتاج، والمسكين من أذله الفقر أو غير من أحواله. وفي الحديث النبوي الشريف عن صحيح البخاري:" **ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان، وإنما المسكين الذي لا يسأل ولا يفطن له فيُعطى**"[3]. و"**العاملون عليها**" هم السعاة الذين يقبضونها (أي جباة الضرائب في

---

(1) معروف الرصافي المصدر نفسه ص 325.
(2) سورة التوبة، الآية 60.
(3) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، الحديث 1385.

عرفنا الحاضر) و"**المؤلفة قلوبهم**" هم أشراف العرب كان رسول الله يستألفهم على أن يسلموا، فيرضخ لهم شيئاً منها (أو يقلص منها بنسب معينة) حين كان المسلمون قلة." **وفي الرقاب**" أي المكاتبون من الارقاء، وتتم معونتهم من أموال الزكاة. وقيل هم الاسرى، وقيل تبتاع الرقاب فتعتق. و"**الغارمون**" هم الذين تراكمت عليهم الديون ولا يملكون من تسديدها، وقيل هم الذين تحملوا الحملات، فتدينوا فيها وغرموا" **وفي سبيل الله**" أي هؤلاء الفقراءِ من الغزاة والحجيج المنقطع عنهم الرزق." **وإبن السبيل**" هو المسافر المنقطع عن ماله.

وهؤلاء الاصناف الثمانية ينقسمون الى قسمين: **الاول** يعطى من أموال الزكاة لاجل حاجته وهم الفقراء والمساكين وفي الرقاب وإبن السبيل. **والثاني** يعطى لمنفعته للمسلمين وهم العاملون والمؤلفة قلوبهم والغارمون ولإصلاح ذات البين، والغزاة في سبيل الله. ويتضح مما تقدم إن نظاماً عادلاً في توزيع الثروة على المسلمين يجعل للفقراء حقاً من أموال الاغنياء، كما جاء في القرآن الكريم: **(وفي أمولهم حقٌ للسائل والمحروم)**[1]. لذا سميت الزكاة صدقة لأن صدق الرجل في إيمانه وفي عبوديته لله يكمن في أداءه إياها، وإلا فهي حق واجب الاداء لا صدقة. وهكذا إستخدم الدين صدق إيمان الاغنياء في الله واليوم الآخر من أجل دفع ما عليه من اموال بدلاً من الاسلوب القسري في دفع الضرائب المفروضة علينا في عصرنا هذا. ولكن الفقراء أصبحوا أكثر إيماناً من الاغنياء لأنهم المتلقين للمال، ونجد ذلك واضحاً منذ عصر فجر الاسلام الى يومنا هذا، ومبدأ الزكاة هذا منطبق على مبدأ الاشتراكية، حيث أن الاكثرية من المجتمع هم الفقراء الذين يعيشون جنباً لجنب مع الاغنياء ويشكلون زمرة إجتماعية من الناس تكون بمثابة بنيان واحد، وهم ارباب الحرف وأصحاب الكد والعمل، وهم المنتجون بكدهم وعملهم، ومن ثم صار لهم حق في أموال الاغنياء. وأما الغنائم الحربية فقد أوردنا الكثير عنها في حقل المرغبات في الجهاد. وأما الجزية التي فرضت على غير المسلمين فقد تم العمل بها منذ السنة الثامنة للهجرة الى المدينة وبعد نزول الآية الكريمة في سورة التوبة وهي **(قتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صغرون)**[2]. وقد جاء في كتاب معروف الرصافي" الشخصية المحمدية" (ان سبب نزول آية الجزية قالوا أنها جُعلت عوضاً لقريش عما فاتها من المكاسب والارباح بسبب منع المشركين من الحج، وإيضاح ذلك أن الاسواق التي كانت تقام في موسم الحج لم تكن نافعة إلا بالحجاج الذين يأتون من كل الجهات، وكانت قريش تربح ارباحاً طائلة من

---

(1) سورة الذاريات، الآية 19.
(2) سورة التوبة، الآية 29.

تجارتها في تلك الاسواق، وكان المشركون يحجون مع المسلمين الى أن فتحت مكة، وبعد فتحها بمدة يسيرة نزلت سورة براءة، وفيها نبذ النبي الى المشركين عهدهم، وأعلن الحرب العامة ومنع المشركين من الحج وكما جاء في القرآن الكريم (**...إنّما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا...**)[1]، فلما رأت قريش أن مشركي العرب مُنعوا من الحج، أخذت تتخوف من مغبة ذلك، وما نتيجته من فوات الكسب والربح في تجارتها التي لا تروج إلا بكثرة الحجيج. فجعلت الجزية عوضاً لها عما يفوتها من الربح، وكما تدل الآية الكريمة التي جاءت بعد عبارة المنع وهي (**...وإن خفتم عيلة...**)[2] أي فقراً بسبب منع المشركين من الحج، وما كان لكم من قدومهم عليكم من الارفاق والمكاسب (**...فسوف يغنيكم الله من فضله...**)[3]. أي من عطائه بوجه آخر وهي الجزية)".

وفي تفسير الزمخشري عن إبن عباس قال: ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف، وقال لهم: من أين تأكلون فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم الجزية[4]. من هنا نجد أن بعض الاسلامين المتطرفين يتغاضون عن أسباب وظروف نزول الآية الكريمة بحق أهل الكتاب، في الجزيرة العربية. ويحاولون العمل بها في عصرنا الحاضر، ويعملون أعمالا إجرامية بحقهم دون الاكتراث بكل التغيرات الحاصلة عبر أربعة عشر قرناً من الزمن. ونود أن نذكر هنا الى أن مسألة النجاسة هي عبارة عن موروث قديم لدى بلاد الرافدين كما تم التطرق إليها في الفصل الاول. وقد إختلف علماء الدين والفقهاء حول من عليه دفع الجزية، فعند أبي حنيفة النعمان: تضرب على كل فردٍ من ذمي ومجوسي وصابئ وصربي إلا على مشركي العرب وحدهم، بينما عند الشافعي لا تؤخذ الجزية من مشركي العجم أيضاً، وفنّدَ ذلك إبن القيم في" زاد المعاد"[5].

أما مقدار الجزية فعند أبي حنيفة النعمان: يؤخذ في أول كل سنة من الفقير الذي له كسب إثنا عشر درهم، ومن المتوسط في الغنى ضعفها، ومن الكثير ضعف الضعف اي ثمانية وأربعون درهماً. ولا تؤخذ من فقير لا كسب له، وعند الشافعي: يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار فقيراً كان أم غنياً، وكان له كسب أو لم يكن.

أما الفيء فهي كما أسلفنا من الغنائم التي يأخذونها صلحاً بلا حرب ولا قتال. وهي لرسول الله خاصة يضعه حيث يشاء، وصار حكمه حكم الخمس من

---

(1) سورة التوبة، الآية 28.
(2) سورة التوبة، الآية 28.
(3) سورة التوبة، الآية 28.
(4) الزمخشري" الكشاف" تفسير الاية 29 من سورة التوبة.
(5) إبن القيم" زاد المعاد"، 3/223-224.

الغنيمة، حيث تؤخذ لرسول الله ولذوي القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل. بينما يؤخذ الفيء لمحمد فقط. ومثال على ذلك نذكر فدَك وهي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة مرحلتان أو ثلاثة، وفيها عين فوارة ونخيل كثير كما جاء في" معجم البلدان"[1].

وقد وقعت بين المسلمين بعد وفاة النبي محمد منازعات طويلة من أجل فدك استمرت الى عهد المأمون.

وقصة هذه القرية ان رسول الله (ص) لما حاصر اهل خيبر وفتح حصونها، ولم يبق إلا ثلاث حصون وإشتد بهم الحصار، أرسلوا إليه ان ينزلهم عن الجلاء، وبلغ ذلك أهل فدك، فخافوا وأرسلوا الى رسول الله أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم، فأجابهم الى ذلك، فكانت فدك ملكاً خالصاً لرسول الله[2] بالمقابل.

وكذلك أموال بني النضير فإنها كانت فيئاً لرسول الله لأنه بعدما حاصرهم مدة يسيرة صالحهم على الجلاء، وإن لهم ما حملت الابل من اموالهم إلا آلة الحرب[3]. وقد إختلف الفقهاء في الفئ هل كان ملكاً لرسول الله او لم يكن. كما جاء في مذهب أحمد وغيره، فقد قال إبن القيم: ان هذا النوع من الاموال هو السهم الذي وقع بعده فيه من النزاع ما وقع الى اليوم، وقال أيضاً: لولا إشكال أمره عليهم لما طلبت فاطمة بنت رسول الله ميراثها من تركته وظنت أنه يورث عنه ما كان ملكاً له كسائر المالكين. ولما علم ذلك الخليفة الراشد أبوبكر الصديق ومن بعده من الخلفاء الراشدين لم يجعلوا ما خلفه من الفئ ميراثاً يقسم بين ورثته. بل دفعوه الى علي والعباس يعملان به عمل رسول الله حتى تنازعا فيه وترافعا الى أبوبكر و عمر. ولم يقسم أحد منهم ذلك ميراثاً ولا مكنّا منه عباساً ولا علياً[4].

وقد جاءت مصارف الفئ مذكورة في القرآن الكريم وذلك في سورة الحشر بقوله تعالى (**ما أفاء الله على رسوله من اهل القرىٰ فلله وللرسول ولذي القربىٰ واليتمى والمسكين وإبن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم وما آتكم الرسول فخذوه وما نهكم عنه فأنتهوا وأتقوا الله إن الله شديد العقاب * للفقراء المهٰجرين الذين أخرجوا من ديٰرهم وأمولهم يبتغون فضلاً من الله ورضوٰناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصٰدقون * والذين تبوءو الدار والايمٰن من قبلهم يحبون من هاجر إليهم...**)، الى قوله تعالى (**والذين جاءو من بعدهم...**)[5]

---

(1) ياقوت الحموي:" معجم البلدان" دار صادر- بيروت 239-238/4.
(2) سيرة ابن هشام" عن إبن اسحاق"، 337/3، السيرة الحلبية، 41/3.
(3) السيرة الحلبية، 226/2.
(4) إبن القيم" زاد المعاد" 221-220/3.
(5) سورة الحشر، الايات 7-10.

الى آخر الآية. وخلاصة القول ان الفئ حكمه مثل حكم الخمس من الغنيمة يوزع لأربع جهات هم ذوو القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل فيكون لكل واحد منهم خمس الخمس و يشاركهم فيه غيرهم من المهاجرين والانصار وأتباعهم. وقال عمر بن الخطاب فيما رواه عنه أحمد: ما أحدٍ أحق بهذا المال من أحدٍ، والله ما من احد إلا وله من هذا المال نصيب إلا عبد مملوك، ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله، فالرجل وبلاءوه في الاسلام، والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناؤه في الاسلام والرجل وحاجته، ووالله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء من هذا المال وهو يرعى مكانه[1]. إن ما تركه النبي من مال وفدك كانت موضع خلاف بين المسلمين لفترة طويلة زادت في الفرقة والجدل والعداوة بين الطوائف الى وقت قريب.

يتضح مما تقدم أن هناك ثروة كبيرة قد جمعت ومكنت الدولة من النجاح والازدهار وساعد في توزيع تلك الثروات البسيطة من العيش بأمان أكثر، بالمقارنة عما كانوا عليه في عصر الجاهلية، أيام كانت المنطقة غير موحدة وتعج بالقبائل البدوية المتصارعة فيما بينها. ولم يكن الفقير وضعيف الحال أن يجد مكاناً له في ضمان العيش والاستمرار بالبقاء خاصة في سنين القحط وتفشي الامراض السارية. ولم يعد لعادة **وأد البنات** حاجة للاستمرار في ممارستها لتوفر الاطمئنان والضمان في العيش مهما كانت الظروف قاسية في الجزيرة. وبقدر كل تلك المنافع وغيرها كانت هناك مشاكل تولدت للدولة الاسلامية الفتية لم تكن في الحسبان يمكن إدراجها على النحو الآتي:-

1- لم توضع آلية معينة في جمع الزكاة حيث لم يكن لديهم حسابات وسجلات بالايراد كما معمول به لدينا في الوقت الحاضر، وكان الامر يعتمد كلياً على الضمير الناشيء من درجة الايمان بالقيم والمبادئ الاسلامية السامية والتي كانت حديثة العهد ولم يستوعبها جميع من دخل في الاسلام لذلك فأن عملية جمع الثروة الى بيت المال كانت تشوبها الكثير من الخلل وتؤدي الى خلافات وحساسية وعداوات بين الناس.
2- لقد كان جمع المال الوفير مصدر ضعف للدولة حيث أيقظ منافع فردية خاصة كانت نائمة ونبه مآرب كانت غافلة، ولفت اليه نفوس كانت لا تفكر إلا في الدين. ثم خلق حاجات لم تكن معروفة ولا مألوفة. أظهر للعرب سواء أكان في عصر الرسول محمد وما بعده من أيام الخلفاء الراشدين والدولة الاموية وغيرها، فنوناً من الترف وخفض العيش فأغراهم بها ودعاهم إليها، ثم عودهم إياها، ثم أخذهم بها اخذاً، إلا قلة

---

(1) زاد المعاد: 21/3.

قليلة جداً إستأثر الدين بها من دون الدنيا وشغلها التفكير في الله عن التفكير في المال والمنافع والحاجات[1].

3- لم توضع آلية ومؤشرات ثابتةفي طريقة توزيع الثروة، فأن تحديد الفقير والمحتاج والمسكين وغيره كانت تتم من خلال تقدير وإدعاء الافراد أنفسهم، وهذا يؤدي حتماً الى نشوء التنافس والحسد مهما بلغ حُسن هذا التوزيع من عدالة وحكمة. لأن الافراد غير متساويين في المدينة، فمنهم المهاجرين الذين يستأثرون حتماً في الثروة، والانصار وهم أهل المدينة الاصليين يعتبرون أنفسهم أحق من غيرهم في الثروة، وناهيك عن التوزيع القبلي والعشائري الذي كان مستشرياً ومؤثراً في ذلك العصر أكثر من أي فترة أخرى. ولم تظهر أي مشكلة من هذا القبيل في أيام الرسول محمد ولا في عصر الشيخين، بينما ظهرت واضحاً بعدها في عصر عثمان وما تلاها. يقول طه حسين" أن الابتسام للمال يُغري بالاستزادة منه، والاستزادة منه تفتح أبواباً من الطمع لا سبيل لإغلاقها. وإذا وجد الطمع وجد معه زميله البغّي، ووجد معه زميل آخر هو التنافس، ووجد زميل ثالث هو التباغض، والتهالك على الدنيا وإذا وجدت كل هذه الخصال وجد معها الحسد الذي يحرق القلوب للذين لم يتح لهم من الثراء ما أتيح لأصحاب الثراء. وإذا وجد الحسد حاول الحاسدون إرضاءه على حساب المحسودين، وحاول المحسودون حماية أنفسهم، وكان السرّ بين أولئك وهؤلاء"[2]، وهذا ما سنجده في بحثنا في الفترة التي تلت وفاة الرسول محمد(ص).

4- إن توفر المال بكثرة إنما يدعو للتفكير في المزيد من الاستعداد للتوسع في الفتوحات لجنّي المزيد من الغنائم والفئ لذلك كانت تصرف الاموال في شراء المعدات الحربية والتدريب وزيادة القدرة العسكرية، والتي لا شاغل للمسلمين الاوائل غيرها، وبالتالي المزيد من الضحايا والمشاكل الناجمة عن سفك الدماء وغير ذلك. إستمرت الفتوحات الاسلامية مشغولة في التوسع والحروب وجنّي الغنائم، دون الإهتمام بالمعرفة والعلوم وتحسين الاوضاع من خلال إقامة مشاريع ريّ وغير ذلك من المشاريع التي إهتمت بها الدولة العباسية بعد أن توقفت الفتوحات. بالاضافة لذلك فإن الفتوحات رغم كونها سمة العصر في ذلك الوقت ولا إعتراض على ذلك، إلا أن تلك الفتوحات أدت الى زيادة الثروة وأن زيادة مثل هكذا ثروة أدت الى تكوين طبقة

(1) طه حسين،" الفتنة الكبرى" ج2 ص 157.
(2) طه حسين" المصدر السابق نفسه" ج2 ص 158.

إرستقراطية متميزة من الاغنياء الذين أستأثروا بها لمصلحتهم الخاصة، وإزداد التمايز الطبقي وإزداد الحسد بين الاغنياء وبين من لم تتح لهم الفرصة في الاثراء. وقد ولد ذلك إرثاً ثقيلاً لا نزال نعاني منه من الحسد الذي يحزّ في النفوس بين الاغنياء والفقراء. فالاغنياء لم يأتهم المال عن طريق مهارتهم وذكائهم في التجارة أو مثابرتهم في العمل المثمر وإنما جاء نتيجة لسوء في التوزيع والاستئثار بالثروات القادمة من الامصار والبلدان البعيدة. لقد تغيرت الحالة الاقتصادية للعرب في الجزيرة بعد إنتشار الاسلام لكثرة الموارد التي كانت تردهم من كل مكان، وظهرت طبقات من الغنى والفقر أدت فعلها بالنتيجة بالحالة السياسية بعد وفاة النبي محمد (ص) وما سيأتي ذكره في التفصيل خاصة عند الحديث عن الفتنة التي ظهرت في عهد عثمان والتي كان من أهم أسبابها هو رد الفعل ضد إستئثار قريش بأوفر نصيب من الغنيمة[1]. أن تغيير الحالة الاقتصادية للعرب في الجزيرة بعد الاسلام لم يكن ناجماً عن كثرة الموارد وجني الاموال فحسب بل انها تحولت من منطقة مسيطر عليها إلى أن تكون مركزاً لأعظم إمبراطورية في العالم في ذلك الزمان، وهذا بالتأكيد له مردوداته في إزدهار التجارة في أوسع أرجاء العالم وزيادة متصاعدة في الثروة بالمقارنة عما كان عليه الحال قبيل ظهور الاسلام. وقد نشأت خزينة للدولة تعرف ببيت المال. ولم تكن كل تلك الثروة وكل ذلك التغيير في الحالة الاقتصادية للدولة الفتية ناجماً عن إكتشاف صناعي أو زراعي جديد ولا ثروة معدنية أو نفطية من باطن الارض كما هو عليه الحال في عصرنا الحاضر. ولا إكتشاف أرض جديدة كأمريكا أو إستراليا مثلاً ليجنوا منها الخيرات. وإنما كانت كل تلك الثروة وذلك التبدل في الحالة الاقتصادية ناجماً عن إيمانهم بعقيدتهم الاسلامية الرشيدة دون أي تغيير جذري في نمط الحياة العامة.

ولذلك ظل الايمان بالعقيدة أمراً مرتبطاً بالحالة الاقتصادية وبرفاهية المجتمع. وبالتالي أصبح التمسك بالعقيدة الدينية يشكل جزءاً مهماً من كيان المجتمع لابد من الدفاع عنه وعدم التفريط بأي من مفرداته.

وبعد أن إتضح لديهم البون الشائع بين ما كانوا عليه من حالة إقتصادية بائسة أيام الجاهلية وما آلت إليه الامور بعد إسلامهم.

وهكذا هو دائماً الارتباط الوثيق بين المعتقدات والتمسك بها وبين الحالة الاقتصادية والاحوال المعيشية للمجتمع في كل العصور.

---

(1) محمد عابد الجابري- المصدر السابق ص 213.

وهكذا أيضاً لعبت الحالة الاقتصادية دوراً هاماً في تحديد الخارطة الجغرافية للامبراطورية الاسلامية فيما بعد عندما توسعت لتشمل البلدان العربية وغير العربية، وذلك من خلال ما كانت تعاني منه شعوب تلك البلدان من ظلم وإضطهاد إقتصادي في ظل نظام العبودية الجائر وكان الاسلام رحمة بالنسبة لهم بالمقارنة مع كسرى الفرس وقيصر الروم وغيرهم في ذلك العصر.

وهكذا أيضاً يمكن تفسير السؤال الذي يتبادر الى الذهن أحياناً ألا وهو لماذا لم يستطع المسلمون من نشر ديانتهم في البلدان الاوربية بمثلما استطاعوا من نشره في بلدان المشرق مثلاً؟ فقد أصبح من اليسير الاجابة على هذا التساؤل وذلك من خلال كون البلدان الاوربية تتصف بغزارة أمطارها وخضرة أراضيها بحيث أنها لم تكن بنفس القدر من الحاجة الى نظم توزيع الثروة بالطريقة الاشتراكية التي جاء بها الاسلام كما أسلفنا في شرحه عن الزكاة وتوزيعها على المحتاجين وغيرهم. بينما أصبحت الديانة المسيحية أكثر رواجاً في تلك البلدان لأنهم اعتادوا عليها وأصبحت جزء من كيانهم السياسي والاجتماعي.

وبينما كانت بلدان المشرق التي تتصف بالصحراوية أو شبه الصحراوية شديدة الحرارة والجفاف وتتصف بنقص الامطار والموارد وبالتالي فأن شعوبهم يصبحوا بأمسّ الحاجة لتوزيع عادل للثروة، وهكذا فقد كان من السهل عليهم تقبل الدين الاسلامي والتمسك به بإعتباره الاصلح لهم وكما سيأتي شرحه في الفصول القادمة.

وأخيراً يمكن استخلاص ما جاء في الفصل بما ورد في كتاب قصة الحضارة: "لقد نجح محمد (ص) في تحقيق غرضه نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلّ أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به. وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه، فقد لجأ إلى خيالهم، وإلى مخاوفهم وآمالهم وخاطبهم على قدر عقولهم، وكانت بلاد العرب لمّا بدأ الدعوة عبارة عن صحراء جرباء تسكنها قبائل من عبدة الأوثان (على الأغلب) عددهم قليل، كلمتهم متفرقة، بينما أصبحت عند وفاته أمة موحدة متماسكة، وقد كبح جماح التعصب والخرافات بقدر كبير، وأقام فوق المسيحية واليهودية والأديان الأخرى القديمة في بلاده ديناً سهلاً واضحاً وقوياً وصريحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية[1]، (وهذا ما كانت تطلبه المرحلة بدقة). فيما أشار ابن خلدون في مقدمته عن صفات البدو العرب "بأنهم لا يحصل لهم ملك إلا بصبغة دينية، وسبب ذلك أنهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، لما فيهم من صفات التوحش، والغلظة والأنفة وبُعد الهمة

---

[1] ول ديوانت "قصة الحضارة" الجزء 13-14 ترجمة محمد بدران ص 47.

والمنافسة على الرئاسة. فقلما تتفق أهواءهم وتتحد منازعاتهم، إلا إذا أثرت فيهم دعوة دينية، وحصلت لهم بسببها عصبية جامعة، وتبدلت أخلاقهم، وكان الوازع لهم من أنفسهم، فيسهل عند ذلك انقيادهم واجتماعهم، بما يشملهم من الدين المؤلف لكلمتهم والوازع عن تحاسدهم وتنافسهم فيحصل لهم بذلك التغلب والملك. ومع ذلك فإن البدو من العرب أسرع الناس قبولاً للحق والهدى، لسلامة طباعهم، وبراءتهما من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من صفات التوحش"[1]. وهكذا فقد فعل النبي محمد (ص) في الصدر الأول للإسلام أن ألف قلوبهم ووحد منازعاتهم بواسطة الدين، وشيد لهم أمر الرئاسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، وهكذا امتد ملكهم وقوي سلطانهم حتى شمل الأقاليم البعيدة في العصر الأموي والعباسي أيضاً. اما استخدام العنف والقتال في الفتوحات وغيرها فلم تكن سوى نموذج مخفف بالمقارنة عما كان يجري في مناطق أخرى من العالم في ذلك العصر.

إن كل ما ذكر من أعمال عنف حصلت في الصدر الأول للإسلام، لا تساوي شيء بالمقارنة عما كان يجري في الإمبراطوريات الأخرى في العصور الوسطى، وذلك لأن قيمة الإنسان وحياته الدنيوية لم تكن بالمستوى الذي نعرفه في حياتنا في العصر الحاضر، ولم تصل القيم الإنسانية ذلك المستوى ضمن تطور العقل البشري عبر التاريخ. إن تقييم كل حدث أو سلوك تاريخي لا بد أن يبدأ من خلال فهم للمرحلة بكل ما تحتويه من أسباب ومسببات اقتصادية واجتماعية وفكرية كانت سائدة في ذلك الظرف التاريخي.

[1] مقدمة ابن خلدون ص151

الفصل الرابع

عصر الخلفاء الراشدون

الفصل الرابع
عصر الخلفاء الراشدون

ليس الهدف في هذا الفصل سرد حوادث تاريخية مفصلة لأن هذه الفترة من عصر الخلفاء الراشدين لا تختلف كثيراً عن سابقتها في عصر حياة النبي محمد (ص) وتعتبر جزءاً مكملاً وتقع أيضا ضمن عصر فجر الإسلام (وقد أخذت المزيد من البحث والتقصي في كل الحوادث التي جرت لما لها من أهمية) ولكننا سننتقي فقط بعض الأحداث لمناقشتها لما لها من تأثير مباشر في حياتنا الحاضرة من خلال ما تركته من بصمات مؤثرة ظلت عالقة في أذهان الناس على اعتبار أنها البناء الأساسي للدولة الإسلامية، أو ما يسمى بالحجر الأساس للدولة الإسلامية. لذا ازدادت الدراسات والكتب التي تروي الأحداث بتفاصيلها بنفس القدر الذي كانت عليه في عهد الرسول محمد (ص).

وما كاد الرسول الأعظم محمد (ص) أن يلحق بالرفيق الأعلى حتى أحدقت الأخطار بالرسالة التي وقف حياته في توحيد بلاد العرب دينياً وسياسياً. وكانت أول مشكلة تتمثل بمن سيخلف الرسول محمد (ص) في رعاية هذه الأمة لعدم وجود قواعد وأسس وآليات واضحة في الاختيار. وفي المدينة نفسها أحدث نبأ وفاة الرسول الذي لم يتوقعه أحد اضطراباً هائلا شغل الناس عن كل شيء، حتى عن جثمان الرسول محمد (ص) نفسه، فلم يدفن إلا في اليوم التالي حيث كان راقداً في بيت زوجته عائشة[1]. والحق إن جميع الأحقاد السياسية التي كان النبي كبتها في حياته، وذلك من خلال نفوذه الأدبي القوي لم تلبث أن ذرت قرنها، فمن ناحية كان عدد المنافقين* لا يزال كبيراً جداً في المدينة نفسها. ومن ناحية ثانية كان الأنصار العريقون يتوقون إلى التحرير من سلطان الأغلبية المتمثل بالمهاجرين، ليصبحوا سادة موطنهم الأصلي كرة أخرى. ولم يكن سوى العمل بما جاء بالقرآن الكريم { ...وأمرهم شورىٰ بينهم... }[2]. وقد وفق أصحاب الشورى ممن عينهم النبي محمد السابقون، أن اقنعوا الناس بالاعتراف بأبي بكر الصديق.

---

(1) كارل بروكلمان" تاريخ الشعوب الإسلامية" المصدر السابق، ص 83.

* المقصود بالمنافقين هنا هم أولئك الذين أعلنوا إسلامهم بالقول فقط ولكنهم يضمرون السوء للإسلام والمسلمين في قلوبهم.

(2) سورة الشورى، الآية 38

والذي كان يحظى بنفوذ كبير مع عمر بن الخطاب، بأن يكون خليفة للمسلمين من بعده، وذلك بعد الاجتماع الذي جرى في سقيفة "بني ساعدة" المشهور ولم يحظى المرشح الآخر عن الأنصار وهو شيخ الخزرج ـ سعد بن عبادة ـ لتردد الأوس في منحه التأييد[1] ولم يعد بوسع أحد من الأنصار والمهاجرين إلا إن يبايعوا الأمير الجديد، على الرغم من الخلاف الشديد الذي ظهر منذ ذلك الحين في أحقية الخلافة للإمام علي بن أبي طالب، ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة، وقيل إن هناك توصية واضحة من الرسول محمد (ص) بتلك الخلافة من بعده، وسميت تلك الوصية" حديث غدير خمّ" الذي يقول فيه (من كنت مولاه فعلي مولاه) وهو من الأحاديث المتواترة طبقاً لتخريج الذهبي[2] وذلك في يوم البيعة والذي يعتبر يوم عيد لدى الشيعة سمي بعيد الغدير. ولم تتحقق تلك الوصية باعتبار إن الإمام علي كان لا يتجاوز الخامسة و الثلاثين من العمر وقد تنازل هو أيضاً وبايع الخليفة أبو بكر منعا للفتنة بين المسلمين، إلا إن ذلك لا يمنع من حصول فتنة خفية من عدم قناعتهم بذلك، ولا تزال آثار ذلك موجودة في أذهان بعض المسلمين رغم مرور السنين الطويلة عليها. إلا إنها ام تؤدي إلى عمل فعلي في حينها، وقد سارت الأمور على ما يرام نظراً للأخطار والأعباء الثقيلة التي أدركها الجميع، والتي تقتضي التعاون والتكاتف بين الصحابة من اجل تجاوز تلك المرحلة.

لقد ظل الجدل قائماً إلى يومنا هذا ولم تحصل القناعات لحد الآن لدى بعض الفئات من المسلمين بأحقية الإمام علي في خلافة النبي محمد،وهذا يدل على مدى إدراكهم بأهمية الخلافة والقيادة المخلصة حقاً لبناء دولة تقوم على أسس العدل والحق والمبادئ الأساسية الأخرى التي جاء بها الإسلام. ولكن الذي مضى قد مضى ولا يمكن إرجاعه، وما علينا سوى دراسة الماضي والاستفادة من الدروس التي خلفها.

1- فترة حكم أبو بكر الصديق وحروب الردة:-

إن أهم حدث حصل في عصر الخليفة الأول الذي سار على نهج النبي محمد (ص) وطبق الشريعة الإسلامية من القران الكريم والسنة النبوية الشريفة، هي حروب الردة. فقد حصلت موجة كبيرة من الارتداد عن الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول، ما لبثت أن طغت على الحياة السياسية والاجتماعية في الجزيرة العربية[3]. والواقع إن الدوافع الدينية لم تكن مسئولة عن هذه الموجة إلا نادراً،

---

(1) هادي العلوي" خلاصات في السياسة والفكر السياسي في الإسلام" دار المدى للثقافة والنشر الطبعة الرابعة (2004) ص 54.

(2) إبن كثير" البداية والنهاية" ج4، ص 214.

(3) كارل بروكلمان" تأريخ الشعوب الإسلامية" المصدر السابق.

وكل ما في الأمر إن بعض العرب رغبوا في أن يتخلصوا من سلطة المسلمين المتعبة في المدينة. وكانوا يرفضون أن يدفعوا الزكاة. وقد استاءوا خاصة بعمال النبي محمد (ص) الذين كان يبعث بهم في السنوات السابقة إلى كثير من القبائل ليعلموهم الدين الجديد ويجمعوا منهم الزكاة. فقد كان هؤلاء مصدر إزعاج في نظر القبائل البدوية التي كانت تتمتع بكامل حريتها واستقلالها في أماكنها الخاصة. وكان النبي قد شغل نفسه في أيامه الأخيرة بأعداد الجيوش للانتقام من البيزنطينيين الذين هزموا المسلمين في مؤتة. فوجد أبو بكر نفسه مسئولاً عن إنقاذ خطة النبي الأخيرة هذه، على الرغم من إن الأنباء المخوفة عن شيوع الاضطراب في أنحاء الجزيرة كانت تتواتر على المدينة. وهكذا وجه أبو بكر نخبة من جيوش الإسلام إلى الشمال بقيادة أسامة بن زيد، ولكن أسامة وجنوده قضوا شهرين خارج المدينة للتهيئة وبذلك أصبحت عاصمة المسلمين في مركز لا يساعدها كثيراً على الدفاع عن نفسها. والواقع إن بني أسد وغطفان، النازلين غير بعيد عن المدينة، كانوا أول من أفاد من هذا الوضع، فهاجموا المسلمين. ولكن أبا بكر استطاع أن يثبت لهم ويصدهم عن أهدافهم ريثما عادت حملة أسامة إلى المدينة. وعهد بالقيادة إلى (سيف الله المسلول) المجرب، خالد بن الوليد الذي هزم كلتا القبيلتين عند بئر بزاخة هزيمة حاسمة اضطرتهما إلى الاستسلام في الحال. ومما يستحق الذكر هنا ما حدث من فتنة بني حنيفة في اليمامة والتي كانت اشد خطراً من سابقتها. ففيما كان النبي على قيد الحياة ظهر في تلك البلاد رجل يدعى مسلمة. وأدعى النبوة، وبعد وفاة الرسول محمد (ص) طالب حكومة المدينة بأن تعترف له بحقوق متكافئة مع حقوق الدولة القائمة (أي دولة المدينة). وكان مسلمة قد شدد على ناحية الزهد والتقشف تشديداً خاصاً، وخفف من وطأة الصيام وحلل الخمرة، وحض إتباعه على الطهارة والعفة سامحاً لكل منهم بالاتصال الجنسي إلى أن يرزق ابناً ذكراً، فحسب، ويقال إن خطبه تقع في كثير من أصدائها على أفكار مسيحية أو فيها كثير من التشابه مع المسيحية[1] وقد كان لهذا الرجل على الرغم من سذاجته، أثر كبير في نفوس إتباعه حتى إن كثيراً منهم ظل يؤمن به بعد سنوات من سقوطه. ولا ندري لماذا أطلق عليه بعض الرواة اسم" مسيلمة الكذاب"، فأسم مسيلمة هو للتصغير والاحتقار كما كان العرب يستخدمونها للأشخاص الذين لا يكنون لهم الاحترام أما الكذاب فأغلب الظن أنها كانت بسبب مخالفتهما للتعاليم الإسلامية. وفي شمال الجزيرة أضرمت امرأة تدعى (سجاح) نيران حركة تشبه حركه مسلمة بين إفراد قبيلة تميم على مقربة من الحدود الفارسية. قد ظهرت بين أخوالها بني تغلب في

(1) محمد عابد الجابري-" العقل السياسي العربي"، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ج3، ص 201 (1990).

العراق، وكانت النصرانية واسعة الانتشار هناك، حتى إذا جاءها نبأ وفاة النبي سارت مع عدد من إتباعها إلى أنسبائها من قبيلة تميم الذين كانوا بحكم بداوتهم الخالصة على مستوى ثقافي أدنى من مستوى غيرهم من العرب، فهم يؤلهون الشمس. وتذهب الروايات إلى أنها اتجهت إلى الجنوب، وعقدت حلفاً مع مسلمة، ولكنهما لم يوفقا إلى توحيد قوى إتباعهما في نضال مشترك ضد المدينة. وهكذا لم يوفق الحليفان وافترقا، فرجعت سجاح إلى العراق حيث اختتمت نشاطها العام، وماتت بعد مدة على الإسلام. والواقع انه عندما جاء خالد بن الوليد إلى أراضي تميم تقدم إليه القوم بالطاعة في كل مكان تقريباً، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا مالك بن نويرة سيد بني يربوع من حنظله الذي أرتد عن الإسلام، عقب وفاة النبي مباشرةً. ولكن خالد بن الوليد ما لبث إن طوقه وجنوده فأضطر إلى الاستسلام أيضا وأمر خالد بقتله وقتل جميع إتباعه طمعاً منه في زوجه مالك الجميلة على ما تقول الرواية.

وبعد إخضاع تميم انتقل خالد إلى اليمامة لقتال أصحاب مسلمة وكانوا قد هزموا قوة إسلامية بقيادة عكرمة. وسار مسلمة بعد ذلك إلى إن بلغ حدود اليمامة الشمالية حيث وقعت معركة حاسمة في عقربه، لم تعرف بلاد العرب كلها أعنف منها من قبل[1]. ولكي يلهب خالد طموح رجاله، فقد جعل كلا من المهاجرين والأنصار والبدو يحارب مستقلاً عن الآخر. وكانت قوة مسلمة التي تتألف من بني حنيفة تفوق قوة خالد عدداً. فقاتلت قتالاً شديداً، فأنكشف المسلمون وأشرفوا على الهزيمة. ولكن سخرية بني حنيفة بهم دعتهم إلى أن يبذلوا أقصى ما يستطيعون من جهد، فوقفوا أولاً إلى أن يضعوا حداً لتقدم العدو، وما لبثوا أن ردوه على عقبه شيئاً فشيئاً. فلما رأى بني حنيفة إن الهزيمة لابد من وقوعها تراجعوا إلى حديقة واسعة، ابتغاء إن يجدوا في حيطانها المنيعة ما يقوي مركزهم ويقيهم من هجوم المسلمين، إلا إن هذا العمل انتهى بهم إلى الهزيمة، فقد هجم المسلمون على الحديقة وسميت بحديقة الموت بعد ذلك، وفتكوا بأعذارهم فتكاً ذريعاً لم ينج منه أحد، حتى مسلمة نفسه. ومن الجهة الأخرى لم تكن خسائر المسلمين يسيرة في تلك الحرب، ويقال إن عدد المستشهدين من المهاجرين والأنصار وصلت إلى سبعمائة رجل، بينهم عدد كبير من أصحاب الرسول السابقين إلى الإسلام وحفظة القرآن. وهكذا تم القضاء على تلك الردة التي كلفت المسلمون ثمن غال. وأستتب الوضع في الجانب الغربي.

إما في الجانب الشرقي من الجزيرة العربية، وهي المنطقة الساحلية التي تمتد على طول الخليج والتي تم إخضاعها إلى سلطة المدينة قبيل وفاة النبي، فقد جرت محاولة أخرى للتخلص من سلطة المسلمين. ففي هجر، العاصمة، تزعم

---

(1) كارل بروكلمان- المصد ر السابق 86.

حركة الردة رجل من نسل المناذرة الذين سبق لهم أن بسطوا سلطانهم على هذه المقاطعات. ولكن العلاء وهو الذي عينه النبي محمد نفسه على تلك المنطقة، أعتصم في حصن يقع إلى الشمال من هجر، وثبت هناك يقاوم المرتدين حتى أقبل خالد بن الوليد لنجدته بعد أن قضى على مسلمة، وسار بنفسه إلى هجر فأخضع الثورة في غير مشقة. أما سكان السواحل والذين كان معظمهم من الفرس فقد أبدوا مقاومة أطول وأعنف. والواقع إن زعيمهم فيروز ظل معتصماً في الزارة الواقعة على ساحل البحر (القطيف اليوم) حتى أوائل خلافة عمر. وعندئذ فقط أستطاع عامل المنطقة، العلاء أن يكرهه على الاستسلام بعد أن قطع عنه الماء.

أما أذا انتقلنا إلى عمان فنجد إن السكان، ومعظمهم من صيادي الأسماك وقرصان البحر، فقد وفقوا بالاحتفاظ باستقلالهم طوال العصور الوسطى كلها تقريباً، حتى عهد سلاطين مسقط الحاليين، وفي ذلك الحين نشبت ثورة على سلالة الجلندي الحاكمة التي سيطرت على تلك المنطقة فأغتنمها المسلمون فرصة للتدخل. وكان الملك عمرو قد دخل في الإسلام، ولكن الأعراب في الداخل ثاروا على جباة الضرائب الذين وجههم إليهم، بناءاً على طلب من الحكومة المركزية. وطلب أبو بكر إلى عكرمة أن يخف لنجدة الملك فأضطر الأعراب إلى الخضوع لقوات المسلمين المشتركة. وهكذا انتهت حروب الردة في فترة قصيرة بعد وفاة الرسول، وقد تكبد المسلمون وغير المسلمون خسائر فادحة، وكانت حرباً ضروس لا يستهان بها عبر تأريخ الأمة الطويل. أما سرعة انتهاء الحرب فيمكن تفسيرها بمقدار ما استطاع المسلمون أن يلمسوا الفوائد التي حصلوا عليها في دخولهم الإسلام، فقد توحدت الأمة، وصار لها شأن كبير وتحسنت أحوالهم الاقتصادية بشكل كبير، بالإضافة إلى الزخم المعنوي العالي في الإيمان بقضيتهم الدينية والجهاد في سبيل الله والجنة وغيرها من المرغبات على القتال. كما ان الحروب والغزوات التي شنوها في عصر النبي محمد (ص) لم تكن قليلة، فكما ذكرنا أنها كانت سبعة وعشرون غزوة خلال عشر سنوات من الهجرة في المدينة تمت بقيادته، مما اكسبهم خبرة ومهارة عالية على القتال. ولكن لنعود إلى الأسباب الحقيقية وراء حروب الردة لتعلق ذلك في موضوع البحث فيمكن إن تقسم الأسباب إلى العوامل التالية:-

1- إن سرعة انتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة عموماً وباستخدام السيف لا يمكن إن يجعل الجميع مؤمنين بالدين الجديد إيماناً حقيقياً ومن الأعماق. فعلى الرغم من مبررات استخدام السيف لأغراض الدفاع أو للتوسع في نشر الدعوة، فأن ذلك لابد وان يترك الكثير من الضغائن والأحقاد في النفوس ويخلق بيئة من الانتقام والثأر للذين قتلوا أو اضطهدوا بغير ذنب. وكان ذلك لابد وان يحدث بغياب التحقيق والقضاء وحكم القانون والحاكم كما هو معمول في

عصرنا الحالي. بالإضافة إلى تراكم تلك الأحقاد الموروثة منذ العصر الجاهلي.

2-إن الانتصار الهائل الذي حققه النبي محمد (ص) في دعوته إلى الإسلام وسرعة انتشاره قد فتح الشهية للعديد من الذين يجيدون السجع العربي من الادعاء بالنبوة وطرح أفكار جديدة تستهوي بعض الناس. وكما ذكرنا في الفصل الثاني كيف كان عدد من المفكرين ظهروا في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام، فقد استمر هذا الظهور في فترة الدعوة وبعدها. ونذكر منهم أميه بن أبي صلت الثقفي وقيس بن ساعدة الأيادي، وفي اليمن ظهر كلاً من شعيب بن مهدم وعمرو بن الحجر الأزدي وصالح بن الهميسع وحنظله بن صفوان وأسعد أبو كرب الحميدي، وسجاح التميمية والأسود العبسي وكل هؤلاء كانت لهم كتب موثقة تاريخياً في السجع يمكن الرجوع إليها، كما مفصل في كتاب محمد عابد الجابري - العقل السياسي العربي -[1]. ولما كانت حروب الردة تتمثل في تراجع وتمرد على مستوى العقيدة. فأن وفاة الرسول محمد (ص) وما تبعها من انقطاع نزول الآيات السماوية بشكل مفاجئ، أحدث فراغاً كبيراً في عدم التهيؤ وممارسة اتخاذ القرارات الصائبة السريعة حسب مقتضيات الحاجة، كما كان يحدث في السابق. وكان ذلك قد ساعد في حصول فوضى. كما استغل البعض (مثل مسلمة) في كسب الناس لصياغة بعض التعديلات على الفرائض الدينية كأن يجعل الصلاة مرتين في اليوم بدلاً من خمس مرات. وان يحلل لهم الخمر والزنى، وتخفيف في بعض أحكام الصيام وغيرها [2]. وكل تلك التعديلات في نظرة تستهوي الكثيرون في حينها.

3-إن عمال الرسول في أرجاء الجزيرة لم يكونوا من الكفاءة والقدرة في إقناع الناس بالدين الجديد وبأحكامه، وقد كانت أسس الدولة قائمة بالدرجة الأساس على درجة الإيمان الراسخ في الدين والمعتمد على تحكم الضمير في إحقاق الحق وإنصاف الناس وكسب رضاهم ولكن ذلك لم يحصل، لسبب إن بعض هؤلاء العمال لم يكونوا بداخلهم بمستوى ما يعهد إليهم من مهام، مما أدى إلى اغتنام الفرص لبعض الناس من الانقضاض عليهم حال وفاة الرسول محمد وحصلت الفوضى المعروفة بحروب الردة. إن التوسع الهائل في الدولة وبفترة قصيرة لم تكن كافية لكسب الخبرة والقدرة على اتخاذ قرارات صائبة بالإضافة إلى ضعف الاتصال بين الأمصار والمركز ووجود بعض المنافقين الذين لم يدخلوا الإسلام إلا لمصالح ذاتية خاصة لا صلة لها بالإيمان العميق للمبادئ التي جاء بها الإسلام.

(1) محمد عابد الجابري- (العقل السياسي العربي) ج3. مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت (1990)، ص 200.

(2) المصدر السابق، ص 216.

إن القضاء على كل التمرد والعصيان الذي حصل في الجزيرة العربية وفي فترة قياسية قد حفز الخليفة أبو بكر بتوجيه جيوشه نحو الخارج لزيادة الفتوحات. وكان المثنى بن حارثة قد شرع الغزوات في جنوب العراق على الحدود الفارسية فاتحاً الحيرة والتي سقطت في أيدي المسلمين عام 633 م. كما وجه جيشاً بقيادة عمرو بن العاص سنة 634 م للهجوم على جنوب شرق فلسطين والآخر بقيادة شرحبيل بن حسنه للهجوم على مقاطعة مواب (البلقاء في الأردن) حتى أذا تمت هذه الانتصارات للمسلمين في الغرب أسرع خالد بن الوليد من العراق إلى الأردن وتولى أمرة الجيش العليا هناك، ومن ثم سار لمساعدة عمرو. وبينما كانت المعارك تدور في الاتجاه الشمالي الشرقي والغربي من الجزيرة توفي الخليفة أبو بكر في المدينة (رحمه الله)، فتولى الأمر من بعده عمر بن الخطاب وبايعه الجميع بدون مشاكل بعد إن رشح أصلاً من قبل الخليفة الأسبق أبو بكر قبل وفاته ولكن هذا الأمر غير مؤكد حسب الرواة.

2-خلافة عمر بن الخطاب:-

كان عمر بن الخطاب من أقوى المهاجرين وأعلاهم مقاماً، وكان يتمتع بسمعة ومقام وجاه في الجزيرة العربية كلها، وقد تميزت خلافته بالتطبيق المتميز لأحكام القرآن والسنة النبوية من حيث تطبيق العدل والحق والمساواة، وحقق انتصارات كبيرة في فتوحاته المتميزة في العراق والشام ومصر. ولا مجال هنا في تكرار تفاصيل ذلك فهي موجودة بغزارة في كتب التاريخ الإسلامي يمكن الرجوع إليها لزيادة التفاصيل والمعرفة. ورغم إن سيرة الشيخين قد أصبحت جزءاً من الأسس التي يستند عليها البعض في تسيير أمور الدولة فيما بعد، إلا إن الحق يقال إن المشاكل التي واجهت عمر خلال ألاثني عشرة سنة التي حكم فيها المسلمين لم يكن في ميسوره إن يبتدع نظاما للدولة أشد أحكاماً. وظلت مشاكل النظام الدستوري غائبا عن الدولة الإسلامية إلى يومنا هذا دون إن ينتبه إليها أحد ويبذل مجهوداً متميزاً لوضع ضوابط في اختيار الحاكم عن طريق رضا غالبية الرعية ومحاسبة هذا الحاكم وإقصاءه في حالات الضرورة. ومن المفيد هنا إن نذكر بعض الأمور الهامة التي حصلت في عصر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، لما لها من أهمية ضمن موضوع بحثنا هذا. فقد نقل اليهود الذين سمح لهم النبي محمد بالبقاء في خيبر وبقية المناطق، إلى سوريا وظلوا متمركزين في منطقة فلسطين منذ ذلك الحين. وصار كل من يعتنق الدين الجديد عربيا بنعمة الإسلام، فهو يلتحق بإحدى القبائل كمولى من مواليها[1]. وهكذا انتظمت الإمبراطورية الثيوقراطية[2]* التي نشأت بعد وفاة النبي محمد (ص) عن الدولة القومية التي رفع قواعدها بطبقتين متميزتين دينياً، وبالتالي سياسياً. فقد كان المسلمون، بوصفهم الحكام، يؤلفون أيضاً طبقة المحاربين. وإذا كان العرب

---

(1) كارل بروكلمان" تأريخ الشعوب الإسلامية" ص 107.

* الثيوقراطية- تعني سلطة الدولة الدينية- أي أن الخليفة هو أعلى مرجع ديني في نفس الوقت.

يؤلفون طبقة المحاربين فقد كان الأعاجم من الجهة الثانية، هم الرعية، وكلمة الرعية هنا مشتقة من القطيع وجمعها رعايا، كما كان يدعوهم تشبيه سامي قديم كان مألوفاً لدى الآشوريين. وفيما كان المسلمون لا يدفعون إلى خزانة الدولة غير الزكاة، كانت الرعية تدفع الجزية لإعانة المسلمين. وكانت الدولة قليلة الاهتمام بشؤون الأعاجم الداخلية. وكان الأساقفة هم الذين تولوا شؤون الرعية في البلدان التي كانت المسيحية منتشرة بنسبة عالية. أما في العراق وبلاد فارس فأحتفظ الدهاقنة أو رؤساء الأقاليم بمكانتهم العليا. ولابد لنا من ذكر حادثة توزيع الغنائم وطريقة التعامل مع السبايا الذين جلبوهم المقاتلين بعد معركة القادسية المشهورة إلى الخليفة عمر وكيف تصرف معهم كما جاء في كتاب الرصافي" الشخصية المحمدية" (1) : " لما فتح سعد بن أبي وقاص مدينة طيسفون المسماة حديثاً بالمدائن، والتي كانت عاصمة الدولة الساسانية، أرسلت الغنائم التي اغتنمها جيش المسلمين إلى المدينة، وكان فيها مال كثير من أموال كسرى، ومن جملة ذلك سواراً لكسرى وتاجه ومنطقته، وبساط كبير، وكان هذا البساط بمساحة ستين ذراعاً منظوماً باللؤلؤ والجواهر الملونة على ألوان أزهار الربيع، وكان يبسط كسرى في إيوانه ويشرب عليه إذا عدمت الزهور، وأرسلت مع الغنائم السبايا أيضاً، وهن بنات كسرى، وكن ثلاثا وعليهن من الحلي والحلل والجواهر ما يقصر اللسان عن وصفه. وأمر عمر بن الخطاب بالمال الذي جن به إن يصب في صحن المسجد، وأخذ يفرقه على المسلمين، وعند ذلك دعا سراقه بن مالك(2)* ، وقال له أرفع يديك والبسه السوارين، وقال له الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول أنا رب الناس، والبسهما سراقه. ثم قطع البساط إلى عدة قطع وفرقه بين المسلمين، فأصاب علي بن أبي طالب منه قطعة باعها بخمسين ألف دينار". إن حادثة تقطيع مثل هكذا بساط في ذلك العصر قد يكون عادياً لدى البعض، ولكنه بالنسبة للمختصين من الباحثين في عصرنا خاصة ممن يهمه أمر تأريخ صناعة السجاد اليدوي والأصباغ والحياكة فأنها تعتبر كارثة تاريخية لان مثل هذه السجادة كانت تعتبر إحدى المعجزات الفنية الرائعة التي تستحق الدراسة والكشف عن كيفية صناعتها بهذا الحجم وماهية الأصباغ المستخدمة فيها للمحافظة على مجهود فكري إنساني قد يضيف إلى سلسلة المعارف كما كبيراً من المعرفة والتقنية. وكان بإمكان الخليفة عمر أن يأمر بالاحتفاظ بها رمزاً للعرب على نصرهم على الساسانيين، ولكان قد أغنى المكتبات العلمية العالمية بالكتب التي تنقل تراث الأقدمين وما وصلوا إليه من

---

(1) معروف الرصافي " الشخصية المحمدية" ص 263.
* سراقة بن مالك هذا كان له قصة شهيرة في مساعدة الرسول في هجرته إلى المدينة وإخفاءه عن أنظار قريش.

تقنيات رائعة في مجال صناعة السجاد وصناعة الأصباغ الطبيعية ذات الأصل النباتي والحيواني التي كانت تستخدم للأصواف في ذلك الزمان. إن عملية تقطيع تلك السجادة الثمينة إلى قطع صغيرة قد أضاعت فرصة لا تعوض في بناء قاعدة معرفية وتقنية لحرفة أصيلة في ذلك العصر.

وعوداً إلى توزيع السبايا" فقد جيء ببنات كسرى الثلاث، فوقفن بين يديه وأمر المنادي أن ينادي عليهن، وأن يزيل نقابهن عن وجوههن ليزيد المسلمين من ثمنهن، فامتنعن من كشف نقابهن، ووكزن المنادي في صدره، فغضب الخليفة عمر وأراد أن يعلوهن بالسوط وهن يبكين ولكن الإمام علي قال له: مهلا يا أمير المؤمنين، فأني سمعت رسول الله يقول: " أرحموا عزيز قوم ذل وغني قوم أفتقر". فسكن غضبه، فقال له علي: إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة، فقال له عمر: كيف الطريق إلى العمل معهن، فقال: يقومن، ومهما بلغ ثمنهن يقوم به من يختارهن، فقومن، وأخذهن علي، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر، فجاءت منه بولده سالم، ودفع الثانية لمحمد بن أبي بكر فجاءت منه بولده القاسم، ودفع الثالثة لولده الحسين فجاءت منه بولده علي الملقب بزين العابدين"[1]. ويستطرد الرصافي في القول:" إن إساءة عمر بن الخطاب إلى بنات كسرى حين أغلظ لهن في القول والفعل وتقسيمه تلك الغنائم وتفريقها بين المسلمين بعد تمزيقها شر ممزق إذ كان بالإمكان الاحتفاظ بتاج كسرى ومنطقته وبساطه لتكون عند العرب مفخرة لهم من مفاخرهم التاريخية. ولكن عمر لم يكن فيما فعله من بيع البنات وتقسيم الغنائم إلا تلميذاً للنبي محمد (ص)" . فقد كان يطبق تعاليم الإسلام وسيرة النبي بدقة، ولم يحرف عنها بأدنى شيء. فكما أسلفنا في الفصل الثالث فأن النبي محمد (ص) قد أباح سبي النساء في حروبه وجعلهن ملكاً تحت رق من سباهن، إن شاء وطأهن، و إن شاء باعهن، وأحل الغنائم لإتباعه، وأوجب تقسيمها عليهم بعد أخذ خمسها لله ولرسوله، كما أسلفنا (أنظر الفصل الثالث ص169)، فلا لوم على عمر فيما فعله، وربما لو كان علي مكان عمر لما فعل غير ذلك (حسب ما يظن الرصافي على الأقل). أما إن عمر غضب على بنات كسرى لما امتنعن من كشف نقابهن وأراد ضربهن بالسوط، فليس بأمر جلل، لأن المرأة الحرة سواء أكانت من بنات الملوك أم من بنات السوقة بعد إن تكون ملكا، وتقف موقف الامة، تباع كما يباع المتاع ولا يكون ضربها بالسوط أمراً غريباً. كانت تلك عادات وسلوك القوم في ذلك العصر. وربما تكون غريبة علينا لأننا نقلب الأوراق عبر أربع عشرة قرنا، وهذا الفارق الزمني ليس بالقليل. الأمر الثاني الذي يستحق الذكر هنا، هو إن الخليفة عمر قد أمر بحرق جميع الكتب الدينية الموجودة ضمن

---

(1) " السيرة الحلبية ج2، 45،

الإمبراطورية الإسلامية من غير القرآن والسنة النبوية. ومن بين تلك الكتب كان الآفستا (أو الزندافستا) [1]* وهو كتاب الزرادشتية. كان مكتوباً على جلد البقر أو الجاموس بأحرف من ذهب وباللغة الفارسية، ويتألف هذا الكتاب من 150 إلف قطعة متخصصة في القصص والأحاديث التاريخية للأولين وفيها من الأحكام والتعاليم الدينية يمكن إن تعتبر من الكنوز التراثية الثمينة جدا في تأريخ الإنسانية عموما. ويقال إن عمر بن الخطاب بعد فتحه بلاد فارس (أو جزءاً كبيراً منها) وكان يعرف لغة الفرس، استطاع أن يتعرف على جزء من ذلك الكتاب، وقد وجد فيه تشابه كبير مع ما جاء في أحكام القرآن الكريم ما يبعث الريبة في القلوب، وربما تذكر قول الرسول محمد(ص) له حين جاء به بالحديث عن آيات التوراة التي حدثه بها صديقه وكيف غضب الرسول محمد (ص) لهذا الإعجاب ومنعه من قراءة أي كتاب غير القرآن (أنظر الفصل الثالث ص180). لقد جاء إحراق الآفستا بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب من أجل المحافظة على الإسلام وإعلاء كلمته ومنع انحراف العرب إلى أديان أخرى فيما لو أطلعوا عليها، ولكن في الجانب الآخر، قد أحرق قلوب الفرس في طمس تراثهم المعتادين عليه منذ أكثر من إلف عام وكاد يحرق معه قلوب الباحثين والمؤرخين في الوقت الحاضر لولا الحصول على نسخ أخرى من هذا الكتاب لم يكن في متناول يده. وهي محفوظة الآن في إحدى المكتبات البريطانية في لندن والفرنسية في باريس. ويقال أيضا انه تم إحراق مكتبة في عهده وهي مكتبة الإسكندرية الشهيرة في مصر والتي تعتبر من أكبر المكتبات التاريخية القديمة في العالم كانت تحوي على كتب تاريخية منذ زمن الفراعنة المصريين. بالإضافة إلى كتب فلاسفة الاسكندر المشهورين. لقد كان القصد من وراء ذلك ترسيخ العقيدة الإسلامية في عقول الناس ونصرة الدين الحنيف. ولم يخطر ببال الخليفة العادل أن يأتي يوم يحتاج إليه الباحثون والدارسون إلى كل تلك الكنوز الفكرية والتي هي ملك لا يعوض لجميع البشر في العالم. إن عملية إحراق التراث الفكري قد تكررت عبر العصور وكانت واحدة من أسباب تخلف العالم الإسلامي.

لقد كان عمر بن الخطاب معروفاً بحبه للعرب. فهو أذن بطل قومي وديني من الطراز الأول في تأريخ الأمة العربية والإسلامية. وقد أوصى بالعرب خيراً عند وفاته، وقال عنهم أنهم (مادة الإسلام) ومعنى ذلك انه كان ينظر إليهم نظرة مخالفة لما كانت قريش تنظر بها إليهم. فقريش كانت في ذلك العهد تتعالى على الأعراب، وكانت تعتبر نفسها قوام الإسلام وأساسه الذي بني عليه[2]. وهكذا

---

* الزندافستا ـ وتعني باللغة الفارسية الكتاب المقدس. ويطلق عليه أحيانا (الزند) أو آفستا طبقا للغات المختلفة من الفارسية والكردية

(2) الطبري" تأريخ الرسل والملوك" ج5، ص 86.

كان تقسيم المسلمين في عهد عمر مكون من طبقتين: طبقة عليا مؤلفة من أشراف قريش، وطبقة سفلى مؤلفة من سواد الأعراب أبناء القبائل البدوية. أما الأعاجم فلم يكن لهم شأن في ذلك الحين. إذ لم يكن قد دخل منهم عدد كبير في الإسلام آنذاك. ولذا ظل موروث احتقار الأعاجم قائما إلى فترة قريبة في عقول الناس في البلاد العربية. وقد ازداد شدة منذ ذلك العصر والذين كانوا يعتبرونهم موالي، وهي نوع من العبودية بالنسب ولغير العربي من المسلمين. ولكن رغم كل هذا، كانت نقاط مضيئة في عهده وهي إن عمر بن الخطاب قد أبطل بعض الأحكام الشرعية التي جاء بها القرآن كقطع يد السارق وإبطال نصيب" المؤلفة قلوبهم" من الفيء، وبهذا حرم قريشا من عطاء كانت تنعم به في أيام النبي وأيام خليفته أبي بكر.

إن نصيب" المؤلفة قلوبهم" مذكورة في القرآن ولكنه نسخ أمراً صريحاً جاء به القرآن وكان تبريره لعمله هذا: إن الرسول محمد كان يعطيهم يوم كان الدين ضعيفاً محتاجاً إلى نصرهم، أما اليوم فقد أصبح الدين قوياً لا يحتاج إلى تأليف قلوب قريش أو استرضائهم[1] كما انه أتخذ علياً مستشاراً له، وكان يتعوذ من معضلة ليس لها لعلي وجود [2]. وقد تزوج من أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب. وهكذا تميزت فترة خلافة عمر بالاستقرار وعدم استئثار قبيلة قريش بالثروة دون غيرها من القبائل. كما انه أقصى قادة عسكريين أمثال خالد بن الوليد عن قيادة جيش المسلمين. وقد كان ذلك برسالة تاريخية معروفة وفي الوقت المناسب. وكان ذلك العمل من الأمور الحكيمة التي لابد من عملها لمنع استئثار قائد حقق انتصارات ضخمة، قد تؤدي في نهاية المطاف إلى الاستئثار بالسلطة عن طريق العنف. ومن الملاحظ إن هذا الإجراء معمول به في البلدان الديمقراطية في عصرنا هذا. إذ إن القادة العسكريين في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال يحالون إلى التقاعد حال انجازهم مهمات قتالية كبيرة على الأغلب، مثلما فعل الخليفة عمر مع خالد بن الوليد. إن ممارسة القتال لفترة طويلة من حياة أي إنسان لابد إن يترك آثارها في نفسه تفقده بعضا من قيمه وأخلاقه مهما بلغ من مقدرة، وتصيبه بداء العظمة. وقد يشكل ذلك خطر على مصير السلطة الإسلامية آنذاك. وربما كان لعمر علماً بأنه لو لم يفعل ذلك لاستطاع خالد أن يعمل ما يشبه الانقلاب العسكري على سلطة المسلمين.

3- مصرع الخليفة عمر:-

هذا الرجل العظيم ذو الدور المميز في تأريخ العرب والإسلام وصاحب الانجازات الكبيرة المتحققة في عصر خلافته، ليس فقط في مجال التوسع في

---

(1) علي الوردي" وعاظ السلاطين" ص 126.
(2) ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص 76.

الفتوحات، بل في مجال تطبيقه لأصول الشرع العادلة، وموائمة بعض النصوص لظروف العصر، قتل في عام 644 م وهو في غمرة نضاله الجليل في سبيل نشر راية الإسلام. وتشير المصادر المتيسرة إلى إن شخصا فارسياً يدعى أبو لؤلؤة (فيروز) والذي كان يعمل بخدمة حاكم الكوفة ـ المغيرة بن شعبة ـ قد جاء من الكوفة إلى المدينة ليشتكي إليه من شدة الخراج الذي كان يتعين عليه جمعه لسيده في الكوفة، فلم يسمع منه. فما كان الصباح التالي وانتهى الخليفة إلى المسجد ليؤم الناس في صلاة الصبح طعنه الفارسي هذا بخنجر ذا رأسين بطعنتين كانت أحداهما قاتلة[1]، وفي نفس الوقت غطى نفسه بعباءة سوداء وطعن نفسه ومات في الحال، بينما بقي الخليفة لبعض الوقت وتحدث مع الناس إلى إن وافاه الأجل (رحمه الله). لم يعطي أحد من الكتاب والباحثين تفسيراً شافياً لهذا الحادث، فقد فسر في أغلب الكتب بأنه عمل ناجم عن حقد دفين بين الفارسي والخليفة لأسباب قومية. وأعتبره آخرون حادثاً عرضياً لا معنى له. ولغرض معرفة الدوافع الحقيقية لابد لنا من تسليط بعض الضوء وراء كل أصحاب العلاقة لما لها من دلالات تخص موضوع البحث. فأولاً من هو المغيرة بن شعبة حاكم الكوفة؟ فقد جاء في كتاب طه حسين في الفتنة الكبرى عن سيرة هذا الرجل:" إن أمر المغيرة بن شعبة غريب كله، اختلط فيه الخير بالشر حتى أصبح مشكلة من المشكلات. غدر في شبابه بجماعة من أهل الطائف، قتلهم جميعا بعد إن سقاهم حتى ذهبت الخمر بعقولهم وناموا لا يعقلون، فوثب عليهم فقتلهم. وكانوا أثنى عشر أو ثلاثة عشر رجلا. ولم يستطع إن يعود إلى وطنه في الطائف، فأستاق مالاً كثيراً كان هؤلاء الناس قدموا به من مصر، فمضى به إلى المدينة فأسلم وعرض ما ساق من مال على النبي محمد (ص) فأبى إن يقبله، لأنه نتيجة الغدر وليس في الغدر خير. وسأله المغيرة عن مصيره، وقد أسلم بعد إن فعل فعلته تلك، فقال له النبي: " إن الإسلام يُجبّ ما قبله" وقد نصح للنبي بعد ذلك، وتعرض لأخطار كثيرة في حرب الردة وفي فتح الشام، حتى فقد إحدى عينيه في واقعة اليرموك. ثم شارك في فتح فارس فأبلى بلاءاً حسناً، وقد أمره على البصرة. وكأن إسلامه لم يكن عميق الأثر في نفسه، فقد شهد عليه نفر بالزنى عند عمر، وأوشك عمر إن يقيم عليه الحد، ولولا أن جلب أحد الشهود وهو زياد (ابن أبيه) ليشهد إلى جانبه. فأقيم حد القذف على الشهود الآخرين، وعزل المغيرة عن البصرة. وكان صاحب لذة ومسرفاً على نفسه وعلى الناس، كثير الزواج كثير الطلاق، لم يكن يتزوج واحدة ويطلق حين يجتمع له أربع زوجات وحين يريد أن يستزيد، وإنما كان كثيراً ما يطلق أربعاً ويتزوج أربعاً، حتى أسرف المؤرخون عليه بعد ذلك. فزعم الكثيرون انه

(1) كارل بروكلمان" تأريخ الشعوب الإسلامية" ص109

تزوج ألف امرأة في حياته الطويلة. وزعم المقللون انه تزوج مائة أو تسعاً وتسعين. وتوسط المعتدلون فزعموا انه تزوج ثلاثمائة. وليس من شك في انه كان يؤدي إلى هؤلاء الزوجات مهوراً. وليس من شك كذلك في انه كان يرضي كثيراً منهن على الطلاق السريع. وان ثروته الخاصة لم تكن لتقوم بكل هذا السرف الكثير[1]. فقد كان يعتبر إن بيت المال ملك له ولحاشيته. هذه نبذة من سيرته تكفي لإعطائنا فكرة عن سياسة هذا الرجل. أما بالنسبة لأبي لؤلؤة، فقد قيل عنه انه أحد مفكري عصره، وكان عالما فيزيائياً اكتشف ما يشبه طاحونة الهواء، وقد كان يعاني من مشقة في حياته، ويأمل من سفره إلى الخليفة عبر الصحراء وتحمل كل هذه المشقة إن ينصفه الخليفة ويصغي إليه. وعندما لم يلاقي ما كان يتوقعه حصل له هذا الشعور بالحاجة للانتقام، خاصة انه كان يتمتع بثقة عالية بالنفس واحترام قومه له وأعتبر عدم إصغاء الخليفة له بمثابة مهانة كبيرة.

يتضح مما تقدم إن أبي لؤلؤة لم يقصد من مجيئه إلى المدينة بالانتقام من الخليفة، بل إن هناك مشكلة متفاقمة في الكوفة كان يريد لها حلاً، ولكن نظام الدولة الإسلامية الفتية لم تضع آلية قادرة على حل مشاكل الأمصار البعيدة بصورة صحيحة. ولما حصل كل ذلك لو أن الخليفة قد أرسل شخصاً ثالثاً حيادي ليطلعه على الوضع في الكوفة ويصدر حكمه بعد ذلك. ولم تنتهي الحكاية عند هذا الحد فبالإضافة إلى الخسارة الكبرى في مقتل الخليفة عمر بهذه الحادثة فهناك تفاصيل أخرى هي:" كان مع أبو لؤلؤة شخص آخر هو الهرمزان والذي كان نصرانياً وأسلم فلما مات عمر أقبل أبنه عبيد الله شاهراً سيفه حتى أتى الهرمزان فقتله، ويقول الرواة أنه لما أحس عض السيف وقال: لا اله إلا الله ثم أتى جفينه فقتله ويقول الرواة انه لما أحس الموت صلب بين عينيه. ثم أتى منزل أبو لؤلؤة فقتل ابنته. ولم تكد بيعة عثمان إن تتم حتى شاور المسلمين الذين حضروه في أمر عبيد الله بن عمر هذا الذي ثأر لنفسه بنفسه وثأر لنفسه عن غير بينة، فقتل رجلا مسلماً وقتل ذميين بغير الحق ودون إن يخوله السلطان قتلهما. فأما أهل البصيرة والفقه وفيهم علي بن أبي طالب فأشاروا بالقود، لأن عبيد الله قد تعدى حدود الله"[2]. وزعموا إن عمرو بن العاص قال لعثمان: قد أعفاك الله من هذه القضية، فقد حدث ما حدث وليس لك على المسلمين بسلطان. ويقول المؤرخون إن عثمان قال: " أنا ولي الهرمزان وولي من قُتل على يد عبيد الله، وقد عفوت وأدفع دية من قتل من مالي إلى بيت المسلمين"[3]. وقد أثار هذا العفو سخط بعض المسلمين لأن من يعفو عن عبيد الله كونه ابن خليفة ولأنه قتل مسلماً أعجمياً حديث العهد بالإسلام وآخرين من أهل الذمة. ففي هذا العفو ما يشبه أن يكون

(1) طه حسين" الفتنة الكبرى" ج2، ص 201.
(2) طه حسين، المصدر السابق، ص 65، ج1.
(3) طه حسين" الفتنة الكبرى" الجزء الأول، ص 66.

تمييزاً بين المسلمين، تمييزاً بين العربي والأعجمي. والله لم يفرق بين المسلمين فيما ضمن لهم من حرمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم مهما يكن إباءهم ومهما تكن أجناسهم. وفي هذا العفو ما يشبه أن يكون إهداراً لدماء أهل الذمة على ما تقرر لهم في الدين من الحرمة ورعاية الحقوق ولو ترك الأمر على هذا النحو وأبيح لأبناء الخلفاء وأمثالهم من أبناء كبار الأنصار والمهاجرين إن يثأروا لأنفسهم بأنفسهم، يتبعون في ذلك شهواتهم ونزواتهم، ولا يرفعون أمرهم إلى السلطان، ولا يقيمون البينة على أصحاب ثأرهم لفسد الأمر وضاع العدل، وكانت الفوضى وطمست آيات الدين" . هذا ومن الملفت للنظر إن المؤرخين والباحثين لم يعلقوا على مقتل ابنة أبو لؤلؤة بأي تعليق مما يدل على درجة احتقار المرأة في ذلك العصر حيث لم يدفع أحد دية على قتلها ولم يوجهوا لوماً على أحد. ربما يكون هذا الحادث واحداً من الأسباب التي أدت بأن يكون يوم مقتل الخليفة عمر بن الخطاب عيداً شعبياً لدى الفرس قديماً، يضاف إلى ما فعله الخليفة من إحراقه لكتابهم المقدس (الزندافستا) وما جرى لهم بعد فتح العراق وبلاد فارس من سبي وتقتيل. وقد استمرت مراسيم الفرح تقام كل عام والى وقت قريب. ولم تكن تلك المراسيم نتيجة عداء عابر قومي أو طائفي كما يزعم البعض، بل كانت لها أسبابها وجذورها التاريخية العميقة، وإلا لماذا عمر دون غيره من الخلفاء الراشدين الذين قتلوا غدراً. إن الكره أو المحبة لا يمكن إن تبنى على جهل أو بدون أي سبب ومهما تغاظى عنها الكتاب والباحثون فلابد وان تظهر الحقيقة في يوم ما. ولابد إن يكون لكل فعل رد فعل. وان مشاعر الناس لا تأتي من العدم. وبغض النظر عن جواز حصول تلك المراسيم من عدمها فأن ذلك هو الحال.

4-خلافة عثمان بن عفان:-

لم يكن في ميسور عمر إن يتخذ أي إجراء في ما يتصل بمن يخلفه. وكان أبو عبيد ابن الجراح وهو أقرب الناس إليه بعد أبو بكر - قد توفي قبله، وليس بالإمكان إن نجزم ما إذا كان عمر نفسه هو الذي عين على فراش الموت أهل الشورى الذين فصلوا في المسألة بعد وفاته. وأجتمع للنظر في انتخاب الخليفة الجديد كلا من صهري النبي علي وعثمان وثلاثة من أقرب أصحابه إليه - عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص.أما طلحه الذي كان من المفروض أن يشترك في المؤتمر كعضو سادس فلم يكن في المدينة آنذاك وكل هؤلاء هم من العشرة المبشرين بالجنة[1] * . وقد اتفقوا بتخويل عبد الرحمن بن عوف في حسم الموقف بين إن يختار علي أو عثمان وكان في سؤاله الحاسم إلى الطرفين في إن يلتزم كلا منهما في حكمه بالقرآن والسنة النبوية وسيرة الشيخين، فلم يوافق الإمام علي بالالتزام في سيرة الشيخين. فوقع الاختيار على عثمان بن

---

* إن العشرة المبشرين بالجنة الذين أوصى بهم الرسول محمد (ص) هم: علي وعمر وأبو بكر وعثمان وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد ابن نفيل.

عفان الأموي الذي كان أقل الأعضاء شأنا بالمقارنة مع الآخرين[1]. وهكذا تولى الخلافة عثمان الذي أوصل الأمويين إلى القمة. لأن عهده كان في الواقع عهد أسرته وعشيرته[2]. فلقد ترك تصريف الشؤون لنسيبه مروان بن الحكم في المدينة، وعين أقرباءه حكاما على جميع الإمارات الرئيسية. ومن هنا رأى أصحاب النبي القدماء ـ الذين أثروا ثراءاً ضخماً أثناء الفتوحات والذين اقتنوا بالإضافة إلى أملاكهم الأصلية في حكمه، أملاكا مثلها في الطائف. وأدركوا إن مكانتهم القديمة توشك أن تضيع على يد هذه الأسرة التي تسعى إلى إن تسيطر على كل شيء. وقد حاولوا بادئ الأمر إن يحرروا الخليفة من سلطان أسرته فباءت محاولاتهم بالفشل. وعندئذ أعلنوا الخصومة شخصياً. وما هي إلا فترة قصيرة حتى وجد عثمان نفسه في المدينة وليس من حوله سوى نفر من الأصدقاء. خاصة بعد إن وقفت عائشة (زوجة الرسول) في جانب خصومه، وكذلك أستطاع أعداء الخليفة إن يستثيروا العرب في كافة الولايات، فانقلبوا على عثمان. وكان الوضع يتدهور وينذر بثورة عارمة ضده. فقد ملكت قلة قليلة من المسلمين أرض الأقاليم، ونشأت الملكيات الضخمة في عهد عثمان، أدت إلى انقسام الناس إلى شيع وأحزاب، ونتيجة لهذا النظام الذي استحدثه عثمان سواء أكان عن رأيه هو أو رأي مشيريه، أو كنتيجة طبيعية لاختلاف نمط الحياة بصورة تدريجية عما كانت عليه الحال أيام الرسول محمد (ص) والشيخين.

ولم تكن هذه النتيجة سياسية فقط بل كانت لها نتائج اجتماعية أيضاً. فقد بلغ نظام الطبقات غايته بحكم هذا التحول. فوجدت طبقة ارستقراطية عليا ذات مولد وثراء ضخم وسلطان واسع. ووجدت طبقة البائسين يعملون في الأرض، ويقومون على مرافق هؤلاء السادة. ووجدت بين هاتين الطبقتين المتباعدتين طبقة متوسطة هي طبقة العامة من العرب، الذين كانوا يقيمون في الأمصار ويغيرون على العدو ويحمون الثغور، ويذودون عمن وراءهم من الناس وعما وراءهم من الثراء. وهذه الطبقة المتوسطة هي التي تنازعها الأغنياء ففرقوها شيعاً وأحزاباً، والذي يتتبع تأريخ المسلمين، يلاحظ إن الصراع الأول إنما كان بين الأغنياء ثم بين الطبقة الوسطى والأغنياء. فأما الطبقة الثالثة، طبقة العاملين في الأرض والقائمين على المرافق المختلفة، فلم يظهر أمرهم إلا بعد ذلك، ولها قصة أخرى[3].. فالفتنة في عصر عثمان إنما كانت عربية، نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء. ولم يكن نظام عثمان هذا يذاع ويسرع الأغنياء إلى الانتفاع به، حتى ظهر الشر، وظهر في الكوفة قبل إن يظهر في أي مكان آخر. وظهر في مجلس سعيد بن العاص حاكم الكوفة آنذاك. فقد كان سعيد قد تخير وجوه معينة من الناس ليدخلوا

---

(1) طه حسين" الفتنة الكبرى" الجزء الأول، ص 63

(2) كارل بروكلمان" تأريخ الشعوب الإسلامية" ص 111.

(3) طه حسين" الفتنة الكبرى" الجزء الأول، ص 109.

عليه دون غيرهم من العامة، وليسمروا عنده في الليل. فقال ذات يوم: إنما السواد ـ سواد الكوفة ـ بستان قريش فتغاضب القوم، وكانت كثرتهم من اليمانية، وردوا عليه في ذلك رداً غليظاً، وقالوا له: إنما السواد في إفاءة الله علينا، وما نصيب قريش منه إلا كنصيب المسلمين. وغضب صاحب شرطة سعيد، لأن القوم ردوا على الأمير، فقاموا إليه فضربوه حتى أغمي عليه. فقطع سعيد سمره واحتجب عن هؤلاء الناس، فلزموا مجالسهم وأنديتهم، وأطلقوا ألسنتهم في سعيد وعثمان وقريش، وتسامع الناس بهم واجتمع بعض الناس إليهم. فكتب سعيد إلى عثمان ينبئه بأمرهم، ويذكر انه يخافهم من الفتنة. فأجابه عثمان إن يسيرهم إلى الشام، وكتب إلى معاوية يأمره بلقائهم واستصلاحهم. وهكذا اخرج سعيد هؤلاء الناس إلى الشام بأمر من عثمان. والشيء المهم هو إن سعيد قد نفى هؤلاء الناس عن أرضهم. ولم تقم بينة على أن هؤلاء الناس من القراء الصالحين وأصحاب البلاء في الفتح، قد حاربوا الله ورسوله أو سعوا في الارض فساداً، فهم لم يخلعوا يداً من طاعة، ولم ينكروا سلطان عثمان ولا سلطان واليه عليهم. وإنما كانوا يشهدون الصلاة مع هذا الأمير ويؤدون ما عليهم من حق. وكل ما في الأمر إنهم انتقدوا الأمير في بعض قوله، فما كان ينبغي أن يعاقبوا عليه. إن خروج هؤلاء الناس عن أرضهم بقوة السلطان، وإرسالهم إلى دار غربة لا يطمئنون إليها ولا يسكنون إلى أهلها، وسلبهم حريتهم إنما كانت عقوبة بغير حق ألقت بضلالها على وضع الدولة الإسلامية عموماً. ولم ينتهي الأمر إلى هذا الحد بل إن معاوية لم يقبلهم في الشام وأعادهم إلى الكوفة وبعد مراسلات بين سعيد وعثمان وهؤلاء الناس اضطر عثمان إلى عزل سعيد واختار الناس أبو موسى الأشعري، ووافق عثمان على ذلك، وحصل شيء من الاستقرار ولكنه لم يدم إلا قليلاً، كانت تلك واحدة من الشرارات التي أنذرت باندلاع الفتنة ضد عثمان. إن هذه الحادثة البسيطة في الكوفة تعطي صورة عن حالة النظام في ذلك العصر، ومدلولاتها: أولاً: إن الولايات البعيدة التي كان يحكمها عمال الخلفاء، كانوا من غير أهالي تلك الولايات ولا يعرفون كثيراً عن طبائع الناس هناك، وثانياً: إن الاستئثار بالأرض والأموال، قد خلق نظاماً مقسماً إلى طبقات غنية ومتوسطة وفقيرة ينذر بالمشاكل العديدة لعدم الشعور بالرضا لتقسيم الثروة. وثالثاً: إن العصبية القبلية والتحيز بالإحكام لصالح القبيلة قد ظل متحكماً بشكل رئيسي في القرارات السياسية والاجتماعية والذي لا يزال متحكماً في عقول الحكام وأصحاب الشأن بدء في إفراز سلبياته عليهم. وكان في ذلك ابتعاداً عن روح ومبادئ الإسلام الحقيقية. وهنا لابد من الإشارة إلى إن تلك المشاكل كانت تظهر للخلفاء دون قصد أو تخطيط مسبق من قبلهم. فأن مشكلة الثراء لقبيلة دون أخرى إنما كان نتيجة طبيعية لتوسع رقعة الدولة الإسلامية وأداء الفرائض والغنائم الناجمة من الفتوحات، بالإضافة لازدهار التجارة بين مختلف الأقطار والأمصار. إن حجب الثروة لجماعة دون أخرى قد تكون ناجمة عن الفرق في القدرات والخبرات والطاقات العقلية بين البشر، وهذا أمر طبيعي في كثير من الشعوب، ولكن كان غريبا بالنسبة للدولة الإسلامية الفتية والحديثة التكوين. إما استئثار قبيلة قريش بالثروة دون غيرها، فمن الواضح إنها مارست التجارة في العصر

الجاهلي، واكتسبت خبرة في ذلك وكانت تحكم الجزيرة بالإضافة لانتساب النبي محمد (ص) إليها مع اغلب أصحابه. ولكن ذلك كان مخالفاً للمبادئ الإسلامية وقد كان سبباً للفتنة الكبرى التي حصلت كما سنرى في الفقرات القادمة.

5- مصرع عثمان والفتنة الكبرى:-

لابد لنا من سرد ملخص عن مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان(رض)، لعلنا نقترن أكثر في تصور شكل الحياة الاجتماعية السائدة في ذلك الحين. وتفاصيل الأمر إن الجيش المحارب في إرجاء متفرقة من الأمصار، اخذوا يدركون شيئاً فشيئاً إن صخب السنوات الأولى من الفتح الإسلامي قد انتهى، وإنهم عملوا ما يتنافى مع مصالحهم الشخصية عندما تركوا الحكومة المركزية في المدينة تستأثر بجميع الغنائم العقارية، وذلك إن هذا الوضع قد مكن الدولة من الاستقلال بنفسها عن الجيش الذي تدين له بكل شيء، بعد إن تفردت بتوزيع الأجور الواجب دفعها، وصارت قادرة على الضرب على أيدي مثيري الشغب بالكامل. إن روح الاستياء كانت تعبر عن نفسها بين الحين والآخر عن طريق الهجوم على صندوق المال الإقليمي وسلبه، وعن طريق الاحتجاج على إرسال الأموال الفائضة إلى العاصمة بوجه خاص. وفي سنه 655 م أعلن زعماء الأمصار بان مجال النضال الفعال في سبيل الإسلام بات في المدينة المنورة أرحب منه في المقاطعات النائية الواقعة على حدود الإمبراطورية[1].

واندلعت قوة تتألف من ألف شخص في الكوفة وكان على رأسهم مالك الأشتر الذي كان مواليا للإمام علي شخصياً، ضد سعيد رغم إن عثمان قد استبدل سعيد برجل آخر هو أبو موسى الأشعري والذي يرضى عنه الكوفيين. وفي مصر لم يتورع عثمان من خلع عمرو بن العاص فاتح مصر وتعيين نسيبه عبد الله بن سعد بن أبي سرح حاكماً مكانه على الرغم من إن النبي محمد (ص) قد أهدر مرة دم هذا الأخير واشتدت النقمة على عثمان في مصر وانضم عمرو في تشجيعها بالإضافة إلى محمد ابن أبي حذيفة وهو ابن أبي بكر بالتبني ومن شيعة علي المتحمسين. وفيما كانت إحدى المعارك البحرية الكبرى (معركة ذات الصواري) تدور على الشاطئ البلقاني بين الأسطول المصري و البيزنطيين في عهد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني، انسحب الناقمون من المعركة على ظهر إحدى السفن زاعمين إن جهاد الحق قد انتهى، ولما كانت السنة التالية سار جمع من العرب إلى المدينة ليشن هناك حرب ضد العدو الداخلي. وفي سنه 656 م بلغ هؤلاء أبواب المدينة فإذا بمعظم أهل المدينة وأهالي أمصار أخرى قد جاءوا من كل صوب يقفون إلى جانبهم، مما يدل على درجة استياء الجميع من عثمان الذي كان سيد أقوى إمبراطورية على وجه الأرض في ذلك الحين. وكان لا يملك في

---

(1) كارل بروكلمان- المصدر السابق: ص 113.

قصره جيشاً يدافع عن نفسه ضد الناقمين عليه. ومن هنا تعين عليه إن يباشر بالمفاوضات مع خمسمائة ثائر منهم فوفق لإقناعهم بالانسحاب واعداً إياهم بالعمل على إنصافهم وتحقيق مطالبهم. ولكن الأمويين لم يلبثوا إن اطلعوا رؤوسهم ثانية، وحملوا الخليفة على إن يؤكد في خطبة الجمعة التالية إن المصريين إنما رجعوا إلى بلادهم لأنهم وجدوا أنفسهم على ضلال. فأستاء أهل المدينة لذلك حتى أنهم عيروا عثمان ورجموه بالحجارة فسقط مغشيًا عليه، وحمله القوم إلى خارج المسجد الذي لم يطأه قدماه بعد ذلك قط. وتجمهر المدنيون حول منزل عثمان ورفضوا إن يتزحزحوا من أماكنهم ورجع معهم المصريون أيضاً، مدعين انه قد وقعت رسالة في أيديهم من عثمان إلى والي مصر يأمره فيها بالفتك بحاملي الرسالة عند وصولهم إليه. علما بأن الخليفة أنكر تلك الرسالة التي وضعت نصب عينيه. وطلبوا منه إن يستقيل ما دام من الممكن إن يجري مثل هذا العمل من دون علمه، ولكن عثمان رفض إن يحقق هذا الاقتراح الجريء. فحاصروا منزله حيث لم يدافع عنه غير نفر قليل من أنسابه وبعض العبيد والموالي. وأستمر الحصار هذا لمدة أربعين يوماً، وحال الثائرون بين عثمان وبين الماء، حتى أشتد الظمأ عليه وعلى أهله وعياله وحتى أشرف عليهم ذات يوم فذكرهم بأنه أشترى بئر رومة بأمر النبي وجعلها سقايا للمسلمين، وأدخل إليه علياً شيئاً من الماء العذب[1]. وأشتد الكرب وشاع القتل وعظم البلاء، وجعل عثمان يشرف على الثائرين بين حين وحين فيعظهم ويحذرهم ويخوفهم الفتنة وردوه رداً عنيفاً وقد أجتمع القادرون على القتال من بني أمية، وأنضم إليهم شباب من أبناء المهاجرين ، فدخلوا الدار وقاموا يحمونها ويحمون عثمان من الثائرين، وكان بينهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابنا علي ومحمد بن طلحه. وأمر عثمان عليهم عبد الله بن الزبير، وتقدم إليهم في إن لايقاتلوا. ثم جاءت الإنباء بأن أمداد العراق قد دنت من المدينة، وبان أمداد الشام قد وصل إلى وادي القرى. ويقول الرواة إن أهل الدار هم الذين بدؤا فناوشوا الثائرين. وقد رمى أحدهم بسهم من الدار فقتل واحد منهم. وقال الثائرون لعثمان أدفع إلينا قاتل صاحبنا فنغير منه فقال عثمان: ما أعرف له قاتلاً فأدفعه إليكم. ثم حجزت بينهم ليلة منكرة. فلما أصبحوا هجم الثائرون على الدار يحرقون الأبواب، وخرج لهم أصحاب الدار يقاتلونهم، فأشتد القتال وجرح عبد الله بن الزبير وصرع مروان بن الحكم حتى ظن به الموت وقتل آخرون. واقتحمت الدار على أهلها وفي إثناء ذلك فتح عمرو بن حزم بابه وأنفذ من الخوضة أولئك النفر الذين انتهوا إلى عثمان فقتلوه (رحمه الله). وخرج خارج فأذن بالناس: لقد قتلنا أبن عفان ثم فتحت الأبواب ونهبت الدار ونهب بيت المال، ولم يتفرق الناس

---

(1) طه حسين" الفتنة الكبرى" ج1، ص 212.

إلا وقد وقعت الواقعة وكانت الفتنة وصب على المسلمين بلاء عظيم. وتحدث الرواة بأن سعد بن أبي وقاص دخل على عثمان قبل إن يقتل، وسمع منه ثم خرج يطلب عليا حتى لقيه في المسجد، فقال له هلم يا أبا الحسن، إن خليفتك قد أعطى الرضا فأقبل فأنصره واسبق إلى الفضل في نصره. وإنهما ليتناجيان حتى جاء النبأ بقتل عثمان[1]. ودفنت امرأة عثمان ـ نائلة الكلبية ـ التي أصيبت هي الأخرى بجراح ـ جثة الخليفة الصريع في سكينة الليل يساعدها بعض الأصدقاء، وأرسلت بعض أصابع نائلة مع ثياب ملطخة بالدماء تابعة للخليفة عثمان إلى ابن عمه معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، والذي تمسك بها بعد ذلك في خطبه على المنبر ليستثير بها حماس الناس للأخذ بثأر الخليفة. وهنا أصبح المثل الشائع بقميص عثمان إلى يومنا هذا. حيث ثار عدد ممن لديهم أغراض مختلفة بحجة الأخذ بثأر عثمان والاقتصاص من قتلته[2]. أما الثائرون فقد تفرقوا دون أي مكسب سياسي محدد أو تغيير في نظام حكم كانوا يصبون إليه مسبقا. ويشبه د.طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى ما حدث في هذه الفتنة في أول صدر الإسلام بما حدث في آخر الجمهورية الرومانية من هذه" اللاتيفونديا" التي أضاعت الجمهورية الرومانية. وهذه بعينها أضاعت الخلافة الإسلامية الراشدة. ففي ايطاليا ملكت قلة قليلة من الرومانيين أرض ايطاليا، فأنقطع الناس إليها وأصبحوا أحزاباً وشيعاً. و ملكت قلة قليلة من المسلمين أرض الأقاليم، فأنقطع الناس إليها وانقسموا بينهم شيعاً وأحزابا[3]. ولكن الفرق إن الرومانيين استطاعوا إن يغيروا النظام بشكل واضح ويضعوا نظاماً محله أصلح إليهم من السابق، إلا إن ذلك لم يحصل في البلاد الإسلامية. وهذه الحالة استمرت بعد ذلك في العديد من الأحداث التي حصلت بها فتن وثورات، ونذكر هنا ما حصل في العراق على سبيل المثال فقد ثار الثائرون في عام 1920 ضد الاحتلال الانكليزي للعراق، وعندما وافق المحتلون لتشكيل دولة مستقلة لم يجد أحد يختارونه لإدارة البلاد، وذهبوا يستنجدون بالشريف حسين شريف مكة لإرسال ابنه فيصل ليكون ملك عليهم. كما لم يأتي الثوار من الجيش العراقي عام 1958 ببرنامج واضح ومؤثر يؤدي إلى تغيير نمط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد، وكان جل اهتمامهم أن تزال الملكية دون نضوج خطة واضحة لما بعد هذا التغيير. وهكذا كانت المشاكل التي بقينا نعاني منها إلى الآن. فكان الثائرون على عثمان مثلهم مثل الثائرون على غيره ينهون مهمتهم بقتل الحاكم وترك الأمور مضطربة دون قيادة أو أهداف محددة يجنون ثمارها في

(1) طه حسين" الفتنة الكبرى" ج1، ص 214.
(2) كارل بروكلمان المصدر السابق- ص 114.
(3) طه حسين" الفتنة الكبرى" ج1، ص 109.

الحال. ويقي هذا الإرث لدى بعض الناس المطالبين في الوقت الحاضر برحيل القوات الأجنبية قبل استكمال بناء البيت العراقي بصورة كاملة لنيل السيادة الكاملة. هؤلاء لا يبالون من عودة نظام جائر رغم كل القهر الذي أصابهم منه. أن هذا الإرث المتواتر في عدم رسم خطة واضحة بعد كل تغيير قد يكون ناجما من طبيعة النظام القبلي الذي عاش العرب في ظله لفترة طويلة من الزمن وذلك بالانزواء في ظله دون الحاجة الملحة إلى قيام نظام دولة بشكل مختلف عن المعتاد لديهم منذ القدم. وهكذا نجد إن ضعف سيطرة الدولة تؤدي بالنتيجة إلى انتعاش سيطرة وحكم القبيلة وعلى مر العصور وفي كافة إرجاء البلاد العربية. ولعلنا من هنا نقترب من فهم درجة مقاومة التغيير التي نعاني منها في الوقت الحاضر والناجمة من عدم حصول تخطيط مسبق لكل حركة تغيير سواء أكانت على شكل فتنة أو انقلاب عسكري أو ثورة شعبية أو غير ذلك. إن التخطيط المسبق والذي يضمن مستقبل أي تغيير في المجتمع كان يتعارض مع العقلية القبلية والبداوة والموروثة لدى المجتمع الزراعي الرعوي قديماً ولا تزال آثاره واضحة ومؤثرة في مجتمعنا الشرق أوسطي عموما في الوقت الحاضر.

6- خلافة الأمام علي بن أبي طالب:-

تمت البيعة في الخلافة لعلي في المدينة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام. وظهر إن الأمور قد استقامت لعلي في الحجاز والكوفة والبصرة ومصر عدا الشام التي كان يحكمها معاوية ابن عم عثمان. وقد أصبح علياً إماماً للمسلمين بايعه من حضر المدينة من المهاجرين والأنصار، وحيث لم يبقى من أصحاب النبي من ذوي الحظوة في الخلافة سواه وطلحه والزبير. وكانت بلاد المسلمين مضطربة وتفاقمت فيها مشاكل يصعب حلها. ولا نريد الخوض في كل التفاصيل والأحداث التاريخية لتلك الفترة فقد استوفى الكتاب والباحثون العديد منها نخص بالذكر منهم عباس العقاد ومحمد عبده وطه حسين وابن حجر وأحمد أمين وابن خلدون ومحسن الأمين وعلي الوردي ومحمد عابد الجابري وآخرون. لذا سوف ننتقي بعض الأحداث المؤثرة والتي تخص موضوعنا في الإرث التاريخي التي خلفتها تلك الأحداث.

مما لا يختلف عليه اثنان إن الإمام علي هو من أبرز الشخصيات الإسلامية التي ظهرت في صدر الإسلام، ولم يكن مجرد خليفة للمسلمين، بل كان صاحب فكر وعقيدة راسخة، عمل من أجل تكريس المفاهيم والقيم الإسلامية، ومن أبرز مؤلفاته" نهج البلاغة" رغم إن جمع هذا المؤلف قد جاء بعد وفاته بكثير وظهرت له تفسيرات مختلفة عديدة. وكان من أبرز المساهمين في جمع الآيات القرآنية وتوحيدها. وهو يعتبر من أعلام البلاغة والنحو في اللغة العربية وساهم في وضع نقاط فوق الحروف العربية. بالإضافة إلى إنه كان من أعظم المجاهدين في الحروب التي خاضها المسلمون في حياة النبي ومنها حروب

بدر وأحد والخندق وخيبر وحنين. وقد قتل علي جميع من بارزهم كائناً من كان، حتى أشتهر بين الناس في ذلك الحين إن علياً لا يبارز أحداً إلا قتله[1].. [2].كما إن النبي قد تبنى عليا منذ طفولته الباكرة ورباه في بيته. ولما كبر علي زوجه النبي ابنته فاطمة. وربما كان النبي يرجو أن يأتي له النسل عن طريق هذا الزواج. لذا كان علياً ربيب النبي وزوج ابنته من ناحية وبطل من أبطال الجهاد في سبيل دعوته من الناحية الأخرى. وكان زاهداً وعادلاً ولا يحيد عن الحق مهما كلف الأمر. وأفضل ما قيل عنه في وصف صفاته: -" صدق إيمان بالله ونصحاً للدين وقياماً بالحق واستقامة على الطريق المستقيم لا ينحرف ولا يميل ولا يذهن من أمر الإسلام في قليل ولا كثير، وإنما يرى الحق فيمضي إليه لا يلوي على شيء ولا يحفل بالعاقبة ولا يعنيه إن يجد في آخر طريقه نجاحاً أو إخفاقاً، ولا إن يجد في أخر طريقه حياة أو موتاً، وإنما يعنيه كل العناية إن يجد إثناء طريقه وفي آخرها رضا ضميره ورضا الله[3]". وكان لا يهتم لمغريات الجنة ولا يخيفه عذاب النار فله قول مشهور في هذا المجال" آلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك" [4] هذا الحديث مشهور للأمام علي يدل علي انه كان مؤمناً من الطراز الأول وليس لديه طمع مقابل هذا الأيمان. ولعل أول عمل فكر فيه علي بعد تفرغه من مبايعة أهل المدينة هو تغير العمال في الولايات والذين عينهم عثمان لكي يستتب الوضع ويرضى الثائرين الذين قتلوا عثمان بسبب عماله. وأختار عثمان بن حنيف وهو من أعلام الأنصار على البصرة، بينما أرسل أخاه سهيل بن حنيف إلى الشام وأرسل قيس بن سعد بن عبادة إلى مصر لكي يرضي الأنصار. أما الكوفة فقد اختار لها عمارة بن شهاب إلا إن أهل الكوفة لم يوافقوا بغير أبو موسى الأشعري، فرجع من حيث أتى. كما اختار علي ابن عمه عبيد الله بن عباس عاملاً على اليمن. وسار عمال علي إلى أقاليمهم لكن سهيل بن حنيف عاد بعد إن وصل إلى منتصف الطريق إلى الشام فقد أرسل إليه معاوية تهديداً صارماً ينذره بالعودة من حيث أتى، بحجة تصميم أهل الشام بأن يثأروا لعثمان، ونصبوا قميصه للناس وجعلوا يلتفون حوله ويبكون، وتعالت الأصوات باتهام علي بقتل عثمان من أجل تهيئة الأجواء لقتال علي. في نفس الوقت كان هناك تحريض آخر للفتنة بين المسلمين ألا وهو إن السيدة عائشة لم تكن مرتاحة لخلافة علي. وكانت مطالبها أن يثأر لعثمان ممن قتلوه، ثم يرث أمر المسلمين شورى بينهم فيختارون لخلافتهم من يريدون عن رضا النفوس. وهكذا تم التهيؤ للقتال متوجهين إلى البصرة وكان مع عائشة كلا

---

(1) علي الوردي" وعاظ السلاطين" ص 186.
(2) هادي العلوي" خلاصات في السياسة والفكر السياسي الإسلامي" ص 98.
(3) طه حسين" الفتنة الكبرى" ج2. ص 16.
(4) محاضرة خاصة عن" الإمام علي" للأستاذ محمد حسين الفرطوسي أستاذ اللغة العربية.

من طلحه والزبير. وهكذا بدأت الكارثة الأولى بوجه علي ولم يمضي على توليه أمر الخلافة على المسلمين سوى ستة أشهر. فقد أرتحل طلحه والزبير وعائشة يريدون البصرة ومعهم ما يقرب ثلاثة آلاف جندي، وصرف علي همه عن الشام وأزمع الخروج ليرد طلحه والزبير وعائشة عما هما عليه، إلا إنه لم يستطع اللحاق بهم، ولذلك أحتاط للحرب فمضى في طريقه وأرسل إلى أهل الكوفة من يستنفرهم لنصره. وباءت كل المحاولات الرامية إلى تفادي الحرب إلى الفشل ووقعت حرباً سميت بحرب الجمل، لأن عائشة كانت راكبة على جمل وأشتد القتال وراح ضحيته طلحه والزبير وعدد كبير من القتلى والجرحى من الطرفين انتهت بانتصار علي وخذلان عائشة إلى أن عادت نادمة إلى المدينة أشد الندم. هكذا كان تفكير القوم باتخاذ قرارات حاسمة مثل قرار الحرب. وكأنهم يذهبون في بادئ الأمر إلى النزهة. وبعد أن تقع المصيبة ويذهب من يذهب فهم يشعرون بالندم ولكن دون جدوى. بالإضافة لذلك فأن النصر الذي حققه جماعة الإمام علي قادهم لأن يكونوا حريصين على أن يضيفوا نصراً إلى نصر. وبدؤا بالتهيؤ لمواجهة خصمهم في الشام، في حين بدء الخاسرون في الحرب والمصرين على الانتقام بالذهاب إلى الشام للمشاركة في المعركة التالية. وهكذا بدأت حرباً تلد حرباً أخرى. ومن الجدير بالذكر إن حرب الجمل التي كان سببها الظاهري الثأر لدم عثمان هو إن قسم من الذين يطالبون بهذا الثأر كانوا أنفسهم مع الثائرين، حتى طلحه والزبير اللذان قتلا في تلك الواقعة وهم من الميشرين العشرة بالجنة كما أسلفنا، فأما الزبير فلم ينشط في الثائرين نشاطاً ملحوظاً ولم ينشط في تحريضهم أيضاً ولكن ظل يترقب وهواه مع الثائرين. أما طلحه فلم يكون يخفي ميله إلى الثائرين ولا تحريضه لهم ولا أطماع فريقه منهم في نفسه[1]. ولم تكن عائشة" أم المؤمنين" على وفاق مع عثمان وكانت دائماً تلقي اللوم عليه في محاباته لعشيرته. وقد اختار الطرفان وهم من أحب الناس إلى قلب النبي محمد إن يخرجا من المدينة ليذهبا إلى العراق في قتال ضار لم تكن منه في النهاية غير القتل والدمار وتخليف المشاكل تلو المشاكل ورغم إنهم قد بايعوا الإمام علي بالخلافة بالمدينة. ولسنا هنا في إن نبحث عن الأسباب وإلقاء اللوم على طرف دون الآخر كما فعل الكثير من المؤرخين والباحثين، لأن هذا خارج نطاق بحثنا وإنما ننتقي بعض الأحداث ذات الصلة بالمواريث التاريخية المؤثرة في حياتنا، وننظر إلى الأسباب المؤدية إلى تلك الأحداث من زاوية حركة تطور المجتمع المرحلية وتأثير مواريثهم التاريخية وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية والمناخية على جعل تلك الأحداث تسير بالمسار التي كانت عليه. وكانت واقعة الجمل هذه مثالاً لما يدور في أذهان الناس في ذلك العصر. فقد كانت الأسباب الظاهرية

(1) طه حسين" المصدر السابق" ج2، ص7.

لتلك المعركة هو القصاص من قتلة عثمان. فلو فرضنا جدلاً إن عثمان قد قتل من أشخاص محدودة ومعروفة في حين إن العملية جرت من خلال تجمع جمهور كبير يقدر بالآلاف وضمن فترة دامت أربعين يوماً[1]. وكان بالإمكان إن يكون القتلة أي مجموعة تدخل قبل الأخرى لأن جميع الحاضرين كانوا يبغون ذلك العمل. ولو إن القصاص العادل قد أخذ فعله من القتلة الحقيقيين، فهل إن المشكلة التي تسببت فيها الفتنة كانت قد انتهت؟ وكل ما آلت إليه الأمور في عصر عثمان من سوء في توزيع الثروة أو غيرها أو كانت قد وجدت لها حلاً وأصبح كل شيء على ما يرام: الجواب طبعاً كلا. لذا يمكن القول إن الأسباب الحقيقة وراء تلك الحرب والحرب التي تلتها في صفين بين معاوية وعلي لم تكن القصاص من قتلة عثمان، وإنما كانت في عدم اقتناعهم بتولي الإمام علي الخلافة على المسلمين، لأنهم يعرفونه جيداً كيف كان يريد إن يعيد الأصول والأحكام التي كانت سائدة في عصر النبي محمد وعصر الشيخين الراشدين. وكان متشدداً في إحقاق الحق وإعالة الفقراء وما إلى ذلك من قيم وأخلاق سامية. ولكن العصر قد تغير كثيراً بعد ما يقرب من ربع قرن على وفاة الرسول محمد. لقد بدأ الناس ينظرون لدنياهم بعد إن انهالت عليهم الأموال من كل جانب ولذلك أصبحوا يميلون أكثر نحو من يقودهم إلى المزيد من الفتوحات لكسب المزيد من الثروات من خلال المزيد من الغنائم والجزية وغيرها.

7- معركة صفين:-

لعل واحدة من أشهر المعارك بين المسلمين في ذلك الوقت هي معركة صفين التي دارت بين جماعة علي وجماعة معاوية على ضفاف نهر الفرات في منطقة تدعى صفين. فقد صمم الطرفان على إن يخوضا معركة بينهما دون إن تنفع كل الوساطات والرسائل التي دارت بين معاوية والإمام علي من محاولة لمنع سفك الدماء ولكن دون جدوى وتفاصيل تلك المعركة التي دارت في صفين معروفة في كتب التاريخ. ولكن الذي يهمنا هنا بعض ما خلفته من آثار في ارثنا الثقافي وعلى هذا النحو: فقد سار معاوية في جموع أهل الشام حين علم بتأهب الإمام علي للمسير وقدم بين يديه الطلائع أيضاً. وقد انتهى قبل علي إلى صفين.فأنزل أصحابه أحسن منزل، وأرحبه وأقربه إلى شريعة الفرات. ولكن أصحاب علي لم يجدوا

على الفرات شريعة يستقرون فيها فأرسل علي سفراءه إلى معاوية في ذلك فلم يضفروا منه جواب وعادوا إلى علي بغير طائل. ثم لم يلبث أصحاب علي أن رؤوا معاوية يكثر من الحرس على شرعة الفرات ليقهر علياً وأصحابه الظمأ.

---

(1) طه حسين (المصدر السابق نفسه) ج1، ص 219.

ولذلك لم يكن بد من إن يقتتل الناس على الماء، وأشتد القتال على الشرعة، حتى أتيح النصر لأصحاب علي فغلبوا خصمهم على مورد الماء. وأرادوا أن يضطروهم إلى الظمأ ويقهروهم به كما كانوا هم يريدون بهم مثل ذلك، لكن علياً أبى عليهم ما أرادوا، وأثار العافية حتى لا يتعجل الحرب قبل الأعذار إلى خصمه وقبل مناظراتهم فيما بينهم من خلاف. وكره كذلك أن يظمأ خصمه والله قد أجرى النهر ليشرب منه الناس جميعاً لا يستأثر به فريق دون فريق. وهكذا أتيح للقوم إن يلتقوا آمنين أياماً، ليس بينهم قتال ولكن بينهم جدالاً شديداً. ثم رأى علي إن يرسل سفراءه إلى معاوية وأصحابه، فأختلف السفراء بين الفريقين دون أن ينتهوا إلى شي يشبه الصلح. فلما استيأس علي من خصمه عبأ أصحابه على راياتهم وجعلت تخرج إلى فرق معاوية، تخرج فرقه في هذا اليوم من أصحاب علي فتخرج لها فرقة من أصحاب معاوية فأقتتل الفريقان نهارهما. وعليّ لا يتجاوز ذلك الى الحرب العامة رجاء إن ينوب خصمه إلى رشدهم وأن يفيئوا إلى أمر الله ويؤثروا العافية بين المسلمين. ولكن دون جدوى ومضى الأمر على هذا النحو شهراً واستبان للطرفان إن ليس بد من إن يصطدم الجمعان. والملفت هنا إن القوم إذا كفوا عن القتال آخر النهار سمروا، كما تعودت العرب أن تسمر، فتناشدوا الشعر وذكروا المآثر القديمة والحديثة وذكروا بلاء من حسن بلاءه منهم أو من عدوهم في أيامهم تلك[1]. من هنا لابد لنا أن نذكر كيف كان القتال لدى العرب يعد أمراً اعتيادياً وجزءاً من كيانهم ومهنتهم التي اعتادوا عليها منذ زمن بعيد. فبدلاً من تضميد الجراح والاستراحة والتهيؤ لليوم التالي للقتال كانوا يتسامرون ويمرحون في لياليهم بعد القتال في نهارهم. وربما كان هذا السمر يعكس صورة من صور الحياة التي كانوا يعيشونها في ذلك العصر الذي خلف إرثاً ثقيلاً للأجيال التي تلت ذلك والذي نحن نصدده. وهذا يذكرنا ما حصل في العصر الحديث أيام الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات من القرن الماضي حيث كان الجنود العراقيين والإيرانيين في الجبهة الجنوبية مثلاً يتفقون على أوقات معينة (أوقات الصلاة والغداء) لا يرمي أحدهم الآخر بالمدفعية، دون علم كبار آمريهم بهذا الأمر مما يدل على أن الشعبين لا صلة لهم بما اختلف الرؤساء عليه وهم ينفذون أوامر حربية غير مقتنعين بجدواها. وبعد إن سئم الطرفان الحرب المتقطعة الفاترة تعجلوا الكارثة، وتزاحف الجيشان العظيمان فالتقوا صباحاً فأقتتلوا نهارهم كله أشد قتال وأعظمه نكراً وانكشفت ميمنة علي، ثم ثاب بفضل مالك الأشتر ومن ثاب معه من أصحابه فألتئم جيش علي كعهده أول النهار. وأقبل الليل فلم يكف بعض القوم عن بعض وإنما مضوا في حربهم تلك المجنونة حتى استقبلوا صباح يوماً ثالثاً، وحتى ظهر الضعف في جيش معاوية،

---

(1) طه حسين (المصدر السابق) ج2، ص 73.

وهَمّ معاوية نفسه إن يفر، لولا مبادرة من عمرو ابن العاص برفع المصاحف بين الطرفين والدعاء إلى ما فيه أمر الله بالكف عن الحرب وطلب اللجوء إلى التحكيم بين الطرفين. وقد سارع رؤساء الجيش من أصحاب علي يدعونه لقبول ما يعرض القوم. فيأبى عليهم أول الأمر ويبين لهم إن القوم ليسوا بأصحاب قرآن، ولم يرفعوا المصاحف تائبين إلى ما فيها وإنما رفعوها كائدين يبغون خصمهم الفتنة[1]. وقد أشتدوا بالإلحاح على علي بقبول وقف القتال وقد أضطر إلى ذلك كارها. وهكذا توقف القتال بعد سقوط أعداد كبيرة من الطرفين. وعلى إن يعقب ذلك تحكيم بين الطرفين، وكما هو معروف فقد كان عمرو بن العاص يمثل معاوية بينما كان أبو موسى الأشعري عن طرف الإمام علي. واجتمع المفوضون من الفريقين فكتبوا صحيفة سجلوا فيها ما أتفق عليه الخصمان من وضع الحرب، وإيثار الحكم واختيار الحكمين وتحديد الزمان والمكان لاجتماعهما وتأمينهما. وعلى الرغم مما رواه الكثيرون عن أمر رفع المصاحف على الرماح، إلا إن هذا الأمر غير مؤكد، لأن المصاحف لم تكن متوفرة بهذه الأعداد في ذلك الوقت أولاً، ولأن المصاحف لم تكن مطبوعة كما هو عليه الحال في يومنا هذا على ورق وبحجم صغير قابلة للرفع على الرماح أو فوق الرؤوس[2]، لأن الورق لم يكن قد وصل إليهم. وكان المصحف الشريف قد حفظ في دار الخليفة عثمان بعد جمعه بدقة ولم يستنسخ بأعداد كبيرة كما يتصور البعض، ولكن رغم ذلك كانت هناك مكيدة قد دبرت لإنقاذ جيش معاوية من الفناء والعودة إلى الشام منتصرين.

وبعد اجتماع الطرفين المتفاوضين من أجل حل النزاع وجرت مناظرات طويلة ولأيام عديدة. اتفقا على اقتراح لأبي موسى أو عن اقتراح عمرو بن العاص على إن يخلعا من الأمر الخلافة للمسلمين كلاً من علي ومعاوية معاً، وإن يتركا للأمة أمرها شورى بينها تختار له من تشاء. لم يكن قد هيأ كلا من الطرفين أهداف محددة قبل الاجتماع، وكانت هذه أول مرة تحصل وإن يفض النزاع في قتال لدى العرب بالمفاوضات والحوار، إذ لم تكن لغة الحوار في فض النزاعات قد تبلورت بعد في عقولهم، ولم يكونوا قد هيئوا لها مسبقا كما يجب. وهكذا سارت الأمور ليس فقط في تلك المعركة وإنما في جميع المعارك بعدها وعبر التاريخ، وحتى في القضايا الاقتصادية والى يومنا هذا. فكم أضاع العرب من ثروات نفطية هائلة بسبب عدم قدرتهم أو تفوقهم في الحوار مع الشركات النفطية في الغرب ومنذ إن أكتشف النفط لديهم وإلى الآن....وكم من دماء سفكت دون جدوى، كان بالإمكان حقن وإيقاف إراقتها لو كانت هناك ثقافة حوار وتفاوض يستطيعون من خلالها تفادي كل تلك المصائب. ونخص بالذكر منها ما

---

(1) طه حسين (المصدر السابق) ص 74.
(2) كارل بروكلمان- المصدر السابق، ص 118.

عانينا نحن في العراق أيام الحرب العراقية الإيرانية، تلك الحرب العقيمة التي راح ضحيتها ما يقرب المليون شخص من كلا الطرفين. ولم تكن لتستحق قطرة دم بريئة واحدة، عدا الخسائر المادية التي يصعب حسابها. ومهما تعددت الأسباب والدواعي للحرب إلا إنها كان بالإمكان حل كل تلك الإشكالات والمعلقات بين الطرفين بالتفاوض. ولكن غياب الحكمة والعقل حال دون ذلك، وحصل الذي حصل وآلت إلى ما آلت إليه الأمور والأحوال كما هو معروف للجميع. ولا يفوتنا إن نذكر المعارك التي جرت في إقليم كردستان العراق طيلة فترة الحكم الوطني السابق ومنذ عام 1946 ولغاية 2003، فقد راحت مئات الآلاف من أرواح الأبرياء وتم تدمير البنى التحتية للبلد وكانت في غالبيتها تكمن في عدم القدرة في إجادة لغة التفاوض والحوار البناء، وعدم القدرة في رسم الأهداف المستقبلية ووضع الموازنات في الأولويات وبالتالي القدرة في إقناع الطرف المقابل للوصول الى الحل الأمثل.

وعودة إلى موضوع حرب صفين، فقد كانت نتيجة المفاوضات بين الطرفين إن تفرق القوم عن غير شيء كأنهم لم يجتمعوا. وكان الظفر في هذا كله لمعاوية، فقد رفعت الحرب عن أصحابه وأتيح له إن يريحهم، وان يستعد لاستقبال أمره أشد قوة وأمضى عزماً وأعظم بأساً. وورط أصحاب علي في الخلافة والفرقة واضطرهم إلى الفتنة وجعل بأسهم بينهم شديدا[1]. إذ خرج عمرو بن العاص وهو يقول بأن الاتفاق تم على توليه معاوية خليفة على المسلمين، وعلى عكس ما أتفق مع أبو موسى الأشعري من تنح الطرفين عن الخلافة وكانت تلك جوهر المكيدة. وهكذا انتهت حرب صفين لتليها حرب داخلية أخرى بين المسلمين إلا وهي حرب الخوارج في النهروان. فما لبث مركز علي في العراق إن تضعضع إلى حد بعيد وهو لا يزال في طريق عودته من صفين عندما لامه جماعة من جيشه معظمهم من بني تميم، لوماً عنيفاً على ما أبداه من استعداد للنزول عند قرار هيئة التحكيم. وكان من رأيهم إن الحكم لله وحده. فانشقوا عن علي وانسحبوا إلى قرية حروراء، غير البعيدة عن الكوفة. وانتخبوا أحدهم، عبد الله الراسبي خليفة عليهم، حتى إذا ذاع قرار هيئة التحكيم في الكوفة غادر عدد كبير من أشياع علي البلد كمهاجرين أو خوارج، وانضموا إلى إتباع الراسبي في حروراء. وكان زعيمهم قد أقام معسكراً على طريق بلاد فارس، وعلى جانب قناة النهروان عند مصبها في دجلة. وهنا جرت معركة أخرى تعرف بمعركة النهروان، فقد هجم جيش علي على الثائرين في 17 تموز عام 658 م [2] وهزمهم هزيمة شنعاء راح ضحيتها العديد من المسلمين كان من بينهم جماعة

---

(1) طه حسين (المصدر السابق) ص101،ج2.
(2) كارل بروكلمان- المصدر السابق، ص 120.

من أصحاب النبي المقربين وكانوا من أقرباء أهل البصرة والكوفة معاً[1]. يقول طه حسين في كتابه" الفتنة الكبرى" في هذا المجال ما يلي" ظن علي إن الأمور قد استقامت له فلم يبق إلا إن يرمي جيشه هذا المنتصر أهل الشام، ولكن الشيء الذي لم يكن يفكر فيه علي، ولم ينتبه إليه أحد يومئذ هو إن الآلاف من الرجال الذين قتلوا في النهروان كانوا كلهم من أهل الكوفة وبعضهم من أهل البصرة، وليس منهم إلا من ينتمي إلى عشيرة في أحد هذين المصرين. وكثير منهم كانت عشائرهم في جيش علي ذاك الذي قتلهم. فقد كان عدي بن حاتم مثلاً مع علي في النهروان. وكان ابنه زيد في الخوارج الذين قتلوا. وما أكثر أبناء الأعمام الذين قتل بعضهم بعضاً في ذلك اليوم. وقل ما شئت في البواعث التي دفعت أولئك وهؤلاء إلى إن يقتل بعضهم بعضاً. كانوا جميعا مخلصين في الدفاع عما كانوا يرون إنه حق، وكانوا جميعاً يصدرون عن شعور ديني صادق لا شك فيه. ولكنهم كانوا جميعا ناساً يجدون في قلوبهم ما يجد الإنسان من الحزن على فقد الابن والأخ والصديق" . وبعد كل تلك المعارك وصلت إلى مدارك الناس في العراق إن لا جدوى من القتال بعد كل ما جرى. وكلما كان يحثهم الإمام علي على الجهاد لم يعودوا يستجيبوا لندائه. فقد اعتادوا إن يذهبوا للقتال مع غير المسلمين ويعودوا ومعهم الغنائم والأموال والتوسع في سلطان الدولة وفتح مساحات أوسع إلى الدولة الإسلامية، في حين لم يحصدوا من كل تلك المعارك التي خاضوها من الجمل وصفين والنهروان سوى المزيد من الضحايا بين المسلمين والمزيد من الاضطراب في الثغور الشرقية منها والغربية فقد أخذ الروم يطمعون باستعادة الشام وهموا بالغزو فلم يتقهم معاوية إلا بالمال[2]. وهكذا بدأت كفة معاوية تقوى وتتعاظم شيئاً فشيئاً بينما بدأت كفة علي تضعف، رغم إيمان قومه بصحة وصواب رأيه وبأنه مع الحق ومع الله ومع الدين والرسالة السمحاء.
من هنا نقول إن المبادئ والقيم الأخلاقية الرشيدة لا تكفي لوحدها إن تقام وتنتصر، وفي مقابلها ومنافسها مصالح اقتصادية ومنافع دنيوية واضحة المعالم.
ومن وجهة نظر علي الوردي في كتابه" وعاظ السلاطين" ما يلي: " إن العرب التفوا حول الإمام علي في البداية ورحبوا به عند مجيئه الكوفة كخليفة للمسلمين جميعاً فكان قائدهم وشعار حركتهم الاجتماعية الإصلاحية. إذ استبدت قريش في بادئ الأمر وبالذات في أيام خلافة عثمان الذي كان ينتمي لإحدى أبرز أركان قبيلة قريش العربية وهم بني أمية. وثار العرب الآخرون يطالبون بالعدل والمساواة.

---

(1) طه حسين (المصدر السابق) ج2، ص 106.
(2) طه حسين (المصدر السابق) ص109.

وقد أحست قريش أخيراً بالخطر الناجم عن نقمة العرب عليهم فغيرت سياستها نحوهم وأخذت تستميلهم بشتى الوسائل. وهكذا بدأ العرب ينفرون من علي شيئاً فشيئًا. فهم قد أحبوا علياً أول الأمر لأنه ثار ضد قريش المتعالية عليهم. ولكنهم حين وجدوه يساويهم بالموالي نفروا منه. لقد كان علياً يدعو إلى مبدأ المساواة بين الناس جميعاً، لا فرق بين شريف ومشروف أو بين عربي ومولى[1]". ولكن هناك عامل مهم وهو الاقتصاد فقد تغير الوضع العام بعد مرور ما يقرب من ثلاثين عاما على وفاة الرسول، أيام بدء الدعوة الإسلامية وبعد كل تلك الفتوحات والغنائم التي حصلوَا عليها. فقد تغير سلطان الدين على النفوس ولم يعد من القوة بالمقارنة عما كان عليه الحال أيام حياة الرسول والشيخين. بينما استأثر سلطان المال والسيف على القلوب والنفوس. وكل شيء يدل على إن علياً، والذين ذهبوا مذهبه في المحافظة على سيرة النبي والشيخين، إنما كانوا يعيشون في آخر زمان الذي غلب الدين فيه على كل شيء. وعلى العكس من ذلك كان معاوية، فقد كان من دهاة عصره في إغراء الناس بالمال وكسب ودهم ورضاهم. فقد استطاع إن يبسط نفوذه في الشام، وشن حملة على مصر للاستحواذ على سلطانها ونصب عمرو بن العاص مرة ثانية عاملاً عليها. وبدء يتحرش ويطمع في ضم العراق إلى سلطانه، بعد إن أيقن إن علياً قد أخفق في بسط خلافته على كل أقطار الأرض الإسلامية. وفي الحقيقة انه لم يخفق بالمعنى الحقيقي للكلمة لسبب واضح للجميع، وذلك من خلال ما خلفه من مكانة ومنزلة وقيم وأخلاق لا يختلف عليها أثنين، وخلف طائفة من شيعته تعادل سدس العالم الإسلامي تقريباً في عصرنا هذا. لقد أخفق فنيا لما أراد إن تكون عليه أمور الدولة الإسلامية الفتية من بناء رصين مبني على الحق والعدل والشورى، إلا أنها لم تنجح بسبب عدم نضوج وتقبل الناس في تلك المرحلة الزمنية لمثل هذا البناء. وعادت كما هو معروف إلى عهدها السابق في حكم القبيلة ذلك الحكم التسلطي الاستبدادي القسري. وهكذا استطاع معاوية التخطيط لبناء الدولة الإسلامية المعروفة بالدولة الأموية لتكون أقوى إمبراطورية في العالم في ذلك العصر. وهكذا فقد سيطر الموروث التاريخي في سلوك التسلط وحكم القبيلة وفرض نظم القبيلة والبداوة بما فيها من قسوة وعنف في تسيير أمور الدولة الجديدة، التي أريد بها إن تقام على أسس أخرى أكثر تحضراً وثباتاً. من هنا نستطيع القول بأن هناك سلّماً ثابتاً للتطور يعتمد على عوامل عديدة لكي يستطيع إن يتم استيعابه من قبل الأغلبية من الناس ويحقق طفرة مميزة في المجتمع أما المبادئ والأفكار السامية لوحدها فأنها لا تكفي ما لم تتغير معها الظروف الملائمة والأرضية الخصبة لنموها ونضجها.وهكذا انتهت خلافة الإمام علي والذي كان آخر الخلفاء الراشدين الذين

(1) أحمد أمين" ضحى الإسلام" ج1، ص 23، عن علي الوردي" وعاظ السلاطين" ص 205.

جاءوا لإدارة دولة المسلمين بعد النبي محمد (ص) وذلك عن طريق الاختيار بالشورى. انتهت بانتهاء الجماعة الذين عاصروا النبي وكانوا معه بالحماسة والحس والضمير نفسه ولكن ذلك قد انتهى بانتهاء الجيل كله ليأتي جيل آخر لا يعرف كل تلك الحماسة والزخم في التغير. بالإضافة للمتغيرات في الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي حصلت بعد ما يقرب من أربعين عاما على الهجرة النبوية وما أحدثه الإسلام من تغير في المنطقة عموماً، وما حصل من تغير في الوضع الاقتصادي للمسلمين في الشام خاصة والذين كانوا أشد حماساً من غيرهم في قتال البيزنطيين وكسب المزيد من الغنائم بقيادة معاوية.

8- مصرع الإمام علي ونهاية الخلافة الراشدة:-

بينما كان الإمام علي يجاهد في سبيل أصحابه ليحملهم على النهوض معه في حرب الشام لإحقاق الحق وفرض سيطرة الدولة في كافة إرجاءها، ويبعث العديد من الوسطاء من أجل رد غارات معاوية على أطرافه في العراق والحجاز واليمن والتي أصبحت تأتي بشكل متتابع. ويجاهد ضد الخوارج الذين أصبحوا يجاهرونه بالعداء. وبينما كان ينصح الناس ويحثهم لدينهم في خطبه التاريخية المعروفة. كان هناك نفر من الخوارج يخطط للغدر والخيانة بالأسلوب الذي اعتادوا عليه في عمليات الاغتيال السياسي والناجمة عن إرث قديم في التخلص من الخصوم بطريقة العنف التي أشرنا إليها سابقاً. وقد اجتمعوا وائتمروا على إن يريحوا الأمة (حسب عقيدتهم) من ثلاثة زعماء كانوا أساساً في اختلاف أمة الإسلام وهم علي ومعاوية وعمرو بن العاص وأن يثأروا لإخوانهم بقتل علي من جهة أخرى. وهناك قصص عديدة رواها الرواة في عملية قتل الإمام علي إلا إن الأقرب إلى المعقول هو أنهم انتدبوا عبد الرحمن بن ملجم الحميري لقتل علي بينما آخرون ذهبوا لقتل معاوية وعمرو بن العاص واتفقوا على يوم معين ينفذون فيه ما هموا عليه، واختاروا ساعة لاغتيال هؤلاء الثلاثة وكان ساعة الخروج لصلاة الصبح في اليوم السابع عشر من شهر رمضان لعامهم ذاك سنة أربعين للهجرة[1]. ولم تفلح خطة قتل معاوية وعمرو بن العاص بينما نجحت في قتل الإمام علي حيث ذهب عبد الرحمن بن ملجم هذا إلى الكوفة وأقام فيها يترقب يوم الموعد وساعته. ثم اقبل في آخر الليل ومعه رفيق له استعانه على ما أراد فأنتظر خروج علي للصلاة، فلما خرج تلقياه بسيفيهما وهو يدعو الناس لصلاتهم كعادته يومياً. فأصاب سيف بن ملجم من جهته حتى بلغ دماغه. ووقع سيف صاحبه في جدار البيت. وخر علي حين إصابته الضربة. وقد أخذ عبد الرحمن

---

(1) طه حسين" المصدر السابق" ج2، ص 166.

بن ملجم وقتل صاحبه وهو يحاول الفرار، وحُمل علي إلى داخل داره، فأقام فيها يومين وليلة بينهما. ثم مات في ليلة اليوم الثاني (رحمه الله).

ويروي المؤرخون إن علياً أمر من حوله إن يحسنوا طعام ابن ملجم ويكرموا مثواه، فأن برئ من ضربته نظر، فأما عفا وإما اقتص. وأمرهم إن مات إن يلحقوه به ولا يعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. ويروى عنه كذلك انه كان يردد دائما "لقد فزت ورب الكعبة" والمقصود هنا انه تخلص من كل عناء المسؤولية الموكلة إليه في الخلافة ليذهب مستريحاً إلى ربه. وهكذا انتهت خلافة الإمام علي بطريقة الغدر كما انتهت من قبله خلافة عثمان وعمر. والملاحظ من الإرث التاريخي للعنف السياسي في البلاد إن ثلاثاً من بين أربع خلفاء راشدين ماتوا غدراً، لتعود الدولة في إدارتها إلى الأسلوب القبلي الوراثي والذي استمر بهدوء نسبي وبدون مشاكل داخلية واسعة. فقد استطاع معاوية إن يعين عماله في الكوفة والبصرة ومصر والحجاز واليمن وتفرغ للتهيؤ لشن حملاته ضد البيزنطيين من اجل توسيع رقعة الدولة في المزيد من الفتوحات. وفي ذلك كان يحاول تحقيق حلم الرسول محمد (ص) في السيطرة على بلاد فارس والبيزنطيين ولكن حكم الرسول كان بالأسلوب الإسلامي في نشر العدالة والمساواة من خلال نشر دعوة الدين الإسلامي. بينما كان معاوية يتستر وراء ذلك ويبغي المزيد من الغنائم والأموال. لقد مات الإمام علي ولم يمت في قلوب جماعته ودفن في النجف بالقرب من الكوفة وأصبح قبره فيما بعد واحدا من أقدس الأماكن لدى المسلمين وخاصة الشيعة. وأكتسب قدسية بعد وفاته لم يكتسبها إلا قليلون غيره، حتى إن الأرض المحيطة بالمقبرة أصبحت واحدة من أكبر المقابر للمسلمين يرومها الكثيرون لدفن موتاهم. وأكثر من ذلك فقد انتقلت القدسية هذه إلى ذريته من بعده والى يومنا هذا. لم يكن كل ذلك محض صدفة أو اعتباطاً، وإنما كان وراءه أمراً مهما لما فعله هذا الإمام من أعمال مؤثرة في النفوس، وصلت إلى ما وصلت إليه الحال إلى عصرنا هذا. لقد خلف أرثا كبيراً من القيم والمفاهيم الأخلاقية السامية ظلت تنهل منها الأجيال إلى يومنا هذا، بينما بالمقابل ازدهرت الدولة الأموية مادياً وآلت إلى الأفول ولم تترك ورائها قداسة أو قيم أخلاقية يقتد بها الناس كما سنرى في الجزء الثاني من هذا الكتاب على الرغم من إنها كانت ضرورة تاريخية فرضتها المرحلة وأدت منافع أخرى في العديد من مجالات الحياة. ولابد من الإشارة هنا إلى إن عمليات الاغتيال السياسي في العصر الراشدي لم تقتصر على الخلفاء الثلاثة بل أمتدت لتشمل شخصيات إسلامية مهمة منها سعد بن عبادة زعيم الخزرج وأحد النقباء في بيعة العقبة التي مهدت لهجرة الرسول محمد (ص) إلى يثرب، وقد تم قتله في الشام في عصر الخليفة عمر بن الخطاب، ومالك الأشتر الذي اغتيل مسموماً وهو في طريقه ليتولى أمر ولاية

مصر في عصر خلافة الإمام علي ويقال إن ذلك كان بتدبير من معاوية[1]. وقد حظى مالك الاشتر هذا بوصية من الامام علي قبل وفاته وقبل مغادرته الكوفة بالتوجه الى مصر لأخذ منصبه في إدارة مصر،وكانت تلك الوصية ذات وقع أدبي عميق تدل على مستوى القيم الأخلاقية التي يتصف بها الإمام علي لا بد من ذكرها هنا لكي تتضح الصورة في خلافه آخر الخلفاء الراشدين. وسواء كتبت تلك الوصية من بعده عن طريق الشريف الرضى أم أنها كانت أصيلة فإن الرجوع إليها يعطي إنطباعاً عن خبرة وتجارب الحكم في تلك الفترة الإسلامية الحرجة:

(1) هادي العلوي- المصدر السابق- ص 52.

مقتطفات من وصية الإمام علي بن أبي طالب الى مالك الاشتر:

"إعلم يا مالك أني قد وجهّك الى بلاد عليها دول قبلك من عدل وجور. وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عبادة. فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح. فأملِك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك،فأن الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحببت أو كرهت. واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة واللطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعاً ضارباً تغتنم أكلهم، فأنهم صنفان، أما أخ لك في الدين وأما نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمل والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فأنك فوقهم، ووالي الامر عليك فوقهم، والله فوق من ولاك. وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم. ولا تنصبين نفسك لحرب الله فأنه لا يدي لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ولا تندمنَ على عفو ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن الى بادرة وجدت منها مندوحة ولا تقولن أني مؤتمر أمر فأطاع فأن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين، وتقرب من الغير. ." الخ ثم يمضي فيقول: ليكن أحب الأمور اليك اوسطها في الحق، وأعمها في العدل وأجمعها لرض الرعية. فأن سخط العامة يجحف برض الخاصة وأن سخط الخاصة يُغتفر مع رضى العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء، وأكره للانصاف، واسال بالالحاف، وأقل شكراً عند العطاء. وأبطأ عذراً عند المنع وأضعف صبراً عن ملمات الدهر من أهل الخاصة وأنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للاعداء العامة من الامة فليكن صغوك لهم وميلك معهم... الخ.

ثم يقول: لا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ولا جباناً يضعفك عن الامور ولا حريصاً يزني لك الشر بالجور فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله. ان شر وزرائك من كان للاشرار. قبلك وزيراً ومن شاركهم في الإثام فلا يكونن لك بطانة فأنهم أعوان الاثمة وأخوان الظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس مثل آصارهم وأوزارهم ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثما على إثمه. أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفاً وأقل لغيرك ألفاً.... الخ. ...

ثم يقول: لا تنقضي سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة وأجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فليكن الاجر لمن سنها. والوز عليك بما نقضت منها. ..الخ.

وتتقد أمر الخراج بما يصلح أهله فأن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لان الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في أستجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقيم أمره الا قليلاً فان شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض أغمرها عرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. ولا يثقلن عليك بشيء خففت به المؤونة عنهم، فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من أجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفعك بهم. .. الخ ثم يقول:

" إستوصي بالتجار وذوي الصناعات وأوصي بهم خيراً، والمقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه، فأنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك وسهلك وجبلك، وحيث لم يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها فانه سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضوتك وفي حواش بلادك. واعلم مع ذلك ان كثير منهم ضيقاً فاحشاً قبيحاً واحتكار للمنافع، وتحكماً في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة. فأمنع من الاحتكار.. الخ.

" لا تطولن احتجابك عن رعيتك فأن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالامور... الخ.

ثم يقول: إن للوالي خاصة وبطانة فيهم إستئثار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة فأحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الاحوال.

ولا تدفعن صلحاً دعاك اليه عدوك ولله فيه رضى فأن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمنا لبلادك. ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فأن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن. . الخ.

إياك إياك والدماء وسفكها بغير حلها، فأنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا احرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها. والله سبحانه مبتدىء بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة. فلا تقوين سلطانه بسفك دم حرام فأن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله.

إياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء، فأن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسك ليمحق ما يكون من إحسان للمحسنين. وإياك

والمن على رعيتك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك فإن المن يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس.

كانت تلك مقتطفات من وصية الإمام علي لمالك الاشتر يتضح فيها عمق تجربته وعلمه وزهده وعظمته (رحمه الله).

وهناك مقولة أخرى للإمام علي مأثورة وذات مغزى فلسفي عميق تستحق الذكر هنا وهي: "لا تعلموا أولادكم بمثل ما علمتم به لأنهم ولدوا بزمان غير زمانكم". وهذا يعني أنه مدرك للتطور الحاصل والذي يحصل بمرور الزمن نافياً بذلك كل الحجج الداعية إلى التمسك بنصوص وتعاليم الأقدمين والتي لا تنسجم مع تطور العصر.

الخاتمة
الخلاصة والاستنتاجات

لقد تناولنا في هذا الكتاب أهم المحطات التاريخية التي تجولنا فيها، منها ما كان سريعاً جداً، ومنها ما هو مفصل بعض الشيء وحسب ما جاء في المصادر المتوفرة. وكان الهدف من ذلك هو معرفة أسس المواريث التاريخية المؤثرة فينا، ولا زالت تعيش معنا في أفكارنا ومعتقداتنا وممارساتنا - بهذا القدر أو ذاك - بهدف زيادة الفهم للإنسان العراقي والعربي المعاصر ومن أجل الوصول إلى طرق ووسائل نستطيع فيها معالجة والتعامل الأمثل في حل مشاكل البلد. وكانت الجولة السريعة في حضارة وادي الرافدين القديمة، والتي شكلت حجر الأساس للمعتقدات والأفكار للمراحل التي تلت ذلك. ثم تناولنا تأريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام وتأريخ فجر الإسلام أيام الدعوة المحمدية وعصر الخلفاء الراشدين وتوقفنا لهذا الحد، على أمل إن نكمل مواريثنا التاريخية للفقرات التي تلت هذه العصور في المستقبل نظرا لأهميتها. ولا يمكننا إن نضع الاستنتاجات النهائية لكل العصور لعدم تكاملها ولكننا نستطيع إن نؤشر على الاستنتاجات المتعلقة بالفترة التي وصلنا إليها وهي نهاية عصر الخلفاء الراشدين.

وقبل البدء في تلك الاستنتاجات لابد لنا من الإشارة إلى سُلم تطور حياة الإنسان الحضارية على هذا الكوكب ومنذ البداية. فنلاحظ من هذا السُلم إن كل اكتشاف مميز للإنسان يعطي قفزة في حياته بشكل يميزها عن سابقتها من جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ويهيأ لقاعدة من نمط حياة متميزة مرهونة بذلك الاكتشاف. فكما نلاحظ في الشكل (1) إن القفزة العمودية تمثل اكتشاف أو عدد من الاكتشافات العلمية المميزة التي لعبت دوراً بارزاً وأصبحت حاضنة لحقبة زمنية معينة تتميز وتدين لذلك الاكتشاف وهكذا.... فعلى سبيل المثال، إن اكتشاف الإنسان للنار قد مكنه من التغلب على العديد من المشاكل منها حصوله على الدفء، وطهي الطعام بحيث أصبحت تصل إلى الدماغ كميات كبيرة من المواد الغذائية الرئيسية وبصورة أسرع ساعدة في زيادة حجم الدماغ، وتقليص حجم المعدة وزوال الشعر من الجسم وغيرها (من فضائل النار على الإنسان). وكان ذلك في العصور الحجرية الأولى (قبل حوالي 450 ألف عام). وبعدها تمكن الإنسان من اكتشاف الزراعة التي مكنته من أن يصنع قوته بنفسه، بدلاً من إن يبقى متجولاً لجني القوت وقد سهل ذلك من تكوين قاعدة أفقية لحياة الإنسان المستقرة في القرى والمدن الآمنة، وكان هذا بدوره عاملاً مساعداً لأن يقوده لاكتشاف الكتابة واللغة، وبدء يدون ما ينتجه من أفكار لكي لا تضيع عليه، وهكذا فأن كل اكتشاف مميز يشكل قاعدة من السلوك

الاجتماعي ونمط حياة معينة لحقبة من الزمن تتميز بكل صفاتها ضمن حصيلة ما أنتجه من خدمة وتذليل بعض المصاعب التي يعاني منها لقهر الطبيعة. وهكذا استمرت مراحل التطور بشكل سُلم تتمثل بالطفرات العمودية التي تمثل الاكتشافات المتميزة، بينما تمثل في المحور الأفقي شكل ونمط الحياة التي كان يعيشها الإنسان في تلك المرحلة. وهذا يقودنا لاستنتاج إن الفكر البشري مرتبط ضمن مرحلة معينة من الزمن بالمعطيات والنتاجات السابقة وعليه إن يتكيف للعيش في كنفها اجتماعياً واقتصادياً وفكرياً. وإذ يعيش الإنسان المعاصر في الدول المتقدمة في أعلى مراحل السلم مستوعباً كل ما قدمته البشرية من نتاج فكري وتقني، ولتوضيح ذلك فإن الطفرات التي تحصل في فترة زمنية قصيرة من عمرالإنسان لم تأتي جزافاً أو عن طريق معجزة أو قدرة خارقة وإنما نتيجة تراكمية للخبرات والممارسات الإنسانية عبر فترة زمنية طويلة أعطت ثمارها بشكل يبدو لنا بأنه فجائي. أن الأفكار تنشأ من خلال الخبرة وتساعد هذه في توجيه الطاقات الطبيعية لكي تحقق الوحدة والتكامل للخبرة. أن الامكانيات البشرية ما هي الاعوامل واقعية وافتراضات مقصورة على الوعي الذاتي للخبرة، ولا تتعالى عليها، وهذا يعني أنها تعود إلى التواصل الحالي والاختبار الذي يخضع له الإنسان ما بين أعضائه الجسدية والمحيط الذي يعيش فيه. فهي جميعاً جزء من السلسلة الطويلة العريضة للتفاعل (أعمال أو إنجازات أو هزائم أو تأملات جمالية أو إنشغالات ذات فاعلية) في الزمان والمكان من تلك التي تتشكل منها الخبرة. وهكذا فأن سُلم تطور العقل البشري يبدو لنا وكأنه يحصل من خلال طفرات سحرية ولكن الحقيقة هي أنّ مجموعة من الأعمال والأفكار تتراكم مع بعضها البعض لتنتج تحولاً نوعياً ملحوظاً. وحسب رأي جون ديوي في كتابه عن" الخبرة والتخيل في فلسفة المثل الأعلى للديمقراطية " يقول[1]: " أن الذكاء ما هو إلا قوة تنبثق من خلال تعاملات طبيعية ثم تعود لكي تحولها الى واقع مميز عن سابقه. أن عمق الخبرة يمثل الدرجة التي وصلت إليها المشاركة الفاعلة للكائن الحي في إجتياز الظروف وتحويلها وذلك بالانهماك بها كلياً. ثم يمضي فيقول" أن الطبيعة لا مقاصد لها في ذاتها بمعزل عن أنشغال الإنسان بها. ذلك لان الذكاء ظاهرة تخص الإنسان أما العمليات الجارية في الطبيعة في قوة مرنة بامكانها التحرك بتشكيله من الطرق المختلفة وليست آية منها تجري قضاءاً وقدراً. ومع ذلك بما أن المقاصد والغايات تعود إليها الطبيعة، لأن الكائنات الإنسانية هي ذاتها تعود الى الطبيعة وبذا فأن صياغة الغايات المرتبطة والمثل العليا والنشاطات المدروسة التي تبغي وضع الطاقات الطبيعية لتعمل بأنسجام مع هذه المثل العليا تقوم جميعاً بأستكمال ما لا يعد كاملاً في الطبيعة. ولتوضيح ذلك

---

[1] فصل من كتاب "الديمقراطية والتربية" لجون ديوي- ترجمة متي عقراوي، وزكريا ميخائيل، لجنة التأليف والترجمة والنشر- وزارة المعارف- بغداد (1946).

فأن المغامرة الإنسانية التي يقوم بها الإنسان تعد طبيعية إلا أنها بذلك تغدو منظومات أرقى للطاقات الطبيعية. من هنا يتضح أن الأنجاز الذي يحققه الإنسان بنموه وتقدمه الاجتماعي في مرحلة زمنية معينة يتدخل ليعتمد على الخيار الحر المسؤول والمتخذ بعد تفكير عميق فضلاً عن استناده على الفرص المتاحة التي تهيئها الظروف والوسائل المتاحة. أن الخبرة هي طليعة الطبيعة التي تتغلغل فيها وتتشكل من أفق مليء بالمشاركة الهادفة يتسع بالبحث والتفسير واعادة التفسير للاحداث. أن الامكانيات المفترضة المنبثقة من الفعاليات التي توفرها التفاعلات الطبيعية تقوم بصياغة اهداف ومقترحات جديدة تؤدي الى توسيع أفق الخبرة ضمن الطبيعة التي يعيش بها المجتمع. أن للخبرة سعة أفق الى مدى ضمن النوعية المميزة التي يتحلى بها الأفراد في ذلك المجال. وهنا يمكن أن يتدخل الذكاء ليجعل تلك الخبرة أكثر شمولاً وتركيزاً ونفاذاً في مجال الطبيعة المحيطة به. أن الذكاء يمثل الافق للغايات المجتمعة القادرة على توسيع مستمر في طريق اقتراح امكانيات جديدة في الوصول الى نتائج أكثر شمولياً ونفعاً. وهكذا وعلى هذا الأساس فقد استمر التطور التاريخي للانسان ولا يزال مستمراً بوتيره أعلى نظراً لتراكم الخبرة وزيادة الذكاء الى أن وصل الى ما نحن عليه من تطور علمي وتقني مميز.

بينما نجد إن الإنسان في بعض الدول المتأخرة لا يزال يعيش في المراحل الأوطئ من السلم المشار إليه ولم تصله كل نتاج فكر الإنسان المعاصر إليه. وفي كل مرحلة من المراحل التي تكلمنا عنها عبر التاريخ يسعى الإنسان لإيجاد فلسفة تفسر له وتجيب عن كل التساؤلات التي تنشأ في محيطه من أجل الاستمرار في رسم نمط الحياة التي يعيشها بشكل أو بآخر. ونلاحظ انه في ضوء ذلك فقد غدت الفلسفة الحديثة تنسجم مع معطيات العصر الحديث في أول إمكاناتها، إلا وهي تحررها من الوصايا الثيولوجيا التي تكاد تهيمن على المؤسسات والعقول في عالمنا العربي عموماً. فكما جاء في كتاب عبد الوهاب حميد رشيد عن حضارة وادي الرافدين القديمة ما يلي: " إن الدين ظاهرة قديمة قدم وجود الإنسان نفسه، التصق بعقله وفكرة وممارساتة منذ أقدم العصور، وقدم خدمات جليلة للبشرية بتقويم سلوك الإنسان في وقت لم تتواجد بعد الدولة والشرطة والقوانين الضبطية الأخرى. وتشير الدلائل الأثرية للقبور المكتشفة إلى إن أشكالاً من المعتقدات الدينية عاشت مع الإنسان منذ العصر الحجري القديم. وفي العصر الحجري الحديث عندما حلت الزراعة والتدجين محل جمع القوت والصيد وانصبت عناية الإنسان على تغيرات فصول السنة، وأصبحت طقوس الزراعة والخصوبة محور الفكر الديني" ، ثم يستطرد فيقول: " لم يلعب الدين الدور الكبير الذي لعبه في حضارة وادي الرافدين في أي مجتمع آخر قط لأن إنسان هذه الحضارة كان يشعر على الدوام انه يعتمد في وجوده واستمراره كليا على إرادة الآلهة. بمعنى

إن عقيدة القوم كانت تنسب ذات الإنسان إلى العالم الخارجي (القوى الخارقة) في غياب إرادته ـ فكراً وممارسة، بل وأكثر من ذلك لا توجد لفظة سومرية محددة بمعنى ذاكرة أو عقل الإنسان، وان العلاقة بين الفكر رالعقل لم تكن قائمة. من هنا غلبت على الحصيلة الدينية للقوم وأساطيرهم الغيبيات والخرافات وغلفت أفكارهم الخيالات الجامحة بالهرولة وراء الأوهام من قوى خارقة وشياطين وعفاريت غير منظورة، واتخاذ الطقوس الدينية مرجعاً ومصدراً ومنهجا للكشف عنها وتفسيرها والتعامل معها بما يحقق لهم الحياة الآمنة والسلام الذاتي المنشود. وهذا هو السبب الذي يجعل التقسيم الحديث للفكر والمعرفة متماثلة وذات أهمية متساوية، ولم يستطيعوا ملاحظة عملية نشوء وتطور المعرفة كما هو حاصل في العصر الحديث" [1]، [2]. لقد كانت تلك الأفكار في السلالم الأول من سلم التطور منسجمة مع معطيات ذلك العصر. إما الآن وبعد التطور الصناعي الذي شهده العالم ظهرت نظرية تجري على النسق التالي: " في المجتمع الصناعي العلمي، يضعف الإيمان ويخف التمسك بالشعائر الدينية، لأسباب إن عقائد الدين تصارع مبادئ العلم الحديث التي تتمتع بمكانة كبيرة وتكون قواعد وأسس التقانة الحديثة، وبالتالي الاقتصاد الحديث أيضاً. ولهذا يضعف الإيمان الديني، وتتدهور مكانته وهيبته مع ارتفاع مقام ونفوذ منافسة"[3]. لقد أصبح الإنسان يقرأ من هنا نظريات ومعادلات رياضية في الهندسة والكيمياء عن عمليات تكرير النفط مثلا ليجد أمامه واقعا ملموساً عن كيفية دخول النفط الخام من جهة ليخرج من الجهات الأخرى إلى منتجات نفطية متعددة من خلال تطبيق تلك المعادلات والأسس العلمية الرصينة ولا مكان للغيبيات والخرافات فيها. وهكذا الحال في جميع المجالات التطبيقية للعلوم الحديثة نخص منها بالذكر مجال الاتصالات مثلا. وبالتالي أصبح العلم هو المتغلب على كل المعتقدات الأخرى،لأنه أصبح يطبق على أرض الواقع، وينتج تقنيات ملموسة لا تقبل الشك. لقد أصبح العلم في المجتمعات الصناعية واقعا ملموساً وليس مجرد كتب تقرأ. بينما بقي مجتمعنا أسيراً للمفاهيم الزراعية التي قامت عليها أول حضارة في العالم وهي حضارة وادي الرافدين، متمسكاً بالأفكار التي تولدت في ذلك الزمان وتطورت بعد ذلك إلى إن أصبحت أديان سماوية ثابتة لا مجال للحوار حولها، أو تطويرها وهكذا بقي عمل بعض المؤسسات في بلادنا العربية اليوم تتخذ توجها إستراتيجياً نحو إغلاق سبل التفكير واستبداله بسيوف التكفير، تلك السيوف التي ليست لها من هم سوى القضاء على الإبداع في كل مجالات الحياة. وأكثر من ذلك أصبحت تريد

(1) عبد الوهاب حميد رشيد-حضارة وادي الرافدين" ص 218.
(2) جورج رو، ص 128" العراق القديم".
(3) ارنست غيلفر" ما بعد الحداثة والعقل والدين" ترجمة معين امام، دار المدى للثقافة والنشر. دمشق (2001) ص 20.

إن تقضي على الإنسان نفسه عن طريق الانتحار والأحزمة الناسفة. ومن ثم إشاعة الرأي الذي لا يحيا إلا في حياة التشابه والتطابق، ولا يستهدف إلا صناعة عقول جماعية لا تفكر، كما يستهدف استئصال جذور الاختلاف بالرأي، وبالتالي القضاء على أي إمكانية للتقدم المستقبلي. إن إمكان الفلسفة العربية مرهون بالتخلص من وصايا التفكير الهيمني الديني الذي لا يؤمن أصلاً بقدرة العقل عن شق سبيله بنفسه. ولذلك فمن اجل التأسيس لإنتاج فلسفي في الفكر العربي المعاصر، لابد من وضعه في سياق عملية أخرى هي التأسيس لمشروع عربي في النهضة والتنوير أولاً. ولابد من الإجابة على الاستحقاقات التالية على نحو فاعل. وثانياً: ضبط العلاقة بين الفلسفة والفكر وبين الفلسفة والدين والاشتغال على إبداع علاقة متقدمة من التراث الفلسفي والفكر الغربي تاريخياً وراهناً، في ضوء الأسئلة العربية الراهنة أي في ضوء الواقع المباشر، وذلك للإجابة عن سؤال، في أي سلم من التطور التاريخي نحن نعيش الآن. لكي نعرف أنفسنا عند السلالم التي من الواجب صعودها للوصول إلى العالم المتقدم، وما ينبغي علينا عمله من أجل ذلك. ومما تقدم في الفصول الأربعة لهذا الكتاب، فقد نشأت أول حضارة إنسانية لدينا، وأستمر الصعود في السلم على ما يرام، ولكن توقفنا كثيراً في أحداها، ولم نتمكن من مواكبة التطور منذ بداية عصر النهضة الأوربية (منتصف القرن الخامس عشر ميلادي)، بل أستمر النتاج الفكري والحضاري يصدّر ألينا تصديراً شحيحاً. وبقينا نتلقى ما ينتج من فكر علمي من الدول المتقدمة. وبدأنا نتلقف المنتجات التقنية من ثمرات هذا العلم ونبدي دهشتنا فيها وقد أصابنا الاحباط وبدأنا نشعر وكأننا نختلف عنهم، من دون أن ندري لماذا؟ وحتى إن ذلك ولّد لدى البعض شيء من الحقد والكراهية وصراع ضد الحضارة الأوربية الحديثة وعدم تقبل الحداثة والتنوير. وهنا نورد مثالاً بسيطاً لتوضيح نمط تفكير الأوربي بالمقارنة مع نمط تفكيرنا في البلاد العربية وكما يلي:

ذهب العالم البريطاني كرانت **(Dr.Grant)** الأستاذ في جامعة كامبردج هو ومجموعة من رفاقه إلى بعثة استكشافية في القرن التاسع عشر من أجل البحث والتقصي عن أصل منابع مياه نهر النيل العظيم في مصر. وقد وصل في جولته إلى مناطق في وسط أفريقيا وجنوبها تتخللها المخاطر من الحيوانات الوحشية والأحراش والأدغال والحشرات الناقلة للأمراض، وتوصل في النهاية إلى نتائج رائعة عن حقيقة منابع نهر النيل من بحيرة فيكتوريا وغيرها من فروع ومداخل عديدة ورسم خريطة لذلك. وبعد انجازه هذا العمل تمرض بمرض الملاريا ورقد في الفراش في وسط أفريقيا، وقال كلمة مأثورة لرفاقه وهو على فراش الموت: إنني سأموت هنا وأنا مرتاح البال لأني وضعت كل الأحمال التي كانت في رأسي من خلال الاكتشاف والوصول إلى الحقائق التي وجدتها. وهو متيقن أنها ستفيد البشرية، ثم توفي ودفن هناك. هذه القصة البسيطة نوردها هنا من بين المئات

بل الآلاف من القصص التي تدور حول حياة المستكشفين في شتى مجالات الحياة. إن ما يفكر فيه الأوربي هو من خلال ثقته بما ينتجه العقل البشري من إبداع، إذ كان يؤمن بثقة مطلقة بقدرات هذا العقل. وهو يعتقد إن قمة السعادة تكمن في تحديه للمخاطر ووصوله إلى نتائج كان يحلم لتحقيقها. ولغرض المقارنة بين ما نحن عليه من فلسفة تقودنا إلى ترك الأمور كما هي وان قيمة عقل الإنسان لا تساوي شيء بالنسبة للقوى الأخرى الغيبية. فلم نسمع يوما إن ذهب مصريا من ذاته طوعا ليفتش عن منابع نهر النيل العظيم الذي عاش الأجداد على ضفافه منذ آلاف السنين، بل لم يكترث أبناء المنطقة لحل أمور علمية تهمهم وهي أبسط من ذلك كثيراً لأن الإرث الثقافي الثقيل قد أحال دون ذلك. وهكذا لم نجد أحداً من بلاد الرافدين أيضاً إن ذهب ليفتش عن منابع نهري دجلة والفرات من أجل معرفة كيفية التعامل مع هذه المياه التي اعتمدت الحياة بالمنطقة عليها منذ آلاف السنين وأنشأ أول حضارة في العالم بفضلها. إن زيادة المعرفة في موضوع المياه يمكن من تسخيرها لخدمة البلد بشكل أمثل وأضمن.

نعود ونقول علينا إن نبني لفلسفة تقودنا

أولا: إلى معرفة مكاننا في سُلم التطور.

وثانيا: تعزز الثقة في النفس وفي قدراتنا العقلية وتطلقها لتؤسس مجتمعاً قادراً على حل مشاكله بنفسه وعلى الإجابة عن كل التساؤلات التي تتبادر إلى ذهن الإنسان في محيطه الذي يعيش فيه الآن.

وهنا ربما يسأل القارئ وماذا بعد بناء الفلسفة وكيف نضمن إن تكون هذه الفلسفة قد تم استيعابها وتقبلها والعمل بها. الجواب بسيط جداً، وهو إن علينا الاهتمام بتعليم الأطفال منذ المراحل الأولى وفقا لمنهاج هذه الفلسفة وإبعاد كل ما يحد من تفكير وثقة الإنسان بعقله وقدرات هذا العقل على الإبداع. وترسيخ قيم العصر الحديث والابتعاد عن الأفكار الميتافيزيقيا. إن تقدم كل مجتمع مرهون بتصورات وانطباعات وتلقين الأطفال منذ مراحل نموهم الابتدائية والى مراحل الشباب المتقدمة. إذا لم نكن نستطيع تغيير مفاهيم المجتمع بأكمله، فلابد لنا إن نبدأ بالصغار لكي نضمن نشأتهم على أسس صحيحة، مع مراعاة عدم إهمال الجوانب الحياتية الأخرى كبناء الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان والمرأة....الخ. وعلينا أيضاً إن نبدأ في إصلاح أبعد حلقة في المجتمع إلا وهي القرى النائية. ويجب الاهتمام في نواحي الحياة في القرى لأنها كانت في عهد قريب تشكل مصدر تدفق المشاكل إلى المدينة، وان إعادة بناء تلك القرى لتصبح مصدراً من مصادر العطاء للبلد وتعمل على تطويره وبناء اقتصاداً متينا لا يعتمد على النفط كمصدر أساسي للثروة. وبعكس ذلك سوف لن نستطيع التقدم خطوة واحدة. لان مشاكل بلداننا لا تكمن في الأعمار التقليدي وجلب شركات تبني المصانع وتدخل التكنولوجيا وتعمر من واردات النفط.فما لم تتم التنمية البشرية بحيث تُنشأ لاستيعاب التطورات العلمية والتكنولوجية الحديثة لا يمكن لنا إن نسير خطوة واحدة إلى الأمام. إن كل دولة لديها إنتاج نفطي كبير تستطيع إن تشتري

كل شيء من بناء ومصانع وزراعة ولكن ما لم يتم الاهتمام بالإنسان فأن كل هذا الأعمار سيصبح في يوم ما خردة ما لم يتم بجانب ذلك حصول تنمية بشرية قادرة على استيعاب ما يدور من حولنا من تطور سريع جدا. وبالتالي إمكانية المحافظة وصيانة هذا البناء وتطويره. لقد مرت بنا تجارب عديدة لم تكن ناجحة بسبب ضعف تشخيص العلة الرئيسية في معاناة هذا المجتمع وعلينا الاستفادة من كل تلك التجارب من أجل الارتقاء إلى أساليب وطرق أكثر نضجاً وعقلانية. وإلا فأن الاعتماد على النفط لوحده كمورد أساسي للثروة سيؤدي إلى حصول كارثة لا سامح الله. وأخيراً إن ما نريد قوله لا يعني الابتعاد عن الدين والهوية بل العكس من ذلك يمكن التمسك بكل القيم والمبادئ السامية التي تدعو إليها الأديان في خدمة الإنسان، ولكن علينا أولاً إن نستوعب كل ما توصل إليه العلم في العصر الحديث ونضع فلسفتنا في الثقة العالية بقدرات العقل البشري بالإجابة عن كل التساؤلات التي تحيط بنا وحل المشكلات عن طريق البحث والتقصي، ونبذ العنف وإلغاء الرأي الآخر. ولذلك علينا أولاً إن نراجع فلسفتنا ونتساءل لماذا سبقونا؟ وكيف السبيل للالتحاق بسرب الحضارة الحديثة وبعيدا عن تفسيرات المؤامرة التي كنا غارقين ومغرمين في إلقاء اللوم لكل مشاكلنا ضمن هذه النظرية التي أصبحت بالية ولا تجدي نفعاً. إن تسليطنا لبعض الضوء على الأعباء والأحمال التي تحملها المجتمع الرافديني في رأسه من المواريث التاريخية عبر كل تلك العصور الغابرة تدعو للحاجة الملحة إلى التأسيس لفلسفة حديثة تعطي جرعة أكبر للثقة بالعقل والفكر القادر على حل كل المشاكل التي تواجه المجتمع وبالتالي الصعود بالسُلم لمستوى العصر الحديث عصر القرن الحادي والعشرين أسوة بالعالم المتحضر. ولا بد من الإشارة هنا إلى إن بعض فلاسفة العرب الحديثين أمثال ابن رشد قد أشار بوضوح إلى أهمية الاعتماد على العقل والمنهج العلمي في تفسير ما يحيط بنا دون إهمال المعتقدات الروحية والقيم الدينية التي نتمسك بها[1]. وكان ذلك قبل تسعمائة عام (عصر المأمون) ولكن للأسف لم يُأخذ بتلك الفلسفة أحد من العرب بينما تمسك بها الغرب بعد ترجمتها في باريس وكان ذلك قبل عصر النهضة الأوروبية بمائتي عام. كما لم يؤخذ بآراء الداعين الى الحداثة في العصر القريب ومنهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدة وغيرهم[2] وربما كان واحداً من أسباب ذلك هو أنشغالهم بادئ الأمر بالوسائل المؤدية نحو أشباع الحاجيات الأساسية للأنسان كالمأكل والملبس والمشرب، نظراً لكون المنطقة التي نعيش فيها ذات طبيعة صحراوية شحيحة الموارد وقاسية الحرارة وذلك قبل أكتشاف النفط لدينا، بالأضافة لتأثير الموروث التاريخي في التسلط والشمولية مما جعل الأنسان يبتعد عن تحقيق ذاتة من شدة الخوف الذي يعاني منه نتيجة لذلك التسلط. ولم ترتقي حاجيات الأنسان الشرق أوسطي بعد الوصول الى تحقيق الذات في السُلم الهرمي كما جاءت في نظرية

---

(1) ابن رشد" جوامع سياسة أفلاطون:.

(2) عبد الوهاب حميد رشيد" العراق المعاصر" دار المدى للثقافة والنشر، دمشق سوريا (2002) 44.

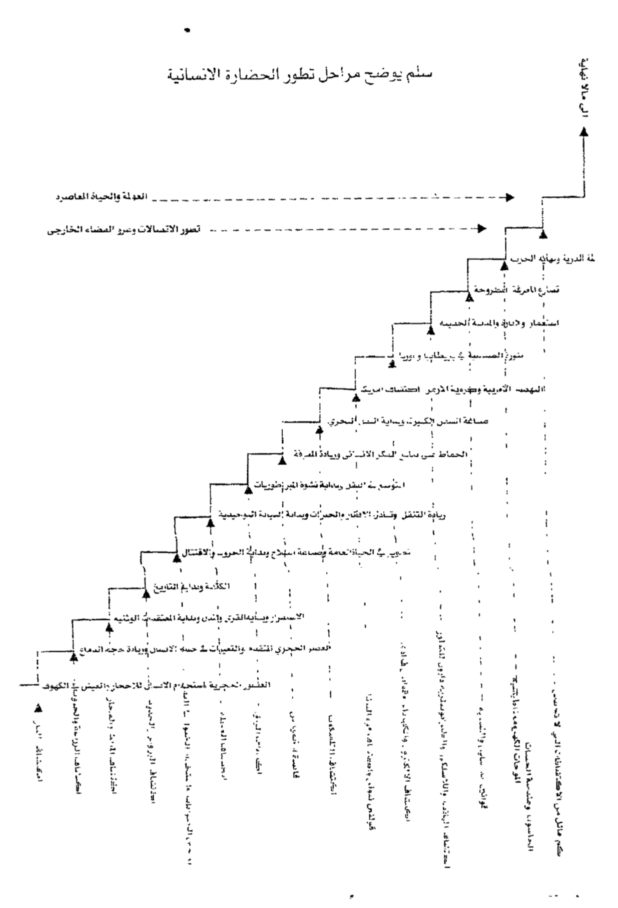
ماسلو[1](Maslow's theory)، والذي أدرج الحاجيات التي يسعى الأنسان لتحقيقها بشكل سلم هرمي بدءاً بالحاجيات المادية الأساسية لتأتي بعدها حاجةالشعور بالأمان ومن ثم الشعور بالأنتماء وصولاً الى القمة في تحقيق الذات.

وحيث أن ألأنسان الأوربي والأمريكي والياباني قد وصل اليها من خلال ماحققته مجتمعاتهم له من ضمان أجتماعي تتبنى به الدولة كل الحاجات الأساسية وفي المستقبل لذلك قد توجه نحو تحقيق الذات وبالتالي حقق أنجازات هائلة في مجال تطوير العلم والمعرفة والتقنية.

لذا فلا بد لنا من التخطيط مستقبلا من أجل خلق ظروف تساعد في تنشيط الطبقة المتوسطة التي تسعى غالبا لتحقيق الذات من خلال عمل مميز تستطيع أداءة بحرية ويصب في صالح بناء المجتمع المتطور. ومثلما لم يعد الحافز المادي هو الوحيد للعمل المبدع لدى الأنسان في الولايات المتحدة واليابان وغيرها من البلدان المتطورة والتي دعت المستكشف كرانت للذهاب في رحلته الى أفريقيا كما أسلفنا. فأن علينا أن نضع سياسة مستقبلية تهدف للوصول الى مجتمع آمن ومستقر لكي ينشط ويتحفز في تحقيق الحاجة السامية للأنسان في تحقيق ذاته من خلال عمل مميز في مجالات الحياة المتعددة وبالتالي سوف تتبلور كل تلك الأعمال لصالح بناء البلد وأزدهاره ولصالح البشرية جمعاء.

---

(1) Maslow, Abrahum, h Motivationand Personality" 2nd ed, N ew York, Harper & Row Publishers, (1970) 35-85.


سلم يوضح مراحل تطور الحضارة الانسانية
الى ما لا نهاية
العولمة والحياة المعاصرة
تطور الاتصالات وغزو الفضاء الخارجي
الحرب العالمية الاولى والثانية والحرب الباردة
تفجر المعرفة
استعمار والادارة والمدنية الحديثة
الثورة الصناعية في بريطانيا و اوروبا
النهضة الاوربية وكروية الارض اكتشاف امريكا
صناعة السفن الكبيرة وبداية النقل البحري
الحفاظ على نتاج الفكر الانساني وزيادة المعرفة
التوسع في النشر وبداية نشوء الامبراطوريات
زيادة التنقل وتبادل الافكار والخبرات وبداية الديانة التوحيدية
تحول في الحياة العامة وصناعة السلاح وبداية الحروب والاقتتال
الكتابة وبداية التاريخ
الاستقرار وبداية القرى والمدن وبداية المعتقدات الوثنية
العصر الحجري المتقدم والتغيرات في حجم الانسان وزيادة حجم الدماغ
العصور الحجرية استخدام الانسان للاحجار والعيش في الكهوف

المصادر

(1) طه باقر" مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة" - الوجيز في تأريخ حضارة وادي الرافدين الجزء الأول، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والأعلام، الطبعة الأولى بغداد (1986).

(2) جورج روو" العراق القديم" ترجمة وتعليق حسين علوان حسين، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية، بغداد (1986).

(3) وليم ويلكوكس" من جنة عدن الى عبور نهر الأردن" ترجمة محمد الهاشمي.

(4) عبد الوهاب حميد رشيد" حضارة وادي الرافدين" دار المدى للثقافة والنشر- الطبعة الأولى، سوريا، دمشق (2004).

(5) فاضل عبد الواحد علي" من ألواح سومر إلى التوراة" دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية (1989).

(6) هاري ساكز" الحياة اليومية في العراق القديم" (بلاد بابل وآشور) ترجمة كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد (2000).

(7) جان بوتيرو" ولادة اله التوراة والمؤرخ" ترجمة جهاد الحواش، عبد الهادي عباس، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا - دمشق (1999).

(8) Jaeqnetta Hawkes "First Great Civilization" London (1971)

(9) كيفن يونغ" العودة إلى الأهوار" ترجمة حسن الجنابي، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، سوريا - دمشق (1998).

(10) لي أوينهايم" بلاد ما بين النهرين" ترجمة سعدي فيض عبد الرزاق، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد (1981).

(11) خزعل الماجدي" الدين السومري" دار الشرق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان (1998).

(12) خزعل الماجدي "متون سومر" الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان (1998).

(13) طه باقر" مقدمة في أدب العراق القديم" جامعة بغداد، كلية الاداب، دار الحرية للطباعة، بغداد (1976).

(14) نائل حنون" العقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين القديمة" رسالة ماجستير، الطبعة الثانية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (1986).

(15) الكتاب المقدس" العهد القديم والعهد الجديد" إصدار دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، لبنان (1995).
(16) جورج كونتينو" الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور" ترجمة سليم طه التكريتي، وزارة الثقافة والأعلام بغداد (1997).
(17) أبن خلدون ـ عبد الرحمن" مقدمة أبن خلدون" دار العلم ـ بيروت، لبنان (1978) الطبعة الأولى.
(18) أحمد سوسة" حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين" سلسلة دراسات 214، دار الرشيد للطباعة والنشر، بغداد، (1980).
(19) ستيفن هيمسلي لونكريك" تأريخ العراق بين عام 1900-1950" ترجمة جعفر الخياط. الطبعة الرابعة، وزارة التربية، بغداد (1968).
(20) جواد علي" المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام" مطبعة المجمع العلمي العراقي، 12 جزء، بغداد (1965).
(21) محمد عابد الجابري" العقل السياسي العربي" مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، شباط (1990).
(22) د.علي الوردي" دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" مطبعة العاني، بغداد (1965).
(23) Phillip Hitti" History of the Arabs" Biruit-London (1968).AL-KASHAF House.
(24) حافظ وهبه" جزيرة العرب في القرن العشرين" . الجزء الأول القاهرة (1946). الطبعة الأولى- مكتبة النهضة المصرية- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
(25) عبد الجبار الراوي (البادية).
(26) سلامة موسى" نظرية التطور وأصل الإنسان" نشر إلياس أنطوان إلياس، المطبعة العصرية ـ مصر (بدون تأريخ) ص228.
(27) عبد الله خليفة "الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية" ج1، ط1 المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (2005).
(28) صباح زنكنة" قصة كتاب ظهور التلمود وأسباب حرقه" مقالة في جريدة الصباح العراقية عدد 488 في 2005/3/1 الثلاثاء.
(29) شاكر النابلسي" المال والهلال" " الموانع والدوافع الاقتصادية لظهور الإسلام" دار الساقي، الطبعة الأولى بيروت ـ لبنان (2002).

(30) محمد الشهرستاني" الملل والنحل" الجزء الثالث، مطبعة حجازي، القاهرة (1949).
(31) عبد العزيز سالم" دراسات في تأريخ العرب قبل الإسلام" مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (بدون تأريخ).
(32) عبد الله العلايلي" مقدمات لفهم التأريخ العربي" دار الجديد، بيروت (1994).
(33) كارل بروكلمان" تأريخ الشعوب الإسلامية" ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين. بيروت (1977)، الطبعة الأولى (1939).
(34) أحمد أمين" زعماء الإصلاح في العصر الحديث" دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان.
(35) **"Nicholson" A Literary History of the Arab**
(36) معروف الرصافي" كتاب الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس" منشورات الجمل، ألمانيا (2002).
(37) المس بيل" فصول من تأريخ العراق الحديث" ترجمة جعفر الخياط، الطبعة الثانية، وزارة التربية والتعليم، بغداد (1971).
(38) سيرة أبن هشام ـ عبد الملك أبو محمد بن هشام" السيرة النبوية" تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الجزء الأول والثاني والثالث.
(39) صحيح البخاري" كتاب المناقب" ، وكتاب المغازي وكتاب الإيمان، عالم الكتب ـ بيروت (بدون تأريخ).
(40) السيرة الحلبية ـ علي بن برهان الدين: إنسان العيون في سيرة المأمون" أو السيرة الحلبية" دار أحياء التراث ـ بيروت (بدون تأريخ).
(41) صحيح مسلم" كتاب السلام" باب تحريم الكهانة، جزء من السنة النبوية الشريفة، عالم الكتب ـ بيروت (2000).
(42) أبن قيم الجوزي" زاد المعاد" غزوات الرسول، تحقيق شعيب وعبد القادر الارناؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
(43) الزمخشري" الكشاف عن حقائق التنزيل" تفسير القرآن، الدار العالمية. بيروت (بدون تأريخ).
(44) سنن الترمذي، " فضائل الجهاد"، مكتبة المعارف ـ بيروت.
(45) سنن أبن ماجه" كتاب الجهاد" دار الجيل ـ بيروت مجلدين(2001).

(46) طه حسين" الفتنة الكبرى" الجزء الأول والثاني، الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر (1966).
(47) هادي العلوي" الاغتيال السياسي في الإسلام" دار المدى للثقافة والنشر، سوريا. دمشق الطبعة الرابعة (2004).
(48) العفيف الأخضر" سلسلة مقالات حول الدراسات الدينية في الوطن العربي" جريدة المدى، بغداد (2004).
(49) ياقوت الحموي" معجم البلدان" دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان (2002) 7 أجزاء.
(50) الطبري" تأريخ الرسل والملوك" الجزء الأول، دار الكتب العلمية. بيروت (1987).
(51) د.علي الوردي" وعاظ السلاطين" دار الورق للنشر، لندن، الطبعة الثانية (1995).
(52) أبن حجر" الصواعق المحرقة" دار الكتب العلمية ـ بيروت.
(53) ارنست غيلنر" ما بعد الحداثة والعقل والدين" ترجمة معين الإمام، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق (2001).
(54) أبي الفداء (الحافظ) إسماعيل ابن كثير" السيرة النبوية" (701-774هـ) تحقيق مصطفى عبد الواحد، الجزء الرابع (1976) دار المعرفة ـ بيروت وكذلك" البداية والنهاية" .
(55) محمد عابد الجابري" العقل السياسي العربي محدداته وتحليلاته" المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب (1990) الطبعة الأولى.
(56) محمود شكري الآلوسي" بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب" .
(57) هادي العلوي" خلاصات في السياسة والفكر السياسي في الاسلام" دار المدى للثقافة والنشر ـ دمشق، الطبعة الرابعة (2004).
(58) نهج البلاغة- مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام علي شرح محمد عبده (منشورات دار الكتب العلمية بيروت ـلبنان، الطبعة الخامسة (2003).
(59) جون ديوي "الديمقراطية والتربية" ترجمة متي عقراوي، وزكريا ميخائيل لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ وزارة المعارف- بغداد (1946)
(60) أرنولد توينبي "مختصر دراسة للتاريخ" ترجمة فؤاد محمد شبل مراجعة محمد شفيق غربال، لجنة الترجمة والنشر والتأليف، جامعة الدول العربية القاهرة (1966).
(61) ول ديورانت "قصة الحضارة" ترجمة محمد بدران ج13-14 جامعة الدول العربية القاهرة.

(62) محمد عبد الرحمن مرحبا "من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية" عويدات للنشر والطباعة، بيروت (2000) ج1.

(63) حنا الفاخوري وخليل الجر "تاريخ الفلسفة العربية" ج1، دار الجيل بيروت ط3 (1993).

الجزء الثاني

من العصر الأموي
إلى نهاية عصر المغول

المحتويات

المقدمـة

تضمن الجزء الأول من هذا البحث المتسلسل بعنوان العنف السياسي في بلاد الرافدين "دراسة في جذوره التاريخية" أربعة فصول ابتداءً من تاريخ حضارة وادي الرافدين القديمة، والتي كانت واحدة من أقدم الحضارات في العالم. ثم تناولنا في الفصل الثاني تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، وشمل الفصلين الثالث والرابع عصر فجر الإسلام أو فترة الدعوة المحمدية وعصر الخلفاء الراشدين. وقد استطعنا أن نضع بين يدي القارئ بعض الاستنتاجات من خلال ما تم التطرق إليه من استعراض سريع للأحداث التاريخية المهمة، وتم التركيز على العنف السياسي والظروف والدواعي الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المؤدية لتلك الأحداث. وكان من بين المواريث التاريخية المؤثرة علينا في العصر الحالي تلك المفاهيم المنسجمة مع عصر العبودية والتي كانت تصب في خدمة الحاكم أو الملك ،وتسلط الديانات الوثنية والأوهام والأفكار الغيبية والخرافية التي كانت سائدة ومهيمنة على عقلية القوم، والتي جعلتهم يهرولون طيلة حياتهم لخدمة الإله والكهنة والملك الذي كان يمثل الإله الحامي بالإضافة إلى وازع الخوف والتشاؤم التي أصبحت أحدى الصفات المميزة لبلاد الرافدين.

وكيف تبلورت فكرة الإله الواحد والتوحيد والتي لم تستطع هي الأخرى إزالة كل آثار الموروث الفكري القديم الذي انطبع في أذهان الناس منذ العهد الوثني – عصر العبودية. وتوصلنا إلى رسم سلم يوضح مراحل تطور الحضارة الإنسانية يتميز بحصول قفزات حضارية في حياته بشكل مختلف عن سابقتها من خلال اكتشافات علمية مميزة لعبت دوراً بارزاً وكانت حاضنة لحقبة زمنية محددة. وقد وردت تساؤلات عديدة لم يتم الإجابة عليها في الجزء الأول من

الكتاب أو البحث. ونحن نحاول الإجابة على تلك التساؤلات وفك الألغاز والرموز التي ستظهر بوضوح أكثر من خلال استعراضنا للأحداث التاريخية اللاحقة في هذا الجزء والجزء الذي يليه. وقد تضمن الجزء الثاني من البحث هذا العصر الأموي في الفصل الأول، ذلك العصر المتميز بالفتوحات الإسلامية المترامية الأطراف، وفي الوقت ذاته بطبيعة وشكل نظام الحكم القبلي الوراثي الذي أطاح بمبدأ الشورى وأبقى على النظام القبلي البدائي الذي كان سائداً في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وكان لزاماً علينا أن نستعرض تأثير الموروث التاريخي المتمثل في نظام العبودية على عقلية الناس وسلوكهم وكذلك شكل التطور الاقتصادي والاجتماعي والفكري بالإضافة إلى أمثلة ونماذج عن ممارسات العنف السياسي والحركات والثورات والانتفاضات التي جرت. وهكذا الحال بالنسبة للفصل الثاني والذي تم استعراض الأحداث التي جرت في المنطقة أيام العصر العباسي الذهبي، ذلك العصر الذي نتغنى به ونفاخر به الآن. وبمنهجية مشابهة لما تم التعرض له في الفصل الأول، ولكن تم التركيز هنا على الأفكار والمذاهب التي ظهرت والتي ما زالت موضع جدل ونقاش إلى يومنا هذا. وقد كان عصر المغول هو خاتمة هذا الجزء نأمل أن نكمل الاجزاء الأخرى إلى أن نصل إلى العصر الحديث الذي نعيش فيه.

لقد آليتُ أن أنقل بعض الاحداث التاريخية كما هي من مصادرها الموثوقة والمعترف بها من قبل كل الأطراف، وحاولتُ أن أعتمد في الأعم الأغلب على المصادر الأجنبية الرصينة، على افتراض أنها غير متأثرة أو متحيزة لجهة دون أخرى من خلال هدف هؤلاء الباحثين في الوصول إلى الحقيقة فقط.

ولكون أي منهم غير منتمي لطائفة دون أخرى بالإضافة إلى البيئة العلمية التي نشأ فيها والتي تجعله يميل أكثر إلى الموضوعية والحيادية في الطرح. بالإضافة لذلك فإن المصادر العربية المطابقة لتلك المصادر والمعترف بمرجعيتها الرصينة قد اعتمدت أيضاً دون إضافة أو نقصان من أجل الوصول إلى نتائج موضوعية تخدم البحث في طبيعة وطريقة تفكير الفرد الرافديني، والشرق أوسطي عموماً.

ونحن نعيش اليوم في ظل عالم يحوي على بشر يضعون المتفجرات في بطونهم ويفجرونها على جمع غفير من الناس العُزل، لا بد لنا من التوغل في جمع كل المعلومات والاحداث التاريخية من أجل فهم ما يدور في رؤوس هؤلاء بهدف وضع خطة للمعالجة الصحيحة. وقبل البدء بالتفاصيل لا بد لنا أولاً أن نبدأ بتعريف بعض المصطلحات المستخدمة لكي نصل إلى فهم مشترك لما يدور حولها.

لقد وضعت الموسوعة الفلسفية العربية (معهد الإنماء العربي **1986**) تعريفاً للإرهاب لا بد لنا من ذكره ونحن نبحث في العنف السياسي.

فالارهاب لغوياً: تشتق كلمة إرهاب من الفعل الثلاثي "رهب" أي أخاف. والرهبة هي الخوف والفزع. وارهبه ورهبه أي أخافه وفزّعة والراهبة هي الحالة التي ترهب أي تفزع وتخوف.أن "الرهبة" لا تدل على حالة نفسية تعانيها أو تعبر عنها ذات معينة أو شخص معين أو جماعة معينة، وبالتالي فهي لا تحمل أي معنى سياسي / اجتماعي يقوم على العلاقة القائمة بين نتائج الخوف وبين استغلاله بشكل هادف وواع من قبل فاعل الفعل. أما كلمة إرهاب "Terrorism" فهي تسمح باستخراج علاقة بين نية الذات الفاعلة ونتائج الرهبة على الموضوع الذي

يتحملها، ولكن المعنى السياسي/ الاجتماعي القائم على طبيعة البواعث والاهداف التي من جرائها يحصل فعل الارهاب لم يظهر إلا مؤخراً

إن الإرهاب السياسي باعتباره ظاهرة اجتماعية إنما يتعلق بمجال الوجود والوقائع والنشاط العملي للبشر، ولا يمكن أن نفهم الارهاب السياسي في مكوناته ما لم نضعه في سياق المنطق التطبيقي للوضع المعين الذي نشأ فيه. كما يجب أن نضعه ضمن الكلية التاريخية التي ينتمي إليها، وهذا يعني أنه لا يمكن فهم هذا الفعل، وتحليله باقتطاع مكوناته من محيطها الديناميكي، وبترها منه بتراً بهدف ابراز كل منها على حدة، بل يجب أن تعتبر بكليتها قوة محركة وملازمة للفعل نفسه، ومتشابكة مع الوضعية السياسية التي لزم عنها الارهاب.

ومن هذا المنطلق علينا بالعودة إلى فهم الجذور التاريخية وراء العنف السياسي من خلال إعادة قراءة الاحداث التاريخية، والصراعات بين البشر، وتحليل أسبابها الاقتصادية والاجتماعية، مع الاخذ بنظر الاعتبار مراحل نمو وتراكم الخبرات في العقل البشري، بالإضافة إلى العامل الجغرافي.

الاستبداد "Tyranny" لغوياً: أستبد برأيه على رأي الآخرين أي قدم رأيه على أنه الصواب دون غيره.. والاستبداد ظاهرة قديمة ومستمرة في التاريخ، وله أشكال وأنواع عديدة، ويمكن تعريفه بأنه الانفراد بالأمر ورفض طلب المشورة أو قبول النصيحة حيث ينبغي الطلب أو القبول.

ويأتي على غرور المرء بنفسه أو عدم قدرته على الانفتاح وتبادل الآراء أو عدم إرادته كتم حقيقته لغيره.

المقدمـة

تضمن الجزء الأول من هذا البحث المتسلسل بعنوان العنف السياسي في بلاد الرافدين "دراسة في جذوره التاريخية" أربعة فصول ابتداءً من تاريخ حضارة وادي الرافدين القديمة، والتي كانت واحدة من أقدم الحضارات في العالم. ثم تناولنا في الفصل الثاني تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، وشمل الفصلين الثالث والرابع عصر فجر الإسلام أو فترة الدعوة المحمدية وعصر الخلفاء الراشدين. وقد استطعنا أن نضع بين يدي القارئ بعض الاستنتاجات من خلال ما تم التطرق إليه من استعراض سريع للأحداث التاريخية المهمة، وتم التركيز على العنف السياسي والظروف والدواعي الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المؤدية لتلك الأحداث. وكان من بين المواريث التاريخية المؤثرة علينا في العصر الحالي تلك المفاهيم المنسجمة مع عصر العبودية والتي كانت تصب في خدمة الحاكم أو الملك ،وتسلط الديانات الوثنية والأوهام والأفكار الغيبية والخرافية التي كانت سائدة ومهيمنة على عقلية القوم، والتي جعلتهم يهرولون طيلة حياتهم لخدمة الإله والكهنة والملك الذي كان يمثل الإله الحامي بالإضافة إلى وازع الخوف والتشاؤم التي أصبحت أحدى الصفات المميزة لبلاد الرافدين.

وكيف تبلورت فكرة الإله الواحد والتوحيد والتي لم تستطع هي الأخرى إزالة كل آثار الموروث الفكري القديم الذي انطبع في أذهان الناس منذ العهد الوثني – عصر العبودية. وتوصلنا إلى رسم سلم يوضح مراحل تطور الحضارة الإنسانية يتميز بحصول قفزات حضارية في حياته بشكل مختلف عن سابقتها من خلال اكتشافات علمية مميزة لعبت دوراً بارزاً وكانت حاضنة لحقبة زمنية محددة. وقد وردت تساؤلات عديدة لم يتم الإجابة عليها في الجزء الأول من الكتاب أو البحث. ونحن نحاول الإجابة على تلك التساؤلات وفك الألغاز والرموز التي ستظهر بوضوح أكثر من خلال استعراضنا للأحداث التاريخية اللاحقة في

هذا الجزء والجزء الذي يليه. وقد تضمن الجزء الثاني من البحث هذا العصر الأموي في الفصل الأول، ذلك العصر المتميز بالفتوحات الإسلامية المترامية الأطراف، وفي الوقت ذاته بطبيعة وشكل نظام الحكم القبلي الوراثي الذي أطاح بمبدأ الشورى وأبقى على النظام القبلي البدائي الذي كان سائداً في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وكان لزاماً علينا أن نستعرض تأثير الموروث التاريخي المتمثل في نظام العبودية على عقلية الناس وسلوكهم وكذلك شكل التطور الاقتصادي والاجتماعي والفكري بالإضافة إلى أمثلة ونماذج عن ممارسات العنف السياسي والحركات والثورات والانتفاضات التي جرت. وهكذا الحال بالنسبة للفصل الثاني والذي تم استعراض الأحداث التي جرت في المنطقة أيام العصر العباسي الذهبي، ذلك العصر الذي نتغنى به ونفاخر به الآن. وبمنهجية مشابهة لما تم التعرض له في الفصل الأول، ولكن تم التركيز هنا على الأفكار والمذاهب التي ظهرت والتي ما زالت موضع جدل ونقاش إلى يومنا هذا. وقد كان عصر المغول هو خاتمة هذا الجزء نأمل أن نكمل الاجزاء الأخرى إلى أن نصل إلى العصر الحديث الذي نعيش فيه.

لقد آليتُ أن أنقل بعض الاحداث التاريخية كما هي من مصادرها الموثوقة والمعترف بها من قبل كل الأطراف، وحاولتُ أن أعتمد في الأعم الأغلب على المصادر الأجنبية الرصينة، على افتراض أنها غير متأثرة أو متحيزة لجهة دون أخرى من خلال هدف هؤلاء الباحثين في الوصول إلى الحقيقة فقط.

ولكون أي منهم غير منتمي لطائفة دون أخرى بالإضافة إلى البيئة العلمية التي نشأ فيها والتي تجعله يميل أكثر إلى الموضوعية والحيادية في الطرح. بالإضافة لذلك فإن المصادر العربية المطابقة لتلك المصادر والمعترف بمرجعيتها الرصينة قد اعتمدت أيضاً دون إضافة أو نقصان من أجل الوصول إلى نتائج

موضوعية تخدم البحث في طبيعة وطريقة تفكير الفرد الرافديني، والشرق أوسطي عموماً.

ونحن نعيش اليوم في ظل عالم يحوي على بشر يضعون المتفجرات في بطونهم ويفجرونها على جمع غفير من الناس العُزل، لا بد لنا من التوغل في جمع كل المعلومات والاحداث التاريخية من أجل فهم ما يدور في رؤوس هؤلاء بهدف وضع خطة للمعالجة الصحيحة. وقبل البدء بالتفاصيل لا بد لنا أولاً أن نبدأ بتعريف بعض المصطلحات المستخدمة لكي نصل إلى فهم مشترك لما يدور حولها.

لقد وضعت الموسوعة الفلسفية العربية (معهد الإنماء العربي 1986) تعريفاً للإرهاب لا بد لنا من ذكره ونحن نبحث في العنف السياسي.

فالارهاب لغوياً: تشتق كلمة إرهاب من الفعل الثلاثي "رهب" أي أخاف. والرهبة هي الخوف والفزع. وارهبه ورهبه أي أخافه وفزّعة والراهبة هي الحالة التي ترهب أي تفزع وتخوف.أن "الرهبة" لا تدل على حالة نفسية تعانيها أو تعبر عنها ذات معينة أو شخص معين أو جماعة معينة، وبالتالي فهي لا تحمل أي معنى سياسي / اجتماعي يقوم على العلاقة القائمة بين نتائج الخوف وبين استغلاله بشكل هادف وواع من قبل فاعل الفعل. أما كلمة إرهاب "Terrorism" فهي تسمح باستخراج علاقة بين نية الذات الفاعلة ونتائج الرهبة على الموضوع الذي يتحملها، ولكن المعنى السياسي/ الاجتماعي القائم على طبيعة البواعث والاهداف التي من جرائها يحصل فعل الارهاب لم يظهر إلا مؤخراً

إن الإرهاب السياسي باعتباره ظاهرة اجتماعية إنما يتعلق بمجال الوجود والوقائع والنشاط العملي للبشر، ولا يمكن أن نفهم الارهاب السياسي في مكوناته ما لم نضعه في سياق المنطق التطبيقي للوضع المعين الذي نشأ فيه. كما يجب أن نضعه ضمن الكلية التاريخية التي ينتمي إليها، وهذا يعني أنه لا

يمكن فهم هذا الفعل، وتحليله باقتطاع مكوناته من محيطها الديناميكي، وبترها منه بتراً بهدف ابراز كل منها على حدة، بل يجب أن تعتبر بكليتها قوة محركة وملازمة للفعل نفسه، ومتشابكة مع الوضعية السياسية التي لزم عنها الارهاب.

ومن هذا المنطلق علينا بالعودة إلى فهم الجذور التاريخية وراء العنف السياسي من خلال إعادة قراءة الاحداث التاريخية، والصراعات بين البشر، وتحليل أسبابها الاقتصادية والاجتماعية، مع الاخذ بنظر الاعتبار مراحل نمو وتراكم الخبرات في العقل البشري، بالإضافة إلى العامل الجغرافي.

الاستبداد "Tyranny" لغوياً: أستبد برأيه على رأي الآخرين أي قدم رأيه على أنه الصواب دون غيره.. والاستبداد ظاهرة قديمة ومستمرة في التاريخ، وله أشكال وأنواع عديدة، ويمكن تعريفه بأنه الانفراد بالأمر ورفض طلب المشورة أو قبول النصيحة حيث ينبغي الطلب أو القبول.

ويأتي على غرور المرء بنفسه أو عدم قدرته على الانفتاح وتبادل الآراء أو عدم إرادته كتم حقيقته لغيره.

وإذا كان الأمر متعلقاً بتدبير مصلحة جماعة معينة، فإن الاستبداد يعني التصرف المطلق بشؤون الجماعة بمعنى المشيئة الخاصة والهوى. ولا يبعد معنى الاستبداد عن معاني التعسف والتحكم والاستعباد والسيطرة التامة. ويختلط مفهوم الاستبداد مع مفهوم الطغيان في أكثر النصوص.

فالطغيان بمعناه العام يشتمل على عنصرين لا نجدهما في الاستبداد وهما القهر والجور . فالاستبداد من حيث هو تصرف غير مقيد وتحكمي في شؤون الجماعة السياسية، يبرّز إرادة الحاكم وهواة ولا يعني بالضرورة أن تصرف الحاكم ضاغط بعنف على المحكومين غير مبال بقواعد العدل والانصاف،

بينما الطاغية يعني الحاكم الذي يستولي على الحكم بصورة غير شرعية، ولكنه يحكم بموجب قوانين نافذة. ومن هنا نشأت فكرة الحاكم المستبد المتنور، فالاستبداد لا يتنافى في ذاته مع العدل والنور، ولكن تحكم الهوى في التصرف التفردي تبعد الحاكم عن التبصر العقلي في الأمور، وبالتالي عن مسلك النور والعدل (الكواكبي).

وهناك بعض المصطلحات الفلسفية تم التطرق إليها في هذا الجزء من البحث لا بد من تعريفها وهي:

الاستقراء "Induction" : فهو نوع من الاستدلال أو الاستنتاج مباشر وغير مباشر، الأول هو استنتاج قضية من قضية واحدة، وغير المباشر هما القياس والاستقراء. والقياس هو استنتاج قضية من قضيتين لا أكثر ولا أقل. أما الاستقراء فهو استنتاج قضية من أكثر من مقدمتين وليس في الاستقراء يقين، وإنما صدقه صدق احتمال وكلما زاد عدد المقدمات زاد احتمال صدق نتيجته(*).

والاستنباط "Deduction": لغوياً: استخراج الماء من العين من قولهم نبط الماء: إذا خرج من منبعه. ويعني كمصطلح استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن وقوة القريحة. ويستند الاستنباط إلى مجموعة من التعريفات والبديهيات والمصادرات. ومن هذه جميعاً ننتقل إلى ما يترتب عليها من نتائج وتسمى النتائج بالنظريات. (الجرجاني).

نقد كان هذا الجزء كاشفاً لحقائق تاريخية قلما يتطرق إليها المؤرخون كي لا يتعرضوا لانتقاد أو خدش لمشاعر الناس المغرمين والمتعلقين بحب فترة زمنية معينة أو شخصية تاريخية معروفة، لكننا توخينا الموضوعية وآلينا أن نضع

(*) راجع الموسوعة الفلسفية العربية – د. معنى زيادة – المجلد الأول، ط1 (1986) المعهد العربي للانماء (ص 59).

تلك الحقائق أمام أعين الجميع من أجل إيصال الحقيقة كما هي والقارئ حر في أن يأخذ بها أو يرفضها. أو يعدل ويضيف عليها وينتقدها أيجابياً.

لقد تم التطرق للعديد من المواضيع المختصة بكيفية نشوء وتبلور الأفكار والمعتقدات، والمذاهب التي ظهرت خلال الحقبة التاريخية موضوعة البحث والمتمثلة بأكثر من ثمانية قرون ابتداءً من العصر الأموي وإلى عصر الدولة الصفوية والعثمانية وسيطرتهما على معظم أجزاء المنطقة. ولم يكن البحث مقصوراً على الأحداث التي حصلت في بلاد الرافدين فحسب بل شملت أحداث تاريخية شرق وغرب المنطقة ولمديات بعيدة. والسبب في ذلك واضح وهو أن الأحداث التاريخية المهمة مترابطة لا يمكن فصل بعضها عن بعض. فإذا أصبح العالم الآن يشبه قرية صغيرة بفضل تقدم وسائل الاتصال، فإن العالم في كل وقت مضى على هذا الكوكب واحد، ولا يمكن فصل احداثه التاريخية عن بعضها.

وكان الإنسان منذ القدم متنقلاً لا يعيقه حاجز مروري أو "سمة دخول" أو بروتوكلات رسمية في اختياره المكان الذي يرغب العيش فيه. وقد حاولنا قدر الإمكان التركيز على كل ما يختص بتاريخنا ليس فقط كحدث تاريخي بل من خلال تاثيره علينا كموروث راسخ في عقول الناس في الوقت الحاضر.

وأعطينا تواريخ الأحداث بالسنين الميلادية كما هو مستخدم في أغلب مناطق العالم مع اعتزازنا بالتاريخ الهجري المعمول به في البلاد الإسلامية فقط، وذلك لكي نسهل على القارئ المقارنة بين ما كان يجري عندنا مع ما هو حاصل في تلك الفترة في مناطق أخرى من العالم البعيد. كما وضعنا بعض الاستنتاجات من خلال ما تم استعراضه من أحداث تاريخية ومناقشة بعض الأفكار والمذاهب التي نشأت في المنطقة وكانت تلك استنتاجات أولية يمكن اعتبارها كمقدمة

لما سيأتي لاحقاً والتي ستكون بمثابة وضع الاصبع على الجرح، أو بالأحرى منهجاً علمياً رصيناً يضع النقاط على الحروف من أجل الخروج من دائرة العنف والتخلف السائدة في المنطقة واللحاق بركب الحضارة الحديثة.ونأمل أن نستطيع تفكيك العديد من الالغاز غير الواضحه والمختلف عليه،ليس فقط في إتجاه منع العنف بل في حل مشاكل التخلف الثقافي والتربوي،وبالتالي الوصول على برالامان واللحاق بركب الحضارة الحديثة ليس فقط في بلاد الرافدين بل بالمنطقة العربية ككل.

الفصل الأول



عصر الدولة الأموية

الفصل الأول

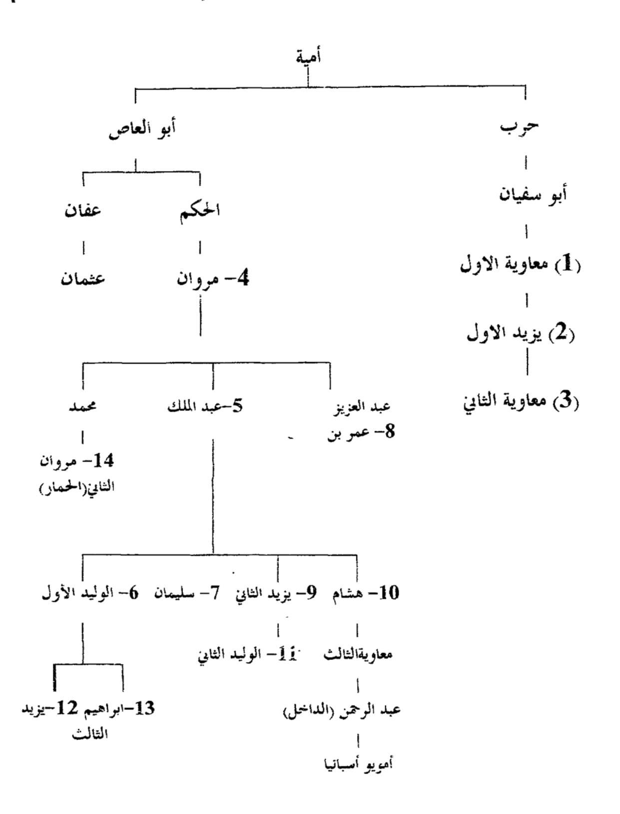
عصر الدولة الأموية

تبرز أهمية هذا العصر ضمن سياق البحث من خلال ما حصل من تغيير في نظام الحكم في سيطرة العشيرة أو القبيلة (بني أمية) وعودة العصبية القبلية إلى نظام الحكم السياسي العربي بعد كل الإنجازات التي حصلت في عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين من بعده. وبروز أكبر إمبراطورية إسلامية في العالم في تلك المرحلة التاريخية التي كانت تعيشها أوروبا ضمن العصور المظلمة الوسطى (من عام 661م أي منذ تولي معاوية بن أبي سفيان الحكم إلى نهاية الدولة الأموية عام 748م)، وسنحاول التعرض لأبرز ما حصل فيها من ثورات وحركات سياسية، كثورة الحسين بن علي بن أبي طالب. وثورة عبدالله بن الزبير في الحجاز وغيرها من الحركات السياسية وانتهاءاً بثورة العباسيين التي بدأت في إيران وأطاحت بالحكم الأموي.

وأهم من ذلك كله العنف السياسي الذي مورس ضد العراقيين من قبل الولاة المرسلين من سلاطين الأمويين إلى العراق وبالأخص الحجاج بن يوسف الثقفي، وكذلك أهم الانقسامات والفرق الإسلامية التي بدأت بذورها تنمو وتتجذر بمرور الزمن والتي لا نزال نعاني منها إلى يومنا هذا وبشكل بارز وعنيف .لكي نستطيع الاقتراب من فهم الأسباب والدواعي لكل هذه الانقسامات من خلال الاطلاع على النشأة الأولى لها، وما أدت من أعمال عنف وقتل طيلة تلك القرون الغابرة.

وهذا يتطلب أيضاً التطرق إلى العوامل الاقتصادية والاجتماعية والفكرية من خلال دراسة كل ما يتعلق بالمسببات والدواعي التي أدت إلى استعمال تلك

الانقسامات بينما لا يهمنا الدخول في تفاصيل تاريخية عن حكم الخلفاء الأمويين وأعمالهم وما إلى ذلك من سرد تاريخي يمكن الرجوع إليه في المصادر التاريخية المتخصصة في هذا الموضوع. ونكتفي بوضع خارطة جدول للخلفاء لتوضيح تسلسل الخلفاء في توليهم الحكم، وكما هو موضح في الشكل (1) عن كتاب استانلي لين بول "تاريخ الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء" ترجمة مكي طاهر، عباس اقبال. الدار العربيّة للموسوعات – بيروت (2006).


أمية
حرب
أبو العاص
أبو سفيان
الحكم
عفان
(1) معاوية الاول
4- مروان
عثمان
(2) يزيد الاول
(3) معاوية الثاني
عبد العزيز
8- عمر بن
5-عبد الملك
محمد
14- مروان
الثاني(الحمار)
10- هشام
9- يزيد الثاني
7- سليمان
6- الوليد الأول
معاويةالثالث
11- الوليد الثاني
عبد الرحمن (الداخل)
13-ابراهيم
12-يزيد
الثالث
أمويو أسبانيا

1- الفتوحات العربيّة الاسلاميه : تم الفتح العربي بسرعة أدهشت الفاتحين أنفسهم، ولم يكن الغرض من هذه الحروب في الأساس سوى الغزو [1] تحت راية نشر الدين الجديد (الإسلام) إلى كل أرجاء المعمورة، فجاء الاصطدام يكشف عن عورات الخصم والضعف الذي انتابه،وتحولت الفكرة الاولى، الغزو إلى فتح ساعد عليه وسهل أمره الحماسة التي جاء بها الفاتحون المسلمون الملهمون بالعقيدة الاسلامية منذ عهد النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ويكمن الضعف بالأساس في ضعف الامبراطوريتين البيزنطية في الغرب، والساسانية في الشرق، وهزيمتهم أمام مقاومة المسلمين بل أن قسماً من سكان البلاد تعاون معهم وعمل على نصرتهم، وبشكل خاص المناطق الشمالية من الجزيرة العربيّة التي كان يقطنها أكثرية عربية، وتتميز بطبيعتها الصحراوية الحارة المشابهة لظروف قلب الجزيرة العربيّة، فقد تم فتح سوريا سنة 636م بعد أن بوشر به عام 633م، وقد بوشر بفتح العراق في الوقت ذاته وتم نهائياً عام 637م.

أما فتح مصر فقد تم بين عامي 639م و 642م، وقد تم فتح إيران نهائياً باستثناء بعض المقاطعات الدائرية عام 651م، وقد ساعدت طبيعة البلاد الجبلية، على تنظيم شيء من الدفاع (الوطني) خلافاً للأمر في الولايات البيزنطية، إذ ما كادت جيوش العرب تطل على هذه الولايات حتى راح حكامها يخلونها بسرعة، ويفرون إلى القسطنطينية إن لم يتواطؤا مع المسلمين الفاتحين، وقد بات من الصعب على المسلمين بعد أن خفت حماستهم وخف اندفاعهم أن يفتحوا آسيا

(1) الغزو: في تعريف علماء اللغة تعني الطلب. وهو مورد من أهم موارد الرزق عند الأعراب، لا سيما في سني انحباس السماء وانقطاع المطر. وقد يقع الغزو لأسباب أخرى لا علاقة لها بانحباس المطر بل بسبب طمع القبائل بعضها ببعض والعادة أن القبائل القوية تطمع في القبائل الضعيفة لتأخذ منها ما عندها من رزق ومال فتغزوها لتستولي على ما طمعت به. أنظر جواد علي "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" ج5.ص333.

الصغرى بعد أن فشلت محاولتان لهم للاستيلاء على القسطنطينية، وبسط سيطرتهم على آسيا الوسطى، حيث أصبح نهر السيرداريا منذ أواسط القرن الثامن، الحد الفاصل بين الامبراطورية الاسلامية وبين المقاطعات الواقعة تحت سيطرة الصين، وقبائل البدو الرحل من تتر ومغول، وكذلك لم يكن فتح شمالي افريقيا بالأمر الهين لشدة مقاومة البربر لهذا الفتح، ولم يستقم الأمر للمسلمين إلا بعد مساهمة هؤلاء البربر في فتح اسبانيا ثم صقلية بعد ذلك بنحو قرن من الزمن، وكانت معظم هذه الفتوحات قد تمت في العصر الأموي.

أما بالنسبة للأقاليم الجبلية التي يقطنها الأكراد في الشمال فلم يدخل الاسلام إليها إلا بعد قرون بسبب وعورة المناطق الجبلية التي يقطنونها، ولم يتم ذلك بالسيف والإكراه ولكن بالاقناع والاقتناع، كما كان الحال في أغلب مناطق الشرق.

وهكذا دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين أقاليم شاسعة امتدت من نهر الهندوس شرقاً إلى نهر التاج في اسبانيا غرباً، ومن بحر أورال شمالاً إلى أقليم السنغال جنوباً (افريقيا)، وكلها مناطق تأتلف مع طبيعة العرب، وتتوافق عاداتها ومعايشها ومفهومهم للأمور المعاشية، من حيث احتياجاتهم اليومية التي لا تختلف عند الكثيرين من سكان هذه البلاد الأصليين، عن احتياجات العرب ومطالبهم الأساسية، ولكن هناك أمران مهمان في الجغرافيا والتاريخ، جعلت الفرق كبيراً بين هذه البلدان، لابد من التنويه عنهما هنا، وهذان الأمران هما أنه بعد الفتح جرى تنظيم هذه البلدان في إطار وحدة فضفاضة على أساس من الاتفاقات المشروطة لتأمين خضوع السكان واستسلامهم، ففي تلك الحقبة التاريخية لم يكن هناك وسائل اتصالات متطورة، كما هو عليه الحال في عصرنا الحالي، وبالتالي يمكن تصور صعوبات الإدارة ونشر الدعوة الاسلامية بالشكل الذي فهمها العرب بالجزيرة العربيّة من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية والتي

كانت بلغتهم المتداولة. وبدلاً من أن يذوب الفاتحون العرب بين أكثرية سكان البلاد الأصليين، مع ما بين الجانبين من فوارق العادات والأخلاق نراهم ينزلون في مخيمات عسكرية خاصة بهم في مقاطعات لم تأخذ بعد تماماً بأسباب الحضارة والتطور، فإذا بسكان البلاد يغدون على هذه المخميات التي لم تلبث أن أصبحت مدناً عامرة كالكوفة والبصرة مثلاً في جنوب العراق، والفسطاط (القاهرة حالياً) في مصر، والقيروان في المغرب، وكلها مراكز زراعية عامرة تقع على مقربة من الصحراء في الداخل، بعيدة عن البحر ومواصلاته إذ لم يكونوا قد طوعوه بعد، ولا ألفوا ركوبه، أما الجيش الذي كان يتألف من كل من يستطيع حمل السلاح المؤلف من السيف والرمح، وينال من الخصم، فينقسم إلى فرق تتمركز في مقاطعات عسكرية تعرف عندهم باسم (جند الاسلام) تجري عليها الأرزاق والمرتبات من الاسلاب والمغانم الحربية كل بحسب مرتبته، أو من الرسوم والضرائب المفروضة على الذميين وعلى من يدخل منهم في طاعة المسلمين مستأمنين وغير ذلك من الضرائب كالزكاة التي تفرض على التجار والأغنياء، وتبقى القبيلة وحدة لها شأنها الاجتماعي بالرغم مما تتعرض له من انقسامات تقتضيها مستلزمات الفتح العسكري، تحت إمرة الخليفة ومن يعاونة من الصحابة والأنصار والتابعين، وكثيراً ما أدت العصبية القبلية التي منعها الإسلام إلى الاقتتال والتناحر بين قبائل الشمال والجنوب مناصرة منها للحزبية الناشطة التي دعا إليها الوضع الجديد في العالم العربي والاسلامي، فمزقت شمله وفرقته شيعاً وأحزاباً أدت إلى إشتباكات دامية استمرت قرناً وأكثر[1].

وسنأتي إلى تفاصيل وأسباب التناحر في الفقرات اللآحقة.

---

(1) ادوار برويّ – تاريخ الحضارات (القرون الوسطى) – ج2 – (1986) – ص 113.

2- أزمات الحكم الداخلية :-

لقد كان لزاماً أن تفضي الأوضاع الجديدة بعد هذه الفتوحات الواسعة التي ساعدت على حل أزمة خلافة النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم إلى أزمة جديدة أطول وأكثر تعقيداً ، فقد واجه تنظيم الدولة الجديدة مشكلات ضخمة لم تكن بالحسبان ولم تكن لتخطر على بال أحد ، منها مثلاً قضية الحكم، والتي انطلقت من صميم هذه الفوارق والاختلافات الجذرية التي تلازم اختلاف المصالح والأهواء الشخصية في الظاهر، والتي أقامت الجماعة وأقعدتها ، بعد أن زال الجيل الأول الذي صحب النبي وناصره أو لم يبقى منه إلا نفر قليل ممن أصبح شيخاً كبيراً أو عاجزاً عن حمل السلاح. والملاحظ أن وسط وجنوب الجزيرة العربيّة ، قد أصبح هادئ بعض الشيء إلا أن الخلافات أخذت أوارها في شمال الجزيرة بقسميها الشرقي المتمثل في العراق والغربي في بلاد الشام (سوريا وفلسطين) وتعود الأسباب في ذلك إلى ما يلي:

(1) أن الطبيعة الجغرافية مختلفة بعض الشيء عن شبه الجزيرة العربيّة الرعوية ذات القبائل المرتحلة والتي تمارس الرعي بينما تجد في العراق والشام مناطق زراعية ومدن مستقرة وذات حضارة قديمة ومتصلة بالثقافات الشرقية والغربية على حد سواء.

(2) إن انتشار الإسلام بسرعة البرق وما فيه من أفكار وقيم أخلاقية سامية لم يفسح المجال لتطوير الإدارة في أساليب الحكم، بالشكل الذي يلبي فيه حاجات ومتطلبات الأقوام والمجتمعات الأخرى. بينما ظهر ما هو عكس ذلك في بروز هيمنة قبيلة الأمويين على جميع مقدرات تلك الجماعات وكانت تزاول القسر والاضطهاد والتعسف لهم.

إن مجرد الخبرة البسيطة والمتواضعة لدى الأمويين والتي جاءت من خلال سيطرتهم وهيمنتهم غير المعلنة في الجزيرة العربيّة لا تنسجم مع متطلبات المرحلة الجديدة في ولادة امبراطورية كبيرة وواسعة ولا يمكن أن يديرها شخص واحد مهما بلغ من دهاء وقوة. فقد أصبح معاوية بن أبي سفيان أول خليفة أموي، المرجع الوحيد الذي تؤول إليه الكلمة في المنطقة ويدير أمورها منذ توليه الخلافة وإلى مماته، وكيف يمكنه أن يدخل أفكار جديدة في الأذهان دون أن تصطدم مع الأفكار القديمة التي كانت راسخة منذ آلاف السنين؟ وتنتج عنها أفكار مختلفة قد تتسبب في إثارة مشاكل وصراعات دموية لا يستهان بها. ويمكن أن تعزى هذه الاختلافات إلى اعتبارات قد تبدو غريبة في نظر البعض والتي يمكن ردها أصلاً إلى هذا الترابط الداخلي القوي الذي يشدّ العقيدة الدينية إلى النظام الاجتماعي والاقتصادي على حد سواء.

فالتكتلات السياسية التي ظهرت إذ ذاك لم تلبث أن أصبحت أحزاباً وشيعاً لها عقائدها وتعاليمها اللاهوتية[1] التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من وضعها السياسي والديني.

(1-2) الصراعات الداخلية في بداية نشوء الدولة الأموية:-

إن الدولة الأموية قد بدأت أول الأمر منذ تولي عثمان بن عفان الخلافة، فقد هيأ الأجواء من خلال تعينه لعدد من عماله الموالين له والذين ساروا بالامبراطورية إلى حالة من الصراع الطبقي بين من استحوذ على المال وآخرين محرومين إلى أن آلت الأمور إلى ما آلت إليه من ثورة عارمة إلى مقتل الخليفة الثالث وتولي علي بن أبي طالب زمام الأمور، وهنا برزت للعيان ثلاثة نزاعات لابد من الوقوف عندها فمنذ البدء نرى فئة الذين يراودهم الحلم المعسول، الصعب المنال، الذي يتبدى

(1) اللاهوتية: مصطلح يطلق على كل علماء الدين المتخصصين لجميع الطوائف والأديان وبذلك يشمل القساوسة والكهنة والحاخامات والفلاسفة والمتكلمين وغيرهم.

لكل دين جديد والذي يرجى للمحافظة على مظاهر الحياة البدائية وإحيائها، ممثلة خير تمثيل (بقدامى المسلمين)، والفئة الأخرى التي تتألف من هذا الفريق الجرئ الذي يعمل على الإفادة من الظروف القائمة وتسخير السلطان لمصلحته ومنفعته الشخصية، وبعبارة أخرى بين من يقول بالتقية ويتمسك بأهداف الدين الحنيف، وبين هؤلاء الحكام الإداريين من يتولون تصريف الأمور ومعظمهم من آل قريش الذين يهمهم في الدرجة الأولى أن يسترجعوا في الامة النفوذ الذي كان لقريش في مكة قبل الاسلام ويعيدوا إليها السيادة والنفوذ والذي تمتعت بهما من قبل، وبالتالي العودة إلى حكم القبيلة، ولكن بسطوة أكبر ونفوذ ومال أعظم باسم العقيدة الدينية الجديدة.

وقد كان يتزعم هذه الفئة معاوية بن أبي سفيان الذي تولى أمر الشام منذ عهد خلافة عمر وأسس طيلة فترة توليه أمر الشام مع مجموعة من مناصريه جيشاً لا يستهان به، وحاول من خلال وجود العداء بين القبيلتين العربيتين الكبيرتين الكلبية (القادمة في الأصل من اليمن) والقيسية التي تقطن المناطق الشمالية من الجزيرة أن يميل إلى الكلبيين ويكسبهم إلى جانبه في جميع معاركه. وقد تمكن أيضاً من خلال انتمائه للدين الإسلامي أن يجعل من القرآن الكريم والسنة النبوية دستوراً لامبراطوريته يحكم بأسمها، كما حكم من قبله القيصر"قسطنطين الثاني" الامبراطورية الرومانية من خلال تمسكه بالإنجيل والديانة المسيحية ليبسط بها سيطرته عليها. لقد اتخذ معاوية القرآن الكريم والسنة النبوية دستوراً لدولته بالاسم في الغالب، بينما كان حكمه يرجع في الأساس لخبرته القبلية الأولى. كما أنه استقر في دمشق وجعلها عاصمة لملكته، مكرساً بذلك ما كان لابد منه وهو تحول مركز الخلافة من الجزيرة العربيّة إلى الشام، مؤذناً بانتهاء الدور التاريخي الذي لعبته مكة والمدينة بإعطاء العالم ديناً جديداً وجيشاً سعى للتوسع إلى خارج الجزيرة العربيّة. وقد

أضفى انتقال مركز الخلافة إلى دمشق أهميه متزايدة لعرب الشام فأصبحوا عماد الدولة الجديدة وذخرها، وأصبحت الشام في المنزلة الأولى بين الأقطار الإسلامية تفضلها جميعاً، ولا سيما العراق حيث كان أنصار أهل البيت أقوياء يتخذون من الكوفه مركزاً لدعايتهم ولدعوتهم[1]. واضطرت الدولة الناشئة أن تعتمد في إدارتها على أهل الشام الذين أصبحوا عماد الدولة فأمدوها بالعمال والموظفين من أبناء البلاد، وهكذا رجحت كفة التقاليد البيزنطية في الشام على التقاليد الساسانية المتمثلة في الجانب الشرقي (العراق). وتألفت إدارة الدولة من قطاعين، ينتظم الأول سياسة المسلمين فينتظم منهم شؤون الحرب والسلم وأمور العبادات ويؤمن أقسام المرتبات والاعطيات وجمع الزكاة ويتولى شؤون هذه الإدارة في عاصمة الخلافة دمشق، وفي الأقاليم موظفون عرب. أما الثاني فيعنى بشؤون البلاد، ولا سيما تنظيم الضرائب وجبايتها ويتولى القيام بها، والإشراف عليها عمال وموظفون من أهل البلاد يتولون كتابة الديون، وضرب السكة بلغة البلاد، وبغير ذلك من أمور الإدارة التي لا علاقة لها بشؤون الدين. ونرى في القطاع الأول يزداد التباعد أو الانفصال بين الدولة والدين. فالدين ينظم مبدئياً كل شيء في الحياة العامة والخاصة بحيث لا يمكن إدخال أي تغيير عليها أو تعديلها وقد انتظمت العلاقات بين الدولة وسكان البلاد الأصليين بسهولة كلية وفقاً لروح القانون المعمول به في البلاد، والنظام الساري المفعول كما هو الحال مع كل فتح جديد، وبقيت كل ملة او طائفة محتفظة بقانونها الخاص وبالموظفين الذين يسهرون على شؤون البلاد عندها، باستثناء ما كان منها تابعاً للحق العام، فمرجعه الحكومة. أوما تعلق بالعلاقات الخاصة بين هذه الطوائف بعضها ببعض، فكان أمره متروكاً للقضاة الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال بالنسبة للحكومة، مع أنها هي التي تتولى أمر تعيينهم

(1) ادوارد برودي "تاريخ الحضارات العام" – ج2 – القرون الوسطى – ص118 المصدر السابق.

وتأمين مرتباتهم، ويسهرون على تطبيق قانون لم تكن الدولة قد أصدرته. ونلاحظ تطوراً ملحوظاً يطرأ على وضع النصارى بعد أن احتفظت بيعهم بجانب من ممارسة العدالة في الأمور الخاصة، ولا سيما في الأمور العائلية منها. وهكذا برز البطاركة والأساقفة والرؤساء الأعلين لطوائفهم تعلو سلطتهم الموظفين الإداريين المحليين حتى أن اليهود أنفسهم لم يجدوا بأساً في الاحتفاظ برؤسائهم الدينيين وبريانتهم وبحاخامهم الأكبر في منطقة فلسطين والشام.يقول هادي العلوي في كتابه فصول من تاريخ العرب السياسي[1]:

"ولما استتب أمر الخلافة لمعاوية، وبعد أن قام أهل العراق بإعلان أن الحسن بن علي خليفة شرعي للمسلمين، لكن معاوية تمكن من جعله يتنازل وأوعده بالولاية من بعده، ثم ما لبث أن تمكن عن طريق زوجته جعدة ابنة الخائن المحترف الأشعث بن قيس من دس السم إليه. وقد انزوى الحسن مكتفياً بهبه سنوية منحه إياها معاوية نفسه، حتى مات مسموماً وهو في الخامسة والأربعين من عمره.

لم يكن الصراع متكافئاً بين معاوية والحسن، فقد كانت الخبرة المتراكمة لدى معاوية والتي حصل عليها من والده أبو سفيان وأسلافه الآخرين أيام العرب الأوائل قبل الإسلام ومـا يتمتع به من أساليب الدهاء والفتك والحنكة، وكانت لديه كل الأسلحة القادرة على القضاء على أي معارضة، ولكنه لم يدخل مثل هذه المعارك غير الضرورية محاولاً جذب كل القوى لدعم حكمه، مجهزاً على خصومة بطرق قاتلة سرية لا تثير غضباً اجتماعياً. ثم واصل دفع ذلك التيار الحربي السياسي القوي، وهو تيار الفتوحات الذي كان دائماً الجاذب الأكبر للقبائل العربية والذي يشغلها عن الصراع السياسي، ويملأ أيديها بالغنائم". لقد حقق معاوية في ذلك الأمر حلم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في الهيمنة على بلاد المشرق (الدولة الساسانية) والمغرب (الدولة البيزنطية) خلال

فترة حكمه، كما كان محمد صلى الله عليه وسلم يوعد العرب قبل إسلامهم بأنهم سوف يسيطروا على تلك البلدان، إذا ما اتبعوا دين الإسلام، وآمنوا بالله ورسوله أيام كان في مكة، ومنذ بداية الدعوة الإسلامية[1].

فقد دّخل معاوية بالاضافة لذلك قبائل الشام العربية والمسيحية في الفتوحات محولاً إياها إلى الإسلام فغدت الدعوة القبلية لحكمه، مشعل الخلاف بين القيسيين والقحطانيين، كما ذكرنا، وكان منتظماً جدياً لأدوات التحديث، كإنشائه الجيش المنظم والاسطول البحري وإنشائه مصلحة البريد الهامة، وديوان التسجيل..الخ. وهكذا تحولت الخلافة التي كان يراها المسلمون بأنها استمرار للنبوة، وأن يحكم الخليفة بلا امتيازات، وأن لا يسكن في قصر ويأخذ من بيت المال راتباً يكفيه لمعيشة وسط إلى أن أصبحوا ملوك. وقد قال أبن كثير في (البداية والنهاية): "أن السنة أن يقال لمعاوية ملك ولا يقال خليفة"[2]. والأمر الآخر الأهم من كل ذلك هو أن يولي يزيد ابنه الى الحكم من بعده، وبالتالي تحول النظام الإسلامي من نظام شورى إلى نظام وراثي للأبناء، وكان ذلك انقلاباً مدوياً، فقد أطيح هنا بحكم الشورى، ودخلت الدولة في الملكية المطلقة، ولم يعد ثمة أهمية للقب أمير المؤمنين أو الخليفة الذي يموه كلمة الملك، وهذا تبدل جذري حصل منذ تولي يزيد بن معاوية مقاليد الحكم، واستمر في ذلك إلى نهاية حكم الدولة العثمانية دون منازع، مما يدل على تأثير الموروث التاريخي والعوامل الجغرافية والاقتصادية وغيرها في تجديد شكل الإدارة في المنطقة، وفي التمسك بالاعتقاد بأن الملك أو الحاكم يستمد سلطته من السماء. لقد جرت عمليه الانتقال هذة بعد كبار الخلفاء، ووقعت في حضن مراهق نزق هو يزيد بن معاوية

(1) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية" ترجمة منير بعلبكي، وبينه أمين، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت (1977).

(2) "محطات في التاريخ والتراث"، هادي العلوي، المصدر، ص115.

الذي تراكمت في يديه كل نتائج تطور جهاز الدولة، وأدوات القمع وشراء الذمم من أسلافه، وكانت النتيجة لهذا الانتقال، تعرض الإمام الحسين بن علي في الواقعة المؤلمة الكبرى الدموية بمعنى الكلمة، مما ترك آثار مأساوية لا تمحى في ذاكرة المسلمين[1]. وفي معرض بحثنا في العنف السياسي وجذوره التاريخية، لابد لنا من تسليط ضوء بخصوص حادثة استشهاد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب(عليه السلام)

ولنبدأ هنا أولاً بما جاء على لسان طه حسين في كتابه "الفتنة الكبرى"، وكذلك آراء بعض الكتاب والمستشرقين الغربيين الموضوعيين والبعيدة عن الانحياز لطائفة دون أخرى نظراً لأهمية هذه الحادثة في تاريخنا القديم والحديث والتي لا زالت آثارها تعيش فينا نحن العراقيين شإنا أم أبينا وكما يلي:

(2 -2) حادثة استشهاد الإمام الحسين بن علي:

"أقام الحسين بن علي بمكة رافضاً بيعة يزيد، وبدءت الرسل تتواصل بينه وبين شيعة أهل البيت في الكوفة وهم يمثلون أكثرية السكان هناك، وقد استجابت هذه الشيعة للحسين إماما لهم، فدعوه إلى أن يأتي الكوفة لكي يساعد في خلع يزيد، وإخراج عامله آنذاك النعمان بن بشير. وقد كثرت هذه الكتب حتى منحها الحسين كثيراً من عنايته، واراد أن يستقصي أمر هؤلاء الناس، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب الى الكوفة ليلقى أهلها ويعلم علمها، فإن أنس منهم نية صادقة وعزيمة مصممة على الخروج، حتى إذا رأى أن قد بايعه منهم من يستطيع أن ينهض بهم إلى ما يزيد من خلع يزيد كتب إليه بذلك ليرحل الى الكوفة، فمضى الفتى إلى الكوفة، ولكنه أضطر أن

---

(1) عبدالله خليفة "الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية"، ط1، ج1، (2005)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ص139.

يستخفي بأمره عند بعض أهلها، وجعلها وجوه الناس ورؤساءهم حتى إذا استوثق منهم جعل يأخذ البيعة عليهم للحسين. وفي هذه الأثناء ولى يزيد أمره الكوفة الى عبيد الله بن زياد عامله على البصرة بدلاً من النعمان بن بشير لكونه أكثر صراماً وحزماً للأمور الخطيرة المقبلة. وكان مسلم بن عقيل قد أخذ البيعة على أكثر من ثمانية عشر ألفاً وكتب بذلك إلى الحسين وألح عليه بالقدوم إلى الكوفة ولم يكد ابن زياد يستقر في سلطانه الجديد حتى طلب مسلماً سراً وعلانية وجدّ في الطلب حتى عرف مكانه عند رجل يدعى هاني بن عروة، فلم يزل بهاني هذا حتى أحضره بين يديه، ثم لم يزل به حتى قرر بأن مسلماً مختبئ في داره، ثم حبسه وهاج الناس لحبسه فلم يبلغوا بهياجهم شيئاً. وثار مسلم آخر الأمر ونادى بشعاره، فثارت معه العرف من أهل الكوفة، فمضى حتى بلغوا المسجد ولكنهم لم يثبتوا، ولم يكد الليل أن يتقدم حتى كانوا قد تفرقوا عن الفتى وتركوه وحيداً، وقد جئ به عبيد الله بن زياد آخر الأمر، فقتله في أعلى القصر وألقى رأسه، ثم ألقى جسمه إلى الناس. وقتل هاني بن عروة وصلب القتيلين معاً. وقد وصل كتاب مسلم إلى الحسين بمكة فجعل يتأهب للمسير إلى الكوفة وجعل الناس يلحون عليه أن لا يفعل ذلك ويذكرونه بأس يزيد وبطش ابن زياد، وغدر أهل الكوفة، وقد مضى مع الحسين نفر من بني أبيه ومن بني أخيه الحسن، واثنان من بني عبيد الله بن جعفر ونفر من بني عمه عقيل، ورجال آخرون حرصوا على أن ينصروه. ولما رأت الأعراب قدومه إلى العراق منابذاً ليزيد طمعوا في صحبته وانتظروا منها الخير، فتبعه عنهم خلق كثير، ولكنهم تفرقوا عنه بعد علمهم بأنها الحرب بينه وبين خصمه زياد حال تقربه من العراق. ثم ندب ابن زياد لحرب الحسين رجلاً من أقرب الناس إليه وهو عمرو ابن سعد بن أبي وقاصى، وأرسل معه جيشاً من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، ومضى عمرو حتى لقي الحسين فسأله فيم قدم؟ فقال له الحسين، كتب إليّ أهل المصر يستقدموني

وهكذا فقد بذروا بذوراً لا يفنى كان قد ألقيت في الأرض لتزيد من قوته تأثيرات أخرى، فنبتت في المستقبل حصاداً روحياً لا تزال ملايين البشر تتغذى بها حتى يومنا هذا. وهكذا آلت الأمور إلى ما آلت إليه أيام معاوية وابنه يزيد إلى شر ما كان يمكن أن تصير إليه الأمور في بدايات تولي يزيد زمام الأمور (السنة الأولى لحكمه). فقد انتهت محنة الحسين بصدمه كبرى لأهل الحجاز وللصالحين في كل مكان في البلاد الإسلامية، وأصبح سلطان يزيد قد أمعن في نظرهم في الخلاف عن أمر الله فلم تصبح طاعته لازمه، بل أصبح أمر الخروج عليه واجباً حين يتمكن الناس من ذلك"، ويجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الإحساس بالغضب على الأمويين لم يقتصر على الشيعة (شيعة علي) في ذلك الزمان فحسب، بل شمل كل المسلمين، وحتى المسيحيين منهموقد ساهم نفرٌ من المسيحيين معة في القتال في كربلاء.

لقد برزت مفاهيم مخطوءه عبر الزمن، بأن أهل السنة كانوا ولا زالوا مع يزيد في حربه ضد الإمام الحسين، وهذا خطأ فادح وتجنّي كبير على أبناء السنة، فلم يكن في ذلك الحين الاستقطاب الحاصل الآن بين الطوائف المسلمة، وهناك أدلة عديدة على صحة ذلك، فقد كان العباسيين الذين سكنوا إيران يحرضون المسلمين ضد الخلفاء الأمويين، وقاموا بثورة كبرى ضدهم وهم من أبناء السنة في حينها، وكان أول ما يستشهدون به في تحريضهم هذا ضد الأمويين هو قضية استشهاد الحسين.

يقول عبد الله خليفة في كتابه :أتجاهات مثالية في الفلسفة الإسلامية"[1] لإن هذا المصير المتضاد بين الخلفاء الأئمة (ويقصد الحسين) وبين الملوك الأمويين، بين النهج الوسط المعتدل القريب للجمهور، ونهج الأشراف العفيف، الذي يعبر عن

(1) عبد الله خليفة "المصدرالسابق نفسه" ص 138.

الانتقال العنيف والسريع للبنية الرعوية من خلال الأصول الرعوية لعرب الجزيرة الى الفتوحات العظيمة، والثروة المتراكمة لعائلة بعد كل ذلك القحط، دون وجود مراحل وسط، وبدون فسح مجال لتراكم المنجزات الحضارية فكرياً في قلب الجزيرة العربية القائدة، ويعكس الصراع غياب السياسة عند الجيل الجديد، فالعزوف الموضوعية للثورة والتهيئة النضالية الطويلة وقراءة الأصول المادية للناس، كلها تغيب عن نظر الجانب المكافح من هذا الجيل، في حين تغيب عن القسم الآخر الحكمة وبعد النظر وحلول العنف اللامبرر. وهكذا دفعت تلك النتائج الأجيال القادمة (التي تلت تلك الأحداث) بالاستقطاب إلى فريقين، فريق أهل البيت ومحبيهم في الغور في الدين والغيب بصورة أكبر، والاتصال بالسماء تعبيراً عن طرق جديدة في العمل السياسي بينما تمادت الفرق التائه في الابتعاد عنه، والاهتمام بأمور الدنيا[1].

وهكذا كانت فرق المسلمين بعد حادثة استشهاد الحسين مباشرة، لكنها زرعت بذرة أو أصبحت بمثابة قطعة الثلج المتدحرجة من أعلى الجبل لتكبر وتتفاقم في النهاية الى فريقين رئيسيين هما السنة والشيعة.

أما دوزي[2]، فقد قال بهذا الصدد ما يلي :

"إن انتصار بني أمية كان في حقيقة الأمر نفراً لفرق تعادي الإسلام من كل قلبها، وبسبب هذا الانتصار أصبح أولاد أقدم أعداء الرسول وأشدهم كراهية له -دون أن تتغير قلوبهم- يدعون خلافة الرسول والنيابة عنه- وباتوا يسكتون بسيوفهم من يجرأ على معارضة بدعهم، ولن نذهب بعيداً للبحث عن أسباب المعارضة والاستياء حتى في خلافة معاوية، فقد أنشأ معاوية بلاطاً فخماً في دمشق وخلق حاجزاً بينه وبين الطبقات الفقيرة، وبدلاً من أن يُقتدا بنواب الرسول

(1) عبد الله خليفة، المصدر السابق، ص139.

(2) دوزي: "تاريخ الدولة الإسلامية"، طبع لندن، (1863)، ترجمة فكتور شوون، القاهرة.

الأول (الخلفاء الراشدين) اتخذ من بلاط أباطرة الروم الشرقية وملوك إيران قدوة يحتذى بها. وبنفس الروح، اختار ابنه يزيد للخلافة وقد فرض هذا الاختيار البغيض بالقوة على أهالي المدينتين المقدستين مكة والمدينة"[1].

لقد كانت ام يزيد بدوية[2]، وتربى في جو الصحراء الطليق الحر، ويطرب للصيد، ويفرح وينشد الأشعار اللطيفة[3]، ويلعب نرد العشق، ويعشق الشراب والموسيقى، ويميل إلى اللهو واللعب، ولا يعير للدين اهتماماً. ورغم ما أتسم به من إعراض عن ربه وطيش وإسراف وتبذير، فإنه لو لم يكن الوصمة السوداء التي اقترنت بإسمه –ونعني بها فاجعة كربلاء- لجاز لنا بسبب جمال محيّاه[4]، وأشعاره العذبة، وصفاته الملكية واللذة التي كان ينالها من سعيه وراء مباهج الحياة.. أن نعدل عن رأينا الذي كوناه عنه، ونخفف من حكمنا عليه".

وفي كتاب الفخري جاء بخصوص حادثة مقتل الحسين:

"استمر حكم (يزيد) ثلاثة سنوات ونصف، وفي السنة الأولى قُتل الحسين بن علي، وفي الثانية هاجم المدينة وسلب كل ما بها في ثلاثة أيام، وفي الثالثة هاجم الكعبة، ونتيجة لهذه المصائب الثلاثة، وخاصة قتل الحسين تملكت العالم الإسلامي بأسره رعدة الخوف والنفور والبغض، إن من إوتي ولو قدراً ضئيلاً من الإحساس، لابد وأن يتأثر لدى سماعه تلك القضية المحزنة، إن حادث كربلاء ليست جريمة فحسب، بل هي خطأ جسيم، فيزيد وأتباعه- أمثال ابن زياد وشمر وغيرهم- قد تسببوا بفعلتهم هذه- في أن يتخلى أحباب الرسول

(1) ادوارد راون، "تاريخ الأدب في إيران"، الباب الأول والثاني، ص336، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، (2005).

(2) طباطبا (محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي)، "الفخري في الأدب السلطانية والدول الإسلامية"، القاهرة، (1938)، ص316.

(3) طباطبا، المصدر السابق، ص137- 138.

(4) طباطبا، المصدر السابق، ص67.

وأتباعه دينه تماماً عن تفاؤلهم واغضائهم الضمني عن تصرفات الأسرة الأموية، لقد صار مجرد تذكر صحراء كربلاء الملطخة بالدماء –حيث هلك حفيد الرسول عطشاً، ووجد جسده بين أجساد القتلى- كافياً لإثارة مرجل الغضب والهياج في قلب أبرد الناس وأقلهم اهتماماً. وسيطر الحزن والهم على النفوس، وعرّجا بالروح في مدارج الكمال؛ فصار التعب و إلا لم والخطر والموت بالنسبة لها أمراً تافهاً.

فما إن يأتي العاشر من شهر محرم من كل عام حتى يتذكر الشيعة أينما كانوا في إيران، والعراق، والهند، وباكستان، وأواسط آسيا وغيرها –مصيبة كربلاء- ومن الذي يستطيع أن، يرى طقوس العزاء الشيعية- ولو كان ينتمي لمذهب آخر- ولا يؤثر في وجدانه على نحو ما.. مع صدق ما تعبر عنه هذه الطقوس من مشاعر مذهبية جياشة سامية؟ أي قلب لا تؤثر فيه عبارات التعازي الشيعية؟ والآن وقد قمت بشرح تلك القصة، تتجسد أمام عيني تلك الأفكار والخواطر وأسمع أشعار العزاء والبكاء والنحيب، وارى مواكب المعزين والأكفان البيضاء التي يصبغها الشيعة باللون الأحمر من دمهم وحالة السكر التي تتملكهم نتيجة غرقهم في الهموم والأحزان". انتهى كلام كتاب الفخري.

وهكذا أضافت تلك الأحزان وذلك الهم والخوف والتشاؤم إلى الإرث التاريخي القديم في بلاد الرافدين الزاخر بالأحزان والمصائب وجسمت شخصية الفرد الرافديني المتسمة أصلاً بالحزن والتشاؤم(*).

---

* وليم موير: "تاريخ الخلافة الأولى"، (طبع لندن 1883م)، ص324. "حياة محمد وتاريخ الإسلام" (في أربعة أجزاء) "الخلافة رفعتها وانحطاطها وسقوطها"، الطبعة الثانية، (1892).

وها هو الفخري[1] يبدع في هذا الموقف فيقول: "لا أريد أن أسترسل في الكلام حول تلك الفاجعة فهي مثيرة للهم والغم إلى حد كبير، مولدة للخوف والنفور، فالواقع أنه لا توجد في الإسلام فاجعة تجلب العار كما تجلبه هذه الفاجعة، لقد كان مصرع الإمام علي طامة كبرى ولا شك، لكن هذه الواقعة كانت أشد وأقسى، فقد ارتكبت فيها مذبحة شنيعة، وقتل فيها عدد من الأسرى، وعذبوا واوذوا إلى حد يبعث الرعدة في أوصال السامعين، لكني أفضل القول لسبب آخر، وهو أن يقف كل شخص وقوفاً شاملاً على أخبار تلك البلية الكبرى والمصيبة العظمى. إن كل من شارك في هذا العمل أو أمر به أو سرته نتيجته بأية صورة يلعنه الله ولا يقبل توبته ولا فديته، ويحشره في زمرة أشد الناس إضراراً بالناس، وهم الذين يفنون عمرهم سعياً وراء الحياة الدنيا الفانية.. ظناً أنهم يحسنون صنعاً".

أما سير وليم موير فيقول[2]: "لم تحدد فاجعة كربلاء مقدرات الخلافة ومصيرها فحسب، بل حددت مقدرات مماليك الامبراطورية الإسلامية ومصيرها لفترة طويلة بعد انقراض الخلافة وزوالها.. من الذي يرى مراسم العزاء وما يسودها من صخب وضجيج، ويعلم أن مسلمي العالم يدقون صدورهم كل عام ويصرخون في حزن وجنون، ويرددون كلاماً موزوناً ويقولون دون كلل وملل "الحسين..الحسين" من الذي يرى كل هذا ولا يتخيل الحربة المشرعة والسيف البتار اللذين وضعهما الأمويين في يد أعدائهم؟ إن الانتصارات التي أحرزها عبد الله بن الزبير بعد تمرده وعصيانه، والسنوات الثلاثة التي شغل فيها منصب الخلافة مستقلاً في المدن المقدسة شأنها شأن ثورة المختار الخطيرة المخيفة (683- 687)، كانت تستند من حيث المبدأ إلى الانتقام العام من قتلة الحسين

(1) أنظر الفصل الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب، "العنف السياسي في بلاد الرافدين"، ص77 لتوضيح ذلك.

وآله، ولم تكن فرقة الشيعة وحدها في ذلك الحين المساهمة في طلب الثأر بل ساهم معهما الكثير من أهل السنة، وحتى الخوارج الذين ساهموا في قتل أبيه علي"[1].

وهكذا بقيت قصة مقتل الحسين تتداول عبر الأجيال واستُغِلت من قبل الرواة الذين بدأو يزيدون في آلام الناس من خلال الوصف الحزين أولاً، ويزيدون البطولات الأسطورية للإمام الحسين وجماعته، لأن ذلك يضيف قدسية أكبر من خلال موروثهم التاريخي الذي يكمن في "أن الحق والعدل مع القوي"، إلى أن وصلت بعض القصص والروايات في يومنا هذا إلى الحد الذي لا تجده سوى قصص الأطفال الأسطورية من بطولات وهمية تنسب إلى الجماعة التي ناصرت الحسين، ومنها بالذات إلى أخيه العباس، فقد أصبحت تلك القصص وسيلة يعتاش منها البعض، وقصة البطولات التي تنسب إلى العباس، وهو أخو الحسين من أبيه، وكانت والدته من أصل بدوي مما يدل على اعترافهم بقوة البدو وصلابة موقفهم القتالي.وقد استمرت رهبة وسطوة العباس في قلوب الناس الى يومنا هذا، فلا يحلف الاعرابي الشيعي في أمر مشكوك فيه أمام قبر العباس توقياً من ضربه غيبيه قد تأتي منه حتى وهو في قبرة في كربلاء منذ زمن بعيد.وهكذا إنتهت حادثة مقتل الحسين بن علي والتي كان سببها تمسك الرعاة القادمين من قلب الجزيرة العربية بالسلطه والجاه والمال ولا يبالون من عمل كل شيئ للحفاظ على تلك السلطة.

(2- 3) ثورة عبدالله أبن الزبير:

ننتقل إلى المصيبه الآخرى التي قام بها يزيد في السنة الثانية لخلافتة، فقد جاء في كتاب "الفتنه الكبرى" لطه حسين: "لقد عظم في الحجاز أمر عبدالله بن

(1) وليم موير "المرجع السابق"، ص223.

الزبير وكثر أصحابه وأشياعه، وجعل يزيد يجد في أن يفرغ منه كما فرغ من أمر الحسين وانتهى الخبر إلى يزيد بأن أمر المدينة قد اضطرب، وقد وصلت الأحاديث إلى عبدالله بن الزبير بمكة بثورة أهل المدينة وخروجهم عن عامل يزيد، فأرسل يزيد إليهم جيشاً قوامه اثنا عشر ألف من أهل الشام يأمره مسلم بن عقبة المريّ، ورسم له خطه أولها حق وآخرها باطل، وهي أن يأتي المدينة فيدعو أهلها إلى الطاعة ويعذر إليهم وينتظر بهم ثلاثاً. ولم يكتفي بهذا الحد، وإنما مضى إلى الباطل من خطتة، فأمر مسلماً إذا انتصر على خصمه من أهل المدينة، أن يبيحها ثلاثاً لأهل الشام يصنعون بها ما يشاؤون وينهبون أهلها من أموالهم ومتاعهم ما يحبون، وقد جاء مسلم إلى المدينة فقاتل أهلها وقتل منهم خلق كثير، ثم أباح المدينة ثلاثاً لجنده فقتلوا ونهبوا واستباحوا من محارم الناس ما عصم الله. ثم أخذ من بقي من أهل المدينة بالبيعة ومن أبى منهم هذه البيعة ليزيد أمر به فضربت عنقه، ثم تحول الجيش إلى مكة فحاصروا فيها ابن الزبير ومات مسلم في الطريق، فقام بأمر الجيش بعده الحصين بن نمير السكوني[1]، وقد شدد أهل الشام الحصار على مكة، ثم لم يقفوا عند ذلك، وإنما رموها بالمجانيق، وحرقت الكعبة واتصل الحصار حتى جاءهم موت يزيد، فقفلوا راجعين إلى الشام دون أن يلقي أبن الزبير منهم كيداً. والغريب المنكر من هذا كله، هو تجاوز الحد والغلو في الإثم، فقد كانت السياسة تقتضي أن يقاتل الخارجون على يزيد حتى يقتلوا أو يفيئوا إلى الطاعة. فأما المثلة وانتهاك الحرمات ففظائع لا ينكرها الدين لوحده، وإنما السياسة والتقاليد العربية الأصيلة، وهي بعد ذلك تملي القلوب ضغينة وحقداً. وهكذا مات يزيد ولما يملك إلا ثلاث سنوات ونصف من تسلمه السلطة بعد وفاة أبيه معاوية، وذلك من خلال مسابقة مع قرد أسقطته عن فرسه سقطه كانت نتيجتها الموت".

(1) طه حسين، "الفتنة الكبرى"، ج2، ص246.

لقد أصبح للمسلمين بعد موت يزيد مثل من هذه الأمثال العليا الكثيرة التي دعا إليها الإسلام، وجعلت الفتنة تدور حول هذا المثل الأعلى لتبلغه فلا تظفر بشيء مما نريد، وإنما تسفك الدماء، وتزهق النفوس وتنتهك المحارم وتفسد على الناس أمور دينهم ودنياهم. وهذا المثل الأعلى هو العدل الذي سيملأ الأرض وينتشر فيها الإسلام والعافية والذي تقطعت دونه أعناق المسلمين قروناً متصلة دون أن يبلغوا منه شيئاً حتى استيأس من قربه الشيعة ولم يستيئسوا من وقعه، فاعتقدوا بأن إماماً من أئمتهم سيأتي في يوم من الأيام فيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. لقد حصل هذا الاعتقاد وزاد ترسخاً بعد العديد من الثورات الأخرى التي قام بها زيد بن علي بن الحسين وغيره من الثائرين، والتي لم توصل جميعها إلى النجاح في التخلص من حكم الظلم والجور في العصر الأموي أو العباسي أو غيره".

إن الانتصارات التي أحرزها عبدالله بن الزبير، والتي أدت إلى أن أغار جند يزيد على المدينة (682م) فقتلوا ثمانية عشر رجلاً من أصحاب الرسول وأكثر من سبعمائة من حفظة القرآن الكريم، فزاد قتلهم وعدم احترام مكة نار الغضب، والحقد إشعالاً، وتصاعدت فكرة الانتقام، فانتقم المختار انتقاماً هائلاً من أجل كربلاء (686م)، وعذب وقتل ابن زياد وشمر وعمرو بن سعد والمئات ممن يقلون عنهم شأناً.. لأنهم شاركوا في هذا الأمر، ثم قتل مع سبعة آلاف من مرافقيه – خلال أقل من عام على يد مصعب بن زبير (أخ عبدالله بن الزبير)، وفي شهر يونيو 688، تصاعدت خلافات العالم الإسلامي بصورة ملحوظة.. حيث شارك أربعة من الرؤساء المتناحرين في أداء شعائر الحج كل على رأس طائفته ، وهم عبد الملك الخليفة الأموي، ومحمد أبن الحنفية (بن علي)، وابن الزبير، ونجده من الخوارج.

وحركة المختار هذه هي حركة شيعية، تصاعدت فيها صرخات المطالبة بالانتقام للحسين وأصحابه، واستهدف المنادون بها الحصول على حق ابن

الحنفية[1]. وكان بين أتباع المختار عدد كبير من أصل غير عربي يطلق عليهم الموالي.. ومعظمهم من الإيرانيين.. وكان بين جنوده البالغ عددهم ثمانية آلاف- وهم الذين سلموا لمصعب بن الزبير- أقل من العشر (حوالي 700 جندي) من أصل عربي[2]. وفي دراسات ممتازة قام بها فن فولتن حول أسباب اشتراك المسلمين من غير العرب في جيش المختار[3]، نجد تفاصيل أكثر عن حركة المختار هذه.

(2- 4) ثورة زيد بن علي أبن الحسين:

في عهد الخليفة هشام أبن عبد الملك، كان خالد بن عبد الله القسري والياً على العراق، الذي جاء بعد الحجاج، وما كان العراق أن ينجو من قبضته الحديدية حتى زايله الاستقرار والأمن، فخرج في الكوفة زيد أبن علي أبن الحسين بن علي مطالباً بحق بيته في الخلافة، فبايعه الناس وعلى الرغم من أن أمير العراق يوسف بن عمر الثقفي، استطاع أن يخمد الثورة في غير صعوبة بعد أن قتل زيداً في معركة دارت في الشوارع، فالحق أن ثورة زيد هذه كانت فاتحة سلسلة طويلة من الحركات الشيعية التي أدت آخر الأمر إلى سقوط الأمويين، وفي القرن التاسع، أسس اتباع زيد بن علي بن الحسين هذا دولة في اليمن ثبتت على زعازع القرون المتطاولة، فكانت الدولة العلوية الوحيدة التي لا تزال آثارها ومريديها متواجدون الى اليوم. وتذهب الزيدية إلى أن للقيادة الروحية "الإمامة"، دون غيرها يجب أن تكون في آل علي، وتتنكر المتطرف في العقائد الشيعية، ومن هنا لم يكن الخلاف بينهما وبين الأكثرية السنية حاداً جداً، ولا تعتبر الزيدية من الشيعة الاثني عشرية[4].

(1) تاريخ اليعقوبي، طبع هو تسما، ج2، ص308.

(2) موير، ص336، "تاريخ الخلافة"، المصدر السابق نفسه.

(3) Van voltan,Recherches surla Domination Arabe, etc:

(4) كارل بروكلمان، "تاريخ الشعوب الإسلامية"، ترجمة منير بعلبكي، (1977)، ص157.

(2- 5) ثورة البربر:

كان أهل أفريقيا الشمالية من البربر يظهرون الاستياء وعدم الرضا، وذلك لأنهم كانوا يعاملون معاملة الرعايا الملزمين بأداء الجزية، على الرغم من كونهم مسلمين ومقاتلين متحمسين في الحرب المقدسة (الجهاد)، واندلعت في أفريقيا نيران ثورة هائلة، امتدت من مراكش إلى القيروان، وكان الولاة الأفريقيون أعجز من أن يخمدوا هذه الثورة العارمة، بالرغم من أن عقبة أمير الأندلس قد هرع لنجدتهم من اسبانيا، ومن هنا تعين على هشام عام 741م أن يوجه لقتال البربر جيشاً سورياً يقوده كلثوم بن عياض، ولكن هذا الجيش نفسه سقط دون الغاية في وجه شجاعتهم الفائقة، والواقع أن معركة كبرى نشبت بين الفريقين على ضفاف نهر "نوام" سنة 741م دارت الدائرة فيها على العرب فقتل قائدهم كلثوم، واضطر نسيبه بلج بن بشر إلى أن يقاتل أشرس قتال ليشق طريقه إلى الأندلس بثلث جيشه الباقي، فلم يوفق إلى ذلك إلا في عسر كثير. ولقد كان على العرب أن ينتظروا عاماً واحداً حتى يحرزوا نصراً يضمن لهم على الأقل الاستيلاء على القيروان لكن هذا لم يحصل.

(3) الاغتيال السياسي في العصر الأموي:

في إطار البحث في "العنف السياسي وجذوره التاريخية" لابد لنا أن نعرض بعض النماذج عن الاغتيال السياسي الذي حصل في العصر الأموي، وكما جاء في كتاب هادي العلوي عن "الاغتيال السياسي في الاسلام" نورد ما يلي:

"لقد مورست ظاهرة الاغتيال السياسي في العصر الأموي بشكل واسع يمكن أن نستقصي أشهر الاغتيالات منها:

(3- 1) اغتيال الحسن ابن علي: ثمة ما يشبه الإجماع على أن الحسن مات مسموماً مع الميل إلى تحميل زوجته بنت الأشعث ابن قيس الكندي مسؤولية ذلك.

ومن بين الذين أكدوا تسميم الحسن "المدائني"[(1)] وهو من أقدم كتب السير. وتفيد بأن الحسن توفي بعد مرض دام أربعين يوماً وأن معاوية دس له سماً على يد جعده بنت الأشعث زوجته وقال لها إن قتلتيه بالسم فلك مئة ألف درهم، وأزوجك من يزيد ابني، فلما مات الحسن وفي لها بالمال ولم يزوجها من يزيد لعدم اطمئنانه إليها. وقد ورد في رواية ابن عساكر[(2)] ان الحسن بعد السم كان يوضع تحته طست ويرفع نحو من أربعين مرة إشارة على ما أحدثه السم في بطنه من تأثير قوي، وكذلك ذكر ابن عبد البر في كتابه"الاستيعاب"[(3)] وأورد آخرين ان جعده سمته بتدسيس من معاوية. وأشار إلى موته مسموماً كلاً من ابن حجر في "الإصابة" في تهذيب وابن الأثير في "أسد الغابة". كما رؤى أبن كثير في "البداية والنهاية" (حوادث 49) ان الحسن مات مسموماً بتدبير من معاوية وأن دس السم كان من قبل خادم له، وفي روايات أخرى زوجته جعده، وربط ابو الفرج مشروع البيعة ليزيد بن معاوية بالتخليص من شخصيتين مهمتين هما الحسن بن علي وسعد بن ابي وقاص، وكان سعد من بين القلائل الذين تبقوا من قادة الاسلام الكبار عاصروا خلافة معاوية.

إن لجوء معاوية إلى السم للتخلص من المناوئين قد أشار إليه أبن أبي أصيبعة لدى ترجمته للطبيب السرياني ابن أثال، فقد جاء في "عيون الأنباء"[(4)] أن ابن أثال كان متخصصاً بالسموم وأن معاوية كان يقربه لذلك كثيراً. وقد مات في أيام معاوية جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء من المسلمين بالسم. وكان من بين تلك الشخصيات سعد بن ابي وقاص، ولكن لم يهتم المؤرخين في تفصيل

---

(1) المدائني، المجلد4، ص5.
(2) ابن عساكر. "تهذيب تاريخ ابن عساكر"، دمشق، ج4، ص229.
(3) ابن عبد البر، "الاستيعاب"، الترجمة 555، الحسن بن علي، ص389.
(4) ابن أبي أصيبعة، "عيون الأنباء، في طبقات الأطباء"، ط بيروت (1965)، ص11.

حادثة تسمم سعد مثل اهتمامهم في حالة الحسن، ويمكن أن نستنتج أن من أسباب اهتمام معاوية بمسألة التخصص في تحضير السموم هو إنتاج سموم لطيفة لا يظهر لها أثر ولا يمكن متابعة الفاعل. ويذكر أن موت الحسن قد جاء بعد سقية السم لمرات عديدة، ولم يظهر لها مفعول إلا بعد استعمال وصفه أشد مفعولاً هي التي قتلته، وكانت الأولى مبالغ في لطافتها. وكان الهدف واضحاً في موت الحسن فقد بدأ معاوية بعدها بمساعيه العلنية لمبايعة ابنه يزيد ولياً لعهده، وكان هذا حدثاً فاصلاً في التاريخ الإسلامي من خلال تحول الخلافة إلى ملكية وراثية بدلاً من الاختيار بالشورى، كما كان معمولاً بها أيام الخلافة الراشدة، فإن موت الحسن أفسح المجال لمبايعة يزيد حيث اتخذ تحول الخلافة إلى ملكية شكله الرسمي كما ذكرنا سابقاً.

(3- 2) اغتيال عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد:

بعد أن أحرز عبد الرحمن نجاحات كبيرة في حروبه لإخراج البيزنطيين من الشام والتي جلبت له شهرة واسعة أضيفت إلى رصيده الموروث من والدة، حتى أخاف معاوية من تأثيره عندما قدم من بلاد بيزنطيا إلى حمص، فأمر ابن أثال المتخصص في صناعة السموم ان يحتال في قتله، وقد دس إليه ابن اثال شربه مسمومة وفيها عسل فمات منها.

وكافأ معاوية ابن أثال بإعفائه من الضرائب طيلة حياته، وتعيينه والياً على خراج حمص[1]. [2]وقد كانت هذه شخصية أخرى قد تكون منافسة لمبايعة يزيد بالخلافة من بعد معاوية[3]. وقد تمت عملية اغتيال عبد الرحمن بن خالد بسهولة

---

(1) الطبري، "تاريخ الأمم والملوك"، حوادث سنه 46، ط الاستقامة، القاهرة (1939)، ج5، ص227.
(2) ابن أبي اصيبعة، "عيون الأنبياء"، ص174.
(3) أبي الفرج، "الأصفهاني" ج16، ص140، ط بيروت، بلا تاريخ.

أكبر بالقياس إلى اغتيال الحسن، ذلك لأن عبد الرحمن لم يكن بحاجة إلى التحفظ من خطر كهذا، نظراً لعلاقاته الطبيعية مع معاوية، وقد حدثت قبل اغتيال الحسن، وقبل شيوع الحديث عن بيعة يزيد، لكن العملية انكشفت بعد وقوعها وأدت إلى ردود فعل مباشر انتهت باغتيال الطبيب ابن أثال، وقد قام بذلك ابن المقدور ابن أخيه، وتفيد الرواية التي أوردها أبو الفرج الأصفهاني أن هذا الشخص (ابن أخ عبد الرحمن) كمن لإبن أثال في مسجد دمشق، وكان يمشي مع معاوية فلما خرج من القصر حاذاه ووثب عليه فقتله، وقد اعتقله معاوية وأمر بجلده مئتي سوط وأغرمه الديه ألفي دينار، وبقي في السجن حتى وفاة معاوية، وكانت تلك العقوبة خفيفة بسبب كون القتيل طبيباً غير مسلم وأن مكانه القاتل بوصفه حفيد خالد بن الوليد ذات شأن كبير في الشام[1].

(3- 3) اغتيال عمر بن عبد العزيز:

تتجه معظم الروايات الى القول بأن عمر بن عبد العزيز مات مسموماً في عُمرٍ لم يكمل الأربعين. وقد أورد الطبري في "حوادث 99 "التي أعقبت استخلاف عمر بن عبد العزيز" وذلك بعد أن استعرض مفاوضاته مع وفد من الخوارج. أن بني مروان بن الحكم "خافوا أن يخرج ما عندهم من أموال فدسوا إليه من سقاة سماً"، وذلك بعد أن توصل الوفد إلى اتفاق وشيك بين الخليفة والخوارج يعلن فيه الخوارج تأييدهم له مقابل خلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد، وكان يزيد ولياً لعهد عمر بموجب وصية سليمان بن عبد الملك. وقال الكتبي في "الوفيات"[2]: سقاة بنو أبيه السم لما شدد عليهم وانتزع كثيراً مما بأيديهم من أموال". وقد أورد الغزالي في إحياء علوم الدين "إن أعراض تسمم ظهرت في مرض عمر الذي توفي

(1) ابن عساكر "المصدر السابق" ، ص95.

(2) الكتبي "الوفيات"، ط بولاق، 1282هـ، ج20، ص105.

فيه، وقد اكتشف ذلك طبيب وأخبره بها فقال عمر أنه قد أحس بالسم حين وقع في بطنه[1]. وقد وردت وفيات مشبوهة أخرى في العصر الأموي وجاءت فيها روايات اغتيال غير مقطوعة يمكن وضعها في نفس العداء ومنها:

(3- 4) وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية:

شاب تولى الخلافة بعد والدة، ويتردد المؤرخون بين وصفه بالضعف ووصفه بالورع وعدم الرضا عن سياسة أبيه وجده، وقد تنازل عن الخلافة بعد أربعين يوماً أو ثلاثة أشهر واعتكف في منزله، ومات وهو في الثالثة والعشرين من عمره، وتقول رواية أنه مات مسموماً وذلك بعد تنازله واعتزاله السياسة، وهناك مصادر تشير إلى أنه مات في الطاعون.

(3- 5) وفاة مروان أبن الحكم:

يقال أن مروان قد تزوج أرملة يزيد بن معاوية بقصد إذلال وشتم الإبن الثاني ليزيد بن معاوية واسمه خالد، فقد انتقلت الخلافة بتولى مروان بعد معاوية بن يزيد من آل بني سفيان إلى آل الحَكَم. ويقال أنه شتمه مرة فقال له "يا ابن الرطبة!" فأبلغ خالد أمه ولامها على الزواج من مروان، فحميت ووعدته بالانتقام منه. وفي الليل انتهزت فرصة نوم مروان وتواطأت مع جواريها، فألقت مخدة على عنقه وقعدت عليها حتى اختنق. بينما أورد اليعقوبي رواية تفيد أن أم خالد سقته سم في اللبن[2]، بينما ذكرت بعد المصادر أنه مات بالطاعون وهو بالسبعين من عمره.

---

(1) "الحلبي" كتاب "الموت"، ج4، ص465 (1296هـ) أيضاً ابن الجوزي "سيرة عمر بن عبد العزيز"، القاهرة (1331هـ) ص277.

(2) اليعقوبي "التاريخ الإسلامي"، ط النجف (1358هـ)، ج3، ص4، المصدر السابق.

ومن القصص والروايات المشكوك في أمرها، هي وفاة علي بن الحسين وابنه محمد الباقر، وكذلك وفاة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك، وغيرهم مسمومين، وهم جميعاً (عدا الإمام زين العابد ين علي بن الحسين)، قد توفوا وهم في أعمار الشباب، ولم يتجاوزوا الخامسة والعشرين من العمر. أما الاغتيالات التي تمت من جانب المعارضة للأمويين، والتي تتألف من الشيعة والخوارج والقدرية وجمهور الفقهاء والمتكلمين، فقد شملت المختار بن يوسف الثقفي في الكوفة، وابن الأشعث في العراق، والحارث بن سريج في خراسان، وقد تخصص الخوارج دون غيرهم بأسلوب قريب من حرب العصابات، يعتمد على القواعد المتحركة والهجمات الخاطفة التي تقوم بها مجموعات صغيره، وكان من المتوقع للخوارج أن يتبعوا تكتيك الاغتيال الذي يعتمد في المعتاد على الضربات المباغتة والانسحاب السريع، وقد انفرد الخوارج بهذا الأسلوب إذ لم تحدث أية عملية مماثلة في هذه الحقبة على يد الشيعة أو القدرية أو المثقفين الذين أيدوا العمل المسلح وشاركوا فيه[1]، لأن هذه الأطراف اتبعت نهج الانتفاضات في محاولاتها لاستعادة السلطة من أيدي الأمويين ولم يكن الخوارج أقل تمسكاً بقواعد الأخلاق المرعية في المجتمع العربي / الاسلامي لذلك الوقت من أقرانهم في جبهة المعارضة، مما يدل على ذلك تجنبهم استعمال السم في الاغتيالات واقتصروا على الاغتيال بالسلاح، مكرسين بذلك نهج القوى المعارضة التي تقاتل من أجل قضية تراها عادلة من وجهة نظرها، ضد سلطة ظالمة، حيث تغلب سيكولوجيا الشجاعة المقترنة بأخلاقيات العنف الثوري على سيكولوجيا الغدر المقترنة بأخلاقيات العنف القمعي، مما يرسم خطاً فارقاً بين اغتيالات الأمويين، واغتيالات المعارضة.

(1) هادي العلوي "الاغتيال السياسي في الإسلام"، (ص2004)، دار المدى، ص79.

ولم تستعمل الاغتيالات لتحقيق الوصول إلى السلطة لأنها لم تطل الخلفاء، بل طالت أعوان السلطة ممن قام منهم بأعمال قمع ضد الفرقة، فاتخذت الاغتيالات لذلك شكل الرد الفوري غالباً، بقصد الانتقام والتأديب وقد أعطت بعض المفعول حين جعلت هؤلاء يحجمون أحياناً عن تنفيذ المهام الموكلة إليهم ضد الخوارج، تحسباً من الرد.

وفي كتاب "أنساب الأشراف" للبلاذري (أن عبيد الله بن زياد حاكم الكوفة أعرب عن حيرته أمام الخوارج لأنه كلما أمر بقتل رجل منهم اغتالوا قاتله)، كما حصلت عمليات اغتيال أخرى خارجية (أي من أشخاص خارج الدولة والمعارضة) فمثلاً: أسر عبيد الله بن زياد خارجياً وأمر بإعدامه علناً في أحد ميادين المدينة، وقد أوكل لهذه المهمة رجل يدعى المثلم بن مشرح البابلي، وكان جلاداً محترفاً شديد السطوة.. ووضع الخوارج خطة لقتله مقابل صاحبه، وذلك باقتياده عن طريق إغرائه بشراء لقحة (النوق الغزيرة اللبن)، فلما دخل وتوغل في الدار أغلق الباب من ورائه وباغته رجلان من الخوارج فقتلاه. وبعد قتله شقوا بطنه، ووضعوا في داخلها دراهم كان يحملها معه ثم دفنوه في نفس الدار.

كما قُتل "أبو بلال مرداس بن عمرو" وهو من وجوه الخوارج في الكوفة، وذلك إثر خروجه مع جمع من الخوارج وإعلان العصيان على حاكمها آنذاك، وهو "عبيد الله بن زياد"، فأرسل إليه الأخير جيشاً بقيادة رجل يدعى "عباد بن أخضر" فاشتبكوا مع الجيش في معركة غير متكافئة انتهت بقتلهم جميعاً بما فيهم مرداس، وقد تم قتل "عباد ابن أخضر" هذا بخطة من الخوارج بعد فترة وجيزة انتقاماً لفعلته هذه، وقد قام الخوارج بآخر وأكبر تحرك لهم ضد الأمويين في خلافة مروان الحمار آخر خلفائهم، وقد أخذ هذا التحرك شكل انتفاضة واسعة شملت اليمن بما فيها حضر موت، وامتدت إلى الحجاز. وكانت بقيادة أبو حمزة، فعين مروان لإخماد الانتفاضة قائداً يدعى "أبو عطية" وأرسله مع جيش

كبير فاحتل مكة والمدينة، وقضى على الخوارج الذين كانوا فيها. وقد قتل "أبو حمزة" في المعارك التي خاضها ضد الجيش الأموي مع جميع أصحابه واستسلم من تبقى منهم وعددهم (400) مقاتل فأعدمهم "أبو عطية" جميعاً، ثم اتجه الى اليمن فهاجمها وسحق حركة "طالب الحق" وأباد من معه من الخوارج، وأقام بعد ذلك في حضر موت، ولكنه قُتِل في كمين نصبه الخوارج أثناء رحلته للحج إلى مكة، وعند اقترابه من الكمين خرجوا عليه وقتلوه مع حراسه التسعة عشر.

ويصف ابن أبي الحديد مقتله على الوجه التالي: "كان الكمين بقيادة أخوين من كندة، فبارز أحدهم فضربه بسيفه ضربه كادت أن تقضي عليه، لولا أن عاجله الآخر، فطعنه برمحه فصرعه.. ونزل إليه الأول وقعد على صدره. فقال له أبو عطية: هل لك في أن تكون أكرم العرب أسيراً؟ فرد عليه: يا عدو الله أتظن أن الله يهملك أو تطمع في الحياة وقد قتلت "طالب الحق وأبا حمزة"، ثم ذبحه ذبحاً[1]".

استمر الخوارج في استخدام أسلوبهم هذا حتى في الخلافة العباسية ولكن بوتيرة أقل، ومن أشهر ضرباتهم آنذاك، كانت اغتيالهم "معن بن زائدة"، أحد كبار القادة المخضرمين.

(3- 6) التعذيب السياسي في العصر الأموي:

لقد مورس التعذيب السياسي منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان، بقصد توفير الردع الذي يمنع المقت الشعبي دون أن يتحول إلى تحرك يهدد سلطة الحاكم، وكان معاوية يملك قاعدة شعبية متينة في الشام ساعدته على أن يشتهر بالحلم المأثور عنه، لكن استقلاله بالسلطة بعد تنازل الحسن بن علي أثار في وجهه عدة إشكاليات منها: أن موقف جمهور المسلمين الذين اعتادوا حكم الخلفاء المقيد

(1) ابن ابي الحديد، ج1/ ص463.

بالشرع الإسلامي قد تم تجاوزه من قبل معاوية من خلال إنفراده بالسلطة، وأن موقف العرب الذين لم يتعودوا أصلاً الخضوع لسلطة مركزية من خلال الموروث الجاهلي أيام كانت القبائل في صراع دائم فيما بينها، قبل أن تتوحد في عصر الفجر الأول للإسلام، بالاضافة إلى معارضة أهل العراق المتمسكين بالولاء لعلي بن أبي طالب وأولاده وظهور الخوارج الذين لا يؤمنون إلا بحكم الله وحده، والذي جعل من العراق مركزاً للنشاط المعارض للحكم الأموي الجديد، فلم يستطع معاوية من السيطرة على المعارضة، وقد لجأ أول الأمر إلى المُدارات، فولى المغيرة بن شعبة، أحد دهاة العرب لحكم العراق، ولكن دهاء المغيرة لم يكن كافياً في تخفيف حدة المعارضة، فعزل بوالي آخر هو زياد بن أبيه، وقد أظهر زياد مواهب إرهابية نادرة في ذلك الوقت، وصار قدوة لمن جاء بعده من الولاة والحكام المسلمين وكان مشرّع لعدة قوانين سارت عليها السلطة الإسلامية فيما بعد، فمثلاً منع التجول والقتل الكيفي والذي يعرف حالياً بالقتل على الهوية، وكان يعرف عندهم في ذلك الحين بالقتل على التهمة أو على الظن، وقتل البرئ لإخافة المذنب، فمثلاً قتل فلاح خرج ليلاً للبحث عن بقرته الضائعة خلافاً لقرار منع التجول في الليل من أجل إخافة الأقوياء في عدم مخالفتهم لأوامره[1]. كذلك قتل النساء وهو أمر غير مألوف عند العرب. ويذكر الطبري أن وكيل زياد على البصره وهو الصحابي "سمره بن جندب" أعدمَ ثمانية آلاف من أهلها تطبيقاً لمبدأ زياد في القتل على التهمة أو الظن[2].

ويروي السمعاني في "الأنساب" آن زياد أمر بقطع لسان رشيد الهجري[3] وصلبه لأنه تكلم بالرجعة[4].

---

(1) هادي العلوي "من تاريخ التعذيب في الإسلام"، دار المدين (2004)، سوريا، دمشق، ص9.

(2) الطبري "تاريخ الأمم والملوك"، طبعة القاهرة (1939)، ج4، ص176.

(3) رشيد الهجري: صحابي يوجد له مقام حالياً في الكوفة، بالقرب من مسجد الكوفة الكبير.

(4)" اللباب في تهذيب الأنساب "ابن الأثير السمعاني القاهرة (1357هـ)، ج2، ص85.

إن الحكم بقطع اللسان تطوير مبكر لفن التعذيب، يدل على السرعة التي تقدمت بها الدولة الإسلامية في طريق تكاملها كمؤسسة قمعية لا تراعي حقوق الإنسان واستمرت في نهجها هذا إلى عصرنا الحاضر، فقد مورست هذه العقوبة بكثرة لمن تكلم سوءاً بنظام الحكم السابق في العراق مثلاً، وقد كان الحجاج بن يوسف الثقفي نسخة متطرفة من زياد، فقد تمت على يده فرض حالة من الإرهاب شملت الناس على اختلاف فئاتهم ولأسباب مختلفة، منها سياسية، وأخرى عادية، وقد أنشأ سجن الدعاس المشهور، وكان بلا سقوف وقدر عدد من كان فيه عند وفاته بعشرة آلاف من الرجال والنساء. وكان التعذيب يطبق على الأسرى والمعتقلين تبعاً لحالاتهم، ولكن الشكل السائد لإرهاب الحجاج كان القتل الكيفي بوسيلته الشائعة، وهي قطع الرأس بالسيف، وأضاف الحجاج الصلب بعد القتل للأشخاص الذين لهم وزن خاص في حركة المعارضة أمثال ميثم التمار، صاحب الإمام علي بن أبي طالب ومن المقربين له، وكذلك فعل في الصحابي سعيد بن الجبير، وسنأتي لاحقا الى تفاصيل ذلك الفعل في فقرة الحجاج.

استمرت سياسة التعذيب لأجل الإرهاب طيلة فترة الحكم الأموي عدا استراحة قصيرة في عهد خلافة عمر بن عبد العزيز، فقد أخذت مدى جديد على يد هشام بن عبد الملك في الشام وولاته في الأقاليم، ومارس هشام بنفسه طريقة القتل بقطع الأيدي والأرجل أولاً، والقتل بالآخر، كما في بعض الحالات المشدده مثل إعدام غيلان بن مسلم الدمشقي بتهمة القول بالقدر، وبنفس التهمة أعدم خالد القسري الذي كان عامله في العراق "الجعد بن درهم"، وقد نفذ الإعدام ذبحاً، ولإعدام هذين الرجلين ملابسات سياسية معروفة في تاريخ القدرية (أو المعتزلة)[1] وكانت في بدايات نشأتها كما سنأتي لشرحها لاحقا.

---

(1) القدرية: فئة من الناس ظهرت في ذلك الزمان تقول بالقدر ضد إجبار بني أمية في حكم الناس، وكان لغيلان موقف سياسي ضمن المعارضة الإسلامية للحكم الأموي، وقد انضم الى عمر بن

أما خالد القسري فكان والياً على الحجاز قبل ذلك وأصدر حينذاك تحذيراً لمن يطعن في الخليفة أن يصلبه في الحرم، أي في داخل بيت الله الحرام في مكة، وكانت الشريعة قد حرمت قتل حتى الحيوان في هذا المسجد المقدس، واختلف الفقهاء في جواز قتل الأفاعي والعقارب فيه. ويروي الطبري أن الإحراق استخدم في خلافة هشام لإعدام داعية من غلاة الشيعة هو المغيرة بن سعد العجلي، وكان قد خرج على الدولة في ظاهر الكوفة أيام ولاية خالد القسري[1]، لقد كانت خلافة هشام صحوة الموت للأمويين خاصة بعد أن استنشق الناس بعض الإصلاحات الإنسانية التي أدخلها عمر بن عبد العزيز، وذاقوا طعم العدل والإنصاف في إسلوب الحكم، وقد ورثه خلفاء قصار العمر لم يستطيعوا من تثبيت أركان دولتهم وسط الاضطرابات المتلاحقة والتي انتهت بانتصار ثورة العباسيين التي قضت على مروان بن محمد (الملقب بالحمار)[2]، وبويع لأبي العباس السفاح كأول خليفة عباسي.

وظهر التعذيب أيضاً في معاقبة الهاربين من الجيش بشكل ملفت للنظر في ايام خلافة عبد الملك بن مروان، وتتم بإقامة الهارب حاسراً في مكان عام للتشهير به، وقد أضاف مصعب بن الزبير والي العراق إلى نزع العمامة وحلق الرأس واللحية، وكانت هذه العقوبة مهينة جداً في ذلك الحين، وفي ولاية" بشر بن مروان" –شقيق عبد الملك– للعراق فرض التعذيب الجسدي، فكان الهارب

عبد العزيز فعينه لبيع الأموال المصادرة من الأمويين وكان ينادي عليها في المزاد متشفياً، واختفى بعد وفاة عمر إلى أن قبض عليه هشام وأعدمه سيأتي تفصيل أكثر في هذة الفئة في الفصل الثاني.

(1) الطبري "تاريخ الامم والملوك"، المصدر السابق نفسه القاهرة (1357هـ)، ج4، ص442.

(2) يقال أن لقب "الحمار" الذي أطلق على الخليفة مروان كان بسبب مجيئة في السنة التي دارت على الحمار حسب التقويم الصيني. ولذلك لقب بالحمار ولا علاقة لها بصفات الخليفة كما تشير أغلب المصادر المعتمدة بهذا الخصوص. بينما تشير مصادر أخرى أن قوة صبرة ودماثتة و لا يوجد رأي قاطع بهذا الخصوص.

يرفع عن القاع ويسمر في يديه مسماران في حائط –على طريقة صلب المسيح- ويترك لشأنه ربما يبقى معلقاً حتى الموت أو يخرق المسمار كفه ويسلم[1].

أما حمل الرؤوس المقطوعة على الرماح والتي تدخل في باب المثلة بالميت، فقد بدأها الأمويين في زمن معاوية، ويقال أن أول رأس حمل في الإسلام هو رأس "عمرو بن الحمق" أحد أتباع علي بن أبي طالب وقد قتله زياد بن أبيه، وكان ذلك قبل حمل رؤوس الحسين وأصحابه بعد معركة كربلاء[2].

ومن أساليب التعذيب التي تستحق الذكر هنا، هي التبريد بعد الجَلد، فإن عبد الملك بن مروان عندما خطب ابنة التابعي "سعيد بن المسيب"، وكانت مشهورة بجمالها لإبنه الوليد، رفض سعيد تلك الخطبة لورعه ومعارضته لسياسة الأمويين، فأمر عبد الملك بتأديبه فضرب مئة سوط في يوم بارد وألبسه جبة صوف ثم صب عليه جرة ماء بارد[3].

ويُذكر أن "خالد القسري" الذي كان والياً على الحجاز ثم على العراق أيام هشام بن عبد الملك، وقد عزل خالد وأبدله بيوسف بن عمر الثقفي، ثم قتل بسبب مخالفات صدرت منه ضد الخليفة وكانت طريقة قتله كما يلي:

وضع عمود غليظ على قدميه وقام عليها عدد من الجلادين فكسرت قدماه، ثم وضع العمود على ساقيه فكسرت بنفس الطريقة، ثم نقل إلى فخذيه ومنهما إلى حقوية وانتهى العمود إلى صدره وعندها مات، وكان خلال ذلك ساكتاً لا يتأوه[4]. أما طريقة التعذيب بقلع الأظافر، فيذكر أن وليمة قريشية

---

(1) ابن الأثير "الكامل في التاريخ في أخبار الحجاج".

(2) هادي العلوي "تاريخ التعذيب في الإسلام"، المصدر السابق، ص21.

(3) مصعب الزبيري "نسب قريش"، ج2، ص240، كذلك الزبيري بكار "نسب قريش"، ج1، ص380.

(4) الطبري، المصدر السابق، ج5، ص536.

قد أقيمت وحضرها هشام بن عبد الملك حين كان أميراً مع أحد الوجهاء ويدعى "عماره الكلبي"، واقتضى ترتيب الوليمة أن يجلس عمارة فوق هشام، فاستكثرها منه وآلى على نفسه أن يعاقبه متى أفضت إليه الخلافة، فلما استخلف (أي صار خليفة على المسلمين كافة) أمر أن يؤتى به وتقلع أضراسه وأظافر يديه ففعلوا به ذلك[1].

أما التعذيب بالقصب فيذكر أن "فيروز بن حصين" الذي كان قائداً في انتفاضة ابن الأشعث ضد الحجاج في العراق قد أسر بعد فشل انتفاضة وأمر الحجاج بتعذيبه فعري جسده ولفه في قصب مشقوق ثم أخذوا يجرون القصب فوق جسده، ولزيادة إيلامه كانوا يذرون الملح ويصبون الخل على الجروح التي يسببها القصب، وبعد أن يئس الحجاج من انتزاع اعترافاته قطع رأسه.

يتضح مما تقدم أن التعذيب قد تفاقم في أيام الأمويين وكان ذلك متلازماً مع تحول دولة المدينة البسيطة إلى امبراطورية تعد من أكبر الامبراطوريات في العالم آنذاك، وكل تلك الامبراطورية يحكمها شخص واحد هو الخليفة حكماً مطلقاً لا يخالفه الرأي أحد، بالإضافة لذلك فإن التعذيب لم يكن من صنع الأمويين أولاً بل سبقوهم في ذلك آخرين أيام الخلافة الراشدة، ولكن بدرجة أدنى وباستثناء عمر بن عبد العزيز الذي حكم فترة تقل عن ثلاثة سنوات ويزيد الناقص الذي حكم حوالي ستة أشهر، فإن الباقون كانوا قمعيين بدرجات متفاوتة، وظهرت ملامح نزعة سادية لدى بعض الولاة والقواد مثل زياد بن أبيه وابنه عبيد الله ومسلم بن عقبة المري والحجاج وقرة بن شريك، وبشر بن مروان ويزيد بن المهلب وخالد القسري وأخوه أسد، واشتهر الحجاج من بين هؤلاء رغم أن فيهم من لا يقصر عن شأوه وتقول رواية شعبية أنه كان إذا أعدم أحداً

(1) أمالي القالي، بيروت، ص57.

يستمني على نفسه، وهذا دليل على اقتران الحالة السيكولوجية بين الجنس والعنف والتي تعرف في عصرنا بالسادية[1].

لقد خلفت لنا تلك الأحداث آثاراً لا يستهان بها من التطبيع على أساليب فرض السلطة بالبطش بالناس، دون الاكتراث في الاعتبارات الإنسانية الأخرى، ومن الجدير بالذكر هنا، أن فقهاء المسلمون لم يتطلعوا يوماً لإلغاء عقوبة الإعدام في عصرنا هذا لأن ذلك يعتبر من العقوبات الأبدية المفروضة على الإنسان كما جاءت في القرآن الكريم وهو كتاب الله لا يستطيع أحد أن يجتهد فيه أو يحوّره أو يبدله، وإنما يمكن الاستدلال على تخفيف العقوبة من خلال الحديث النبوي "اعف الناس قتله أهل الإيمان" أي أن المؤمن إذا اضطر إلى القتل نفذه بأقل الوسائل إيلاماً، وقد استنتج "ابن تيميه" من هذا الحديث "أن القتل يقصد أسرع بحيث لا يتعذب المحكوم به"[2]، ويبني على ذلك أن الإعدام يجب أن ينفذ بالسيف ونحوه لأن ذلك أرحم أنواع القتل ويقصد هنا أن المحكوم به لا يتعذب ما دامت الوسيلة الأقل إيلاماً، فإذا وجدت وسيلة أخرى حلت محله، ولكن ذلك لا ينطبق على وجود نصوص أخرى في القرآن الكريم تقترن بالتعذيب مثل قطع اليدين والرجلين والصلب والرجم بالحجارة للزاني والزانية المحصنين (أي المتزوجين وهي وسيلة كانت مطبقة لدى السومريين والبابليين كما ذكرنا في الجزء الأول من الكتاب، وقد انتقلت إلى الإسلام).

لقد كانت عقوبة الزانية المحصنة هي الحبس في منزلها حتى الموت حسب الآية (15) من سورة النساء، ثم نسخت بالرجم، وقد أثار حكم الرجم التباسات ناشئة عن شناعته من جهة وعدم النص عليه في القرآن من جهة أخرى فأنكره

---

(1) هادي العلوي، المصدر السابق، ص11.

(2)ابن تيمية "السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية"،ص77- 78.

فريق من المسلمين بينهم الخوارج وتساهل آخرين في تنفيذة، ولكن هذا الأمر لا يزال معمولاً به في بعض الدول الإسلامية إلى يومنا هذا.

والأمر الآخر هو أن في معارك المسلمين أيام الفتوحات: كان يتحارب الجيشان المتخاصمان وعند حلول الانتصار تبدأ عملية السلب والنهب واغتصاب النساء وهذا أمر محلل اعتادوا عليه مذ عصر الجاهليه، وتحدثت المصادر الإسلامية عن شخصية نموذجية من هذا النمط هو "مسلم بن عقبة المري"، وكان من قواد يزيد بن معاوية، وقد أرسله يزيد على راس جيش لتأديب أهل المدينة الذين أعلنوا عليه العصيان، وبعد أن اقتحمها مسلم أباحها لجنوده ثلاثة أيام، قتلاً ونهباً واغتصاباً للنساء، ويروي أن المغتصبات ناهزن السبعة آلاف تم إحصاؤهن على أساس الولادات الغير شرعية التي حصلت في المدينة بعد تلك الحادثة، ويستدل من هذا الرقم على فظاعة ما جرى حينذاك، ولو أننا لا نستطيع أخذه على علاقة مع احتساب العدد الكلي لسكان المدينة آنذاك، ومهما يكن من مبالغة في الأرقام، فلا بد أن يكون هناك عملاً بشعاً قد حصل بأقل تقدير، والغريب أن القائد مسلم بن عقبة المري هذا قد قام بهذا الفعل من منطلق تدين بحيث أنه مات مقتنعاً بنوال رضا الله وغفرانه[1]، لأن خروج أهل المدينة على الخليفة هو عمل سياسي أي دنيوي، والتعاليم الإسلامية التي نصت عليه هي تعاليم سياسية تتحدد خارج العلاقة الدينية التي تجمع بين المسلم وربه.

والإسلام كما نعلم هو حركة دينية سياسية، إن هذا الشكل من الاتهامات يقترن دائماً بالخلافات بين أبناء الملة الواحدة، وهو جزء من العقلية الدينية التي تحدد التدين في إطار مذهبيتها الخاصة بها وتنفيه عن كل ما عداها، لقد حكم الحجاج وفقاً للشريعة وهو نفسه الذي كان يعتبر بطل

(1) البلاذري "انساب الأشراف"، ج2، ق2، ص46، الجامعة العربية، القاهرة، 1959 (احمد بن يحيي بن جابر).

الإرهاب في عصر فجر الإسلام، وكان دائماً مضطراً إلى الرجوع للشريعة ويستفسر من أنس بن مالك، وفي أخبار الحجاج في "مروج الذهب" للمسعودي يلقي الضوء على هذه الحالة فيقول : "جئ برجل من بني عامر من أسرى الجماجم، فقال له الحجاج والله لأقتلنك شر قتلة، فقال الأسير "والله ما ذلك لك" قال ولِمَ؟ قال: لأن الله يقول في كتابه"إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها"، وأنت قد قتلت فأثخنت وأسرت فأثخنت، فأما إن تمن علينا أو تفدينا عشائرنا، فتراجع الحجاج أمام النص وأطلق الأسير. ووفرت الثقافة الأدبية للحجاج رادع آخر عدا الرادع الديني، فكان البعض يتخلصون من القتل بعبارة يطرب لها فيعفوا عنهم، وتدخل في باب البلاغة مواقف مصارحة تعجبه فيفرج عن أصحابها، ويمكن القول: أنه لم يكن للحجاج فلسفة تنظر للعنف الدموي الذي مارسه طيلة حياته، فيما عدا الخلفية الدينية التي استمد منها إسوة بغيرة من المتدينين حتى يكون في السلطة مقومات وجدانه القمعي، والحجاج كان من المتدينين كما تشير إلى ذلك كل سيرته الشخصية، سوى أنه كان يؤمن فوق ذلك ويبالغ في إيمانه بالحق الأموي للخلافة، وكانت أديولوجيته تتكرس في الحق الأموي المُصعّد إلى مرتبة الحق الإلهي، وكان يؤمن بالخليفة الأموي إيماناً دينياً هو الذي جعله يتوغل في العنف والإرهاب[1]

لقد ظهرت العديد من الدراسات والأطروحات التاريخية تشير إلى قدرة الحجاج على الخطابة والبلاغة وتمجد من إنجازاته العمرانية والاصلاحات الإدارية وفي إدارة الجانب الشرقي برمته للامبراطورية الإسلامية، لفترة ليست بالقصيرة وتشير أيضاً أنه مؤمن بدين الإسلام من الطراز الأول ولا يهمهم كل

(1) هادي العلوي "تاريخ التعذيب في الإسلام"، ص93.

أعمال القمع والتعسف والقتل التي قام بها، لأن الإيمان يسبق الأفعال ولا علاقة بكل أفعاله بإيمانه، وهكذا يتم عندهم تقييم كل الطغاة والمستبدين عبر التاريخ من هذه النظرية، إن ظاهرة الحجاج تحتاج لفقرة مستقلة قادمة سنتناولها على انفراد لما لها من أهمية في تاريخ العنف السياسي في العراق.

(4) الحجاج بن يوسف الثقفي:

لعل واحداً من أبرز الشخصيات التي اشتهرت في القمع والاستبداد في العصر الأموي، وربما في تاريخ العراق عموماً هو الحجاج، وأصبح رمزاً ومضرباً للأمثال لا يمكن أن يغيب عن البال[1]، ومن هذا المنطق ونحن نبحث في الجذور التاريخية للعنف السياسي في العراق، لابد لنا من زيادة المعرفة عن هذه الشخصية التي طبعت بصماتها في تاريخ العراق عبر القرون، ولا يزال الناس يتذكرونه ويتذكرون أفعاله كلما مرت بهم مصيبة من حاكم مستبد.

الحجاج بن يوسف بن الحكم، ولد في الطائف عام 40هـ، ونشأ فيها وهو من قبيلة ثقيف الحجازية، التي استوطنت الطائف في العصر الأموي، ويرجع تسمية ثقيف لهذه القبيلة لكثرة اهتمامها بالمعرفة واقترن اسم الثقافة باللغة العربية من خلالها، وكانت هذه القبيلة قد هجرت البداوة واشتغلت في الزراعة باستقرارها في الطائف، وهي بلدة تمتعت بوفرة المياة فكانت من الأرياف العربية المتميزة في الجاهلية، وقد استزرعوها بني ثقيف وقريش، التي اعتمدت في معيشتها على البلدة، فاتخذت فيها البساتين والمزارع وصا[illegible]ج ومصيف، واشتهرت بالكروم وحدائق الزهر، وكان استقرار ثقيف [illegible]عية سبباً في التحول في تكوينها الاجتماعي والذهني بالمقارنة مع قبائل عربية أخرى في الحجاز، والتي كانت موغلة في البداوة، وقد ولد الاستقرار الزراعي هذا إلى

(1) هادي العلوي "تاريخ التعذيب في الإسلام"، ص93.

توجه أفراد من بني ثقيف إلى تحصيل المعرفة، فعلى سبيل المثال سافر "الحارث بن كَلَده" إلى إيران في مدرسة جُنديسابور الطبية التي كان يديرها السريان. وهو مصدر مهم من مصادر تاريخ العلوم العربية وطبيب العرب الأول، وقد عاصر النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعارضه ولم يؤيده، وبقي على حالة هذه بعد استكمال أسلمه الجزيرة العربية وعاش إلى عهد خلافة معاوية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوجه المرضى للاستطباب عند الحارث، ولابد من ذكر شخصيات أخرى من ثقيف ساهمت مع النبي صلى الله عليه وسلم في التأسيس من جوانب الدولة الإسلامية العسكرية والسياسية مثل المغيرة بن شعبة الثقفي، كأحد دهاة العرب، وقد استعان به النبي صلى الله عليه وسلم في المهام الجليلة والمواقف الصعبة، وكذلك التمع المختار بن عبيد الثقفي، ومحمد بن قاسم الثقفي، الذي قاد جيشاً من المسلمين نحو الشرق، ووصل السند والهند وكان عمره يقل عن العشرين عاماً، وفي مجرى التفاقم اللاحق للاستبداد الأموي حظيت هذه الدولة بزعيمين من ثقيف تمثلت فيها حاجة المستبد إلى أدوات قمع مكافئة لمتطلبات الحرب الأهلية التي استقرت في خلافة عثمان الأموي، واشتد أوارها مع انفراد بني أمية بالخلافة وهما الحجاج ويوسف بن عمر الثقفي، وقد كان الأخير رديف لهشام بن عبد الملك كما كان الحجاج رديف لوالدة عبد الملك، وقد كانت بداية خدمة الحجاج في الجهاز الأموي هو اشتغاله شرطياً بإمرة "روح بن زنباع" الذي كان بمثابة وزير لعبد الملك، وظهرت كفاءته في الجهاز مبكراً فعهد إليه عبد الملك بقيادة جيش جرار إلى الحجاز للقضاء على أنفصال عبد الله بن الزبير، وأنجز مهمته على الوجه المطلوب فأعاد الحجاز إلى الطاعة، وورد عنه في أثناء ذلك ما يدل على المعية تقتضي أن لا يخضع في أدائه السياسي لوساوس العقيدة، فقد حاصر ابن الزبير في الكعبة وأمر برميها بالمنجنيق، وحدث أن تجمعت غيوم راعدة فنزلت صاعقة على جيش أهل الشام

وقتلت عدد منهم، فتطير الشاميون واعتبروا ذلك رد إلهي على قصف الكعبة[1]، فأوضح لهم الحجاج "أنا أبن تهامة وهذه صواعقها" وطلب إليهم التريث حتى يصيب عدوهم ما أصابهم.وفي اليوم التالي نزلت صاعقة على جيش ابن الزبير وقتلت عدد منهم.. وبذلك استطاع تجاوز الأزمة في معسكره، وعينه عبد الملك بعد تصفية ابن الزبير والي على الحجاز، ثم ولاه على العراق فصار الحجاج حاكم البقاع الممتدة من العراق إلى نهاية الثغور في آسيا الوسطى والهند، حيث كان الوالي على العراق يتولى شؤون المشرق الإسلامي برمته[2]. ومثلما كان الوالي الأموي ينظم نشاطات المشرق السياسية والعسكرية، كان المعارضون من الشيعة والخوارج ينظمون حركة المعارضة في الولايات والأطراف مع الامتداد شرقاً. وقد ترتب على الحجاج وهو يواجه مسؤولياته الجسام في إدارة امبراطوريته لحساب الأمويين أن يتعامل مع حركة المعارضة بالقمع الدموي المنفلت.

لقد اتبع الحجاج سياسة قمع استثنائية في تاريخ الاسلام ولا شك انه اتصف بخصائص جلاد متميز من بين الجلادين المسلمين، وقد بدءت تلك الحقبة التاريخية كأنها بداية لتأسيس الاستبداد الإسلامي بهدف تثبيت أركان الامبراطورية التي أصبحت واسعة الأطراف وعالية المقام في العالم،لقد تبلور في الوعي الإسلامي زمن الحجاج نوع متميز من القمع الدموي والنظر إليه من هذه الناحية يمثل نظرة الناس إلى حكامهم بوصفهم من ورثه الحجاج، وفي خطابة الأول حينما وصل الكوفة يوم استلم ولاية العراق كان له قول مأثور لا يزال يتردد على ألسن الناس، فقال الحجاج عبارته المشهورة "إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان وقت قطافها" ويعتبر الحجاج خطيب من البلغاء حيث وصفه الحسن البصري بقوله "ما سمعت الحجاج يخطب إلا وظننت أن أهل العراق يظلمونه!"،

(1) ابن عساكر "من تاريخ دمشق"، دار المسيرة، بيروت، (1979).

(2) لم تكن هناك حدود فاصله بين العراق والمشرق الإسلامي كما هي عليه الآن.

وقد جمع بين رؤوس البشر وعناقيد الكروم التي اعتاد على قطفها عند النضج أيام كان في الطائف. لقد استعان الحجاج في سعيه إلى بلورة سياسة القمعية من خلال ما وجد من تفسيرات القرآن والسنة النبوية، واستقصى الحجاج سيرة زياد بن أبيه للاستفادة من تجاربه، ولعلة تعرف على تجارب أقدم الملوك البيزنطيين والساسانيين، وألتمس له سنه من السنن فسأل الصحابي أنس بن مالك عن أقصى عقوبة عاقب بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فحدثه حديث العرنين، وهم جماعة وفدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم متظاهرين بالإسلام فتقبل إسلامهم ولما خرجوا ارتدوا ولقوا في طريقهم راعياً كان يرعى الغنم للنبي صلى الله عليه وسلم فمثلوا به وغرسوا الشوك في عينيه فوجه إليهم قوة ساقتهم إليه ففعل بهم مثلما فعلوا بالراعي، ونزلت الآية الكريمة بحقهم وهي من سورة المائدة[1]. وكان أنس يداري الحجاج وغيره من أهل السلطان لتمشيه أموره المعيشية، ويوضح له بأن النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك على سبيل المقابلة بالمثل "العين بالعين والسن بالسن..الخ"، وقد استخدم الحجاج أكثر وسيلة للقمع عن طريق الإعدام بقطع الرأس بالسيف. ويقدر المؤرخون عدد الذين أعدمهم في غضون عشرين سنة التي حكم فيها العراق والمشرق ما بين مائة ألف ومائة وثلاثين ألف. وبالرغم من المبالغة في الرقم إلا أنه يفوق أي عدد في تاريخ الإسلام إلا عدد الذين أعدمهم أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية. واقتدى بزياد بن أبيه في إعدام النساء واقتبس طريقة زياد أيضاً في توسيع المسؤولية الجنائية لتشمل أقرباء المطلوب من الأبرياء[2]. كما اتبع سياسته في منع التجمهر، ومن أبشع إجراءاته القمعية كانت إنزال الجنود مع العوائل بدلاً من أن

(1) الآية رقم 33، سورة المائدة.

(2) هذه العقوبة طبقت على العراقيين في أيامنا، في فترة حكم صدام حسين عندما كان يريد أن يرغم أحد على الاعتراف فيرسل على أقارب المطلوب ويعذبهم أيضاً.

يبني لهم معسكرات خاصة بهم يعيشون فيها، وكان هذا الإجراء من أسباب ثورة عمت العراق والمشرق هي ثورة الفلاحين "لابن الأشعث"، أما الأسباب الأخرى المساعدة على تلك الثورة فقد كان توسع الحجاج في أعمال السخرة التي استخدمها معاوية فكانت معظم منشأته ومشاريعه تبني بتسخير الفلاحين النبط، فبدأ الفلاحون يهجرون قراهم إلى المدن، وسببت الهجرة انخفاض مريع في الانتاج الزراعي فشن الحجاج حملات لإعادتهم إلى الريف واستئناف الزرع، وكانت هذه المظلمة سبب آخر لوثبة ابن الأشعث التي ساهم الفقهاء في تأجيجها إلا أنه مع كل ذلك القمع الوحشي، فقد استطاع أن يحقق عدداً لا يستهان به من المشاريع الاروائية والزراعية المهمة منها نهر حفره من الفرات عند بابل وسماه نهر النيل مضاهاة لنيل مصر وبنى حول النهر مدينة سماها مدينة النيل استمرت عامرة عدة قرون ثم تقلصت بتمصير الحلة المزيدية في أواسط القرن الخامس الهجري، وقال "ياقوت الحموي" عن النيل انه خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير. وحفر الحجاج نهر آخر من دجلة في جنوب وسط العراق سماه نهر آلعين، ونهر ثالث هو نهر الزاب (غير الزاب الموجود في كردستان) واستزرع البقاع المحيطة بهذين النهرين وفي بنائه لمدينته واسط أظهر الحجاج خصاله الشخصية كحاكم متمدن كان الغرض من بناءها هو الابتعاد عن الكوفة المعادية له.

وأخيراً كان آخر ضحية للحجاج هو سعيد بن جبير وهو فقيه حبشي تتلمذ على يد ابن عمر وابن عباس في المدينة وأقام في الكوفة ثم انضم الى حركة ابن الأشعث، وبعد اندحار الحركة لجأ إلى مكة فقبض عليه واليها الأموي وأرسله إلى الحجاج فقتله في واسط، وصادف أن مات الحجاج بعده بأقل من سنه.

(1-4) تحليل ظاهرة الحجاج:

كتب ابن عبد ربه في "العقد الفريد" فصلاً "بعنوان "من قال أن الحجاج كان كافراً" استوفى فيه أقوال الفقهاء وغيرهم في تكفير الحجاج والتكفير

هنا لازمه عن سياسته لا عن عقيدته لكن الفكر الديني تحرج في إدانة الحجاج ونبه رجال الدين السنة إلى تدين الحجاج وإيمانه الصادق، وعند أهل الفقه أن المسلم إذا لم يكن من أهل الأهواء (خارجي أو معتزلي أو وباطني) فهو يستحق الغفران ولا يجوز لذلك الحكم عليه بشيء من أفعاله لأن الإيمان لا يضر معه شيء، وفي المذاهب السنية يوضع الإيمان قبل الفعل والإيمان مشروط عندهم بعدم الانخراط في مقولات أهل الأهواء وهم الخوارج والباطنية والمعتزلة والمتصوفة وفئات أخرى جنحت إلى التأويل، والحجاج عند أهل السنة يبرئ من جرائمة الدموية بسبب إنتمائه إلى الأمويين، أما الخوارج والمعتزلة فكانوا أقل تأدلجاً فيما يخص مدانيهم فالخارجي الفاسق يكفّر ويخلع وكذلك المعتزلي عند أصحابه، ورأى الخوارج والمعتزلة في الحجاج متأثر بأفعالة أكثر مما بانتمائه الأموي، ولم يعرف الخوارج والمعتزلة اسلوب التبرير لجرائم المدانين إلا في مرحلة متأخرة من تطورها.

يقول "حسين مروة" في كتابه "نزعات مادية في الفلسفة العربية الإسلامية"[1] عن الحجاج ما يلي:

كان الحجاج أموي النزعة أولاً وقوي الشخصية ثانياً، جرئ في ضرب الخصوم بالقوة، ولأنه ثالثاً خطيب ساحر العبارة يعرف كيف يتلاعب بنفوس سامعيه بلغة البأس والإرهاب.

بدأ الحجاج إقامته في الكوفة حاضرة العراق الأولى يومئذ، ومركز "الثورة المضادة" للأمويين من مختلف الفرق والمذاهب فضلاً عن كونها منبت الحركة الفكرية، ومبعث كل صراع "أيديولوجي" بين الأحزاب السياسية، استطاع الحجاج في البدء أن يدخل الرعب في نفوس الكوفيين، إذ جمع زعماءهم في

---

(1) حسين مروة "نزعات مادية في الفلسفة العربية الاسلامية"، ج1، ط3، دار الفارابي- بيروت(1980).

مسجد الكوفة التاريخي، فخطبهم بلهجة القوة والتهديد فكان من تأثير خطبته الأولى المشهورة في تاريخ العراق الأدبي والسياسي لذلك العهد، إن لم يجرأ أحد من الحاضرين على إجابته بغير الصمت العميق، ولكن تأثير الخطبة لم يستمر طويلاً، فقد نشطت المعارضة السياسية من الشيعة والخوارج، نشاطاً لم يستطيع إرهاب الحجاج أن يقضي عليها، وهو في الكوفة، فقد أقلقه مكانه في الكوفه وفيها انتفاضات الخوارج، حتى اضطر أن يبني مدينةأخرى له آمنة سميت بمدينة واسط، لقد بسط الحجاج على العراقيين سيف البطش والإرهاب طوال عشرين عاماً وحين مات ترك في سجون العراق من المعارضين خمسين ألفاً من الرجال وثلاثون ألف من النساء كما يقدرها المؤرخون العرب[1][2] (3)، وكانت استراتيجيته أن يأخذ أهل العراق جميعاً بالارهاب الدموي دون تمييز، فقد كان حكمه أشبه بما نسميه في عصرنا بالحكم العرفي أو نظام الطوارئ المعمول به في أيامنا هذه، فكل مواطن هناك مذنب حتى تثبت براءته وكان الإعدام هو العقاب المفضل لدى الحجاج، كما ذكرنا سابقاً، وكان الفلاحون والمشتغلون في الزراعة والفقراء والكادحون في المدن هم أكثر من أصابهم الاضطهاد في عصر الحجاج، صحيح أنه عمل كثيراً لتوسيع الأراضي الزراعية، وتحسين وسائل الري في العراق، ولكن اضطهاده للفلاحين منع تحقيق الهدف من هذه الأعمال الإصلاحية، فلم تستثمر الأرض استثماراً يلبي حاجة الدولة من موارد الضرائب الزراعية على أقل تقدير، ولم تكن هناك تنمية بشرية لاستثمار تلك المشاريع، وتقلص الانتاج الزراعي من خلال هجرة أهل الريف الواسعة إلى المدينة، وبذلك عرقل تطور القوى المنتجة بل هددها بالانهيار[4].

---

(1) البلاذري "فتوح البلدان"، ص294، 371، 374، المسعودي "مروج الذهب"، ج5، ص391.

(2) انساب الإشراف، ج2، ص 373، الطبري "تاريخ..." ج2، ص 854.

(3) المقدسي "أحسن التقاسيم"، طبع ليدن، 1887، ص137.

(4) البلاذري "فتوح البلدان"، ص371.

لذلك كانت هناك انتفاضات للفلاحين على حكم الحجاج، وكانت دعوة الخوارج لقتال الأمويين تلقى استجابة واسعة لديهم، حتى استطاع الخوارج أن يقودوا بعض تلك الانتفاضات، غير أن أعمال العنف الدموي التي مارسها الحجاج خنقت كل الانتفاضات حتى لم يستطيعوا فيما بعد من تجميع قواهم، ولا أن ينتشروا، فلم يبقى منهم بعد الحجاج سوى فلول ضعيفة، ثم انقسموا فرقاً عدة فازدادوا ضعفاً، وقد انتهوا منذ ذلك الحين ولم يبق لهم أثر يذكر ليس فقط بسبب البطش بهم، بل لضعف الأسس النظرية التي قامت عليها حركتهم كما سنرى في فترة لاحقة، ولم يكن بطش الحجاج بالخوارج هو وحده سبب إضعافهم، بل كان هناك سبب آخر أهم ينطلق من نظريتهم الإيمانية. فقد كان الشيعة خصومهم الألداء منذ البداية، وكما ذكرنا عن الضربة الموجعة التي وجهها لهم علي بن ابي طالب في بادئ الأمر، فقد ظهر من بين الشيعة الحسن ابن الحنفية، وهو أحد أبناء محمد ابن الحنفية، أي أحد أحفاد علي بن أبي طالب، ولكن ليس من نسل فاطمة بنت النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فهو بذلك لا يعتبر من الأئمة المعصومين لدى الشيعة. فقد حارب الخوارج نظرياً من خلال تعارض نظريتهم في الإيمان، فإذا كانوا هم يرون أن المعصية تبطل الإيمان فيصبح مرتكب المعصية كافراً، لأنه لا إيمان إلا بالعمل الموافق مع الاعتقاد عندهم، فقد واجههم الحسن أبن الحنفية بالمبدأ القائل أنه لا يضر مع الإيمان معصية، ذلك لأنه يرى (كما يرى أبناء الشيعة كافة) أن العمل ليس عنصراً مكوناً لمفهوم الإيمان، فمرتكب المعصية أو "الكبيرة" مخالفاً للشريعة، ولكنه يبقى مؤمناً ما دام باقياً على اعتقاده بالمبادئ الأساسية لعقيدة الإسلام.

لقد أبدى الحسن أبن الحنفية نشاطاً كبيراً في مقاومة نظرية الخوارج، فأرسل العديد من الرسائل إلى الناس في مختلف البلدان والأمصار التي تمتد إليها سلطة الإسلام معلناً شجبه لنظرية الخوارج، داعياً إلى دحضها والأخذ بنظرية

سائر المسلمين في التفريق بين الإيمان الداخلي والعمل، ويجدر الإشارة هنا إلى أن العديد من علماء الشيعة والسنة قد تصدوا لحرب الخوارج نظرياً وكان من أبرز هؤلاء أبا حنيفة النعمان المعروف بالمذهب الحنفي عام 767 أي في أوائل القرن الثاني للهجرة، وكان الرأي عند هؤلاء أنه لا يجوز الحكم بالكفر على مرتكبي الكبائر ولا الحكم بخلودهم بالنار"[1].

وهكذا ازداد الضعف لدى الخوارج وأخذوا يلجئون إلى الأعمال الانتحارية من خلال تبنيهم للاغتيال السياسي كما أشرنا إليه سابقا. إن أعمال العنف المتمثلة في اغتيال أطراف غير فاعلة في إدارة الدولة تنعكس دائماً على أصحابها، ويؤدي بهم إلى الهاوية، وإذا ما قارنا أطراف المعارضة الأخرى للسلطة الأموية كالشيعة، نجد أنهم لم يتبنوا أعمال الاغتيال أو الغدر في أحلك الظروف، بل كانوا إما أن يتخذوا جانب الصمت،أو أن يثوروا بانتفاضة عارمة تؤول بالفشل على الاغلب، ومهما يكن من أمر فقد شمل الفكر الشيعي والفئة الشيعية، إحدى المكونات الأساسية للفكر والفرق الإسلامية والى يومنا هذا، بينما انقرضت فئات وجماعات أخرى اتخذت من الاغتيال والغدر وسيلة في عملها. وينطبق هذا المبدأ على الحركات السياسية غير الدينية أيضاً.

5- الجذور الفكرية الأولى للانقسام المذهبي في الاسلام في العصر الاموي:

لقد كانت مسألة الجدل في تكفير مرتكبي الكبائر أو عدم تكفيرهم إحدى الجوانب الأساسية في ظهور نظريات ومفاهيم ظلت تمتد وتتبلور ضمن البحوث الفكرية حتى عصر نشوء الفلسفة العربية، وكانت قد أدت لحصول الانقسامات الإسلامية منذ الفجر الأول للاسلام، وكما رأينا كيف نشأ

---

(1) حسين مروة "النزاعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية"، ج1، ط3، (1980)، دار الفارابي، ص515.

الخوارج انطلاقاً من نظريتهم في هذه المسألة بعينها، إذ لم يحاربوا علياً والأمويين إلا بناءاً على الأصل النظري في مسألة "الكبائر" والذي حكموا بمقتضاه على علي والأمويين بالكفر ثم بوجوب مقاتلتهم، بينما هناك مواقف للشيعة ومواقف أخرى للسنة تختلف وتتباين، بشأن مرتكب الكبيرة، ومن هنا يتبين أن الجدل في هذه المسألة كان في أصل الانقسام المذهبي، ونشوء الفرق المذهبية الأولى. ويجدر الإشارة هنا إلى أن حركة المعتزلة التي ظهرت في العصر العباسي كانت هي الأخرى قد نشأت من خلال حركتهم 'إلى الاعتزال عن الحركة السياسية، وكان السبب يعود إلى الجدل الدائر بشأن مرتكب الكبيرة؟

ويرجع المحرك الأول لهذا الجدل إلى أول حادث تاريخي احتدم في الصراع السياسي بين الفرق والأحزاب مخضباً بالدماء، وذلك في حادث مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وانتقال الخلافة بعده -بحكم قاعدة الشورى- إلى علي ابن أبي طالب، ولم تتخذ تلك الحادثة مجالها النظري، إلا عند ظهور الخوارج، فهم أول من حاول تنظير المسألة في هذا النطاق، فعند خروج طلحة والزبير لقتال علي في حرب الجمل، كانت حجتهم أن علياً واحد من قتلة عثمان، فتمت محاربته لأنه قاتل، والقتل عند الإسلام إحدى الكبائر، إذن كان يدور في خلد هذين الصحابيين ما أفصح عنه الخوارج بعد ذلك بشكله النظري، وذلك يعني أن التذرع بادعاء أن علياً واحد من قتلة عثمان، وأن القاتل مرتكب لإحدى الكبائر هو المبرر لإشعالهما حرب الجمل ضد علي، ويمكن الاستنتاج من هذه المسألة أن مرتكب الكبيرة دخلت حلبة الصراع السياسي أولاً، من خلال عدم قناعتهم بتولي علي الخلافة السياسية ثم تحولت إلى حلبة الصراع النظري الفلسفي.

وهكذا الأمر بالنسبة للموقف من معاوية وعلي، فإن المطمع السياسي لمعاوية طوال العشرين سنة التي بقي فيها في الشام، قد بلورت مطمعه السياسي

في الحكم متذرعاً بحجة القصاص من قاتلي عثمان، وأن من يشارك بسفك دم مسلم يعد قاتلاً أي مرتكباً إحدى الكبائر، وذلك يبرر محاربته والخروج على طاعة الخليفة المنتخب بطريقة الشورى، وأكثر من ذلك منازعته الخلافة للمسلمين كافة.

وكان هناك فريق آخر من الصحابة ممن لهم موقف سياسي معارض لعلي أيضاً ولكن أقل حدة من مواقف طلحة والزبير، لأن طموحهم لم يبلغ درجة التطلع إلى نيل منصب الخلافة، ولذلك كان لهم رأي في مسألة مرتكب الكبيرة يعبر عن الموقف السياسي الوسط، ونعني بهم سعد ابن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد ابن مسلمة وأسامة بن زيد وغيرهم من الذين وقفوا على الحياد من محاربة علي في حرب الجمل. ولم يكن لهؤلاء رأي قاطع لا في صحة الادعاء بأن علي قاتل ولا في صوابة القول بأن مرتكب القتل (وهو إحدى الكبائر) تجب محاربته بالسلاح، أو قتله. أي أن هؤلاء "الحياديين" كانت حجة الحياد عندهم هي التردد بالرأي في مسألة ارتكاب الكبيرة، والتردد بالرأي كالجزم به نوع من الاجتهاد، وللمسلم أن يجتهد برأيه وأن يعمل وفق اجتهاده، ومن هذا المنطلق أيضاً أصر الخوارج على نظريتهم بأن مرتكب الكبيرة كافر، وأن العمل جزء من الإيمان، وأن نتيجة كل ذلك توجب عليهم قتال كل من علي ومعاوية، لكي يبرروا موقفهم الذي اندفعوا إليه بعد حادث التحكيم في صفين، وقد ناضل الشيعة ضد الخوارج وهم يعلمون أن وراء هذه النظرية طعناً بموقف الإمام علي، بل وحتى طعناً بصحة إيمانه، أما علماء السنة الذين وقفوا الموقف نفسه في معارضة الخوارج، إنما كانوا يدافعون عن كل من تناله هذه النظرية من خلفاء المسلمين بالإساءة والطعن، وبغض النظر عما يفعله هذا الخليفة أو ذاك من كبائر.

(5- 1) تبلور الفكر الشيعي في العصر الأموي:

كما ذكرنا سابقاً أن ظهور الشيعة على مسرح السياسة الإسلامية يمكن اعتباره قد بدء منذ مقتل الإمام علي على أيدي الخوارج، فقد أخذت النظرية الإمامية والاثني عشريه خصوصاً تأخذ مكانها في الفكر الإسلامي، وخاصة في العراق وقد أصحبت الإمامة بالنسبة لهم حقاً إلهياً، لكون أن سلطتها مستمدة من سلطة إلاهية وليست سلطة دولة مستقلة عن الدين، ومن قولهم بعصمة الإمام، واشتراطهم أن يكون الإمام أعلم أهل زمانه إطلاقاً ويجب أن يكون من آل البيت أي ينتمي إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة بالتحديد. ولم يأتي هذا الاعتقاد اعتباطياً، فقد تعودوا أن يسمعوا أن حكم الاسلام من القرآن وهو كتاب الله المنزل عن طريق ملكه جبريل، والسنة النبوية التي يعتقد بأنه كان يوحى له بالقول والفعل، وليس من سلوك فردي منفصل عن السماء، فكيف يا ترى يمكن لهم أن يعودوا ليُحكموا بواسطة فرد ينتمي لقبيلة كانت هي المسيطرة على القبائل الأخرى أيام الجاهلية من أمثال بني أمية، وبالتحديد معاوية بن أبي سفيان المعروف بشغفه للأمور الدنيوية؟

إن معرفة الله وأسرار الكون والخليقة والروح، ومعرفة الشريعة التي هي قانون الله للناس، مرجعها النبي في حياته ويعتقدون بوجوب كون مرجعها بعد ذلك لعلي بن أبي طالب وأولاده من بعده، لاعتقادهم بأن في هؤلاء شيء من النبي محمد صلى الله عليه وسلم ينتقل بالوراثة جيلاً بعد جيل، فكل إمام في زمانه هو المرجع لإدراك هذه المعرفة، ولا مرجع غيره لأنه المخبر عن النبي، والنبي مخبر عن الوحي الإلهي[1]، وإذا كان للعقل من حق في هذا المجال فهو حق مقيد يجوز الكشف عما يؤيد المعارف الإلهية أو يبرهن عليها، وليس له أن يعارضها، لأنه

(1) حسين مروة، المصدر السابق نفسه، ص503.

عاجز أن يبلغ مبلغها من إدراك الحقائق الكونية وأسرار الوجود، فضلاً عن أسرار ميتافيزيقيا الكون والوجود، وهنا نرى أن المعرفة هذه مرتبطة بالإيمان الديني وتابعة له، وخاضعة لمعطياته لا تستطيع أن تتصرف إلا في حدودة. وإذا كان الشيعة المعتدلة قالوا بالاجتهاد بالرأي في مجال التشريع الإسلامي ولم يغلقوا باب الاجتهاد في تاريخهم قط، ولا يزالون يعملون به إلى يومنا هذا، وبالرغم من أن المذاهب الفقهية الأربعة الرئيسة لأهل السنة قد أغلقت باب الاجتهاد منذ نحو القرن العاشر الميلادي، وإذا كان الشيعة المعتدلون قد عملوا بالاجتهاد في مسائل التشريع الإسلامي، فإن هذا لا يغير شيء من طبيعة نظريتهم الإلهية في المعرفة، لأن هذا الاجتهاد مقصور ومقيد في حالات لا يوجد فيها نص واضح وصريح من القرآن الكريم والسنة النبوية، وخاصة بعد مرور حقبة من الزمن، لابد وأن تستجد فيه مسائل فقهية لم تكن موجودة في عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وقد يرجعوا إلى ما قاله أوسنّه أحد الأئمة الاثني عشر من خلال كلام أو سلوك موثق لأحد هؤلاء الأئمة يستندون عليه في إطلاق الحكم على قضية مستجدة، ويكون ذلك الاجتهاد عبر إجماع لعدد من الفقهاء الحاضرين، وهذا الإجماع يعني بالنسبة لهم أن رأي الإمام الثاني عشر الغائب المنتظر والذي لا يزال على قيد الحياة، موجود بين تلك الآراء التي تحَقق الإجماع عليها، لأن هؤلاء العلماء هم من أوصياء الإمام المنتظر، وهم وحدهم لهم الحق في الافتاء في أمور الناس عامة.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع في انقسام المسلمين إلى فرق وأحزاب منذ ذلك الحين فلابد لنا من زيادة في شرحة بتفصيل أكثر لما له من انعكاسات على واقعنا الحاضر، ولنبدأ أولاً بتعريف كلمة الشيعة:

يقول طه حسين في كتابه "الفتنة الكبرى" أن الشيعة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة عند الفقهاء والمتكلمين ومؤرخي الفرق، لم توجد في حياة علي وإنما

وجدت بعد موته بزمن غير طويل، وإنما كان معنى كلمة الشيعة أيام علي هونفس معناها اللغوي القديم الذي جاء في القرآن الكريم في قول الله عز وجل من سورة القصص :"ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوة فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوة فوكزه موسى فقضى عليه"[1]، وفي قول الله عز وجل في سورة الصافات: "أو أن من شيعته لابراهيم"[2]، فالشيعة في هاتين الآيتين وغيرها من الآيات معناها الفرقة من الأتباع والأنصار الذين يوافقون على الرأي والمنهج ويشاركون فيها، والرجل الذي كان من شيعة موسى عليه السلام كان رجلاً من بني إسرائيل، والرجل الذي كان من عدوّ موسى كان رجلاً من المصريين. بذلك قال المفسرون القدماء الذين تلقوا التفسير عن الفقهاء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وابراهيم كان من شيعة نوح، أي على سنته ومنهاجه يرى رأيه ويدين بدينه، فشيعه علي أثناء خلافته هم أصحابه الذين بايعوه واتبعوا رأيه، سواء من قاتل معه ومن لم يقاتل، ولم يكن لفظ الشيعة أيام علي مقصوراً على أصحابه وحدهم وإنما كان لمعاوية شيعته ايضاً، اي من الذين اتبعوه من أهل الشام وغيرهم ومن الذين كانوا يرون المطالبة بدم عثمان والحرب في ذلك الحين يقام اشد على قاتليه، وقد جاء في نص الصحيفة التي كتبت للتحكيم بين معاوية وعلي بعد حرب صفين ما يلي: "هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضي على علي على أهل العراق ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كل من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين".

---

(1) الآية 15، سورة القصص.

(2) الأية 83، سورة الصافات.

فلفظ الشيعة هنا لا يضاف إلى علي وجماعته من أهل العراق لوحده بل لمعاوية وأهل الشام ويريد كاتب الصحيفة هذه أن يذكر من يناصر علياً وأهل العراق من المؤمنين والمسلمين ومن يناصر معاوية من أهل الشام من المؤمنين والمسلمين أيضاً، وبالتالي فإن الصحيفة تعني لزوم الفريقين المختصمين بما فيها ولا تلزم هذه الفئة والقليلة من المعتزلة الذين أبوا أن يشاركوا أي من الفريقين في القتال، وهناك مثال آخر فقد حدثنا الرواة بأن العباس (عم النبي صلى الله عليه وسلم) قد بسط يده لعلي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ليبايعه بالخلافة، فأبى علي أن يحدث الفرقة بين المسلمين، كما فعل أبي سفيان إذ أراد علياً على أن ينصب نفسه للخلافة حتى لا يخرج الأمر من بني عبد مناف، فأبى علي على أن ينصب نفسه للخلافة في حينها، ولكن لا أحد يقول بأن العباس وأبو سفيان كانا شيعة علي، وإنما عرض لهما هذا الرأي فلما لم يستجب لهم علي بايعوا أبا بكر، ودخلا فيما دخل فيه الناس، كما فعل علي نفسه مع الخلفاء الثلاثة الذي سبقوه.

وخلاصة القول أن الإمام علي قُتل وليس له حزب منظم ولا شيعة مميزة، بل لم ينظم الحزب العلوي ولم توجد الشيعة المميزة إلا بعد أن تم إجتماع الأمر لمعاويه وبايعه الحسن بن علي[1]. وبعد أن رحل الحسن بن علي إلى المدينة، وقد ولى معاوية أمر الكوفة التي كانت مركز الخلافة الإسلامية أيام علي إلى المغيرة بن شعبة، كما ولى عبد الله بن عمر أمر البصرة، فغادر إليها بعد أن كان قد فارقها منذ مقتل عثمان، وعاد معاوية إلى الشام يدير أمر دولته في دمشق، وهكذا تولى معاوية خلافة المسلمين وصفى له الجو وتفرغ لاستعادة قواته لمواجهة البيزنطيين وغيرهم، وقد ذهب وفد من أهل الكوفة إلى الحسن بن

---

(1) طه حيسن"الفتنه الكبرى"المصدر السابق ج2، ص175.

علي في المدينة لاقناعه بالعودة إلى الحرب ضد معاوية، لكنه رفض وأقنعهم بالجنوح إلى السلم المؤقت حتى يستريحوا، ويحسنوا الاستعداد. ويعتبر لقاء الحسن بهذا الوفد هو اليوم الأول الذي أنشئ فيه الحزب السياسي المنظم لشيعة علي وبنيه. لقد تم تنظيم الحزب في المدينة المنورة إذن وفي قلب الجزيرة العربية في ذلك المجلس، وأصبح الحسن رئيساً له. وعاد أشراف أهل الكوفة إلى مَن وراءهم ينبؤونهم بالنظام الجديد والخطة المرسومة، كما سمعوها من الأبن الأكبر للإمام علي بن أبي طالب، وكانت خطة طويلة ومؤثرة تنبأ بولادة فرقة جديدة من المؤمنين وهم الشيعة، وكانوا يهيؤون الناس لهذا السلم الموقوت ولحرب يمكن أن تثار حين يأتي الأمر بأثارتها من الإمام المقيم في المدينة. وكان برنامج الحزب في أول نشأته يتمثل في طاعة الأئمة من بني علي والانتظار في سلم ودعة حتى يؤمروا بالحرب فيثوروا. ومضى أمر الحزب على هذا المنوال، فجعل الشيعة يلقي بعضهم بعضاً يتذاكرون أمورهم، ويسجلون على معاوية وولاته ما يتجاوزون به حدود الحق والعدل، وينتظرون أن يأمرهم الإمام بالخروج. ولكنه لم يفعل ذلك. ولم تكن شيعة أهل البيت مقصورة على الكوفة، ولكنها كانت منتشرة في آفاق البلاد تقل في بعضها وتكثر في بعضها الآخر. وكانت أمزجتها تختلف في معارضتها للسلطة القائمة (معاوية) باختلاف كثرتها وقلتها وباختلاف سياسة الولاة لها. وكانت الرسائل التي تتداول بين معاوية والحسن تشير إلى خلافة الأخير لأمر الأمة بعد وفاة معاوية، وقد تمت مبايعة الحسن لمعاوية على هذا الأساس، إلا أن ذلك لم يحصل وخلّف أبنه يزيد من بعده، وكان ذلك مثار غضب الناس في أرجاء البلاد الإسلامية كلها.

وهكذا انتقلت الخلافة ليزيد ابن معاوية وصارت رئاسة الشيعة إلى أبى عبد الله الحسين بن علي رحمه الله بعد وفاة أخيه الحسن، وهكذا كانت البذرة الأولى لنشأة الفرقة الشيعية في الإسلام."وهكذا أوضح"طه حسين"وغيرة من

الكتاب المستنيرين البذرة الاولى لنشأة الفرقه الشيعيه في الاسلام، ليست كما يصورها البعض هذة الايام من أنها حركه صفوية الاصل أو غير ذلك.

(5- 2) ظهور الخوارج على المسرح السياسي الاسلامي:

أن كلمة الخوارج قد اشتقت لغوياً بمعنى كل من خرج عن الأصول الإسلامية الأولى، والخوارج هم الذين بالغوا بالغلو لعلي بن أبي طالب أمير المؤمنين رغم أنه كان يكره الغلو. وقد حاربهم في حرب ضارية كما أسلفنا في الجزء الأول من هذا الكتاب[1] وأحرق منهم ثمانية رغم أن عقوبة الحرق هي من صلاحية الله وحده، ولا يجوز لأحد غيره أن يمارسها. ويمكن أن يستدل عن رأي الخوارج من خلال ما جاء في ردهم حول مسألة التحكيم للخلافة بين علي ومعاوية لاعتقادهم بأن الله وحده هو الذي يحكم في الناس في الأمور اليسيرة والكبيرة فكيف يمكن أو يحق لأحد غيره أن يحكم بالأمور الكبار التي تمس اجتماع الأمة وحقن الدماء، وكما جاء في ردهم ما يلي:

"أن ما نص الله عليه من الأحكام لا تجوز المخالفة عنه، وما أذن للناس فيه في الرأي جاز لهم أن يجتهدوا فيه برأيهم. إلا ترى إلى أمر الله في الزاني والسارق وقاتل النفس المؤمنة بغير حقها، فليس للإمام أن يخالف عن هذا الأمر ولا أن يغير فيه، وأمر الله في معاوية وأصحابه واضح في آية الطائفة الباغية، فلم يكن لعلي أن يغيره وإنما كان الحق عليه أن يمضي في قتال هؤلاء البغاة حتى يفيؤوا إلى أمر الله"[2].

فالخوارج إذن قد رأوا أن المؤمنين سواء فيما بينهم أصلاً، فإذا كان لابدلهم من أمير يتولى الأمر بينهم فأولاهم به من هو أقربهم إلى الله دون النظر إلى الأصل

(1) أنظر الفصل الرابع، الجزء الأول من هذا الكتاب "العنف السياسي في بلاد الرافدين وجذوره التاريخية".

(2) طه حسين "الفتنة الكبرى"، ج2، ص95.

أو العرق مع وجوب محاربة من كان بين بينٍ في دينه ودنياه من المسلمين، باعتباره مارقاً، خارجاً عن جادة السبيل ومثل هذا الرأي يتفق تماماً والعرف التقليدي السائد في ذلك الحين عند العرب. من هنا يتبين تأثير الموروث التاريخي الثقافي للأمم في سلوكها ومعتقداتها. لقد كانت بلاد الرافدين منبعاً ومولداً للإرث الديني وكانت شدة ارتباط الناس بالعبادة الوثنية واللاهوت تشكل السمة الغالبة على حياتهم الإجتماعية والسياسية عموماً، ولما جاءت العقيدة الدينية الموحده من الجزيرة العربية والمتمثلة في الإسلام، وما جاء به من الآيات القرآنية المنزلة من السماء التي انتشرت بسرعة فائقة من خلال درجة ترابطها بالسماء، لأن كل ما جاء في هذا الدين مرتبط بالله وحده ولا يحق لأحد غيره أن يتلاعب أو يجتهد في أمورهم من خلال ما يراه مناسباً لهم، ناهيك عن معرفتهم بأن هذا الشخص المتمثل بمعاوية بن أبي سفيان رجل يعمل لدنياه أكثر مما يجب. من هنا يضهر إن من الصعب على القوم في ذلك الحين أن يؤمنوا بتنازل عليّ لمعاوية بشأن أمر ولاية الشام عن طريق التفاوض وفض النزاع حقناً للدماء.

أما الشيعة فإن التمسك بالإسلام الحنيف إنما يفي في نظرهم التمسك بعترة النبي ولا سيما أهل بيته وولده من ابنته فاطمة وصهره على بن أبي طالب فالأمر عندهم أكثر من مجرد مبدأ خلافة بشرية وهو الرفض بالتسليم بما يذهب إليه أهل السنة: بأن صاحب الأمر الإمام أو الخليفة (أي خليفة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على المسلمين)، ليس سوى حاكم يتصف بالحكمة والدراية والقوة والحزم في إدارة أمور الأمة. لقد احتفظ الشيعة عن يقين بأن الوحي المحمدي الذي كان ينزل عليه عن طريق جبرائيل أو يوحى إليه من الله لابد وأن يكون له بديل أو صدى، في أهل بيته بشكل غيبي لا نعرفه، وبذلك يبقى الخليفة الإمام الهادي المهدي في أمور الدين وبالتالي العزم على عدم التفريق بين الدين والسياسة وإدارة أمور الدولة إذ ليس من السهل عليهم أن يقبلوا في ذلك

الوقت أن الخليفه هو مجرد حاكم منهم ليس لة صلة بالسماء بشكل أو بآخر وذلك من تأثير المرووث التاريخي الذي تكلمنا عنة سابقاً.

وهكذا أعتقد الشيعة بأن هؤلاء الأئمه المعصومين لديهم القوة الفوق بشريه.أو أنهم يختلفون عن بقية البشر بقربهم الى الله عز وجل.

وهناك رأي آخر في أصل الخوارج[1] "يعتبر أن الخوارج على عكس ما هو شائع لدى بعض المؤرخين، فهؤلاء لم ينشأوا في نشأتهم الأولى من حرب صفين ولا بسبب التحكيم الذي حصل بين جيش معاوية وعلي، بل أنهم سبقوا صفين والتحكيم، لقد كانت نشأتهم في العراق وإن لم يُعرفوا بهذا الاسم الذي لزمهم فيما بعد، حين ثاروا وخرجوا في صفين على الإمام بسبب قبولة التحكيم الذي كانوا أول القابلين به والداعين إليه. لقد كان هؤلاء الخوارج قد أرتبطوا بتنظيم قبل صفين والتحكيم وحين ساروا الى صفين ساروا وهم يحملون فكراً وعقيدة غير ما يحمل جيش علي، وتصميماً على أن يجعلوا من ساحة المعركة في صفين التي جمعت ذلك العدد الضخم من المسلمين، سبيلهم إلى نشر فكرهم وعقيدتهم وجر المسلمين للانضمام إليهم وتبني دعوتهم. وعلى عكس ما يريد المؤرخون المحدثون تأكيده من أن الخوارج لم يعرفوا الحرية في تعاملهم، لا مع المسلمين الآخرين ولا مع بعضهم بل لم يكن أشد عداءً لحرية الرأي من هؤلاء الخوارج، سيما الأزارقة،منهم وهم أكبر وأشهر فرقهم، إذ كانوا متعصبين ويرفضون الآخر وكل م ن لا يشاركهم في عقيدتهم يعتبرونه عدواً لهم، يسري عليه ما يسري على عدوهم، لا يستثنون في حكمهم هذا أحداً. لقد كان السيف شعارهم ووسيلتهم الى فرض عقيدتهم. وإذا كان السيف قد أرهب المسلمين وأخافهم لفترة، فما كان له أن يستمر في إرهابهم وإخافتهم، ولابد أن يأتي يوم

---

(1) أحمد فرج الله "نظرة حديثه لقضايا قديمه في الاسلام" (2004)

يرتد فيه إلى من جردوه وهو ما حصل فعلاً، ذلك أن عقيدة الخوارج قامت على تكفير جمهور أئمتهم، وهذا ما لا يرضاه المسلمون، ولذلك وقفوا موقف الحياد منهم."

(5- 3)ظهور الطور الأول من الاعتزال (المعتزلة) في العصر الأموي:

اعتبرت حركة الاعتزال أهم حركة فكرية دينية اسلامية نشأت في القرون الهجرية الثلاثة الأول، وقد اعتبرها أغلب الدارسين المعاصرين بأنها حركة "العقل" للدين الإسلامي أو حركة "العقل المستنير" في الإسلام والمعتزلة بحق أسياد الوعي الثقافي في تاريخ البشر، وقد صدق "أحمد أمين" عندما قال عنهم في الضحى والفجر "مات العقل في الإسلام عندما مات المعتزلة"[1].

وقد وضع ميلاد خاص للمعتزلة الذين رفضوه البعض واعتبروا الخلفاء الراشدين من ضمنهم. فقد صور المؤرخون بزوغ المعتزلة حين اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري، وأجاب إجابة مختلفة عن سؤال مرتكب الكبيرة، هل هو فاسق أم مؤمن؟ وأجاب بأنه لا مؤمن ولا كافر. وكانت هذه الإجابة وذلك الانعزال عن حلقة الحسن البصري في مسجد البصره، يحددان لدى المؤرخين بداية تشكيل فرقة من أهم الفرق الفكرية السياسية، والتي ستلعب دوراً محورياً في تجديد الفرق المذهبية الاسلامية والتي ستساهم بقوة في تغيير نظام بني أمية، وانتشار "العقلانية الدينية" في العصر العباسي الأول، وسوف نأتي إلى تفاصيل ذلك في الفصل الثاني في شرحنا لظهور المذاهب الإسلامية في العصر العباسي. ويرى عبد الله خليفة في كتابه "الاتجاهات المثالية في الفلسفة الإسلامية"ولأجل القاء الضوء عن فلسفتهم مايلي:- حيث أنه على الرغم من ظهور الطور الأول من الاعتزال في العصر الأموي إلا أنه بطبيعه الحال لم يصل إلى حد

(1) د.علي شلق "العقل الفلسفي في الإسلام"، ص112.

التجريد الفلسفي للتوحيد الإلهي". وكل ما ينقل عن واصل بن عطاء مؤسس الفرقة: "إن واصلاً كان ينكر القول بقدم الصفات الإلهية القديمة ويقول برأي القدرية في القدر"[1]. لقد ركز واصل على المسائل الأخلاقية والسياسية وطرح المعنى العام للتوحيد الذي تمثل في قوله للإمام الصادق (جعفر بن محمد الباقر): "الحمد لله العدل في قضائه الجواد بعطائه المتعال عن كل مذموم والعالم بكل خفي مكتوم، نهى عن القبيح ولم يقضه، وحث على الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه". ثم يقول: "إن مواد العصر العلمية غير مسعفه في ردم الهوة بين التوحيد المطلق في العالم الغيبي وبين ما هو من صنع الإنسان والتاريخ، أي تأثيث الوجود البشري الطبيعي، أما الخيارات السياسية والأخلاقية فهي من صنع البشر"، وبطبيعة الحال هناك فجوات معرفة كبيرة، فالتاريخ هنا يصير الآهيا، وبالتالي فإن أي معرفة موضوعية به تبقى معدومه، فالتاريخ لا ينطبق سوى على الخيارات الراهنة الصراعية مع الدولة الأموية، وتبقى صيغة تدخل الله في التاريخ أو عدم تدخلة أمور غامضة وغير محلولة فكرياً، فإذا كان الله خارج الوجود الحسي، فكيف يمكن ان يتموضع في الوجود والتاريخ، ثم أين مسؤولية "المكلف" إذا كان التدخل الالهي شاملاً وكلياً؟ ولكن حتى في هذا المستوى فإن القرآن يطرح صيغة التدخل الالهي المستمر في الحياة التاريخية والسياسية المباشرة للافراد، فالله هو الذي شكل العالم في ستة أيام ثم استوى على العرش، وخلق آدم ووضع له جدول السلوك وكان خرقه لذلك هو الذي سبب النزول إلى الأرض ثم ظهرت النبوات لهداية البشر..الخ.

(1) د. علي شلق المصدر السابق، ص126.

إن كل هذه المواد تثبت التدخل الحسي من الله في الوجود، وفي حياة البشر والمشاركة المباشرة في صنع التاريخ، فكيف يمكن التوفيق بين التوحيد الاعتزالي التجريدي ونفيهم للصفات، وبين صناعة الله للوجود والتاريخ؟"[1].

في مرحلة واصل بن عطاء لم تبحث مثل هذه المسائل ولكن مقدماتها موجودة، والتناقضات الوجودية والفكرية يتم تجاوزها باللغة الانشائية كقول واصل "الحمد لله العدل في قضائه، الجواد بعطائه..الخ"؛ فهذه اللغة التقديسية لن تجيب الأسئلة والتضادات، فهذا التصوير يتضاد بين الانفصال العادل عن الوجود والتدخل في كل شيء.

إن هذه المرحلة (التاريخية) التي لم تنمو فيها العلوم الإنسانية ولا الطبيعية المختلفة بالدرجة التي تكفي لأن تعبر بشكل واضح وصريح عن دور الإنسان وعقل الإنسان في تقدمه التاريخي، لكن التناقض الذي نشأ في مسألة التوحيد منذ ذلك العصر، قد ساعد المعتزلة في تشكيل أدوات جديدة في المرحلة الثانية من طور الاعتزال، وعلى كل حال، فلن يكون هناك انقلاباً في الرؤية بل هي تطورات محدودة لسد النقص بين الإله المتعالي المجرد، وبين المادة الطبيعية والاجتماعية، فسيغدوا الله علماً بذاته وحياً بذاته وقديماً في ذاته، ولكن الله مع هذه الهيمنة الشاملة في مفهوم المعتزلة لن يتدخل مع هذا في اختيارات الإنسان،و إلا لما أنزله إلى الأرض، وما بعث الأنبياء إليه، ووضع لحسابه الجنة والنار..الخ. ان هذا التدخل الالهي الذي هو ليس كلياً، حيث بقيت منطق إرادة الإنسان حرة، يبقى متضاداً مع تجريد الإله وعدم ماديته، فهذه الذات الالهية التي لا تتغير ولا تتحرك الموجودة في كل مكان هي التي تصنع التغيير والحركة والوجود والمكان والزمان[2].

---

(1) عبد الله خليفة "المصدر السابق"، ص226، ج1.

(2) عبد الله خليفة، المصدر السابق، ص227.

ومن الناحيه الفلسفيه فأن التوحيد الاعتزالي المعبر عن توحيد الذات الالهي يبدو فقيراً، متناقضاً غير قادر على خلق تماسك منهجي في تصوراته، وليس ذلك إلا بسبب الاضطراب في بنيته الفكرية بين المثالية الذاتية والمثالية الموضوعية. فقد كان حجم المثالية الموضوعية ضئيلاً في تصور المعتزلة الأوائل، وفي عدم التناسب بين الجانبين الذاتي والموضوعي، تكمن مسائل تخلف الوعي وغياب العلوم، وإحلال الذات الالهية في كل شيء تعبيراً عن عجز قراءة السببيات المختلفة.

لقد شكلت الحركة السياسية الاعتزالية في العصر الأموي نواة لجسم الحركة السياسية الاعتزالية في العصر العباسي، وهي تدخل ميدان الكفاح العملي والثوري بعد أن كانت فكراً نظرياً غير متكامل الأبعاد.

ويمضي خليفه بالقول بشأن العبودية المعممة في العراق منذ العصور القديمة كما يلي:

"إن تطور المدينة كحقل مملوك مشاعياً وكمعبد، يعبر عن الخصائص الجوهرية التي هي بمثابة قوانين موضوعية، كامنة في الخلية الأولى، حيث نرى العبودية في الحقل والمعبد ورموزه والمسيطرين على الرموز. وهذه السيطرة المطلقة التي لا تبدو مطلقة يوضحها التطور، حيث تتمركز السلطة المطلقة في الآلهة المحدَدَين والملك، ثم تتسع الملكية وتتجذر مطيحة بالمدن الحرة، والفئات المستقلة والأنواع الثقافيه جاعلة كل شيء تحت سيطرتها. لهذا لا نجد مجالس شورى وحكام مستقلين في عهود حمورابي وسرجون ونبوخذ نصر. إن ابتلاع العبودية العامة للثروة المادية يقود إلى تدهور الأنواع الفكرية والإبداعية المستقلة وتحول العلوم إلى ملاحق للقصور والمعابد، كما أن الإبداعات الدرامية والملحمية، التي حصلت على بعض البنود في أزمنة المدن الحرة تختفي كلياً، ولا يجد الوعي طريقاً لاكتشاف تناقصات الوجود الاجتماعي إلا عبر الدين المؤسسة الفكرية

الشاملة المرافقة للعبودية العامة ـ . ولا يتعارض هذا مع الازدهار المؤقت للمملكة أو حتى الامبراطورية- فاتساع المملكة يترافق ونمو التجارة والعلوم والآداب الجزئية، ولكن الدولة المقامة على الغزو المستمر وتحويل الشعوب الأخرى إلى عبيد ليسوا سياسيين فقط بل عبيداً كاملين، يؤدي إلى زيادة النفقات العسكرية والبذخية والمنشآت (الأسطورية)، كالأهرامات وحدائق بابل (برج بابل) والقصور..الخ. ثم يؤدي إلى انتفاضات الشعوب الأخرى وحروبها المضادة، وانهيار الممالك المزدهرة.

وكما أن نمو وازدهار المجتمع يرتبط بنمو مؤسسة الملكية وتوسعها الجغرافي والتجاري والحربي في حيث البحث المستمر عن الخامات، فإن الانهيار مرتبط بهذه المؤسسة، حيث يغدو المجتمع كله تابعاً وعبداً، للملك، الإله، الرجل المعبود، للفرعون أو لنبوخذ نصر الذي ينحني ملوك الأرض كلها تحت قدميه.

إن هذه السمات تحدث في أول حضارة بشرية جنوب العراق، والتي يزداد عنفها مع تصاعد ونمو مؤسساتها الحاكمة، وتغلغل القبائل السامية البدوية في عروقها السومريه، وهي الحضارة المسالمة السابقة، وهي المماثلة للحضارة المصرية قبل أن يأتي الهكسوس، ويدفعونها للعنف المتزايد والتوسع واستئجار المحاربين والأنطفاء في خاتمة المطاف".

إن العبودية المعمّمة هي إذن استعباد النظام السياسي للجمهور العامل، ولهذا نجد تلخيصها الرمزي في "الفرعنة"، ولكن لا يمكن تعميم سمات النظام في أول تشكله مع مساره القادم، حيث أن حرية القبائل العربية وهي تخرج من الجزيرة هي غيرها حين تنقطع جذورها الرعوية كلياً. إن جهاز الدولة إذن يسمح بالقفز على التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية وتجاوزها دون القيام بالمحو التام لآثار الماضي، وهذا الذي يطبع تطور العلاقات التاريخية في المنطقة ،ولهذا ستتم

التطورات بالطابع السياسي المهيمن والمراوحة بين الأطوار والتراجعات الحادة والقفزات. وستغدو التشكيلات متصفة بهيمنة الدولة، فالعبودية ستغدو عامة، أي عبر سيطرة الدولة، والاقطاع سيغدو مركزياً، أي تحت هيمنة الدولة المركزية الأموية ـ العباسية، وسيغدو لا مركزياً عبر سيطرة الدولة الأندلسية والايوبية.

يوضح خليفه هنا "علاقه الصراعات السياسية بالوضع الاقتصادي والاجتماعي والفكري للمجتمع الاسلامي في ذلك العصر" وسيتضح لدينا اكثر من خلال استعراضاً لذلك الوضع في الفقرة اللاحقه في الحياة الاقتصادية والاجتماعيه للعالم الاسلامي في العصر الاموي.

وأخيراً نقول: "إن هيمنة الرموز السماوية في الشرق هي التي راحت تتوجه للعالم المفارق معبرةً عن وحدة صراعية خاصة بسبب عدم قدرة الناس على خلق تاريخهم بشكل عقلاني، أي ليست لديهم إمكانية مادية وفكرية للسيطرة على الطبيعة والمجتمع. والرموز السماوية هنا تعبيراً عن دور القوى الفاعلة المالكة والمثقفة في إدارة العمليات التاريخية الكبرى"، (غياب الديمقراطيه)وبالتالي صنع التاريخ بقرار الحاكم.

وسنأتي بتفاصيل أكثر عن فرقة المعتزلة في الفصل الثاني في البحث عن الطور الثاني للاعتزال. كما جرت العادة في تسميتها.

6- أوضاع المسيحيون في الشام في العصر الاموي:ـ

لا يمكن فهم تاريخ المجتمع دون الاخذ بنظر الاعتبار الديانه التي كانت سائده قبل وصول الاسلام اليه، لذلك فقد أصبح لزاماً علينا أن نلقى ضوء عن أوضاع المسيحيون في الشام في العصر الاموي. لقد أخذ المسيحيون الخارجون عن طاعة الإدارة المركزية في بيزنطية، ينضمون أحوالهم ويضبطون شؤونهم الدينية

والكنسية الخاصة بعد أن تخلصوا من مضايقات العاصمة وازعاجها، واقتصرت علاقتهم مع الامبراطورية البيزنطية في العصر الأموي على بعض الاتصالات الإنسانية بالرغم من الحروب التي كثيراً ما شجرت بين المسلمين والروم، وقد راحت بيزنطية تشعر بالأسف المرير لفقدانها أغنى ولاياتها الروحية وكان واحد من كبار الموظفين في البلاط الأموي يدعى "يوحنا الدمشقي" قد كفر بالعالم وانقطع لعبادة الله راهباً في دير القديس سابا، القريب من القدس وكان من أشهر لاهوتي الكنيسة الشرقية الملكية في تلك الحقبة من الزمن، وقد لعب دوراً بارزاً في الجدل الديني الذي احتدم في بيزنطية حول تكريم صور القديسين[1]، وقد عرفت هذه الكنيسة بالملكية لبقائها على ولاء الملك أو الامبراطور وللعقيدة التي ترعاها القسطنطينية. كما لحقها أذى كبير من جراء فقدانها السلطة الكنيسية ولشغول كراسي بطريركيتها في المرحلة الأولى، ثم لتوليها فيما بعد من قبل بطاركة أكثر التصاقاً بمركز الخلافة الإسلامية ومنهم بطريركية القسطنطينية، وقد بقيت بالرغم من هذا نشيطة من خلال سيرة القديس يوحنا الدمشقي، وإلى جانب الكنيسة الملكية قامت الكنيسة المارونية التي أخذت أسمها من اسم راهب يدعى مارون، إلا أن ابتعادها عن بيزنطية وعدم الاستقرار في بطريركية أنطاكية (في تركيا) جعلها تتردى في الهرطقة المونوثولية[2] أو القول بمشيئة الواحد في السيد المسيح في الوقت الذي تنكرت لها كنيسة القسطنطينية وتحولت عنها، وقد أخذت هذه الكنيسة تنظم شؤونها في وضع بين بين، من الانشقاق والانفصال تحت إدارة بطريرك خاص بها، وبدون قصد معين، وبالرغم من عداوة أتباع عقيدة الطبيعة الواحدة الذين كانوا ينعمون برعاية الخلفاء وينالون حظوة في أعينهم، أخذ الموارنة يستقرون تدريجياً على

(1) أدور بروي "تاريخ الحضارات العام" (1986)، ج2، القرون الوسطة، ص118.

(2) المونوثولية: شبيهة بالديانة التوحيدية المطلقة وبعيدة عن التثليث المسيحي.

سفوح جبل لبنان الغربية بعد أن أخذوا في حرثها واستغلالها، وبعد أن رأوها أمنع جانباً وأمن لسكانها من تلك الهضاب والنواحي الواقعة إلى الشمال من سوريا والتي لا يزالون يسكنوها إلى اليوم، أما أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة من يعاقبه وأقباط وأرمن ونساطرة، فقد استطاعوا في أول عهد السيطرة الإسلامية (الأموية) أن يحافظوا على عدد اتباعهم وكنائسهم، وقد وضع البطريرك أيشونيهب الثالث النسطوري[1] سلسلة من التشريعات الدينية والقانونية، ثم انصرف إلى التأليف في الأمور الرهبانية وسير القديسين والتاريخ الكنسي، بالإضافة إلى الحركة العلمية التي نشطت إذ ذاك ولا سيما الطب، كما برز عند اليعاقبة شخص يدعى يعقوب الرهاوي الذي كان أحد علماء زمانه في الأدب والشعر والتاريخ والتفسير والتشريع ويعتبر فيلسوف لاهوتي صاحب التصانيف العجيبة المفيدة. وبالرغم من موقفه المعادي لبيزنطية من الوجهة العقائدية فقد بقي عقله متفتحاً للقبس من التراث المسيحي اليوناني. وبالرغم من الفروق اللاهوتية التي قامت بين الكنيستين، فقد جمعها العداء ضد الكنيسة اليونانية، وتأثرت الواحدة منها بالثانية فاستعملتا في الطقوس الدينية لغة واحدة مع بعض الفوارق البسيطة، فقد آثر اليعاقبة تأثيراً بالغاً على الأقباط والأرمن، بينما تابع النساطرة جهودهم لنشر المسيحية في الأقطار الوسطى من آسيا.

7- الحياة الإقتصادية والإجتماعية:

لم يطرأ على مجموع سكان الريف تقريباً ولا على السواد الأعظم من سكان المدن أي تغيير يذكر في سير الحياة، ونهجها، وهذا الاستمرار نراه قائماً في حياتهم الاقتصادية والإجتماعية، فقد وزعت الأراضي في الريف إلى قسمين

---

(1) النسطورية واليعقوبية- طوائف مسيحية مذهبية نسبة إلى بطريركها المسمى نسطور ويعقوب وهكذا.

متميزين: الأملاك الخاصة والأملاك العامة، ثم أضيف إليها الأملاك التي فقد أصحابها ملكيتهم لها، لفرارهم من البلاد عند الفتح الإسلامي أو لوفاتهم في الحروب التي دارت رحاها آنذاك، فالقسم الأول من هذه الأراضي ترك أصحابها، شريطة أن يدفعوا عنها ضريبة عقارية هي الخراج التي كانوا يدفعونها من قبل الدولة البيزنطية أو الساسانية (حسب الموقع الجغرافي)، أما القسم الثاني من هذه الأراضي، فقد أُجر إلى المزارعين أو المرابعين (إقطاع) ومعظمهم من العرب بقصد استثمارها واستغلالها وفقاً لعقود خاصة،وقد رأى فيها بعض الفقهاء من أهل البلاد استمراراً لنظام الحكم الذي عرفه البيزنطيون وعملوا له طويلاً مع أن الدولة الجديدة التي لم تكن قد ألفت بعد مثل هذه الثروة اعتبرتها أملاكاً تشبه في ملكيتها تلك الأراضي المعمول بها في الجزيرة العربية قبل الفتح، فالإقطاع هو ملكية عقار يولي صاحبه جميع الحقوق الاقتصادية كيفما يشاء، فعلى سيد الأرض أن يدفع الضريبة المترتبة على كل مسلم ويجعل مما يتصدق به عشر ربحه أو مدخوله، فهو لا يتمتع بأي من الامتيازات التي تحقق قانوناً للسلطات العامة على الأقطاعيين أو المستأجرين، فسلطته عليهم أخف من سلطة أصحاب الأملاك على مزارعهم في عهد البيزنطيين والساسانيين، وعلى هؤلاء المزارعين أن يدفعوا رسوماً شبيه برسوم الخراج المترتبة على أصحاب الأملاك من الفلاحين.

وهكذا نرى أن هاتين الفئتين من الأراضي لم تخضعا لنظام اقتصادي يختلف الواحد عن الآخر اختلافاً جذرياً، وبالتالي فإن الفتح العربي للمنطقة لا يمكن اعتباره استعماراً أو سيطرة أجنبية إلا ما جاء به من استثمار أو استغلال للأراضي الغير قابلة للحرث والزراعة. وهكذا نرى أن الفتح العربي كان أخف وقعاً بكثير على الأهلين، وكان شعورهم بالارتياح واضح بالمقارنة مع غزوات الجرمان واحتلالهم لاوروبا الغربية على سبيل المثال، لذلك استطاع معاوية بن أبي

سفيان أن يكسب جموع الشام بسهولة ويسر بعدما كانوا يعانون من تسلط البيزنطيين لردح من الزمن. إن هرب أرباب الأراضي البيزنطيين من البلاد وحلول ملاكين عرب محلهم أقل دراية وخبرة منهم في تنظيم الإقطاع لم يجلب معه الحرية للفلاحين، وكان بالإمكان للعرب أن يصادروا أو يختلسوا أملاك سكان البلاد كما هو المعتاد في الأقوام المحتلة إلا أن ذلك لم يحدث في الواقع الفعلي، مما ساعد الشعور بالراحة والسرور من الخلاص من المحتل المستعبد المقيت. وكذلك فإن فقدان الإدارة والنظام الذي ساد البلاد في أول الفتح، قد ساعد بعض القادة العرب وزعمائهم (الأمويين) على اقتناء قرى وضيعات ضموها إلى ممتلكاتهم السابقة من الجزيرة العربية، واعفيت تلك الممتلكات من ضريبة الخراج، فلم تستفد الدولة منها إلا العشر، ومثل هذا الوضع لم يكن سائداً في جميع أنحاء الامبراطورية الإسلامية، ففي العراق وإيران مثلاً أسقط في أيدي أسياد البلاد وكبار الملاكين، وسدت في وجوههم منافذ البلاد فلم يستطيعوا أن ينجوا بأنفسهم، ولذا بقي عدد كبير منهم داخل البلاد لم يستطع النجاة بنفسه. وإذا رأى زعماء العرب أنفسهم بمعزل عن كل رقابة حكومية مباشرة (لبعد المسافة عن المركز) قاموا بعدد من التجاوزات التي حدث منها اضطرارهم للتغيب كثيراً عن أملاكهم بداعي الجهاد وعدم خبرتهم ودرايتهم بسياسة الأرض والعناية بها، وتمسك الفلاحين بالأرض وتعلقهم بها في عهد الإدارة الساسانية السابقة. ولذا كان لابد من الكشف عن الهاربين لإجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه عن أملاكهم في الريف من ضرائب ورسوم لأنهم لا يزالون مسؤولين قانوناً عنها أمام الإدارة المالية، ولذا نرى الوثائق البردية في مصر حيث كانت أعمال المراقبة المالية لا تزال فيها على أشدها. تأتي على ذكر هؤلاء الفارين، لدرجة أنها اصطلحت على تسمية ضريبة الأعناق أو الجزية المستحقة عليهم بكلمة "جوالي" أي اللاجئين وهم هؤلاء الذين يترتب عليهم شخصياً دفع ضريبة

الأعناق أو الجزية بقطع النظر عن الأراضي أو العقارات التي يملكونها. وهذه الضريبة الثانية أي الجزية التي فرضت على غير المسلمين لم تكن ضريبة جديدة فرضها الفتح الإسلامي عليهم، إذ كانت بيزنطية تفرضها على كل من لم يكن نصرانياً أو لم يكن حراً (كان نظام الأحرار والعبيد سائدة في العالم)، وهكذا فالحياة وطرق الجباة، بقي على ما كان عليه قبل الفتح ولم يتغير غير المستفيدين من هذه الضريبة، وهو أمر لم يكن ليكترث له الأهلون أو ليهتموا له بقليل أو كثير.

أما المؤسسات البلدية والخاصة في المدن فقد بقيت دونما تغيير يذكر وبقيت تعمل كالمعتاد في نظام سارت عليه الإدارة الجديدة.

أما في التجارة، فقد تم إلغاء الاحتكارات الرسمية كما نسخت سيطرة الدولة البيزنطية على الأسواق في مصر، وهي سيطرة كان يقصد منها تأمين أسباب تموين العاصمة القسطنطينية. أما في شمال الشام فقد خفت أن لم تكن قد توقفت تماماً الحركة التجارية لا سيما تصدير الزيت والزيتون إلى مقاطعات آسيا الصغرى (تركيا)، في حين حصل توقف أو انقطاع في حركة التصدير من مصر التي استمرت قائمة على أيدي بعض التجار. كما أن الانتاج بقي على وفرته حتى في حال توقف حركة التصدير، وتحولت إلى أسواق جديدة تتمثل في هذه المدن الواقعة على مشارف الصحراء، جديدة كانت أم قديمة وفي مقدمتها دمشق عاصمة الخلافة الأموية.

وخلاصة القول أن توحد البلاد وتوسع الفتوحات كان لها وقع طيب في الأوساط التجارية مع أن الناس لم يتحسسوا فائدة تلك الوحدة إلا بعد حين، وكان الجمل في الصحراء والخيول هي الواسطة الأكثر انتشاراً في نقل البضائع التجارية.

والمهم أن نلاحظ هنا على ضوء سوء فهم ناتج عن نظرية عرفت بعض الشهرة أنه لم يحصل تغيير كبير في التجارة البحرية لا في بحر الهند الذي سيطر الإيرانيون على التجارة فيه ولا في البحر المتوسط، فالعرب لم يكونوا رجال بحر كما هو عليه الحال بالنسبة للبيزنطيين أو الأوروبيين وخاصة الإنجليز الذين اشتهروا منذ نشأتهم الأولى بسطوتهم على البحار والمحيطات في عصر القراصنة، وكانت واحدة من أسباب توسع آفاقهم و مخيلتهم الفكرية.

8- الحياة الفكرية والثقافية:

لقد تميزت حضارة العرب في القرن الأول للهجرة بالشعر العمودي، كما هو عليه الحال في العصر الجاهلي وبعد أن أخذ ينعم برعاية الأمراء والخلفاء الأمويين بعد أن كان محرماً تقريباً في الفجر الأول للإسلام، فقد تلقى الأدب بموضوعات جديدة لم تكن مطروقة من قبل كمدح الأمراء لاستدرار عطائهم أو كتصوير حياة الأحزاب وغير ذلك من الموضوعات التي تصف لنا حياة الرعية والورع التي أخذ العرب بإسبابها عند دخولهم الإسلام، ومن بين الشعراء الذين برزوا في هذه الحقبة في المدح والهجاء ثلاثة هم أنبغ شعراء عهد بني أمية وهم الأخطل من قبائل الشام النصرانية، والفرزدق وجرير، وهناك شعراء غيرهم ساروا على عمود الشعر العربي فتغنوا في نظمهم، بمآثر الجيوش العربية في فتوحاتها المظفرة، كما نظموا في موضوعات شتى كالحماسة والموعظة والرثاء وفي العقائد وفقاً للأحزاب التي ينتمون إليها. وكذلك في التسيب والتشبيب شعراً يلتهب حباً عذرياً، كما نرى في شعر مجنون ليلى أو يفيض أسى ولوعة فيضيف لنا محاسن دمشق والمدينة ومكة على أنغام المغنيين والمغنيات، وهكذا بالنسبة للنثر وهذا يزيد اللغة طواعية ومرونة ويسلس قيادها مع المفسرين والمحدثين لتصبح في أواخر القرن السابع لغة التدوين والدواوين، كذلك انتشرت حركة الترجمة ونقل

العلوم الدخيلة كعلوم اليونان والفرس والهند إلى العربية، وقد التمع اسم المؤرخ الأرمني سبيوس والكاتب يوحنا نيكيو الذين عاصروا الفتح العربي وتركوا بعض الترجمات الأثرية في القرن السابع.

9- حركة البناء والعمارة:

اقتصرت الحركة المعمارية في ذلك الحين في بناء المساجد والاتساع بها من حيث المقاييس ونقوش الزينة من الداخل وتحليته بطراز مستوحاة من الطراز الوطني المعمول به في البلاد وهذا الاستمرار في الوسائل التقنية والمضي في استلهام الموضوعات والنماذج الأهلية يبرز أكثر في المباني المدنية بحيث أن نسبة قصر المشتى في الأردن تبقى أمراً مشكوكاً فيه ولا يمكن بالتالي التسليم به بصورة مطلقة، ومن أشهر الآثار الهندسية الباقية الى يومنا هذا، مسجد عمرو بن العاص في مصر (الفسطاط) ومسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس، والذي بني في عصر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في أواخر القرن السابع، وبعد ذلك بقليل المسجد الأموي الكبير في دمشق بناه الوليد بن عبد الملك، والذي كان أساساً كنيسة القديس يوحنا المعمدان، ولا يقل شهرة عن هذه المساجد مسجد القيروان الذي لم يبقى منه شيء يذكر، ولم نجد في عصر الخلافة الأموية ولا العباسية مباني أثرية باقية على حالها من قصور الخلفاء والمشاهير وهذه لها أسباب كثيرة فمن وجه نظرنا أولاً: إن الحاجات الإنسانية لهؤلاء لم يرتقي لدرجة تخليد الذات في صنع قصور دائمية ثابتة تبقى للأجيال لكونهم قد تعودوا على الترحال في الصحراء وترسيخ ذلك الترحال في أذهانهم كموروث تاريخي. وثانياً: لانشغالهم المفرط في الحروب والنزاعات الداخلية وتكريس اهتمامهم في السلاح والعدة وفي التحوط من أعمال الغدر والاغتيال، وربما هناك سبب ثالث في عدم وفرة المواد الأولية اللازمة لعمل النقوش والتماثيل الفنية أو قد

تكون عملية نقلها صعبة ومرهقة، هذا بالاضافة إلى أن الدين الإسلامي قد حرم التمادي في مثل هذه الأعمال الدنيوية الصرفة، ولهذا نجد أن أغلب الخلفاء والسلاطين في الدولة الإسلامية وعلى مر العصور يتمادون في البذخ في المأكل والزواج في العديد من النساء والجواري و كل ما تيسر لهم ذلك لعدم وجود نص قرآني يمنع عليهم ذلك ولاشباع حاجة مادية أساسية من أولى الحاجيات التي يفكر بها الإنسان أولاً، ولم تكن لتخطر ببالهم أن يخلدوا تحفاً فنية تستحق الذكر والتخليد للأجيال اللاحقة. وقد استمر هذا السلوك ليس فقط في العصر الأموي بل شمل العباسي وما بعده من خلفاء وسلاطين حكموا البلاد الإسلامية إلى بداية القرن العشرين.

10- بروز التميز العنصري والحركات القوميه داخل المجتمع الاسلامي:

إن المنافع المادية والأدبية والاجتماعية التي طمع بها المؤمنون الجدد في قطفها من اعتناقهم الإسلام، إذ أن اعتناقهم الإسلام ديناً لهم يجعلهم من أبناء الطبقة السائدة المهيمنة في الدولة ومن أعضاء المجتمع المسيطر، وهكذا فإن اعتناق الإسلام بالجملة كان في نظر القوم إشباعاً لِهَمّ طبقي ولشهوة اجتماعية، وتحقيقاً لرغبة أو لحلم طالما راودهم بتحسين وضعهم الاجتماعي. ولم تأتي حركة انتشار الإسلام على نفس المستوى من الإيمان في كل مكان إذ بقي في بعض الأقطار أقليات دينية متراصة العدد، كما هو عليه الحال مثلاً مع الطائفة المارونية في لبنان والطائفة اليهودية في فلسطين، وقد كان المسيحيون على الإجمال أكثر تمسكاً بعقيدتهم ودينهم من الزرادشتية في العراق وايران مثلاً. ويعود السبب في ذلك إلى القوة الأدبية التي كانت تتمتع بها المسيحية لدى بعض المناطق التي نشأت فيها تلك الديانة أصلاً، وتغلغلت بين الطبقات الشعبية في المجتمع القائم، بالاضافة إلى تأثير المحتل البيزنطي الذي اتخذ من المسيحية

منهجاً سياسياً له قبل دخول الاسلام إليهم، ويتضح من جهة أخرى أن العرب خلافاً لما سار عليه الفاتحون من قبل أخذوا يدعون سكان البلاد لاعتناق دينهم بينما اعتاد الفاتحون فيما مضى أن يقبلوا على اقتباس ديانه البلاد التي فتحوها. ومهما بلغ من حدة الجدل الديني وعنف الحرب التي قامت بين الاسلام والديانات الأخرى، فقد كانت هذه وتلك الديانات من نفس المستوى الذهني للمؤمن المتوسط، إذ كان من العسير على المؤمن أن يدرك أو أن يفهم كما يجب أو أن يميز بين رجال اللاهوت، فبعد أن ملّ النصارى وسئمت نفوسهم من المناقشات التي أدت إليها الأديان والمذاهب المختلفة، وهذه الشروح والتفاسير والتعاليل الفلسفية اللاهوتية التي آلت إليها أو شُجرت عنها فقد رأوا في الإسلام تبسيطاً معقولاً لمعتقداتهم غايته الاستمرار والتركيز، وهذا الاسلام الذي أقبلوا عليه واقتنعوا به كأنه لم يكن في نظرهم، ذلك الاسلام الذي خرج بين يدي محمد(ص) من مكة في قلب الجزيرة العربية. فهو دين طرأ على اتباعه تطوراً كبيراً منذ إن أصبح في تماس شديد مع الشعوب والبلدان التي تم إخضاعها، وبعد أن أدخل عليه معتنقوه من الأعاجم ما أدخلوا من رواسب تراثهم الروحي وبعد أن لقحوه بما لقحوا من صور ونماذج وقوالب جديدة. ولكي نفهم من جهة آخرى، حركة اعتناق الاسلام بالجملة علينا أن لا نسقط من حسابنا الفوائد والمنافع المادية والأدبية والاجتماعية التي طمع المؤمنون الجدد في قطفها من اعتناقهم الإسلام إذ أن اتخاذ الاسلام ديناً لهم يجعلهم من أبناء الطبقة السائدة المهيمنة في الدولة، ومن أعضاء المجتمع المسيطر، وهكذا فاعتناق الاسلام قد هوّن عليهم مورد الذل والهوان أكثر مما هو إرضاء لنزعة دينية صرفة، أو لمطلب أسمى من مطالب النفس البشرية السامية. فالمرتدون عن الاسلام لم ينالوا حالاً المساواة مع العرب من الوجهة الاجتماعية التي طمعوا بالحصول عليها. فالإسلام الذي اعتنقوه لم يكن دائماً هو الإسلام المتمثل في الحكومة والإدارة المركزية،

فهو كثيراً ما كان إسلام هذه الملل والنحل الإسلامية المعارضة، وهكذا فلكي تقوّي هذه الملل من جانبها المستضعف وتشد من أزرها أمام الإسلام الدولة أو الإسلام الرسمي، نرى اتباعها يقومون بجهد كبير لدى سكان البلاد الأصليين، لحملهم على اعتناق الاسلام وفقاً لتعاليمهم أو حزبيتهم الخاصة. فالدولة الأموية كرست سيادة العرب وسيطرتهم، ففي نظر الفاتحين، العربي والمسلم شيئان أو وضعان مترادفان. فالاقبال على الاسلام واعتناقه بالجملة من قبل سكان البلاد ميعان هذا الترادف وذهاب بهذا التوافق، إذ في مثل هذة الحركة تغليب عنصرعلى عنصر آخر وترجيح فريق مسلم على فريق مسلم آخر، والدين الجديد لا يقر مثل هذا الأمر أبداً، فالذين اعتنقوا الاسلام من غير العرب الأوائل قد أنزلوا منزلة من القبيلة فجعلت منهم أشبه ما يكونون أبناءه بالتبني، ويسمون "بالموالي" بأخذ زعماء القبيلة لهم تحت رعايتهم وحمايتهم، وقد كان وضع هؤلاء الموالي دون مستوى أبناء القبيلة، وهو وضع تألموا له كلما ازداد عددهم، وكلما تباعدت عن الأذهان ذكريات الفتح، وأخذت الدولة الجديدة في تنظيم أمورها بعد أن أصبحوا ذخر الدولة ويرفدونها بالعنصر الإداري. وقد اقتصر وضعهم في الحرب على دور ثانوي، لا يخولهم أي حق بالغنائم والأسلاب التي يصيبها العرب في فتوحهم، وفوق هذا فلم يكن وضعهم بالنسبة لنظام الضرائب مرحب فيه. فاعتناقهم الاسلام كان يجب ان يؤدي في نظرهم إلى اعفائهم من الجزية المفروضة عليهم قبل اعتناقهم الإسلام كما كان يجب أن تحول ضريبة الخراج المترتبة عليهم إلى عشر فلم يحدث شيء من هذا عملياً، ولم يكن معقولاً لدى الدولة أن تقبل بمثل هذا الرأي وقد أوشكت حروب الفتح على الانتهاء، وإن تقبل بمثل هذا الفيء الذي يدمغ الذميين والخاضعين للاسلام، على أن تستبدل فيما بعد برسوم أخرى تحل محلها، وإن بقي تصنيف الأراضي من الوجهة الضرائبية على ما كان عليه منذ الفتح، فتبقى أرضاً يترتب عليها الخراج. هذه الأراضي

التي يملكها صاحبها حتى بعد اعتناقه الاسلام، وهكذا استمرت هذه الظاهرة قائمه في عدم المساواة ممثلة خير تمثيل بالنظام المالي وجباية الضرائب ذلك النظام الذي سارت عليه الدولة الجديدة.

وأمام هذه الظاهرة من عدم المساواة قام المرتدون على الاسلام يطالبون بإجراء العدل بالسوية وتأميم المساواة بين المسلمين من أي جنس أو عرق كانوا، وليس بين العرب فقط، وهكذا فحركة التذمر التي ارتفعت إذ ذاك لم تتجه ضد سيادة الإسلام وسيطرته ولا ضد الديانة الجديدة فقد استهدفت إلى السيطرة على مركز الإدارة من الداخل وعلى هذا الأساس قامت الحركة في إيران والعراق وفي المغرب الأقصى بين البربر من سكان البلاد الذين راح العرب يحيلون فتيانهم عبيداً وبعد ذلك في إسبانيا بين المولدين، هذه الطبقة التي تألفت ممن اعتنقوا الإسلام من السكان الأصليين. وقد بلغت أشد الحركات هذه في إيران، من خلال شعورهم بأن الأمويين اعتمدوا على أهل الشام وحدهم في تدبير أمور دولتهم الموحدة، بينما رأى سكان الولايات الأخرى أنفسهم يذهبون ضحية لهذا النظام، بالاضافة لذلك فقد كانت إيران من بين هذه الولايات القطر الوحيد الذي كانت له تقاليده الوطنية والقومية المتميزة قبل الاسلام، إذ كانت إيران مركز لامبراطورية الساسانيين الذين حكموا المنطقة لعدة قرون مضت وهكذا تلتقي في مجال نظام الضريبي جنبا لجنب مع القضية القومية والقضية الاجتماعية لتزيد في حجم المشكلة التي تعاظمت في ظل نظام الملكية التي عملت به الدولة الإسلامية. ففي إبان الفتح تركت للعرب الحرية في أن يقتنوا شراءاً أو غلاباً الأراضي التي كان على سكان البلاد مبدئياً أن يحتفظوا بها، إلا أنهم راحوا يوسعون من نطاق هذه الملكية عن طريق التلجاه وهي ضرب من التوحيد أو الارتفاق، يلجأ إليه المستضعفون من الناس ليأمنوا شر الجباة الشرهين، وسوء معاملاتهم أو عجزهم عن تأدية الرسوم المتأخرة عليهم من

السنين المأجلة الدفع، فيطلبون الانضواء تحت حماية زعيم قوي بعد أن يجعلوا أملاكهم في استثماره وتحت تصرفه بصورة وراثية. أما في المقاطعات والولايات الواقعة على الحدود فكثيراً ما عمد العرب في غفلة من الخليفة أو الأمير الى اغتصاب أملاك السكان الذين لا يزالون متخلفين في تطورهم ولم تتاح لهم الفرصة بمعرفة ماذا يجري في مركز الإدارة، وبعد أن يسيموهم الهوان ألواناً كما فعلوا مثلاً مع قبائل البربر في المغرب. أما في إيران فإن كبار الملاكين من سكان البلاد قد عقدوا صلحاً مع القادة من أمراء الجيش انطلاقاً من مبدأ استثمار الطبقات الشعبية السفلى. وهكذا نرى عدم المساواة تفرق بين النزعات الوطنية والنزعات الاجتماعية، وفي هذه المعارك التي لم تلبث أن قامت بين المسلمين نرى فيها كل فريق يضم بين صفوفه عرباً وغير عرب من الأنصار، أما على الصعيد العاطفي فقد وقع الاصطدام بين أشد العرب تمسكاً بالتقاليد وبين أشد سكان البلاد ثورياً، فبينما راح الفريق الأول يطالب بالتطبيق الحر في للشريعه الإسلامية والتمسك بالتقاليد الاسلامية الاولى، ويعني هذا الوقوف ضد الدولة الأموية التي تعتبر في ذلك الحين نصف علمانية، بينما رأى الفريق الثاني في تطبيق الشريعة الاسلامية المساواة بين المسلمين على صعيد الأطر والأملاك ومراكز الإدارة العليا منذ بداية الفتح الاسلامي وبدون أن يوضحوا مطالبهم بدقة. ان الأهداف التي يرمون لها كلا الفريقين هو المطالبه بالأخذ بتعميم النظام الاسلامي وتوسيعه على أمثل ما يرام. وهذا التحالف التلقائي استطاع أن يجمع الناس على استبدال نظام بغيض استطاع أن يطفأ بالدم جميع الانتفاضات التي قامت ضده هناك، وباتحاد واسع وشامل، وهذا الاتحاد على ما حف به من غموض في الأهداف المستقبلية الغير معقولة قد أدى بهم إلى النصر المرتجع وأدى إلى سقوط الدولة الأموية ومطاردة الأمويين أينما وجدوا في أرجاء البلاد ولم ينجو منهم إلا نفر قليل ممن استطاع الهرب الى اسبانيا (بلاد الأندلس) ليشكلوا دولة

أموية سميت "بالدولة الأموية في الاندلس". وسنأتي في الفصل القادم الى كيفية ولادة الدولة العباسية وانتقال مركز الإدارة من دمشق الى بغداد.

وهكذا نجد أن التوسع السريع في الفتوحات الاسلامية أيام الامويين لم يكن منسجماً مع تطور قدرتهم الاداريه المتمثلة بالخليفه لوحده. وقد خلف لهم مشاكل لم يستطيعوا من تجاوزها، وكانت سبباً رئيسياً لتدهور وانهيار الدولة الاموية برمتها. ولم تستطع الخبرة المتواضعه في الادارة القادمه في قلب الجزيرة العربيه في أدارة الاميراطورية الاسلاميه المترامية الاطراف، وبتلك الوسائل من الاتصال والتنقل المتخلف جداً في ذلك العصر.

الفصل الثاني



العصر العباسي الذهبي



الفصل الثاني

العصر العباسي الذهبي

بداية سيطرة بني العباس على السلطة (العصر العباسي الأول):

لقد اتخذت المعارضة للدولة الأموية أشكالاً شتى، واتسعت بشكل لم تستطع تلك الدولة الآيلة للسُّقوط أن تصمد أكثر مما يجب؛ وحتّم عليها الظّرف التاريخي بالانتهاء ومجيء سُلطة ثانية، تتمتع بدرجة أكبر من القُبول والشرعيّة، ومن هذه الأشكال كان الخوارج قد نالوا تأييداً مؤزراً في كل من إيران ومصر، وكذلك في المغرب حيث استفحل أمرهم وعظم شأنهم، بعد أن استجاب الأهلون من البربر لهذه الدعوة لترافقها مع النزاعات الفوضوية الدينية المتأصّلة بينهم، غير أن بعد بلاد البربر من جهة، وانقسام فِرق الخوارج على بعضها من جهة أخرى، إذ كانت طبائعهم طبائع أهل البادية الذين عُرفوا بالعُنف والتهوّر، كل ذلك حال دون أن يحققوا فوزاً فاصلاً.

وقد وجدت الثورة خير تعبير لها في فرقة الشيعة، أو بالأحرى في هذا الشُّعور العارم الذي كان الشيعة خير من يمثّله، ألا وهي صورة سُلطة يتلقى صاحبها الأمر من الله رأساً، مناقب خاصة فكرة تستهوي معاً أصحاب النظرية التقليدية الذين يقدرون ما في رسالة محمد من قيمة سامية، كما تبسّم للإيرانيين الذين ألفوا حُكم السّاسانيين وارتاحوا إليه وكان الشيعة يُطالبون بأن يكون الحُكم في أولاد على بن أبي طالب وذريته، بينما راح غيرهم يتمسك بأسرة النبي دون أن يخُصّوا منها فرعاً معيناً، وأظهروا استعدادهم لمُناصرة أية حركة ذات شأن تخلصهم من حُكم الأمويين.

وهكذا استطاع أحد أولاد العباس عم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بما تم له من دراية وحُسن سياسة أن يقيم له داعية في خراسان (مقاطعة تقع الى الشمال الشرقي من ايران) هو أبو مسلم الخراساني، وأن يوجه هذه المعارضة لمناصرة آل العباس وأن يُسقطوا الخلافة الأموية عام (750) فيؤسسوا دولة جديدة، استطاعت ان تستمر في الحكم، ولو مبدئياً على الأقل إلى القرن الثالث عشر الميلادي[1].

وهكذا لم تأت كل الشدّة والقمع التي استخدمت من قبل بعض الخُلفاء الأمويين بعلاج للمشاكل التي ظهرت بمرور الوقت، ومن بينها اعتناق الإيرانيين للإسلام بالجُملة على أساس أن الحُكم لله وحده، وعلى أساس أنصاف المسلمين ومعاملتهم بالتساوي دون تمييز بين العرب والقوميات الأخرى، وقد عرفت تلك الدعوى "بالشعوبية"، أي لا فرق بين الشعوب والقوميات من حيث الحقوق والواجبات، لكنها لم يُفد شيئاً ولم تجد فتيلاً في تأخير إعلان الثورة، ولا في إنهاء أجل سُقوط الخِلافة الأموية.

وكان العرب ينظرون إلى الموالي على أنهم حُقراء، يفضلون العبيد قليلاً عليهم ويقول "الطبري" المؤرّخ المعروف مُعلّقاً على ثورة المختار ما يلي: "لم يغضب عرب الكوفة من شيء قدر غضبهم من مُطالبة المُختار بسهم من الغنائم للموالي، وقد احتج أهل الكوفة قائلين: لقد أخذتم الموالي منا، بينما أعطاهم الله لنا غنيمة مع هذه الولاية بأسرها، وقد حرّرناهم ابتغاء ثواب الله فلا تتبعوا أنفسكم ثانية، وتسعوا في أن يكون لكم نصيب في غنائمنا"[2].

(1) تاريخ الحضارات العام، ج2، القرون الوسطى، أدوار بروّي، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية، 1986، ص125.

(2) المصدر السابق، ص16.

وهكذا استفاد العباسيون في دعوتهم من العوامل العديدة التي نجم عنها رضا الناس وسُرورهم، من تقويضهم صرح قدره بني أمية وقلبهم قصر أسرتهم -خلال ثلاثين عاماً- رأساً على عقب.

وكان دُعاة هذه الدعوى يتميّزون بالكفاءة والفدائية، ويبعدون عن الثورات الطائشة التي لا ثمر لها، ولكي ينجحوا في مسعاهم عمدوا إلى التضحيات، واستفادوا بصورة خاصة من مشاعر الخراسانيين وسخطهم من الأمويين، وقد أخذوا يدعون الناس إلى اتباع الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم (والد أبو العباس)، واستغرق ذلك عامين من جانبهم، فلمّا عادوا إلى سوريا وألتقوا بالإمام أخبروه بأنهم غرسوا غصناً في خراسان، وأنهم يأملون أن يثمر الغرس في موسمه.

وقد ولّى الإمام محمد ولده الذي أسماه أبو العباس وقال لهم هذا مولاكم، وقد استغل الدّعاة فرصة تعرض الإيرانيين للمهانة والظُّلم فاستظهروا بهم وأستفادوا من عقليتهم ودراستهم التي تأصلت فيهم من خلال ماضيهم[1].

وهكذا أستمرت دعوة العباسيين في صمت وجدّية، وكانت الدولة تقتل دعاتهم في بعض الأحيان، وفي حدود عام (743م) مات محمد بن علي العباسي بعد أن أجلس إبنه إبراهيم مكانه وأختار من بعده ولديه الآخرين أبا العباس وأبا جعفر (المنصور) وفي حدود عام (747- 748) م قُتِلَ الإبن الأول (ابراهيم) وبقي الإثنان الآخران ليستفيدوا من ثمرات الكفاح المرير الطّويل، والمتاعب الكثيرة التي قاساها الدعاة العباسيون ويؤسّسا الخلافة العباسية.

---

(1) أدور براون "تاريخ الأدب في إيران"، ج1، الباب الثاني، ص351، ترجمة أحمد كمال الدين، المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة.

وفي نفس الفترة برز إلى الميدان رجل غير عادي يدعى أبو مسلم (الخراساني)، وقد ساهم أكثر من غيره في إنقراض بني أمية وإنتصار العباسيين، ثم راح في النهاية ضحية حسد الذين يدينون لهمّته ويطوق أعناقهم جميل شهامته[1]. لقد كان أبو مسلم أول من رفع علم العباسيين الأسود في تموز عام (747م) في قرية سيندنج قرب مرو[2]. وكانت الآية الكريمة التالية مكتوبة على العلم وهي في الواقع شِعار له معناه ومغزاه: (أذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وأن الله على نصرهم لقدير)[3].

ورغم هذا فإن حركة أبي مسلم لم تتجاوز حدود الشّمال الشرقي لخراسان والأطراف. يقول فن فولتن" كان أبو مسلم شخص عَبوّساً عنيداً قاسياً لا يهتم باللّذائذ الدنيوية، وكان حُب أصحاب العباءات السوداء له، وإقبالهم عليه يفوق كل حد، حتى أنهم يضعون رِقابهم تحت أمرته، وكانوا لا يقبلون فِدية أسير، ويقتلون عدواً دون أمر رؤسائهم،أما العرب القادمين من قلب الجزيرة العربية الذين أعتادوا على الترحال والاقتتال من أجل الحصول على الغنائم، فلم تتاح لهم الفرصة في تبلور الإيمان بحب الوطن، والشّعور بالإنتماء اتجاه دولتهم التي كانت أساساً قائمة على الظلم والجور والطمع(عدا فترة حكم عمر بن عبد العزيز الخليفه العادل).

وهكذا استمر هذا الأمر موروثاً تاريخياً لا نزال نعاني منه إلى يومنا هذا، وكثيراً ما تتغلب الأنانية وحبّ الذّات فوق كل شيء، من خلال الطبيعة البشرية في الصحراء. إنَّ تنامي الشّعور بحبّ الوطن والمواطنة، والتّفاني من أجل الوطن، يحتاج للعديد من العوامل: أولها القناعة بأن رأس الدولة أو الحاكم يحصل على

(1)براون المصدر السابق، ص354.
(2) فن فلوتن، المصدر السابق، ص63- 65.
(3) سورة الحج : الآية (39).

درجة عالية من الرِّضى، وأنه واحداً منهم، ويعمل لأجلهم، وكان هذا من النّادر أن يحصل ولم يصلوا بعد هذه المرحلة من التطوّر .

عودة إلى الثورة العباسية، فقد عُهد "أبي العباس" عبد الله السفاح (الملقب بالمهدي) أول خليفة عباسي بدأ حكمه في 30 أكتوبر عام (749م)، وألقى في اليوم المذكور الخطبة التي تُلقى في هذه المُناسبة، وكان النصر والفتح والتقدم نصيب أبي مسلم، وحليف سائر الأئمة العباسيين بصفة دائمة (وكان هو نفسه من أطلق على نفسه لقب السّفاح في تلك الخطبة)، وهزم مروان بن عبد الله الملقب بالحمار هزيمة مُنكرة في 25 يناير عام 750م، وبعد ثلاثة شهور سقطت دمشق عاصمة بني أمية على يد أعدائهم، ووقع مروان في الأسر ثم هرب، وكان متوارياً في مصر، وتمّ قتله في الخامس من أغسطس من نفس العام وأرسل رأسه إلى أبي العباس.

وفي العام التالي تعرّض أفراد الأسره الأموية للقتل العام، في كل مكان وجُدوا فيه، وقد تمكّن شخص يدعى عبد الرحمن حفيد هشام بن عبد الملك من الوصول إلى إسبانيا آخر الأمر، وقد رحّب العرب بقدومة، وأقام في هذه البلاد وأسس الدولة الأموية القرطبية التي استمرت ثمان قرون، وكانت تذم العباسيين بسبب أحتقارهم خلفاء بني أمية في دمشق ونبش قبورهم[1] وكان يلقب بعبد الرحمن الداخل أو(صقر قريش).

وهكذا نجحت ثورة بني العباس بعد تهيئة وتحضير دام ثلاثين عام، تمت خلالها تهيئة الأذهان لقبول الوضع الجديد، وتهيئة جيش كبير قادر على حماية الدولة وكل ما يتطلب من مُستلزمات النَّجاح لها، رغم أن عملية التغيير، لم تكن في حياة الناس من شيء ملحوظ إلا بأمور بسيطة جداً، وعلى العكس من

(1) موير، المصدر السابق، ص435- 436.

الثورات السابقة ابتداءاً من ثورة الحسين وحفيدة زيد بن علي وعبد الله بن الزبير وغيرهم، فلم يحصل لها أن هيّأت ما ينبغي كي تُكلّل بالنّجاح، وهذه حالة كل مُحاولة للتغيير عبر التاريخ.

لقد جاءت دولة بني العباس بعد أن آلت الدولة الأموية إلى الأفول ولم تعد قادرة على البقاء أكثر من ذلك. يقول "الفخري" وهو كتاب التاريخ السحري[1]: "وأعلم أن الدولة العبّاسية كانت دولة خِداع ودهاء، وغدر، وكان قسم التحيّل والمُخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة خُصوصاً في أواخرها. فإن المتأخّرين منهم بطلوا قوة الشدة والنّجدة وركنوا إلى التحيّل والخِداع، إلا إنها كانت دولة كثيرة المحاسن، جمة المكارم وأسواق العلوم فيها قائمة، وبضائع الآداب نافقة، وشعائر الدين فيها معظّمة، والخيرات فيها دائرة، والدنيا عامرة، والحُرمات مرعيّة، والثُّغور محصّنة، وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها، فانتشر الجبر واضطرب الأمر، وانتقلت الدولة". إن جُلّ ما يميّز هذه الفترة هو نُهاية عهد الفتوحات الإسلامية وحصول الاستقرار النِّسبي الذي أدى الى إزدهار العلوم والمعرفه".

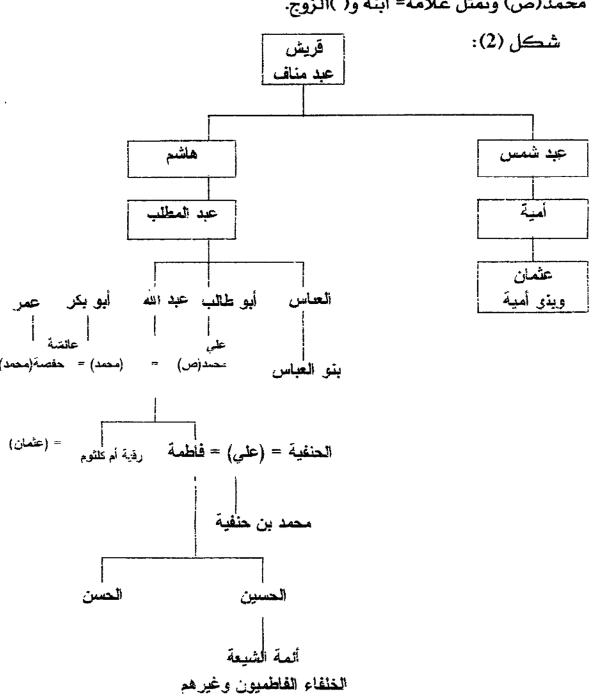
لقد غطت المؤلفات العديدة شروحاً وافية عن سير الخلفاء، واستفاضة المكتبات بالدِّراسات والبحوث فيما يخص الدولة العباسية. ولكي نُسهّل على القرّاء عناء البحث في ذلك نورد هنا جدولاً بأسماء الخُلفاء العباسيين الذين حكموا في أوائل هذا العصر، نقلاً عن كتاب ستانلي لين بول "تاريخ الخُلفاء والسّلاطين والملوك والأمراء)[2] ابتداءاً من عبد مناف (قريش وإلى الخلفاء العباسيين الأوائل):

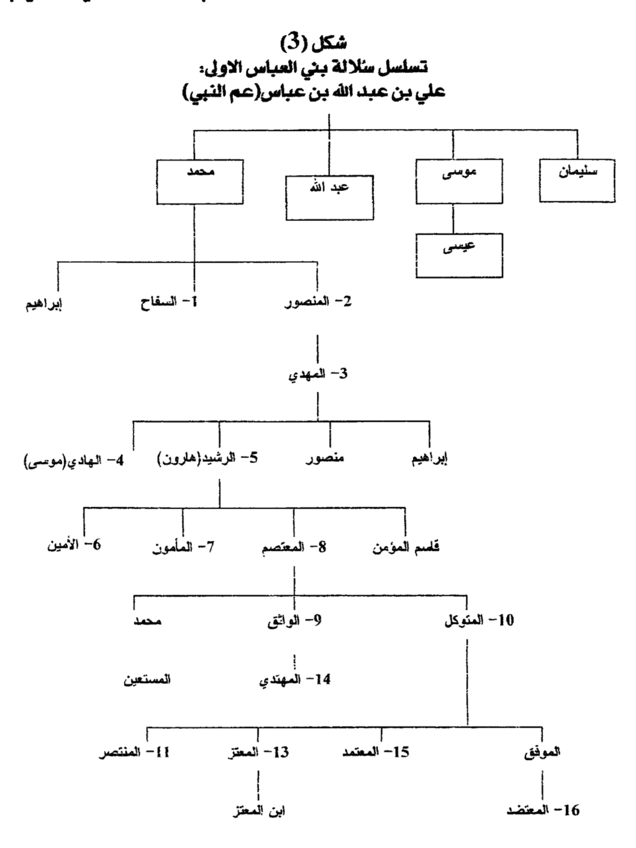
(1) محمد بن علي طباطبا أو ابن الطقطقي "الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية" مراجعة محمد عوض ابراهيم، طبع وزارة المعارف – مصر، (1938)، ص137- 138.

(2) ستانلي لين بول "تاريخ الملوك والسلاطين والأمراء"، ترجمة مكي طاهر، عباس إقبال، الدار العربية للموسوعات، بيروت، (2006).

هـذا الـشـكل يـشير الى العلاقـه العائليـة لـبني العبـاس وعلاقتهـا بالرسـول محمد(ص) وتمثل علامة= ابنه و( )الزوج.

شكل (2):




شكل (3)
تسلسل سلالة بني العباس الاولى:
علي بن عبد الله بن عباس(عم النبي)
محمد
عبد الله
موسى
سليمان
عيسى
إبراهيم
1- السفاح
2- المنصور
3- المهدي
4- الهادي(موسى)
5- الرشيد(هارون)
منصور
إبراهيم
6- الأمين
7- المأمون
8- المعتصم
قاسم المؤمن
محمد
9- الواثق
10- المتوكل
المستعين
14- المهتدي
11- المنتصر
13- المعتز
15- المعتمد
الموفق
ابن المعتز
16- المعتضد

لقد كان هدف العباسيين المعلن في بداية دعوتهم، التمسك بأهداف الدين محل ما يسمونه "الإلحاد" الأموي، فالنّظام القائم هو نظام إسلامي لأن صاحب الأمر فيه هو من سلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فأتاح له ذلك أن يتمتع بوصفه الإمام بكل ما لهذا المركز من المهابة والجلال والوقار، دون أن تكون له القوّة بالفعل، ليغيّر شيئاً من الشريعة أو أن يعدّل فيها أو يكمّلها بما يتلائم ومتطلبات العصر وتوسّع رقعة البلاد، وهذه الصفة الفائقة للبشر تجعلها أن تعيش في بذخ كما كان عليه بلاط الخليفة وعزلته عن الناس، بحيث لا يتيسر لهم رؤيتة إلا في المناسبات الخاصة.

لقد اعتمدت الإدارة العباسية المناهج الإدارية التي عوّل عليها البيزنطيون والساسانيون من قبل، وهي إدارة تألّفت أصلاً من عدد من الدّواوين المتلاصقة - ومن كلمة ديوان هذه اشتقت كلمتان فرنسيّتان هما (Douane و Pivan) - ، يشرف عليها موظّفون إداريون كبار أشبه ما يكونون بـ (Sekreta) لدى البيزنطيين، دون أن يتألف من مجموع رؤساء هذه الدواوين مجلس الوزراء[1].

وكان الوزير يتعهّد بتأمين العمل الإداري، مستعيناً بذلك على عدد من العمال يأتي بهم من بين أنصاره ورجاله، لذا كان يخشى من نفوذ سلطانه، وهذا ما حدث بالفعل للبرامكة[2]، هذه الأسرة الفارسية التي أثارت بما بلغته من غِنى

(1) تاريخ الحضارات العام، "بروي"، المصدر السابق، ص127.

(2) البرامكة: من آل برمك، الذي عهد لهم تصريف شؤون الدولة كلها تقريباً في عهد الرشيد والمنحدرين من أسرة كهنوت متقدمة في نوبهار، إحدى الصوامع البوذية في بلخ، وقد أدعت الرواية الفارسية في ما بعد بدوافع من النعرة القومية، إن هذه الأسرة كانت من الكهنة الفرس، فقد استوزر أبو العباس السفاح خالد بن برمك أو عينه كاتباً أول حتى إذا كانت خلافة المنصور، احتفظ خالد بالأشراف على الشؤون المالية، ولمع إسمه بشكل خاص في بناء بغداد، وشغل مناصب عديدة واستحوذ على ثروة ضخمة، وتسلم إبنه يحي ولاية أذربيجان، وقد استُدعي هذا إلى بغداد في عهد خلافة المهدي، وعينه هارون الرشيد رئيساً لأمناء سرة.
أنظر كارل بروكلمان، (المصدر السابق نفسه). ص186

سُؤدد وسُلطان، هواجس الخليفة هارون الرشيد فنكبها شرّ نكبة، ونكّل برجالها وقضى عليها آخر أيامه، ومن أهم الدّوائر التي يهم الوزير انتظام العمل فيها، هي دائرة جباية الرسوم والبريد، وديوان الرسائل، وكان البريد يؤمن، أحياناً نقل بعض الأمتعة الخاصة، إنما الغاية الكبرى منه، تأمين تبليغ العمال في الولايات، الأوامر والتعليمات الصادرة من الحكومة، كما يحمل إلى الإدارة المركزية مطالب الأهلين في الملحقات ومظالمهم.

فالبريد كان يلعب في هذا المجال دور الأمن العام في حكومات هذا العصرويقوم بأعمال البريد سُعاة يستخدمون الخيل لقطع الطرقات، من خلال قطع أبعاد مُتساوية كمحطات خاصة لتأمين حاجة المسافرين، وتسهيل متابعة سفر البريد بالسرعة المرجوّة.

أما الدواوين القائمة بمعيّة الوزير، فكانت تقوم بإعداد الأمر وتعيين الموظّفين والكتبة والعمال وتأمين المُراسلات الديبلوماسية، بعد أن يمهرها الوزير بخاتم السلطان.

وهذه الإدارة التي عوّلت أكثر على الدّواوين، كانت تكثر من القراطيس والوثائق والمحفوظات، كما تكثر من السجلات الرسمية، وهي إدارة مركزية قامت دوائرها الكبرى في العاصمة بغداد، وكانت هذه الدواوين تجمع في مكاتب الإدارة العامة ما تحتاج إليه من معلومات، كما كانت تُشرف على إصدار الأوامر والتبليغات، وتؤمن استلام رسوم الجباية بعد حسم تكاليف الإدارة المحلية، وكانت إدارة الملحقات تمتاز هي أيضاً بالدّقة كالإدارة المركزية، وكان يقوم في الولاية قائد يمثّل الخليفة، كما أن الوزير كان يتمثّل فيها بحاكم مدني أو عامل، إليه أمر الولاية وضبط الإدارة، يستقل الواحد عن الآخر، يشرف الأول على الجيش كما يؤمن الثاني الولاء للخليفة والموارد المالية التي تحتاج إليها الإدارة، أما العدل الذي كان أمره أبداً على هامش الإدارة

والحكم فقد بقي من اختصاص القاضي غير أن عدم كفاءة القانون أحياناً وعدم وجود الموجبات القانونية للمراجعة أو الاعتراض وعجز القاضي عن تنفيذ الأحكام التي كان يصدرها على الزعماء النافذين، كل هذا اضطر الدولة لإيجاد دائرة خاصة يشرف عليها قاضٍ؛ هي "ديوان المظالم" الذي كان ينظر في أمور التجاوزات على حقوق الآخرين.

لم يكن استقلال القضاء عن السلطة المركزية قد وصل إلى مدارك المسؤولين بعد، واستمر الحال على ما هو عليه إلى يومنا هذا، حيث ورثنا حِملاً ثقيلاً من تدخل السلطة في القضاء، ومُحابات القضاء للمسؤولين الكبار، وإعطاء هؤلاء المسؤولين حصانة خاصة يفعل كل ما يشأ من مُخلفات قانونية دون رادع.

أما الفقهاء فكانوا يعملون بالتعاون مع القُضاة في كل ما يُساعد على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، وهكذا أستمر أطلال قضاء الدولة الى جانب قضاء شرعي يمثلة القاضي. بينما كانت دوائر الشرطة تسهر على تأمين الأمن وراحة العِباد، مستعينة في تحقيق ذلك على فِرقة من "الأحداث" أو الفتوّة وتدعى باللهجة العراقية "الشقاوات" يتم أختيارهم من قبل رئيس الشرطة للتجوال ومُراقبة أحوال الناس داخل الأزقة والمدن الكبرى.

لقد أختلفت الإدارة العباسية عن روح الإدارة في دمشق في العصر الأموي، فلم يعد في ميسور عامة الناس أن يقربوا من الخليفة كما كانوا يفعلون زمن عبد الملك مثلاً.

فخليفة بغداد لم يكن بأي حال شيخ من شيوخ القبائل العربية، لكنه كان متأثّراً بسلوك ملوك الفُرس الكِبار الذين عاشوا في المدائن القريبة من بغداد، لحقبة طويلة من الزمن تركوا فيها طبائع وعادات، لابد وأن تبقى لها أثر في النُفوس والعادات.

وفي السنوات التوالي، نشأ أسلوب التشريفات الذي كان يتّبعه الساسانيون في طريقة مُحاكاة الملوك، فلم يعد التقدم في البلاط والمكانة في الحكومة إمتيازاً وراثياً مقصوراً على الإشراف، بل أصبح الخليفة يقدم من يشأ ويؤخر من يشأ.

وأنتهت الخلعة التي أشتقت منها كلمة (gala) بالفرنسية[1]، ولم تكن معروفة في زمن الأمويين الذين كانوا يكتفون في أغلب الأحيان بحاجب يُنيطون به أمر إدخال النّاس عليهم، نجد أن عدد الحُجّاب والخدم في البلاط العباسي يزداد بإطراد، ولا عمل لهم الا الحؤول بين الخليفة وأفراد الشعب، وإقامة العقبات بينه وبينهم.

وهكذا يمكن اعتبار أن الخُلفاء العباسين قد نفضوا أيديهم تقريباً من تصريف شؤون الدولة مُلقين عبء ذلك على عاتق الوزراء إلا في العقوبات التي تتصل بالموت والحياة، فقد كان الجلاد، (وهو ظاهرة لم تعرفها الحضارة العربية من قبل) يلازم الخليفة دائماً، وكان النطع حاضراً أبداً قرب العرش لاستقبال الرؤوس المقطوعة من المغضوب عليهم.

كذلك هناك فارق آخر بين الخلافة العباسية والخلافة الأموية، في تقريبهم إلى البلاط علماء الفقه والحديث، وبالتالي تحقيق المثل الأعلى للسُّلطة الثيوقراطية، خاصة بعد أن تولى آل البيت من مؤسّسي أقدم المذاهب، والأمر الذي لا شك فيه أن إثنين من مؤسّسي أقدم المذاهب الفقهية الباقية إلى اليوم، كانا يعطفان على العلويين، فأما أبو حنيفة مؤسس المذهب الحنفي، فكان

(1) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية"، المصدر السابق، ص179.

جدة عبداً أسيراً أثناء فتح كابل(عاصمة أفغانستان) ثم أعتقه سيده، وكان من بني تيّم الله[1].

فقد عاش أبو حنيفة بوصفه مولى تيّم الله مُستغنياً عن الناس، عن طريق التجارة بالحرير في الكوفة. ولقد كان من مؤيدي زيد بن علي بن الحسين، وتوفي عام (767) في سجن بغداد، ودفن في الجانب الشرقي من دجلة (الأعظمية)، وكان يعقد حلقة للتدريس في الكوفة، ويفتي في المسائل الشّرعية، وهو في فتاواة يلزم السُّنة (الحديث) لزوماً شديداً، ولا يُفسح المجال أمام الاجتهاد بأكثر مما فعل أي من أصحاب المذاهب الأخرى، كما وفق أبو يوسف بوصفه قاضياً للقضاة في الإسلام، إلى أن يظفر بإقرار رسمي لمذهب أبو حنيفة، كذلك وضع كتاباً أساسياً لهارون الرَّشيد في الخراج، وقد أصبح هذا الكتاب بمثابة الدّستور الدائم للدولة، وسيأتي في فقرة لاحقة شرح لنشوء المذاهب في العصر العباسي.

إن ما يمتاز به العصر العباسي بصفة عامة بالمقارنة مع العصر الأموي كما يقول وليم موير[2]: "إن أبرز الاختلاف بين هذا العصر وسابقة يقع بثلاثة نقاط:

أولها: إن نُفوذ الخلافة لم يعد مواكباً لنفوذ الإسلام (فإسبانيا لم تقبل حُكم بني العباس مُطلقاً وكان ولاء أفريقيا للخلافة مزعزعاً).

ثانياً: إن حماسة العرب الحربية قد فتُرت، وحرارتهم المذهبية قد خَمدَت، وباتوا لا يلعبون الدور الأول في تاريخ الإسلام كما كان شأنهم في السابق.

(1) أدورد براون" تاريخ الأدب في إيران، / ج1، الباب الثالث، ترجمة أحمد كمال الديسي، ص90.

(2) أدورد براون، المصدر السابق، ص47.

وثالثاً: إن نُفوذ الإيرانيين في جهاز الدولة – (ومن بعدهم الأتراك منذ عصر المتوكل)- قد بلغ أوج الكمال، وكان مقر هذا النفوذ قد انتقل من سوريا إلى العراق"[1].

ويقول موير "وكما تزايد نفوذ الإيرانيين، تناقصت خشونة حياة العرب، وبدأ عصر الثّقافة والانطلاق والبحث والفحص العلمي وأثبتت الروايات الشّفهية، واحتلت جانباً من الروايات التاريخية ـ وساد الميل إلى التّحقيق والتّقصّي- من خلال الاحتكاك بالشّرق ـ في الإسراع بوجوب هذا التّغيير، وربما كان الوّهن المتزايد في البناء الأخلاقي، والسُّلوك البغيض المُتفشّي في البلاط، والعقائد والأفكار المتعالية التي اعتبرت الإمامة جماعة الأمر الإلهي، وفوق عقول البشر، والتقدم السريع في مِضمار حريّة التفكير، وإعطاء العقل البشري حرية أكبر في التفكير بعيداً عن القيود الدينية، ربما كان كل ذلك نابعاً عن نفس المصدر)[2].

ومن خصائص القرن الأول من العصر العباسي، رواج العِلم وإتقان صياغة الملحمة والطرفة في بلاط الخلافة، وسيطرة أصول عقائد المعتزلة سيطرة كاملة، وهم ذوو الأفق الواسع والنظرة التحررية كما أشرانا لذلك في الفصل الاول.

ولكن في الجانب الآخر فأن العباسيين بعد عبورهم بحار الدم، ووصولهم إلى الخلافة بعد أن صاروا أصحاب النفوذ في أمبراطورية الإسلام الشرقية بلا مُنازع، لم يتمكنوا من بسط العدل في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وكانوا أبعد ما يكونون من تحقيق ذلك. وهكذا استولى اليأس التام على الكثيرين ممن عملوا

(1) Sir William Muires: "Life Of Mohamed and History Of Islam", (4Vols), London (1858).
(2) 3d Edition (1895), (P-432-430).

بجدية من أجل الثورة، وبعد أن قامت الثورة[1]، سيطر اليأس على الشيعة خاصة، لأن العباسين كانوا يصدرون دعايتهم باسم بني هاشم، وأغفلوا الشيعة الداعين لأسرة علي، وقد عرف الشيعة الحقيقة بعد فوات الأوان، وتنبهوا إلى أن لذرية الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بين بني أعمامهم الهاشميين أعداء يفوقون في عداوتهم بني أمية الذين لا تربطهم بهم صلة رحم قريبه، ولم يعف العباسيون حتى عن زعماء عُمالهم الذين كانوا قد اختاروهم ليكونوا اليد المحركة، والمُنفّذة لمخططاتهم قبل تحقيق نصرهم الكامل.

فقد قتلوا أبا سلمة غدراً عام (749- 750م)، ولقى أبو مسلم نفس المصير بعد أربعة أو خمسة سنوات (755م) مع أن النُّصر الذي ناله العباسيون كان يرجع في معظمه إلى هِمّة هذا الرجل ونبوغه ونشاطه وجديّته[2].

وحقيقة الأمر إن كفاءة أبي مسلم قد سبّبت في الجانب الآخر في قتل مائة ألف شخص غير من هلكوا في الحرب، كما قال الآخرون قتلوا (600) ألف شخص بدورهم[3]، لكنه مع ذلك قد ولد عند أتباعه شعور الفدائية على نحو قلّ نظيره

وإن لم يكن قد نجم عن الثورة التي أوصلت العباسيين إلى سدّة الحكم أي أثر، فهي على الأقل غيّرت وضع الإيرانيين تماماً، ونعني بذلك أن القوم الذين كانوا تابعين يؤدون الخراج ويتعرضون للعن والإهانات، قد ارتفعوا عقب هذه الثورة وشغلوا أكبر القيادات نُفوذاً بفضل قوة السيف، وما لهم من إرث ثقافي عبر تاريخهم القديم في الأمور المذهبية والفكرية، ولما آلت الخلافة الى الخليفة العاشر (المتوكّل)، زاد نفوذ الأتراك وحلّ محل نفوذ الإيرانيين (وكان الأتراك

(1) كتاب فن فولتن: المصدر السابق (ص99).
(2) أدورد براون "تاريخ الأدب في إيران"، المصدر السابق، ص361.
(3) موير، هامش ص446، المصدر السابق نفسه.

يتصرّفون دائماً تصرفات همجيّة تبدو في أكثر من صورة ولا تتفق مع الأفكار الحرُّة والأراء المستنيرة)، وقد اندثرت أصول العقائد التي قبلها عامة الناس في ذلك الزمان، ومنيت الدراسات الفلسفية بخسارة فادحة، وبرزت مشاعر عدائية على مسرح الوجود ضد التشيّع، واستمرت فترة من الزمن، ونتيجة لهذه الأوضاع انفردت الخلافة في بداية العصر العباسي بميزة خاصة سواء من جهة السيطرة العنصرية أو من جهة الميول المذهبية المتعصبه.

وقد بلغت هذه الخلافة أوج عظمتها إبّان خلافة المأمون الزاهرة، نقد تميّز هذا الخليفة عن غيره من الخلفاء العباسيين بحبه وعشقه للعلم والعلماء وتشجيعه لهم من خلال تمسكه بأفكار المعتزلة.

ومن بين التطورات الحاصلة في الإدارة هو تأسيس الوزارة، فلم يعد الخليفة العباسي منفرداً لوحده في إدارة شؤون الامبراطورية بأسرها، فإن منصب الوزير وهو أحد مناصب جهاز الخلافة، ولفظ وزير مُشتق من الكلمة العربية "وِزْر" بمعنى الكل والعبء، لأن حمل عبء مسؤولية إدارة شؤون المملكة الثقيل يُلقى على عاتق الوزير.

وقد جاء في كتاب ابن الطقطقي (الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية)[1] "إن الوزير هو الرّابط والوسيط بين الملك ورعاياه، ولذا ينبغي أن تتفق طِباعة مع طِباع المُلوك من جهة وطباع العامة من جهة أخرى ليحسن التصرُّف مع الجانبين بصورة يقبلها هذا وذاك..".

ويقول اللّغويون أن لفظ (وَزَرَ) معناها الملجأ والملاذ، وإن وِزْر بمعنى الحِمل، وهذا يعني أن كلمة وزير إما أن تكون مُشتقة من وِزّر (بكسر الواو) فيكون الوزير عندئذ الشخص الذي يتحمّل العبء الثّقيل أو أن تكون مُشتقة من وَزَر

(1)ابن الطقطقي "الفخري"، (المصدر السابق)

(بفتح الواو والزاي وسكون الراء)، فيكون الوزير عندئذ من يلجأ الملك إلى رأيه وفكرة وتدبيره.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا التطوّر في إدارة شؤون المملكة، يُعتبر طفرة تطوُّرية كبيرة بالمُقارنة مع ما كان عليه الحال في العصر الأموي، عندما كان الأمر والنهي يعود لشخص الخليفة فقط، دون استشارة أحد فيما يخص البلاد التي تزيد مساحتها عن 20 مليون كيلومتر مربع. إن تعيين وزير للخليفة في العهد العباسي قد أتاح للخليفة التأنّي والتبصّر في اتخاذ القرارات بأقل تقدير، ولكن لا تزال الكلمة الأولى والأخيرة بخصوص الأمور المصيرية يكون مرجعها الخليفة نفسه، ولا يمكننا أن نتخيّل في استمرار التطوّر في تلك المرحلة التاريخية لتشمل مجلس شورى أو انتخابات أو أي شكل من أشكال المسحة الديمقراطية، كونها لا تزال تلك الأفكار بعيدة عن نمط التفكير القبلي المُثقل بأفكار العبودية والتسلّط.

ولكن هناك جانب سلبي في تعيين الوزير، هو انحراف مسار الدولة باتجاه تحيّز ذلك الوزير إلى أبناء قومه سواء أكان إيرانياً، في أوائل أيام الدولة العباسية أو تركياً منذ أن استلم المتوكل السلطة وما بعدها، وسنأتي لشرح ذلك بتفصيل أكثر في فقرة لاحقة.

(1) بروز المعارضة واستخدام العنف في العصر العباسي الأول:

خلف أبو العباس أخوه أبو جعفر المنصور ليكون هو المؤسس الحقيقي لسلطان بني العباس، وكان عليه أن يمكّن لنفسه بالقضاء على حركة عمه عبدالله بن علي الذي هبَّ يطالب بالخلافة، وكان يقيم في شمالي سوريا مع الجيش الموجه لقتال البيزنطيين، ولكن أبو مسلم الخراساني ما لبث أن هزمه، وكان أبو مسلم قد أظهر للمنصور كثيراً من الاستقلال والتفرد بالأمور، فكان

همْ المنصور الأول أن يبعد أبا مسلم عن خراسان، وهي معقله ومستقر قوته وسلطانه، ولكنه رفض في تولي إمارة مصر، وقد سمح لنفسه بأن يستدرج إلى العراق حيث قُتل على عيني الخليفة قرب العاصمة القديمة "المدائن"، ولقد وجد من يثأر له في شخص "سنباذ الفارَسي" الذي رفع راية العصيان في خراسان وتوغّل حتى بلاد الجبال، وهناك بين همدان والرّي، هزمته جيوش الخليفة وقضت عليه[1]، والأمر الثاني هو إخضاع العلويين من الشيعة، فقد ثار العلويين عام (762) بقيادة محمد "ذو النّفس الزكية" وهو أحد أحفاد الحسن بن علي من جهة أبيه، والحسين من جهة أمه، وكان ذلك في المدينة، المركز الرئيسي للبيت العلوي، والذي بدأ بأن عامل المنصور هناك قد سجن عدداً كبيراً من العلويين، وأطلق الثائرون سراح المعتقلين من ذوي قرباهم، لكن المنصور وجه الجيش الخراساني إلى المدينة للقضاء على الحركة وقاوم محمد مقاومة باسلة قُتل على إثرها، وصودرت ممتلكات أسرته، وانتهت الحركة.

أما ثورة العلويين بقيادة إبراهيم أخو محمد في البصرة فكانت أعظم خطَراً، وقد وفق في احتلال البصرة، واستطاع بما استخلصه فيها من أموال أن يكسب ولاء فارس والسوس، لكنه رفض أن يسير إلى الكوفة، حيث كان المنصور مُرابطاً بجيش هزيل، فما كان من قائد جند المنصور عيسى بن موسى الذي استطاع أن يخمد الثورة في المدينة قبل ذلك، إلا أن تقدّم إلى السوس في الحال فبسط سلطانه على البلاد، ولكن بعد قتال عنيف.

وأخيراً عزم إبراهيم على مُهاجمة الكوفة، ولكنه قُتل في معركة نشبت بينه وبين جنود عيسى في باخمري، جنوبي الكوفة عام (763).

(1) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية"، المصدر السابق، ص175.

(1- 2) الثّورات التي قامت ضد نظام الحكم العباسي الاول:-

كان بني العباس يستهدفون بين الحين والآخر الخطر الذي يأتيهم من الثورات المذهبية المُضطرمة في خراسان الواقعة في أقصى الطرف الشرقي من الامبراطورية الإسلامية، حيث احتك الإسلام بالعقائد البوذية والآراء السامانية التي انتشرت قبل الإسلام في أواسط آسيا، بحكم اتصالها المُباشر بالهند "الموطن الرئيسي للديانة البوذية"، بالاضافة للديانات الإيرانية القديمة التي ذكرناها سابقاً.

وكان ذلك كلّه مؤثراً في عقول الناس لرفضهم السيطرة العباسية بالشكل الذي كان عليه الحال من قهر وتسلط، وعدم تلمّسهم روح التّسامح التي جاء بها الإسلام، ومما لا شك فيه أن المنصور بعد تخلّصه من أبي مسلم عام (755)، قد أمر بالفتك ببعض المتعصّبين ضدّه من أهل خراسان، حيث ظهر لهم رجل فارسي من مرو سنة (778) واسمه حكيم وادّعى أنه التجسد الجديد للذات الإلهية، بعد موت مولاه وإذ كان يبرز دائماً للجماهير وعلى وجهه نقاب موشّى بالذّهب يزعمون أن الغرض منه أن يحجب كنقاب موسى (عليه السلام)، بهاء الذات الإلهية عن العيون الدّنسة غير الجديرة بالنّظر إليه، ولهذا السبب عُرف في التاريخ بلقب "المقنّع"، وفي قلعة سنام قرب كش في ما وراء النهر، استطاع هذا الثّائر أن يخضع الإقليم كلّه، في حين كانت ثورة أخرى من ثورات الخوارج تندلع نيرانها في خراسان.

والواقع أن الخليفة قد سير إليه جيوشاً عديدة فتغلّب عليهم، وأخيراً وفّق جند الخليفة إلى حصاره في قلعته فما كان منه إلا أن أضرم فيها النار، فالتهمته وزوجاته وأتباعه عام (780)، وكانت العقائد التي بشّر بها مزدك في العهد

الساساني، قد بعثت من جديد قبل عام واحد في مقاطعة جرجان، لتتفجر من جديد في شكل ثورة خطيرة على عهد هارون الرشيد.

أما في شمال أفريقيا فقد شبّت ثورة جديدة من ثورات البربر، ذلك بأن هؤلاء القوم على الرغم من دخولهم الإسلام، ثبتوا في وجه جميع المحاولات الاموية إلى تعريبهم، واحتفظوا بحس قومي لا يزال حياً إلى الوقت الحاضر، نجده أكثر بروزاً في الجزائر، حيث يُطالبون حُكماً ذاتياً بين الحين والآخر، وقد وجد الخوارج أرضاً خصبة لبث دعايتهم ونشر أفكارهم هناك.

وتوالت الانتفاضات على عُمّال الخُلفاء العباسيين منذ عهد المنصور، واستمرت إلى عهد الرشيد من غير انقطاع. وهنا أعاد الأمن إلى نِصابه بادىء الأمر، إبراهيم بن الأغلب الذي قُتل والدة الذي كان أميراً على شمال أفريقيا – (وأصله من مرو الروذ)- في ثورة سنة (767) وفي سنة (795)، عَهِدَ إلى إبراهيم في الولاية على إقليم الزّاب الواقع جنوبي الجزائر على جانبي بسكرة، وبعد أن طرد الثوار خلف أبيه (محمد) ابن مقاتل هرع ابن الأغلب إلى نصرته سنة (799)، وببراعة فائقة أُقرّ الأمن والنِّظام في تلك الأرجاء، فكافأة الرّشيد على حُسن بلائه بأن كتب له بالعهد إلى أفريقيا لقاء خراج سنوي قدره أربعون ألف دينار، وفي الحال شرع إبن الأغلب في إنشاء مدينة جديدة على ثلاثة أميال جنوبي القيروان (تونس) دعاها (العبّاسية) وجعلها قاعدة لإمارته.

(1- 3)أساليب القمع ضد المعارضه :

إن الثّورات المذهبيّة التي سبق أن أشرنا إليها، والتي اشتعلت في إيران، حملت الخليفة على أن يُراقب بشدّة بالغة حياة رعاياه العقلية في قلب الامبراطورية أيضاً، والواقع إن المانوية (لا الزرادشتية الخالصة) كانت لا تزال تفرض سُلطانها الكبير على أولئك الذين دخلوا حديثاً في الإسلام، ثم لم يرتاحوا ارتياحاً كلياً

لشعائرة الصارمة، ولأساليب تطبيق السلاطين الذين اعتبروا خُلفاء الرَّسول أصحاب المركز الإلهي للكلمة في نظرهم، ووجدوا أن الأمر يُناقض بشكل كبير ما تعودوا عليه في الماضي في تعاليم المانوية دين الطبقات المثقّفة(سابقا)، وكان من أول أعمال المنصور أن أمر بقتل عبد الله بن المقفع - الكاتب الإيراني المشهور- ، وكان إسمه بالفارسية روزبه، وهو ابن رجل كان يجمع الخراج في زمن الحجاج بن يوسف، وكان من أتباع عيسى بن على عم السّفاح والمنصور وقد أسلم على يديه، ومن أبرز نشاطاته نقل إلى العربية تاريخ الفرس "خداينامة" والترجمة الفارسية لكتاب الأمثال الهندية الموسوم "كليلة ودمنة"[1]، ووضع عدداً من الرسائل في الحكمة السياسية على ما جاء عند الإيرانيين.

وكان سبب قتل المنصور له هو أنه بالغ وشدّد في إعداد صيغة يتعهد بها المنصور بأن لا يغدر بأخيه أبو العباس إلا أن هذه التهمة مشكوك فيها، والسبب الحقيقي هو نشاطه السياسي الديني الذي أثقل كاهل المنصور.

وكانت طريقة قتله بشعة للغاية، حيث وُضع في تنور، وقطعت أجزاء من جسمه ورميت أمام عين المنصور نفسه إلى أن فارق الحياة. وفي عهد المهدي لقي الشاعر صالح بن عبد القدوس الذي دعى في أحاديثه الدينية بالبصرة إلى الثنوية، والثنوية في إيران تعني وجود إله خير وإله شر، وهذا أمر مخالف للشريعة الإسلامية التوحيدية، وحاول أن يتفادى عاقبة النِّقمة التي أثارتها هذه الدعوة عليه في الأوساط الفقهية بالفرار إلى دمشق. إلا أن رجال المهدي تعقّبوه ورجعوا به إلى عاصمة الخلافة، ليُصلب سنة (783) بتهمة الزّندقة[2].

(1) أدورد براون، المصدر السابق، ص88، ج1، باب ثالث.

(2) الزندقة: لفظة شائعة على من ينسب له بدعة في ذلك العصر، وهذه الكلمة مُشتقة من زند، وهي مختصر لكل من يجرء على تفسير "الابستاق"، تفسيراً جديداً وهو كتاب زرادشت، وكانت تطلق على أتباع ماني ومزدك على حد سواء أيضاً.

وهكذا كانت نهاية هذا الشّاعر المُفجعة، كما كانت قبله نهاية إبن المقفع، والتي فتحت الباب في ملاحقة الزّنادقة في عهد المهدي، والذي أوكل عامله الخاص و يدعى" العريف " الذي نشط في محاربة كافة الآراء المذهبية التي كانت تزعج الحكومة المركزية.

ويُقال أن الزنادقة في عهد المهدي قد شكلوا نسبة كبيرة لا يستهان بها في بغداد، تم القضاء عليهم.

(1- 4) اساليب العنف بين الخلفاء الاخوة والاقرباء والمقربين:-

من الجدير بالذّكر هنا أنه بعد وفاة المهدي خلفه ابنه موسى سنة (785) مُتخِذاً لنفسه لقب الهادي، وفي 15 أيلول عام 786 قُتل الهادي وهو في دار حريمة قرب الموصل بتحريض من أمه "الخيزران"، التي سبق لها أن شاركت مُشاركة كبيرة في تصريف شؤون الدولة إبّان خلافة زوجها، وكانت في الأصل جارية بربرية.

ويُقال أن موسى يكره أخاه هارون (الرشيد)، مما آثر أمة للتخلص منه، وتنصيب هارون على العرش بدلاً منه، وكانت هذه بداية للآفة التي أدت الى هلاك الأسرة العباسية من خلال النزاعات الداخلية بينهما وقد قتل موسى على يد هارون في مؤامرة بشعه.كما أن المنتصر تآمر في قتل ابيه المتوكل. ونُفذت المؤامرة ليل التاسع من كانون اول سنه 1861 في الجعفري ـ وهو القصر الذي كان المتوكل قد أقامة على ابواب سامراء قبل ذلك بفترة غير طويلة[1]. وسنأتي لتفصيل ذلك في فقرة لاحقه.

---

(1) كارل بروكلمان (المصدر السابق نفسه)ص214

والحادثة الأخرى التي تستحق الذّكر هنا؛ وهي مقتل جعفر بن يحيى البرمكي في عصر الرشيد، مفادها كما وردت في الرّوايات أن خِلافاً حصل بين الرشيد وجعفر أحد أقرب وزرائه إليه بسبب حادثة غرامية، مفادها أن الخليفة عقد لجعفر على أخته العبّاسه عقداً صورياً حتى يكون في ميسورة أن يأنس بالإجتماع بهما في وقت معاً، ولكن جعفراً اساء إصطناع هذه الحريّة التي تمت له، فلم تكد أم الخليفة (الخيزرانة) أن توفّت سنة (790) حتى انتزع الرشيد خاتم الدولة من جعفر، وحوّل جُزءاً مِن صلاحياته إلى خصمه وخلفه، الفضل بن الربيع، وفي أوائل عام (803) عندما ذهب الرّشيد إلى الحج - وكان يتولى أمرته في أغلب الأحوال بنفسه- أمر بجعفر أن يُقتل في ليل 29 كانون الثاني، ويعلّق رأسه على الجسر المركزي ببغداد، ويقطع جسمه نصفين، يُعرض كل منهما على واحد من الجسرين الآخرين، أما أبوه وأخوته فاعتقلوا وصودرت ممتلكاتهم.

وهكذا انتهت نكبة البرامكة والتي اضطرت الرشيد من نقل مقرّه إلى الرّقة على الفُرات[1]، ولم يخل عهد الرّشيد الذي اتسم بالهدوء والإزدهار، وكان يُعتبر من العصور الإسلامية الذّهبية لم يخلُ من ثورات تعاقبت في داخل الإمبراطورية.

ففي سوريا اندلعت نار الخُصومة القديمة بين عرب الشّمال وعرب الجنوب سنة (796)، وفي دمشق اغتنمت السوقة فرصة الاضطرابات للإمعان في أعمال السّلب والنّهب، ولم يستتب الأمن إلا بعد أن خرج جعفر البرمكي بنفسه، وأمر بتجريد السُكان من السلاح جميعاً.

(1) كارل بروكلمان ، المصدر السابق،ص187

واستمر القتال ضد بيزنطة طوال عهد الرشيد، ولكنه لم يؤت من نتائج مُثمرة سوى زيادة في إكراه الامبراطور "نقفور" بعد فتح هرقل سنة (806).

وكان ثمة اضطراب متصل في آسيا الوسطى أيضاً، إذ ثار "رافع بن ليث" في سمرقند سنة (805)، وبسط سلطانه على بلاد ما وراء النهر كلها (الهند)، مما اضطر الخليفة هارون الرّشيد لتجهيز جيشه والسير بنفسه لمقاتلته، ولكن الأجل لم يُمهله فما كاد الوصول إلى الطوس في خراسان حتى مرض وتوفي يوم 24 آذار سنة (809).

(1- 4) الصراع بين الأمين والمأمون:

كان الإبن الأكبر للرشيد محمد الأمين ولياً للعهد وأميراً على سوريا، وكانت أمه زبيدة حفيدة المنصور، أما ولده الثاني عبد الله المأمون، فقد كان ولي عهد على الولايات الشرقية، وكانت أمُّه أَمة فارسية.

بعد أن نصّ على أن أي اعتداء يقوم به الأمين على حقوق أخيه يترتب عليه فِقدان العرش، وكان الرّشيد قد عيّن لولده الثالث القاسم أميراً على الجزيرة الفُراتية، فتقلصت بذلك سُلطة المأمون وضاقت، ومع أن الأمين تمكّن أن يجعل إمارة القاسم مقتصرة على قنسرين فقط، لكنه لم يجرؤ على التعرُّض لسُلطة المأمون، على الرُّغم من تحريض وزير أبيه الفضل بن ربيع. ومن جهة أخرى اضطر المأمون باديء الأمر إلى التّسليم بحقوق أخيه، فيما كان وزيره الفضل بن سهل يستحثّه على توحيد الامبراطورية، إلا أنه كان يخشى الخطر الذي يتهدد الدولة من المشرق، فقد قُدّر لأهل التّبت، إبّان الفتوحات العربية في آسيا الوسطى، أن ينتصروا في سلسلة من المعارك ضد الصين، بمعونة عرب كاشغر ولكنهم (أي التبتيّين)، انتهوا بعد أن أستشعروا الخطر من تقدم القوى الإسلامية، ومن هنا ناصروا "رافع بن ليث" في ثورته في سمرقند، وأصبحوا يهددون بالهجوم على بلاد

ما وراء النهر، وقد اضطر المأمون سنة (810م) أن يلقي بالتحفظ عرض الحائط وقطع جميع علاقاته ببغداد، وعهد إلى قائد جيوشه علي بن عيسى في اتخاذ جميع الإجراءات الضرورية ضد أخيه الأمين، الذي كان ينوي إعطاء ولاية العهد لإبنه موسى، بيد أن علياً هذا ما لبث أن قتل في موقعة جرت بين قواته وجيوش الأمين يقودها طاهر بن الحسين في الريّ. وإنما كتب النصر في تلك الواقعة لجند المأمون، فلم يكن من الأمين إلا أن بعث بجيش جديد كان نصيبه التشتت أيضاً، وعندما رفض الجند الذين وجههم إلى الشرق للمرة الثالثة أن يتقدّموا إلى أبعد من خانقين على الحدود العراقية، فقد نشبت ثورة أخرى ضد الأمين في سوريا، وحوصر هو وأمه في العاصمة من قبل الحسين بن قائده علي الذي قتل في الريّ، ولكن نفراً من الذين أقاموا على الإخلاص له عادوا فأنقذوه من أسره، وهكذا تقدم المأمون نحو بغداد حيث تساقطت المدينة منطقة إثر منطقة، مما اضطر الأمين آخر الأمر إلى الاستسلام، ثم ساروا به من قصره في أواخر أيلول (813) وهاجمه رجال طاهر وقتلوه.

وهكذا استعادت الدولة وحدتها وكان المأمون قد مكث في باديء الأمر في مرو، وقد خرج في هذه الأثناء محمد بن إبراهيم طباطبا في الكوفة أوائل عام (810) وادعى الخلافة، لكن هرثمة قد هزمه بسهولة ويسر، ولكن "هرثمة" نفسه انتهى بعد هذا النّصر الجديد إلى أن يكون خطراً على الخليفة ووزيره، فأمرا به أن يُعتقلُ بعيد دخوله مرو، وما هي إلا فترة وجيزة حتى أمر بقتله فقُتل. أمّا طاهر بن الحسين وكان يستحق من الخليفة المثوبة بمقدار ما استحقها هرثمة، فقد أُرسل على رأس جيش هزيل إلى الرّقة على الفرات، حيث كانت الثورة تلي الثورة. و في سنة (817) دَعى البغداديون المنصور بن الخليفة المهدي، إلى تولى السلطة فلم يستجب لهم بل أقام على ولائه للخليفة وسعى إلى إقرار الأمن باسمه، وحسب المأمون أن باستطاعته اكتساب عطف العراقيين إذ عقد لعلي بن

موسى الرضا على ابنته، وسمّاه ولياً للعهد، والواقع أنه أقدم على هذا العمل بإشارة من وزيره الفضل بن سهل، واستبدل رايات العلويين الخُضر برايات العباسيّين السود، ولكن العراقيين أبوا مبايعة علي، ونادوا بإبراهيم بن المهدي الموسيقى الهاوي خليفة عليهم، وفي 24 حزيران من سنة (817)، اضطر المأمون أن يتخذ إجراءات فعالة في مركز الامبراطورية، ولم تكن الأحوال في الشرق ادعى إلى الاطمئنان من الأمور في العراق، ذلك أن العقائد التي بشّر بها أبو مسلم الخراساني وتلاميذه أمثال "المقنع" والقائلة بتناسخ الأرواح وتجسُد الذّات الإلهية لم تلبث أن بقت في أذربيجان على يد بابك (الخرمي) الذي أجتمع حوله خلق كثير، واتسع سلطانه حتى أوشك أن يعزل المُقاطعات الفارسية عن الغرب. ومهما يكن من أمر فالواقع أن المأمون انطلق في سبيلة إلى الطوس مباشرة ليستمد القوة عن طريق الصلاة على ضريح أبيه الرشيد، وبينما هو في بعض الطريق قُتل وزيره، وهو في الحمام بمدينة سرخس. وفي طوس أيضاً توفي صهره عن طريق دسّ السم إليه ودفن هناك بجوار هارون الرشيد، وكان قد رفعته الشيعة إلى مرتبة الشهداء، فإن المدينة الجديدة التي سميت المشهد قد أصبحت مزاراً مُهماً لتحل محل طوس القديمة.

وإذ غلبت السوداء بعد ذلك على الحسن بن سهل أخي الوزير الفضل وأمير العسكر في واسط آنذاك، وكان العراقييون يكرهونة كرهاً شديداً، وتغير عقله حتى شد في الحديد وحُبس في أحد البيوت بحجة من الاختلال العقلي[1]، فقد خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي ودعوا المأمون بالخلافة، فدخل العاصمة في آب (819). ولم يكد ينسحب من خراسان حتى رفع الخوارج راية الثورة فيها، فعهد المأمون في إخمادها إلى طاهر الذي وفق خلال فترة قصيرة إلى إقرار النّظام في المقاطعة كلها، لكنه استقل بعد فترة في تلك الولاية ليؤسس الدولة الطاهرية

(1) كارل بروكلمان، المصدر السابق، ص200.

والتي افقدت الامبراطورية الاسلامية أقصى ولاياتها الشرقية، كما أفقدتها أقصى ولاياتها الغربية[1] في آن معاً.

ومن الجدير بالذكر هنا إلى أن نار الفتنة القديمة بين القبائل قد اندلعت مرة أخرى بين عرب الشمال وعرب الجنوب، إبّان الحرب بين الأمين والمأمون، فقد ناصرت القيسيّة الأمين بينما ناصرت الكلبية المأمون، ولم تكد وحدة الامبراطورية تستقر ثانية حتى اندلعت القلاقل مرة أخرى عندما أقبلت جماعة من الأندلس، واستولوا على الاسكندرية في مصر لكن عبدالله بن طاهر الذي تولى الإمارة بعد أبيه استطاع في فترة وجيزة من إجبارهم على الانسحاب إلى أقريطش وإقامة الآلة الحكومية من جديد. وكان المأمون يعهد القيادة الحربية إلى كبار رجاله العسكريين، فقد واصل الحرب ضد البيزنطيّين بنفسه، واشترك لثلاثة سنوات مُتعاقبة في حملات ضد البيزنطيين إلى أن ألتمس من الامبراطور "توفيل" الصلح سنة (832)عقب سقوط "لؤلؤه" أمنع الحُصون البيزنطيّة على الحدود قرب "طرسوس"، وفي آب سنة (833)توفي المأمون في "البدندون" قرب "طرسوس" في أثناء حملته الثالثة على البيزنطيين.

(1- 6)حركات العنف والاعمال الاخرى في خلافة المعتصم:

رقي العرش بعد وفاة المأمون أخوه محمد، وكان أميراً على مصر مُتخذاً لقب المعتصم بالله، ذلك لأنه اعتصم ولم يتدخل بين خلافة الأخوه الأمين والمأمون.

ويعتبر عصره بداية لدخول الأتراك وتزايد نفوذهم في التاريخ الإسلامي، وكان ذلك في البداية حين استعان المعتصم بالأتراك الذين جاءوا من أواسط آسيا، إما عن طريق النخاسة أو على سبيل الجزيّة يؤديها الأمراء الوطنيّيون إلى خزانة الدولة الإسلامية، وقد عهد المعتصم بتصريف شؤون الفِرقة إلى رجال من

(1) W.Rothstein "Zn asch-scha bustis Bericht uber der Tahiriden" Orietal Studies, Giessen (1906), I, 155-170.

غير الموالي، ولكنه لم يلبث أن ملأ مناصب القيادة بمواليه الخصوصين مُبالغةً منه في الحرص على سلامته الشخصية. والواقع أن هؤلاء الزُّعماء انتهوا في وقت مُبكر إلى أن تكون لهم سُلطة على الدولة حتى إذا انقضت فترة غير طويلة أصبحوا هم سادة الدولة الحقيقيين. وكان طبيعياً أن ينكشف خطر هؤلاء العبيد على العرب لبصائر الأذكياء، من الرِّجال منذ ذلك الحين.

وهكذا ألقى "ابن سعد" (الذي وضع كتبه في عهد المعتصم) على لسان أحد الأصحاب نبوءة مفادها أن الأتراك سيردّون العرب في يوم من الأيام إلى بواديهم، (وقد تحقّق لهم ذلك للأسف الشديد)، إلا أن أشهر قوّاد المعتصم ظلّ من دون شك، رجلاً فارسياً اسمه "حيدر ابن كاوس"، ويدعى بالافشين (وكان هذا منذ عهد المأمون الذي تعاطف مع الفُرس في السنوات الأولى من خِلافته)، وقد استطاع "الافشين" من القضاء على حكم بابك بأذربيجان بعد أن افتتح قلعته عنوة واستباحها في خريف عام (837).

ثم انقض "الافشين" على البيزنطيين الذين هاجموا في عهد الامبراطور "توفيل" الجزيرة العربية وشمالي سوريا، ولكنه هُزم على يد "الأفشين"، بعد أن استولى الأخير على عامورية في غلاطية بعد ان لجأ إثر حصار متطاول إلى الخدعة، ولكن من الجائز جبراً أن تكون هذه الانتصارات بالذات هي التي أثارت حسد الخليفة له، وعلى الرغم من أنه أحبط بعد رجوعه من حرب البيزنطيين، مؤامرة جديدة هدفت إلى تنصيب العباس بن المأمون خليفة بدلاً عن المعتصم، لكنه اتُّهم بالارتداد عن الاسلام سنة (840)، وحُبس في بناء خاص ثم منع عنه الطعام إلا القليل حتى مات، إذ لم يجرؤ أحد أن يُنزل به عُقوبة الصَّلب المألوفة، وذلك للرّصيد الذي حصل عليه من الشجاعة في حملاته الحربية المُتعاقبة.

عزم المعتصم على أن ينشيء سنة (836) مقرّاً جديداً لنفسه في سامرّاء، وعهد في بناءها إلى "أشناس" أحد قوّاده الأتراك، فأنشأ فيها قناتين متفرّعتين من دجلة

نحو الشرق، خلعتا على المدينة الجديدة، بالإضافة إلى نهر دجلة منعه حصين، وكانت المدينة تتظّم من قبل بثمانية أديرة نصرانية، وقد شيّد قصر الجوسق للمعتصم، أولاً حتى إذا جاء من بعده خُلفاءه وكانوا سبعة حكموا طوال نصف قرن، حلّوا جيد المنطقة بقصور ومساجد جديدة.

وكان أبرز تلك الأبنية المسجد الكبير والملوية والتي كانت على طراز الأبراج البابلية، ذات السّلالم، والذي يبلغ ارتفاعها 328 ياردة[1].

لقد كان القوّاد الأتراك قد انتبهوا في عهد ابن المعتصم "الواثق بالله" (482- 847) إلى غاية في النُّفوذ في بغداد حتى اضطر الخليفة أن يخلع على "أشناس" لقب السلطان اعترافاً له بحقوق يعدو نطاق المهام العسكرية، حتى توفي "الواثق" أصبح هذا القائد مؤثراً بشكل يستطيع تنصيب من يرغب له كخليفة للمسلمين، وقد نصّب محمد بن الواثق في باديء الأمر، إلا أنه سرعان ما استبدل بعمّه جعفر المتوكل على الله، وهو بداية عهد جديد للخلافة العباسية.

(2) بداية عهد الرجوع إلى السُّنة بخلافة المُتوكل (847- 861) أو عصر انحِطاط الخلافة العباسية الأولى:

يبدأ هذا العصر بخلافة المتوكّل، وقد كان عهد خلافته طويلاً نسبيّاً، وموجباً للأسف، وما يتعلّق بهذا العهد من الوجهه السياسية هي سيادة الترك وقمع العرب وقمع الإيرانيين إلى حدّ ما، وكذلك رد الفعل الذي بدأ إزاء عقائد المعتزلة التحريريّة وميول الخلفاء السابقين الفلسفية، والنفور والكراهية النّاجمان عن التعصّب لعلي وشيعتة، واحتلال التّرك من الجنود المنتفعين المشوشين مكان البرامكة وسائر الإيرانيين ذوي الأصل العريق.

(1) كارل بروكلمان، "المصدر السابق"، ص211.

إن هؤلاء الجنود هم في الأصل العبيد الذين أسرهم في الحروب الدينية ضد القبائل التركية المُلحدة على حدود خراسان (تركمانستان حالياً)، وتنطبق أسماؤهم الوحشية تماماً على أعمالهم الهمجية التي ارتكبوها، مثل بُغا (بمعنى الثور)، وبغا الصغير، وبغا الكبير، وباغر، وأنامش الذي وصل إلى الصدارة بعد قتل المتوكّل بعامين أو ثلاثة، وبابياك، وكلبتكين، وأمثالهم.

ومع أن أمثال هؤلاء الجُنود المأجورين قد اتخذوا لهم أسماء عربية فإن أصلهم ونسبهم يكشف حقيقتهم، فوصيف مثلاً، وهو أحد رؤساء المتآمرين الذين قتلوا المتوكّل اسمه كاشف، وقد كان في الأصل خادماً[1]، ويقول موير[2]: "لقد ظهر تعصّب المتوكّل المذهبي ضد التشيّع بصفة خاصّة، وبدأ ضد اليهود والنّصارى في كل القوانين والقرارات الغير مستقرة، وكان تعصُّبه هذا يُعادل تماماً ميله الطبيعي للتّرك، ولهذا تجد تشبيهه بسلطان أسود القلب متعصّب من سلاطين العثمانيّين، ومُختلفاً عن سابقيه كالمنصور والمأمون أمراً طبيعياً".

لقد تصرّف مع الشيعة على نحو نجم عنه سفك دم العديد منهم، ومن جُملة من قتلهم معلّم أبنائه "ابن السكين"، العالم النحوي المشهور (857)، وعيسى بن جعفر، فقد تم ضربه أمام الخليفة وبأمره (855) إلى أن أسلم الروح، وبدلاً من أن يوارى جسمه الثّرى، ألقى به في نهر دجلة، وبهذا العمل وجهة إنذاراً (وفق تصوّره) لأهل البدع والضّلال ممن يعادون جماعة المؤمنين[3].

بالإضافة لإراقة دم الشيعة وعدوانه لكبار أئمتهم، فقد وضع اليهود والنّصارى موضع احتقار وإذلال، بعد أن كانوا موضع احترام الخُلفاء السّابقين، ففي أوائل خلافته (850) وبعد ثلاثة سنوات أصدر أمره ضدهم لأول مرة،

---

(1)Dozy." Supplement aux Dictionnaires Arabes", P-810. دوزي

(2) موير "الخلافة الإسلامية"، ط2، ص525.

(3) تاريخ الطبري، ج3، ص1424- 1426.

وألزمهم أن يلبسوا طيلساناً عسلي اللون، وأن يضعوا شارات ملوّنة وقلنسوة، وحِزاماً على شاكلة السّفلة،وان لا يركبوا سوى البغل والحمار الأسود، وأن يختاروا عربات خشبيّة وسرج ذات رسومات عجيبة، وأن يعلقوا تصاوير الشيطان على أبواب منازلهم، وقد حُطمت معابدهم الجديدة البناء، وأخذت شكل المسجد، وقد صدر الحكم بأن يكون سطح الأرض قبوراً لهم، ولم يكن مسموحاً لأطفالهم أن يتعلموا العربية والعلوم الأخرى لدى المعلمين المسلمين[1].

(2- 1) العصر العباسي الثاني:

في عام (861) قُتل المتوكّل أثناء سكرة بيد حرسه من الترك وبتحريض من ولده "المنتصر" الذي لم يعش أكثر من عام بعد قتل أبيه، وقد بلغ مجموع سنوات حُكم هذا الولد –قاتل أبيه- وثلاثة ممن خلفوه –وهم "المستعين" و "المعتز" و "المهتدي"- تسع سنوات فقط، وقد قُتل الثّلاثة الذين وردت أسمائهم- المستعين والمعتز والمهتدي- ، بصورة غاية في الوحشية والبشاعة على يد الأتراك الذين كانوا آنذاك في أوج اقتدارهم، وقد أبدى المهتدى روحاً أعظم وأسمى لمساندة العرب غير أن الأجانب كانت لهم آنذاك الغلبة والتفوّق من جهة العدد والانضباط[2]. لكنه على أي حال قد حاول بتعقل أن يخمد كبرياء هؤلاء المأجورين، ويقضي على نخوة هؤلاء المدعين سفكة الدماء، وعلى اندفاعهم وقسوتهم، وقد استفاد خليفته بشتّى الطّرق من ثمار مساعيه وجهوده.

وفي هذا العصر المضطرب بالهياج، ونتيجة لنشاطات "يعقوب بن الليث الصفار" من تأسيس دولة جديدة في إيران باسم الدولة الصفاريه، وقد بدءت منذ ذلك العصر تتفكك الدولة العباسية إلى دُويلات متعددة، نتيجة لضعف المركز،

(1) موير "كتاب الخلافة"، ص521.

(2) موير "كتاب الخلافة"، ص535، المصدر السابق نفسه.

وعدم قُدرة الإدارة من تطوير نفسها بشكل يسمح من السيطرة على كل أركان الامبراطورية الواسعة، بالإضافة إلى صعوبة المواصلات والاتصالات في ذلك العصر، وكل المناطق غير العربية بدءت تبحث في إحياء قوميتها من خلال السيطرة والاستحواذ على الأراضي التي تقطن فيها، وقد بدأت أولاً في إيران، تلك البلاد الواسعة التي شعرت بالغبن والتغيُّب عن صنع القرار منذ فترة طويلة، خاصة وقد كانت تلك الأمة تتزعم الامبراطورية الساسانية قبل دخولهم الإسلام، وكان لديهم فكر وديانات قديمة عريقة مما جعل أمر سيادة العرب عليهم أمراً غير مقبول من وجه نظرهم.

ثاني حدث كبير حصل في هذا العصر، هو ثورة الزنج، تلك الثورة التي سببت الفزع والاضطراب البالغين لعاصمة الإسلام مدة أربعة عشر عاماً (869-883)، ومكان وقوع هذا الحدث وظهور هذه الثورة العنيفة، - التي كلّلت بالنجاح لفترة طويلة- هو المستنقعات (الأهوار) الواقعة بين البصرة وواسط، وكان زعيم هذه الثورة هو "علي بن محمد (من أهالي ورزين -قرب الري- إيران)، وهو من نسل علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء، وقد أعلن تمسكه بمبدأ الخوارج[1].

أما من ناحية مشاهير الكتاب والأدباء الذين اشتهروا في ذلك العصر فهم: أبو حاتم السجستاني (ت 864)، والجاحظ (ت869)، والبُخاري (ت870) جامع الأحاديث الشّهيره المُسمّاه باسمه (صحيح البخاري)، كذلك مسلم النيسابوري صاحب كتاب (صحيح مسلم)، والترمذي، والنسائي،و غيرهم.

والآن نصل إلى عام (873- 874)، وهو العام الذي حصلت فيه أحداث مهمة كالآتي:

(1) Noldke, Sketches from Easter Hestory (P-146-175 نولدكه

أولاً: غيبة الإمام الثاني عشر في مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وكان ذلك حدثاً كبيراً بالنسبة للشيعة وضعتهم في حيرة كبيرة، وأدّت بهم إلى الكثير من الانقسامات الفكرية، رغم توصيته بالرجوع الى اربع مراجع كنواب عنه.

ثانياً: بداية تبليغ الإمامية السبعية أو الإسماعيلية التي تُعد إحدى فرق الشيعة والتي انتهت مُباشرة بقيام القرامطة، وتأمين الخلافة المنافسة للعباسيين، أي خلافة الفاطميين في شمال أفريقيا ومصر[1].

ثالثاً: استقرار الأسرة السامانية في خراسان، ورحيل العارف الكبير "بايزيد البسطامي" عن الدنيا، وولادة "أبي الحسن الأشعري" (أحد علماء الدين)، الذي تسبّب في توجيه ضربة قاصمة قاضية إلى نُفوذ المعتزلة، وتفوّقهم في العالم الإسلامي، وأفلح في تشكيل عقائد من كانوا يملكون محيط فكر أضيق، ويمارسون قدراً أكبر من التعصّب، وادخلنا في مرحلة فيها الدين الإسلامي ديناً ثابتاً يتّصف بالشّدة والصّلابة، وسوف نتحدث عن هذه الأزمة الدينية في مكان آخر من البحث.

لقد استمر الحُكم في سلسلة سامان حوالي 125 عاماً تقريباً في إيران والجانب الشرقي للأمة الإسلامية، إلى أن قِوى الغزنويون واستطاعوا إسقاطها[2].

لقد كان السامانيون في إيران بعد موت الخليفة المعتضد وجلوس ابنه المكتفي قد بلغوا ذروة قوتهم، بينما ثبت طائفة القرامطة المخيفة بقيادة (زكرويه) الخبير الكفوء أقصى درجات الرُّعب في القلوب في انحاء بغداد والبصرة، وفي سوريا واليمن. ولا يمكن أن يُقال أن هذا الرُّعب لا أساس له، لأنه

---

(1) أنظر أبو الحسن محمد النوبختي "فرق الشيعة"، النجف (1936)، وكذلك محمد رضا المظفر "عقائد الإمامية"، القاهرة (1961).

(2) إدوارد براون "المصدر السابق"، ج1، ب ب / 3، ص216لتجد فيها تفاصيل اكثر عن هذا الموضوع.

في إحدى الغارات التي تعرّضت لها قافلة من قوافل الحُجّاج، و في أثناء عودتها من مكّة، كان عدد أجساد الموتى التي بقيت مُلقاة في الصحراء (كما يقال) عشرين ألفاً[1].

يقول "أبو منصور الثّعالبي" في كتابه "الطوائف والمعارف"[2]: (من أعجب الحروب حربان: الأولى هي نفس المعركة التي دارت بقوة الصفاريين، واستطاع فيها الجيش المكون من 50 ألف محارب أن يلوذ بالفرار على الرغم من هزيمته، ونجا فيها كل الجُنود ولم يقع في الأسر سوى قائد الجيش وحده، والثانية هي المعركة التي وقعت بين "العبّاس بن عمرو" والقرامطة في هجر، والتي هلك فيها جنود "العباس بن عمرو" كلهم وعددهم عشرة آلاف وفرّ قائد الجند وحده).

ونصل إلى فترة خلافة المُقتدر، وهي فترة طويلة نسبياً (908- 932)، وأهم حدث سياسي فيها هو استقرار الأسرة الفاطمية أو الإسماعيلية في شمال إفريقيا، وهي التي قامت ضد الخلافة العباسية، وقد اتخذت هذه الأسرة "المهدية" عاصمة لها (يقصد عبيد الله المهدي أول خلفاء هذه الأسرة)، وقد استمر نشاط القرامطة، ولم يتوقف على الرغم من وفاة زعيمهم زكرويه والجنابي الأكبر، ودخلوا البصرة عام (924)، وفي العام التالي، أغاروا ثانية على قافلة الحج، ثم سيطروا على مكة نفسها عام (929)، وحملوا معهم الحجر الأسود، وأبقوه في ديارهم 20 سنة، وأثاروا بين كل المؤمنين الرُّعب والنُّفور مما يعجز البيان عن وصفه.

وفي السنوات الأخيرة من خِلافة المقتدر، دخل القرامطة الكوفة، وسيطروا على عمان، إلا أن نشاطهم في تلك الأثناء بات محدوداً، ولم تكن تلك المحدودية اعتباطية، بل كانت فضيحة ظُهور المهدي الكذاب سبباً في انتهاء نشاطهم.

---

(1) ادوارد براون، المصدر السابق، ص223.

(2) أبو منصور الثعالبي "الطائف المعارف"، طبعة De iong، ص88.

والمهدي المدعي هو ابن أبي زكريا[1]، الذي ذكر أبو ريحان خلاصة تعليماته الكريهة والمثيرة للتشاؤم المنذرة بالنحس في كتابه "الآثار الباقية[2]"، وكان القرامطة بعد ذلك بعدة سنوات يأخذون من زوّار مكة مبلغاً بصفة "خفارة" (ضريبة طريق)[3].

وسقطت الأسرة الصفارية تماماً بحدود عام (910)، وأن طاهر ويعقوب حفيدي عمرو قد وقعا في الأسر وأُرسلا إلى بغداد، بينما ورث نصر الثاني العرش، والتّاج الساماني وتوفي عام (942).

ولابد أن نذكر أن المقام الأول بين علماء هذا العصر كان بدون شك لابي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت932)* صاحب كتاب التاريخ الكبير. يقول ابن الأثير: (وُلد هذا المؤرخ عام (839)، ودفن في منزله ليلاً لأن جمعاً من الناس تجمّعوا وقالوا: أنه كان رافضياً (من الشيعة)، بل كان مُلحداً حسب اعتقادهم، وعارضوا دفنه في النّهار)، كما عاش في ذلك العصر الحسين بن منصور الحلاج، الذي حصل على شُهره وطيده في التصوُّف، وقد قبض على أبن منصور في عام (913) بسبب تعاليمه المبتدعة التي شاعت في بغداد وضواحيها[4]، وقتل في عام (921) بقسوة بالغة، وما علق بالأذهان من الاتهام الذي وجه إليه هو أنه حال الجذبة كان يصرخ: "أنا الحق"، ويرى الصوفية أن قوله هذا ناجم عن الوجد والحال، فإن العارف في حال شهود جمال الحق يغيب عن نفسه، ولا يرى كل ما

---

*نضع علامة الحرف ت وتعني سنه الوفاة فقد جرت العادة في العالم الاسلامي في ذلك الحين أن لا يعيروا إهتماماً بالميلاد لأي شخصيه كانت وتاريخ الوفاة هو المعول علية.

(1) دوخويه "قرامطة البحرين"، ص131.

(2) "الآثار الباقية عن القرون الخالية" أبو ريحان، ترجمة زاخو، طبع ليبترج (1982)، ص 196- 197.

(3) دوخويه، المصدر السابق، ص140.

(4) الطبري "التاريخ"، ج3، ص2289.

في الوجود من مظاهر خارجيه وحقائق. ويرون أن ذنبه هو أنه أفشى الأسرار وأبداها ويعتبرونه أحد القديسين والشّهداء. وقد ترك وراءة العديد من المؤلفات والرسائل الهامة[2].

ومن الشعراء "ابن علاف" (ت930)، من أصدقاء ابن المعتز، قُتل ظُلماً ولم يتمكّن النّاس من إقامة العزاء له علناً عند موته[1]. وهو من أشهر علماء المعتزلة في طورهم الثاني.

وقد نال منصب الخلافة بعد المقتدر –خلال مدة قصيرة– أربعة خلفاء هم: القاهر والراضي والمقتضي والمستكفي (932- 946)، وتلقّت قوة آل بويه وسيطرتهم النّظر إلى حد كبير، وقد ورد الحديث عن بداياتهم، وبفضل مُساعدة عسكر الديلمي والكيلاني، فإن أولاد بويه الثلاثة، أي عِماد الدولة، وحسن ركن الدولة، وأحمد معز الدولة، أدخلوا في طاعتهم أصفهان وأرجان ونو بندجان، وكازرون وشيراز وكرمان والأهواز واحدة بعد الأخرى.

وقد سيطروا أيضاً على بغداد خلال المدة القصيرة التي تولى فيها المستكفي الخلافة، وقد منح المستكفي أخاه الثّالث منصب ولقب أمير الأمراء[2]، وكان البويهيون إيرانيون وشيعة، وقد اشتهروا في ترويج العلم والأدب وحماية العلماء بسخاء وكرم، وقد وجدت الفلسفة على الأخص روحاً جديدة في ظلّهم، بعد أن تعرّضت للخنق إثر تفوق الأتراك قبلهم (أيام المتوكّل وما بعده)، وتعصّب الحنابله، وازدياد قوة الأشاعره (أصحاب أبو الحسن الأشعري)، واتساع محيط انتشارهم، وسرعان ما ظهرت من وسط دائرة أهل المعرفة جماعة متآخية غاية في

---

(1) ابن خلكان، المصدر السابق، طبع دي سلان، ج1، ص400- 401.
(2) Lane “Mahamedin Dynasties” .139 -144 أو "الخلافه الاسلاميه" لين ص
(2)ول ديورانت "قصة الحضارة" الجزء الثاني المجلد الرابع ترجمة محمد بدران (13- 14)لجنة التأليف والترجمه –جامعة الدول العربية –القاهرة- ص214.

الأهمية تُسمى (إخوان الصفا) في البصرة، وقد لخصت العلوم الطبيعية وعلوم ما وراء الطبيعة (ميتافيزقيا) الشائعة في ذلك العصر، في أحدى وخمسين رسالة.

تُرجمت تلك الرسائل ضمن دراسات مُتعددة، وأصبحت في متناول يد الأوروبيين، وبالتالي ساهموا في نقل الإرث الحضاري البشري بين الأمم والحضارات المختلفة. وقد رأى علماء بغداد أن هذة الرسائل من قبيل الالحاد فحرقوها عام(1150)[1] ولكن رغم هذا ظلت تتداولها الايدي،وكان لها أثر شامل وعميق في الفلسفه الاسلامية واليهودية، وهم مجموعة تنتمي الى المذهب الاسماعيلي.

نصل إلى فترة خلافة المطيع الطويلة (بعد المستكفي) (946- 974)، فقد حصلت فيها تغييرات قليلة، إذ كان آل بويه يحكمون بغداد بصورة فعليه باسم أمير الأمراء، وفي السنوات العشر الأخيرة من هذه الفترة سيطر المعزّ (أبو تميم) على مصر، والمعز هو أحد الخلفاء الفاطميين الذين أسّسوا الخلافة المنافسة المعارضة.

وقد نقل المعز عاصمتة من المهدية إلى القاهرة، فكانت القاهرة من وقتها حتى انقراض تلك الأسرة عام (1171)، مركز القوة ومقر الحكم والنفوذ الإسلامي تقريباً. ففي نفس الفترة شبّ نزاع بينهم وبين القرامطة الذين كانوا يظاهرونها من قبل.

وفي حدود عام (971)، عقد القرامطة عهد اتحاد حتى مع العباسيين، ومن مشاهير العلماء والحكماء في ذلك العصر هم أبو نصر الفارابي (مات عام 950)، وعالم الجغرافيا أبي زيد البلخي، والشاعر الكسائي، وكذلك المسعودي المؤرخ الكبير صاحب كتاب "مروج الذهب" (ت 956)، والذي يقال أنه كان يميل إلى

(1) ول ديورات"قصة الحضارة"(المصدر السابق نفسه)(ص207).

المعتزلة، كذلك الزمخشري (959) صاحب كتاب "الكشاف"، وغيرة. كما ولد عام (961)، أبو منصور عبدالملك الثعالبي مؤلف "يتيمة الدهر"، والعديد غيرهم. يتضح لنا أن كل فترة تاريخية يُصاحبها الهدوء يبرز في الطرف الآخر العلم والأدب والفلسفة، ولا يفوتنا أن نذكر أن الشاعر العظيم المُتنبي توفي عام (965)، وقُتل أبو فِراس الحمداني في الحرب عام (968)، وكذلك أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب "الأغاني" في نفس الفترة تقريباً، ويُقال أنه كان عضواً في حاشية سيف الدولة[1].

وتعد السنة الأخيرة من خلافة المطيع سنة مهمة، لأن شخصين مهمين قد ولدا فيها هما أبو العلاء المعري، وأبي ريحان البيروني.

أما في خلافة "الطايع" (974- 991)، فشهدت تلك الفترة ولادة الفيلسوف والطبيب الكبير أبو علي بن سينا، وفي عام (988) ألّف أبو الفرج محمد بن اسحق النديم "الفهرست"، وهو واحد من أهم مصادر الدّراسات التاريخية، والذي توفي بعد ذلك بستة أعوام، ولكن نهاية القرن العاشر التي اشتهرت في ميادين العلم والأدب والحركات المذهبية والفلسفية، قد بدأت معها من الجانب الآخر رجحان كفّة أحد الأتراك، وهي فترة حافلة بالمخاطر بالنسبة للخلافة من جهة وحضارة الإسلام ومدنيته من جهة أخرى.

(1- 8) العصر العباسي الثالث:

إن ظهور تركي آخر فجأة على مسرح الأحداث تنتهي هذه الفترة تقريباً، وهذا التركي كان السلطان محمود الغزنوي الذي أبدى قوة لا حد لها، (تولى السلطنة عام (988) وتوفي عام (1030).

(1) أدورد براون، المصدر السابق، ص240.

وقد بدأ "محمود" سلطنته في إقليم صغير كان قد ورثه عن أبيه "سبكتكين"، وأسقط الأسرة السامانية المزعزعة وحارب الهند 12 مرة، وجعل هذه البلاد مسرحاً لكرهِ وفرهِ وهجماتهِ، وقد وجه هذا السلطان ضربة إلى آل بويه واستخلص أصفهان من قبضتهم.

لقد قَتل محمود من عبده الأوثان عدداً يفوق الحصر، وخرب العديد من معابد الأوثان، وأدخل البنجاب في دائرة حكمه إلى الأبد، وسخّر بلاد الغور، وضمّ ما وراء النهر إلى بلاده[1].

يتضح مما تقدم أن التقدّم العلمي والأدبي الحاصل في البلاد الإسلامية، وهي مواريث مشتركة لكل الشّعوب التي اعتنقت الإسلام، لم يكن لها حاضنة تحميها من هجمات القبائل المتوحشة المحيطة بها، وذلك يرجع للطبيعة الجغرافية المفتوحة دون حواجز منيعة رادعة لهجمات القبائل الهمجية، وكذلك عدم اكتراث الملوك والأمراء بتأسيس جيوش قوية قادرة على صد تلك الهجمات، ولم تكن كل تلك الخسائر والنهب والغارات الوحشية التي حصلت على الكتاب والأدباء إلا قبل فتنة المغول في القرن الثالث عشر، ولم تكن الخسائر والنهب والغارات الوحشية التي حصلت أثر هجوم المغول ـ قد حدثت بعد...لأن هذه القبائل الهمجية الكريهة كانت تلجأ إلى القتل العام حيثما حلت، وتُشعل النار في المكان ـ وبعد ذلك التاريخ لم تشغل علوم الممالك الإسلامية ـ، في العصور التي تلت ذلك الا بصورة محدودة ، ولما كانت بغداد قد خربت، والخلافة قد زالت، فإنه لم يعد هناك وجود لأي مركز من مراكز الثّقافة والعلم والمعرفة، ولا لأي مركز لتوحيد جهود العالم الإسلامي العلمية، وتمركزها والخلط بينها.

(1) ادورد براون، المصدر السابق نفسه، ص246، ج1، البابان الثالث، والرابع.

وهكذا نجد أن ولادة النهضة العلمية في البلدان الإسلامية قد تم وأدها وهي في المهد، بسبب تفشي العنف بها وعوامل الخوف والتشاؤم الذي لم يفسح لهم مجالاً لتأسيس قاعدة ومرجعية ثابتة يمكن لها أن تنطلق، وتؤسس لمجتمع متطور لا يتقبل العودة إلى الوراء.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا الانقسامات المذهبية والطائفية التي ظهرت بعد غيبة الإمام المهدي، من الإسماعيلية (السبعية) والقرامطة. وكانت في الأساس تدعوا لدفع الغبن عن فئة كبيرة لم يصيبها شيء من الثروة التي استحوذ عليها بني العباس كما فعل قبلهم بني أمية. يقول رينه دوسو عن الاسماعيلية ما يلي[1]: "تسبب بعض المغالين في أن تكون هذه العقائد موضع نفور المتمسكين بالشرع من المسلمين، وهؤلاء أنفسهم هم قطعاً سبب إدانة تلك العقائد، أن علينا أن نعلم أن الاسماعيلية كانوا قد استعادوا الكثير من أحكامهم من المعتزلة، والمعتزلة ينكرون -ضمن ما ينكرون- صفات الحق، ويؤمنون بمبدأ الانتخاب والاختيار، ومع أن الاسماعيلية -من هذه الوجهه- لم يبتكروا شيئاً من عند أنفسهم إلا أن حكم علماء الغرب بشأنهم كان على ما يبدو قاسياً أكثر مما ينبغي. فأنه إن تخطى هذه الفرق في حق بعضها، فتتعرض كلها مجتمعة لسهام التوبيخ، كما يتعرض علماء الإسلام عامة للذم، لخطأ ولا شك".

ثم يمضي فيقول في نهاية الصفحة: "حتى تلك الفئة الاسماعيلية التي كانت تسمى "بالحشاشين"، لم تكن أول جماعة استفادت من هذه الحرية، حرية الفتك الذي هو القتل، ويدعى الآن الاغتيال، إنها الحرية التي استخدمتها الأقلية المظلومة ضد المظالم والظالمين -وطبقاً لما هو سائد- يوصف شيخ الجبل نفسه، بأنه لم يكن ظالماً مجرماً، وقد أطلق اللفظ أي الحشاشون أو القتلة السفّاحون

(1) رينه دوسو "تاريخ النصرية ومذهبهم"، طبع باريس (1900)، ص49.

في الأصل على هذه الجماعة نفسها"، وسنأتي بالتفصيل عن هذه الجماعة في مكان آخر من البحث.

وعودة إلى التاريخ، ففي عام (930) قام القرامطة بأكبر عمل لهم، ففي الأيام الأولى توجه أبو طاهر في جيش مكون من 600 فارس و 900 من المشاة إلى مدينة مكة المقدسة، وقام بالقتل والسلب، وكما هي العادة آنذاك عمد إلى الأسر الجماعي، ومما أوقع الرعب في قلوب المسلمين الأتقياء، إن حمل معه الحجر الأسود* وسائر الآثار المقدسة باعتبارها من التراث الوثني(حسب عقيدتهم)، ويقال أن ثلاثين ألف مسلم قد قتلوا في هذه الكارثة العظيمة، وأن ألفاً وتسعمائة شخص من القتلى قد استشهدوا في حرم الكعبة، وكان مقدار الغنائم التي نهبوها عظيماً جداً، ولا يمكن وصف المشاهد التي اقترنت بهذه الأعمال النجسة الشريرة التي نجمت عن هتك حرمة الكعبة[1]، ولا داعي لأن نذكر تفاصيل بقية العمليات التي قام بها القرامطة، والتي تتمثل في السلب والقتل العام وتحصيل الضرائب من الزوار، تلك العمليات التي استمرت بلا انقطاع حتى وفاة أبو طاهر عام (944)، وكان أحد الخلفاء الفاطميين واسمه القائم أو المنصور، قد أصدر أمره إلى القرامطة بإعادة الحجر الأسود إلى مكانه، لكن نزاعاً قد نشب بين القرامطة والفاطميين، بعد أن سيطر الفاطميون على مصر (969)، وقد ثار بعض القرامطة ضد رؤسائهم القدامى بموالاة العباسيين، وذلك بعد عام أو عامين من تلك الحادثة[2].

---

(1) دوخويه، المصدر السابق، ص 104- 113.

* أن رفع الحجر الاسود من الكعبه الشريف كان أنطلاقاً من تمسكهم بمعتقدات المتصوف في ذلك العصر، من خلال الاتحاد مع الله، وأن الله ذات موجود في كل مكان وكل شيئ وبالتالي لا داعي للحج ولا لوجود رمز مادي كالحجر الاسود. للمزيد من التفاصيل أنظر كتاب" قصة الحضارة" لول ديورانت الجزء 13 صفحة 214 (التصوف).

(2) دوخويه، المصدر السابق، ص 399- 401. وكذلك ص177- 178.

ويبدو أن القرامطة كانوا يجمعون بين مبادىء وقوانين متناقضة، بمعنى أنهم كانوا يعتقدون أن نبذ الإيمان أساس الخلاص والتحرّر من القيود الأخلاقية، وكانوا يساندون نفوذ الناس وحكمهم، ويؤيدون السلب والنهب.

أما الفاطميون فكانوا يؤمنون بأمر الله، وسلطان رجال الدين ونفوذهم وحكمهم، وحسب رأي دوخويه: "كان حُكم الفاطميين يقوم على أساس العدل والإحسان"[1]، كما قيل فإنه لا يعلم جيداً ماهية الرّوابط التى كانت بين القرامطة والاسماعيلية، وهذه النقطة مبهمة قليلاً، ومع أن الخلفاء الفاطميين كانوا يُنكرون علاقتهم بالقرامطة أو يخفونها، لكن القرامطة كانوا يعترفون رسمياً بسيطرة الخلفاء الفاطميين الكاملة في شؤونهم المذهبية وغير المذهبية، لقد أخذت فِرق الاسماعيلية إسمها -قبل كل شيء- من إمامها السابع "إسماعيل"، لكنها كانت إلى جوار تلك التسمية تسمى بأسماء أخرى من قبيل السبعية، والتعليمية، والفاطمية، والقرمطية، والملاحدة، والحشاشين.

وسبب تسميتها بالتعليمية يعود إلى أنها كانت تعتقد أن التعليم الحقيقي يجب أن يؤخذ بواسطة الإمام وحده، وسبب التسمية بالفاطمية هو أنهم كانوا يؤمنون بأولاد وأحفاد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، زوجة علي بن أبي طالب، وسبب التسمية بالقرامطة هو أن حمدان بن قرمط (كان والده يوصف بالقرمط لقصر قامته)، وكان هذا داعيه فرقتهم ومبلّغها، أما الملاحدة فقد أطلقه عليهم أعدائهم، وكانت تسمية الحشاشين قد جاءت نتيجة لدعوة "حسن الصبّاح" وسوف نتحدث عنه بتفصيل أكثر في فقرة أخرى لاحقه.

إن عقلية هؤلاء القوم كثيراً ما كان محورها العدد "سبعة"، وقلّما كان محورها العدد "إثني عشر"، وباتت هذه الأعداد تطبّق سواء في عالم الوجود أو في

(1) دو خويه"المصدر السابق"ص177- 178

بدن الإنسان، بمعنى أن السماء بها سبعة كواكب سيّارة، وإثنا عشر بُرجاً، وأن الأسبوع به سبعة أيام والعام فيه إثنا عشر شهراً، وأن الرقبة بها سبعة فقرات، والظهر فيه إثنا عشر فقرة، وقِسْ على ذلك.

وينطبق على ذلك أيضاً السماوات السبع والأراضي والأقاليم السبعة، وفتحات الرأس والوجه (ثقبا الأذن، محجر العين، فتحتا الأنف والفم)، ويتمثّل الفاصل بين الله وخلق الإنسان بسبعة خطوات استوى في السابعة على العرش[1]، ولا يستطيع الإنسان أن يبلغ الحقيقة اعتماداً على سعيه وجهده دون تأييد إلهي، وهو بحاجة إلى التعليم، ويجب أن يأخذه عن العقل الكلي، ويتجلى العقل الكلي في صورة الرسول أو النّاطق وهو يعلمه في كل مرحلة من مراحل التجلّي على التوالي الحقائق الروحية اللازمة لقيادة البشر وإرشادهم، بصورة أتم وأكمل، طبقاً لتحول فهم البشر وتكامله، ولا يتم ذلك إلا عن طريق من أوصى بهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ينتمي إليه نسبياً، وللنبوّة سبع دورات، ست منها ترد على النحو الآتي: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد وآخرون، وأما الدورة السابعة فقد بدأت بظهور محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق القائم أو صاحب الزمان، وتظهر عقيدة الباطنية التي هي حالة الأنبياء الحقيقية والقلبية والكيفية الداخلية، والمفهوم الواقعي للشريعة لأول مرة في تلك الدورة، ولكل واحد من الأنبياء أو الناطقين سبعة خلفاء، أو أئمة صامتون ويلقبون بالأساس أو السوس (بمعنى الجذر) والسوس هو جليس الناطق المقرّب، ومحرم أسراره ومخزن تعليماته الباطنية[2].

---

(1) ادورد براون، المصدر السابق، ص 300.

(2) Sylvester de Sacy "Expose" المجلدالاول، للمزيد من التفاصيل أنظر الكتاب.

(4) شكل النظام الإداري والمالي العباسي:

لم يستطع النِّظام العباسي الجديد بالرُّجوع بالنِّظام المالي إلى ما كان عليه الحال من بساطة في عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ولا في عهد الخلافة الراشدة، فلم يُدخل أي تغيير على نظام الخراج، ومع ذلك فقد كانت الدولة الجديدة تختلف كثيراً عن السابقة، فالفضل في النّصر الذي حققه العبّاسيون، إنما يرجع أصلاً لعرب العراق الذين ناصبوا الأمويين في الشام العداء، وكانوا بذلك ذُخر الدولة العباسية وسيفها المصلّت في بداية الأمر[1]، أما البدو من العرب فقد أبعدو إلى الصحراء بعد أن يئسوا من تطويرهم وتكييفهم، كما أبعدو كذلك عن الجيش الذي تألّفت صفوفه من الخراسانيين فأقبلوا ينخرطون في كتائبه، وأصبحوا العنصر الفني فيه، ورمزاً لهذه التغييرات الجديدة أو تكملة لها، وتأسّست عاصمة جديدة للدولة العباسية هي بغداد، وقد انتقل مُعظم السكان في المُدن الأخرى إلى العاصمة الجديدة، ونقلوا معهم عاداتهم وأعرافهم، وهكذا زالت سيادة أهل الشام وذهبت سيطرتهم على إرجاء العالم الإسلامي مع ذهاب سيطرة الدولة الأموية، فتحوّل قطب الجذب ونقطة الدائرة من الشام (دمشق)، القريبة من البحر المتوسط إلى بغداد، الأقرب إلى المحيط الهندي وبحر العرب.

إن انتقال المركز الإداري في ذلك العصر من مكان إلى آخر والذي كان من سمات الامبراطورية الإسلامية له آثاره الكبيرة على سياسة وسيرة تلك الدولة في كل فترة من خلال المؤثرات البيئية والمواريث التاريخية المتأصّلة لأهل المنطقة والتي تنعكس بالتالي على سيرة الخلفاء ولقراراتهم المهمة.وبالتالي مستقبل النظام ككل.

---

(1) أدوارد برّوي"تاريخ الحضارات"،ج2،القرون الوسطى،منشورات عويدات،بيروت،باريس،الطبعة الثانية، 1986،ص125.

5- أسباب الاضطرابات والثورات في العصر العباسي:

لم يستطع هذا النِّظام من أن يحلّ كل المشاكل العارضة أو أن يزيل أسباب شكوى الشاكين، أو الناقمين التي قامت عليها ثورة العباسيين، واستولت على السلطة على أساس أنها سوف تحل كل تلك المشاكل التي واجهت الدولة الأموية من قبل.

فالفوارق السياسية والاجتماعية لم تفقد شيئاً من حدّتها إذ لم يؤخذ شيء من أصحاب الأملاك الكبيرة عرباً كانوا أم أجانب، لإرضاء هذه الطبقات أو للحد من المُعارضة الدينية للدولة الجديدة.

إن عملية الإصلاح لا يمكن أن تتم بمجيء حاكم قوي دون أن يكون له حِزب سياسي يمتلك الايديولوجيا والمنهاج المتكامل للتغيير مستنداً في ذلك على تأييد أغلبية كبيرة من أبناء العامة، فكيف يمكن أن يحصل التغيير لمجرّد انتقال السُلطة من بني أمية إلى بني العباس، وتغيير مركز السُلطة من دمشق صاحبة الإرث البيزنطي إلى بغداد القريبة من المشرق الساساني؟ وكيف يمكن أن يرضى الشيعة مثلاً عن عهد ليس رجاله القائمون على أمره من أولاد الأمام على بن أبي طالب؟ وهكذا بقيت الحزبيات والعصبيات راكده تحت الرّماد أو أنها انبثقت من جديد تحت مظاهر وأشكال جديدة، تظهر بشكل ثورات وانتفاضات كلما تهيأت لها الظروف بذلك[1]، وإذا كان الإيرانيون هم وقود ثورة بني العبّاس في خراسان، والتي أوصلتهم إلى السلطة فبقوا على تشكياتهم يتذمّرون بمرارة. ولعلّهم قوبلوا بشيء من الأسف والحسرة، بروز بعض الأعراب الذي ساعدهم انتصارهم على الظهور فسارعوا بعد أن تمّت لهم الغَلبة للتخلّص من بطلهم بالقضاء على أبو مسلم الخراساني الذي أمنّ النصر للعباسيين.

(1) يشار إلى الثورات والانتفاضات في أغلب كتب التاريخ بالفتن ويشيدون بالخلفاء الذين يقضون عليها.

لأن كل هذه الأمور تبقى غامضة مبهمة مجهولة تصعب معرفتها بالتفصيل المرتجى إلا أنها واضحة في خطوطها الكبرى، بحيث نفهم جيداً وندرك تماماً أن هذا الغليان الفكري والاجتماعي والاقتصادي الذي هيّأ للثورة العباسية لم يهدأ بعد أن تمت له الغلبة وحقق النصر، وهكذا نجد في التاريخ أن العباسيين لم يواجهوا استقراراً سياسياً في بداية الأمر وانقسمت الخلافة إلى ثلاثة مراحل على الأقل كانت المراحل الأولى منها تشهد اضطراباً وعنفاً ربما يكون أكثر مما كان عليه الحال في العصر الأموي، هذا الاضطراب الذي ضرب سَردقةً عالياً في كل مكان:

1- في إسبانيا استطاع أحد الأمراء الأمويين بعد أن نجا بنفسه من المذابح التي أعدها لهم العباسيون، أن ينشيء له دولة مستقلة عن الدولة العباسية في المركز.

2- في المغرب كانت هناك نزاعات مع الخوارج نتيجة الصّعوبات النّاجمة عن الاتّجار مع بيزنطية، وفي سوريا التي لم تغفر العهد الجديد اغتصابه السلطة منها والاستئثار به دونها وانتقالها إلى عدوّها التاريخي من أهل العراق، ومما هو أوقع مدلولاً من هذا كله، الاضطرابات التي شجرت في إيران نفسها، حيث نرى إطلاله لمظاهر دينية ومطالب أدهى وأكثر تعقيداً.

وملخص القول فهذه المنطقة الجبلية الممتدة بين خراسان وأرمينيا وما إليها من سكان سوادهم يعيشون في جوانب الإسلام في هذه المناطق الجبلية التي تُشرف على بحر قزوين، تبقى أبداً في غليان من جراء الدعوات الدينية المُتتالية التي أدّت إليها بعض التعاليم الدينية الإسلامية وتصادمها مع ما هو مترسّخ في عقول الناس في تلك المناطق من الديانات المانويّة والزرادشتيّة والمزدكيّة، هذه القوالب الدينيّة التي ابتسمت إلى الديّانة الإسلامية في باديء الأمر ولكنها تبقى تحنّ إليها دوماً وبشكل خاص نفوس الطبقات الفقيرة والشعبية في إيران القديمة لما تجد فيها

من طقوس وتقاليد وتعليمات تجدها أقرب إلى قناعاتها الباطنية من التعاليم الإسلامية في تلك المرحلة التاريخية بالذات والتي لم يكن للإسلام من وسائل إيضاح وشروح بلغات تلك الأقوام تكفي لاستيعاب الدين الإسلامي وترسيخ تعاليمه، بفترة زمنية قصيرة.

وهكذا كشفت هذه الأقوام عن وجود مُعارضة قوية، قومية واجتماعية انتصبت في وجه هذه الأوساط الحاكمة التي ربطت مصيرها، في المجالين الديني والسياسي بمصير العباسيين، ومن أعماق بعض الانتفاضات انطلق عجيج المطالب الصّاخبة، فردّدت أصدائها طبقات الفلاحين الرّازحين تحت جور كبار الملاكين، فراحوا ينزلونهم وفقاً لنزعتهم الدينية منزلة الغريب المغتصب.

ولعل أشهر هذه الثورات تلك الثورة التي قام بها الخرمية وانطلقت من مبدأ الخير والشر وأقرّت عبادة أبي مسلم الخراساني، وقالت بتناسخ الأرواح والإباحية الجنسيّة، وباستواء الأديان جميعاً، وذهبت للمطالبة بالمساواة الاجتماعية. والعرقيه وعلى أساس إنصاف المسلمين ومعاملتهم بالتساوي دون تمييز بين العرب والقوميات الاخرى وقد عرفت تلك الدعوة "بالشعوبية" في ذلك العصر.

وقد ذكرنا سابقاً عن حركة بابك الخرمي على سبيل المثال، فبعد أن هُزم بابك الخرمي في مطلع القرن التاسع في أذربيجان، انضمت بعض فرقهم فيما بعد إلى الثورة التي قام بها مزيار[1]، وإذ ذاك أصبح الفلاحين يهاجمون الملاكين من العرب في هذه الأقطار الجبلية الواقعة جنوب بحر قزوين مهاجمة قاسية جداً، وبعد أن سيطر الخرميون وأتباع مزيار على المنطقة سيطرة تامة لفترة من الزمن، انهزموا شرّ هزيمة في عهد المعتصم على يد قائده "الأفشين"، كما ذكرنا سابقاً

(1) من تاريخ الحضارات، ج2، المصدر السابق، ص131.

إلا أن إبادتهم لم تؤدِ قط إلى أيّة تهدئة في المُعارضة التي أخذت تعتمد منذ ذاك على عناصر إسلامية خارجية.

صحيح أن العباسيين خرجوا من المعمعة ظافرين كاسبين، إلا أن للمجهود القومي الذي بذلوه لم يبق بدون تأثير على هذه التغييرات العسكرية التي أفضت بهم إلى الهاوية بعد حين.

إن العنف السياسي في عصر الدولة العباسية يمكن أن ينقسم إلى ثلاثة أشكال:

1- حوادث القتل البشعة التي حصلت بين الخلفاء والأمراء العباسيين أنفسهم من أجل الاستحواذ على السلطة.

2- الحركات السياسية المُعارضة من ثورات وانتقاضات ناجمة عن مُطالبة مستضعفين بحقوقهم وعدم حصولهم على درجة الرِّضى من السُّلطة، ويسمي بعض المؤرخين تلك الحركات (بالفِتن) حسب انحيازهم لهذه القضية دون أخرى.

3- حركات الجيوش والسُّلطات الأمنية في قمع المُعارضة وكل ما هو خطر عليهم وأعمال الاغتيالات وأحكام القتل والغدر للمُفكرين والعُلماء ولأصحاب البدع والأفكار الغريبة التي كانت قد نشأت هنا وهناك.

لقد وجدنا تفاصيل عن كل تلك الأحداث الدموية في العديد من المصادر التاريخية التي تتمتع بقدر كبير من الموضوعية مثل كتاب هادي العلوي في هذا الخصوص[1] ننتقي قسم من تلك الأحداث وغيرها، في الفقرة الآحقة لكي نعطي نماذج من أشكال العنف السياسي الذي مورس في العصر العباسي الذهبي، والذي قد يفوق ما شهدناه في الفصل الأول من البحث .

(1) هادي العلوي"الاغتيال السياسي في الاسلام" دار المدى للثقافة والنشر،دمشق،ط4(2004).

6- الاغتيالات في العصر العباسي على يد السُلطة:

(6-1)اغتيال إدريس بن عبدالله من أحفاد الحسن بن علي:

الذي شارك في تمرّد قادة أحد أبناء عمّه بالحجاز في خِلافة موسى الهادي أخ الرشيد، حيث هرب بعد سحق التمرد إلى مصر، ومن هناك واصل سيره إلى المغرب.

حيث بدأ بتنظيم حركة ناجحة ضد العباسيين، انتهت إلى إقامة أول دولة علوية في إفريقيا، وكانت حركة إدريس الثاني حركة انفصالية خطيرة ضد الخلافة العباسية بعد انفصال الاندلس بزعامة عبدالرحمن الداخل، وقد ارتأى الرّشيد الجوء إلى المكيدة لضرب إدريس وحركته، بدلاً من استخدام القوة العسكرية ويتفق معظم المؤرخين على أن إدريس مات مسموماً، وذلك عن طريق شخص مُرسل من الرشيد، ودسّ إليه السُّم عن غفلة[1]، ومات إدريس وكافأ الرشيد ذلك الشّخص الذي دبّر له هذه العملية بتعيينه موظفاً كبيراً في مصر.

وكانت لإدريس جارية حامل منه فانتظرها أعوانه حتى ولدت له ولداً سمّوه إدريس وتعهّدوه ليكون وريثاً لوالده، واستمروا في هذه الأثناء يُدبِّرون شؤون البلاد حتى بلغ الوريث سن الرُّشد، وقد استطاعوا بذلك صيانة الدولةاادارياً ومنعها من السقوط، فلم يتحقق للرّشيد الهدف الذي كان يتوخّاه من اغتيال مؤسسها.

(6- 2) تصفية الوزير ثم وليّ العهد:

بعد أن انفرد المأمون بالخِلافة بمقتل أخيه الأمين، وكان في خراسان استدعى الإمام علي بن موسى الكاظم (الرضا)، وهو الإمام الثامن لدى الشيعة،

(1) أبو الفرج الأصفهاني "مقاتل الطالبين"، القاهرة (1949)، ص489، (الفصل المخصص لإدريس عبدالله).

وقرّر تعيينه ولياً للعهد، وقد سبب هذا الإجراء تمرّداً في بغداد قاده عم المأمون إبراهيم بن المهدي، وتم فيه خلع المأمون ومُبايعة إبراهيم بالخلافة، وكانت أخبار التمرّد تصل إلى الوزير الفضل بن سهل فيكتمها عنه، وكأنه كان يريد أن يعالج الموضوع بنفسه قبل أن ينتبه إليها المأمون، لكن الأمور تفاقمت وخرجت من يد الوزير، فاضطر علي موسى الرضا إلى مُكاشفة الخليفة بتفاصيل ما يجري في بغداد، وبيّن له أن العباسيين وأنصارهم في بغداد قد خرجوا عن طاعته بسبب ولاية العهد، وأن الفضل يستر عنه الأخبار، وقرّر المأمون أن يتوجّه إلى بغداد لتدارك الأوضاع.

وفي مدينة سرخس كان الفضل بن سهل الذي رافق الخليفة في عودته يغتسل في الحمام، فشدّ عليه جماعة وتناولوه بسيوفهم فأردوه قتيلاً، وكان المُهاجمون من حشد المأمون، فأمر بالبحث عنهم وجعل لمن جاء بهم جائزة قدرها عشرة آلاف دينار، فلما مثلوا أمامه قالوا: "أنت أمرتنا بقتله"، فأمر بإعدامهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل شقيق الفضل، وكان معتمد المأمون في واسط[1].

وقد بعث المأمون مع الرؤوس كتاباً يرثي فيه المغدور ويبكيه، ويخبر الشقيق أنه قد صيّره مكان شقيقه، ويبدو أن المأمون من سلوكه هذا أنه سياسي بارع من طِراز معاوية، ورجل دولة دقيق الحساب، وبعد مقتل الفضل في سرخس، واصل المأمون سيره إلى بغداد فنزل في طريقه بمدينة طوس، ليقيم أياماً عند ضريح والده الرّشيد، وهناك مات ولي العهد فجأه (علي موسى الرضا).

وقد وردت روايات عديدة تشير إلى أنه مات مسموماً بأكل العنب أو بأخذ ماء الرمان عندما شعر بألم في أمعائه، ولكن تسميم الرضا غير مُتفق عليه من قبل جميع الرواة[2].

(1) أنظر الطبري "الكامل في التاريخ"، حوادث، 202هـ.
(2) أنظر الطبري "الكامل في التاريخ"، حوادث 203هـ.

(6- 3) مقتل المتوكّل:

قُتل المتوكّل بتدبير من إبنه المنتصر وحاشيته التركية، فقد باغته المسلّحون وهم أنفسهم من أفراد القصر في حجرته، وخبطوه بسيوفهم جهاراً ودون أية تكتيكات، ويعود سبب غدر الإبن بأبيه لأنه قدّم عليه في ولاية العهد أخاه الأصغر، بالإضافة للأسباب الرئيسية الأخرى في كون أن المتغلّبين الأتراك في عهد المتوكل قد اشتد بأسهم، وأخذوا يتأهّبون للانقضاض على الخلافة وانتزاع السُّلطة الفعلية منها، وكان المتوكّل قويّاً مهيوباً، والدولة في عهده لا تزال مُحتفظة بوحدتها وتكاملها المركزي، فلم يكن في ميسور أحد أن يتطاول على سلطته، فدبّروا خطّة لاغتياله، وانتهزوا فرصة تأخير الإبن الأكبر لأداء المكيدة، والدّليل على ذلك أنه بعد قتل المتوكّل استخلف الإبن بقوة الحاشية التركية خِلافاً لعقد الولاية، وبهذا تمت للأتراك السيطرة على الخلافة العباسية بإزاحة آخر الخلفاء الأقوياء، ويمكن اعتبار السيطرة التركيّة على الأمة الإسلامية قد بدأت بوادرها تظهر منذ ذلك الحين.

(6- 4) اغتيال أبو سعيد الجنابي:

مؤسس الحُكم القُرمطي في شرقي الجزيرة العربية، حيث قتله خادمه في الحمام، ويقال أنه راود الخادم في الحمام فاضطر إلى قتله، وقد يكون الاغتيال نتاج خطّة مدبّره في بغداد، لأن الخصم الأكبر للقرامطة يكمن هناك، ومما يُعزّز ذلك واقع الصراع الدموي بين العباسيين والقرامطة، ولم تترتب نتائج خطيرة على اغتيال أبو سعيد فقد استلم بعده ولده الأصغر أبو طاهر الذي واصل سياسة والده وبلغ فيها إلى مدى أبعد مما بلغه الوالد نفسه.

(6- 5) اغتيال علي بن الفضل –الزعيم القُرمطي في اليمن:-

حيث تقول الرواية أن "إبن أبي يعفر" شجّع هذا الرجل على ما جاء من أجله من العراق إلى اليمن، وتعهّد له أن يُشاطره ماله، وعلى هذا الأساس ذهب الرّجل إلى المُذيخره حيث يقيم علي بن الفضل، حيث استدعاه ابن الفضل ليقصد عرقاً له سقى مبضعه سُماً وأعدّه لهذا اليوم، فلما فصد العِرق التهب جسم علي فمات.

وقد هرب الفاعل، ولكنه أدرِك فقُتل. أدى اغتيال علي بن الفضل إلى إضعاف الكيان القرمطي في اليمن ومع أن السلطة اشتدت، واشتدت بعده إلى ولده المُسمى "بالفأفأ" فإن الكيان لم يصمد أمام هجوم موحّد من بعض العشائر اليمنية بقيادة ابن أبي يعفر، وقد استطاع المذكور أن يبسط سلطانه على معظم اليمن ويعيدها إلى الخلافة العباسية[1]. يمكن الاستدلال من أن مصير هذه الدولة كان مرهوناً بقيادة مؤسسها، وأن عملية الاغتيال هذه قد لعبت دوراً حاسماً في القضاء عليها.

(6- 6) اغتيال ألب أرسلان:-

أما اغتيال السلطان السلجوقي الب أرسلان، فقد أغتالته زوجتة زمرّد خاتون لكي تولّي إبنها الأكبر "تتش" السلّطنة بعد وفاة والده الذي سمّمته في عنقود عنب، وقد قام بعده الإبن الآخر "بوري"، ولم يعجبها هو الآخر فألحقته بأخيه وأجلست مكانه "شهاب الدين بن بوري" لكي تضمن لها التحكيم في السُلطة الى أمد أطول.

كل هذه إغتيالات مارستها السلطة العباسية ضد المُعارضة، أما المُعارضة فقد مارست الاغتيالات التالية:

(1) حسين بن حمد العرش "بلوغ المرام"، القاهرة (1939)، ص23. "كشف أسرار الباطنية"، أخبار علي بن الفضل.

(7) الاغتيالات على يد المُعارضة:

اتسعت حركة المُعارضة في الخلافة العباسية مع تفاقم وتعقّد الأزمات الاجتماعية في عموم المُجتمع الإسلامي، وحصلت في أثناء ذلك تبدلات في مواقع وفصائل الفِرق المُعارضة، فقد استمر الخوارج من خلال تشعّباتهم المعروفة بحرب أشبه ما يكون حرب عصابات قبل انحسارهم في رقعة جغرافية ثابتة.

أما القدرية فقد تطوّروا حينئذ إلى المعتزلة وحافظوا على نهجهم المُعارض إلى عهد المأمون الذي تحالف معهم وجعل مذهبهم رسمياً للدولة، وقد اشتركت المعتزلة في أوائل العصر العباسي في حركة مُسلحة كبرى قادها إبراهيم بن عبدالله الحسين في البصرة، وكادت أن تقضي على الخلافة العبّاسية، لكنها فشلت، ولم يظهر لهم نشاط سياسي هام بعد ذلك.

وقد ظهرت الزيديّة من الشيعة وقاموا بنشاط ملحوظ متراوحاً بين الشدة والخفوت حتى انطفأت جذوره نهائياً بوصولهم إلى السلطة في اليمن، وفي النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، بدأت الاسماعيلية الباطنية نشاطها السِّري الذي تطوّر إلى حركة كاسحة غطّت العالم الإسلامي من مَشرقه إلى مَغربه، وكانت وسيلتهما العمل المسلّح.

إلى جانب ذلك ظهرت حركات مُسلّحة أخرى أخذت شكل انتفاضات في أماكن معينة وعلى يد قيادات غير مُرتبطة بتنظيم فِرق كان من بينها انتفاضة الزّنج في جنوب العراق، والبابكية "الخزامية" في أذربيجان، وقد واصل الخوارج أسلوب الاغتيال ولكن على نطاق ضيّق، والعملية التي قاموا بها هو اغتيال القائد البارز "معن بن زائده"، الذي كان من قوّاد الأمويين في أواخرهم، ثم انضم إلى العباسيين في عهد المنصور، وكان إرهابياً سفّاكاً عيّنه المنصور والياً على اليمن، وكانت قد وقعت فيها قلاقل، فقمعها بوحشيّة وأباد الكثير من أهلها،

ثم أرسله المنصور إلى سجستان، فأساء السيرة فيها، وهناك عزم الخوارج على تصفيته.

وكانت المجموعة الفدائية التي تكفّلت بالعمل قد تتكرت في زي عمال بناء، وكان معن يبني منشآت في منزله، فدخل هؤلاء مع العمال وكانوا يدخلون إلى المنزل ويخرجون عند انتهاء ساعات العمل ينتظرون الفرصة المناسبة في أثناء ذلك، وعندما استدعى معن حَجّاماً واختلى معه في غرفة ليحجم له، فأخرج الخوارج سيوفهم من مخابئها وداهموه في حُجرته وهتف آخر وهو يخبطه بالسيف: "أنا الغلام الطاقي"، نسبه إلى قرية سجستان تسمى طاق[1].

وكانت الإسماعيلية قد ملأت الشّاغر الذي تركه الخوارج وقد لجؤا إلى استراتيجية العمل المسلّح في مرحلة الظهور، وقد تجلّى ذلك أول الأمر في انتفاضات كبرى هي التي تمخّضت عن الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا، والكيانات القرمطية في العراق واليمن وشرقي جزيرة العرب.

لقد بدأت الاسماعيلية بإنتفاضات وإنشاء مواقع النُّفوذ ثم الكيانات لكنها انتهت إلى الاغتيالات، ويقترن هذا التحول عند الاسماعيلية بمقدِّمات دخولها مرحلة الأفول، متمثّلة في انحسار الخلافة الفاطمية في مصر، وشروعها في التدهور، وانكماش الحركة القرمطية في شرقي الجزيرة ثم زوالها في أواخر القرن الرابع الهجري بعد أن صفيت تماماً في العراق والشام، وهكذا يمكن القول أن استراتيجية الاغتيالات السياسية لم يكتب لها النجاح لأي حركة مهما بلغت من سمواً للأهداف فإنها تأول إلى الأفول في نهاية المطاف.

ومن الناحية الدينية الإسلامية، فإن قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تحمل أبعاداً فردية وجماعية فإنها حسب تفسير الفقهاء، يتعين على

(1) الطبري "الكامل في التاريخ" حوادث سنة 151م، وفيات الأعيان ص703.

المسلم أن يقاوم السلطة الجائرة بالوسائل المتاحة له، وحسب شروطها وظروفها، ومن ذلك استخدام السلاح سواء أكان هذا السلاح في حرب مكشوفة ضد السلطة، أم أعمال قتل متفرقة.

وقتل الحاكم الجائر مبدأ إسلامي قديم، فإن الإسلام لم يحرّم الاغتيال السياسي، وإنما حرّم الاغتيال الشخصي فقط.

وهكذا نجد اعتماد العديد من الفِرق الإسلامية المتطرّفة في عصرنا مبدأ الاغتيالات السياسية كإستراتيجية عمل تبيحها الشريعة الإسلامية، على أن التعليل الشرعي للاغتيال لا ينفي دلالته الاستراتيجية، بوصفه نتاجاً لحالة الانحسار التي أصيبت بها الحركة الاسماعيلية على سبيل المال وهو من هذه الناحية تعويض عن فشل الثورة. ولو كان عند الاسماعيلية تعويضاً باهظ الثّمن للمعسكر المعادي، وقد ساعد في بعض حالاته على انتقال سلطة أو انتهاء كيان كما أعطى الاسماعيلية وهي في مرحلة تراجعها هيبة في عيون أعدائها جعلت لها حُضوراً مؤثراً في الأحداث. أن الاحباط والفشل في تولي السلطه يدفع مثل هذة الجماعات بالتمسك بأعمال العنف كي تكسبهم هيبه وأحترام الناس تعويضاً عن الفشل حسب المفاهيم السائدة عندهم.

(8) اغتيالات باطنية*[1]:

(8- 1) قتل المقتدر بالله العباسي: عاصر المقتدر نُهوض الدعوة الاسماعيلية وتوطد دولتها في المغرب والحكم القرمطي في شبه جزيرة العرب، إغتيل المقتدر سنة (320هـ)، حين كان يُحارب مُؤنس الخادم المتمرد عليه، وتوصف عملية الاغتيال بأن جماعة من المغاربة والبربر التابعة لقوة في ظاهر بغداد قد شهروا سيوفهم عليه حين انهزم فقال: "ويحكم أنا الخليفة"،

(1) المقصود بالباطنية هنا هي الحركات والتنظيمات السرية التي تشكلت من قبل الاسماعيلية.

فقالوا: "قد عرفناك يا سفلة قد عرفناك أنت خليفة إبليس تبذل في كل رأس خمسة دنانير وفي كل أسير عشرة دنانير"، (يشيرون في ذلك للمكافآت التي كان يعطيها لمرتزقتة عن كل قتيل أو أسير يأسرونه)؛ ثم ضرب أحدهم بسيفه على عأتقه فطاح على الأرض، وجلس الآخرون على صدره، وذبحوه ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبّرون ويلعنون.

إن اغتيال المُقتدر هو من أوائل العمليات الكبرى التي نفّذها الإسماعليين، لكن مردوده كان ضئيلاً لا سيما أن مركز السُّلطة الفِعلية كانت حينذاك بأيدي أمراء الحرب الأتراك المتسلطين على الخِلافة(السلاجقه).

(8- 2) اغتيال أمير حرب تركي عام (440هـ) أي بعد أكثر من قرن على اغتيال المُقتدر، وكان الهدف هو حاكم همدان الأمير آف سنقر، وقد جرى قتله في كمين نُصب له في طريقه لزيارة أحد رجال الدين جرياً على عادة أمراء الحرب الأتراك في توقير هذه الفئة والعناية بشؤونها، وكان اغتيال هذا الأمير فاتحة عهد لموجة الاغتيالات التي نفّذتها الإسماعيلية على امتداد حوالي القرن والنصف، وهذا يأتي مع ظهور القِلاع الإسماعيلية في المشرق الإسلامي حيث أخذت الحركة بالانكفاء في مواقع نفوذ صغيره كانت تنطلق منها لتنظيم الدعوة في الخارج، وفي هذه الحقبة من الزّمن اتخذ الإسماعيلية هدفاً آخر، حيث حدثت الحروب الصَّليبية، فقد صار الفدائيين الباطنيين مصدر رُعب غير عادي لاولئك الغُزاة، وكانت هناك حملة اغتيالات واسعة ضد الصّليبين.

(8- 3) اغتيال نظام الملك: وهو وزير مشهور في عصر السلاجقة، وكان بمثابة يد ضاربة للمعسكر السلفي الذي بدأ يستحوذ على العالم الإسلامي في ظل حُكم الأتراك السلاجقة، ويتكرس ذلك من خلال كتابة "سياسة تامة" الذي ضمنه البرنامج السياسي للسلطة؛ وتم قتل نظام الملك بسبب قتله

لنجار كان قد قتل مؤذناً من أهل أصفهان، كانوا قد عرضوا عليه الدعوة فلم يستجب، فخافوا أن ينم عليهم بعد أن كان قد عرفهم، وكان الذي تولى قتله نجار باطن، وقد قبض نظام الملك على النجار فأمر بقتله، فقتله تحت التعذيب، فقتل الإسماعيليين نظام الملك إثر ذلك.

وهناك روايات عديدة أخرى في أسباب مقتل نظام الملك حسب ما تحدث به ابن الأثير، وكان مقتل نظام الملك ضربة موجهة لدولة ملكشاه، الذي توفي بعده بخمسة وثلاثين يوماً، فانحلت الدولة وعمّتها القلاقل مما أعطى مُتنفّساً للإسماعيلية، وصان "قلعة الموت" من الاجتياح.

(8- 4) مقتل ابن نظام الملك:

وكان يُدعى "فخر الملك"، اغتالته الباطنية سنة (500هـ)، ولم يُذكر سبب معين لقتله، أما طريقة قتله، فقد كان خارجاً من داره إلى دار النساء عند العصر، فسمع في الطريق صياح رجل مُتظلم شديد الرّقة، وهو يقول: "ذهب المسلمون فلم يبق من يكشف مظلمة ولا يأخذ بيد ملهوف"، فأحضر الرجل إليه فسأله عن أمره، فدفع إليه ورقة مكتوبة بمظلمته، وبينما فخر الدين يتأمل الورقة عاجله المتظلّم بطعنة سكين فقضى عليه.

والمثير في هذه العملية أن الفدائي الإسماعيلي حين قُبض عليه، واستُجوب من جماعة من كبار المسؤولين، قال أنهم وراء خطة الاغتيال فأُخذ هؤلاء وقتلوا جميعاً، ولم تكن لهم علاقة بذلك، وهكذا ضرب أكثر من عصفور بحجر واحد.

(8- 5) اغتيال الآمر بأحكام الله الفاطمي:

تولى الآمر الخلافة بعد والده المُستعلي الذي اغتصب الخلافة من أخيه الأكبر نزار بن المستنصر، وكان لنزار أصحاب من الإسماعيلين داموا على ولائهم له

واعتبروا المستعلي وابنه غاصبين، وكان من مرتكسات هذه الخلافة ظهور الطائفة النزارية(نسبة الى نزار بن المستغفر) التي استعصمت فيما بعد، "بقلعة الموت" تحت قيادة الحسن بن الصباح، وكان الآمر بعد أن اغتصب الخلافة لم يُحسن سياستها مما جعله معزولاً عن جمهور الدّعوة مكروهاً من عامة الناس، فعزم النِّزارية على إنهائه، أما الطريقة التي استخدمت في اغتياله فتتلخّص بما يلي:

خرجت مجموعة فدائية من عشرة أفراد إلى القاهره، وبقيت هناك تتحيّن الفرصة لغرض الاغتيال، ومر وقت طويل نسبياً فتناهى خبرهم إلى الآمر فاحتاط لنفسه وأخذ في تعقبهم، ولما فَشى أمرهم اجتمعوا للتداول، وكانوا يريدون أن يتأكدوا إن كانت السُّلطات في القاهرة قد استطاعت تشخيصهم، فاقترح أحدهم أن يقتلوا واحد منهم ويرموا رأسه في المدينة، فإن تعرفت عليه السُّلطات وجب على الباقين الانسحاب منها، فترددوا في باديء الأمر من هذا الاقتراح لكن الذي اقترح ذلك قال لهم أليس من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته أن نفعل ذلك؟ قالوا: نعم. فقال: وما دللتكم على نفسي، وأخرج سكيناً وطعن بها نفسه فمات بين أيدي أصحابه، فأخذوا رأسه ورموه في الليل في مكان محدد، وفي الصباح خرجوا متفرقين ليستطلعوا الحال فوجدوا الناس يبحثون في شأن الرأس وصاحبه دون أن يعرفه أحد منهم ،وأيقن التسعة أن السلطات لم تتوصل إلى تشخيصهم فاطمأنوا إلى الإقامة في المدينة لأداء ما كلفوا به، وجاء يوم أحب الآمر أن يذهب للنزهة في جزيرة تسمى الروضة، وكان عليه للوصول إليها أن يمر على جسر ممدود من القاهرة إلى الجزيرة ، وكان من عادة الخلفاء أن يعلنوا نيتهم في الخروج بين الحاشية حتى يكونوا متأهبين لما ينبغي من الخدمة، فسرى الخبر إلى المجموعة النزارية، فسبقوه إلى الجزيرة وكان في قبالة الجسر فرن فدخلوه ودفعوا إلى الفران دراهم وافره ليعمل لهم فطيره بسمن وعسل، فأخذ

الفران يخبز لهم وهم يأكلون، وكانوا في أثناء ذلك يتطلعون صوب الجسر حتى طلع الآمر منه، وكان الجسر ضيّقاً ولا يسمح بمرور موكب فرآه منفرداً عن حراسه، فوثبوا عليه ومزّقوه بسكاكينهم، ولكي يتأكّدوا من الإجهاز عليه قفز أحدهم فركب وراءه وطعنه طعنات مميتة، وفي هذه اللحظات وصل الحرس إلى خليفتهم ولكن بعد أن كان قد انتهى غير أنهم أدركوا الرجال التسعة وقتلوهم.

(8- 6)- اغتيال أمر الحرب الإرهابي:

كانت مدينة الموصل شمال العراق قد خضعت لأمراء الحرب الأتراك، الذين تداولوا السّلطة بالوراثة أو التغلب. وكانت في ذلك الحين من مراكز النشاط الاسماعيلي، فتصدى لها أمراؤها الأتراك على طريقتهم، وكان أشدهم في ذلك أمير حرب متدين، يسمى قسيم الدولة آف سنقر البرسقي. يقول ابن الأثير[1]: "إن هذا الرجل قد تولّى استقصاء الباطنية في الموصل"، ووصله خبر أنهم يجتمعون لدى إسكافي في درب إيليا، (من أحياء الموصل)، فقبض عليه واستجوبه فلم يخبره بشيء، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه وعضوه التناسلي، ثم رجموه بالحجارة حتى مات، فترصّد الباطنية لآف سنقر حتى وجدوا منه غفله وهو يصلي الجمعة، فانقضّ عليه بضعة عشر رجل منهم بالسكاكين، وكان منفرداً عن حرّاسه فقاتلهم بنفسه وجرح ثلاثة منهم، لكنهم استطاعوا القضاء عليه.

(9)- التعذيب في العصر العباسي(2):

نأتي إلى العباسيين فتجد أكثرهم دموية، وهم المهدي، وإبنه هارون الرشيد قد عُرفا بالتشدّد في الدين، فالمهدي خاض في دماء المثقّفين الذين مثلوا في عهده، منحى التنوير الإسلامي، بحجة مُكافحة الزندقة.

---

(1) ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، حوادث سنة 520 هـ، (المصدر السابق نفسه).

وقُتل على يده صالح بن عبد القدوس، شاعر الحكمة والداعي إلى الزُّهد، قالوا أنه شطره نصفين بضربة واحدة على هامته، وعلّق جثّته بنصفيها في إحدى ساحات بغداد، وكان قد شاخ وأدركه العمى، وأعدم بشار بن برد جلداً وقد بلغ السبعين من العمر. ويشغل المهدي مكانة خاصة عند رجال الدين بسبب سُلوكه هذا، وذلك في ملاحقتة للزنادقة، التي تمت بدوافع سياسية لأنهم كانوا ضمن فِئات المعارضة للعباسيين الأوائل كما أسلفنا سابقاً.

أن إدارة عمليات الملاحقة على يد المهدي بالذّات قد تمت بدلالة خاصة مُستمدة من شخصية المهدي الذي عُرف بشدة الغيره الدينية، وتُجسّد طريقة إعدامه صالح وبشار، حقد العباسيين الدموي على المتنوّرين، أما الرّشيد فقد عُرف بكثرة سفره إلى مكة لغرض أداء فريضة الحج، ويُقال أنه كان يحج سنة ويغزو سنة، وكان مولعاً بالمواعظ فكان يستدعي الواعظين أمثال "أبو العتاهية" ليتلوا عليه من زُهديّاته حتى يُبكيه، ويقول ابن الأثير: "أنه كان يُصلي كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا"[1].

ومن بين آخر أعمال الرّشيد إعدامه أحد الخارجين عليه في المشرق، ويدعى "بشير بن الليث"، وتبعاً لرواية الطبري في تاريخه، كانت طريقة إعدامه هذا الرجل تعكس روح العذاب الأخروي ونزعة القرينة التي كانت معمولة في الأزمنة القديمة في تقديم البشر قرابين للآلهة، فقد استدعى الرشيد أحد الجزارين وأمره أن لا يشحذ مِدينة، ثم أحضروا فأخذ الجزّار بقطع أوصاله بمدينة الكليلة حتى فصله 14 قطعة.

يُلاحظ مما سبق بوجه عام أن أقل الخلفاء العباسيين تديّناً وأبعدهم عن السلفيّة الدينية كان أقلهم إرهاباً فمثلاً كان المأمون قد مارس القمع بطريقة

(1) ابن الأثير "الكامل في التاريخ" حوادث 197هـ، في الكلام عن الرشيد.

(2)هادي العلوي"التعذيب في الاسلام"دار المدى للثقافه والنشر، دمشق(2004)

دنيوية، مُقننة بالحفاظ على مصالح دولته، ولم يصدر عنه ما يدل على تعطش للدم أو نزعة غريبة تتلذذ بالتعذيب.

وكان المأمون في عِداد الإسلامية المعتزليه، وكان سُلوكه بشكل عام يُعتبر في عِداد جيل التنوير الإسلامي، الذي كان قد بدأ تألّقه قبل زمانه بوقت طويل، ولكن رغم كل هذا فإن اعتباره إمبراطور طاغية تأتي من خِلال إمكانية السيطرة على بلاد تشكّل مساحتها بحدود عشرين مليون كيلومتر مربع ولا بد له إلا أن يكون كذلك وإلا لم تستقيم له شؤون إدارة هكذا دولة في ذلك العصر بالذات.وقد دامت فترة حكمه عشرون عاماً.

أما خلفه المعتصم الذي تابع خلفه المعتزلي قد عُرف بنزعة دموية كانت تقترن في نفس الوقت بعدم تمتعه بعنصر تنوير عقلاني من الطراز الذي عُرف به المأمون. وكان المعتصم أقرب إلى السّلفية منه إلى المُعتزلة. ولم يكن استمراره في الخط المعتزلي إلا على سبيل الوراثة التي تسلمها من المأمون، أما الخليفة المعتضد فقد تميزت سيرة حياته على دلالات مُرضية واضحة، وقد تكون حالتة استثنائية من الجذر الديني للتعذيب في الإسلام محكوماً بدوافع دنيوية من النّمط المعتاد في تاريخ التعذيب عند الأمم أو الأفراد الغير مُنتمين لدين -أو دين سماوي على الأقل- . والمعتضد ظهر في أواخر فتره التغلب التركي على الحكم وكان مدفوعاً بالحرص على استعادة هيبة الخلافة من الأتراك، ويُستفاد من وقائع التعذيب التي جرت على يديه أنها كانت موجهة في الأساس إلى أفراد حاشيتة أو جيشه أو في الإدارة القريبة من ديوان الخلافة.

ويبدو أنه اتخذ الإرهاب وسيلة للسيطرة على المتغلبين الذين اتبعوا نفس الأسلوب مع أسلافه من الخلفاء المُستضعفين، وربما كانت حالتة المَرضية نتيجة لاتباعه هذا الأسلوب وليست سبباً له.

ومن أهم المصادر التي تدخل في تفاصيل أساليب التعذيب في الاسلام والتي اعتمدناها:

1- "الصّواعق المُحرقة على أهلِ البدع والضلال والزّندقة"، لإبن حجر الهيثمي – (القرن العاشر الهجري).

2- "سلاسل الحديد في تقييد أبن أبي الحديد"، لإبن عصفور – (القرن 12هـ)، في الرد على شارع نهج البلاغة.

يمكن الرجوع اليها للمزيد من التفاصيل

(10)- ثورة الزّنج في العراق:

إن جماعة من الزنج جاءوا من إفريقيا الشرقية، كانوا يعملون لمصلحة بعض المتعهدين البصريين في كسح السِّباخ العظيمة، القائمة قرب البصرة (الملح الذي يمنع الزِّراعة هناك).

فظهر رجل يدعى علي بن محمد، ينتسب إلى عليّ وفاطمة من طريق زيد بن علي بن الحسين، ودعا الزِّنج إلى الخروج على مُستثمريهم.

وكان يُنادي بالإصلاح في الأحوال الاجتماعية، ووعد الشّعب المظلوم والعبيد وعداً قاطعاً بتحسين حالهم وضمان الحرية والثروة لهم، وهو ما يصدّر في دعوته وعلى أساس من حقوق أسرته العلويه بل وأكثر من ذلك جاهر بعقيدة الخوارج التي ترفض كل تمييز قومي، والتي بدت سائغة عند أتباعه على الخصوص من الأعاجم وغير العرب. وقد ظهر علي بن محمد سنة (869)، وبعد فترة قليلة استولى على ضواحي البصرة، وسيرت عليه حكومة بغداد جيشاً بعد جيش، فهُزمت جميعاً، خاصة وأن المُرتزقة من الزِّنج انحازت عُموماً إلى جانبه. وسميّت الحركة بأسمهم، وكذلك فإن سكان البصرة الذين نذروا أنفسهم لحريته في 23 تشرين أول(869)، طاقة على الثبات في وجه شجاعة رجالة الضارية، وسرعان ما قامت على قاعدته الحربية الجديدة هذه التي كان يسهل الدفاع عنها بسبب

من تعدد القنوات الصغيره والمستقعات القائمة حولها ، بلدة جديدة هي المختارة ، ولقد استعمل اللبن في بنائها السريع أولاً ، ثم جهّزت بالغنائم العظيمة التي استولى عليها ، وهكذا بسط سلطانه على دجلة من مصبه ثم حمل على خوزستان[1].

ولكن بعد تولي الموفق بالله آمر الجيش الخلافة عام (870) بعد أخاه المعتمد بن المتوكل. و قد سيّر جيشاً لقتال الزنج عام (871)، ولكنه لم يستطع أن يشتبك معهم في معركة حاسمة على الرّغم من بعض الانتصارات الأولية التي تمت له ، وكانت قبائل البدو الضارية في الإقليم المجاور، قد انضمت بدورها إلى صفوف الثائرين. وفي أيلول (871) أوقع صاحب الزنج وأتباعه بالبصرة فنهبوا المدينة الغنية ، عملوا السيف في رقاب أهلها ، فمات منهم ثلاثمائة ألف على ما تقول أبعد الروايات عن المبالغة وأشعلوا النيران في مبانيها ، وكان الموفق نفسه قد خاض المعركة ضد الثائرين في نيسان عام (872) فلم يقدر على شيء. وصادف أن برز من الشرق خطر جديد فاضطر الموفق إلى أن يترك الزنج وشأنهم فترة من الزمن كي يستطيع التفرغ نحو الشرق.وقد دامت سيطرتهم والقرامطه قرابه ثلاثين عاماً.

(11) حركة القرامطة:

وفي عهد الخليفة المعتضد الذي خلف أباه الموفق سنة (891) ثم خلف عمه على العرش أصابت البلاد المحيطة بقلب الامبراطورية هزّة جديدة سبّبتها حركة دينية شعبية سياسية ، فقد نشأ القرامطة كفرقة أول ما نشؤوا في العراق سنة (890) ، في المنطقة المُحيطة بمدينة واسط. بعد أن أخمدت ثورة الزّنج، فهناك نشأ رجل يدعى حمدان قرمط، مركزاً لاتباعه دعاة "دار الهجرة" هذا وكانت الألفة

(1) Th. Noldeke "Aservil war in the east" in Sketches from Eastern Hestoty, J. S. Black, 1892. 146-172.

والشراكة في الأموال بين المجموعة أساساً لتجمعهم وكانوا يقيمون الولائم التي يعتبرها المريدون بولائم المحبة ويتناولون فيها "طعام أهل الجنة" متبعين في ذلك على أغلب الظّن مثل إحدى الفِرق الصائبة "الغنوستية" الأصيلة في تلك الديار منذ القدم. ومن بين معتقداتهم التي تلاحقت بين المعتقدات القديمة والإسلامية وهي أن عبدان وهو صهر حمدان، قد وضع كتاباً شرح فيه طريق المريد أو الناجي إلى بلاغات الفرقةالسبعية(الاسماعيليه) . والغاية من هذه البلاغات السبعة التي رُفعت بعد إلى تسعة أن تنتهي بالمريد إلى أن يؤمن عن طريق الدراسة الدقيقة لمعتقده الديني بأن جمال العقيدة الكلي لمّا ينكشف له بعد، ومن ثم الى أن يشك في أساسها.

ويذلك يُصبح خاضعاً لسلطة الإمام المُستتر وممثلية الذين بقيت أشخاصهم مكتومة عنه دوماً.

ويعلّم أن كل ما أوحى به سابقاً من تنزيل وشرائع دينية إنما يمثّل حجاباً لمعنى باطني لا يُدرك إلا بالتأويل .

حتى إذا أعدّ المريد هذا الإعداد أخيراً بالطّاعة العمياء للجماعة ولرؤسائه، وحُرّر من جميع القُيود العقائدية، ومن جميع أغلال القانون في وقت معاً. ثم أن أحد الدعاة الرئيسين وهو "صاحب الناقة" (والآخر وهو صاحب الظهور) اللذين كان من المفروض أن يكونا مستقرين خارج العراق، استبدل بعبدان وهو داعيه أعظم نشاطاً منه، ويدعى "زكرويه الدنداني" ووجهه الى سوريا ،فنجح سنه (900) في تحريك الإعراب من بني العليص للإنتفاض على الدولة الطولونية[1] التي كانت قد انتهت آنذاك إلى حال من الضعف بعيد جداً.

---

(1) الدولة الطولونية: نسبة إلى أحمد بن طولون في مصر وهو مملوك تركي من بخارى، وكان قائداً لحرس الخليفة في عهد المعتصم، وكان قائداً عسكرياً بارعاً، استطاع من التصدي لهجمات البيزنطيّين الشمالية، وأهم أعمالهم تأسيس جامع ابن طولون (المصدر السابق، ص224).

وعاث القرامطة فساداً في جميع المُدن السورية، ولم تسلم من وحشيتهم وتصمد لحصارهم غير دمشق وحدها، وفي سنة (901) توفى خليفتهم (أبي عبد الله محمد الذي زعم أنه من نسل الإمام علي) فقام بالأمر من بعده أخوه عبد الله أحمد (صاحب الخال)، ولكنه لم يلبث أن أُسر بعد عامين وقُتل في بغداد، وبعد فترة قتل زكرويه أيضاً.

وكانت حُكومة بغداد قد سيطرت على سوريا بعد أن تم سُقوط الطولونيين، وأصبح في ميسورها القضاء على القرامطة هناك وفي العراق، ولكنهم وفقوا في الذهاب الى الإحساء والبحرين والمناطق المحيطة بالخليج، وتمكنوا من إنشاء دولة مستقلة هناك جعلوا عاصمتها "المؤمنيه" بدلاً من "هجر" العاصمة القديمة وتعرف اليوم بمدينة "هفوف" في السعوديه.

وحكموا هناك بوصفهم مفوضين من قبل الإمام المستتر، واعتبروا في كثير من الفطنة التقليد الاعرابي القديم، فسمحوا لشيوخ القبائل بأن يشاركوا في اتخاذ القرارت السياسية.

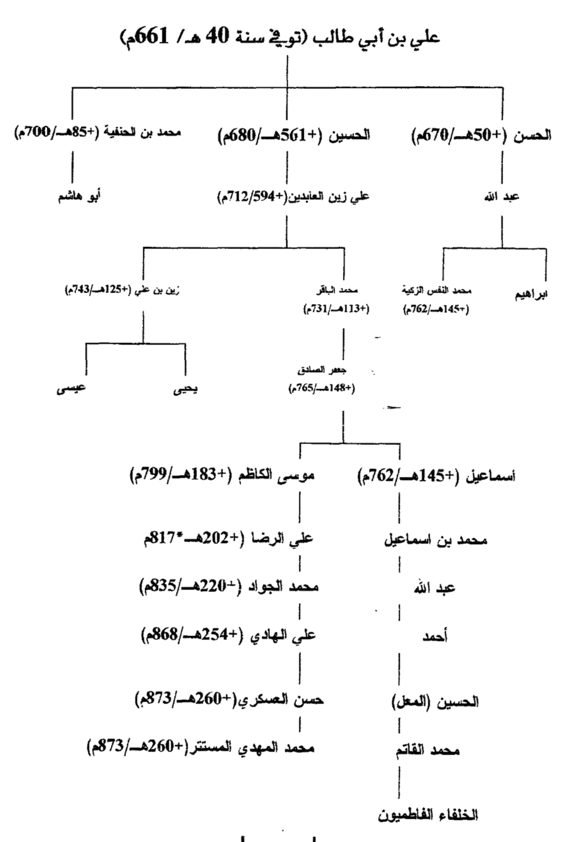
وقد قام "ابن أبي السعيد" وخليفته بالإغارة على العِراق أكثر من مرة فسلب ونهب كما أغار على قوافل الحُجاج (914- 943) واستولوا سنة (930) على مكة.

لقد أستغرقت الحرب على القرامطة في عهد الخليفة المكتفي بن المعتضد (902- 908) والواقع ان حرب الزنج وغارات القرامطة، عملت على شل حركة التجارة والمواصلات لسنوات متطاولة.

أما ترف الطبقات العليا فلم يكن يعد له من حيث التطرّف والتّناهي غير بؤس الطبقات الدنيا وفقرها المدقع على الرغم من الإقتصاد الذي اشتهر به الشرقيون آنذاك.

(12)- ظهور الفِرق الإسماعيلية على المسرح السياسي الإسلامي:

لكي نفهم أساليب العنف الناجم عن الإضطهاد السلطوي لا بد لنا من استعراض الأساليب التي أستخدمت من بعض فِرق الإسماعيلية لما لها من أهمية في عصرنا الحاضر ،ولا يمكن فهم الاسماعليه الا بعد معرفه سلالة عليّ لأن الفرق المختلفه سميت بأسماء أبناء صَهَر الرسول محمد (ص) وأحفادة،وكما في الشكل (4)


علي بن أبي طالب (توفي سنة 40 هـ/ 661م)
الحسن (+50هـ/670م)
الحسين (+561هـ/680م)
محمد بن الحنفية (+85هـ/700م)
عبد الله
علي زين العابدين(+594/712م)
أبو هاشم
ابراهيم
محمد النفس الزكية (+145هـ/762م)
محمد الباقر (+113هـ/731م)
زين بن علي (+125هـ/743م)
جعفر الصادق (+148هـ/765م)
يحيى
عيسى
أسماعيل (+145هـ/762م)
موسى الكاظم (+183هـ/799م)
محمد بن اسماعيل
علي الرضا (+202هـ*817م
عبد الله
محمد الجواد (+220هـ/835م)
أحمد
علي الهادي (+254هـ/868م)
الحسين (المعل)
حسن العسكري(+260هـ/873م)
محمد القاتم
محمد المهدي المستتر(+260هـ/873م)
الخلفاء الفاطميون

لقد وَجد الأسماعيلية مراكز وقلاع تحصنوا فيها في كلا من سوريا وإيران، ونظراً لترابط المنطقة مع بعضها البعض، وعلاقة الحركات السياسية في المناطق المجاورة للعراق، لا بد لنا من استعراض بعض النّشاطات الثورية التي قامت بها تلك الفِرق في ذلك العصر، لما لها مَن دلالات كبيرة في الموروث التاريخي للعنف السياسي السائد في عصرنا الحديث.

ونورد أولاً "أسطورة الفردوس" كما رواها الرَّحالة الشهير"ماركو بولو" الذي ذهب من البندقية في إيطاليا إلى الصّين عبر الشرق الأوسط في عام (1273)، فقد وصف "قلعة الموت" في شمال غرب إيران التي ظلّت طويلاً مقراً للفرقة وكما يلي[1]:

انهم يُسمّون شيخ الجبل في لغتهم الودين (علاء الدين) وقد قامَ بأغلاق وادٍ بين جبلين، وحوّله إلى حديقة فيحاء أكبر وأجمل حديقة يمكن أن تقع عليها عين. وملأها بكل أنواع الفواكه، وأقام فيها قصوراً، ومقصورات من أروع ما يمكن تخيّله، وجميعها مغطاة برسوم فاتنة ومموهة بالذهب، وجعل فيها جداول تفيض بالخمر واللّبن والعسل والماء، وأقام على خِدمة الحديقة فاتنات من أجمل نساء العالم يجدن العزف على مُختلف الآلات الموسيقية، ويغنين بأصوات رخيمة، ويؤدين رقصات تخلب الألباب، ذلك لأن شيخ الجبل كان يريد أن يوحي لشعبه بأن هذه هي الجنة الحقيقية، ولذا فقد نظّمها بالوصف الذي جاء به القرآن "الكريم" للفردوس كحديقة جميلة تفيض بأنهار من الخمر واللابن والعسل والماء مليئة بحور العين.

ومن المؤكد أن المسلمين في هذه الجهات يعتقدون أنها الجنة حقاً.، ولا يُسمح لأحد بدخول هذه الحديقة إلا لهؤلاء الذين يُراد لهم أن يكونوا حشاشين

(1)برنارد لويس "الحشاشون"، تعريب محمد الغرب موسى،مكتبة مدبولي ط2، (2006)القاهرة، ص20.

(Ashishin) وتوجد قلعة عند مدخل الحديقة تبلغ من القوة والمناعة أنها تستطيع مقاومة كل العالم، وليس هناك طريق آخر للدخول، وهو يحتفظ في بلاطة بشبّان من أبناء المنطقة المجاورة تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين، وهو السن الملائمة للجُنديّة والمغامرة، وتعوّد أن يقصّ عليهم قِصصاً عن الجنّة، وهم يعتقدون فيه ثم يدخلهم حديقته في مجموعات من أربعة أو ستة أو عشرة أفراد كل مرة بعد أن يجعلهم يشربون مُخدراً معيناً يسلمهم إلى نُعاس عميق، ثم يأمر برفعهم وحملهم إلى هناك، وهكذا فإنهم عندما يستيقظون يجدون أنفسهم في الجنة!!.

وهكذا فأنهم عندما يستيقظون ويجدون أنفسهم في مِثل هذا المكان الأخّاذ يحسبون أنّه الفردوس حقاً، وتغازلهم السيّدات والفِتيان بما يملأ قلوبهم حبوراً حتى يُشبعن كل رغبات هؤلاء الشُّبان إلى درجة أنهم يتمنُّون ألا يغادروا هذا المكان أبداً.

والآن هذا الأمير الذي يسمونه الشيخ أقام لنفسه بلاطاً عظيماً رائعاً، وجعل سكان الجبل البسطاء يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه نبيّ عظيم، وعندما يريد أن يُرسل أحد حشّاشيه في مُهمة فأنه يأمر بإعطاء المخدر الذي تحدّثت عنه من قبل إلى أحد الشُّبان في الحديقة، ثم يحملونه إلى القصر، ولذا فأنه عندما يستيقظ يجد نفسه في القلعة وليس في الفردوس، ثم يؤتى به إلى حضرة الشيخ، فيركع أمامه في احترام بالغ، معتقداً أنه في حضرة نبي حقيقي، وعندما يسأله الأمير من أين جاء؟ فيُجيبه الشّاب أنه جاء من الفردوس! وأنه كما موصوف في القرآن تماماً وهذا بالطّبع يُفعم الحاضرين الذين لم يشاهدوا ذلك المكان بأكبر رغبة في الدخول إلى هناك.

ولذا فإنه عندما يريد الشيخ أن يقتل أميراً ما، فإنه يقول لمثل هذا الشاب اذهب واقتل فُلاناً أو فلاناً، وعندما تعود سوف أدخلك إلى الفردوس، وإذا مت

أرسل ملائكتي لتحملك إلى هناك. وهكذا أجبرهم الشيخ على الاعتقاد، ولذا فأنهم يُسارعون إلى تلبيه كل أوامره مهما كانت عسيرة أو قاتلة رغبة منهم في العودة إلى الفردوس.

وهكذا أيضاً بثّ الرُّعب في قُلوب جميع الأمراء يدفعون له الجزية من أجل أن يمنحهم السّلام والمودة، وكذلك فإن الشيخ لديه أشخاص آخرون تحت إمرته ينسخون أقواله وينصرفون تماماً كما يفعل، وقد أرسل واحداً منهم إلى أقليم دمشق وأرسل آخر الى أقليم "كردستان".

وهكذا تلت قصص أخرى عمّقت تأثير الحشاشين السوريين في مُخيلة أوروبا، فشاعت قِصص عن حدائق الفردوس، ثم انتشرت في أدب التاريخ أو الرحلات إلى الشّعر والحكايات والأساطير.

وهكذا اتخذت كلمة (Assassin) في أوربا لتعنى "القاتل" وعملته (Assassination) وتعنى الأغتيال في الإنكليزية والفرنسية، ولم تعد تستخدم للدلالة على أية علاقة مُحددة بالطّائفة التي ينتمي إليها هذا الإسم في الأصل ويقول سلفستر دي ساسي في كِتابة "تاريخ الحشاشين" ما يلي: "إنّ هذة الجماعة من السفاكين الذين سقط تحت نِصال خناجرهم أسياد الدول ظلوا أقوياء، لأنهم ولمدة ثلاثة قرون استطاعوا أن يبثّوا الرّعب في قلوب الجميع إلى أن سقط وكر الوحوش في يد الخلافة التي كانت منذ البداية هدفاً للتدمير بأيديهم كرمز للسلطة الروحية والزمنية للمسلمين"[1].

وأثناء الحُكم الطّويل للخليفة الثاني المُستنصر (1036- 1094) وصلت الإمبراطورية الفاطمية إلى أعلى ذُراها ثم تهاوت إلى الإنحلال السّريع، ولدى وفاته تمزّقت الرّسالة الاسماعيلية في أكبر انقسام داخلي في تاريخها[2].

(1) برنارد لويس "المصدر السابق"(ص29)

(2) برنارد لويس، المصدر السابق، ص59.

وفي بداية الدولة الفاطمية كانت للخليفة سيطرة تامة على كل الشؤون، ولكن منذ وفاة الحاكم بدأ العسكريين يزيدون من قوتهم على حساب المدنيين، بل والخليفة نفسه والواقع أن النكسات والكوارث والانقلابات في أواسط القرن الحادي عشر، قد زادت من سُرعة هذا التطور الذي بلغ أقصاه في عام (1074) عندما قام الخليفة المستنصر باستدعاء بدر الجمالي حاكم عكا العسكري للحضور إلى مصر بقواته ليأخذ بزِمام الأمور، وسرعان ما أصبح بدر الجمالي سيداً للبلاد يحمل الألقاب الثّلاثة التي منحها الخليفة له، وهي أمير الجيوش وداعي الدّعاة والوزير، دلالته على سيطرته على الفروع الثلاثة في مُهمات الدولة وهي العسكري والديني والأداري، لكن أصبح يُعرف باللّقب الأول.

ومنذ ذلك الحين أصبح السيّد الحقيقي لمصر هو أمير الجيش الذي يحكم البلاد عن طريق قوّاته، ثم أصبح وراثياً فخلف بدر الجمالي ابنه ثم حفيده ثم سلسلة من الأتوقراطيين العسكريين الآخرين، وكانت تلك نهاية حزينة لأسر حاكمة تدّعي الزّعامة الرّوحية والسياسية لكل العالم الإسلامي وانحطاطاً يُناقض بصورة بارزة العقائد والآمال التي تتحلى بها العقيده الإسماعيلية.

وكان حتماً أن يُثير هذا التغيير السُّخط والمُعارضة بين العناصر الأكثر تماسكاً ونضالية من إعضاء الفِرقة، ومما زاد في مُعارضتها لما يجري من الأمور أن تلك الفترة شهدت تجدّداً للنشاط بين الإسماعيليين في فارس.

غير أن هذه المُعارضة لم تكن بذات بال، وكما لم يترتب على اختفاء بدر الجمالي، وحلول ابنه الأفضل محله عام(1094)أيّ تغير ذي بال في مجرى الأمور، وعندما توفي الخليفة المستنصر بعد ذلك بشهور واجهت أمير الجيوش الأفضل ضرورة إختيار خليفة له. لم يكن الإختيار صعباً، فمن ناحية كان هناك نِزار الإبن الأكبر النّاضج الذي عينه المستنصر ولياً لعهده وَقبلهُ الزعماء

الإسماعيليون بهذه الصفة، ومن جهة أخرى كان هناك أخوه الأصغر المُستعلي، وهو شاب بدون حُلفاء أو مؤيّدين، وبالتالي على استعداد لأن يعتمد كلياً على نصيره القوي، ولا شك أن ذلك كان في ذهن أمير الجيوش الأفضل حين دبّر زواج ابنته من المُستعلي، ولدى وفاة الخليفة المُستنصر أعلن الأفضل زوج ابنته خليفة، وفرّ نزار إلى الإسكندرية، حيث هب في ثورة محلية أحرزت نجاحاً مبدئياً، ولكنه لم يلبث أن هزم وأُسر وقتل بعد ذلك.

وباختيار المُستعلي خليفة، استبعد جميع أتباع الإسماعيلية في بلاد الإسلام الشرقية، وحتى داخل حدود الدولة الفاطمية التي ظهرت فيها حركات معارضة. وقد رفض الإسماعيليون الشرقيون الإعتراف بالخليفة الجديد واعلنوا ولائهم لنزار وخطته وقطعوا كل علاقاتهم بالمؤسسة الفاطمية الواهنة في القاهرة، وهكذا تم الإنقسام بين الدولة والعناصر الثورية، الذي بدأ ظُهوره منذ بداية تكوين الدولة.

وفي عام (1130) اغتيل "الأمير" ابن المستعلي وخليفته بأيدي النِزّاريين، ورفض أتباعه أن يعترفوا بالخليفة الجديد في القاهرة، وتمت بينهم عقيدة بأن ثمّة إبناً طفلاً ضائعاً للأمير، يدعى "الطيب" هو الإمام المخفي والمنتظر، ولن يكون هناك أئمة بعده، وحكم في القاهرة بعد ذلك أربع خلفاء فاطميين ولكنهم لم يعودوا أكثر من أسرة حاكمة مصرية محلية، بدون قوة أو نفوذ أو أمل.

في عام (1171) عندما كان آخر واحد منهم يرقد ميتاً في قصرة أمر القائد الكردي صلاح الدين الذي كان في ذلك الوقت السيد الحقيقي لمصر، بالدعاء للخليفة في بغداد على أعواد المنابر، وهكذا أعلن رسمياً إلغاء الخلافة الفاطميه، التي كانت قد ماتت فِعلاً كقوة دينية سياسية بين عدم الإكتراث المُطلق للجماهير، وجُمعت الكتب الإلحادية الإسماعيلية، وأُحرقت وعادت مصر بعد أكثر من قرنين إلى حظيرة الجماعة السنّية.

ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك أسماعيلين في مصر ولكن الفرقة استمرت في الحياة في بلاد أخرى بفرعيها الرئيسين اللذين انقسمت إليهما بعد وفاة المُستنصر، أما أتباع المُستعلي فقد ذهبوا إلى اليمن والهند - حيث لا يزالون هناك- وأصبحوا يسمون "بالبهرة" ويُطلق على عقيديتهم أحياناً "الدعوى القديمة"، حيث أنها تسير على التقاليد الرئيسية للفترة الفاطمية، وبينما كان المستعليون يجنحون نحو الركود في المراكز البعيدة عن العالم الإسلامي كان منافسوهم النزاريون، أتباع نزار يدخلون في مرحلة من التطوّر النشط سواء في العقيدة أو العمل السياسي، ولعبوا لفترة طويلة قادمة دوراً مُهماً ومُثيراً في الشؤون الإسلامية .

في القرن الحادي عشر انكشف الضعف الداخلي المتزايد في العالم الاسلامي نتيجة تعرضه لسلسلة من الغزوات أهمها تلك التي قام بها الاتراك السلاجقة، حيث أنشأوا أمبراطورية عسكرية جديدة تمتد من أواسط آسيا إلى شواطيء البحر المتوسط، وواكبت هذه الغزوات تغيرات اقتصادية وإجتماعية وثقافية مهمة كانت لها آثار عميقة في تاريخ الإسلام، فكما هي العادة بعد الغزوات اقتطعت أراضي شاسعة،ومنحت دخول مالية كبيرة لضباط الجيوش التركية المنتصرة الذين كونوا مع بني جلدتهم من المسئولين والموظفين الأتراك طبقة حاكمة جديدة حلت محل الأرستقراطية العربية في الازمنة السابقة، وذهبت القوة والثروة والمناصب إلى رجال كانوا في الحقيقة وافدين غرباء لم تمتصهم المدنية في الشرق الأوسط الإسلامي، وقد ازداد مركز الطبقة الممتازة القديمة ضعفاً نتيجة لعوامل أخرى منها هجرة البدو إلى المدن وتغيير طرق التجارة وبداية التغييرات الكبرى التي أدت إلى نهضة أوروبا والإنحلال النّسبي للعالم الإسلامي، وفي هذه الأزمنة من الإضطراب والخطر استطاع الأسياد الترك الجُدد أن

يحافظوا على قدر من القوة والنظام ولكن بثمن مرتفع تمثل في زيادة الإنفاق العسكري، وأحكام القبضة على الحياة العامة والتشدد الفكري.

ولم تعد القوة العسكرية التركية قابلة للإهتزاز، ولم تعد مدارس الفكر السّلفي مُعرضة لتحدٍ خطير، ولكن كانت هناك وسائل أخرى للهجوم، ومرة أخرى قدّمت الإسماعيلية في شكلها الجديد نقداً مُغرياً للمعتقدات التقليدية التي تحميها إمبراطورية السّلاجقة، وذلك بعد أن إنتهجت إستراتيجية ثورية جديدة وفعّالة.

لقد فشلت "الدعوة القديمة" للإسماعيلية، وأخذت الدولة الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة وظهرت الحاجة إلى "الدعوة الجديدة" وأسلوب جديد وهما ما قدمها ثوري آخر يدعى حسن الصباح"، ولأهمية هذا الشخص لا بد من توضيح أعماله.

(12- 1) حسن الصباح والدّعوة الجديدة للإسماعيلية:

وُلد حسن الصباح في مدينة قم، وهي أحدى المراكز الأولى التي استوطنها العرب في إيران. وكانت معقلاً قوياً للشيعة الأثنى عشرية منذ أن دفنت فيها فاطمة الملقبه "معصومة" إبنه موسى ابن جعفر(الإمام السابع) بعد وفاتها أثناء رحلة قامت بها لزيارة أخيها علي موسى الرّضى في خراسان أيام الخليفة المأمون.

كان والد حسن الصباح من الكوفة، ويُقال أنه من أصل يمني[1]، وكانت ولادة حسن في أواسط القرن الحادي عشر، وعندما كان طفلاً انتقل الأب بأسرته إلى مدينة" الري" – بالقرب من مدينة طهران الحديثة- وهناك تلقّى تعليمه الديني، وكانت الرّي مركز لنشاط الدُّعاة الإسماعيليين منذ القرن التاسع، وكان تلميذ لشخصية إسماعيليه معروفة اسمه "عميره زاراب"، وكذلك

(1) برنارد لويس، المصدر السابق، ص67.

"عبد الملك بن عطاش" كبير دعاة الإسماعيلية في غرب إيران والعراق، ثم غادر الرّي عام (1076) وذهب إلى أصفهان ومنها سافر شمالاً إلى أذربيجان ثم إلى ميافارقين، حيث طُرد من المدينة بواسطة القاضي، لأنه أي حسن أصرّ على أن الإمام وحده له الحق في تفسير الدين، نافياً بذلك سُلطة عُلماء السُّنة، فواصل رحلته عبر العراق وسوريا حتى وصل دمشق ثم إلى مصر ووصل القاهرة في (1078) ومكث فيها ثلاث سنوات، ثم أُبعد من عصر إلى شمال إفريقيا ولكن السفينة الإفرنجية التي كان مُسافراً بها تحطمت وأُنقِذ، وحمل إلى سوريا وهناك سافر إلى حلب ووصل إلى أصفهان في (1081) وراح خلال السنوات التسع التالية يسافر في اتساع في بلاد الفُرس ناشراً الدعوة الإسماعيلية، ومن وسط إيران عاد إلى أصفهان ثم اتجه جنوبياً ليقضي ثلاثة أشهر في خوزستان[1]. بعدها أخذ يركز إنتباهه على أقصى الشمال الفارسي على أقاليم الخزر كجيلان ومازندران وبالتحديد على الهضبة المعروفة بأقليم الديلم.

وتقع هذه الأقاليم إلى شمال سلسلة جبال تحيط بالهضبة الإيرانية الكبرى. وكان يسكن تلك الأقاليم أُناس شجعان مُحبين للقتال مستقلّون عن بقية العالم حتى أن حُكام إيران لم يستطيعوا من إخضاعهم على نحو فعّال. ولم يستطع حتى الحجّاج بن يوسف الثقفي أن يدخل تلك المناطق بعد أن أستعان بخريطة عن الممرات الجبلية، ولذلك لم ينتشر الإسلام في الديلم بالفتح العسكري ولكن بمرور الزمن ،انتشر بالتغلغل السلمي كما هو الحال بالنسبة لإقليم كردستان الجبلي.

كان الديلم من آخر الخاضعين للإسلام في المنطقة. ومن أول من أكدوا ذاتيتهم فيه، سياسياً بقيام سلسلة من الأُسر الحاكمة المُستقلة، ودينياً باتخاذهم

(1) حسن الصباح "شذرات قصة حياتي".

عقائد غير سلفية. ومنذ نهاية القرن الثامن عندما لجأ أعضاء من العلويين الهاربين من الاضطهاد العباسي إلى الديلم ووجدوا التأييد لديهم أصبحت الديلم مركزاً للنشاط الشيعي، وأستطاع الديلميون أن يدافعوا عن إستقلالهم بغيرة فائقة ضد خلفاء بغداد وغيرهم من الحكام السُنة.

وأثناء حكم بني بويه نجح الديلميون في فرض سيطرتهم على مُعظم بلاد فارس والعراق، بل وأصبحوا لفترة أوصياء على خُلفاء بغداد أنفسهم حتى وضع مقدم السلاجقة نهاية للحكم الديلمي والشيعي في الامبراطورية الاسلامية وبدأ يضغط بشدة على الديلميون أنفسهم.

لقد لجأ حسن الصباح بين هؤلاء الأقوام الشماليين - ومعظمهم من الشيعه- ومتأثرون بالدعوة الإسماعيلية، وكانت لدعوته النضالية جاذبية كبيرة بين سكان جبال الديلم ومازندران المتمردين والمحبين للقتال، وكان حسن الصباح يتفادى المدن ويشق طريقة عبر الصحارى من خوزستان إلى شرق مازندران.

وأخيراً أستقر في دمغان حيث بقي ثلاثة سنوات، وقد أخذ يتنقل بين سُكان الجبال لنشر دعوته، وسُرعان ما لفت نشاطه انتباه، الوزير نظام الملك الذي أمر السلطات في الري باعتقاله، ولكنها لم تنجح وسافر إلى قزوين التي كانت أنسب قاعدة لحملته في بلاد الديلم.

(12- 2) **قلعة الموت** (Alamot):

وقع اختيار حسن الصباح على قلعة "ألموت"، وهي حِصن مُقام فوق طنف ضيق على قمة صخرة في قلب جبال البورج (Al-Borg)، وسيطر على واد مغلق صالح للزراعة وبارتفاع أكثر من 6000 قدم فوق سطح البحر.

وقد أصبح حسن الصباح سيداً "لقلعة الموت"، ولم يغادرها حتى وفاته بعد خمسة وثلاثون عاماً، وقد كانت المناطق الجبلية هذه ذات ميزة واضحة بالنسبة للتوسع الإسماعيلي، وكانت هناك مناطق أخرى مماثلة تقع في الجنوب الغربي من ايران في المنطقة بين خوزستان وفارس، حيث توافرت الشروط اللازمة للنجاح من بلاد منيعة وسكان قلقون ساخطون وتراث محلي قوي موالي للشيعة والاسماعيلية. وقد كان الزعيم الاسماعيلي في تلك المنطقة يدعى"أبو حمزة" وهو إسكافي من عرجان، كان قد ذهب إلى مصر، وعاد داعياً فاطمياً واستولى على قلعتين تبعدان عدة أميال عن عرجان استخدمها كقاعدة لمزيد من النشاط.

(12- 3) العنف الاسماعيلي:

1- الحادث الأول أن مجموعة من ثمانية عشر إسماعيلياً اعتقلوا بأمر من آمر الشرطة لاشتراكهم معاً في صلوات خاصة، وكان هذا هو لقاءهم الأول، وقد سمح لهم بالانصراف بعد استجوابهم، ولكنهم حاولوا تجنيد مؤذن من سافا كان يعيش في أصفهان ولما رفض الرجل الاستجابة لندائهم خشوا أن يفشي بهم للسلطات فقتلوه.

يقول المؤرخ العربي ابن الأثير "أنه عندما بلغت أنباء الاغتيال الوزير نظام الملك، أعطى أوامره بإعدام زعيم الجماعة وهو نجار يدعى طاهر وكان ابن واعظ تقلّد عدّة مناصب دينية تم قتله بعض الرعاع في تركمان بشبهة أنه إسماعيلي، وقد أعدم طاهر وجُعل عبره وأمثولة وسحلت جثته في ساحة السوق".

2- في عام (1092) قام السلاجقة بأولى محاولاتهم لمواجهة الخطر الإسماعيلي بالقوة العسكرية، فأرسل السلطان ملكشاه حملتين عسكريتين أحدهما ضد قلعة "الموت"، والأخرى ضد كوهستان. وقد أمكن صد الحملتين بمساعدة مؤيّدي الاسماعيليين والمتعاطفين معهم من سكان

رودبار وقزوين، ويروي المؤرخ الجويني "إن السلطان ملكشاة بعث في البداية أميراً يدعى أرسلان تاش، ونزل هذا الأمير بعسكره أمام "الموت" في نفس السنة، ولم يكن لحسن الصباح في "الموت" أكثر من ستين أو سبعين رجلاً وكان لديهم مؤن قليلة.

وقد عاشوا على القليل مما لديهم واستمروا في المعركة ضد محاصريهم إلى أن أقبل رجل يدعى "بو علي" الذي أرسل بدوره 300 رجل، وأسلحة ومعدات لمساعدة حسن الصباح وقاموا بمساعدة حامية "الموت"، وبتأييد من بعض سكان رودبار الذين كانوا متحالفين معهم خارج القلعة شنّوا هجوماً مفاجيء على جيش أرسلان تاش، وبتوفيق العناية الإلهية استطاعوا دحر الجيش فرحل عن "الموت"، وعاد إلى ملكشاه، ثم رفع الحصار عن المركز الاسماعيلي في كوهستان، عندما وصلت الأخبار بوفاة السلطان في تشرين ثاني (1092).

وهكذا أحرز الاسماعيليين أول نصر كبير لهم في الفن الذي صار ينسب إليهم، وهو فن الاغتيال السياسي، وكانت ضحيتهم المختارة الوزير نظام الملك نفسه، الذي أدت جهوده في بذر بذور الشّقاق، ونشر جراثيم التعطيل بينهم، إلى جعله أخطر عدو لهم[1].

وقد دبّر حسن الصباح الاغتيال بعناية، ويقول المؤرخ رشيد الدين*: "إن سيدنا نصب الشباك والفخاخ من أجل أن يعدّ أول كل شيء هدفاً كبيراً كنظام الملك، ويجعله يسقط في شباك الهلاك والموت، وبهذه الأعمال ذاع صيته وعمّت شهرته وأرسى أسس الفدائية، وقال: "من منكم يخلّص هذه الدولة من شرور

(1) برنارد لويس، المصدر السابق، ص79.

*رشيد الدين:صاحب كتاب"جامع التواريخ"واحد من أشهر الكتب التاريخية عن تلك الفقرة وهو رشيد الدين فضل الله من مدينة همدان الايرانيه ولا يزال كتابه من المخطوطات النادرة غير منشورة ويصعب تداولها.

نظام الملك الطوسي؟" فوضع رجل اسمه "بو طالب اراني" يده على صدره علامة الموافقة، وفي منطقة ساهنا من إقليم نهاوند تقدم الرجل وهو متخفٍ في ثياب الصوفيين، إلى محفة نظام الملك الذي كان محمولاً من الساحة العامة إلى خيام حريمة وطعنه بسكين، وبذلك كان نظام الملك أول من قتله الفدائيين وقال (مولانا –عليه ما يستحق– أن قتل هذا الشيطان هو بداية البركة").

وكانت تلك بداية سلسلة طويلة من الهجمات المماثلة، أدت في خلق رعب محسوبة إلى إنزال الموت المفاجيء بملوك وأمراء وقادة جيوش وحكام بل ورجال دين ممن أدانوا نظريات الاسماعيلية وافتوا بقمع من يقول بها، إذ يقول أحد هؤلاء الخصوم الأتقياء "إن قتلهم أحلى من ماء المطر ومن واجب السلاطين والملوك أن يهزموهم ويقتلوهم وينظّفوا وجه الأرض من دنسهم، ولا يجوز الاتصال معهم في زواج، وأن سفك دم ملحد منهم أكبر جزاءاً من قتل سبعين من كفار الروم".

كان الحشاشون يبدون في عيون ضحاياهم مجرمين متعصبين ضالين في مؤامرة شيطانية ضد الدين والمجتمع، أما رفاقهم الاسماعيليون فكانوا ينظرون إليهم باعتبارهم (قوة نخبة) في الحرب ضد أعداء الإمام، وأنهم بقتلهم للطغاة والمغتصبين يعطون دليلاً ناصعاً على إيمانهم وولائهم ويحصلون على البركة الخالدة العاجلة، وقد استخدم الاسماعيلين أنفسهم تعبير "الفدائي" لوصف القاتل منهم، وحفظ لنا الزمن قصيدة إسماعيلية ممتعة تمتدح شجاعتهم وإخلاصهم وتضحياتهم، كما حفظت سجلات "الموت" المحلية التي استشهد بها رشيد الدين وكاشاني في قائمة شرف للاغتيالات، تسجل بها أسماء الضحايا وأسماء المؤمنين التُّقاه الذين قاموا باغتيالهم.

(12- 4) نظام الفرقة:

كانت الحركة الاسماعيلية من حيث الشكل جمعية سرية لها نظامها الخاص وقَسَمِها وشعائرها، ولها درجات من الوظائف والمعرفة، وكانت أسرارها تحفظ جيداً فلا يعرف منها سوى شظايا متناثره مضطربة، وقد كان الكتّاب الاسماعيليون ينظرون إلى فرقتهم باعتبارها حفيظة على أسرار مقدسة وشعائر تقدمية لا يمكن للمؤمن بالعقيدة أن يطّلع عليها، إلا بعد برنامج طويل من الإعداد والإرشاد. وكان التعبير الشائع الذي يطلق على تنظيم الفرقة هو "الدعوة" والقائمون بها هم "الدعاة" الذين يماثلون القسس المعينين، وفي المراحل المتأخرة انقسموا إلى مراتب عليا ودنيا مختلفة من المبشرين والمعلمين والمجازين، ثم المستجيبون وهم الطبقة الدنيا من أعضاء الفرقة وفوقهم يوجد الحجة وهو الداعية الأكبر، وكانت كلمة "الجزيرة" تستخدم لتدل على الاختصاص الإقليمي في العرقي الذي يرأسه الداعي، وكان الاسماعيليون -كغيرهم من الفِرق والطوائف الإسلامية- يسمون زعماءهم الدينيون بالشيوخ وكان الاسم الشائع لعضو الفرقة "الرفيق" ويتخاطب الاعضاء فيما بينهم كرفاق.

(12- 5) الاسماعيلين في سوريا:

فيما كان حسن الصباح ما زال يحكم "بقلعة الموت" وكانت كلماته وأسلحته تحمل رسالته إلى سكان إيران وأمرائها، قامت ثلة صغيرة من أتباعة برحلة طويلة خطرة عبر أراضي العدو نحو الغرب، وكانت سوريا هي وجهتهم وكان غرضهم نقل (الدعوة الجديدة) إلى الاسماعيليين القدامى في تلك البلاد وامداد الحرب ضد السلطة السلجوقية التي أصبحت تفرض ظلها على كل المنطقة من آسيا الصغرى إلى حدود مصر، ولكن كان يوجد في العراق عدد من المتعاطفين مع الاسماعيليين، إلا أن طبيعة الوديان النهرية المسطحة لم تكن لتتيح

سوى مجال ضئيل للاستراتيجية الاسماعيلية القائمة على التغلغل والتحصن والهجوم. أما سوريا* فكانت شيئاً آخر إذ تمتد فيما بين جبال طوروس شمالاً وصحراء سيناء جنوباً أرض شاسعة تتخللها الجبال والوديان والصحاري التي تؤوي سكاناً يتباينون فيما بينهم تبايناً شاسعاً ولديهم نزعة محلية قوية للاستقلال. وخلافاً للمجتمعات النهرية المجاورة في العراق ومصر لم تعرف سوريا الوحدة السياسية إلا نادراً، كان نظامها السائد يقوم على التشذر الطائفي والإقليمي والصراع المتواصل والتغيير.

وبالرغم من أن السوريين كانوا يتحدثون العربية كلسان سائد إلا أنهم منقسمين إلى العديد من العقائد والفرق وبعضها ذات نزعة شيعية متطرفة، والواقع أن أول داعية شيعي ظهر في سوريا كان في القرن الثامن الميلادي، ومع انتهاء القرن التاسع وابتداء القرن العاشر كان باستطاعة الأئمة الاسماعيليين المختبئين أن يعتمدوا على تأييد محلي كاف ليجعلوا من سوريا مركزاً لمقرهم السري، ومسرحاً لأول محاولة يبتذلونها للوصول إلى السلطة وبعد إنشاء الخلافة الفاطمية في مصر وامتدادها إلى آسيا دخلت سوريا تحت حكم إسماعيلي متقطع في أواخر القرن العاشر، وخلال القرن الحادي عشر وفتحت البلاد أمام الدعاة الاسماعيليين وتعاليمهم[1].

لقد أدى دخول السلاجقة في سوريا إلى استجلاب كثير من مشاكل التغيير الاجتماعي والتوترات المألوفة في الشرق، كما أن صدمة الغزو اللاتيني الصليبي ضاعفت من هموم السوريين وشعورهم بالإحباط وجعلهم أكثر استعداداً للترحيب بحمَلة رسالة تُبشّر بالأمل، لا سيما هؤلاء الذين أعدتهم معتقداتهم القائمة لقبول مثل هذه الرسالة، وكان الفاطميون في القاهرة لا يزال لهم أنصار في سوريا

(1) برنارد لويس، المصدر السابق، ص145.

يعتنقون "الدعوة القديمة" للاسماعيليين، ولكن الضعف المخزي للنظام القائم في القاهرة وفشلة في مقاومة الخطر التركي والغزو الصليبي على السواء دفع الكثيرين من أنصاره في سوريا إلى تحويل ولائهم إلى الفرع الاسماعيلي الآخر الذي كان أكثر نشاطاً وأكثر ميلاً إلى الجهاد وبالتالي بدأ أكثر قدرة على النجاح.

حقاً لقد حافظ بعض الشيعة ومعظم السنّة على ولاءاتهم القديمة، ولكن كان هناك الكثيرون ممن التفوا حول القوّة الجديدة التي بدا أنها وحدها القادرة على تهيئة التّصدي الفعّال للغُزاة القادمين من الخارج والحُكام القابعين في الداخل.

(12- 6)الإرهاب الاسماعيلي في سوريا:

قبل الختام لا بد لنا من القاء ضوء عما كان يجري من أعمال عنف في سوريا نظراً لأهمية تأثير الاسماعيليين في تلك المنطقه.

تبدأ القصة الأولى باغتيال مثير لجناح الدولة حاكم حمص في المسجد الجامعة بالمدينة أثناء صلاة الجمعة، وكان قتلته فارسيين متخفيين في زي الصوفية وقد هاجموه لدى إشارة من شيخ كان يصحبهم وقام عراك دام قُتل فيه عدد من حُراس جناح الدولة وقاتله ومما له دلالة خاصة أن معظم الأتراك في حمص فرّوا إلى دمشق عقب الحادث.

كما شنّ الاسماعيليين أول هجوم لهم في سوريا ضد أفاميا (Afamiya) في عام (1106) وكان حاكم هذه المدينة يدعى "خلف بن ملاعب" وهو شيعي وربما كان من أنصار الاسماعيلية في القاهرة.

وفي عام (1096) استولى على أفاميا من رضوان الحاكم السلجوقي لحلب، واستغلّ موقع المكان في استخدامه كقاعدة لحملات ناجحة واسعة النّطاق

لقطع الطريق. وقرر الاسماعيليون أن أفاميا تخدم أغراضهم جيداً، ودبر أبو طاهر(زعيم الحشاشين)، خطة لقتل خلف والاستيلاء على قلعتة، واشترك في المؤامرة بعض سكان أفاميا وكانوا من الاسماعيليين المحليين، وزعيمهم يدعى "أبو الفتح" وهو قاضي من سارمين (Sarmin) المجاورة، وقدمت مجموعه تضم ستة حشاشين من حلب، لتنفيذ الهجوم فاستولوا على حصان وبغل وتجهيزات تابعه للأفرنج بما فيها درع وسلاح وتقدموا بها من حلب إلى أفاميا، وقالوا لخلف: "لقد جئنا إلى هنا لندخل في خدمتك، وعثرنا بفارس من الإفرنج وقتلناه وجئنا لك بحصانه وبغله وتجهيزاته". فرحّب بهم خلف ترحيباً كبيراً، وسمح لهم بالإقامة في قلعة أفاميا بمنزل مُلاصق للسُور، واستطاعوا أن يثقّبوا ثغره في السور نفذ خِلالها أنصارهم في أفاميا وقتلوا "خلف" واستولوا على الحِصن".

حدث ذلك في (1106) ولم يلبث أن وصل "أبو طاهر" بنفسه من حلب لتولي القيادة، ولكن الهجوم على أفاميا لم ينجح بالرغم من بدايته فإن "تانكريد" (Tancred) الأمير الصليبي في أنطاكية المجاورة استغلّ الفرصة لمهاجمة أفاميا، وحاصر المدينة وأرغمها على الاستسلام وأسر "أبا الفتح السارميني" وعذبة حتى القتل وأخذ "أبا طاهر" وزملائه كسُجناء، ثم سمح لهم بإفتداء أنفسهم والعودة إلى حلب.

كان هذا أول صِدام بين الحشاشين والصليبين، إلا أنه لم يؤدي إلى تحويل انتباه الحشاشين من الأهداف الأسلامية إلى الأهداف المسيحية بل ظلّ صِراعهم الرئيسي موجّهاً ضد رؤساء الإسلام، وكان هدفهم المباشر الاستيلاء على قاعدة مهما يكن أصحابها، وكان غرضهم الأكبر ضرب السلطة السلجوقية أينما ظهرت.

وفي عام (1113)، أحرز الاسماعيليون أكثر ضرباتهم طموحاً حتى ذلك الحين بقتلهم الأمير مودود في دمشق، هذا الأمير السلجوقي حاكم الموصل الذي

جاء على رأس بعثة عسكرية من الشرق إلى سوريا، بحجة مساعدة المسلمين السوريين في حربهم ضد الصليبيين، ولكن الحشاشين رأو في هذه البعثة خطراً واضحاً عليهم، ولم يكونوا وحدهم في مخاوفهم تلك، فعندما وصل مودود وقواته إلى حلب عام (1111)، أغلق رضوان أبواب المدينة في وجههم وجمع الحشاشون حوله لمساعدته، وقد حدثت عام (1111)، محاولة أخرى فاشلة لاغتيال ثري فارسي مقيم بالمدينة ومن خصوم الاسماعيليين الأقوياء، وأدت إلى انفجار حملة سُخط شعبي عليهم، والواقع أنه بعد وفاة رضوان اتضح خطر الحشاشين على نُفوذ السلاجقة في الشرق عام (1113)، حيث خلفه ابنه أالب أرسلان(Alp Arsalan) الذي اتبع أول الأمر سياسة أبيه، وتنازل للاسماعيليين عن حصن على الطريق إلى بغداد، ولكن لم يلبث أن حدث رد فِعل، فقد وصل خطاب من السلطان السلجوقي محمد إلى أرسلان، يحذره فيه من خطر الاسماعيليين ويحثّه على تدميرهم.

وقام ابن البديع زعيم سكان المدينة وقائد حرسها الوطني بالتقاط المبادرة، وحثّ الحاكم على اتخاذ تدابير عنيفة ضدهم، "فاعتقل أبو طاهر وقتله، كما قتل اسماعيل الداعي وأخ الحكيم المنجّم وزعماء هذه الطائفة في حلب واعتقل حوالي 200 منهم، وسجن بعضهم واستولى على ممتلكاتهم، وقد سمح فيما بعد بإطلاق سراح البعض بينما ألقى بالآخرين من سطح القلعة فقُتلوا، وتمكن البعض من الهرب والتفرُّق في أنحاء البلاد".

ولكن استطاع الاسماعيليين أن يحتفظوا لأنفسهم بموضع قدَم، وفي عام (1119) ثم طرد عدوُهم "ابن البديع" من المدينة وهرب إلى ماردين، وكان الحشاشون في انتظاره، وهو يعبر الفُرات فقتلوه هو وإبنه، وفي العام التالي طلبوا من حاكم حلب أن يمنحهم إحدى القلاع، ولكن الحاكم كان غير راغب في ذلك ولجأ إلى الحيلة بأن دمّر القلعة بسرعة مُتظاهراً بأن أوامر سابقة صدرت له

بذلك، وقد اغتيل القائد الذي أشرف على تدمير القلعة بعد ذلك بعدة سنوات. ولكن نهاية نفوذ الاسماعيليين في حلب جاءت عام (1124)، عندما اغتيل الحاكم للمدينة العميل الاسماعيلي المحلي لكبير الدعاة، وطرد أنصاره الذين باعوا ممتلكاتهم ورحلوا.

كان يرأس الاسماعيلين في حلب في ذلك الوقت عميلاً محلياً وليس كبير دعاة نفسه، وبعد إعدام أبي طاهر نقل خليفته "بهرام" مركزَ النشاط السياسي للفرقة إلى الجنوب، وسرعان ما بدأ يلعب دوراً نشطاً في دمشق، وكان بهرام كأسلافه فارسياً وهو ابن أخ الأسترابادي الذي أعدم في بغداد عام (1101)، وقد ظلّ لفترة من الوقت يعيش متخفّياً في سرية تامة مُخفياً شخصيته باستمرار مما كان يمكنه من الانتقال من مدينة إلى مدينة، ومن قلعة إلى قلعة دون أن يعرفه أحد، ويحكي المؤرخ كمال الدين أبن النديم فيقول: "إن كل الذين هاجموه قد قتلوا فيما عدا شاب واحد جاء من "كفر ناصح" من إقليم أزاز (شمال حلب)، وقد استطاع أن يهرب دون أن يصاب بأذى، وكانت له أم مُسنة عندما سمعت بأن البرزقي قد قتل، وأن إبنها من بين قتلته ابتهجت وكحل عينيها وامتلأت سروراً، وبعد أيام عاد إينها سليماً فحزنت ومزّقت شعرها وسودت وجهها".

وفي عام (1126) قامت عصابات من الاسماعيلية من حمص ومن كل مكان بالاشتراك مع قوات "توتيجين" (الحاكم التركي لدمشق) في هجوم فاشل ضد الصليبيين، وقرابة انتهاء العام ظهر بهرام علناً في دمشق، ومعه خطاب توصية من "الغازي" حاكم حلب الجديد، حسب المؤرخ الدمشقي "ابن القلانيسي"، وكان أول طلب له بعد استقباله في دمشق هو الحصول على قلعة، وقد منحه "توتيجين" "قلعة بانياس" على الحدود مع مملكة القدس الصليبية، كما حصل

الاسماعيليون على بناية في دمشق أسموها القصر "وبيت الدعوة" واتخذوها مقراً لهم.

ولم يكن الحاكم التركي "توتيجين" محباً للاسماعيليين ولكن يتماشى معهم لأسباب تكتيكية حتى يحين الوقت كي يوجه إليهم ضربة حاسمة، أما المؤرخون الآخرون فإنهم يلقون بالمسؤولية الأساسية على الحاكم ويعزون ما فعل إلى تأثير "الغازي" الذي أنشأ معه بهرام علاقات حميمة عندما كان لا يزال في حلب.

وفي خلال تلك الفترة كان الحشاشون يكافحون عدوّاً آخر إلى جانب الترك ففي نظرهم كانت الخلافة الفاطمية التي لا تزال تحكم في القاهره غاصبة، ومن الواجب المقدس العمل على طردهم، وإنشاء إمامة من خط نزار محلها وخلال النصف الأول من القرن الثاني عشر، نشبت في القاهرة أكثر من ثورة موالية للنزاريين وأمكن إخمادها، وبذل الحاكم في القاهره إهتماماً كبيراً في مواجهة دعاية النزاريين بين المواطنين، وأصدر الخليفة "الأمير" مرسوماً خاصاً دافع فيه عن حقوق خطة الخاص في الخلافة ورفض دعاوي النزاريين.

وفي عام (1121) أغتيل "الأفضل" قائد الجيوش في مصر، والرجل المسؤول بصفة أولية عن خلع الخط النزاري، وقد سبق أن ذكرنا عن أسلوب اغتيال هذا القائد في فقرة سابقة.

وقد عرفت حالتان حدث فيهما اشتباك بين قوات الحشاشين، والجيوش الصليبية كانت من حلب وقلعة بانياس، وفي السنوات العشرين التالية حدثت المرحلة الثالثة والناجحة، والتي استطاع فيها الحشاشون الحصول على قواعد قلاعية لهم في سوريا، وكانت في جبل البهره إلى الجنوب الغربي من موقع محاولتهم الأولى في جبل السماق، وقد تمكنوا من ذلك بعد محاولة فاشلة قام بها الأفرنج للسيطرة على المنطقة.

ففي عام (1132) باع السيد "المسلم" في منطقة الكهف "قلعة قد موس (Qadmus)" الجبلية للحشاشين، وكان قد استعادها من أيدي الافرنج في العام السابق، وبعد سنوات قليلة تنازل إبنه لهم عن منطقة الكهف كلها في سياق صراع مع أبناء عمومتة على التملك، وفي عام (1136- 1137) طردت حامية للإفرنج في "الخوريبة(Khariba)"بواسطة جماعة من الحشاشين تمكنوا من إعادة سيطرتهم بعد أن طُردوا مؤقتاً بواسطة حاكم حماه. أما مصيف(Masyaf) فقد استولوا عليها عام (1140 ـ 1141)، من حاكم عيّنه عليها بنو منقذ الذين اشتروا القلعة عام (1127 ـ 1128)، وهكذا استطاع الحشاشون الحصول على العديد من القلاع[1]، كانوا يحتمون بها إلى أن جاء المغول واحتلوا كل تلك القلاع وتم القضاء على الحشاشون في ايران قضاءاً تاماً أما في سوريا فلا يزال قسم كبير ينتمون الى الاسماعيليه دليل على جذورهم التاريخيه المتبقيه منذ ذلك التاريخ.و كما سيأتي ذكره في الفصل الثالث.

(1) برنارد لويس، المصدر السابق، ص158.

13- الحركة الفكرية وظهور المذاهب والفلسفات في عصر الإسلام الذهبي(العباسي)س:

لا بد لنا من البحث في الحياة الفكريه للناس في ذلك العصر وما كان يدور في أذهانهم من أفكار وفلسفات كنتاج للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسيه السائدة ولاهمية الموضوع على واقع حياتنا الحاليه سوف نتطرق بشيئ من التفاصيل عن ذلك.

لقد تميّز هذا العصر بظهور المذاهب، وكانت أهم الفِرق الإسلامية في البداية:

1- فرقة الخوارج – دعاة الجمهور.

2- فرقة الشيعة – ترى أن الإمامة من حق أسرة النبوّة.

3- فرقة المرجئة – يغلب عليها الجانب السياسي.

4- فرقة القدرية أو المعتزلة – يغلب عليها الجانب الديني والفكر الفلسفي. الصرف أكثر من أي شيء آخر.

والمرجئة – كلمة مُشتقّة من المادة (أرجأ) بمعنى (أخّر)، ويسمى القوم بالمرجئة. لاعتقادهم أن المسلم تؤجل عقوبته إلى يوم القيامة. وأن كل مؤمن - مهما بلغت درجة معصيته- يجب أن يكون ملعوناً (كافراً)[1]، وكانت هذه الفرقة الإسلامية في الأصل - على خلاف الشيعة والخوارج- تقر الخلافة لبني أمية، أما من جهة الأصول العقائدية فإنها تتفق إتفاقاً تاماً مع أهل السنة والجماعة، وكان أفرادها يسعون جاهدين كما يقول فون كرمر إلى تلطيف الجوانب الموحشة وتخفيفها إلى أقصى حد. وكانوا يرون أن أي مؤمن لن يخلد في جهنم إلى الأبد[2]. وكانوا يقدمون الإيمان على العمل.

(1) لين، (Lane, Arabic, English Lexicon) الكتاب الأول،(المصدر السابق) ص1033.

(2) فون كرمر "تاريخ عقائد الإسلام المهمة الشائعة"، ص25.

ولعلهم في ذلك يسايرون البلاط الأموي الذي لم يكن يتفق مع روح أي شيعي أو خارجي على الإطلاق، ويمكن وصفهم بأنهم مسايرون لعصرهم وأبناء وقتهم، غير أن أبا حنيفه مؤسس أحد مذاهب السنة الأربعة قد خرج من بين صفوف هذه الفرقة[1].

وكانت فرقة القدرية أو المعتزلة تفوق سابقتها أهمية إلى حد كبير، وكانت تنادي بحرية الإرادة وتساند طريقة التفويض والاختيار، ويقول شتاينر في حقهم[2]: "وأفضل ما نصف به المعتزلة أن نقول أن ظهور هذا اللون من الفكر يعد بمثابة اعتراض دائم وجّهة الفعل البشري السليم ضد الأحكام الظالمة والأوامر المقررة المقننة".

وكان المعتزلة يرون في أنفسهم أهل العدل والتوحيد أو أنصار العدل الإلهي والتوحيد، وكانوا يقولون أن الجانب الأزلي - وفقاً لأهل السنة- هو تحديد الله لمصير كل شخص مسبقاً، وهو سبحانه يعاقب على الآثام التي قد فرضها جبراً على البشر، وليس للبشر قدره على مواجهة التقدير والمصير.

ويرى القدرية أن هذا اللون من الفكر مخالف للعدل الإلهي، كما أن أهل السنة يرون أن القرآن -شأنه شأن الحق الواحد- أزلي أبدي، ويرون أن صفات الحق منفصلة عن ذات الحق أو هي قابلة للانفصال، لهذا فإنهم "مشركون".

لقد ظهر الطور الأول من الاعتزال في أواسط العصر الأموي، عندما اعتزل واصل بن عطاء في الإجابة الواضحة عن مصير مرتكب الكبيرة، وقال أنه غير مؤمن ولا كافر.كما ذكرنا ذلك في الفصل الاول(أنظر صفحه 73).

---

(1) فون كرمر ، المصدر السابق، ص6.

(2) شتاينر "حول المعتزلة"، ص4.

وأشتقت كلمة المعتزلة من اعتزال واصل عن المجلس، وهناك إجماع على صحة ما ذكرنا فيما يتعلق بأهل هذه الفرقة ونشأتها، وهو يدل على أن العراق كان مسقط رأس هذه الفرقة ومهدها، والعراق هو نفسه بابل القديمة التي كانت محل التقاء الجنسين السامي والسومري واختلاطهما، ولم يمضِ وقت طويل حتى صارت تلك البلاد مركزاً للعلم، ثم صارت بعد ذلك بقليل -في زمن الخلافة العباسية- مقراً للحكم[1].

لكن فون كرمر يقول: "أن محل تكوين معتقدات هؤلاء القوم، ومحل تكاملها كان في دمشق، حيث كانت تحت السيطرة البيزنطية، وكان من بينهم يحيى الدمشقي وثيودور أبو قرة"[2]. والإسم الآخر لهذه الفرقة هو "القدرية"، وهو ينبيء عن إيمانهم بحرية الإرادة[3]، أي أنهم قادرون من خلال إعطاء حرية للعقل من أداء أي عمل يشاؤون.

ويقول أشتاينر: "لإثبات وجود البشر قيل بوجود أصل آخر في مقابل إرادة الله، وهو إرادة البشر"، ومن بين أقوالهم التي ذكرها الطبري عدا خلق القرآن وأنه غير قديم، هو أن الله سوف لا يتجلّى يوم القيامة لأعين خلقه[4]. وهذه الأمور محل مُوافقة الشيعة والمعتزلة اليوم، ومعارضة أهل السنة المتمسكين بالنص القرآني بشدةوبالسنه النبويه المتمثله بأقوال الرسول محمد(ص).

وربماكان تنبّه المعتزلة إلى هذا التفسير يجعل الدين بالضرورة محصوراً في دائرة ضيّقة محدودة ثابتة جامدة، على نحو يقضي على إمكانية التعاطف

(1) دوزي (Dozy)، (عالم مستعرب هولندي من أصل فرنسي)، دار المعارف البريطانية، الطبعة 14، (المصدر السابق) ص201.

(2) فون كرمر، المصدر السابق، ص9- 7.

(3) أشتاينر، المصدر السابق، ص26- 28.

(4) الطبري، ج3، ص1533- 1534.

والتلاقي مع الأوضاع الجديدة عبر الزمن، ولا يتيح الفرصة لإدخال العقيدة والإيمان في ذهن الأذكياء من الناس.

ولعلهم فكروا أيضاً في أن الإيمان بإمكانية رؤية جمال الحق تعالى يؤدي إلى تصور باطل، يلزم من وجوده أن تبدو ذات الله على صورة البشر، والمهم أن ما قرّرته تلك الطائفة وما لم تقررّهُ كان علة انتصار المتمسّكين بالموازين والمقولات العامة[1].

وقد شرح دوزي بوضوح واختصار مظاهر التقدم العديدة التي حققتها المعتزلة[2]، بقوله "عدّلت مبادىء عقائد المعتزلة، وانتشرت فيما بعد في صورة أكثر جدّية، وفي ثوب آخر وصورة مختلفة، خاضعة لنفوذ فلسفة أرسطو، وطبقاً لما تقتضيه طبيعة الأشياء وماهيتها"....

انقسمت فِرقة المعتزلة بدورها إلى عدة فِرق، لكنهم جميعاً كانوا مُتفقين في آرائهم، من حيث إنكار وجود صفات الحق وكل ما يُخالف مبدأ التوحيد.

ولما كانوا يؤمنون بأن الله منزّه ومُبدأ عن أي عمل يخالف العدل، فقد اعتقدوا بأن الإنسان حُر، ومخيّر تماماً في سلوكه وعمله، وقد نصّت إحدى تعاليم المُعتزلة على أن كل الحقائق اللازمة لخلاص البشر ونجاتهم من المعاصي ومن العقاب، مُرتبطة بالعقل، وفي ظل العقل وحده وبقوته وسلطانه، يمكن تتبع حقائق الأمور، ويصدق هذا الأمر قبل نزول القرآن وبعده، على نحو يقيد الأنسان بهذه الحقائق في كل زمان ومكان".

لقد أتبع المعتزله طريقة العقل والأستدلال بفضل تدبرهم وتأملهم في أحكام الشرع. وعن هذا الطريق برزت أحدى مقولاتهم الأساسيه. ومفادها "أن القرآن

---

(1) براون "تاريخ الأدي في إيران"، (المصدر السابق) ص112، ج1 باب/3.

(2) دوزي، حول الإسلام، ترجمة شون، ص205.

حادث لا مخلوق"، رغم مُخالفة هذا الكلام لقول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، وكانوا يقولون أننا نعتبر القرآن - أي كلام الله- في زُمرة المخلوقات، فلا يمكن أعتباره - بناء على ذلك- مُرتبطاً بذات الخالق، لأن ذاته لا تتغير، وعن هذا الطريق تزلزل أساس نزول الوحي إلى حد كبير، وصرّح العديد من المعتزله عَلانية، بأن كتاباً نظيراً للقرآن - بل وأفضل منه- أمرٌ ممكناً، وكان أعتقادهم في الله أطهر وأسمى من أعتقاد أهل الشرع والمتمسِّكين بأوامر الله، والموازين الشرعية وأهل السنه، لأن المعتزله لم يخضعوا قط للفكره القائله بأن خالق الدنيا يمكن أن يظهر على صورة جسمانية، بل ولم يكن لديهم أستعداد لسماع هذا الكلام.

وقد ورد في الحديث أن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) قال: "سوف ترى ربك يوماً كما رأيت قمر التّمام في حرب بدر"[1]. ولما كان المتمسِّكون بالشرع يتلقون الكلام المذكور وفق منطوقه، فأن هذه المسأله كانت دائما حجر عثره في طريق المعتزله، مما ألجأهم إلى التفسير والتوضيح، ومما قاله المعتزله: أن الانسان سوف يرى الله بعد الموت - يعني الروح المبصرة- أي بدليل العقل، كما أنهم أنكروا القول بأن الله الكريم هو خالق الكافرين، ولم تكن المُعجزات الواردة في القرآن الكريم موضع قبولهم، فقد أنكروا أن يكون البحر قد جفّ ليعبره بنو إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام، كما أنكروا أن تتخذ عصا موسى صورة الحيّة، وأن يُحيي عيسى عليه السلام الموتى بعد موتهم[2].وغيرها من القصص التي يعتقدون أنها غير مقبولة عقلياً.وكان قسم منهم يعتقد بعدم وجوب الانجاب غير المحدد أو أعتباره واجباً دينياً.(ولو كان قد

(1) "شرح عقائد النسفي" للتفتازاني، طبع مصر، ج1، ص140، (1936).

(2) أدورد براون "تاريخ الأدب في إيران"، ج1، ب3، (المصدر السابق) ص115.

طُبق مثل هذا المبدأ منذ ذلك الزمان لكنا قد تخلصنا من اكبر مشكله توجه الوطن العربي اليوم وهي الزيادة السكانيه غير المسيطر عليها).

لقد أعطت دراسات المعتزلة الفلسفية مساحة واسعة للعقل في التفكير بحريه في شتى المجالات الطبيعية والعلمية، وأنتجت في العصر الذهبي العباسي أيام المأمون وإبنه الواثق عدداً كبيراً من العلماء، وكان أبرزهم "الفارابي" (توفي عام 950م)، وإبن سينا (ت 1037م)، وإبن رشد (ت1198)، الذين كانوا من حكماء الفترة التالية، ويستحق كل منهم عن جداره أن يلقب بالحكيم، وقد أناروا الطريق أمام فلاسفة عصر النهضة الأوروبية في مراحلها الأولى والتي بدأت عام (1453)، في إيطاليا بعد ترجمتها من العربية إلى اللآتينية عن طريق البيزنطيين، وكان ذلك يتمثل في إعطاء مساحة واسعة للعقل في التفكير لقهر الطبيعة وحل مشاكل الإنسان بنفسه بعيداً عن الاتكال على الأمور الغيبية ودون المساس بالاعتقاد بوحدة الخالق والديانات المُختلفة كلاً حسب اعتناقه وانتسابه الديني.

وقبل هؤلاء الحكماء عاش الكندي[1] المتوفي عام (864)، الذي اهتم اهتماماً خاصاً بالمسائل التي شُغل المعتزلة ببحثها، أما "ابن رُشد" فلم يكتف بالسعي في إثبات أن الدراسات الفلسفية جائزة إنما تجاوز ذلك إلى محاولة إثبات أنها فرضية وأن القرآن الكريم قد حكم بذلك، وقد تبع نفس الطريقة وسلك نفس المسلك فيما يتعلق ببقية المسائل، واشتملت آثاره على موضوعات فلسفية وعلمية واسعة.

وبهذه الطريقة أوجد "إبن سينا" صَدعاً بين الفلسفة وأحكام الشرع، وكانت فرقة المعتزلة قد استنفذت قوتها في مشاحنات مدارس البصرة وبغداد، تلك المشاحنات المرتبطة بالموضوعات الدقيقة واللطيفةوكل ذلك كان بعد أتصالهم بالفلسفات اليونانيه بعد ترجمتها الى العربيه ودراستها بتفحص ودقه.

وقد كان أبو الحسن البصري - أحد معاصري إبن سينا- هو آخر من درس تعاليم المعتزلة مستقلة عن غيرها وأكمل بعض النقاط، وقد أورد "الزمخشري" في كتابه المشهور "الكشاف" (ت1144) التعاليم والعقائد المعتدلة التي أتبعها أسلافه بصورة مقبولة، ونعتها بكمال الذوق وطبقها في مهارة ودقة على تفسير القرآن الكريم، غير أنه لم يتمكن من بسط هذه التعاليم والتوسع فيها بالقدر المناسب[1]. والحق يقال أن كل تلك النهضة العلمية التي قامت في العصر الذهبي العباسي كانت بفضل تلك الباقة من العلماء والفلاسفة المعتزلة الذين شكّلوا قاعدة فكرية للانطلاق نحو التفكير الحر.

ولكن يبدو أن الشُعلة التي اتقدت في العالم الاسلامي لم يُكتب لها البناء والاستمرار لكي تضعنا في سلّم التقدم والحضارة المُستدامة، فقد جاء الخليفة المتوكل ووجه لها ضربة قاصمة، ويذكر الدوزي جانباً من وحشية هذا الحاكم الظالم الذي لا يرعى الحق[2]، حيث قال: ".. ومع هذا كان المتوكل في طريق السنة - وبلا حدود- متمسّكاً أو مشرعاً، ولذا فإن حُكم رجال الدين عليه يختلف عن حكمنا تمام الاختلاف".

ويعتقد ابن كثير (أبو الفداء) "أن المتوكل كان يُغالي بعض الشيء في كراهيته لعلي بن أبي طالب، إذ أن أتباع السنة والجماعة يعزونه ويوقّرونه إلى حد بعيد، باعتباره إبن عم النبي (صلى الله عليه وسلم) وصهره، لكنه يعتبر المتوكل ذو مكانة عالية لأنه حرم الاعتقاد بحدوث القرآن، وكان الخليفة المتوكل يشرب الخمر وينغمس في الشهوات، وحين يعمد إلى الظلم يلجأ إلى

---

(1) الزمخشري: هو جار الله محمود بن عمر من إقليم خوارزم، وكان قد ولد في زمن ازدهار المعتزلة واعتنق مبدأهم وأقبل على دراسة العلوم اللغوية والدينية وأقام في بغداد وتوفي عام 1144. (عن تاريخ أدب إيران ، ص122).

(2) دوزي "كتاب الإسلام" ترجمة (Chauvin) ص 248.

الغدر، ويتحول إلى شيطان مريد، وكان لا يخاف من ارتكاب كل معصية، وكان حاد المزاج شديد الإصرار يعاقب كل من يفكر بأسلوب مُغاير ويعذبه وينكّل به باذلاً كل جهده في هذا السبيل، حريصاً على أن يهلك أمثال هؤلاء ويبطش بهم، وقد بالغ - بطريقة أسوأ - في إحياء ما كان قد صدر من قرارات في حق النصارى واليهود، وهي القرارات التي كانت في طي النسيان في عهد سابقيه من الخلفاء"[1]، ومن بين أعماله أنه خرب قبر الحسين بن علي شهيد كربلاء، وحُرثت الأرض التي كان يقع عليها وزرعت ومُنعت زيارته، كما وجهت الاتهامات إلى أسمى العلماء الربانيين مقاماً وأشرفهم منزلة، أمثال "البخاري"، المحدِّث الكبير ونسبت إليهم البدع الدينية".

ومن جانب آخر ظهر الأشاعرة (نسبة إلى أبو الحسن الأشعري)، بعد موت المتوكل بإثني عشر عاماً شنّوا حملة ومقاومة مستميتة ضد آراء المعتزلة، وكان لأبي الحسن نشاط عظيم في الأمور الأدبية فبعد اصطدامه بأستاذه الجبائي — أحد علماء المعتزلة- وبعد اعتزاله أيّاه، كتب ما يقرب من مائتي رسالة رفض[2].

ولابد من الإشارة هنا إلى أن آل بويه وهي أسرة شيعية إيرانية احتلت مكان الأتراك عام (945م) ولفترة من الزمن، وكانت هذه الجماعة التي تغلفها الأسرار - إلى حد ما- تواصل سيرة المعتزلة وتستهدف التأليف بين العمل والدين، وتطبيق شريعة الإسلام على أُسس الفلسفة اليونانية، وتركيب العلوم الكلية في صورة دائرة معارف وقد أنتجت هذه الجماعة خمسين رسالة[3].

(1) الطبري، التاريخ، ج3، ص1389وما بعدها و ص1419.
(2) دوزي، ص62- 81.
(3) دورد براون، تاريخ الأدب في إيران، ص130.

كذلك ظهر في بغداد حجة الإسلام الغزالي عام (1091) والمتوفى عام (1111م)، ويرى أشتاينر[1] أنه كان يحس في قرارة ضميره أن الانتساب للإسلام يستوجب منه الدفاع عنه علمياً، كما يستوجب إقرار مباني الدين التي تعرضت للتهديد -بقوة البراهين والأدلة- وتشييدها مرة أخرى على أساس أكثر استقراراً وأدعى للطمأنينة، لقد أخذ من حكمة أرسطو، وتصوّف المتصوّفة أسمى ما فيها وأكمله، وطبّقه على شريعة الإسلام على أساس من الحزم والاحتياط، وفي ظل تعاليم "أخوان الصفا" - في باديء الأمر- ثم في ظل "ابن رشد" (الحكيم المغربي)[2]، صارت البلاد الإسبانية إحدى المراكز الفلسفية الرئيسيه في العالم وفي القرون الوسطى أخذت أوروبا نور المعرفة عن إسبانيا، فيما يخص المسائل الفلسفية وبناءاً على قول ديتريس[3] فإن صراعاً قد دبّ في الوجود الذهني أو خارجه بين المذاهب نوعاً وجنساً، مما عرّض دنيا العلم -عدة قرون للقلق والاضطراب، وخلال القرنين التاسع والعاشر الميلادين، تسبب الجدال بين المذاهب الفلسفية المذكورة في إثارة النشاطات الذهنية في المشرق بأسره".

ويجدر الإشارة هنا إلى أن مؤسسي المذاهب الأربعة -الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي- قد شبّوا جميعاً في عهود سيطرة المعتزلة وسيادتهم، ويتقدم أبو حنيفة النعمان عن الباقين زمنياً، فقد ولد عام (700م)، وتوفي عام (767م)، بينما كانت ولادة مالك عام (713)، ووفاته عام (795م)، وكان المنصور يسيء به الظن ولما كان يعتقد أنه لا يحب الأسرة العباسية، فقد قام

---

(1) أشتاينر "كتاب المعتزلة"، ص12.

(2) عاطف العراقي "النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد"، القاهرة (1968).

(3) ديتريس "متون وتراجم ورسالات" (1858)، ص161.

بجلده دون رحمه[1]. والشافعي ولد في نفس السنة التي توفى فيها أبو حنيفة وتوفي عام (820م) في مدينة القاهرة بمصر، بينما ولد أحمد بن حنبل وهو من أهالي مرو عام (780م) وعاش في بغداد وتوفي عام (855).

وهكذا يمكن القول إن ظهور المذاهب السنية الأربعة كان بمثابة ردة فعل مقابل ظهور المعتزلة للمحافظة على الأصول السلفية، وفي هذه الفترة أيضاً انشقت فرقة الشيعة إلى فرقتين الفرقة السبعية أو الاسماعيلية، والفرقة الإمامية الإثني عشرية، وبالنسبة لأصول إمامة كلتا الفرقتين يسود الاتفاق والاعتقاد بأن الرياسة الدينية السامية تصل إلى أحد أخلاف علي بن أبي طالب، وإن الإمام يُختار من جانب سلفه، ويُمنح سجايا فوق الطبيعة، (لا يتمتع بها البشر –خارق للعادة-)، بل ويُمنح صفات شبه سماوية،أو بعبارة أخرى معصومين ولهم مكانه خاصة عند الله مختلفه عن غيرهم.

ويتفق قول الفريقين حول الأئمة السنة الأوّل، ويبدأ الخلاف بينهما عند الإمام جعفر الصادق الذي رحل عام (765م).

لقد عيّن الإمام جعفر الصادق –أول الأمر- إبنه الأكبر "إسماعيل" خليفة له، لكنه عاد فأخذ منه الإمامة وأسندها إلى أخيه الأصغر "موسى الكاظم"، وما لبث إسماعيل أن مات –فتُرك جسده- قبل إيداعه الثرى- تحت بصر العامة، وعلى مرأى منهم، حتى لا يكون هناك شك في وفاته[2].لكن الاسماعيليه اعتقدوا بأبنه محمد وبأنه لا يزال حي وسيظهر مره أخرى عند الضرورة.

---

(1) ابن خلكان، ترجمة دي سلان، ج2، ص547 طبع بولاق (1866) القاهرة، "وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان".

(2) أدورد براون، المصدر السابق، ص136.

كما ظهرت طائفة أخرى وهم الصوفية، وهؤلاء يميلون إلى وحدة الوجود أو الاتحاد بين الجسد والخالق إلى حد الإفراط، في نشاطاتهم الخارجية لنيل درجات دينية عالية، ويجاهدون في سبيل تهذيب أنفسهم وأفكارهم الداخلية، ومن أشهر هؤلاء أبو هاشم (ت 778)، وذي النون المصري (ت 860م)، والجنيد البغدادي (ت 910)، وإبراهيم بن الأدهم (ت 777)، وداود الطائي (ت 778)، وفضيل بن عياض (ت 803 م)، ومعروف الكرخي (ت 815)، وأشهرهم جميعاً الحسين إبن منصور الحلاج، ويدرج البعض الحسن البصري في زمرتهم رغم أنه أدرج أثناء البحث من مؤسسي المعتزلة، وذلك حسب قول دوزي بأنه كان يتباين بين المذهبين، وكذلك رابعة العدوية (ت 753)، التي قال عنها ابن خلكان[1]، بأنها قديسة طوت طريق الحقيقة بخطوات أفضل ونذكر من أقوالها: "من لا ينسى المهُ حين يفكر في مولاة لا يكون صادق الإيمان"[2]، ويرى فون كرمر "أن التصوّف -بالمعنى الصحيح للكلمة- كما يبدو من تصرفات الدراويش-المختلفة قد نشأ على أساس من عقائد الهند وأفكارها، ومبدأ التصوّف ومبناه على الأخص أحد مذاهب الهند الفلسفية المعروفة بالفيدانتا (Vedanta[3]) ".واغلب المتصوفه كانوا من الايرانيين ويعود السبب في ذلك لمحاذاتها للهند[4].

وقبل أن نترك موضوع المذهبية الخاصة بتلك الفترة لابد لنا من الإشارة إلى الديانات الأخرى التي كانت سائدة في العالم الإسلامي، وفي العراق بالذات عدا اليهودية والمسيحية، والزرادشتية والمانوية، فقد كان هناك ولا زال المندائيون الصائبة الحقيقيون في الأهوار بين واسط والبصرة، وكانوا يشكلون مظهراً من

(1) دوزي، طبعة ناسوليز، ص319.
(2) فون كرمر "حول تاريخ تمدن الإسلام"، المصدر السابق، ص67.
(3) وليم برانذت، كتاب حول الفدائيين، ج1، ص100.
(4)ول ديورانت"قصة الحضارة"المصدر السابق ج(13- 14)ص 214.

مظاهر الحضارة البابلية القديمة في بلاد الرافدين، وكان العرب يسمّون المانداثين "المغتسلة" إذ كانت هذه الجماعة تكثر من مُمارسة آداب الاغتسال ومراسيمه ولم يفهم البحاره البرتغاليون –في القرن السابع عشر ميلادي– معنى هذا اللفظ ومغزاه، فأطلقوا عليهم بطريق الخطأ تسمية (نصارى يوحنا المعمدان)، واعتقد البعض بذلك خطأ أيضاً[1].

وقد جاءت تسمية الصائبة المندائيون خطأ منذ أيام خلافة المأمون بناءاً على الحدث التالي:

بينما كان المأمون في نهاية حربه مع البيزنطيين الشرقيين، يمر في ولاية حرّان، شاهد بين المستقبلين عدداً من الأشخاص ذوي أشكال غريبة غير معهودة، وشعور طويلة للغاية، ويرتدون عباءات ضيقةدهش المأمون لمرآهم وسألهم عن هويتهم، فأجابوا: "حرّانيّون"، وسألهم ثانية، فأجابوا: "لسنا مسيحيين ولا يهود، ولا مجوس"، وعندما حاول معرفة إذا كان لهم كتاب مقدس أو رسول، سمع منهم جواباً مُبهماً، فأيقن آخر الأمر أنهم من الزنادقة أو عبدة الأوثان، وعندها أمر بأن يقتلوا أو يعتنقوا الإسلام، أو يدخلوا أي دين ذكره الله تعالى في كتابه الكريم (القرآن الكريم)، وأمهلهم حتى عودته من الحرب ليعطوه قرارهم، وقد أخافت هذه التهديدات الحرانيّين وملأت قلوبهم رعباً، حتى أنهم قصّوا شعورهم الطويلة، وخلعوا ملابسهم الخاصة، واعتنق الكثير منهم الإسلام أو المسيحية، وأن بقي بعضهم على دينه، وإزاء قلق الكثير منهم واضطرابه، أبدى فقيه مسلم استعداده لحل مشكلتهم هذه لقاء أجر ومكافأة، فنصحهم أن ينسبوا أنفسهم –حين يعود المأمون من سفره ويسألهم– إلى طائفة الصابئين، لأن الصائبة ذُكرت في القرآن الكريم، ولما كانت الأخبار المتعلقة بهم قليلة، فإن

---

(1) وليم براندت "كتاب حول الصابئه المندائية"، ص100

تغيير الاسم لن يستلزم بالضرورة تغيير المعتقدات أو الآداب والمراسيم والطقوس التي تعوّدوا عليها، وداهم الموت المأمون قبل عودته من سفره، فترك أغلب الحرّانيين ممن اعتنقوا المسيحية -الدين المسيحي على الفور- وارتدّوا إلى دينهم السابق، ومن دخلوا الإسلام لم يجرأ على الارتداد إلى دينهم السابق، لأن القتل في الشريعة الإسلامية جزاء المرتد.

وهكذا ومنذ ذلك الحين أصبح أبناء تلك الديانة محتفظين باسم "صابيء" لأنفسهم، وأصبحوا يدعون بالصائبة المندائين[1]، والذين لا يزالون يشكلون أحد مكونات الشعب العراقي، لكن أصل ديانتهم هي البابلية القديمة، وقد أصبحوا يشكلون في العصر العباسي جماعة من المثقفين والعلماء. وسعوا لكسب العلم وشحنوا مؤلفاتهم العديدة بآداب السريانية والعربية، والحق أن السريانيين -بصفة عامة- كانوا أفضل وسيلة لانتقال علوم اليونان للمشرق، ثم عادت هذه العلوم على يد العرب من المشرق إلى المغرب (أوروبا)، وكان من أشهر العلماء الصائبة الطبيب والرياضي المشهور" ثابت بن أبي قرّة"، بينما إشتهر

من بين المانوييّن (الزنادقة) في ذلك العصر، صالح بن عبدالقدوس* ومطيع بن إياس، وكان المانويّون يتعرضون للمطاردة والإيذاء إبّان حكم المهدي والهادي (780- 786)، وفي خلافة هارون الرشيد كان هناك قاضٍ خاص يطلق عليه "صاحب الزنادقة"، وكان مكلّفاً باكتشافهم ومعاقبتهم[2]، بينما لم يكن وضع الزنادقة يقابل في خلافة المأمون بنفس الدرجة من التّشدد، لأن المأمون كان مولعاً بدراسة المذاهب السّرية، ولهذا لقّب (بأمير الكافرين)[3].

---

(1) أدورد براون "تاريخ الأدب في إيران"، ج1، باب/3، ص1.
(2) فون كرمر "حُول تاريخ تمدن الإسلام"، ص210.
(3) اليعقوبي، طبع هو تسما، ص546.

وخلاصة القول، إن نشأة المذاهب والفلسفات وكل العلوم الطبيعية في العصر الإسلامي الذهبي، قد جاءت نتيجة لاستقرار الدولة، وانتهاء عصر الفتوحات والحروب، التي كانت قائمة بلا هوادة في العصر الأموي أولاً، وثانياً فإن تشجيع الترجمات والاطلاع على كل ما أنتجته الشعوب الأخرى من الهند والصين وإيران شرقاً، إلى اليونان والرومان غرباً، وجلب عمّال من الصين لصناعة الورق في بغداد، قد شكّل قاعدة أساسية للتدوين والتوثيق، وفتحت الباب أمام جميع المفكرين بتوفير كل المعلومات المطلوبه وساعدت العقل البشري في فتح نافذة أمام الاستقراء والتقصّي من أجل الوصول إلى الحقيقة، ولم يعد للأفكار الغيبيّة والسِّحر والخُرافات المكان الوحيد للهيمنة على عقول النَّاس، ولذا بدأ المُفكرون يضفون إلى المذاهب والمدارس المختلفة حسب اطلاعاتهم على المؤلفات الجديدة وموروثهم التاريخي وبالشكل الذي يتلائم وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من العوامل.

وقد بدءوا أول الأمر في علوم تفسير الحديث والقرآن الكريم، وتدوين الأحداث التاريخية ثم جاءت تلك القراءات من خلال انتماء تلك الجماعات واطلاعهم على الديانات القديمة، وحتى الوثنية منها بينما لم تتاح لهم فرصة قبل ذلك من الاطلاع على أفكار وديانات وفلسفات أخرى خارج الدين الإسلامي، وكان أول من ظهر هم المعتزلة بكل فرقها وأشكالها مما حدى بالآخرين في تصحيح المسار، حسب اعتقادهم من خلال التأسيس لمذاهب إسلاميّة متعددة منها مذاهب أهل السنة الأربعة.

إن جذور نشأة مذاهب السنة الأربع كانت في الأساس ترمي إلى تشريع قوانين ومبادىء تحافظ على الشريعة الإسلامية في ذلك الوقت الذي ظهرت فيه مذاهب

*إتهم الشاعر صالح بن عبد القدوس بالزندقه واعدم على اثرها كما ذكرنا ولكن لا احد يعلم ان كان فعلاًيعتنق المانويه أم لا، لأن هذه التهمه كانت تلصق بكل من يخالف الخليفه الرأي.

وأفكار فلسفية متعددة أخذت تبتعد –حسب نظرهم- شيء فشيء عن الأصول الإسلامية، بالإضافة إلى أن حاجة الدولة في إيجاد صيغ تشريعية للمسائل المستجدة بعد مرور قرنين أو أكثر على ظهور الإسلام أصبح أمراً مُلحاً وضرورياً من أجل تسيير أمور الدولة بالاتجاه الصحيح. أما أبناء الشيعة، فكان لهم إمام يستشيرونه في كل صغيرة وكبيرة ويستيعنون بأقوال وأحاديث الأئمة المتوفين منهم لحد تلك الفترة من الزمن، بينما حصلت إنشقاقات وفِرق عديدة (40 فرقة كما يُقال)، بعد غيبة الإمام الثاني عشر (المهدي)،و كان أبرز تلك الفِرق هي الفرقة الإسماعيلية والتي تم شرح أصولها وسلوكها سابقاً.

كما ظهرت فِرق أخرى في المشرق الإسلامي (إيران وأفغانستان وآسيا الوسطى وباكستان)، وقد أطلقوا على بعض تلك الفِرق أسماء على ألوان الملابس أو الأعلام التي كانوا يرفعونها، فمثلاً "الحمرة"، كانت تطلق على أتباع بابك، أو "الخرميون" نسبة إلى "خرمة" زوجة مزدك التي فرَّت حين قُتل زوجها مع شخصين من مريديه قاصده الريّ، حيث قامت بالدعاية وحققت نجاحاً، وسمى من آمنوا بدين زوجها "المزدكية" نسبه له، أو أطلق عليهم (خرمية أو خرم دينية) نسبة إليها[1]. كما أطلق إسم "المبيضة" على جماعة في ما وراء النهر (ذوي الملابس البيضاء)، وكل هؤلاء يُعدُّون من غُلاة الشيعة أصحاب المبادىء المُبتدعة الأربعة وهي: التشبية، والبدء، والرجوع، (أي عودة المريد ثانية إلى الحياة ليكمل رسالته) والتناسخ (أي انتقال الروح من شخص إلى آخر)، ولا تزال تلك المعتقدات ومريديها موجودون إلى يومنا هذا في مناطق مُتفرقة من العالم الإسلامي.

(1) أدورد براون "تاريخ الأدب في إيران"، ج1، باب/3، ص163.

(13- 1) ظهور المعتزلة (كأحد المذاهب الإسلامية في العصر العباسي الأول) أو الطور الثاني للاعتزال:

لقد شرح لنا حسين مروة المبادىء الأساسية لمذهب المعتزلة بما يلي[1]:

"يبدأ عندهم البحث في التوحيد على أساس أن الله واحد، ولكن لا بالمعنى الأول الذي يأخذ به السلفيّون (أهل السنة والجماعة) من المسلمين، بل بمعنى أن ذاته بسيطة، بالمفهوم الفلسفي لكلمة "بسيط". أي غير مركبة فإنه يستحيل التركيب على الذات الإلهية، وذلك لأن التركيب يقتضي أمرين لازمين له أولهما عدم إمكان تحقيق "الكل" إلا بتحقيق كل "جزء" من أجزائه، وهذا يعني افتقار "الكل" إلى واحد من الأجزاء. فلو كانت "ذات" الله مركبة لكان الله مفتقراً إلى "أجزاء" تركيبه، في حين أن الله لا يمكن أن يكون كذلك، لأن الافتقار بذاته ضعف وعجز، وثانيهما أن التركيب يقتضي التعدد، والتعدد يناقض الوحدانية، وتوضيح ذلك أن التركيب يقتضي أن يكون كل جزء غير كل جزء آخر، وغير "الكل" أيضاً، وهذا التعدد، لأنه يحصل من ذلك عدة أشياء، الأجزاء كل واحد منها بذاته "شيء" غير الآخر، ثم "الكل"، وهو شيء أيضاً غير الأجزاء بذاتها، هذا ومن جهة أخرى، محذور الافتقار هنا أيضاً، لأن كل واحد من هذه "الأشياء" المتعددة، مفتقر في وجوده إلى وجود الآخر، ثم يُمعن بالقول: "وبناءاً على هذه الملازمات المقترنة بمقولة "الكل والجزء" ينتفي التركيب عن ذات الله، وتثبيت لها "البساطة" التي هي جوهر معنى "الوحدانية"، فمعنى أن الله واحد، إذن هو كون ذاته لا كثرة فيها مطلقاً لا من حيث الكم، ولا من حيث "الماهية"، وهذا يعني - بالنتيجة- نفي كل عرض من أعراض الأجسام

(1)"، حسين مروة "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، ج1، بيروت، (1981)، ص649.

الطبيعية والبشرية عن ذات الله، أي نفي صفات التشخيص والعضوية وصفات اللون والرائحة والأبعاد والجهات التي هي بطبيعتها تقتضي الجسمية، أي التركيب، وكون الله "واحد" لا تعني "الوحدة" العددية بمعناها السّاذج الذي يفهم من اللفظة بدلالتها اللغوية، بل يعني أن "ليس كمثله شيء" كما جاء في القرآن الكريم[1].

فإن السلفيين كانوا يأخذون من آية "ليس كمثله شيء" معناها الإجمالي بصورة إيمانية مطلقة، كما يأخذون بالآيات والأحاديث النبوية التي تعارض هذا النص، أي التي بظاهرها على تشبيه الله بالكائنات العضوية، أخذاً إيمانياً مطلقاً دون محاولة للنظر إلى هذا التعارض أو تأويله، اعتباراً منهم أن القرآن الكريم كلام الله، فيجب الإيمان به وتصديقه، كما جاء من عند الله، وأن كل تأويل له يؤدي إلى الأخذ بالمعنى الذي يصل إليه أهل التأويل، لا بالمعنى الذي جاء من عند الله، هذا من جهة ثم أن التأويل من جهة أخرى عمل بشري يجوز عليه الخطأ، وهو باختلاف الآراء والمواقف، وخوفاً منهم من أن يؤدي ذلك بالخروج عن الدين والانحراف بعيداً في حالة التوغُّل أو التمادي في تأويل الآيات والأحاديث.

يقول حسين مروة في كتابه المذكور[2]: "لقد خالف المعتزلة هذا الموقف من جهتين: خالفوه أولاً: بالنظر العقلي في مفهوم الألوهية الخالقة للكون، وثانياً: بالنظر العقلي في النصوص الدينية الإسلامية التي وردت في تحديد ذلك المفهوم، أما من الجهة الأولى: فقالوا أن العقل بحد ذاته يحكم النفي كل ما يلزم منه "التركيب" في ذات الله، وكل ما تقتضيه طبيعة "التركيب" من مستلزمات جسمية، كالإجزاء والأعضاء والأبعاد والجهات والمكان والزمان والجوهر

(1) سورة الشورى، الآية (11).

(2) حسين مروة، المصدر السابق، ، ص652.

والطول والعرض، لأن كل شيء من ذلك ينافي "الوحدانية" الواجبة في ذات خالق الكون. فالوحدانية بهذا المعنى الذي ينزّه الله عن الجسمية، ضرورة في الخالق الأزلي. فإذا ثبت ذلك بحكم العقل، وجب أن تؤول الآيات تأويلاً يخضع الجسمية كالآيات التالية (يد الله فوق أيديهم) [سورة الفتح – الآية: 10]، (ويبقى وجه ربك) [سورة الرحمن – الآية: 27]، و(تجري بأعيننا) [سورة القمر – الآية: 14]، و(الرحمن على العرش استوى) [سورة طه – الآية: 5]، وكلها تُظهر أن لله يداً ووجهاً وأعين وإثبات الجلوس المادي على شيء مادي (العرش، بمعنى الكرسي)، و (أأمنتم من في السماء) [سورة الملك – الآية: 16] الظاهر في إثبات "المكان" له، و (يخافون ربهم من فوقهم) [سورة النحل – الآية: 50] الظاهر في إثبات الجهة (فوقهم).. إلخ.

وعلى هذا الأساس لجأت المعتزلة إلى تأويل هذه الآيات تأويلاً عقلياً ينبغي دلالتها المادية الظاهرة، فاليد - مثلاً- تُشير إلى القدرة، والاستواء على العرش يشير إلى السّمو والمهابة، والأعين إلى الرعاية والإدارة.. إلخ، وهذا النحو من التفسير قادهم إلى التفرّد بالتزام وجهات نظر عقلية في عدة مسائل منها: مسألة الصفات ونظرية الكون، ومسألة رؤية الله، ومسألة خلق القرآن، والعديد من الفلسفات الأخرى.

لقد وردت في القرآن الكريم صفات أسندت إلى الله مثل: عالم، قادر، حي، سميع، بصير، متكلم، وكان السلفيين من المسلمين يقولون بأن هذه الصفات قديمة(أزليه) بقدم الله، لأنها مُلازمة لذاته ما دامت ذاته قديمة صفاته قديمة. وجاء المعتزلة مثل "جهم بن صفوان"، زعيم الجبرية فأحدث القول بنفي الصفات عن الله، خِلافاً لما اتفق عليه السلفيون قبله، لأن إثباتها لله يؤدي إلى تشبيهه ببعض المخلوقات كالإنسان، لأن الإنسان يوصف بأنه سميع، بصير، متكلم، .. إلخ، وكان قولهم هذا مستنداً على أساس ما أقرّوه من مفهوم التوحيد.

فما دام قد ثبت عندهم بحكم العقل أن "وحدانية الله" تعني أن ذاته "بسيطة" لا يجوز عليها التركيب بالمعنى الفلسفي للبسيط والمركب، فقد التزموا إذن بنفي كل صفة قديمة من الصفات الزائدة عن الذات أو المغايرة لها، لأن الزيادة أو المغايرة تقتضي تعدد الآلهة".

وهكذا فقد وضع هؤلاء المفكرين (المعتزلة) بعد مطالعتهم كتب الفلسفة، وانتهى بهم الأمر في تعيين وحدة الصفّات واكتفوا بصفتين إيجابيّتين هي أن الله عالماً قادراً، لأن هذه الصفات ليست شيئاً آخر غير ذاته، فليس هناك شيء واحد هو "ذات" الله، وقد ظهرت اختلافات كبيرة فيما بينهم في العديد من المسائل الفلسفية لا مجال لذكرها هنا، ويمكن الرجوع إلى المصادر المشار إليها للمزيد من التفاصيل.

أما مسألة خلق القرآن الكريم، التي أثارت ضجّة كبيرة في التاريخ، فمنشأها يرجع إلى مسألة الصفات عند المعتزلة، فهم بعد أن قرّروا وحدة الذات الإلهية وصفاتها، وقرّروا بناءاً على هذا المبدأ نفي الصفّات الزائدة عن الذات، كان لابد لهم أن ينظروا ما ورد من هذه الصفات داخل النصوص الدينية، ليخضعوها للتأويل العقلي بما يوافق مقولتهم "التوحيدية"، وخلال النظر في النصوص وجدوا فيها صفة "الكلام" منسوبة إلى الله، على نحو ما جاء في الآية القرآنية: (وكلّم الله موسى تكليما)[1]، ووجدوا أن القرآن في هذه النصوص موصوف بأنه "كلام" الله على نحو ما جاء في الآية (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)[2]، والمقصود بـ (كلام الله) في هذه الآية القرآن نفسه.

(1) سورة النساء، (الآية: 164).

(2) سورة التوبة، (الآية: 6).

هنا إذن قد وصف الله بأنه "متكلم" ووصف القرآن بأنه "كلام الله"، فما موقف المعتزلة من هذه الصفة؟؟، فهل يقولون أنها من الصفات التي هي عين الذات؟ إذا قالوا بذلك كان عليهم أن يلتزموا بكون هذه الصفة ثابتة غير متغيرة، وفقاً لمبدأ المعادلة المطلقة بين الذات الإلهية وصفاتها. كما هو مقرر عندهم. وما دامت الذات غير قابلة للتغيير باتفاقهم جميعاً على ذلك فإن الصفات يجب أن تكون كذلك. ولكن الالتزام صفة "الكلام" المنسوبة إلى الله ثابتة لا مُتغيّرة، يصطدم بنصوص القرآن نفسها فإن هذه النصوص متنوعة ومتخالفة، فمنها الأوامر والنواهي، ومنها الوعد والوعيد، ومنها الكلام التشريعي "والكلام الإخباري والكلام الوصفي فإذا كانت الصفة "المتكلم" عين الذات. وإذا كان القرآن الكريم "كلاماً" لله، فقد لزم من تنوع هذا الكلام وتخالفة أن تكون الذات متنوعة متخالفة أي منقسمة أي متعددة. واللازم الأخير ينفي وحدانية الذات وهذا بالنتيجة ينفي لأصل التوحيد عند المعتزلة، بل عند المسلمين جميعاً[1].

من هنا لجأ المعتزلة إلى القول بأن كلام الله ليس "قديم" أي ليس من الصفات المعادلة للذات إنما هو حادث، فالقرآن -وهو كلام الله باتفاقهم- حادث إذن أي "مخلوق" ككل مخلوق في الكون، ومعنى كون الله متكلماً - إذن أنه خالق للكلام- وهكذا ذهب المعتزلة في إثبات أن القول بقدم القرآن الكريم وأزليته لا ينافي مبدأ التوحيد وحسب، بل ينافي كذلك العقلانية التشريعية للقرآن الكريم، فإنهم قالوا: "إذا افترضنا أن القرآن الكريم كلاماً أزلياً، أي صفة للذات الإلهية الأزلية، كان معنى هذا أن الأوامر التي يشتمل عليها القرآن أزلية، أي صادرة قبل أن يوجد المأمورون بها، أي أنها كانت غير

(1) حسين مروة، المصدر السابق، ص678.

ذات موضوع قبل وجود البشر المكلفين بها، فإن البشر هم موضوع هذه الأوامر، فكيف يعقل أن يوجه الله أوامره إلى المعدوم؟.

إن ذلك نوع من العبث الذي لا يجوز على الله، بل مُحال وقالوا إن الكلام لكي يتحقق شرط وجودة يحتاج إلى مكلم (بكسر اللام) ومكلَم (بفتح اللام) وقبل وجود المكلفين ليس هناك سوى مكلم من غير مكلَم، بذلك يكون القول بأزلين القرآن نفياً لعقلانية التشريع، وهو باطل[1].

ثم برهنوا على المسألة من وجه أخرى، فقالوا أن كلام الله "مخلوق في محل وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه، فإن ما وجد في محل عرض قد فنى في الحال"[2]، ويقول ابن الهذيل العلاف: "إن القرآن الكريم كلام إرادي تشريعي يقع في محل، فما هو هذا "المحل" "؟ يجيب العلاف: "إن هذا المحل ليس ذات الله طبعاً، لأن ذاته لا يمكن أن تكون محلاً للأمر والنهي والأخبار، فلا بد أن يكون هذا لمحل غير الله، وإذا كان القرآن الكريم كلاماً يقع في محل غير الله، فهو عرض مخلوق كسائر الأعراض".

من هنا برزت أهمية التأويل لكل النصوص القرآنية لكي تتماشى مع المنطق المعقول، وما وصل إليه الإنسان من تطور في عقلة يمكنة أن يربط بين المفاهيم المختلفة ويطابق بعضها ببعض إلى أن يحصل على قناعة وإيمان بما يقال له ويسمع به، وقد نشأ مبدء الاحتكام للعقل من موقف المعتزلة الذي أملته عليهم ظروف التطور الفكري، والتكدّس الثقافي لمجتمعهم في مرحلتهم التاريخية المتحركة بقدر ما ساعدت عليها ظروفهم الاجتماعية والسياسية التي انطلقت منها الأفكار الفلسفية التي أمدتهم بالوسائل المعرفية باستخدام البراهين الفعلية وأدواتها المنطقية لدعم مبادئهم. وكم نحن بحاجة اليوم للتأويل في النصوص

(1) أحمد أمين "ضحى الإسلام"، ج3، ص34- 35.

(2) الشهرستاني "المِلل والنِّحل"، ج1، ص49.

القرآنية كي نعين الشباب في عدم الانخراط في تيارات العنف التي تدّعي الإسلام. لقد حصلت معركة خلق القرآن في عصر المأمون التي وضعت حداً لعصرٍ كامل، وأدت إلى مجيء عصر آخر، فهي إذ تمثل تتويجاً لكيفية القراءة الحديثة "للقرآن الكريم" وهو كتاب المسلمين المقدس وأساس النهضة التحويلية الواسعة العميقة في المنطقة. وتكوين مجموعات من القبائل والشعوب كأمم جديدة، فإنها تعبر كذلك عن صراعات إجتماعية "وقومية"، وعن عجز القوى القائدة المنفّذة عن فهم القرآن الكريم، وتشكيل معنى حديث ومنسق وشامل عنه.

ونحن نعيش في هذا العصر، ونرى كيف ينخرط الشباب إلى تنظيم القاعدة وغيرها من خلال سوء الفهم وعدم تأويلهم الآيات التي تمسّكوا بها واتخذوا منها ذريعة لأعمالهم العنيفة والدموية.

يقول عبدالله خليفة[1]: "إن عملية الترجمة الكبرى من الإغريقية إلى العربية، والذي يعني تلاقحاً كبيراً بين لغة كانت بدوية إلى مدى قريب، وبين لغة فكرية متقدمة، وتوجه الترجمة إلى قمتها التجريدية في المنطق والفلسفة والتي تتداخل مع الرياضيات والفلك والطب..إلخ، كانت تستهدف تطور المناخ الثقافي العام، وعدم جعل أصحاب الثقافة التقليدية مهيمنين على الوعي، لكن ذلك لم يكن متبلوراً كسياسة ثقافية محدودة، ويُذكر هنا حلم المأمون ورؤيته لأرسطو، الفيلسوف اليوناني الأول، وأنه دعاه إلى فكره".

يعلّق "محمد عابد الجابري" حول هذا الحلم قائلاً: "وإذن فحركة الترجمة تلك التي اتجهت إلى أرسطو بالذات كانت جزء أساسي ورئيسي من استراتيجية جديدة لجأ إليها المأمون لمقاومة الأساس المعرفي لإيدولوجية خصومه السياسيين"[2].

(1) عبدالله خليفة "الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية"، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (2005) بيروت، ج2، ص473، ص475.

(2) محمد عابد الجابري" بنية العقل العربي"، السابع 2004 مركز دراسات الوحدة العربيه- بيروت، ص224.

"إن ملوك النهضة في منطقة الشرق الأوسط، كانوا يعتبرون هذه الفلسفة شرطاً ثقافياً مهماً للتقدم، وبمعنى ما، فإنها تتجاوز ثقافة الأديان التي كانت فكراً توحيدياً في البداية، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مذاهب تُهدد بتفكيك تلك الامبراطوريات التي تربع على عروشها أولئك الأباطرة، متصورين أن اللجوء إلى الفلسفات المتقدمة يمكن أن يجنبهم مصير التفكك المنتشر والمتفجّر، وهذا ما هيمن على وعي المأمون الذي تعطي سيرته هذه العملية المزدوجة المتناقضة أي عمليتي: الترجمة المتحضرة، وفرض تصوّر سياسي بالقوة في مسائل فكرية ودينية مقدّسة ومحفوفة بالمخاطر.

لقد حصلت ثورات عديدة في عصر المأمون كان أبرزها الثورة الفلاحية في مصر، وثورة بابك الخرمي في الأقسام الشمالية من إيران ثم ثورة في الشام.. إلخ، وقبل أن تتجزّء البلاد، فقد وجد أن هناك حاجة ملحة إلى توحيد مُطلق وكلي وتجريدي للأدلّة.

وبدأت بذلك مسألة خلق القرآن تختمر في وعي المأمون، بالتوافق مع حملاتة العسكرية ضد تلك الثورات، وفي الوقت الذي فقد فيه العرب أهميتهم العسكرية في الجيش وتدفّق فيه الأتراك والأكراد أو التركمان، فلقد بدأ بدو جُدد في الحلول محل العرب في تأدية وظيفتهم التاريخية، وبالتالي وجد نفسه مُرغماً في مُسايرة التطور الفكري المنسجم مع تلك الأقوام للمحافظة على وِحدة البلاد والقصر من التوارث والأخطار الأخرى، وإذا كان للمأمون مشروعه الفكري والسياسي بتركيز السلطة السياسية في العاصمة (بغداد)، وبين يديه وأسرته، واتخاذه معركة خلق القرآن الكريم كوسيلة لتأكيد قيمتة الفكرية المُطلقة، ولتحديد ما هو الإيمان وما هو الكفر، فإن (سلطة) أخرى كانت تتشكل على مدى التاريخ الإسلامي السابق. إن رجال الدين المسلمين كانوا يتغلغلون في شرايين النظام الاجتماعي والسياسي عبر العقود الماضية، وقد بدأ رجال الدين في العصر العباسي يتحولون إلى جزء من النظام، حين هزمت الثورة

الزيديّة الاعتزالية المشتركة، وحين أطبقت الدولة بقواها العسكرية الهائلة على الأقاليم المختلفة، ولم تعد ثمّة قوة مُعارضة يعتد بها في مركز السلطة وغدت السلطة ذات وجه ديني بارز، فلم يعد الخليفة سُلطاناً وملكاً فقط، بل صار إماماً أيضاً فجمع في يديه كافة السُّلطات، وتحول خليفة مثل المهدي إلى قائد مُلاحقات فكرية اضطهادية، وأنشأ ديوان (الزندقة)، وعبرت ملاحقاته للمانويون عن الخوف من تمزق الأقليم المحكومة بواسطة العاصمة، وخاصة إيران المركز الأساسي للمانوية والزرداشتية والمزركية، وهكذا تم تحويل الأهداف السياسية تحت ستار الدعوى الإيمانية إلى وسيلة قمعية لكبح جماح الفلاحين وغيرهم، وقد تبلور ذلك في ذهن المأمون لما يتمتع به من وعي فكري متميز، ووجد الايديولوجيا الاعتزالية التابع غير المستقل فكرياً وسياسياً[1] له.

أما عن أسباب تراجع فكر المعتزلة في العصور التي تلت عصر المأمون فيقول عبدالله خليفة[2]: "إن البنية الرعوية لا يمكنها أن تستوعب بشكل جماهيري العمليات الفكرية المجردة، وقد واصل المعتزلة إنتاج خطاب تجريدي عن الأدلة، دون ربط ذلك بقراءة الطبيعة والمجتمع، فلم يتوجه النظر إلا إلى ملاحظات جزئية عن الطبيعة، كالبحث في توالد الأسباب، وقد احتاجت العملية علاقة وثيقة بالتقنية وقراءة المادة، ودرس التاريخ بدرجة أوسع، ألا أن المعتزلة لم يقدروا على فعل ذلك،دفعه واحدة نظراً للاتجاه الغيبي المسيطر، ولغياب الإمكانات والموارد الفكرية.

أن شكل الوعي الاعتزالي المرتبط بحاجة القصر هو مماثل للانتاج الحرفي المرتبط بالقصر ، وذلك يتمثل بجمع المالية من كل الأقطار التابعة له، ولما كان القصر هو الذي يضع سقف التطور للانتاج الروحي (الديني) والمادي معاً، فهما

(1) عبدالله خليفة. المصدر السابق، ص478.
(2) عبدالله خليفة، المصدر السابق، ص 486.

يشتغلان لحاجات بذخية، فينفصلان عن بعضهما، كما ينفصلان عن مسار "تطور المجتمع وتلبية حاجاته الأساسية". وقد ظلت الأبحاث الفكرية مرهونة بحاجة القصر الفكرية"، بشكل ما أو بآخر.

إن البذخ الرهيب للموارد كان يقود إلى الإفلاس الفكري، وهو يبعث المستويات الايديولوجية لما قبل التراكم المالي المعرفي الراهن. فالعقل الاعتزالي يتوقف عن التغلغل في أسرار المادة الطبيعية والاجتماعية، مثلما لا يقوم رأس المال بتجاوز مرحلته التجارية (النقدية)، للصعود إلى رأسمال صناعي مثلاً في العصور المتقدمة.

إن الحديث عن القرآن الكريم مخلوق رغم جوانبه العلمية الإيجابية المفيدة إلا أن هؤلاء الأفراد من المعتزلة عبّروا عن انهيار حركتهم وتبدل مسار نضالهم الذي بدأ على يد واصل بن عطاء مستهدفاً مراقبة المال العام، والعدل وانتخاب الحاكم، فأخذوا هذا المسار إلى دهاليز القصور وأهدافها، وهذا لا يعني أن الجماعة المضادة للاعتزال، كانت تقود المسلمين إلى الهدف الصحيح، فإنها كانت ترى القضية مجردة وفكرية مفصولة عن إعادة تشكيل حياة الناس، واعتبار الأمر بدعة، وهي تعيد الناس إلى حالة البنية الرعوية والمستويات الفكرية السائدة فيها. لقد كان المعتزلة يواصلون الدفاع عن وحدة الحضارة العربية الإسلامية عبر تأكيدهم الكلي على رمزها الوحيد الخالد الذي هو الله، وفي ذات الوقت كانوا يحاولون خلق حرية معينة للبشر في هذه الحضارة، عبر تلك الإزاحة الكلية للتدخل الإلهي المباشر في كل حياة البشر وفي العالم، لكنهم في نفس الوقت كانوا يفتقدون النسق الفلسفي الكلي المترابط والمتنامي بين صورة الإله وبين الطبيعة والحياة الاجتماعية، على مُستوى تراكم المعرفة العلمية بالطبيعة والمجتمع وعلى مستوى كفاحية تلك الفئات الوسطى للخروج من هيمنة الخلافة، وكلا الجانبين كانا مفقودين، وهكذا كانت "مؤسسة

الخلافة" أيام المأمون تقوم بحركة تنوير ثقافي مفصول عن العمليات الديمقراطيه مثلا أو أي عملية من شأنها أن تقوّض أو تُضعف السلطة المركزية الفردية السائدة في ذلك العصر.

فتوجّه حركة الاعتزال نحو التأكيد الشديد على الوحدانية الإلهية وفصل القرآن عن تلك الوحدانية، وإضافة إلى كونها حركة فِقه فلسفية نخبوية، فإنها حجّمت من العملية الديمقراطية التحويلية للحياة مقتصرة إياها على نشر تصورها عن الذات الإلهية، أي غدت العملية التنويرية مقتصرة على تفجر طاقات الثقافة العربية الإسلامية في خِدمة هدف استبدادي، مترافق مع إلحاق اضطهادي للأقاليم وإلحاق اقتصادي واجتماعي وفقهي لمثقفي الطبقة الوسطى "(إن وجدت).

لكن استمرار الفِكر التنويري على ما يبدو وبعد فترة طويلة من الزّمن، انتقل إلى أوروبا في بداية عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر، وفي تصاعد مُستمر إلى أن أوصلتنا إلى ما نحن عليه من فِكر وحضارة حديثة، وهذا ما يدل على أن العقل البشري مُترابط في كل أنحاء العالم وبقينا نحن نتباكى على تلك الومضه البسيطه من جماعة المعتزلة في التنوير واعطاء الحريه للعقل دون فعل ايجابي مستمر آخر.

لقد تهيّأة ظروف أكثر ملائمة الأوروبيين في السير قُدماً نحو الاصلاحات الفكرية الفلسفية بعد فترة من الزّمن لعدم وجود قيود التّمسك في النص أصلاً في دياناتهم المسيحية وهذا عامل مُهم في حصولهم على طفرة كبيرة في مجال الإصلاح الديني بالاضافه للعوامل الاخرى التي لا مجال لنا في بحثها هنا وسنأتي لتوضيحها في فقره لاحقه.

(13- 2) أهم رجالات الطور الثاني للاعتزال في العصر العباسي:

اعتمد معتزلة الطور الثاني على الأسس الفكرية التي تمت صياغتها في الطور الأول، فقد ظلّت تحكم بحث المعتزلة الجدد، وأدخلت عناصر مكتشفة جديدة في عباءة المبنى الفكري الجديد، ومن أبرز شخصيات المعتزلة في هذه الفترة هو أبو هذيل العلاف، توفي في (235هـ)، في بداية خلافة المتوكل، وقد حدد العلاف العلاقة بين الإنسان والخالق بوضع حرية للانسان بإعطائه إمكانية الحركة والسكون والكلام والمشاعر النفسية، وفي هذه الإمكانات تبرز اختياراته وتتشكل أغراضه، أما الجوانب المادية والموضوعية الخارجية كألوان الجسم والأشياء وظاهرات الطبيعة المختلفة بما فيها الحياة والموت، فهي خارجة عن إرادة الإنسان.

إن العقل الاعتزالي هنا يبحث عن فِعل الإنسان الحُر المرتبط بهيمنة إلا هية، والإنسان هنا فرد خارج التاريخ وسيرورة الطبيعة. فالألوان البشرية -حسب مستوى إدراكنا الآن- تدخل دائرة الصناعة التاريخية عبر تنقل البشر في أرجاء الكرة الأرضية، ولكن البشر يصنعون ألوانهم عبر علاقاتهم المتعددة بالبيئة.

ويمثل "ابراهيم بن سيار" الملقب "بالنظام" وقد لقب كذلك لأنه كان يحترف نظم الخرز في سوق البصرة في بداية حياته، أكثر العقليات الاعتزالية جُرأةً واقتراباً من الفلسفة (وقد مزج في قوة بين كلام الفلسفة وأفكار المُعتزلة ومال في آرائه إلى كلام الطبيعيين من الفلاسفة، وانفرد في نظرته، بأن الله لا يقدر على فعل الشر وأنه يفعل الأصلح لعباده، وقوله بنفي الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ، وقوله أن الله خلق الكائنات دفعة واحدة، معادن، ونبات، وحيوان، وإنسان، غير أن الله أكمن بعضها في بعض)[1].

---

(1) شوقي ضيف "العصر العباسي الأول"، دار المعارف، ط11، ص431.

وفي قوله أيضاً أن العالم الطبيعي والنباتي والحيواني في تشكيلة واحدة متفاوتة التطور والزّمن، وبهذا فإنه يقترب من موضوعية الوجود، وإن صورة الخالق التي يشكلها هي هيمنة على الوجود (كما يطرح ذلك أبو الهذيل العلاف) لكنها في مسألة الفعل البشري غير مهيمنة، أي أن البشر أحرار فيما يفعلون ولديهم العقل القادر على التمييز بين فعل الخير وفعل الشر، إن النّظام يدفع الموقف التنويري إلى الأمام عبر إعادة النظر في الموروث الإسلامي ذي الطبيعة الخارقة، مُركّزاً على العِلل المعقولة، واستبعاده الجوانب السحرية والخرافية، ولهذا فإنه لا يعطي الجن إمكانية الظهور والتأثير في العالم، ويلغي مسائل الحظ والنجوم. من هنا غدا أنصار المعتزلة أكثر جرأةً في مواجهة مسائل الشعوذة، وأصبح أنصار الحديث يعتبرونهم الخطر الأكبر على الدين، إذن "فالنظام" يقبل بالإرث الديني السابق مع بعض التجديدات، وبغربلة النصوص الدينية، وبملاحظات إجتماعية نيّرة في أحيان عدة، فإنه يتجه نحو مُهمات فكرية تنويرية في ظِل النظام القائم تقوده ظروفه المعاشية الصعبة إلى أن يقترب من السلطة، مُصارعاً قوى فكرية مختلفة ومتقدمة في الحياة، هكذا يمكن اعتبار أن "النظام" صاحب فكر أكثر حداثاً عما هو عليه الحال من بعض السلفيين في عصرنا.

وفي نفس تلك الفترة كان المعتزلي "معمر السلمى" (في مدينة البصرة) يطرح أفكاراً جديدة توسع الطابع الفعلي في الوعي الفلسفي الديني، فهو صاحب فكرة (وُجد العالم بما لا يتناهى من المعاني) أي أن الكون مُتوحِّد ومتصل، وقد ظهر العديد من المعتزلة في العصر العباسي، نذكر منهم ثمامة بن الأشرس وهشام النوطي والجاحظ وأحمد بن داؤود وكلهم واصلوا العلاقة المفيدة مع الدولة، لكن بشر بن المعتمر لم يقم مثل هذه الصلة وقد سجنه الرشيد، ومنذ ذلك الحين تعرّض قسم كبير من المعتزلة إلى القتل والتشرُّد، لذلك بقي الفِكر محصوراً ومحدوداً بالشّكل الذي لا يمسّ السلطة الحاكمة (القصر)، لكي

يكون مقرباً منه، وكان من بينهم في عصور تلت ذلك علماء وأطباء وفلاسفة أمثال الفارابي وابن سينا، وابن رشد، وابن ماجه، وابن طفيل وغيرهم.

ورغم تعرض العديد من هؤلاء إلى الاضطهاد والتشرُّد لكنهم استطاعوا أن يوصلوا رسالتهم إلى العالم الآخر (الغربي)، بعد قرون وبعد أن ترجمت أعمالهم إلى لغات عديدة.وقد تعرضت الكثير من مؤلفاتهم الى الحرق من قبل الخلفاء في بغداد والاندلس[1].

وقد ظهر طور ثالث من المعتزلة كانت في أواخر العصر العباسي شملت مجموعة من العلماء والمفكرين الذين قدّموا خدمات جليلة للفكر والمعرفة الإنسانية، ولكن المعوِّقات التي أحالت دون الاستمرار وإحداث نهضة اجتماعية واقتصادية وعلمية مُستدامة كانت تكمن في بُعد هؤلاء عن الأغلبية السّاحقة من الجمهور وعدم توفُّر الظُّروف والعوامل الأخرى كتلك التي توفَّرت للأوروبيين في بداية عصر النهضة.

يتضح من كل ما تقدم أن أصلاحاً فكرياً كان لا بد منه في المفاهيم الدينيه التي لم يتم تأويلها،وكان لابد لها أن تستمر وتنشط لكي تعطي حريه فكريه اكبر، لأن الاعتماد الكلي في أبسط الاعمال واكبرها على القضاء والقدر وعلى الخالق يجعل الانسان عاجزاً عن الابداع والعمل المفيد المثمره وكان ذلك سبباً رئيسياً وراء تخلف العالم الاسلامي طيلة العقود الماضية،وان الشعله التي أوقدها المعتزله في العصر العباسي كانت قد أنطفأت ولابد لنا في العصر الحديث من إيقادها ثانياً كي نواكب العصر الحديث،وبعد زيادة معرفتنا بمجتمعنا واحتياجاته.

---

(1) ول ديورانت "قصة الحضارة" ج(13- 14)ص197

الفصل الثالث



عصـــر المغـــول



الفصل الثالث

عصـــر المغـــول

لقد أصبح واضحاً للجميع أن حادث الهجوم المغولي، قد أصاب العالم الإسلامي في آسيا بضربة قاصمة، لم تستطع أن تفيق من شدتها حتى الآن، فهم بتحطيمهم للخلافة العباسية في بغداد، قد قضوا نهائياً على وحدة العالم الإسلامي، وقد بدأ الهجوم المغولي بغارة "جنكيز خان" في بداية القرن الثالث عشر عام (1213)، بينما كانت الغارة على بغداد وقتل الخليفة العباسي "المستعصم" على يد "هولاكو خان" في سنة (1258)، وكان الخراب الذي أصاب الجزء الشرقي (الآسيوي) الإسلامي شديداً، فقد كانت جُموع المغول كالذئاب المتعطشة إلى الدماء، فأخذوا يقتلون كل من يُصادفهم، ويحرقون ويدمرون كل ما يعترض سبيلهم، دون أن تأخذهم في قسوتهم رحمة، أو شفقة حتى آثر عنهم هذا القول المشهور بأنهم "جاءوا وخربوا وحرقوا وقتلوا وسلبوا وذهبوا"، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل أن هذه الكارثة كانت فعلاً الوحيدة التي سببت لنا كل ما ورثناه من تخلّف عن ركب الحضارة، وابتعاداً عن كل تقدم علمي وأدبي وحضاري منذ ذلك الحين وإلى الآن؟ وهل كان التخريب الشامل الذي أحدثه المغول لنا وحدنا بهذه الدرجة من القسوة أم هناك مناطق وشعوب أخرى أصابها ذلك الدمار واستطاعوا أن يتجاوزوه؟ ولماذا لم يوضّح لنا المؤرِّخون والكتّاب في الكتب المدرسية عن تلك الفترة ما يكفي لتتضح لنا الصورة بشكل موضوعي نستطيع من خلالها أن نفهم ما نُعاني منه من موروث لا يزال يؤثّر فينا بهذا القدر أو ذاك؟.

كل هذه التساؤلات سنحاول تفكيكها في هذا الفصل من خلال إلقاء ضوء على أهم الأحداث المؤثّرة وبقدر ما متوفر من مصادر تاريخية عنها، وبمقدار مُساهمة تلك الأحداث في موروث العنف السياسي الذي تعاني منه المنطقة الشرق أوسطية حالياً.

لقد شملت الهجمة المغولية مناطق واسعة من العالم، فوصلت ما بين اليابان شرقاً، والصين والهند وأواسط آسيا برمتها إلى ألمانيا غرباً، وذلك يشمل أجزاء كبيرة من روسيا وأوكرانيا ورومانيا وبولندا، وكل أوروبا الشرقية وإلى ألمانيا[1]. لقد أصابت الجنس البشري بكثير من الشُرور التي لم تُحدثها كارثة أخرى في تاريخ العالم المعروف ألا وهي كارثة "غارة المغول". فهذه الغارة أشبه بثورة جامحة من الثورات الطبيعية، ولكنها لا تُشبه بشيء مما نعرفه من أحداث التاريخ الإنساني، لأنها امتازت بالمفاجأة، والتخريب الشامل، والقسوة النابية، والغُلظة الجافية، والشِّدة التي لا تقاوم، والتحطيم الذي لا رحمة فيه، والدَّمار الذي لا مقصد من ورائه...!!

وقد قامت بهذه الأفعال جميعاً قبائل مُتوحشة لم يكن يعرفها أحد، حتى أشد الناس اتصالاً بهم من جيرانهم. لكن وكما هو معلوم فإن مناطق عديدة وصل إليها التدمير المغولي لكنها تجاوزت كل ذلك الخراب، واستطاعت أن تبني من جديد، ولا نريد الخوض في تفاصيل دقيقة عما قام به المغول من تخريب، ويمكن الرجوع إلى المصادر التي نخص بالذكر منها على سبيل المثال:

1- إبن الأثير "تاريخ المغول"، وكان معاصراً للأحداث.

(1) طلب المغول من اليابان الخضوع لسلطانهم في سنة (1270) وهاجموها ثلاث مرات كانت الأخيرة منها في سنة (1283)، وقد حطّم أسطول المغول في سنة (1280) كما حطمت الارمادا الاسبانية تماماً، أما غارات المغول في أوروبا، فقد حدثت ما بين سنة (1236) وسنة (1241).

2- ياقوت الحموي "تاريخ المغول" والذي عاصر الأحداث وكان صديقاً لابن الأثير.

3- دوسون (D`ohsson) "تاريخ المغول".(مؤرخ فرنسي معروف)

4- السير هنري هوورث (Sir Henry Howorth).(مؤرخ انكليزي معروف)

5- شهاب الدين محمد النسوي "سيرة السلطان جلال الدين المنكبرتي".

وغيرها من المصادر التي ذكرت تفاصيل يومية لمعظم الأحداث التي حصلت ورغم ما فيها من مُبالغة وتهويل في الأرقام إلا أننا نستطيع أن نفهم ما جرى من خلال الترابط والتحليل العلمي والعقلاني.

1- غارة المغول على خوارزم:

لابد لنا أولاً أن نعرف ما الذي ساعد في ظهور المغول البغيض، وما امتازوا به من عادات قبيحة كريهة على زيادة الفزع الذي استولى على القلوب، بسبب ما عرف عن غُلظة لا تقف عند حد، وقسوة لا مزيد عليها، لقد وصف دوسون المغول[1]: "لقد فاقوا في قسوتهم أشد الشعوب همجية، فقتلوا جميع من وقع في أيديهم من أهل البلد التي فتحوها، ولم يبقوا على رجل أو امرأه أو طفل وأحرقوا البلدان والقرى، وأحالوا الديار العامرة إلى مغازات مقفرة، ولم يكن يحفزهم على ذلك كله رغبة في ثأر أو حب لأنتقام فقلما كانوا يهتمون بالكشف عن هويتهم أو الوقوف على شخصيتهم".

ولربما ظنّ البعض أن التاريخ تغالى في وصف مآسيهم وفظائعهم، ولكن جميع المراجع التي دوّنت عنهم في بلاد مختلفة، تتفق تمام الاتفاق على ما امتازوا به من غلظة وعُنف، وكانت عادتهم أن يسترقوا البقية الباقية من أهل البلاد التي

(1) دوسون "تاريخ المغول من جنكيز خان إلى تيمور لنك" المجلد الأول، ص6، (مترجم من الانجليزية إلى العربية)، طبع القاهرة.

يفتحونها وأن يعذبوها أشد العذاب، بحيث كان من ينجو برأسه من سيوفهم لا يستطيع أن ينجو بنفسه من عسفهم وظلمهم، وكانت حكومتهم تعمل على نشر الفساد فتقضي على كل من عُرف بالشرف والنُّبل، وتقرب لسادتهم من ذوي القلوب الغليظة بكل ما يتمنونَ من مال أو قوة أو سلطة، يستطيعون بها، التعسف مع ذوي قرباهم وأبناء جِلدتهم. وقد أصبح تاريخ المغول بما انفرد به من وحشية وعنجهية، سجلاً لكثير من حوادث الفزع والرعب، ولكن دراسته على الرُّغم من ذلك واجبة على كل من يريد تفهّم الحوادث الهامة التي وقعت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، خاصة وأن تاريخهم قد اتصل بتاريخ جمله من الممالك والامبراطوريات، والرأي السّائد أنه لم يكن هناك ما يحول دون وقوع غارة المغول، ولكنها من غير شك سهّلت وتيسّر حدوثها على العالم الاسلامي بواسطة ما عُرف من ملك خوارزم في إيران[1] المدعو "علاء الدين محمد" من طمع وخيانة وتردّد، فطمع ظاهر كما يقول ابن الأثير "في أنه استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم، ليبقى هو وحده على مملكة نخرة هاوية، فلما انهزم أمام المغول، وفرّ أمام جيوشهم تاركاً بلاده للقدر يفعل بها ما يشاء، لم تجد هذه البلاد أميراً إسلامياً واحداً يستطيع أن يلم شعثها ويوحّد جهودها أمام الجيوش المُغيره من المغول. فقد كانت الامبراطورية الإسلامية ممزّقة أصلاً إلى وِلايات ودول عديدة تصغر وتكبر بين فترة وأخرى.

وتظهر خيانة علاء الدين محمد هذا واضحة عندما قَتل رُسل المغول وتجّارهم، فأعطى بذلك لـ "جنكيز خان" الحجّة الدامغة لتبرير الهجوم عليه، ولإثبات أوجه الضّعف والخُذلان التي تسود الحالة في خوارزم، كذلك فإنه عند

(1) تقع مملكة خوارزم في الشمال الشرقي من إيران وقد توسّعت المملكة لتشمل أجزاء عديدة من أواسط آسيا وأفغانستان وإلى حدود الصين، وكانت تضم عدة قوميات ولها حدود مجاوزة مع منغوليا.

أول صدمة تلقاها من المغول أسرع إلى إظهار الفزع والخوف بدل ما كان يبديه من غطرسة وتحدّ، ولم تكد تنقضي سنتان على قتله لرُسل المغول حتى نجده في النّهاية يموت شريداً طريداً في إحدى جزر بحر قزوين.

وهناك سبب آخر يرجع إليه ضعف المقاومة الإسلامية في وجه المغول، وهو الخلاف الذي نشأ بين ملك خوارزم "محمد" والخليفة العباسي "الناصر" في بغداد، فقد كان هذا الخليفة يخشى ملك خوارزم، وازدياد قوته وطمعه في الاستيلاء على "بغداد"، فسعى كما كان يفعل الخلفاء المتأخّرين إلى إضعاف مُنافسه والإيقاع به وتدبير المكائد له، وأخذ يُشجّع المغول على مُهاجمته، كما أشار "إبن الأثير" إلى ذلك،وكذلك صرّح "المقريزي" في كتاباته، ومن العجب أن أعقاب هذا الخليفة قد هلكوا على أيدي هؤلاء المغول الذين أبادهم جميعاً وحطّموا دولتهم واستولوا على بلادهم[1]، ويبدو أن الكارثة قد بدأت عندما علم ملك خوارزم عند استيلائه على مدينة غزنة[2]، بأمر المراسلات المتبادلة بين الخليفة وحكّام "غزنة" من أعقاب "سبكتكين"[3]، بالاضافة للخلاف الحاد الذي نشأ بين الخليفة العباسي في بغداد وملك خوارزم التي بلغت درجة عالية من التهيّؤ لحرب بينهما، وكان السبب الآخر هو اشتداد البرد وقسوة الشتاء في ذلك العام بشكل سهّل على المغول الهجوم المباغت لأنهم اعتادوا عليه، بينما كان غريباً على أهل إيران، ومن المحتمل أن الحرب كان لابد لها أن تقع مهما اختلفت وتعددت الأسباب.

(1) دوسن "تاريخ المغول"، (المصدر السابق) ج1، ص211.

(2) مدينة غزنة: إحدى المدن التاريخية المهمة، وتقع في الجنوب الغربي لمدينة كابل في أفغانستان حالياً، وكانت عاصمة للمملكة الغزنوية.

(3) أي الغزنويين من أعقاب محمود الغزنوي بن سبكتكين.

فقد رأى "جنكيز خان" أن يُرسل جماعة من التجار محملين بمصنوعات بلاده إلى مدينة حدودية إسمها "أترار"، وقد قتلهم حاكم أترار جميعاً بتحريض خفي من ملك خوارزم، بعدما ألقى في روعه أنهم ليسوا تُجاراً بل جواسيس للمغول، فلما قتل هؤلاء التجار، أسرع "جنكيز خان" بإرسال بعثه إلى ملك خوارزم مكونة من عضوين مغوليين وثالث تركي إسمه "بغرا" وكلّفهم بأن يحتجوا لديه على ما أصاب رُسله من إهدار لحقوق الضيافة: وتضييع لواجبات المجاملة المتعارف عليها، وأن يطلبوا إليه أن يسلمهم حاكم "أترار" وإلآ فليعد العدة لحرب طويلة قاسية، ولم يجبهم ملك خوارزم إلى ما طلبوا، بل على العكس من ذلك قتل الرسول التركي "بغرا" وأمر الرسولين المغوليين الآخرين بالعودة إلى مولاهم بعد أن حلق ذقنيهما، وثار "جنكيز خان" لإهانة رسله، فعقد جمعية عامة من المغول وقرر مهاجمة "خوارزم"[1].

وبدأت الحرب بانتصار تافة فاز به "محمد خوارزمشاة" ولكنه بقي مع ذلك خاملاً مبتعداً بنفسه عن موقع الخطر تاركاً أمر المدافعة عن حدود بلاده التي أغار عليها المغول إلى حكامها، منتظراً لحظة مباركة يشير بها المنجّمون ليبدأ فيها منازلة خضمة، وكانت آثارة الحروب في ذلك العصر تظهر من خلال أسباب بسيطة وتبدأ بالاشتعال بعدما بيّت في أمرها المنجّمون والسّحرة*، وهكذا بدأت الشرارة الأولى للهجمة المغولية، فقد عصفت العاصفة بشدة فيما وراء النهر (بخارى وسمرقند وخوارزم وكافة مناطق آسيا الوسطى)، وسقطت مدينة "أترار" عام(1219) بعد حصار دام خمسة أشهر وقبض المغول على حاكمها الذي أمر

(1) أدورد براون "تاريخ الأدب في إيران". ج2. ترجمة إبراهيم بن الشواربي، ص55، القاهرة (1954).

*لا يقدم الملوك والامراء على أي عمل قبل أن يسأل ويستشير السحرة والمنجمون أو العرافه في ذلك الزمان عن مدى نجاح أو فشل القيام بالمهمه من عدمها.

بقتل تجّارهم، فأعدموه بأن صبّوا الفضة المصهورة في عينية وأُذنية، ثم ساقوا أمامهم من نجا من غارتهم على هذه المدينة، فدفعوا بهم إلى مدينة "بخارى" لينتفعوا بهم ضد مواطنيهم وأهلهم.

وهكذا استمرت غارة المغول بالسيطرة على مُدن خوارزم مدينة بعد أخرى، إلى أن وصلوا "بخارى" وعملوا الغارة فيها وأحرقوها وقتلوا عدداً كبيراً من سكّانها واستحيوا النساء وهتكوا الحرمات، وقد أثر الموت جهاداً جماعة من سكانها لم يرضوا بحياة العار والذُّل فاستشهدوا مقاتلين، وكان من بين هؤلاء القاضي "بدر الدين" و"ركن الدين" وابنه، وجاء التسلسل إلى "سمرقند" بعد ذلك فحاصرها المغول أربعة ايام خضعت لهم في النهاية، فأغاروا كعادتهم ونهبوها وقتلوا كثيراً من سكانها واستعبدوا من نجا من حد سيوفهم، واستمر "محمد خوارزم شاة في التقهقر والتراجع، وأخذ ينصح سكان البلاد التي يمر بها أن يعملوا ما بوسعهم[1] لحماية بلداتهم. واعتقد أن المغول سوف لا يقدرون على عبور نهر جيجون فتوقف في مدينة "نيسابور" لكن لم تمض على ذلك ثلاثة أسابيع حتى سمع أنهم دخلوا خراسان، فأسرع إلى الهرب باتجاه قزوين. وعندما وصلها توجه إلى كيلان ومازندران، وهناك تركه أتباعه وكان مصيرة إن مات في إحدى جزر بحر قزوين.

وهكذا سقطت مملكة خوارزم وكانت قد قاومت المغول مقاومة شديدة أثارت حفيظتهم، فلما وقعت في أيديهم عملوا سيوفهم في رقاب أهليها جميعاً، ولم يبقوا من سكانها إلا على أصحاب الحِرف والصّناعات التي تفيدهم، وقد نقلوهم كعادتهم إلى "منغوليا"، وقد ذُكر في كتاب "جامع التواريخ" أن الجيش المغولي كان يبلغ خمسين ألف مقاتل وإن وكِل لكل واحد من هؤلاء أن يقتل

(1) دوسون، المصدر السابق، ج2، ص477.

أربعة وعشرين رجلاً من الأسرى الذين وقعوا في قبضتهم بعد الاستيلاء على هذه الولاية، وكمثال على ما عمله المغول في هذه الولاية، أن عجوزاً في مدينة "ترمذ" ابتلعت جوهرة لتخفيها عنهم فأمروا جنودهم بإخراج القتلى وشق بطونهم بحثاً عن الدرر والجواهر ظناً منهم أن عدداً كبيراً قد كرر فعله العجوز قبل مماته .

وهكذا ازدادت قسوة المغول وغلظتهم كلما ازداد نجاحهم ونفوذهم وأخذت الغلظة والفظاعة تزداد أكثر فأكثر وتمسح الرحمة والشفقة حيال سكان المدن البائسة التي وقعت تحت أيديهم، بل أخذوا يبيدونهم عن آخرهم، كما فعلوا بسكان "بلخ" و "نصرت كوة" و "نسا" و "نيسابور" و "مرو" وأماكن أخرى كثيرة من المدن الإيرانية؛ وقد قدر ابن الأثير القتلى من أهل "مرو" بـ **700.000** قتيل، بينما قدرها آخرون بأكثر من ذلك بكثير، وفي نيسابور قطع المغول رؤوس قتلاهم، ووضعوها على هيئة أهرام عالية إحداها للرجال والأخرى للنساء والثالث للأطفال، وبذلك ضمنوا أن لا ينجو مخلوق من حد سيوفهم بادعائه الموت وارتمائه بين الأشلاء والجثث المترامية، (أي قد ينجو أحداً من الجرحى بعد أن يستفيق من جرحه ويظهر لهم ثانياً وكان ذلك سبباً وراء قطع الرؤوس في الحرب كي يتأكد لهم الموت الحتمي).

لقد ثبت عبر التاريخ أن من يقتل بشراً بهذه البشاعة يتوغل بالقتل أكثر فأكثر بمرور الزمن، ويزداد تعطشاً لسفك الدماء إلى النهاية. ولم يأل "المغول" جُهداً في إيقاع الدمار والخراب بالأماكن التي اجتاحوها وكانوا يعمدون إلى إحراق الحبوب والغلال التي تزيد على حاجتهم، وكثيراً ما كانوا يعودون إلى البلدان التي أغاروا عليها فيفتشونها من جديد ويقتلون البقية الباقية من أهلها الذين اختبأو أثناء الغارة الأولى وأخذوا يخرجون الآن باحثين عن الطعام

والشراب، وفعلوا ذلك مع أهل "مرو" واستطاعوا أن يقتلوا أثناء عودتهم خمسة آلاف رجل نجو في غارتهم الأولى.

وكانوا يلجأون إلى شتّى الوسائل لتعذيب الأسرى للاعتراف بأماكن النقود والكنوز التي أخفوها..!!، أما كنوز الآداب والفنون التي كانت تزخر بها المدن القديمة التي فتحوها فقد حطمت تمام التحطيم وكان هذا طبيعياً ومنتظراً من قوم يستهينون بكل ما هو إنساني[1].

وكانت أعمال المغول الإرهابية تلقي الفزع في نفوس سكان البلاد، التي ينوون الإغارة عليها وكانت قلوبهم تتخلع رعباً وفزعاً حينما يوجّهون إليهم إنذارهم المعتاد: "لسنا نعلم ماذا تفعل بكم الأقدار إذا لم تسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام لنا والله وحده هو الذي يعلم ما هو نازل بكم...!!"[2].

أما عن ديانتهم فقد كان المغول لا يعرفون الدين في باديء الأمر، وكانوا يتساهلون في أمور الدين وقد ساووا بين رجال الدين في مختلف العقائد والمذاهب، وقد أمتاز "جنكيز خان" على العموم بتسويته بين الأديان جميعاً دون أن يعتنق واحداً منها، أما من جاء بعده "قبلاي خان" وهو أحد أحفاده (1257- 1279)، فكان أول من اعتنق البوذية، وأما أول من اعتنق الإسلام فهو "أحمد" "تاكدار خان" (1282- 1284)، ثم غازان خان (1295- 1304)، ومنذ ذلك الحين بقي المغول يدينون بالاسلام، وقد ظهر كثيراً ممن اعتنقوا الإسلام أصبحوا من كبار المتفقّهين في تعاليمه[3]، ومهما قيل عن غارة المغول، وأنها كانت كارثة كبرى أصابت صميم الحياة وأنها جَنت على العلوم والمعارف الإنسانية، وخاصة الحضارة العربية التي استطاعت أن تحتفظ بكيانها سليماً مُعافى في إيران والعراق طوال

(1) دوسون "تاريخ المغول"، ج1، ص350.

(2) دوسون، المصدر السابق، ص394.

(3) دوسون، المصدر السابق، ج3، ص651.، ج4، ص79.

القرون الستة التي تلت الهجمة المغولية الأولى، فإن هذه الغارة كانت مُجلبة لبعض عناصر الخير بالرغم من كل ما عرف عنها من شدة وغلاظة بصورة غير مباشرة ولا مقصودة وخاصة بالنسبة للغرب الأوروبي.

وربما كان من بين فظائلها أنها كانت سبباً في المزج بين شعوب العالم المختلفة المتباعدة، مما أتاح عنه فيما بعد تجديد العقليات التي طال ركودها وخمولها، وإذ بقي الحال خاملاً في منطقة الشرق الأوسط لفترة طويلة بسبب تلك الهجمة الوحشية، وذلك لهشاشة بناء الدولة والوضع الاجتماعي والاقتصادي بما في ذلك من سوء في توزيع الثروة والمواريث القديمة في عقلية العبودية، وروح المقدس السمائي الذي يستمده الحاكم. لكن في أوروبا اختلف الحال فقد كان تأثير المغول واضحاً عليهم، فقد أصبح حافزاً ومنبهاً للمفكرين والعلماء في التوغل لإيجاد فلسفة شافية "تستطيع أن تسيّرهم إلى الأمام بخطوات كبيرة، وكانت بداية عصر النهضة الأوروبية. لقد أثبتت الدراسات الحديثة أن روجر بيكون (1210- 1290)، وعدد كبير من العلماء الأوروبيين ظهروا في ذلك العصر، وكانت فلسفاتهم مأخوذة من معلومات ترجمت من العربية إلى اللاتينية[1]. ويقول أدورد براون عن ذلك: "لقد كان المغول سبباً هاماً في حركة النهضة الأوروبية، فهي التي دفعت بالأتراك العثمانيين من الزحف من خراسان (تركمانستان) إلى أبواب القسطنطينية (اسطنبول حالياً)، فكانت بذلك السبب المباشر والأخير في تحطيم الامبراطورية البيزنطية وما نتج عن ذلك من انتشار المفكرين اليونانين وكنوزهم العلمية في مختلف البلاد الأوروبية وبالذات إيطاليا (فلورنسه)التي بدأت فيها أول نشاط فكري قاد إلى النهضة الأوروبية".

[1] (1)أحمد صالح العلي "العراق في التاريخ" دار الحريه للنشر-بغداد(1983)ص 483.

وقد استطاعت هذه الغارة أيضاً (أن تحطّم الحدود والحواجز بين مختلف الأقاليم والممالك، فمكّنت بذلك لبعض الرّحالة من أمثال "ماركوبولو" أن يجوبوا الأقطار النائية من آسيا وأن يجعلوا المعارف التي لم يكن بالمستطاع الوصول إليها لشدة المحافظة عنيها (خاصة الصين)، وكما كانت سبباً في البداية في خلق التّطاحن بين الفرس والعرب من ناحية، وبين الصينيين وأهل التبت من ناحية أخرى، فإنها كانت كذلك سبباً في إيجاد التوافق والتعاون بينهم، بمساواتهما بين "الفقيه المسلم" و "القس المسيحي" و "الايلاما البوذي" و "البخشي المغولي"، وكل رئيس لدين آخر أو مذهب مخالف، وكانت هذه أول بادرة للمساواة بين الأديان التي كانت قبل هذا التاريخ سبباً لصراعات دامية[1].

وهكذا فإن عملية نشر وتمازج الثقافات بين الشعوب المختلفة تدعوا للحاجة إلى الإصلاح ومراجعة الذات، وهكذا ظهرت أول ما ظهر من إصلاح ديني هو دعوة لوثر في ألمانيا بإدخال إصلاحات إلى الديانة المسيحية (الكاثوليكية)، وكانت تلك الدعوة وغيرها من الدعوات نُواة تبلوت بعدها عملية الاصلاحات النهضوية خلال القرون التي تلت ذلك، وبالتالي نستطيع القول بأن الهجمة الغولية جاءت حافزاً لأوروبا، لكي تستفيق من سُباتها في القرون الوسطى الآيل للأفول بالاضافة للظروف والعوامل الأخرى التي ساعدت على ذلك، بينما لم نستفيق نحن من تلك الصدمة وإلى الآن والسبب في ذلك هو ما سنحاول الاقتراب للوصول إلى تفسيره ضمن هذا البحث.

يقول أدورد بروي في كتاب "تاريخ الحضارات، ج3"[2]: "لقد برهن الإسلام في البلدان التي وقعت تحت الفتح المغولي بوجوه شتى في نشاطات وحيويّات

(1) أدورد براون، المصدر السابق، ص563.

(2) ادورد بروي "تاريخ الحضارات العام" المجلد الثالث القرون الوسطى. ترجمة يوسف أسعد داغر، ط/2، (1986).

متنوعة، لم تقل فقط عمّا تم له منها في دول المماليك في مصر، فهؤلاء المغول الغزاة الذين سايروا جميع الأديان في بدء أمرهم، أخذوا في أواخر القرن الثالث عشر يعتنقون الإسلام، بتأثير مزدوج من السكان المسلمين الذين خضعوا لهم، وبدافع من التركمان الذين تمازجت معهم وانصهرت بينهم أولى القبائل المغولية التي دخلت إيران، فقد برهنوا عن تساهل عظيم أمام جميع الأديان والمعتقدات دون أن يفرّقوا عند اعتناقهم الإسلام بين الشيعة والسنة، ولم يخلُ هذا الوضع بالذات من بعض الأثر على الإسلام، إذ فَقَدَ شيئاً كان يجعله في أعين الآخرين الدين المميّز والمفضّل، وهكذا عظم شأن الشيعة وكبر وتطور، بحيث أصبح التشيّع بعد ذلك بقرنين المذهب الرسمي في إيران (أيام إسماعيل الصفوي).

ولم يتسبّب غزو المغول عن أي تغيير يذكر في البلاد التي أخضعها لسيطرته من الوجهه الطائفية، فقد بقي الترك على الأثنية السنيةـ، وقد دفع المغول أمامهم عدداً من الأقوام والشعوب التركمانية، لم يلبث أن ألّف معظمها وحدات تمازجت بالجحافل المغولية الغازية التي غطت بمدّها آسيا الصغرى وجنوب روسيا فأمدّتها بموجة جديدة من العنصر التركي وصبّت فيها دماً جديداً، وقد استطاع التركمان أن يؤثروا على المغول تأثيراً كبيراً، وراحوا يمتصونهم، ولم يبق على نقاء وصفاء عملية التتريك سوى بعض الجاليات المعزولة.

وهكذا انتهت جالية المغول وحلت محلها أقوام أخرى عُرفت في جنوب روسيا بأسم التتر أو التتار، وهو اسم عنى به إذ ذاك وأريد به المغول، بينما هم بالفعل قوم من الترك لغةً وعرقاً ولهجةً، وهكذا يتضح لنا أن المغول والتتار هم أقوام رعويه واحدة تمازجت فيما بينها لأهداف الإغارة والهجوم على الأقوام المحيطة.

2- الإدارة والاقتصاد في الدولة المغولية:

إن الإدارة العامة بقيت في أيدي الوزراء وكلهم من سكان البلاد الأصليين، ومن كل المذاهب مثل رشيد الدين الخطيب، وهو يهودي أعتنق الإسلام، وفيلسوف تعاطى الحكمة وتولى الصدارة العظمى للالخان غازان[1] عام (1300)، أما السلطان فقد احتفظ لنفسه بقيادة الجيش، وبالقرارات السياسية المهمة مستعيناً في عمله بإرشادات المجلس الأعلى للمغول، وسار على قانون "جنكيز خان"، وقد لفت أنظار الناس إلى بعض الأشياء الخارجية التي استحدثها كالفرمان والأنواط المعدنية التي أنعم بها على بعض القادة، والخاتم الذي تُمهر به أوراق الديوان (الطرة) والذي يشبه شبهاً كبيراً الصفراء عند السلاجقة، وبعد أن رسخ النظام واستقرت أسسه، كان على الدولة أن تسير وفقاً لمقتضيات الوضع الراهن. فالفرض الذي رمت إليه في الدرجة الأولى كان استغلالها للبلاد بالسيف والبطش والإرهاب، حتى إذا ما حلّ الرُّعب في قلوب السكان بعد أن اقفرت البلاد وجفّ منها الزرع أخذت الحكومة المغولية تتبع نهجاً إدارياً أكثر انتظاماً من قبل. وقد وفّرت الفتوحات للدولة الايلخانية - المغولية) على قدر ما سمحت به التقاليد المرعية أملاكاً واسعة وعوائد عينية وافرة، فالاصلاحات التي قامت بها (وكلها مستوحاة من مغول الصين أي من المناهج الصينية) ساعدت على وضع نظام مالي مُبسّط،و وفّرت لها محصولاً أطيب من الواردات، وكل هذا لم يُساعد في حلّ مشاكل الدولة التي تفاقمت عليها في أواخر القرن الثالث عشر نتيجة لحجم الدّمار الذي أصاب البلاد. ولذلك حاولوا استخدام العملة الورقية كتجربة لتسير الأمور وإعطاء رواتب للجنود، لكن ذلك لم ينجح،

(1) الايلخان غازان: لقد أصبحت تعرف المملكة المغولية في إيران بالمملكة الايلخانية في عصر المغول نسبه الى هذا اللقب الذي يعني في لغتهم "الاسد القائد" أو ما يشبه ذلك(ادورد براون - المصدر السابق).

ومُنيت بالخيبة لقلة تجربة القوم، وعدم خبرتهم وعدم تهيئة الناس لمثل هذه التعاملات من قبل. ومن الفوائد التي أدت إليها الوحدة المغولية، إقامة علاقات اقتصادية مباشرة مع جميع أرجاء آسيا، والتّسامح الديني والسياسي الذي عُرفت به هذه الدولة والذي مكّن لعدد من المُرسلين من رهبانيّات الدومنيكان والفرنسيسكان أن يتوغّلوا بعيداً في أواسط آسيا، وأن يقيموا لهم مراكز للتّبشير من شواطيء البحر الأسود و حتى مشارف الصين. حتى إن القَوافل التجارية للإيطاليين انضموا لأول مرة في التاريخ إلى القوافل الآسيوية التي كانت تجوب أقطار الهند والصين، وتم تبادل الممثّلين السياسيّين بين بلاط المغول والدول المسيحية في الغرب، وقد نتج عن ذلك ولأول مرة في التاريخ، نوع خاص من اتساع الأفق أمام الاتصالات البشرية، كما وضع كثير من الرحالة الغربيين، أوصافاً مثيرة لهذه البلدان الجديدة التي وطأتها أرجلهم لأول مرة، والتي كانوا يجهلون عنها كل شيء، وظهرت لأول مرة في التاريخ كتب عديدة أمثال "جامع التواريخ" وغيره".

إن كل هذه الأمور وغيرها كانت واحدة من العوامل الهامة بعد مرور فترة زمنية قصيرة، وفي الدول الأوروبية بالذات إلى توسيع مدارك العقل البشري، وبدء التفكير بكروية الأرض ودوران الأرض حول الشمس وما إلى ذلك، إلى أن دفع المغامرين من الرحلة المعروفة لاكتشاف طريق آخر للهند، وهو الذي أدى إلى اكتشاف القارة الأمريكية. ولابد من التنويه هنا إلى أن هذه التجربة لم تعمر طويلاً في آسيا، فلم يمر ثلاثة ارباع القرن حتى عادت آسيا إلى الانقسام، وأوصدت أبوابها في وجه الغربيين، ففي عهد الوحدة (الدولة الالخانيه) لم تكن طرقها مأمونة المسالك، إذ أن الحروب التي قامت بين الممالك المغولية جعلت سالكيها في خطر، ومن بين الطرق التي فُتحت للتجارة هو الطريق الذي يصل بين البحر الأسود والصين، ماراً بالأقطار الخاضعة للدولة الاليخانية، وكانت

المُنافسة بين هذه الطرق على أشدها، كما كانت على مثل هذا الوضع بين الممالك المغولية نفسها التي تسيطر عليها، وهذه المنافسة حالت دون حصول المماليك (في مصر) على ما يرغبون فيه من الرِّق من أسواق القوقاز، ولذا راحوا يحاولون الاتصال مباشرة بالبحر الأسود وما يقع حواليه من الأقطار، عن طريق المضايق،و بالاتفاق مع بيزنطية، وعلى أساس من التعاون والتفاهم مع الجوالي الإيطالية المقيمة في شبه جزيرة القرم"[1].

ولكي نكوّن فكرة عن حجم التوسّع المغولي، لابد من الإشارة إلى أنه بعد موت "جنكيز خان" في الصين عام (1227)، وكان يبلغ من العمر الستة والستين عاماً، أنجب ابنه "اوكداي خان" الذي استطاع من غزو روسيا وبولندا ما بين سنتي (1236 و 1241)، وقد ابلى المغول روسيا وبولندا بنفس الأهوال التي أبلو بها إيران فتحملَ الكثير من مدنها شناعات المغول وخاصة "موسكو" و "روستوف" و "ياروسلاف" و "تفير" و "شيرنيكوف" و "كييف" و "كاراكاو" و "يست". و في بولندا، وحدها جمع المغول (3) أكياساً ملأوها بآذان ضحاياهم وقتلاهم فبلغ مجموع ما جمعوه 270000 أذن أخذوها معهم دليلاً على ما كانوا يفتخرون به من بأس وسطوة..! وكان هذا الحاكم أقلّ قسوة ويوصف بحبه للشفقة والرحمة بالمقارنة مع أخيه الأكبر "جغتاي"[2]، وبعد وفاة أوكداي تولى ابنه كيوك السلطة ومات عام (1253)، وتولى ابن عمه "منكَو" عرش المغول، وصار إخوانه "قبلاي خان" حاكماً على الصين بينما "هولاكو خان"، فقد أُرسل لاحتلال بغداد وتولى الحكم في الولاية الغربية كلها، والذي سوف نتحرى عن حركاته لترابطها بالأغراض التي نصبُوا إليها من البحث في الفقرة التالية:

(1) ادورد بروي، المصدر السابق، ص555.

(2)ادورد برون، المصدر السابق، ص574، وكذلك ناساوليز (طبعه القاهرة)، ص380- 396.

3- وصول ((هولاكو خان)) إلى الحكم:

لقد توسعت الامبراطورية المغولية ومات مؤسسها "جنكيز خان" وجاء الأولاد والأحفاد ليقسّموا تلك المملكة الكبيرة بينهما، إلى تقسيمات إدارية لا علاقة لها بالمركز، فأصبحت إيران مستقلة عن المركز وموسكو ووارشو والصين والهند وغيرها، كلاً أصبح في مركز مستقل بذاته. وبعد صراعات دامية وصلت إلى قتل الأخ لأخيه والإبن لأبيه للاستيلاء والحصول على السطوة والجلوس على عرش السلطة والتسلط لما فيها من جاه ومتعة، والتي أبقت تلك الحالة موروثاً تاريخياً لا يزال يلعب دوراً كبيراً في تاريخنا، وتاريخ غيرنا من الشعوب في البلدان المتخلفة والبعيدة عن الفكر الديمقراطي إذ أن من يصل إلى كرسي الحكم يجد في نفسه صاحب تفويض الآهي لا يمكن انتزاعه بسهولة. ولكي نصل إلى موضوع احتلال بغداد على يد "هولاكو خان" أحد أحفاد "جنكيز خان"، لابد لنا من متابعة مسار "هولاكو خان" منذ البداية، فبعد أن خرج من عاصمتهم "قواقورم" عام (1253) مزوداً بتعليمات مشددة بأن يستأصل شأن "الحشاشين في "الموت" الإيرانية وأن يتوجه نحو مركز الخلافة العباسية في بغداد، وكان يصطحب في حملته عدداً كبيراً من المهندسين ورجال المدفعية من أهل الصين (وكان ذلك بعد اكتشاف البارود في الصين وأول ظهور استخدام المدافع في الحرب، ولكن لم يُذكر أي دور فعال في حسم معارك مهمة لأن المدفع لم يصل بعد لهذه الدرجة القتالية الفعالة بعد)، ليستعين بخبرتهم في أعمال الهجوم والمحاصرة، وكان سيرة في البداية بطيئاً، وأمضى صيف عام (1254) في تركستان، ثم وصل إلى سمرقند في خريف (1255)، وبقي فيها أربعين يوماً، ثم توجه إلى إيران والتقى بحاكمها المغولي "أرغون" الذي تولى الحكم في إيران والذي عين من قبل "منكو" أحد أحفاد "جنكيز خان"، وقد أصحبه في أشد معاركه وحضر معه غارته على حصن قلعة "الموت" معقل الحشاشين، وبعد أن هيئوا أنفسهم وبعد

مراسلات ومفاوضات واستخدامه التهديدات والوعود التي اعتاد عليها المغول، تم الهجوم على أكبر حصون الاسماعيلية "الموت" وقد استولوا عليها ثم اتبع ذلك بقتل جميع الاسماعيلين الذين سلموا معاقلهم له، ولم يستثني من ذلك أحداً منهم بل وقتل الأطفال في مهدهم..!! واستيأس جماعة من أشداء الاسماعيليين من مقاومة المغول وحصل لهم "ركن الدين خورشيد" أحد قادة الاسماعيليين في إيران على عفو كتابي من "هولاكو خان"، ولكنهم استمروا على مقاومة المغول، واستطاعوا أن يقتلوا عدداً كبيراً منهم، غير أن هذه المحاولات جميعها لم تستطيع أن يؤجل النهاية التي كانت تنتظر طائفة الاسماعيلية، حينما سلّم "ركن الدين" نفسه إلى المغول سنة (1256)، وحينما استولى المغول على قلعتي "الموت" و "ميمون دز"، فعملوا فيها غارة كبيرة وأشعلوا النار بعد ذلك، واستولى المغول على بقية معاقل الاسماعيلية في إيران، وأخذوا ركن الدين إلى همدان وأحسنوا معاملته وسمحوا له بأن يتزوج فتاة مغولية، أعجب بها ومنحوه مائة من الجياد الفارهة كان يتسلى برؤيتها وهي تتعارك مع بعضها. هكذا، كان يفكر الغزاة فهم في أحلك الظروف قد يجدوا قرابة مع أعدى أعدائهم، ويقيموا علاقات تناسب وصلات قرابة. وقد أرسله المغول إلى العاصمة "قراقورم" ليقدم نفسه إلى الامبراطور الكبير في المركز، وكان في ذلك الوقت "منكَو خان" وهو أكبر حاكم (إمبراطور المغول)، وقد أمر هذا الأخير بقتله بسبب استخدامهم خيول البريد في إيصاله، وهكذا قُتِل وهو في طريقة ولم يصل سوى بخارى، وأمر بعد ذلك بقتل جميع أتباعه حيثما كانوا، وكان العدد الذي هلك منهم كبير جداً[1].

(1) دوسن "تاريخ المغول"، المجلد الثالث، الفصل 4،5.

ويذكر أن نظام استخدام خيول البريد بشكل كفوء كان قد استخدم لأول مرة من قبل "جنكيز خان" قد اعتبرة الكثير من المؤرخين السبب الرئيسي في انتصار المغول وتوسعهم في أرجاء آسيا وأوروبا، وهو ضمن الأعمال التاريخية المتميزة للقائد "جنكيز خان"، لذلك أصبح هذا العمل مقدساً لدى الأحفاد ووجب عليهم احترامه والمحافظة عليه.

4- الهجوم على بغداد:

إن قرار الهجوم على بغداد قد اتخذ من قبل الامبراطور المغولي "منكو خان"، وأرسل "هولاكو خان" لهذا الغرض، وليس مجرد فكرة خاصة بهذا الأخير كما تعودنا أن نسمع في كتب التاريخ المدرسية والتي تحاول دائماً الاقتضاب في الحديث عن تلك الفترة، وبشكل غامض يثير التساؤل لدى الكثيرين، فبعد أن تم القضاء على "الحشاشين" في إيران، فاز "هولاكو خان" بإعجاب أهل السنة في العالم الإسلامي، ولكن خطوتة التالية اقترنت بكثير من الرعب، إذ أرسل "هولاكو خان" إنذاراً إلى "المستعصم" بأن يسلّم نفسه إليه، ويسلّم مدينة بغداد التي ظلت عاصمة للمسلمين طيلة القرون الخمسة الماضية، وبعد شهرين بدأ "هولاكو خان" معركته في تشرين ثاني سنة (1257)، وكان يصطحب معه جُملة من أمراء المسلمين، وكان الخليفة العباسي قد بادر بإرسال "شرف الدين ابن الجوزي" إلى "هولاكو خان" في همدان، وزوّده برسالة إليه، ولكن هذا القائد المغولي اعتبر رسالة الخليفة غير مُرضية وغير قاطعة، فأخذ يوجه الجزء الأساسي من جيشه إلى بغداد ليحيط بها من ناحية الشرق، وأمر جيشاً آخر بقيادة "بابوناويان" أن يتحرك من الشمال عن طريق "تكريت"، وأن يلتف حول المدينة من ناحية الغرب، وكان قِوام الجيش الأول يزيد على ثلاثين

ألف محارب[1]، بينما تذكر مصادر أخرى أن قوام الجيش الثاني كان يبلغ ثمانين ألف جندي[2].

وتلاقت جيوش المغول مع جيوش الخليفة في تكريت، واستطاع جند الخليفة أن يحيطوا الجسر القائم على "دجلة" وكان القائد المغولي "بابوناويان" يريد عبورة ولكن انتصارهم هذا كان قصير الأمد، وما لبث المغول أن اندفعوا إلى "الدجيل" و "الاسحاقي"، ونهر الملك ونهر عيسى وأماكن أخرى كثيرة بالقرب من بغداد. واستولى الفزع على سكان هذه البلاد، فأخذوا يفرّون أمام المغول ليذهبوا إلى عاصمتهم الكبرى بغداد، واستغل ملاحوا القوارب حالة الفزع هذه فأخذوا ينقلون الشخص من ضفة الشاطيء (دجلة) إلى الضفة الأخرى لقاء أجر كبير (سوار ذهبي أو أمتعة ثمينة غالية)[3]، ثم تلاقى الجيشان (جيش المغول وجيش الخليفة المستعصم) بالقرب من الدجيل مرة ثانية في كانون الأول (1258)، وتمكن جيش الخليفة بقيادة "مجاهد الدين أيك" الملقب "بالدويدار الصغير" والملك "عز الدين فتح الله"، من إحراز نصر بسيط رغم قلة الجند الذين كانوا تحت قيادتهم، ثم انتظر المغول قليلاً، واستعانوا بالمهندسين الصينيين الذين كانوا في رفقتهم ثم غمروا معسكر المسلمين بالماء، فتمكنوا بذلك من إنزال الهزيمة بجيوش الخليفة ومن الإيقاع بالمشاة الأسرى الذين وقعوا في أيديهم بعد ذلك، وبهذا تيسّر لهم طريق الوصول إلي بغداد بعد ذلك، وأصبح بيد المغول بعد أن هلك عدد كبير ممن نجوا من المعركة في الأوحال التي نتجت عن غمر الأراضي بالمياة، ولم ينج إلا من استطاع أن يعبر النهر سباحة وأن يدخل البرية،

(1) ابن الطقطقي "كتاب الفخري"، المصدر السابق ص300 .
(2) كتاب "طبقات ناصري"، ص426 طبع (Nassau Lees) لم يذكر اسم مؤلف الكتاب وقد يكون هذا الرقم مبالغ به كثيراً.
(3) ابن الطقطقي "كتاب الفخري"، المصدر السابق ص305

ويمضي على وجهه إلى الشام، وقد نجا "الدويدار" مع جماعة صغيرة من أتباعه واستطاعوا أن يدخلوا بغداد، ثم أخذ هو و"عز الدين" يحرّضان الخليفة على مغادرة بغداد والذهاب إلى البصرة، ولكن الوزير "ابن العلقمي" لم يوافقهما على هذه الخطة، وتردد الخليفة ولم يستطع أن يقطع برأي وإذا بجيوش المغول تحيط ببغداد من كل ناحية وتضرب عليها الحصار ابتداءاً من يوم 22 كانون أول وبدأ المغول هجومهم العام في الثلاثين من الشهر المذكور وبعد أربعة أيام أرسل الخليفة رسوله "ابن الجوزي" ثانية إلى "هولاكو خان" ليقدم له في هذه المرة كثيراً من الهدايا القيمة مشفوعة برضاه بالتسليم ووقف القتال، ولم تمض على ذلك بضعة أيام، حتى خدعه المغول بالوعود الكاذبة فسلّم نفسه إليهم مع ولديه الأكبرين "أبو العباس (أحمد)" و "أبي الفضائل (عبد الرحمن)"، ولكن "هولاكو خان" سرعان ما أمر بإعدامهم جميعاً دون شفقة أو رحمة، أما طريقة تنفيذ الإعدام فقد ذكر الشاعر الانجليزي (Long fellow) أنهم حبسوا الخليفة في خزائنة وبيت ماله وتركوه هناك يموت جوعاً[1]. بينما ذكر آخرون أنهم لفّوه في سجادة ثم انهالوا عليه ضرباً بعصيهم ودبابيسهم حتى الموت، وهذا الاحتمال أقرب إلى الصحة لأنهم كانوا يحرمون إهدار دم ملكي، وكانوا إذا أرادوا إعدام أحد أمرائهم يتبعون طريقة وحشية اختصوا بها في إعدام الأمراء بدون إهدار دم بل يكتفون بكسر ظهورهم، أو ما شاكل ذلك دون أن يخرجوا الدم..!!

لقد بدأت الغارة على بغداد في 13 شباط (1258)، واستمرت أسبوعاً كاملاً، أعدم فيه المغول عدداً يبلغ 800,000 من سكانها[2]، واستولوا خلالها على الكنوز المادية والأدبية والعلمية التي تجمّعت في بغداد خلال القرون الطويلة والتي ظلت فيها بغداد عاصمة زاهرة للخلفاء العباسيين.

(1) ادور براون "تاريخ الأدب في إيران"، ج3، ص586، المصدر السابق.
(2) "كتاب الفخري"، المصدر السابق.

أما الخسارة التي أصابت الحركة العلمية الإسلامية فلا يمكن وصفها، ولم ينحصر أثر هذه الكارثة في خسارة العدد الكبير من الكتب القيّمة التي أبيدت تمام الإبادة، ولكنها امتدت فأهلكت من رجال العلم عدداً كبيرا، ولم تُبق منهم إلا على فئة قليلة مشردة الأذهان، ولم يحدثنا التاريخ أن مدينة زاهرة بالحضارة الإسلامية قد اختفت في مثل هذه السرعة التي اختفت فيها بغداد، وأصبحت طعمة تلتهمها النيران المستعرة وتغرقها الدماء المرهقة. ثم تبع ذلك أن أقتحم العسكر السلطاني هجوماً ودخولاً فجرى من القتل السريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة، فما بالك بالتفاصيل[1].

وقد استمرت الحملة في المدن الأخرى من العراق، وتهاوت وتساقطت كل المدن واحدة بعد الأخرى لمجرد سماعهم بسقوط المركز، واستمر "هولاكو خان" بالزحف نحو الغرب واحتل بلاد الشام حتى أوقفها مماليك مصر في موقعة "عين جالوت" التي وقعت في 3 أيلول 1260، وفاز فيها المصريون فوزاً كبيراً اعتبر أول فوز أصابه المسلمون ضد "المغول" على مدى السنوات الثلاثين التي تلت موت "محمد جلال الدين خوارزمشاة"، ومنذ ذلك التاريخ إنحرست موجة العنف المغولي، وأخذ المسلمون يرون أن القول بأن أعداءهم لا يقهرون، كان مجرد خُرافة وكذبة وهمية، فاستجمعوا قوتهم من جديد وتمكنوا من أن ينتصروا عليهم في كثير من المواقع الفاصلة وخصوصاً موقعة "عين تاب" في (1277)، عندما تمكن "الظاهر بيبرس" من هزيمة المغول، هزيمة نكراء واستطاع أن يقتل منهم في هذه الموقعة 6770 جندياً[2]. وربما كان فوز المصريين أكبر وأوضح في موقعة "مرج الصفر" بالقرب من دمشق سنة (1303)، فقد استطاع الملك الناصر أن يجلب عند عودته إلى القاهرة 1600 أسير مغولي مصفدين في الأغلال، وقد

(1) أنظر كتاب "الفخري لابن الطقطقي"، المصدر السابق، ص300 فما فوق.

(2) أدورد براون، المصدر السابق، ص568.

حمل كل واحد منهم رأس قتيل مغولي، تتدلى من سلسلة في عنقه وسار بهم في المدينة، يتقدمهم ألف فارس من رجاله، قد شهروا حرابهم، وعلى كل واحدة منها رأس قتيل مغولي جلبوه معهم من الموقعة..!!

وهكذا بدأت تتقهقر امبراطورية المغول في أوائل القرن الرابع عشر، ففي إيران تهدمت إمبراطوريتهم بموت "أبي سعيد" في سنة (1335)، وتهدمت إمبراطوريتهم في الصين بعد خمسين سنة من ذلك التاريخ، بينما ظلّت في روسيا الجنوبية حتى نهاية القرن الخامس عشر[1]، وكانت آخر بقاياهم في خوارزم وبخارى (وقد فقدتا إستقلالهما في سنة 1868 وسنة 1872) وكذلك في القرم التي زالت قبل ذلك في سنة (1783).

5- الحركة الأدبية في العصر المغولي:

رغم كل الدمار الذي لحق بالعالم الاسلامي في فترة الغزو المغولي وحرقهم للكتب والمخطوطات الثمينة، إلا أنهم لم يشكلوا خطراً على مسار الحركة الأدبية والعلمية. ولا بد من ذكر بعض مشاهير الكتاب والأدباء الذين عاصروا وكتبوا في تلك الفترة والذين خلدهم التاريخ وأهمهم : ابن الأثير، وابن عبري، والجرجاني والجويني، وابن خلكان، وابن أبي أصيبعه، وياقوت الحموي، وفخر الدين الرازي، وناصر الدين الطوسي، وابن ميمون، وابن البيطار وشهاب الدين السهروردي وابن تيمية وآخرون وكل هؤلاء من فقهاء وشعراء وكتاب تاريخ وأطباء وعلماء. وكان ناصر الدين الطوسي وهو أحد علماء الشيعة في القرن الثالث عشر(1201- 1274) الذي أسّس مرصداً فلكياً في مراغا بأمر من "هولاكوخان" وحمد الله المستوفي. لكن كل هؤلاء وغيرهم كانوا ثمرة لبذرة كانت قد زُرعت في العصر العباسي الذهبي، والدليل أنه لم يظهر مثل هؤلاء

(1) دوسون، المصدر السابق، ج2، ص183- 186.

فيما بعد. وأمام نوائب هذا الزمن والمحن التي نزلت على الناس، كانت النتيجة أن الحياة الدينية تميل لدى القوم سنةً وشيعه على السّواء نحو التصوّف، ليس على طريقة كبار المفكرين، بل عن طريق تكاثر رجال الدين والأولياء الذين راحت التقاليد والأساطير الشعبية تُنسّب إليهم المُعجزات والخوارق، أو عن طريق حلقات الدّراويش الذين حاولوا بأعمالهم وحركاتهم أن يتوصلوا بالألوهية مباشرة أو بوصفهم أعضاء في جمعيات الأولياء وأن يستغّلوا شعائر الطبقات الشعبية البسيطة[1]. وهكذا ظلت المنتجات الفكرية والادبية مبعثرة لم تتجذر في كل المراحل لعدم توفر المناخ الملائم.

وراح الأرث التاريخي في الإستعانة المطلقة بالآلة ورجال الدين أيام المحن العصيبة كنتيجة حتمية للتخلص من مخاطر الإنقراض والهلاك، ولم يكن لدى الناس ما يملكون لحماية أنفسهم سوى الدعاء والتمسك بالعبادة والمُبالغة في تأدية الطقوس الدينية لدرء الأخطاء وكان ذلك موروثاً تاريخياً منذ عصر السومريين والبابليين لدى العراقيين.

6- نهاية الدولة الأليخانيه (المغول) :

أن انقراض الدولة المغولية الذي جاء نتيجة لعوامل عدة منها الإنقسامات الداخلية التي وقعت في قلب الدولة الأليخانية، فعطلت كل نشاط فيها، وشلّت كل حركة، وعجزت عن صهر القبائل المغولية في بوتقة واحدة، بعد أن قل عددهم، فعادت الى حياة البداوة القديمة، ولم يعد داع إلى الفتح يدعوهم للإتحاد مع عناصر السّكان الأخرى. وقد حال الرجوع إلى حياة البداوة في بعض الولايات، دون الإبقاء على أدارة مالية صحيحة تؤمّن جباية الضرائب والرسوم المفروضة على مرافق الزراعة، واكتسبت القبائل التركمانية والمغولية والكردية

(1) أدورد بروي "تاريخ الحضارات العام"، ج3، المصدر السابق، ص555.

نُفوذاً فاق بكثير النُّفوذ الذي تمتع به "الجيش النظامي"، فإينما جاء المغول بأقل نسبة عددية، برزت المطالب القومية في الولايات، وقام يغذيها فريق من ذوي الأطماع. وهكذا لم تلبث الدولة الإليخانية أن توزّعت إلى دويلات وإمارات، صار قسم منها من أبناء البلاد، بينما ظلّ القسم الآخر من أمراء التركمان والمغول، فقد سيطر التركمان في الولايات الغربية، بينما أصبح العراق وأذربيجان وأرمينيا طوال قرن وأكثر مسرحاً للمنافسات الدامية بين الإتحادين المتخاصمين هما: "الخروف الأسود والخروف الأبيض"[1]، فكان أحدهما على المذهب الشيعي، كما كان الآخر على المذهب السُّني، وهي مُنافسة أحتدمت وطالت، فأثّرت في بعض النواحي وساعدت في تكوين الدولة العثمانية في آسيا الصغرى (تركيا) والدولة الصّفوية في إيران بعد أن حصل فراغاً في السّلطة في المنطقة[2]، وسيأتي الحديث عنها في القسم الثالث من البحث.

7- حالة الخوف والرُّعب وآثار هجوم المغول على أوروبا وآسيا:

لكي نفهم ما فعله المغول في بلادنا، لابد لنا من تسليط ضوء على ما جرى من خراب في مناطق أخرى. ومما لا شك فيه أن حالة الرُّعب والخوف التي بدأت تصل أخبارها إلى بغداد منذ هجمة المغول على بلاد خوارزم عام (1219)، وتسرب تلك الأخبار التي تدعو للقلق والرّيبة والذي خلّفه هؤلاء المتوحشين من منغوليا وتركمانستان وما وراء النهر(اسيا الوسطى) والتي تسببت في اضمحلال أُسرة الخلافة العباسية (العربية) وهروب الأتراك العثمانيين من تركمانستان إلى آسيا الصغرى ثم إلى داخل أوروبا(القسطنطينية).

(1) التسمية تعود إلى نوع الشّعار الذي يرفعه كل طرف في الحرب.
(2) بروي، المصدر السابق، ص556.

لقد كانت آثار أو نتائج هذا الهجوم المشؤوم والذي تكلل بالوحشية المفرطة، وكما يذكر دوسون المؤرخ في كتابه "تاريخ المغول"، فيقول: "كان ممكناً أن نتهم باطلاً المؤرخين الشرقيين بالمبالغة، والإغراق في وصفهم، وقائع العصر المغولي، وإن وصفهم في كل وقت لا يتفق والشهادة المباشرة للمؤرخين الغربيين تماماً، إلا أن هؤلاء الغربيين قصوا بدورهم ما فعله المغول في الجنوب الشرقي لأوروبا بما يشبه رواية المؤرخين الشرقيين تمام الشبه، ولم يذكروا وحسب إغارتهم على روسيا وبولندا والمجر، بل في داخل سيليزيا ومرابا ودا الماسيا، حتى ما حدث في واقعة ليجنتز المهولة (في التاسع من إبريل1241)، حين انهزم جيش مؤلف من ثلاثين ألف جندي ألماني ونمساوي ومجري وبولندي تحت قيادة هنري الملقّب بالورع (Henry the Pious) دوق سيليزيا أمام الجيش المغولي، وقبل ذلك التاريخ بنحو عامين ظهر فزع واضطراب عظيمان بسبب هذا الجيش السفاح في أوروبا الغربية إلى حد أن المؤرّخ الحولي لذلك العهد ماثيو باريس (Matthew Paris) ذكر في تاريخه - في ذيل وقائع عام (1238) أن صيادي الأسماك من أهالي جوث لاند (Goth Land) وفريز لاند (Fries Land) لم يجدوا جُرأة على عبور بحر الشّمال في يار موث (Yarmouth)، ونتيجة لذلك زادت في ذلك العام سمكة (الهرينك) في انجلترا ورخص سعرها حتى بلغ سعر أربعون أو خمسون سمكة منها بعملة فضية واحدة حتى في الأنحاء البعيدة عن شاطيء البحر. وفي تلك السنة نفسها قدم وفد من طرف الاسماعيلية أو فدائي قلعة "الموت" إلى فرنسا وانجلترا يطلبون مساعدة فرنسا والدول الأوروبية الأخرى ضد هؤلاء الأعداء المرعبين، لكن أسقف وينشستر (Bishop of Winchester) لم يجيب على طلبهم وقال في وصفهم: (علينا أن ندع هؤلاء الكلاب يبتلع بعضهم

بعضاً حتى يفنوا ويهلكوا جميعاً، وإذ ذاك نبني فوق خرائبهم الكنيسة المقدّسة وحينذاك، سوف تصير الدنيا بأسرها رعاية واحدة لها راعي واحد)[1]. ومن المفيد أن ننقل هنا رواية ماثيو بشأن المغول حين يذكر عن وقائع عام (1240) ما يلي: "بما أن سعادة الإنسان الفاني لا يجب أن تدوم وتبقى ولا تستمر السعادة الدنيوية بدون مِحن والآم طويلة، ففي هذه السنة هاجم شعب مكروه منشأه شيطاني اسمه "عسكر التتار" الذي لا يُحصى ما هو جارح بلادهم الجبلية، فشقّوا الصخور الصمّاء (جبال قوقاز)، وهاجموا المعالم مثل شياطين جهنم (تارتاروس)[2] وعفاريتها، ولهذا السبب نفسه يجب حقاً تسميتهم التتار، غطوا البسيطة مثل الجراد وأحلوا ببلاد شرق أوروبا الشّقاء الفظيع، وأحالوا هذه المناطق دماءاً ونيراناً، وبعد أن عبروا أراضي المسلمين سوّوا المدن بالتّراب، وخربوا الرّياض والجنان وأهلكوا الحضر والمدر، وإذا ما نجا من حد سيوفهم مصادفة مسكيناً استأسروه وأنزلوا أحط درجات العبودية به، ووضعوه في الصفوف الأولى لقتال إخوته وجيرانه، أما من قصّر عن الحرب، أو استتر أملاً في الحياة فقد بحثوا عنه وأهلكوه، ومن حارب من أجلهم بشجاعه أو هزم لهم جيشاً أو فتح لحسابهم فتحاً عظيماً لم يسمع منهم كلمه شكر توابأ، وبخاصة أنهم كانوا يسلكون مع أسراهم كأنهم حيوانات وبهائم لأنهم ليسوا بشراً بل حيوانات مُفترسة وضارية وعفاريت في صورة بشر، متعطشة للدم جعلوا من لحم الإنسان والحيوان غذاء لهم، لباسهم من جلد البقر المدعّم بأ... ياخ الحديد وأجسامهم قصيرة القامة وسميكة وقوية لا تمل أو تتعب أو تنهزم، جرّدوا ظهورهم من الكساء ودرعوا صدورهم بالدروع، كانوا يتجرعون بلذّة وسعادة دماء أبناء نوعهم، خيولهم عظيمة وقوية تأكل الأغصان بل حتى الأشجار، وبما

(1) دوسون "تاريخ المغول"، المصدر السابق، ص7.

(2) ماثيو (Hakluyt Society) المجلد الرابع، ص76- 78، لندن (1900).

أن راكبيها قصار القامة فكانوا يمتطونها بمعونة سلالم. هؤلاء الناس يعدمون كل القوانين والقواعد الإنسانية ولا يعرفون الراحة واللذة وأشد فتكاً من الأسود والدببة، لهم قوارب مصنوعة من جلود البقر، ولكل عشر أو إثنا عشر منهم قارب واحد، يتقنون دقائق الملاحة والسباحة حتى أنهم يعبرون أعظم الأنهار وأسرعها بلا خوف أو وجل. إذا لم يتيسر لهم الدم يشربون الماء المخلوط بالطين، لكل منهم سيف له حد واحد والعديد من الخناجر، وهم رماة سهام مهرة لا يماثلهم مخلوق ولا يفرقون بين الشاب والعجوز والرجل والمرأة، هاجموا بسرعة البرق البلاد المسيحية، وثغورها وانصرفوا إلى حُب الدم وسفكه وأحلوا في القلوب الرُّعب والفزع بما لا مثيل له، ولهذه الأسباب أراد المسلمون الاتحاد مع المسيحين على أمل أن يقاوموا هؤلاء الشياطين بقواتهم المتحدة..الخ).

لقد أصبح واضحاً الآن أن الهجمة المغولية لم تكن مقتصرة على بلادنا، بل أنها جاءت متأخرة الينا من قبل "هولاكو خان" بعد أن أخذت أُكلها في أنحاء مختلفة من آسيا وأوروبا. والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا استطاع الآخرون من تجاوز تلك الكارثة بينما لم يستطع العالم الإسلامي الشرقي (الجزءالآسيوي) من أن يستفيق منها ويحذو حذو الآخرين في السير قدماً نحو التقدم في طليعة العالم المتحضر، بل وأكثر من ذلك فإن الهجمة المغوليّة لم تصل إلى شمال إفريقيا والاندلس المسلمه ولم يمس تلك الأقسام أي تخريب أو أذى بينما ظلت تلك الاجزاء هي الاخرى مختلفه بنفس الدرجه. ولا نريد هنا أن نعيد ما نُشر في كتب التاريخ الكلاسيكية التي تُعدد الأسباب وتسطّرها تسطيراً رتيباً في البحث عن أسباب سقوط الخلافة العباسية ابتدأ من ضعف الملوك وخيانة القادة والوزراء من أمثال إبن العلقمي وما شاكل ذلك من إلقاء اللوم على هذه الفئة أو تلك في التواطؤ مع العدو. إن السبب الرئيسي هو أن المسلمون لم يؤسسوا لدولة رصينة ثابتة مُستندة على أسس ومبادىء تنسجم مع طبيعة المرحلة التي كان

يعيشها الناس في ذلك العصر. ففي أوروبا مثلاً استطاعوا في ذلك الزمان أن يؤسّسوا لفلسفة تربط العلاقة بين الفرد في المجتمع والحاكم، وقد استندوا منذ البدء على الأسُس الفلسفية التي وضعها فلاسفة اليونان أمثال سقراط وافلاطون، بينما بقينا على العقليات والمباديء التي أملتها علينا مرحلة العبودية بما فيها من أفكار وعقائد لا تفسح مجالاً للانسان في أن يستخدم عقله في التفكير لحل مشاكله بنفسه، وبقيت قيم البداوة وحُكم القبيلة هي السّائدة عبر التاريخ منذ عصر الجاهلية وما قبلها وحتى بعد تأسيس معاوية للدولة الأموية الإسلامية المستندة على الحكم الوراثي وتداول السلطة بالوراثة وحكم الخلافة لإدارة شؤون الامبراطورية من قبل الخليفة دون الاستعانة حتى بمجلس شورى أو أي شكل من أشكال تبادل الآراء والخروج بصيغ صائبة، تستطيع أن تجنّب البلاد من الكثير من المشاكل والمحن.

لقد وصل إلى سدة السلطة رجال سمّوا أنفسهم خُلفاء(بالوراثه) كان وبعضهم لا يستطيعون من إدارة قرية واحدة[1]. لقد أثبتت حادثة الهجوم المغولي وزوال الدولة العربية الإسلامية على هشاشة الإدارة وسلطة الدولة وتماسك المجتمع برمته. إن المجتمع المبني بهذه الهشاشة لا يستطيع استعادة كيانه مرة ثانية بسهولة، لقد حصل قبل هذا التاريخ حادثاً مماثلاً رغم اختلاف الظروف، وكان ذلك هو هجوم (القائد الفارسي) كورش من الشرق وتحطيمه للدولة البابلية وتوغّله نحو الغرب إلى مصر، وكان ذلك للسبب نفسه وهو اعتماد القوم على القضاء والقدر، وتمسّكهم باكتساب الحاكم "القدسية الآلهية" من خلال

---

(1) شاكر النابلسي "خلفاء المسلمين".(كتاب حديث يبحث في سيرة الخلفاء الأمويين والعباسيين والعثمانيين اشار الى القدرات الفردية لهم ضمن الفروقات في الفئات العمريه أثناء توليهم سدة الحكم خاصة في المراحل الاخيرة من العصر العباسي.

عقلية العبودية ، التي مكّنت الأعداء من التوغّل وإنهاء حضارة بأكملها ، لم يبقى منها سوى الأحجار والصّخور والمنحوتات والكنايات والكتابات المسمارية.

وهكذا نجد مرة أخرى كارثة تأتي من الشرق وتكتسح حضارة بُنيت على هشاشة وبدون ركائز وأسس متينة تمكّنها من استرجاع قوتها والمُضي قُدماً إلى الأمام بعد زوال تلك الكارثة إسوةً ببقية الأمم التي أصابتها كارثة مماثله وربما بدرجة أقوى وأكثر عنفاً. هذا من ناحية ، ومن جانب آخر فطالما نجد الأرضية الخصبة في العودة إلى البداوة وحياة الصحراء باقية كما هي، يصبح من السهل العودة إليها وترك متاعب المدنية والتقدم ،والذي لم يكن بنائها رصيناً ومستوعباً من قبل الأكثرية بحيث يصبح التمسّك بتلك الانجازات أمراً حتمياً ، ولا يزال هذا الموروث قائماً إلى يومنا هذا ، إذ نجد القيم البدوية تتغلب كلما مرت البلاد في ظروف صعبة، ولا غرابة إذن في حجم التحطيم للبُنى التحتية الذي حصل بعد سقوط النظام الدكتاتوري عام (2003) في العراق الحديث، مباشرة بسبب هشاشة بناء الدولة في عصرنا الحاضربالإضافة للاسباب الأخرى لا مجال لذكرها هنا.

8- دخول (تيمورلنك) إلى بغداد:

بقي لنا في ختام هذا الجزء من البحث أن نُلقي نظرة في مذبحة بغداد على يد غازي آخر هو "تيمورلنك". فقد ولد في 8 إبريل عام (1336)، تيمور الذي يعرف بلنج "الأعرج الطويل". وقُدِّر له أن يصل إلى ما وصل إليه تقريباً "جنكيز خان" من العظمة والقوّة ويكوّن عقاباً مؤلماً لمسلمي آسيا الغربية والوسطى[1] ،بينما لا يزال يعتبر في مدينة "سمرقند" بطلاً قومياً من الطراز الأول.

(1) أدورد براون، المصدر السابق، ج3، ص191.

لقد بدأت الهجمات الأولى لهذا القائد على إيران حيث جرت عام (1380) حينما فتح خراسان وسيستان بينما وقع هجومهم الثاني على مازندران، واتسعت أعماله الحربية فوصلت أذربيجان وعراق العجم وجرجان وانتهت بفتح شيراز، وذبح سبعين ألفاً في أصفهان وبدأ هجومه الثالث عام (1389)، على شيراز وهراه، وكانت كل تلك المناطق تحكمها أسر تسلطت نتيجة لوجود فراغ سياسي بعد انهيار المغول وزوالهم من المنطقة وكانت بغداد تُحكم من قبل آل جلاير والمسمون بالجلائريون بينما كان آل المظفر يحكمون فارس وعراق العجم وكرمان، وهكذا فقد قدم في فترة انحطاط الدولة المغولية وزوالها رجلان اسمهما شيخ حسن لُقِّب أحدهما بالكبير والآخر بالصغير، أما الصغير فهو حفيد الأمير تشوبان، الذي تعالت عظمته وقوته عام (1319)، بسبب زواجه من ستي بيك، إبنة "أولجايتو" وأخت "أبو سعيد بهار" (المغوليين)، وكانت له بنت إسمها "بغداد خاتون"، وفي أواخر عام (1392) رفع تيمور راياته صوب جنوب إيران بعد أن عبر ولايات الدامغان وسمنان والريّ وقزوين والسلطانية وكدرستان وبروجود في عام (1393) ،وأهلك أثناء سيره جمعاً عظيماً من الألوار ووصل إلى دزفول، ودخل الشوش وتوجه إلى شيراز، وأثناء طريقه فتح القلعة المنيعة "قلعة سعيد"[1]، وبعد ذلك قتل جميع الأسرة المظفريّة وأمر بترحيل أصحاب الحرف والصُّناع في بلاد فارس والعراق إلى سمرقند، ثم توجه إلى بغداد واستولى على قصر السلطان الجلائري "أحمد" بعد أن فرّ من أمامه ولحقوا به بالقرب من كربلاء وأسروا بعض نسائه وأولاده وعادوا بغنائم كبيرة. ولكن أحمد هرب بنفسه ونجا من الأسر، ثم فتح القلعة المعروفة في تكريت التي كان جنودها يدافعون عنها بشجاعة وأقام فيها بعض الوقت ثم عبر كركوك وأربيل والموصل.

---

(1) شرف الدين علي اليزيدي "ظفرنامة"، ص619.

المناقشة والاستنتاج (Discussion and Conclusion):

لعلنا بدءنا نقترب أكثر في فهم الشخصية العراقية، والفكر العراقي بعد هذا الاستعراض السريع لمراحل تكوين الدولة الاموية والعباسية والعصر المغولي، تلك المراحل الحساسة والهامة في حياتنا، والتي تركت بصماتها واضحة في حياتنا الحاضرة، من خلال ما ظهر فيها من انشقاقات مذهبية وطائفية وصراعات دموية، ألقت بظلالها في ترسيخ عداوات, لا يمكن إنكارها أو غض الطرف عنها لتطيب الخواطر. لقد كانت جولة في التاريخ صاخبة بالاحداث الدموية والصراعات العنيفة، وربُما سائل يسأل: إن كل هذه الحوادث والعُنف السياسي المُتمثل بالثورات والانتفاضات والاغتيالات ووسائل التعذيب، كانت قد استخدمت وأكثر منها في مناطق عديدة من العالم، وتم تجاوزها والتغلّب على آثارها بينما لم تستطع البلاد العربية والاسلامية من تجاوز ذلك، وبقيت متخلّفة عن ركب الحضارة الحديثة..لماذا؟ للاجابة على هذة التساؤلات, لا بد لنا من استعراض سريع لكيفية حصول النهضة الاوروبية التي قادت العالم لكل ما نحن عليه من ازدهار حضاري عالمي في الوقت الحاضر،لا يوجد فيه وجه للمقارنه مع الحضارات القديمه.

أولاً: كما قلنا في الفصل الثالث بأن الهجوم المغولي أتاح الفرصة للأوروبين للتوغل في أنحاء آسيا وبالذّات إلى الصين واستطاعوا من خلاله نقل العديد من منتجاتهم الفكرية ومخترعاتهم العلمية، بالاضافة إلى نقلهم للعديد من المخطوطات العربية إلى اللاتينية ساعد في بلورة وتحديث فلسفات وأفكار تعطي حرية أكبر للعقل البشري في البحث والاستقراء والاستنتاج والتجريب وإلى حل المشاكل والمعوقات التي يواجهها المجتمع.

لقد استبقت الفلسفة الحديثة إلى الظهور عندما وحيثما بدأ كل شخص في التفكير بصورة مستقلة عن المعتقدات والديانات، التي كانت سائدة قبل ذلك، والتي كانت ضمن مرحلة العبودية والاقطاع مُنسجمة مع عقلية القوم في تلك المرحلة ناتجه عن ظروف تلك المرحلة الاقتصادية والاجتماعيه.

وبعد التطور الحاصل في المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ظهر جيش من المفكرين والفلاسفة الذين أسسوا لقاعدة تُبنى بموجبها المجتمعات المتطورة. وقد كان في بدايتها الفيلسوف روجر بيكون[1](1214- 1294) وعلى الرغم من أنه لم يكن له سوى تأثير ضئيل على المفكرين الآخرين. فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن روجر بيكون وآخرون أخذوا كثيراً من علومهم من الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية[2]. وكان إحياء دراسة الأدب اليوناني والروماني في إيطاليا منذ عام (1440) في محاولة واعية لفهم الفلسفة اليونانية والتي بدءت بشكل فاعل عام (1453)، والتي اعتبرت بداية للنهضة الاوروبية بعد أفول مفاهيم القرون الوسطى. وذلك بعدما استولى الأتراك (العثمانيين) على القسطنطينية، وقضوا على الامبراطورية البيزنطية بالكامل على يد محمد الفاتح. حيث جاء معظم الباحثين اليونانيين إلى إيطاليا. وثارت فيهم الرغبة لفهم الفلسفة اليونانية القديمة من وجهة نظر علمانية. ولقد اعتبر هذا العام (1453) بداية لعصر النهضة الاوروبية من قبل المؤرخين. وكذلك لا بد أن نذكر أن المترجمات التي وضعت لمؤلفات العلامة المغربي "ابن رشد" وغيره من علماء الطور الثالث للمعتزلة، الذين ظهروا في العصر العباسي المتأخر كانت لها الأثر الكبير

(1) روجر بيكون: هو ليس فرنسيس بيكون الذي ظهر في عصر العلم الطبيعي عام 1600، وكلاهما انكليزيان.

(2) "أحمد صالح العلي" "العراق في التاريخ" المصدر السابق نفسه (ص483).

في ازدهار الفلسفة الحديثة في عصر النهضة الاوروبية[1]. إن حقبة الفلسفة الحديثة التي بدأت عام (1453)، قد اتخذت مراحل متعددة ولم تكن مجرد أفكار في مرحلة معينة، إذ أن كل مرحلة صاحبها تطور تقني في الجانب الآخر وقادها إلى مرحلة أخرى أكثر تقدماً وهكذا. وتقسّم تلك المراحل كما يلي[2]:

1- الفترة الاولى- هي الفترة الانسانية التي بدأت من عام (1453) حتى موت برونو(Bruno) عام (1600) وكانت قيادة الفلسفة في إيطاليا، وقد اتسمت ببعث الروح الفلسفية من دراسة الفلاسفة القدماء أمثال أفلاطون وأرسطو.

2- الفترة الثانية- فترة العلم الطبيعي :- ابتداء من عام(1600)حتى عام (1690) ويظهر فيها اهتمام كبير بما أنتجه العلم الحديث مثل اسحق نيوتن وغاليليو وكوبر نيكوس وغيرهم.

وقد لمع فيها فرنسيس بيكون، وتوماس هوبز في إنكلترا، وديكارت، واسبينوزا، وليبنس في قارة أوروبا، وقد قبل جميع فلاسفة تلك الفترة بوعي مناهج ووجهات نظر العُلماء الطبيعيين المعاصرين لهم، ولم يترددوا في تطوير مذاهبهم بما ينسجم وتلك المخترعات العلمية، أمثال كروية الأرض، وأن الكواكب تدور حول الشمس، وقوانين نيوتن وغيرها من علوم الفيزياء والكيمياء والطب والاحياء والرياضيات والهندسة وعلم الجيولوجيا.

3- عصر التنوير- وتشمل الفترة بين(1690- 1781) ومن أبرز المفكرين فيها: لوك، وباركلي وهيوم في بريطانيا، وفولتير وروسو في فرنسا: وقد

---

(1) عبد الله خليفة "الاتجاهات المثالية في الفلسفة الإسلامية"، ج3.

(2) وليم كلي رايت "تاريخ الفلسفة الحديثة " ترجمة محمود سيد أحمد " المجلس الأعلى للثقافة" القاهرة، (2005).

اعتقدوا أن الموضوع المناسب لدراسة الجنس البشري هو الإنسان لا الكون، لقد كان هؤلاء الفلاسفة هادمين أقوياء للخرافة ومناصرين للحرية الشخصية وحقوق الإنسان، وقد حركت الثورة الانكليزية (عام 1688)، فكرهم، وكان تأثيرهم سبباً من أسباب الثورة الأمريكية (عام1776) والثورة الفرنسية (عام1789) .

4- الفترة المثالية: وتشمل تلك الفترة ما بين (عام 1781) وحتى وفاة هيجل (عام 1831) ومن أبرز فلاسفة ذلك العصر هم: كانت وهيجل وفشته، ولقد قاد الألمان بأصالة تفكيرهم الفلسفي العميق العالم بالدرجة الأساس بينما عبّر شعراء إنجليز من أمثال: ورد ودورث وشيلي وكولبردج، وتينسون وبراوننج، بالإضافة إلى اميرسون في أمريكا، عن أفكار تشبه إلى حد كبير أفكار الفلاسفة المثاليين الألمان .

5- الفترة المعاصرة منذ 1831 وحتى الآن : لقد قدمت هذه الفلسفة قبول التطور قبولاً عاماً في علم الفلك والجيولوجيا والبيولوجيا، والتي أسهمت في تقبّل نظريّة التطور وأصل الانسان لجارل دارون، وقدّمت منهاجاً مختلفاً من التفسير للتاريخ، والعلوم الاجتماعية المختلفة. وقد خلقت الفترة المعاصرة هذه المذهب الواقعي والبراجماتي، تلك المذاهب المميّزة للقرن العشرين في بريطانيا وألمانيا وأمريكا، ونذكر من بين فلاسفة هذه المرحلة: شوبنهور، وكونت، ومل وسبنسر، ونيتشه، ورويس وماركس وإنكلز، وجيمس، وبرجسون، وديوي والكسندر ورسل وغيرهم.

من هنا يمكن القول بأن النهضة الأوروبية لم تكن قائمة بمحض من مصادفة أو بين ليلة وضحاها، بل مرّت بسلسلة من التطوّرات الفكرية المتراكبة مع بعضها البعض، كانت بمثابة مفاتيح تقود المجتمع والعالم نحو الرُّقي،

والتّقدم ومواجهة المصاعب. وقد استغرق ذلك البناء الفكري فترة طويلة من الزّمن، تم استيعابه عبر الأجيال ومنذ النّشأة الأولى في مرحلة الدراسة الابتدائية فصاعداً، وبعد أن أصبح التعليم لديهم مُنتشراً بشكل كامل، ليشمل معظم فئات وطبقات المجتمع. وقد استطاعت تلك الفلسفات أن تجد مناخاً للنمو والتجذر عندهم من خلال ملائمتها مع الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لديهم.

وفلسفياً تبدو للوهلة الاولى، أنها بسيطة وليست بذات أهمية، لكنها تلعب الدور الأكبر في قيادة المجتمع، نحو التّقدم والسموّ، إذا ما تم استيعابها من قبل الأغلبية ولتوضيح ذلك:

لا بد لنا من تلخيص أهم المبادئ التي جاء بها هؤلاء الفلاسفة المحدّثين ولنبدأ أولاً بمرحلة العلم الطبيعي، لما لها من علاقة في واقعنا، وحياتنا الاجتماعية:

ففي مرحلة العلم الطبيعي ميّز فرنسيس بيكون بين أربعة أوهام وأخطاء تلازم عقول الناس، وتعوق سعيهم إلى الحقيقة وبحثهم عنها. وأول هذه الأوهام هي أوهام القبيلة (Idea of Tribe) التي يشترك فيها الجنس البشري كلّه، وتلازم طبيعة البشر الخالصة. ومن هذه الأوهام الميل إلى افتراض نظام وأطراد في العالم أكثر مما هو موجود بالفعل، ولذلك اعتقد العلماء أن الأجرام السّماوية تتحرك في دوائر كاملة، وأن كثافة ما يسمى بالعناصر تُساوي عشرة إلى واحد.

ومن تلك الأوهام أيضاً إذا تبنيّنا رأياً ما، فإننا قد لا ننتبه الا إلى الدّليل المؤيّد له، ونُهمل الدّليل المُناقض له. وذلك يُفسر اعتقاد الإنسان في الطالع والأحلام والتنجيم وخُرافات أخرى، وبوجه عام فإن الأمثله التي تؤيّد رأياً ما ينتبه إليها في الغالب أكثر من الأمثلة السلبية، على الرغم من أنه يجب إعطاء

كلتيهما أهمية مُتساوية. ومن تلك الأوهام أيضاً: أنّ الأشياء التي تُداهم العقل وتدخل إليه متآنية، وتملأ بالتالي الخيال، وتؤثر في النّاس بقوّة، حتى أنهم يقفزون إلى نتيجة مؤداها أن كل الأشياء الأخرى لا بد أن تكون مُتشابهه (وهذا ما يُسمى الآن بمغالطة التّعميم المُتسرّع). إنّ "الذّهن البشري ليس موضوعياً غير متحيز" بل "تخيّم عليه" سُحب الانفعالات والرّغبات، حتى أن النّاس لديهم استعداد لأن يعتقدوا فيما يرغبونه، ولذلك يستعجلون ولا يتأنون في البحث، ويندمون بالتالي على وقائع حقيقية، تكمن وراء آمالهم، ويأسفون عندما يناقض نور التجربة كبريائهم، وغرورهم ويعوق الذّهن البشري، علاوة على ذلك "بلادة الحواس، وعجزها وخداعها" حتى إن ما يمكن رُؤيته مُباشرة يفوق المبادئ غير المرئيّة التي تستنبط من استدلال قائم على تجارب. وكم كُنّا ولا زلنا نُعاني نحن في بلاد الرافدين، من هذه الأوهام ولا تزال تعيش فينا إلى اليوم شإنا أم أبينا.

وثاني هذه الأوهام، أوهام الكهف (Cave)، وهي خاصة بكل إنسان فرد، لأن كُلاً منا يعيش في كهف صغير، أو يعيش في مغارة خاصة، وله طريقة خاصة بالتّفكير ترجع إلى الوراثة والتربية والعادات والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي نعيشها.

ولذلك يغالي بعض النّاس في التشابهات بين الأشياء، بينما يغالي بعضهم في الاختلافات بينها. ويحب بعضهم القديم بإفراط ويحترمون السابقين بشكل فوق المعتاد، إنّ المبالغة في حب القديم والقدماء جعلهم يتصوّرون بأنهم عمالقة من نوع خارق للعادة، فمثلاً كان يتصوّر البعض أن القدماء كانوا طوال القامة، بحيث اذا أرادوا أن يصطادوا السمك، يذهبون إلى البحر، ويمسكوا بأيديهم أيّة

سمكة، ويدفعوها مقابل عين الشمس حتى تتحمّص، وتؤكل مباشرة[1]، وكما كنّا نسمع عن عوج بن عنق، ونحن أطفال.

هذا التكبير والتهويل بمن يحبّون، يصل بهم إلى تصوّرات خيالية في حجم اولئك الناس وسطوتهم، في حين وبالمقابل نجد أن بعض الناس أسرى لكل ما هو جديد . ونجد مثالاً على ذلك، من يتغنى بكل ما يأتي من الغرب المتقدّم ويعتبره مِثالياً بالمطلق في عصرنا الحديث هذا.

وثالث هذة الأوهام، وهي أوهام السوق (Market) حيث يتقابل الناس معاً، ويتفاهمون عن طريق اللّغة، ولأن الكلمات يكون أصلها في عقل الإنسان العادي، فكثيراً ما لا تكون مُناسبة لبحث علمي دقيق، فتكون النّتيجة أنَّ النّاس يتجادلون حول الكلمات، يعجزون عن تعريفها بطريقة مناسبة، فبعض الكلمات موروثة من آراء غامضة من الماضي، ويمكن تجنّبها عن طريق رفض النّظريات التي أدت إليها ، مثل الحظ، والمحرك الأول، وعنصر النّار، وهناك كلمات أخرى، تضرب بجُذور عميقة في الاستعمال البشري، حتى أنه يصعب التخلّص منها، مثل كلمة "رطب" وحديثنا مملوء بمثل هذه الكلمات، التي تؤدي إلى خلط لا حدّ له، فإذا لم يكن هناك اتفاق على تعريف لتلك المُصطلحات يصبح الجدل فيها هراء وعبث.

وآخر هذه الأوهام، أوهام المسرح (Theatre) التي تتسرّب إلى عُقول النّاس من مُعتقدات الفلسفات المختلفة. فجميع المذاهب التي وصلت إلى عصر بيكون، لم تكن في رأيه سوى "مسرح كبير جداً يمثّل عوالم من خلق "أُناس" على غِرار نموذج غير واقعي وخيالي". وتحت هذا النّوع من الأوهام يرى أرسطو، من حيث

(1) طه حسين، "في الشعر الجاهلي"، دار المدى للثقافه والنشر دمشق (2001)، (الطبعة الأولى، (1926)) ، ص 123.

أنه ممثّل للفلاسفة العقلي، ولأنه حاول أن يقنع العالم في مقولات من اختراعه الخاص، دون أن يرجع أولاً إلى الطبيعة، ويُلاحظ الوقائع الفعلية، بل حدّد من البداية نتائجه. ثم عاد بعد ذلك إلى التّجارب ليؤكد ما قرّره سلفاً. لقد كان بيكون يعتقد أن بعض المُعتقدات الدّينية، مثل وحدة الآلة، يمكن البرهنة عليها عن طريق العقل البشري، دون الحاجة إلى نزول وحي أو معجزات، ويندرج ذلك ضمن مجال الدين الطبيعي. لكن ما يعارضه بشدة هو مُحاولة إقامة أي شيء علمي أو فلسفي على تطبيق حرَفي لتوكيدات الدين الموصى بها. إن إقامة مذهب للفلسفة الطبيعية، على الاصحاحات الأولى من سفر التكوين، أو سفر أيوب هي كما يقول "بحث عن الميت بين الأحياء". وقد حاول بيكون أن يُحرر العلم والفلسفة من اللاّهوت الدجماتيكي^. ولم نعد اليوم نتوقع أن يُدخل عالم من علماء الفيزياء أو عالم من علماء البيولوجيا، مُعتقدات دينية في دراسات علمية خالصة، ولا أن يَشعر على أي نحو أنه مُلزم بأن يفسّر الطّبيعة بطريقة تجعلها مطابقة للمعتقدات الدينية[1]. وهو ليس شاكاً دينياً، لأنه يعتقد أنه يمكن البرهنة على وجود الله من الناحية الفلسفية, وأن أركان الدين الموحى بها تقوم على الإيمان بسلطة الإنجيل والكنيسة، وليس بيكون شاكاً علمياً، لأنه يعتقد أن في الإمكان اللامحدود لتقدم المعرفة. ويعتقد أيضاً أنّ الواقع يوجد مُستقلاً عن أي شيء نُفكّر فيه، ولا يتأثّر بما نعرفه عنه، وأنّه يجب علينا دراسة الطبيعة كما هي، لكي نسيطر عليها، وليست الحقيقة بأي معنى لها رهناً برغبتنا وإرادتنا[2]. ولا ندري كم هو حجم الاوهام التي تكبل عقول الكثيرين من

(1) H.Hoffding, History of ModernPhilosophy, Vol. 1.

(2) William Kelley Wright "A history of Modren Philosophy.

الشباب في عصرنا الحاضر ونحن بأمس الحاجه لمن يزيلها ويخلصنا من الاقدام على بعض الاعمال الارهابية التي تؤدي الى التهلكه والدمار.

أمّا توماس هوبز (1588- 1679) فيُعد أكثر الفلاسفة الإنجليز أهمية، في الفترة من بيكون إلى لوك، وهو صاحب العقد الاجتماعي المعروف. ويرى هوبز أن كل إنسان في حالته الطبيعية، تلك الحالة السابقة على تكوين الدولة السياسية(*)، كان يبحث عن بقائه، وإشباع رغباته الخاصة بلذات أنانيّة، مثل المغنم والمجد. ولا وجود للأخلاق كما نعرفها الآن. ولكل واحد الحق الكامل فيما يستطيع الحصول عليه، والمحافظة عليه، ولا وجود لشيء مثل القانون أو الظلم. والنتيجة الحتميّة لذلك هي "حرب الكل ضد الكل"، لأن النّاس إما أن يكونوا في حالة حرب فعلية بصورة مستمرة، أو يكونوا في خوف دائم من أن يُهاجم بعضهم بعضاً. لأن الحرب لا تكمن فقط في القتال، بل تكمن أيضاً في الخوف الدائم والاستعداد للصراع. ولا تكمن الحرب في القتال الفعلي، بل في الميل للقتال في جميع الأوقات التي لا يكون فيها السِّلم مضموناً، وليس هناك معنى للأمان، وليس هناك حافز على الصناعة، الكل في خوف وفقر دائمين. ولا بد أن تكون الحياة البشرية "مُنعزلة" فقيرة بدائيّة، وحشيّة، قصيرة الأمد[1].

هكذا كان هوبز يعتقد أن هذه الحالة كانت موجودة بالفعل، وأنّها حالة تاريخية، وهذه الحالة يمكن مُلاحظتها الآن بين "الهمج" ولكنها متضمنه في داخل النَّفس البشرية المتمدّنة. وإذا كان هناك شك في ذلك فدعه يتأمّل ذاته، فهو عندما يقوم برحلة، فإنه يُسلّح نفسه، ويحاول أن يُسافر مع رفيق جيّد،

(*) المقصود بالحالة الطبيعية في الزمن الذي كان يعيش فيه الانسان القديم في العصور الحجرية الاولى وقبل نشأة التجمعات البشرية الاولى.

(1) وليم كلي رايت، ترجمة محمود سيد أحمد ط/2(2005)، ص 69، المشروع القومي للترجمة، القاهرة.

وعندما يذهب إلى النوم يُغلق أبوابه بإحكام، وحتى وهو داخل منزله يغلق خزانته... الخ.

وفضلاً عن ذلك فإن العلاقات الدولية هي باستمرار في تلك الحالة (الطبيعية) ففي جميع الأزمنة يكون الملوك وأصحاب السلطة العليا في يقظة تامة، وفي حالة استنفار ووضع الجلاد شاهرين أسلحتهم مصوّبة تجاه بعضهم البعض، وأعينهم مركّزة على بعضهم البعض، أي أن حصونهم، وجنودهم وبنادقهم، متمركزة على حدود المملكة، وأعين الجواسيس مركّزة باستمرار على جيرانهم[1].

ثم يقول "أن الناس يرغبون بصورة طبيعية في السّلام والأمن، والهروب من البؤس والفزع من حالتهم الطبيعية هذه، فدفعهم ذلك إلى تأسيس دولة تقوم على رضى مُتبادل يوافق فيها كل فرد على طاعة أوامر صاحب السيادة، الذي يكون رجلاً واحداً وخلفاءه (النظام الملكي) أو مجموعة من الناس (الارستقراطية أو الديمقراطية وفقاً لحجم المجموعة)، وكان صاحب السّيادة في انجلترا فرد واحد، وسلطة صاحب السيادة المطلقة، وهو لا يمكن أن يرتكب خطأ يمكن أن يخضع بسببه للمسائلة من الناحية القانونية، فهو ليس مسؤولاً أمام الله وضميره فحسب، بل مسؤولاً أمام الناس يُحاسب ويُساق إلى المحاكم ويتلقى جزائه حسب حجم فعلته. وبالمقابل يتعهّد الآخرين بطاعته، وهو لم يتعهد لهم بشئ بل له سلطة من القوانين وتعيين القضاة، وإعلان الحرب والسلام وتوقيع العُقوبات وتحديد دين الدولة...الخ".

(1) Hobbes "the thirteen Law of nature are stated and expounded in Leviatharn".

ولما كانت الدولة قد تكونت بوضعها مصلحة أنانية فردية فإن خُضوع الرعايا لصاحب السيادة يجب أن يُفهم على أنه يدوم ما دام يملك من الفترة المستمرة ما يمكنه من حمايتهم، وليس أطول من ذلك[1].

من هنا يفهم أنّ فلسفة هوبز الأخلاقية والسياسية، تقوم على مذهبي الأنانية واللّذة تماماً، فالنّاس يسلكون ويجب أن يسلكوا وِفقاً لمصلحتهم الخاصة فحسب. لقد كان للمرء في حالته الطبيعية حق طبيعي في أن يفعل ما يحلو له، وأن يمتلك ما يمكن أن يستولي عليه، ويحُوزه من الآخرين. غير أن القانون الطبيعي يختلف تماماً عن الحق الطبيعي.

فالقانون الطبيعي هو فكرة أو قاعدة عامة يكتشف الإنسان عن طريق عقله أن من مصلحته طاعتها، ومن ثم فهو مُلزم بأن يفعل ذلك (فالمصلحة والواجب الأخلاقي هما شيء واحد في هذا المذهب الطبيعي الأخلاقي).

والقانون الطبيعي والأساسي الأول هو أن النّاس ينبغي عليهم أن "يبحثوا عن السّلام ويتّبعوه" وينتج عن ذلك القانون الثاني وهو "ينبغي أن يكون لدى الإنسان الرّغبة في السّلام، وعندما يكون لدى الآخرين نفس هذه الرغبة، وأن تكون لديه رغبة في الدّفاع عن نفسه، عندما يجد أنه لا بد أن يفعل ذلك، وأن يتنازل عن هذا الحق (الطبيعي) في ملكيته لجميع الاشياء، وأن يقنع بذلك القدر من الحرية، إزاء الآخرين الذي يسمح به للآخرين أزاءه". ويحدث التّخلي المُتبادل والإرادي عن الحقوق الطبيعية، عن طريق اتفاق أو عقد. ولذلك يعد هوبز واحداً من الأوائل الذين أعلنوا في العصور الحديثة أن الدولة تدين بأصلها ألى العقد الاجتماعي. من هنا يبدأ الفرق بالتفكير في مفهوم الدولة لدينا (وفي الشرق عموماً) وإلى وقت قريب من أن الدولة هي سُلطة مستمدة من المفاهيم اللاهوتية،

(1) Hobbes.T, “Leviathan”, chap. xxi

وتحكم بحقٍ إلاهي مُنزل من السماء، ومن صُلب الواجب الديني، هو إطاعة الحاكم، وكانت تلك المبادئ هي من أولى البُنى الارتكازية، التي قامت بموجبها الدولة الاسلامية في العصور التي نحن بصدد البحث فيها. فلم نجد في تأريخنا عقداً أجتماعياً بنيت عليه دوله من دولنا الماضيه والى وقت قريب كالذي وضعه هوبز.

ومن جانب آخر فإن البداوة المُحاذية للمدن العامرة، لديها مفاهيم خاصة لا يُدرك المرء فيها بالحاجة إلى العقد الاجتماعي المُتمثّل بالدولة، وبحُكم معيشة المرء في الصحراء مُنعزلاً بنفسه بعيداً عن المدينة والتمدن، فإن القوانين التي تحكمه ويؤمن بها محصورة بينه وبين الأرض والسماء، ولا يشغل باله سوى التوسّع في الأراضي الرّعوية، وتسهيل مهنة التجارة، التي هي الشُّغل الشّاغل لشيوخ القبائل [(1)(2)]، وهكذا بقيت المنطقة مقيّدة بتلك القوانين دون تطوير. وأدّت لحصول انفلات وحوادث غير مُنظّمة وغير مُلتزمة وحروب كثيرة، وأعمال عُنف مروّعة. ولا يزال الموروث الثّقافي المذكور يتحكّم بالكثير من الناس مؤثّراً في سير الحوادث التي نعيشها في العصر الحديث.

أمّا القانون الثالث لهوبز فيقول "ينبغي أن يلتزم الناس بتنفيذ ما يبرمونه من عقود"، والتي بدونها تُصبح العقود، بالطبع، عديمة الجدوى، ويتبع عشرة قوانين طبيعية أخرى وهي: "الالتزام بالإرادة الخيّرة، التكيّف المُتبادل، العفو عن التائب، العقوبات لا تكون إلا من أجل إصلاح المعتدين أو ردع الآخرين، وليس من أجل الانتقام، الامتناع عن ازدراء أو كراهية الآخرين، الاعتراف بأن جميع الناس مُتساوون، امتناع الإنسان عن الاحتفاظ بأي حق لنفسه دون غيره، أي ينبغي على المرء أن لا يرضى لنفسه أن يحتفظ بأي حق لا يرضى أن يحتفظ به كل إنسان آخر لنفسه، التوزيع العادل أو بالنّسب الصّحيحة للخيرات التي تكون

مُلكاً للجميع، السلوك الآمن، وحلّ المُنازعات عن طريق الجهة القضائية. "والقوانين الطبيعية تلك قوانين ثابتة، وأبدية، لأنّ الظُلم، ونُكران الجميل، والتّكبر والكبرياء والبغي والمُحاباة وغيرها، لا يمكن أن تكون على الإطلاق أُموراً مشروعة وقانونية، لأنه لا يمكن مُطلقاً القول بأن الحرب يمكن أن تُحافظ على الحياه وأنّ السّلام يدمرّها"[1].

لقد وصل هوبز إلى تلك الأخلاق، لا عن طريق دراسة حركات في المخ والقلب، وإنما عن طريق تحليل البواعث البشريّة، من خلال المُلاحظة والاستنباط، وصياغة للسُلوك في سلسلة من قضايا تم استنتاجها من مُقدّمات الأنانية.

وهكذا بدءت تتطور المفاهيم بشأن حق الناس رغبتهم في أن يختاروا، ويغيّروا شكل حكومتهم في الدولة والكنيسة (الدين) بعيداً عن سُلطة المؤسسة الإلهية. وقد أثبتت الثورة الإنكليزية (1688)، أنه يمكن للنّاس أن يُغيّروا دستور الدولة دون أن يُسبب ذلك خلطاً واضطراباً عاماً، أي أنّ رعايا الدولة يكونون مسؤولين عن القواعد التي يمكن أن تقرّها من الناحية الأخلاقية، وأن الحرّية الفرديّة في مسائل الدين، والكلام والنشر والأنشطة الأخرى، يمكن أن يُسمح بها، ويجب أن يُسمح بها للمواطنين في أي بلد مستنير ومتحرر.

لقد قام هوبز بمجهود طيب لكي يخلّص الأخلاق من اللاّهوت، ويؤكد أنه يجب تعريف الخير والشر، عن طريق ما تُحققه الرّغبات البشرية أو ما لا تحققه. لقد رأى أن الدولة تعبر عن مصالح بشرية مُشتركة واتفاق عام، حتى لو لم يقدّر النتائج الكاملة لهذه الحقيقة وهكذا وضع الحجر الأساس لسلسلة من الأفكار والفلسفات التي قادت لتطوير مفاهيم الإنسان حول الأخلاق والقوانين، وما له

(1)توماس هوبز "المصدر السابق"(chaps.xiii.xiv)

وما عليه من التزامات إجتماعية، ضمن الرّقعة التي يعيش فيها، وبالتالي كانت تلك الأفكار بمثابة القاعدة التي قامت عليها حضارة الغرب الحديثة، بينما ظلّت مناطقنا بعيدة كل البُعد عن التقدم، وظلّ الإنسان أسير أفكار العبودية والإقطاع، خائفاً مُضطرباً لا يرى في حياته الدنيا أي لذة أو معنى مُتأملاً أن يلقي سعادته في الآخرة وبالتالي لا يمعن كثير في تحسين حاله في الدنيا.

إنّ ما وضعه هوبز وغيره من الفلاسفة في ذلك العصر، لم يقطف المجتمع ثِمارها في عصره ولا حتى بعد موته، ولكنها كانت نُواة تبلورت حولها أفكار ومباديء لصالح المجتمع بعد قرون، وقد برزت ثمارها في القرن العشرين وما بعده، ولم تكن كل أفكار أولئك الفلاسفة على صواب مطلق، بل جرى تعديل وتطوير، وما زال في طور النّقد والتعديل، كلما ازداد تطور المجتمع، وازدادت حاجته لوضع أُسس تنسجم مع العصر بكل ما فيه من تغييرات اجتماعية واقتصادية، وأهم من ذلك التطور العلمي والتقني.

من هنا تتضح الإجابة على تساؤلاتنا التي طرحناها في الجزء الأول من هذا البحث، حول الأسباب الرئيسية وراء أحداث التخريب والدمار الذي حصل في العراق بعد سقوط النظام السّابق في 2003/4/9 ولا زالت تحدث الى الآن.

فقد برز انعدام وجود أي عقد اجتماعي أو قيم أخلاقية دينية أوغيرها، بين الناس، فلمجرد شعورهم بزوال السلطة القسرية عادت الهمجيّة والسلوك الإجتماعي الأولى أيام الجاهلية الأولى إلى الوجود، وسادت وتغلّبت على كل شيء، وبرزت صفة الأنانية الفردية على الغالبية من الشباب الذي يفتقر للوعي والثقافة، حتى إن كاتب هذه السطور كان شاهداً على الأحداث، وقد شاهدت واحداً من رجال الدين (المعمّمين) وهو يحمل قطعة مسروقة من إحدى دوائر الدولة وهو معتقداً أنها غنيمة، ومن حقه الاستحواذ عليها.

وحدث شيء آخر، ذي دلالة هامة لابد من ذكره هنا، وهو أن أحد خطباء المساجد كان ينادي بإعادة المُمتلكات الحكوميّة إلى محلّها، ولكنه يدعوهم بالاحتفاظ بالسّلاح والعتاد(المسروق من مخازن الجيش)! على اعتبار أنه يفيدهم في وقت لاحق، ويجيز لهم ذلك دينياً وأن كل ذلك الكلام على شيئ فانما يدل على درجة أهتمام القوم في السلاح والاستحواذ عليه بأي طريقه كانت.

ومن هنا تأتي أهمية أن يكون هناك عقداً اجتماعياً يتفق عليه الجميع يتم استيعابه من قِبل الجميع، ويرضى عنه الجميع، ليُحدد موقف الجميع من الوطن، وممتلكات هذا الوطن، وكيفية التصرُّف بها بعيداً عن سلطة اللآهوت، أو أي سلطة أخرى، ويجب أن نبدأ به من الآن لأنه وحسب استعراضنا للفصول الثلاثة في هذا البحث، لم يأتِ أحداً لا من الحُكام ولا من المُصلحين من استطاع أن يبني أساساً راسخاً لهذه الأمة، تستطيع أن تنهض وتتخلّص من الهمجيّة في العقل الباطن والسُّلوك الفردي المُفرط بالأنانية، فلم تؤسس الدولة الأموية ولا العباسية، وسقطت الدولتان على يد المغول، واستمرت تلك الحالة فيما بعد أيام الدولة العثمانية، ولا نزال نعيش في موروث ثقافي لا يؤسس (للأسف الشديد) للحرص على المال العام، ولا يكرّس للمفاهيم الديمقراطية الحديثة،وأصبح الفساد الاداري آفة يصعب التخلص منها.

لم يكن ذلك السلوك من تخطيط وصنع أجنبي أو أي جهة مُعادية، بل كان سُلوكاً أصيلاً نتيجة للشُّعور بالظُّلم والغُبن، الذي أصاب المواطن العراقي طيلة الفترة السابقة.

وعودة إلى سلوك الفرد الابتدائي الغير منضبط بعقد اجتماعي في أذهان الناس، والهشاشة في البُنى والقيم الاجتماعية والثّقافية، فقد شمِل التّخريب كل شيء، ولم يكن لتلبية الحاجات الأساسية من غِذاء وأموال بل أطال كل

الهياكل الارتكازية للحياة الحديثة من مجاري المياه، والكهرباء، وقِطع أثرية، ومكتبات، ومُستشفيات، ومدارس، وحتى المساجد ودور العِبادة وغيرها.صحيح أن هناك اسباب أخرى وممارسات وأخطاء من المسؤلين، الا أن حجم الدمار الذي حصل لا بد وأن يكون أنعكاساً لِما يدور في فكر الانسان العراقي وما كان يعاني منه من ظلم وما يحمله من قيم وأخلاق طارئه وغير أصيله.

ولا يزال التَّخريب ساري المفعول إلى ساعة كتابة هذا الجزء من البحث، فإذا جاء المغول لبلادنا في منتصف القرن الثالث عشر، وخربوا كل شيء، لكنهم جاؤوا لآسيا برمتها وشرق أوروبا، وخربوا أكثر مما خرّبوا عندنا، ولكن الجميع استطاع من استعادة كل ذلك الخراب، لكن هشاشة البُنى الارتكازية الاجتماعية والثقافية والسياسية عندنا لم تكن كافية لاستعادة البناء المجتمعي السَّليم، في ذلك الحين ، نأمل أن نتجاوز ذلك في هذا العصر وبعد أن يدرك المسئولين هذه الحقائق أولاً.

وهكذا نجد أن فئة من الدّاعين للعُنف استطاعوا ببساطة أن يكسبوا الشباب والأطفال (بين سن 14- 20 عاماً) لينضموا إليهم بدعوى ومبادئ سلفية قديمة، تدعوا لتحطيم كل ما هو حديث ومتطور، وتريد بنا العودة إلى حياة القرون البدائية المُظلمة، وقد لاقت رواجاً هائلاً لم تستطع أي قوة من إيقافها بسهولة للاسف الشديد . والملفت أن هؤلاء الشباب هُم بأمس الحاجه لمن ينقذهم من الوهم الذي يعيشون فيه.فسرعان ما يتكلم معهم أحد ويقنعهم نجدهم يغيرون رأيهم رأساً على عقب. ويتحولون الى افراد طبيعيين 100٪.

المسألة هي بوضوح أننا نُعاني من خلل تربوي وثقافي بالدرجة الأساس والتي يجب أن تكون مُستندة لفكر فلسفي يفضي لوصول فهم مشترك للمجتمع،

لإيجاد عقد اجتماعي يربط بين النّاس. هذا العقد يختلف عن دستور الدولة المعروف.إنه عقد يعيش في ضمير الناس منذ الصغر.

لم تكن الحضارة الأوروبية الحديثة وليدة يوم وليلة، فقد ظهرت النّهضة الأوروبية للوجود منذ سقوط القسطنطينية عام (1453)، ولا نستطيع هنا من الخوض في تفاصيل كل الأسس والفلسفات، التي ساعدت في بناء تلك الحضارة الدائمة والتي لا يستطيع تنظيم القاعدة أو غيره من تحطيمها، وإذا استطاع أن يهدم بُنى أو هياكل حجرية، فكيف يمكنه أن يحطّم أُسس ومباديء راسخة في العقول.لقد مرت على أوروبا عصور مظلمه وعانوا الكثير من وسائل القتل والتعذيب لكنهم تجاوزوها.

ولا بد لنا أن نُشير لبعض الفلاسفة الأمريكان الذين ساهموا في فترة الفلسفة المعاصرة في تكريس مفاهيم الديمقراطية، ونخصّ بالذّكر منهم جون ديوي، فقد قدّم آراءه السياسية في كتابه "الجمهور ومشكلاته"[1] المنشور عام (1927)،وكما يلي:- "إن الوحدة الاجتماعية النّهائية هي "الجمهور" ـــ أعني كل أولئك الذين يتأثّرون بالخير والشر، عن طريق المصالح المشتركة ـــ وقد اعتاد الجمهور أن يجد في لقاء المدينة وسيطاً، حيث يستطيع أن يُعلن عن نفسه في مسائل ذات اهتمام عام، ويتخذ إجراءاً ذكياً.

والدولة السياسية إذا كانت ديمقراطية، فهي الجمهور الذي ينظّمة ويوجهه موظفون ممثّلون يختارهم الشعب. وتصبح الدولة في الاتساع والتعقيد حداً يضيع معه الجمهور، ويشعر بحيره بالتأكيد، ولا يعرف هو نفسه أموراً معينة، ويوجه موظفيه الممثلين بفطنة وذكاء. ويعمل هؤلاء الموظفين استجابة لضغط مجموعات. ويوجه المجتمع في كل المسائل غير السياسية متخصصون مدربون. والمشكلة

(1) وليم كلي رايت "تاريخ الفلسفة الحديثة"، المصدر السابق، ص522.

الجوهرية هي تطوير منهج النقاش، والحوار، والاقناع، حتى يحمل البحث والعلانية محل الكِتمان، والمُحاباة، والتمويه، والدعاية، والجهل المطلق، ويستطيع الجمهور أن يكوّن سياسات اجتماعية عن طريق التفكير التأملي.

إن الحياة المشتركة تمتلك شيئاً يشبه الذكاء (العقل)، (وهنا لدينا مثل شعبي يشير إلى أن رأى الجماعة أكثر رجاحة وذكاءاً من رأي الفرد الواحد).

ولا بد من إستعادة هذا الشيء ولابد أن يمتد إلى الأمة وإلى العلاقات الدولية. ولدينا أمثلة عديدة من بلدان تحولت من النظام الدكتاتوري الفردي إلى النظام الديمقراطي حديثاً كاليابان وألمانيا، وكوريا الجنوبية، وماليزيا وغيرها.

ونجد أن وتيرة التقدّم أخذت في التصاعد شيئاً فشيء، من خلال الممارسة الديمقراطية في كل نواحي الحياة، في المنزل والمدرسة والجامعه وفي العمل بالاضافه للعمل السياسي.

وقد نشر ديوي كتابه "الحرية والثقافة" عام (1939)، يستبعد فيه رفض للتعميم المطلق التي جاءت بها المذاهب الدينية التي تؤكد هذه القيم، وتنسب إليها مصدراً وسلطة خارج الطبيعة، إن الدين في الغالب محافظ للغاية في وجه نظر ديوي ولا يريد إعادة بناء متغير لكي يواجه ظروفاً جديدة.

ويعرّف ديوي من ناحية أخرى الخدمة التي أدّاها الدين في الماضي، والتي تتجلى في إحداث الوحدة، والإدارة المميزة، والتعاون في المجموعات الاجتماعية، وللدين مكانة في المستقبل، لو أنه استطاع أن يتعلم التخلي عن صنوف المطلق[1]، وينسلخ عن العادات والتقاليد، والحرص على الدنيا، وربط الرجال والنساء معاً في صداقة مشتركة، والعمل من أجل إصلاح الجنس البشري وتقدمة.

---

(1) لتوضيح المقصود بالمطلق هنا كل ما لا يقبل النقاش والمجادلة حولة في الأمور الحياتية والمعتقد، ويشكل قيداً على العقل ومانعاً للتطور.

إن مفهوم الله يمكن أن يبقى بناءاً على هذه الشروط، فالانتباه سيكون موجهاً نحو حاجات بشرية وطموحات من أجل مجتمع أفضل معيشة في هذه الدنيا. وقد كان ديوي باستمرار محبوباً من قبل القساوسة ورجال الدين، وكان له تأثير ملحوظ على فكر اللاهوتيين والليبراليين وفلاسفة الدين[1]. وقد قدم آراءه عن الدين بصورة كاملة في كتابة "الإيمان المشترك"[2].

لم تعد الديمقراطية تعني حكم الشعب بالشعب وللشعب، وحسب بل تطورت إلى مفاهيم وقيم شاملة، فقد أصبحت صياغة معدلة تؤكد التنظيم الاجتماعي للظروف الاقتصادية، ولابد أن تكون حرية التفكير والتعبير عن الرأي كاملة، ولابد أن تكون حرية الفعل غير مقيدة وتتفق مع الصالح العام، ويجب منع الأطفال من العمل المُضني. ولابد من مراعاة تشريع المصنع في حماية العمال، ولابد من الدفاع عن المفاوضة المشتركة عن طريق نقابات العمال بناءاً على قوانين العمل، والتأمين الاجتماعي ضد الشيخوخة، والمرض، والبطالة، وتوزيع الدخل بالتساوي، ويصبح التعليم في متناول الجميع، وإذا استطعنا أن نطلق على كل ذلك وغيره اسم "الديمقراطية"، فإننا ننظر إلى الديمقراطية على أنها قيمة سامية تتحقق عن طريق تفكير عملي، وتشمل المساواة بين البشر بدون تحفظ.

وهكذا نجد أنفسنا ونحن نعيش في الشرق الأوسط، ونقلب في صفحات تاريخنا القديم والحديث لنجد أننا بعيدين كل البُعد، عن تلك المفاهيم ولم تكرس من قبل مفكرينا وفلاسفتنا ومصلحينا أياً من تلك المفاهيم، وأكثر من ذلك كان هناك خنق لكل من حاول أن يشير لمثل تلك المفاهيم في العصور الماضيه.

---

(1) وليم كلي رايت "تاريخ الفلسفة المدنية"، المصدر السابق، ص523.
(2) J.Dewey and Tufts, "Ethics", (1932) ed., pp 280-287.

وكان مصير كل من نادى بتلك المبادئ القتل والتعذيب، وقد وجدنا مثالاً في المعتزلة أيام العصر العباسي الذهبي كيف أنه مجرد إعطاء فسحة بسيطة للعقل في التفكير بحرية استطاعت أن تنتج باقة من العلماء والمفكرين، الذين هم فخر الأمة واعتزازها ، إستطاعوا من نقل التراث الحضاري البشري من الشرق إلى الغرب وقدموا دعماً راسخاً لبناء الحضارة الإنسانية الحديثة.

وثانياً: لقد كان انتقال صناعة الورق من الصين إلى بغداد أيام العصر العباسي، ومنها إلى أوروبا عن طريق إسبانيا، الأثر الكبير في زيادة التدوين ونقل العلوم، وهنا نذكر مره سأل العالم الأمريكي المعروف توماس أديسون، ذلك المخترع الذي نوّر العالم بالمصباح الكهربائي، وغيرها من المخترعات، سأل تلاميذه في الجامعة: ما هو أهم اكتشاف في التاريخ الذي لعب دوراً أكبر في تطوير حياة الناس؟ وكانت الإجابة الصحيحة حسب اعتقادة والتي أجابها هو: إنه الورق.

فقد كان الإنسان يدوّن على الرّقيم الطيني، أو قصب البردى أو جلود الحيوانات المعرّضة للتلف، وعندما انتقلت إلى الورق، فإنها كانت طفرة كبيرة، شكّلت مرحلة جديدة من مراحل التطور العلمي للإنسان، بالإضافة لذلك فإن اكتشاف آلة الطباعة في أوروبا (فرنسا)، قد ساهم في سهولة نشر المعلومة، وبالتالي أصبح بإمكان أكبر عدد ممكن من المجتمع أن يطلع ويقرأ ويتثقف.

وكان ذلك عاملاً أساسياً في النهضة الأوروبية الحديثة من خلال شمول أعداداً كبيرة من المجتمع بالثقافة والتفاعل مع المنتجات العلمية والفكرية المختلفة، بدلاً من قُصورها على عدد محدود من الناس، كما كان الحال في الشرق في العصور المذكورة.

وهكذا بدأت تتسع الهوّه بين المشرق والمغرب، ووصلت إلى حد أن كلّ مجتمع كأنه يعيش في كوكب مختلف عن الآخر، وإلى أن جاء احتلال نابليون لمصر في بداية القرن التاسع عشر وبعدها، وأخذت البعثات الدراسية التي توالت من البلدان العربية والإسلامية في محاولة للتأسيس لنهضة فكرية حديثة، كل تلك العوامل ساهمت في التقليص من الفوارق. وهناك اكتشافات أخرى انتقلت من الصين الى أوروبا كانت مؤثرة في تطوير الحضارة الحديثة تلك هي إكتشاف البارود والمدفع الذي ساهم في تقليص الحروب والهمجيه. وكذلك التلقيح ضد الامراض الساريه كالطاعون والكوليرا والتي كانت بالأساس إكتشافاً صينياً.انتقل وتطور في أوروبا بعد فترة طويله.

ثالثاً: مارس الأوروبيين الملاحة البحرية بشكل واسع جداً في القرن السادس عشر، وكان ذلك ضمن موروثهم التاريخ فمنهم من كان في جنوب أوروبا، من أصل فينيقي أوشمالها من أصل أنكلو سكسوني، وكل تلك الأقوام كانت تعيش على سواحل البحار، وكانت تلك الحياة والممارسة قد اكسبتهم حالة من عدم الشعور بالخوف، وأصبحوا يولدون ويموتون دون أن يدخل في قاموس حياتهم شيء إسمه خوف، لأن البحر فيه من المخاطر والكوارث ما يجعل القدرة والموهبة في مجابهتها، والتعامل معها بعقلية متفتحة وأفق واسع.

بالإضافة إلى ذلك فإن الذي يصول ويجول في البحار والمحيطات يكتسب سعة في الأفق، ويصبح متفتح عقلياً، لتفسير الظواهر المحيطة به بعيداً عن الخرافات والشعوذة، (إن الإنسان الخائف يصبح لقمة سائغة للخرافات والشعوذة، ولا يستطيع أن يعمل عملاً ناجحاً ومُثمراً). وكان ذلك أمراً مضافاً للإسراع في عجلة التقدم، وبالتالي ظهرت النهضة الأوروبية الحديثة منذ منتصف القرن الخامس عشر، واستمرت في التصاعد إلى يومنا هذا. بينما بقي الشرق

الأوسط يواجه صراعاً عنيفاً بين المدينة والبداوة، وأصبحت المدينة تواجه هجمات الرعاة بين الحين والآخر، لتحقيق هدفهم في زيادة رقعة الرعي، وفي ممارسة التجارة والسيطرة على الطرق.

وهكذا بدأت عندنا ما يُعرف بصراع الحضارات، عندما أصبح الفارق كبيراً بين ما توصّلوا إليه من علم وتقنية، وما نحن عليه من حياة بدائية تتطلب المزيد من الإصلاح لتقريب تلك الفوارق، إن الزيادة في الثروة الناتجة عن الإنتاج النفطي لبعض البلدان العربية والشرق أوسطية، لا تكفي لوحدها من تقريب تلك الفوارق كما يظن البعض.

بل هناك سلسلة من الإصلاحات التربوية والثقافية، لابد من العمل الدؤوب من أجل التوصل إلى حلول لها لأن التقدم الحقيقي لا يشترى بالمال وحدة.

لقد أصبح واضحاً الآن أن مُشكلاتنا في البلدان النامية تتعلق في نمط التفكير والمفاهيم التي نحملها والناجمة عن الموروث التاريخي القديم، والذي يحتاج إلى تحديث جذري.

وهكذا ننهي هذا الجزء من البحث على أمل التواصل بهدف الكشف في المُسببات الأساسية وراء التخلّف ذي الخلفية التاريخية، ولكي نصل إلى المراحل الحديثة، وما سببته لنا من مشكلات معاصرة في المستقبل القريب إنشاء الله.

الى اللقاء في الجزء الثالث من البحث.

المصادر :-

(1) جواد علي"المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام" مطبعة المجمع العلمي العراقي، 12جزء بغداد(1965).الجزء الخامس.

(2) أدورد بروي ـــ تارخ الحضارات العام(القرون الوسطى) الجزء الثاني، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعه الثانيه(1986).

(3) كارل بروكلمان"تاريخ الشعوب الاسلاميه"ترجمة منير بعلبكي ونبيه أمين، الطبعه السابعه، دار العلم للملايين، بيروت (1977).

(4) هادي العلوي "محطات في التاريخ والتراث"، دار الطليعه الجديده.

(5) عبدالله خليفه"الاتجاهات المثاليه في الفلسفه العربيه الاسلاميه"الطبعه الاولى، الجزء الاول والثاني والثالث، المؤسسه العربيه للدراسات والنشر، بيروت(2005).

(6) دوزي"تاريخ الدولة الاسلاميه"طبع لندن، ترجمة فكتور شوون، القاهرة(1863).

(7) ادورد براون"تاريخ الادب في ايران"5 أجزاء ترجمة أحمد كمال الدين حلمي وآخرون، المجلس الاعلى للثقافه القاهرة(2005).

(8) طباطبا (محمد بن علي المعروف "بأبن الطقطقي) "الفخري في الادب السلطاني والدول الاسلاميه" القاهرة(1938).

(9) السير وليم موير "تاريخ الخلافه الاولى" حياة محمد وتاريخ الاسلام" (في اربعة اجزاء) الطبعه الرابعه(1982).

(10) طه حسين"الفتنه الكبرى"الجزء الاول والثاني، الطبعه السادسه، دار المعارف بمصر(1966).

(11) اليعقوبي (أبن واضح) "تاريخ اليعقوبي"، النجف الاشرف(1883).

(12) ابن ابي أصيبعه "عيون الابناء" في طبقات الاطباء"، طبعة بيروت(1965).

(13) الطبري (محمد بن جرير):"تاريخ الامم والملوك" القاهرة(1939) 4 أجزاء.

(14) هادي العلوي"الاغتيال السياسي في الاسلام"دار المدى للثقافه والنشر، سوريا، دمشق الطبعه الرابعه(2004).

(15) هادي العلوي"التعذيب في الاسلام"دار المدى للثقافه والنشر، دمشق(2004).

(16) ابن الاثير"الكامل في التاريخ"القاهرة (1938).

(17) البلاذري "فتوح البلدان وأنساب الاشراف"تحقيق محمد رضوان، الجامعه العربيه، القاهرة(1959).

(18) ابن عساكر"تهذيب تاريخ ابن عساكر"دار المسيرة، بيروت(1979).

(19) حسين مروة"نزعات مادية في الفلسفه العربيه الاسلاميه"الجزء الاول ،والثاني ،الطبعه الثالثه، دار الفارابي بيروت لبنان(1980).

(20) المسعودي"مروج الذهب" طبع باريس، 9 اجزاء(1861- 1877).

(21) أحمد فرج الله"نظرة حديثه لقضايا قديمه في التاريخ الاسلامي"بغداد(2004).

(22) فون كرومر"تاريخ الفرق الاسلامية"طبع لايبزج(1868).

(23) فون كرومر"الاثار التاريخية حضارة الممالك الاسلاميه"، طبع لايبزج(1873).

(24) فون كرومر"تاريخ وثقافة الشرق في عصر الخلفاء"مجلد عدد 21 (1875- 1877).

(25) دو خوين"ملاحظات حول قرامطه البحرين والفاطمين، لين (1886).

(26) نولدكه "تاريخ الشرق" الترجمه الانكليزيه، طبع لندن، وارنبور(1892).

(27) أخوان الصفا:"رسائل اخوان الصفا"القاهرة(1888).

(28) ستانلي لين بول"تاريخ الملوك والسلاطين والامراء"، ترجمة مكي طاهر، عباس اقبال الدار العربيه للموسوعات ، بيروت(2006).

(29) W.Rothstein "znasch-scha bustis Bericht uber der Tahiriden"oriental studies,Giessen,I,(1906).

(30) النوبختي(أبو الحسن محمد)"فرق الشيعه"القاهرة(1961).

(31) الثعالبي(أبو منصور)"الطائف المعارف"طبعه Delong ، القاهرة(1934).

(32) ابن خلكان"وفيات الاعيان"طبع دي سلان، الجزء الاول مصر(1858).

(33) دي ساس(سلفستر) شرح عقيدة الدروز"طبع باريس(1874).

(34) نظام الملك"سياستنامه"، طهران(1320هـ).

(35) أبن قتيبه(عبدالله بن مسلم)"عيون الاخبار"،مصر(1960).

(36) المظفر (محمد رضا)"عقائد الاماميه"،القاهرة(1961).

(37) أبن النديم (محمد بن اسحق)"الفهرست"مصر (1929).

(38) النويري(شهاب الدين احمد)"نهاية الارب في فنون الادب"القاهرة(1955).

(39) رينه دوسن "تاريخ النصريه ومذهبهم"طبع باريس(1900).

(40) برنـاردلويس"الحـشاشون"ترجمـه محمـد العـزب موسـى،مكتبة المدبولي،الطبعـه الثانيه،القاهرة(2006).

(41) H.steiner "المعتزلة أو ذوو التفكير الحر في الاسلام"طبع لايبزج(1865).

(42) بروناو(Brouno)"الخوارج"طبع ليدن(1884).

(43) حسين بن جمد العرش"بلوغ المرام"القاهرة(1939).

(44) التفتازاني"شرح عقائد النفسي"طبع مصر ،الجزء الاول(1936).

(45) حـسام محيـي الـدين الالوسـي"فلـسفه الكنـدي واراء القـدامى والمحـدثين فيه"بيروت(1985).

(46) محمد عابد الجابري"بنية العقل العربي"دراسة تحليليه نقديه لنظم المعرفه في الثقافه العربيه" ط7 مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت(2004).

(47) دوسون"تاريخ المغول من جنكيز خان الى تيمور لنك" المجلد الاول،القاهرة.

(48) عاطف العراقي"النزعة العقليه في فلسفة إبن رشد" القاهرة(1968).

(49) الغزالي(ابو حامد محمد)"احياء علوم الدين" القاهرة(1888).

(50) فؤاد عبد المعطي الصياد"المغول في التاريخ"الجزء الاول بيروت(1970).

(51) وليم كلي رايت"تاريخ الفلسفة الحديثه" ترجمه محمود سيد أحمد"المجلس الاعلى للثقافه،القاهرة (2005).

(52) فردريك كوبلستون"تاريخ الفلسفه الحديثه"ترجمه محمود سيد أحمد"المجلس الاعلى للثقافه،القاهرة(2005).

(53) Thomas Hobbes,"Latin works",edited by Molesworth,Vol-1,2.

(54) H.Hoffding History of Modern Philosophy . Vol . I .

(55) New Atlantis (in the works of Francis Bacon , edited by spedding Ellis and Health , Vol . III) . London ,

(56) طه حسين "في الشعر الجاهلي" دار المدى للثقافه والنشر، دمشق(2001).

(57) Thomas Hobbes "leviathan" several edapters,works edited by Molesworth.

(58) Dewey J , "Experience and Nature" .

(59) Dewey J,Ethics (with James H.Tn fts) (1932).

(60) محمد عابد الجابري "تكوين العقل العربي" الطبعه التاسعه، مركز دراسات الوحدة العربيه- بيروت(2006).

(61) ول ديورانت "قصة الحضارة" ترجمه محمد بدران، لجنة التأليف والترجمه والنشر جامع الدول العربيه 34 جزء.(جزء 13- 14)

(62) فون كرمر "تاريخ عقائد الاسلام المهمه الشائعه".

(63) الشهرستاني – محمد عبد الكريم "الملل والنحل" مطبعة حجازي، القاهرة(1949)ج1، ج2.

(64) جون ديوي "الديمقراطيه والتربيه" ترجمة متي عقراوي، وزكريا ميخائيل، لجنة التأليف والترجمه والنشر- وزارة المعارف- بغداد(1946).

(65) ياقوت الحموي "معجم البلدان" دار الكتب العلميه- بيروت- لبنان(2002) 7 أجزاء.

(66) "الموسوعة الفلسفية العربيه" رئيس التحرير معن زيادة، المجلد الاول، الطبعه الاولى(1986) معهد الانماء العربي دمشق- سوريا.

(67) جميل صليبا "تاريخ الفلسفه العربيه" دار الكتاب اللبناني- بيروت- الطبعه الثانيه(1973).

(68) آرنولد توينبي "مختصر دراسة التاريخ"- 4 أجزاء ترجمه فؤاد محمد شبل مراجعة محمد شفيق غربال لجنة الترجمه والتأليف والنشر- جامع الدول العربيه(1966) القاهرة.

(69) عبد الرحمن بدوي "مذاهب الاسلاميين" الجزء الاول المعتزلة والاشاعرة- دار العلم للملايين بيروت ط3 (1983).

(70) محمد عبد الرحمن مرحبا"من الفلسفه اليونانيه الى الفلسفه الاسلاميه"المجلد الاول- عويدات للنشر والطباعه، بيروت- لبنان(2000).

(71) أحمد صالح العلي "العراق في التاريخ" دار الحريه للنشر والطباعه بغداد(1983).

(72) عمر فروخ "تاريخ الادب العربي"ط2 دار العلم للملايين- بيروت- لبنان(1984).

(73) عبد الباقي سرور"رابعه العدويه والحياة الروحيه في الاسلام" القاهرة- مصر.

(74) الحسني(عبد الرزاق) "الصابئه قديماً وحديثاً"، القاهرة- مصر(1931).

(75) الزمخشري(محمود بن عمر بن محمد جاد الله أبو القاسم)"الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الاقاويل من وجوه التنزيل" مطبعة الاستقامه- بيروت(1947).

(76) حنا الفاخوري ـ خليل الحرّ "تاريخ الفلسفة العربية" الجزء الثاني دار دجلة ـ بيروت لبنان ـ الطبعه الثالثه (1993).

الكاتـــــب

حصل على شهادة الدكتوراه عام 1979 من جامعة مانجستر وقد عمل محاضراً في الجامعة لفترة قصيرة. ثم عاد إلى العراق وعمل في الصناعة ومحاضر خارجي في جامعة بغداد، تخرج على يده العديد من الطلبة. وعمل في مجال البحث والتطوير وأنجز العديد من البحوث العلمية الأصيلة نشرت في مجلات عالمية معروفة ولديه عدد من براءات الاختراع. وعمل الكثير من الدراسات المتخصصة في مجال الصناعات البتروكيمائية ومنها دراسات جدوى فنية واقتصادية تم الأخذ بالقسم منها لأغراض التطبيق العملي في بعض دول الخليج. أنجز العديد من المؤلفات منها دراسات في السيطرة النوعية في اليابان، والقواعد الأساسية لفعاليات البحث والتطوير وسبل نجاحها في البلدان النامية لصالح (NCCMD) في بغداد عام 1988. وأنجز أعمالاً استشارية عديدة في القطاع الصناعي العام والخاص. وكان عضواً بارزاً في جمعية الصباغين والملونين البريطانية في يوركشاير وعضواً استشارياً في العديد من الجمعيات والنقابات المهنية في العراق.

تفرغ منذ عام 2003 للدراسات الإنسانية ليضع بين أيديكم هذا الكتاب يحاول التقرب لفهم الظواهر التاريخية بمنظار علمي وموضوعي.

هذا الكتاب

قراءة جديدة بأسلوب علمي موضوعي ومركز لتاريخ تطور الفكر الرافديني خصوصا والشرق أوسطي عموماً، منذ النشأة الأولى لحضارة وادي الرافدين . لقد تعرض الكاتب الى موضوعات اجتماعية واقتصادية وسياسية كانت بمثابة بحث علمي هادف للوصول الى زيادة الفهم لما يعاني منه الانسان في الشرق الأدنى من احمال ثقيلة من خلال ما يحمله من موروث أثر الأحداث والتطورات التي حصلت في المنطقة .

وقد تضمن الجزء الاول من الكتاب التركيز في تفسير أسباب العنف السياسي والتسلط الفردي في الحكم ابتداءاً من النشأة الأولى لحضارة وادي الرافدين وصولاً الى عصر فجر الاسلام وإلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين ، بينما تضمن الجزء الثاني عصر الدولة الاموية والعصر العباسي الذهبي والى نهاية عصر المغول والتتار . وقد اتسمت تلك الفترة بأهمية بالغة جدا لتعرض الكاتب الى موضوعات فكرية وفلسفية في غاية الاهمية بالاضافة الى الاسباب الحقيقية التي تكمن وراء تجذر العنف السياسي في منطقة الشرق الاوسط عموما ، والعراق خاصة.
لقد استطاع الكاتب أن يتوصل الى استنتاجات وتوصيات في غاية الأهمية في مجال بناء استراتيجية مستقبلية ناجحة للعراق وللمنطقة من أجل اللحاق بركب الحضارة الحديثة من خلال زيادة الفهم لطبيعة العقل العراقي والعربي وأثر الموروث التاريخي في سلوك وعادات وتفكير الانسان في المنطقة خاصة ونحن نمر في ظرف عصيب ومخاضة تحول متميزة نحو مستقبل افضل .

الناشر







عمان ـ شارع الملك حسين ـ مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس : ٠٠٩٦٢ ٦ ٤٦٤٧٥٥٠ خلوي : ٠٠٩٦٢ ٧٩ ٥٢٦٥٧٦٧
ص ب : ٧١٢٧٧٣ عمان ١١١٧١ ـ الأردن
بغداد ـ شارع السعدون ـ عمارة فاطمة
تلفاكس: ٠٠٩٦٤ ١ ٨١٧٠٧٩٢ ٠٠٩٦٤ ٧٧٠٢١٥٢٧٥٥
خلوي: ٠٠٩٦٤ ٧٧٠٥٨٥٥٦٠٣ ٠٠٩٦٤ ٧٩٠٢٢٢٥٥٤٩
E-mail: dardjlah@yahoo.com

